

المفسّرون والتفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية



أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعرف على ما ذكره المفسّرون ـ بحسب مدارسهم المختلفة، وبحسب التسلسل التاريخي ـ من المعاني التي فُسّرت بها آيات القرآن الكريم ـ وبحسب الترتيب المصحفي ـ من خلال:

١. التعرف على معاني مفرداتها، وما تحتمله من معان.

٢. أو من خلال تراكيبها النحوية، وما تحتمله كذلك من المعاني.

٣. أو ما قد ترشد إليه علوم البلاغة من البيان والمعاني ونحوها من المعاني القرآنية.

وبذلك، فإنه يحاول استيعاب كل ما ذكره المفسّرون من الوجوه التي تحتملها كل لفظة أو آية قرآنية، من خلال تحليلها اللغوي، وبجوانبه المختلفة، بالإضافة إلى علاقة ذلك بما ورد في الأحاديث والآثار، أو بما يتبناه المفسّر من رؤية عقدية أو فقهية أو ثقافة علمية.

ولهذا اعتمدنا ما ورد في المصادر التفسيرية الكبرى للطوائف المختلفة، وفي العصور المختلفة ـ ابتداء من العصر الأول إلى هذا العصر ـ وقد انتقيناها من خلال الرجوع لكل التفاسير المعروفة، والتي رأينا أغلبها يكرر ما سبق ذكره، أو يختصر الكلام في الآيات الكريمة، ولذلك رأينا أن ما انتقيناه منها قد يغني عن غيرها.

وهذا الانتقاء مؤسّس على الاهتمام بطائفة المفسر، وعصره، وأسلوبه في تفسيره، ومدى اهتمام طائفته أو الأمّة به، ومدى توسعه في تناول المواضيع المختلفة، ولذلك استبعدنا التفاسير المختصرة جدا إلا تلك التي قد نرى من خلالها رؤية طائفة معينة.

وقد رتبنا التفاسير بحسب التسلسل الزمني، لنرى مدى تأثر بعضها ببعض، بالإضافة إلى التعرف على الجدل الحاصل بينها، فالكثير من التفاسير المتأخرة تتناول بالعرض أو النقد أو التفصيل التفاسير السابقة لها.

وأهم ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب ـ كما في السلسلة جميعا ـ هو تبسيط وتيسير الوصول إلى المعلومة من هذه المصادر التفسيرية، وذلك من خلال اعتماد المناهج الحديثة من التفكيك والترتيب وضم النظير إلى نظيره، ونحو ذلك.

المفسّرون

والتّفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

الجزء (٤)

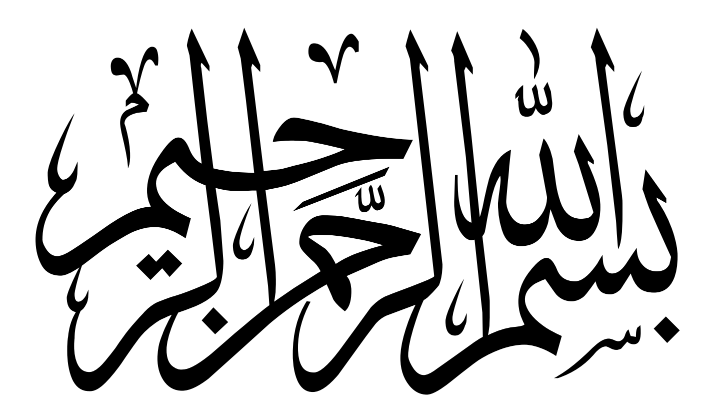
أ. د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

١٤٤٦ـ ٢٠٢٥

دار الأنوار للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

٢٠. بنو إسرائيل والنعم والبلاء

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٧ ـ ٥٢]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ بدل؛ البدل: الفدية[١].

٢. روي أنه قال: قالت الكهنة لفرعون: إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكك، فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل، وعلى كل مائة عشرا، وعلى كل عشر رجلا، فقال: انظروا كل امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حملها، فإن كان ذكرا فاذبحوه، وإن كانت أنثى فخلوا عنها، وذلك قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ الآية[٢].

٣. روي أنّه قال: قال لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم ذنوب حصان؛ فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وديق، فلما رآها الحصان تقحم خلفها، قال وعرف السامري جبريل؛ لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته

(١) ابن جرير: ١/٦٣٨.

(٢) ابن جرير: ١/٦٤٧.

في غار، وأطبقت عليه، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبنا، وفي الأخرى عسلا، وفي الأخرى سمنا، فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما عاينه في البحر عرفه، فقبض قبضة من أثر فرسه، قال أخذ من تحت الحافر قبضة، قال سفيان: فكان ابن مسعود يقرؤها: فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول)، قال أبو سعيد: قال عكرمة، عن ابن عباس أنّه قال: وألقي في روع السامري: أنك لا تلقيها على شيء فتقول: كن كذا وكذا، إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر وأغرق الله آل فرعون قال موسى لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومضى موسى لموعد ربه، قال وكان مع بني إسرائيل حلي من حلي آل فرعون قد تعوروه، فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه، قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه ـ وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا ـ، وقال: كن عجلا جسدا له خوار، فصار عجلا جسدا له خوار، وكان يدخل الريح في دبره ويخرج من فيه يسمع له صوت، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩١](١).

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بما أعطوا من الملك والرسل والكتب، على من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالما(٢).

٢. روي أنّه قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الآية: إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة، فقال له الكهنة: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل، فإذا ولدت امرأة غلاما أتي به فرعون فقتله، ويستحي الجواري(٣).

٣. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قال يعني: ذي القعدة وعشرا من ذي الحجة،

---

(١) ابن جرير: ١/٦٦٩.

(٢) ابن جرير: ١/٦٢٩.

(٣) ابن جرير: ١/٦٤٧.

وذلك حين خلف موسى أصحابه، واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليهم التوراة في الألواح، فقربه الرب نجيا وكلمه، وسمع صريف القلم، وبلغنا: أنه لم يحدث حدثا في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور[1].

٤. روي أنه قال: إنما سمي: العجل؛ لأنهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى[2].

٥. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، يعني: من بعد ما اتخذتم العجل[3].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: أن هرقل كتب إلى معاوية، وقال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه، قال وكتب إليه يسأله عن المجرة، وعن القوس، وعن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة، قال فلما أتى معاوية الكتاب والرسول، قال إن هذا شيء ما كنت أؤبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا، من لهذا؟ قالوا: ابن عباس، فطوى معاوية كتاب هرقل، فبعث به إلى ابن عباس، فكتب إليه: إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب السماء الذي تشق منه، وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل[4].

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنّه قال: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، يعني: لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئا[5].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ نعمة الله التي أنعم على بني إسرائيل فيما سمي، وفيما سوى ذلك؛ فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من

---

(١) ابن جرير: ١/٦٦٧.

(٢) ابن جرير: ١/٦٧٤.

(٣) ابن جرير: ١/٦٧٥.

(٤) الطبراني: ١٠٥٩١.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/١٠٤.

عبودية آل فرعون[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على من هم بين ظهرانيهم[2].

٣. روي أنّه قال: لقد ذكر أنه كان ليأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار، ثم يصف بعضه إلى بعض، ثم يؤتى بالحبالى من بني إسرائيل، فيوقفن عليه، فيحز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن لتمصع بولدها، فيقع من بين رجليها، فتظل تطؤه تتقي به حد القصب عن رجلها لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك، وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس، وقطعت النسل، وإنهم خولك وعمالك، فأمر أن يقتل الغلمان عاما، ويستحيوا عاما، فولد هارون في السنة التي يستحيا فيها الغلمان، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة من ربكم عظيمة[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، قال العجل: حسيل البقرة، قال حلي استعاروه من آل فرعون، فقال لهم هارون: أخرجوه، فتطهروا منه وأحرقوه، وكان السامري قد أخذ قبضة من أثر فرس جبريل، فطرحه فيه، فانسبك، وكان له كالجوف تهوي فيه الرياح[5].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أصحاب العجل[6].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾، فقال: يوم القيامة يوم لا ينفع فيه شفاعة شافع أحدا[7].

---

(١) الدرّ المنثور: عبد بن حميد.

(٢) تفسير مجاهد: ص٢٠١.

(٣) ابن جرير: ٦٤٩/١.

(٤) ابن جرير: ٦٥٣/١.

(٥) ابن جرير: ٦٧٤/١.

(٦) ابن أبي حاتم: ١٠٨/١.

(٧) ابن أبي حاتم: ١٠٥/١.

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يوم القيامة[1].

٣. روي أنّه قال: اسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه: يهبوث[2].

الباقر:

قال الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) يوصي بعض أصحابه: بلّغ من لقيت من موالينا السّلام وقل لهم: إنّي أقول: إنّي لا أغني عنهم من الله شيئا إلّا بورع، فاحفظوا ألسنتكم، وكفّوا أيديكم، وعليكم بالصبر والصّلاة إنّ الله مع الصابرين[3].

ابن منبّه:

روي عن وهب بن منبّه (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كانوا أصنافا في أعمال فرعون، فذوو القوة ينحتون السواري من الجبال، حتى قرحت أعناقهم وأيديهم، ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون الحجارة، وطائفة يبنون له القصور، وطائفة منهم يضربون اللبن، ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج ضريبة يؤدونها كل يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته غلت يمينه إلى عنقه شهرا، والنساء يغزلن الكتان وينسجن[4].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فضلوا على العالم الذي كانوا فيه، ولكل زمان عالم[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، يعني: عالمي ذلك الزمان، يعني: أجدادهم من غير بنى إسرائيل[6].

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٠٥.

(٢) ابن أبي حاتم: ٥/١٥٧١.

(٣) السرائر: ص٤٨٣.

(٤) تفسير البغوي: ١/٩١.

(٥) عبد الرزاق: ١/٤٤ ـ ٤٥.

(٦) تفسير مقاتل: ١/١٠٣.

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ لو جاءت بكل شيء لم يقبل منها[١].

٤. روي أنّه قال: كان مع موسى ستمائة ألف، وأتبعه فرعون على ألف ألف ومائة ألف حصان[٢].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ إي والله، أفرق البحر بهم حتى صار طريقا يبسا يمشون فيه، فأنجاهم، وأغرق آل فرعون عدوهم، نعم من الله، يعرفهم لكيما يشكروا ويعرفوا حقه[٣].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ معناه لا تغني عنها شيئا[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ﴾ معناه فدية.. وعدل الشيء أيضا: مثله.. وكذلك عدله[٥].

٣. روي أنّه قال: ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ فآل: أهل دينه.. وآل الرّجل: قومه وعترته[٦].

٤. روي أنّه قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي ينالونكم به.. والسّوء: أشد[٧].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ معناه اختبار.. والبلاء: يكون شرا، ويكون نعمة.. وهما ضد[٨].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: جعلهم في الأعمال القذرة، وجعل يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم[٩].

---

(١) ابن جرير: ١/٦٣٨.

(٢) عبد الرزاق: ١/٤٥.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٠٧.

(٤) تفسير الإمام زيد، ص ٩٠.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ٩٠.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٨) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٩) ابن جرير: ١/٦٤٥.

٢. روي أنّه قال: كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والعافة والقافة والحازة، فسألهم عن رؤياه، فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه ـ يعنون: بيت المقدس ـ رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم؛ فذلك حين يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: تجبر في الأرض، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ يعني: بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون، فكلموه، فقالوا: إن هؤلاء قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم، فلا تبلغ الصغار، وتفنى الكبار، فلو أنك كنت تبقي من أولادهم، فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد هارون فترك، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى[(١)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أما البلاء فالنعمة[(٢)].

٤. روي أنّه قال: جعلهم في الأعمال القذرة، وجعل يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم[(٣)].

٥. روي أنّه قال: كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والعافة والقافة والحازة، فسألهم عن رؤياه، فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه ـ يعنون: بيت المقدس ـ رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم،

---

(١) ابن جرير: ١/٦٤٨.

(٢) ابن جرير: ١/٦٥٣.

(٣) ابن جرير: ١/٦٤٥.

واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم؛ فذلك حين يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: تجبر في الأرض، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ يعني: بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون، فكلموه، فقالوا: إن هؤلاء قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم، فلا تبلغ الصغار، وتفنى الكبار، فلو أنك كنت تبقي من أولادهم، فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد هارون فترك، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى(١).

٦. روي أنّه قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أما البلاء فالنعمة(٢).

٧. روي أنه قال: لما أتى موسى البحر كناه: أبا خالد، وضربه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، فدخلت بنو إسرائيل، وكان في البحر اثنا عشر طريقا، في كل طريق سبط(٣).

٨. روي أنّه قال: أن موسى إنما سمي بذلك لأن أمه لما جعلته في التابوت حين خافت عليه من فرعون، وألقته في اليم كما أوحى الله إليها، دفعته أمواج اليم، حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت، فأخذنه، فسمي باسم المكان الذي أصيب فيه، وكان ذلك المكان فيه ماء وشجر، فقيل: موسى؛ ماء وشجر(٤).

٩. روي أنّه قال: لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ـ يعني: من أرض مصر ـ أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط، فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وغرق آل فرعون أتى جبريل إلى موسى يذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري، فأنكره، وقال: إنه فرس الحياة، فقال حين رآه: إن لهذا لشأنا، فأخذ من تربة الحافر حافر الفرس، فانطلق

---

(١) ابن جرير: ١/٦٤٨.

(٢) ابن جرير: ١/٦٥٣.

(٣) ابن جرير: ١/٦٥٤.

(٤) ابن جرير: ١/٦٦٦.

موسى، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، وأتمها الله بعشر، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلي القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعا، واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها، وإلا كان شيئا لم تأكلوه، فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة، فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلا جسدا له خوار، وعدت بنو إسرائيل موعد موسى، فعدوا الليلة يوما واليوم يوما، فلما كان تمام العشرين خرج لهم العجل، فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، يقول: ترك موسى إلهه ههنا، وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ [طه: ٩٠]، يقول: إنما ابتليتم به، يقول: بالعجل، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى إلهه يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٥]، فأخبره خبرهم، قال موسى: يا رب، هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل، أرأيت الروح من نفخها فيه؟ قال الرب: أنا، قال رب، أنت إذا أضللتهم[1].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ ـ روي أنّه قال: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يسترقون نساءكم[2].

٢ ـ روي أنّه قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة عظيمة[3].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ ـ روي أنّه قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: اليهود بالمدينة، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أجدادكم، والنعمة عليهم حين أنجاهم من آل فرعون فأهلك عدوهم، والخير الذي أنزل عليهم في

---

(١) ابن جرير: ١/٦٧٠.

(٢) ابن جرير: ١/٦٥١.

(٣) ابن جرير: ١/٦٥٣.

أرض التيه، وأعطاهم التوراة[1].

٢. روي أنّه قال: ثم خوفهم، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾، يقول: لا تغني نفس كافرة ﴿عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ من المنفعة في الآخرة، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ يعني: من هذه النفس الكافرة ﴿شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[2].

٣. روي أنه قال: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، يعني: فداء، كفعل أهل الدنيا بعضهم من بعض[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ في حجور أمهاتهم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يعني: قتل البنين وترك البنات، قتل منهم فرعون ثمانية عشر طفلا مخافة أن يكون فيهم مولود يكون هلاكه في سببه[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، وذلك أنه فرق البحر يمينا وشمالا كالجبلين المتقابلين، كل واحد منهما على الآخر، وبينهما كوى من طريق إلى طريق، ينظر كل سبط إلى الآخر ليكون آنس لهم، ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من الغرق، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: أهل مصر، يعني: القبط ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أجدادهم، يعلمون أن ذلك حق، وكان ذلك من النعم[5].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ يعني: الميعاد ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يعني: ثلاثين من ذي القعدة، وعشر ليال من ذي الحجة، فكان الميعاد الجبل ليعطى التوراة[6].

٧. روي أنّه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: لكي ﴿تَشْكُرُونَ﴾ ربكم في هذه النعم، يعني: العفو[7].

٨. روي أنّه قال: كان موسى عليه السلام أخبر بني إسرائيل بمصر، فقال لهم: إذا خرجنا منها أتيناكم من الله تعالى بكتاب يبين لكم فيه ما تأتون وما تتقون، فلما فارقهم موسى مع السبعين، واستخلف هارون أخاه عليهم؛ اتخذوا العجل، فذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد انطلاق

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١٠٢.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١٠٣.

(٣) تفسير مقاتل: ١/١٠٣.

(٤) تفسير مقاتل: ١/١٠٣.

(٥) تفسير مقاتل: ١/١٠٣.

(٦) تفسير مقاتل: ١/١٠٤.

(٧) تفسير مقاتل: ١/١٠٧.

موسى إلى الجبل ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أن اسم فرعون موسى: الوليد بن مصعب[2].

٢. روي أنّه قال: كان فرعون يعذب بني إسرائيل، فيجعلهم خدما وخولا، وصنفهم في أعماله؛ فصنف يبنون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة من عمله فعليه الجزية، فسامهم كما قال الله تعالى: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾[3].

٣. روي أنّه قال: ذكر لي: أنه لما تقارب زمان موسى أتى منجمو فرعون وحزاته إليه، فقالوا له: تعلم أنا نجد في علمنا أن مولودا من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك، ويبدل دينك، فلما قالوا له ذلك أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان، وأمر بالنساء يستحيين، فجمع القوابل من نساء مملكته، فقال لهن: لا يسقطن على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلا قتلتنه، فكن يفعلن ذلك، وكان يذبح من فوق ذلك من الغلمان، ويأمر بالحبالى فيعذبن حتى يطرحن ما في بطونهن[4].

٤. روي أنّه قال: وعد الله موسى ـ حين أهلك فرعون وقومه، ونجاه وقومه ـ ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، تلقاه ربه فيها بما شاء، واستخلف موسى هارون على بني إسرائيل، وقال: إني متعجل إلى ربي، فاخلفني في قومي، ولا تتبع سبيل المفسدين، فخرج موسى إلى ربه متعجلا للقائه شوقا إليه، وأقام هارون في بني إسرائيل ومعه السامري يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به[5].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١٠٤.

(٢) ابن جرير: ١/٦٤٢.

(٣) ابن جرير: ١/٦٤٥.

(٤) ابن جرير: ١/٦٤٨.

(٥) ابن جرير: ١/٦٦٨.

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ لو أن لها ملء الأرض ذهبا لم يقبل منها؛ لم يؤخذ منها فداء، ولو جاءت بكل شيء لم يقبل منها[١].

٢. روي أنّه قال: لما أخذ عليهم فرعون الأرض إلى البحر قال لهم فرعون: قولوا لهم يدخلون البحر إن كانوا صادقين، فلما رآهم أصحاب موسى قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢]، فقال موسى للبحر: ألست تعلم أني رسول الله؟ قال بلى، قال وتعلم أن هؤلاء عباد من عباد الله أمرني أن آتي بهم؟ قال بلى، قال أتعلم أن هذا عدو الله؟ قال بلى، قال فانفرق لي طريقا ولمن معي، قال يا موسى، إنما أنا عبد مملوك، ليس لي أمر إلا أن يأمرني الله تعالى، فأوحى الله تعالى إلى البحر: إذا ضربك موسى بعصاه فانفرق، وأوحى إلى موسى أن يضرب البحر، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وقرأ قوله: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: ٢٤]: سهلا ليس فيه تعد، فانفرق اثنتي عشرة فرقة، فسلك كل سبط في طريق، قال فقالوا لفرعون: إنهم قد دخلوا البحر، قال ادخلوا عليهم، قال وجبريل في آخر بني إسرائيل يقول لهم: ليلحق آخركم أولكم، وفي أول آل فرعون يقول لهم: رويدا، يلحق آخركم أولكم، فجعل كل سبط في البحر يقولون للسبط الذين دخلوا قبلهم: قد هلكوا، فلما دخل ذلك قلوبهم أوحى الله تعالى إلى البحر، فجعل لهم قناطر ينظر هؤلاء إلى هؤلاء، حتى إذا خرج آخر هؤلاء ودخل آخر هؤلاء أمر الله البحر فأطبق على هؤلاء[٢].

٣. روي أنّه قال: لما أنجى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون، وأغرق فرعون ومن معه؛ قال موسى لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، قال لما خرج موسى، وأمر هارون بما أمره به، وخرج موسى متعجلا مسرورا إلى الله، قد عرف موسى أن المرء إذا نجح في حاجة سيده كان يسره أن يتعجل إليه، قال وكان حين خرجوا استعاروا حليا وثيابا من آل فرعون، فقال لهم هارون: إن هذه الثياب والحلي لا تحل لكم، فاجمعوا نارا، فألقوه فيها، فأحرقوه، قال فجمعوا نارا، قال وكان السامري قد نظر إلى أثر دابة جبريل، وكان جبريل على فرس أنثى، وكان السامري في قوم موسى، قال فنظر إلى أثره، فقبض منه قبضة، فيبست عليها يده، فلما ألقى قوم موسى الحلي في النار، وألقى السامري

---

(١) ابن جرير: ١/٦٣٨.

(٢) ابن جرير: ١/٦٦٣.

معهم القبضة؛ صور الله تعالى ذلك لهم عجلا ذهبا، فدخلته الريح، فكان له خوار، فقالوا: ما هذا؟ فقال السامري الخبيث: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٨ ـ ٩١]، قال حتى إذا أتى موسى الموعد، قال الله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٦][(١)].

ابن وهب:

روي عن عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) أنّه قال: سألت ابن زيد عن قول الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، قال عالم أهل ذلك الزمان، وقرأ قول الله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، قال هذه لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردة، وهم أبغض خلقه إليه، وقال لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال هذه لمن أطاعه، واتبع أمره ـ جل وعلا ـ، واجتنب محارمه[(٢)].

عيينة:

روي عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ أيادي الله عندكم وأيامه[(٣)].

٢. روي أنّه قال: على كل مسلم أن يشكر ربه تعالى؛ لأن الله قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٤)].

العسكري:

روي عن الإمام العسكري (ت ٢٦٠ هـ) أنه قال قال الله: واذكروا، يا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] أنجينا أسلافكم ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم الذين كانوا يدنون إليه بقرابته وبدينه ومذهبه ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يعذبونكم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ شدة العذاب، كانوا يحملونه عليكم، وكان من عذابهم الشديد أنه كان فرعون يكلفهم عمل البناء والطين، ويخاف أن يهربوا عن العمل، فأمر بتقييدهم،

---

(١) ابن جرير: ٦٧٣/١.

(٢) ابن جرير: ٦٣٠/١.

(٣) ابن جرير: ٥٩٩/١٣.

(٤) ابن أبي حاتم: ١٠٨/١.

فكانوا ينقلون ذلك الطين على السلالم إلى السطوح فربما سقط الواحد منهم فمات أو زمن ولا يحفلون بهم، إلى أن أوحى الله تعالى إلى موسى: قل لهم: لا يبتدئون عملا إلا بالصلاة على محمد وآله الطيبين ليخف عليهم، فكانوا يفعلون ذلك فيخفف عليهم، وأمر كل من سقط وزمن، ممن نسي الصلاة على محمد وآله، بأن يقولها على نفسه إن أمكنه ـ أي الصلاة على محمد وآله ـ أو يقال عليه إن لم يمكنه، فإنه يقوم ولا يضره ذلك، ففعلوها فسلموا[1].

ابن شداد:

روي عن عبد الله بن شداد (ت ٢٨٤ هـ) أنّه قال: حدثت: أنه لما دخل بنو إسرائيل البحر، فلم يبق منهم أحد؛ أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن ينفذ، فعرض له جبريل على فرس أنثى وديق، فقربها منه، فشمها الفحل، فلما شمها قدمها، فتقدم معها الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون فرعون قد دخل دخلوا معه، وجبريل أمامه، وهم يتبعون فرعون، وميكائيل على فرس من خلف القوم يشحذهم، يقول: الحقوا بصاحبكم، حتى إذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى وليس خلفه أحد؛ طبق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله تعالى وقدرته ما رأى، وعرف ذلته وخذلته نفسه: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠][2].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]

هذا تنبيه من الله عز وجل لبني إسرائيل، وتذكرة لنعمه عليهم، وإحسانه إليهم، وما من به فيهم، من البعثة إليهم موسى ـ صلوات الله عليه ـ نبيا مبشرا ومنقذا من الهلكة، بما جاء به من الأحكام، والدين والإيمان، وما أنقذهم به تبارك وتعالى ـ بإرسال موسى ـ من الكفر والنيران، وعبادة الأوثان، مع تفضل الله عليهم،

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري، ص٢٤٢/١٢٠.

(٢) ابن جرير: ١/٦٥٦.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٨.

وتخليصه لهم من الذل والهوان، والقلة والصغار، من فرعون اللعين، من بعد أن كان يقتل أبناءهم، ويستحيي نسائهم، ويسترق رجالهم.

٢. ثم أنقذهم تبارك وتعالى منه عند تبعه لهم، وحنقه عليهم، وطلبه إياهم، وعزمه على إهلاكهم، ففلق الله لهم البحر، فمروا فيه وهم آمنون، ومن كيد فرعون عدو الله وعدوهم مطمئنون، وأنقذهم مما يحاذرون، وأغرق سبحانه آل فرعون، وهم ينظرون.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل وجوها:

أ. يحتمل: ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بمحمد ﷺ، وذلك أن الناس كانوا على فترة من الرسل، وانقطاع من الوحي، واختلاف من الأديان والمذاهب؛ فبعث الله ـ تعالى ـ محمدا ﷺ؛ ليجمعهم ويدعوهم إلى دين الله، ويؤلف بينهم، ويخرجهم من الحيرة والتيه، وذلك من أعظم نعمة أنعمها عليهم، وبالله التوفيق، وذلك أيضا يحتمل فيما تقدم من الآيات:

أ. كقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠]

ب. وقوله: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١] يعني: محمدا ﷺ.

ج. وعهده في الأرض رسوله، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] أي عهدي.

د. وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١] يعني: بمحمد ﷺ.

هـ. وقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢] يعني: محمدا ﷺ.

و. وكذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]

أمكن تخريج هذه الآيات كلها على محمد ﷺ.

ب. يحتمل أيضا قوله: ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ الوجوه التي ذكرنا:

• أحدها: أن جعل منكم الأنبياء والملوك؛ كقوله: ﴿وإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ

(١) تأويلات أهل السنة: ١/٤٥٢.

اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾ [المائدة: ٢٠]، كما قيل: إن كل نبيّ من لدن يعقوب إلى زمن عيسى عليه السلام كان من بنى إسرائيل.

• ويحتمل: ما آتاهم ـ عزّ وجل ـ من أنواع النعم ما لم يؤت أحدا من العالمين؛ كقوله: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] من المن، والسلوى، وتظليل الغمام، وامتداد اللباس على قدر القامة والطول، كما قيل: إن ثيابهم كانت تزداد وتمتد عليهم على قدر ما تزداد قامتهم، وكانت لا تبلى عليهم ولا تتوسخ، وذلك مما لم يؤت أحدا سواهم.

• ويحتمل أيضا قوله: ﴿نِعْمَتِي﴾ أي النجاة من فرعون وآله؛ كقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قيل: فضّلوا على جميع من على وجه الأرض؛ على الدوابّ بالجوهر، وعلى الجن بالرسل، وعلى البشر بالإيمان.

ب. وقيل: ويحتمل ذلك وجوها أيضا:

• بعث الأنبياء منهم.

• والنجاة من أيدى العدو.

• وإهلاك العدو وهم يرونه.

• وفرق البحر بهم، والنجاة منه، وإهلاك العدو فيه، وذلك من أعظم النعم: أن ترى عدوّك في الهلاك وأنت بمعزل منه آمن.

ج. يحتمل: فضّل أوائلهم.

٣. في الآية وجهان على المعتزلة:

أ. أحدهما: قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وعندهم: أن جميع ما فعل مما عليه الفعل، ولو فعل غيره لكان يكون به جائزا، فإذا كان تركه بفعله جائزا ففعله حق عليه.. ولا أحد يكون بفعل ما لا يجوز له الترك منعما على أحد؛ فثبت أن كان ثمّ منه معنى زائد خصهم به، وأن ليس التخصيص محاباة كما زعمت المعتزلة، ولا ترك الإنعام بخل كما قالوا.

ب. الثاني: قوله: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فلو لم يكن منه إليهم فضل معنى، لم يكن لهم تفضيل على غيرهم؛ فثبت أن كان فيهم ذلك، ومن قول المعتزلة: أن ليس لله أن يخص أحدا بشيء إلا باستحقاق يفعله، وبذلك هم فضّلوا أنفسهم على العالمين، لا هو، فكيف يمنّ عليهم بذلك!؟ ولا قوة إلا بالله.. مع ما لا يخلو تفضيله إياهم على غيرهم من أن يكون لهم الفضل في الدين أولا، فإن لم يكن فليس ذلك بتفضيل، وإن كان ثبت أن ليس من الحق عليه التسوية بين الجميع في أسباب الدين.

٤. قوله عزّ وجل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ الآية ـ والله أعلم ـ كأنّها مؤخّرة في المعنى وإن كانت في الذكر مقدمة:

أ. لأنه قال ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، ثم ذكر الأفضال والمنن فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [البقرة: ٤٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].. ذكّرهم ـ عزّ وجل ـ عظيم نعمه ومننه عليهم؛ ليشكروا له، وليعرفوا أنها منّة، وأنه فضل منه.

ب. ثم حذّرهم ـ جل وعزّ ـ فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ الآية؛ ليكونوا على حذر؛ لئلا يصيبهم ما أصاب الأمم السالفة من الهلاك وأنواع العذاب بعد الأمن، والتوسع عليهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٤٣ ـ ٤٤]

٥. في الآية دليل لقول أبى حنيفة وأصحابه: إن الولد يصير مشتوما مقذوفا بشتم والديه؛ لما عيرهم ـ جل وعزّ ـ بصنع آبائهم:

أ. بقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١] وهم لم يتخذوا العجل، وإنما اتخذ ذلك آباؤهم.

ب. وكذلك ذكر ـ عزّ وجل ـ صنعه ومننه عليهم، من نحو النجاة من الغرق، وإخراجهم من أيدى العدو، وفرق البحر بهم، وإهلاك العدو، وإنما كان ذلك لآبائهم دونهم، لكن ذكّرهم ـ جل وعزّ ـ عظيم مننه على آبائهم؛ ليشكروا له على ذلك.

ج. وكذلك عيّرهم بصنيع آبائهم من اتخاذ العجل، وإظهار الظلم؛ ليكونوا على حذر من ذلك، والله أعلم.

٦. معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تؤدى نفس عن نفس شيئا؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ الآيات [عبس: ٣٤ ـ ٣٥]

٧. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ قيل فيه بوجهين:

أ. قيل: لا يكون لهم شفعاء يشفعون؛ كقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وكقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤].

ب. وقيل: لو كان لهم شفعاء لا تقبل شفاعتهم؛ كقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا يؤذن لهم بالشفاعة؛ كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٨. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ العدل: هو الفداء، إما من المال، وإما من النفس، وذلك أيضا يحتمل وجهين:

أ. يحتمل: ألا يكون لهم الفداء، على ما ذكرنا في الشفيع.

ب. ويحتمل: أن لو كان لا يقبل منهم؛ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

٩. الوجوه التي تخلص المرء في الدنيا إذا أصابته نكبة بثلاث: إما بفداء يفدى عنه ـ مالا أو نفسا ـ وإما بشفعاء يشفعون له، وإما بأنصار ينصرون له؛ فيتخلص من ذلك.. فقطع ـ عزّ وجل ـ عنهم جميع وجوه التخلص في الآخرة.

١٠. الآية نزلت ـ والله أعلم ـ في اليهود والنصارى، وهم كانوا يؤمنون بالبعث، والجنة، والنار؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، ولذلك ذكر اسم الفداء والشفيع، وما ذكر، وأما من لم يؤمن بالآخرة فلا معنى لذكر ذلك.

١١. قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: آل الرجل: شيعته؛ ولذلك قيل: آل رسول الله: قرابته.. وقيل: كل مؤمن فهو من آله، وعلى ذلك الأمر بالصلاة عليه وعلى جميع من آمن به.

١٢. قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ قيل فيه بوجهين:

أ. قيل: يقصدونكم أشد العذاب، وذلك يرجع إلى الاستعباد، والاستخدام بأنفسهم.

ب. وقيل: يسومونكم، يذيقونكم أشد العذاب، وذلك يرجع إلى ما يسوؤهم من تذبيح الأبناء وتقتيلهم، كقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩، إبراهيم: ٦] أي يقتلون أبناءكم.

١٣. قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يحتمل أيضا وجهين:

أ. يحتمل: يستحيون من الحياء، أي استحيوا قتل النساء، لما لا يخافهن.

ب. ويحتمل من الإحياء، أي تركوهن أحياء فلم يقتلوهن.

١٤. اختلف في معنى قوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾:

أ. قيل: البلاء ـ ممدود ـ هو النعمة، كأنه قال فيما ينجيكم من فرعون وآله نعمة عظيمة.

ب. وقيل: البلا ـ مقصور ـ هو الابتلاء والامتحان؛ كأنه قال في استعباده إياكم واستخدامه امتحان عظيم.

١٥. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ كان الوعد لهم وعدين:

أ. أحدهما: من الله ـ عزّ وجل ـ بصرف موسى إليهم مع التوراة، كقوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] أي صدقا.

ب. ووعد آخر، كان من موسى بانصرافه إليهم بالتوراة على رأس أربعين ليلة، كقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

١٦. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يحتمل:

أ. ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾: أي عبدتم؛ فاستوجبوا ذلك التعبير واللائمة بعبادة العجل لا باتخاذه نفسه.

ب. ويحتمل: اتخذتم العجل إلها؛ فاستوجبوا ذلك باتخاذهم إلها، كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨].. وهذا كان أقرب.

ج. وقيل: اتخذتم، أي صنعتم.

١٧. قوله: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ قيل في الظلم بوجوه:

أ. قيل: إن كل فعل يستوجب به الفاعل عقوبة فهو ظلم.

ب. وقيل: إن كل عمل لم يؤذن له فهو ظلم.. وهاهنا ـ حيث فعلوا ما لم يؤذن لهم ـ نسبهم إلى الظلم؛ لأنهم ظلموا أنفسهم.

ج. وقيل: إن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ فسموا بذلك لأنهم وضعوا الألوهية في غير موضعها، وهذا كأنه ـ والله أعلم ـ أقرب.

١٨. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآية ينقض على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يزعمون أن الله إذا علم من أحد أنّه يؤمن به في آخر عمره ـ وإن طال ـ أو يكون من نسله من يؤمن إلى آخر الأبد، لم يكن له أن يميته، ولا له أن يقطع نسله، فإذا كان على الله أن يبقيهم، ولا يقطع نسلهم، لم يكن للامتنان عليهم، ولا للإفضال وطلب الشكر منهم ـ معنى؛ إذ فعل ـ جل وعزّ ـ ما عليه أن يفعل، وكل من فعل ما عليه أن يفعل لم يكن فعله فعل امتنان، ولا فعل إفضال؛ لأنه ـ عزّ وجل ـ منّ عليهم بالعفو عنهم، حيث لم يستأصلهم، وتركهم حتى تناسلوا وتوالدوا، ثم وجه الإفضال والامتنان على هؤلاء ـ وإن كان ذلك العفو لآبائهم؛ لأنه لو أهلك آباءهم وقطع تناسلهم انقرضوا وتفانوا، ولم يتوالدوا؛ فالمنّة عليهم حصلت؛ لذلك طلبهم بالشكر له.. فإذا كان هذا ما وصفنا دلّ أن ليس على الله أن يفعل الأصلح لهم في الدين: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ واشْكُرُوا لِي ولا تَكْفُرُونِ﴾، ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾

١٩. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكى تشكروا، وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي لكى يوحدوا، وذلك يحتمل وجوها:

أ. يحتمل: أن يشهد خلقه كلّ أحد على وحدانيته، وكذلك يشكر خلقه كلّ أحد له.

ب. ويحتمل: عبادة الأخيار بوحدانيته، والشكر له بها أنعم وأفضل عليه، وذلك يرجع إلى من يعبد ويوحد.

ج. ويحتمل: أنه خلقهم؛ ليأمرهم بالعبادة، والشكر له، من احتمل منهم الأمر بذلك.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ): معنى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي ولا يؤخذ في ذلك اليوم قيمة عادلة، كما تؤخذ القيمة في هذه الدنيا[1]:.

الديلمي:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٤.

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تغني كما يقال: البقرة تجزي عن سبعة أي تغني، ويحتمل وجهاً آخر وهو معناه لا تقضي يقال: جزى الله فلاناً عني خيراً أي قضاه.

٢. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي لا شفاعة لأحد في إسقاط العقاب وتخفيف العذاب، وهذا دليل على من جوز إسقاطه.

٣. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ العدل بفتح العين الفدية، وبكسرها المثل.

٤. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني قومه ومن يؤول إليه أمره في نسب أو صحبة:

أ. قيل: إن اسم فرعون ذلك الملك بعينه.

ب. وقيل: اسم كل ملك من ملوك العمالقة مثل قيصر الروم وكسرى الفرس وأن اسم فرعون موسى الوليد بن مصعب.

٥. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يولونكم وقد قيل يجشمونكم الأعمال الشاقة.

٦. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ هو استفعال من الحياة لأنهم كانوا يذبحون الذكور، ويستبقون الإناث، وإنما كان استبقاء النساء من سوء العذاب لأنهم يستبقونهم للاسترقاق والخدمة والبذلة والمهنة فصار ذلك سوء العذاب لا الاستبقاء.

٧. اختلف في النساء:

أ. قيل: اسم ينطلق على الصغار والكبار.

ب. وقيل: بل ينطلق على الكبار دون الصغار.

٨. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: أنه فيما كانوا يفعلون بهم من سوء العذاب من ذبح الأبناء واستحياء النساء شدة وجهداً عظيماً.

ب. الثاني: في إنجائهم من آل فرعون الذين كانوا يفعلون ذلك بهم نعمة من ربهم عظيمة.

٩. أصل البلاء الاختبار بالخير والشر، وقد يكون الاختبار بالشر كما يكون بالخير كما قال عز

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٥١.

وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، غير أن الأكثر في الشر أن يقال: بلوته أبلوه بلا، وفي الخير ابتليته بلاء ومن ذلك قول زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا   وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

جمع بين المعنيين.

١٠. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما فصلنا، لأن الفرق يفصل بين شيئين فرق البحر اثني عشر طريقاً، وكان عدتهم ستمائة ألف وعشرون ألفاً لا يعد فيهم ابن العشرين لصغره، ولا ابن الستين لكبره، وكان على مقدمة فرعون هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف، وذلك قوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء]

ب. الثاني: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي ميزنا وأصل الفرق التمييز بين الشيئين والفرقة من الناس الطائفة المتميزة من غيرهم.

٢. سمي البحر بحراً لسعته وانبساطه ومنه يقال تبحر في العلم إذا اتسع، والبحيرة الناقة تشق أذنها شقاً واسعاً.

١١. ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وقد كان غرق معهم لأنه علم دخوله فيهم، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى فرق البحر حتى سلكوا فيه وانطباقه على آل فرعون.

١٢. أما موسى فاسم يجمع بين كلمتين وهو ماء وشجر و(مو) هو الماء، و(سا) هو الشجر، وإنما سمي بذلك لأن أمه خافت عليه فجعلته في التابوت وألقته في اليم كما أوحي إليها ألقاه بين أشجار عند بيت فرعون فخرجت جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه فسمي باسم المكان.

١٣. أما نسبه هو: موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله.

١٤. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني اتخذتموه إلهاً من بعد خروج موسى إلى الميقات واستخلف عليهم هارون، وسبب ذلك أن السامري كان من قوم يعبدون البقر، فكان حب ذلك في نفسه بعد إظهار الإسلام حتى فصل موسى إلى ربه وخلف هارون في بني إسرائيل، فقال لهم هارون: قد تحملتم

أوزاراً من زينة القوم يعني أمتعة وحلياً من زينة القوم فتطهروا منها فإنها نجس وأوقدوا ناراً فأمرهم بقذف ما كان معهم، ففعلوا فأقبل السامري إلى النار، ورمى فيها القبضة التي قبضها من أثر الرسول، فحسبوه قد رمى بالحلي، فلما فرغ الناس من رمي ما كان صاغ من حليهم عجلاً جسداً له خوار، وذلك أنه سوى فيه مخاريق تدخل فيه الريح فسمع له خوار ثم إنهم عكفوا على العجل يعبدونه فقال لهم هارون من قبل: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: معناه: لا تغني، كما يقال: البقرة تجزي عن سبعة أي تغني، وهو قول السدي.

ب. الثاني: معناه لا تقضي، ومنه قولهم جزى الله فلانا عني خيرا، أي قضاه، وهو قول المفضل.

٢. اختلف في معنى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾:

أ. قيل: معناه لا يجيء بشفيع تقبل شفاعته لعجزه عنه.

ب. وقيل: بل معناه، أن الشفيع لا يجيبه إلى الشفاعة له، وأنّه لو شفّع لشفع.

٣. قوله عزّ وجل: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: العدل بفتح العين: الفدية، وبكسر العين: المثل.

٤. قولهم: لا قبل الله منه صرفا، ولا عدلا، ففيه أربعة أقاويل:

أ. أحدها: أن الصرف العمل، والعدل الفدية، وهذا قول الحسن البصري.

ب. الثاني: أن الصرف الدية، والعدل رجل مكانه، وهذا قول الكلبي.

ج. الثالث: أن الصرف التطوع، والعدل الفريضة، وهذا قول الأصمعي.

د. الرابع: أن الصرف الحيلة، والعدل الفدية، وهذا قول أبي عبيدة.

٥. قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني من قوم فرعون، وآل الرّجل: هم الّذين تؤول أمورهم إليه، إما في نسب، أو في صحبة، واختلف في الآل والأهل على قولين:

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١١٧.

أ. أحدهما: أنهما سواء.

ب. الثاني: وهو قول الكسائي: أنه يقال: آل الرجل، إذا ذكر اسمه، فإن كني عنه قيل أهله، ولم يقل آله، كما يقال: أهل العلم، وأهل البصرة، ولا يقال: آل العلم، وآل البصرة.

٦. اختلف في فرعون:

أ. قيل: إنه ذلك الرجل بعينه.

ب. وقيل: إنه اسم كلّ ملك من ملوك العمالقة، مثل قيصر للروم، وكسرى للفرس، وأن اسم فرعون موسى: الوليد بن مصعب.

٧. في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: معناه يولونكم، من قولهم: سامه خطة خسف، إذا أولاه.

ب. الثاني: يجشّمونكم الأعمال الشّاقّة.

ج. الثالث: يزيدونكم على سوء العذاب، ومنه مساومة البيع، إنما هو أن يزيد البائع المشتري على ثمن، ويزيد المشتري على ثمن، وهذا قول المفضل.

٨. قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يستبقون، وهو استفعال من الحياة، لأنهم كانوا يذبّحون الذكور، ويستبقون الإناث.

٩. اختلف في اسم النساء:

أ. قيل: إنه ينطلق على الصغار، والكبار.

ب. وقيل: بل ينطلق على الكبار، وإنما سمّى الصغار نساء، على معنى أنهنّ يبقين، حتّى يصرن نساء.

١٠. إنما كان استبقاء النساء من سوء العذاب، لأنهم كانوا يستبقونهن للاسترقاق والخدمة، فصار ذلك هو سوء العذاب، لا الاستبقاء.

١١. في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أن فيما كانوا يفعلونه بهم: من سوء العذاب، وذبح الأبناء، واستحياء النساء شدة وجهدا عظيما.

ب. الثاني: أن في إنجائهم من آل فرعون، الذين كانوا يفعلون ذلك بهم نعمة من ربّهم عظيمة، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، والسدي.

١٢. أصل البلاء الاختبار في الخير والشر، كما قال عزّ وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] لأن الاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، غير أن الأكثر في الشر أن يقال: بلوته أبلوه بلاء، وفي الخير: أبليته أبليه إبلاء، ومن ذلك قول زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا   فأبلاهما خير البلاء الّذي يبلو

فجمع بين اللّغتين.

١٣. في قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: وإذ فصلنا بكم البحر، لأن الفرق: الفصل بين الشيئين، ففرق البحر اثني عشر طريقا، وكان عددهم ستمائة ألف وعشرين ألفا، لا يعدّ فيهم ابن عشرين لصغره ولا ابن ستين لكبره، وكان على مقدمة فرعون هامان في ألف ألف، وسبعمائة حصان، وذلك قوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣، ٥٤] وهذا قول السدي.

ب. الثاني: أن معناه: وإذ فرقنا بينكم وبين البحر، أي ميزنا، فأصل الفرق التمييز بين الشيئين، والفرقة من الناس: الطائفة المتميزة من غيرهم.

١٤. البحر سمّي بحرا لسعته وانبساطه، ومنه قولهم: تبحّر في العلم، إذا اتّسع فيه، والبحيرة: الناقة تشقّ أذنها شقّا واسعا.

١٥. قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ فحذف ذكر فرعون وإن غرق معهم، لأنه قد علم دخوله فيهم.

١٦. قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يعني إلى فرق البحر، حتى سلكوا فيه، وانطباقه على آل فرعون، حتى غرقوا فيه.

١٧. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني اتخذتموه إلها من بعد خروج موسى إلى الميقات، واستخلافه هارون عليهم.. اختلفوا: هل صار حيوانا لحما ودما أم لا:

أ. قال الحسن: انقلب حيوانا لحما ودما، ودافع من تابع الحسن على قوله هذا، بوجهين:

• أحدهما: أنه لما قال هذا إلهكم وإله موسى، فقد أبطل على نفسه أن يدّعي بذلك إعجاز الأنبياء، فجاز أن يصح ذلك منه امتحانا.

• الثاني: أن ذلك لا يجوز في غير زمان الأنبياء، ويجوز في زمان الأنبياء، لأنهم يظهرون إبطاله، وقد كان ذلك في زمان نبيّين.

ب. قال غيره: لا يجوز لأن ذلك من آيات الله عزّ وجل التي لا يظهرها إلّا لمعجزة نبيّ، وإنما جعل فيه خروقا تدخلها الرّيح، فيحدث فيه صوت كالخوار.

١٨. اختلفوا في تسميته عجلا:

أ. قال أبو العالية: لأنهم عجلوا، فاتخذوه إلها، قبل أن يأتيهم موسى.

ب. وقال غيره: بل سمّي بذلك، لأنه صار عجلا جسدا له خوار.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. اختلف في سبب تكرير الله تعالى نداءه لبني إسرائيل بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أ. لما كانت نعم الله هي الأصل فيما يجب فيه شكره وعبادته، احتيج الى تأكيدها. كما يقول القائل: اذهب اذهب: اعجل اعجل، وغير ذلك في الأمر المهم.

ب. التذكير الأول ورد مجملا، وجاء الثاني مفصلا، كأنه قال: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم فيما أنتم عليه من المنافع التي تتصرفون فيها، وتتمتعون بها، وإني فضلتكم على العالمين.

٢. دل هذا على قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، لأنها احدى الخصال التي ذكروا بها وجاءت عاطفة، فدلت على خصلة قبلها: اما مذكورة أو مقدرة.

٣. اختلف في سبب تفضيلهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾:

أ. قيل: بما أرسل الله فيهم من كثرة الرسل وانزل عليهم من الكتب.

ب. وقيل: بكثرة من جعل فيهم من الأنبياء، وما انزل الله عليهم من المن والسلوى الى غير ذلك من النعمة العظيمة من تغريق فرعون عدوهم، ونجاتهم من عذابه، وتكثير الآيات التي يخف معها

---

(١) تفسير الطوسي: ١/٢١٠.

الاستدلال، ويسهل بها كثرة المشاق، وهو قول اكثر أهل العلم كابي العالية، وغيره، ونظير هذه الآية قوله ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

٤. قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذكرهم الله تعالى من الآية ونعمه عندهم بقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فضلت اسلافكم، فنسب النعمة الى آبائهم وأسلافهم، لأنها نعمة عليهم منه، لأن مآثر الآباء مآثر الأبناء، والنعم عند الاباء نعم عند الأبناء لكون الأبناء من الآباء.

٥. اختلف في المراد بالعالمين في قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قال أكثر المفسرين: انه أراد الخصوص ومعناه عالمي زمانهم. ذهب اليه قتادة والحسن وابو الغالية ومجاهد وغيرهم.

ب. وقال بعضهم: إذا قلت فضل زيد على عمرو في الشجاعة لم يدل على انه أفضل منه على الإطلاق، ولا في جميع الخصال فعلى هذا يكون التخصيص في التفضيل لا في العالمين، وأمة نبينا محمد ﷺ أفضل من أولئك بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وعليه اجماع الامة، لأنهم اجمعوا على ان أمة محمد ﷺ أفضل من سائر الأمم كما ان محمداً ﷺ أفضل الأنبياء من ولد آدم عليه السلام.

٦. التفضيل، والترجيح، والتزييد، نظائر، والتفضيل نقيضه: التسوية. يقال: فضله وتنقصه على وجهة النقص ونقيض التزييد: التنقيص. يقال: فضل فضلا وأفضل إفضالا، وتفضل تفضلا واستفضل استفضالا، وتفاضلوا تفاضلا وفاضله مفاضلة.. وفضله تفضيلا، والمفضال: اسم المفاضلة، والفضيلة: الدرجة الرفيعة في الفضل، والتفضل: التوشح، ورجل فضل: متفضل، وامرأة متفضلة، وعليها ثوب فضل: إذا خالفت بين طرفيه على عاتقها فتتوشح به قال الشاعر: إذا تغرد فيه القينة الفضل)، وأفضل فلان على فلان: إذا أناله من خيره وفضله، واحسن اليه، وأفضل فلان من الطعام والأرض والخبز: إذا ترك منه شيئاً.. لغة أهل الحجاز: فضل يفضل ورجل مفضال: كثير المعروف والخير، والفضائل: واحدها فضيلة، وهي المحاسن، والفواضل: الأيادي الجميلة، وثوب المفضل: ثوب تخفف به المرأة في بيتها والجمع مفاضل، وامرأة مفضل: إذا كان عليها مفضل، واصل الباب: الزيادة، والإفضال، والإحسان، والانعام نظائر، ويقال فضله: إذا أعطاه الزيادة وفضله إذا حكم له بالزيادة.

٧. معنى قوله ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تقابل مكروهها بشيء يدرأه عنها، قال الله

تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال: اليوم تجزى ﴿كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾، والفرق بين المقابلة والمجازاة ان المقابلة قد تكون للمساواة فقط كمقابلة الكتاب بالكتاب، والمجازاة تكون في الشر بالشر والخير بالخير.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَجْزِي﴾:

أ. قيل: أي لا تغني، وهو قول السدي، كما تقول: البقرة تجزي عن سبعة وهي لغة أهل الحجاز، وبنو تميم تجزئ بالهمزة من أجزأه: والأول من جزت.

ب. قال الأخفش: لا تجزي منها أي لا يكون مكانها بدلا منها وأنكر عليهم ذلك لقوله: ﴿شَيْئًا﴾، وجعل الأخفش لا تجزي منها ﴿شَيْئًا﴾ في موضع المصدر كأنه يقول لا تجزي جزاء ولا تغني غناء، قال الرماني والأقرب ان تكون ﴿شَيْئًا﴾ في موضع حقاً كأنه قبل لا يؤدي عنها حقا وجب عليها.

ج. وقال بعضهم: ﴿لَا تَجْزِي﴾ بمعنى لا تقضي.

٩. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾: النصر والمعونة والتقوية نظائر، وضد النصر الخذلان. يقال: نصرته نصرا وانتصر انتصاراً، واستنصر استنصاراً، وتناصر تناصراً. قال صاحب العين: النصر عون المظلوم، وفي الحديث: انصر أخاك ظالماً ومظلوماً معناه ان كان مظلوماً فامنع منه الظلم، وان كان ظالماً فامنعه من الظلم وانهه، والأنصار: كالنصار وأنصار النبي ﷺ أعوانه وانتصر فلان: إذا انتقم من ظالمه، والنصير الناصر، والتنصر الدخول في النصرانية، والنصارى. منسوبون الى ناصرة، وهي موضع، ونصرت السماء إذا أمطرت. قال الشاعر:

إذا خرج الشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري ارض عامر

ونصرت الرجل: إذا أعطيته وانشد:

أبوك الذي اجدى عليّ بنصرة فاسكت عني بعده كل قائل

وأصل الباب المعونة.

١٠. النصرة قد تكون بالحجة وقد تكون بالغلبة، فالله عز وجل ينصر جميع المؤمنين بالحجة التي تؤيدهم، واما النصر بالغلبة فبحسب المصلحة.

١١. لا يدل وقع الغلبة لبعض المؤمنين على انه مسخوط عليه، كما انه ليس في تخلية الله بين الكفار

وبين الأنبياء دلالة على حال منكرة، وقد قتل الكفار كثيراً من الأنبياء ونالوا منهم بضروب من الأذى قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِّ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ لينصره الله معناه بالغلبة، واما ما يأخذ له بالحق من الباغي عليه، لينصر به من الله للمبغي عليه واقعة لا محالة والخذلان لا يكون الا للظالمين، لأن الله تعالى لا يخذل أولياءه واهل طاعته، قوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُّ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي بالمعونة التي توجب الغلبة، لأن الله تعالى يقدر على اعطائهم ما يغلبون به كل من نازعهم، ويستعلون على كل من ناوأهم.

١٢. حد النصرة: المعونة على كل من ظهرت منه عداوة، وقد تكون المعونة بالطاعة فلا تكون نصرة.

١٣. الفرق بين النصرة والتقوية ان التقوية قد تكون على صناعة والنصرة لا تكون الا مع منازعة.

١٤. اختلف في معنى قولهم: لا قبل الله منهم صرفا ولا عدلا):

أ. قال الحسن البصري: الصرف: العمل، والعدل: الفدية.

ب. قال الكلبي: الصرف: الفدية والعدل: الفريضة.

ج. قال ابو عبيدة: الصرف: الحيلة، والعدل: الفدية.

د. قال ابو مسلم: الصرف: التوبة والعدل: الفداء.

١٥. المجازاة والمكافأة والمقابلة نظائر. يقال: جزى يجزي جزاء، وجازاه مجازاة، وتجازوا تجازيا: قال صاحب العين: المجازاة: المكافأة بالإحسان احساناً وبالإساءة اساءة وفلان: ذو جزاء وذو غناء وتقول هذا الشيء يجزئ عن هذا بهمز وتليين وفي لغة يجزي أي يكفي واصل الباب مقابلة الشيء بالشيء.

١٦. قبول الشيء: تلقيه والأخذ به وضده الاعراض عنه ومن ثم قيل لتجاه القبلة قبالة، وقالوا: أقبلت المكواة الداء أي جعلتها قبالته.. والقبول والانقياد والطاعة والاجابة نظائر ونقيضها الامتناع يقال قبل قبولا، وأقبل إقبالا، وقابله مقابلة وتقابلوا تقابلا، واستقبله استقبالا، وتقبل تقبالا، وقبله تقبيلا وقبل نقيض بعد والقبل خلاف الدبر والقبل إقبالك على الشيء كأنك لا تريد غيره والقبل الطاقة تقول لا قبل لي أي لا طاقة لي، ومنه قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾﴾﴾ والقبل التلقاء تقول لقيته قبلا أي مواجهة وأصبت هذا من قبله أي من تلقائه أي من لدنه ومن عنده وقوله: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ

﴿قُبُلًا﴾ أي قبلا وفسر بعضهم عيانا، وكل جيل من الناس والجن والقبيلة من قبائل العرب معروفة والكرة يقال لها قبائل، وكل قطعة من الجلد قبيلة، وقبيلة الرأس كل فلقة قد قوبلت بالأخرى وكذلك قبائل العرب والقبال: زمام البغل. يقال: بغل مقبولة ومقبلة، والقبل رأس كل شيء مثل الجبل والاكمة وكثب الرمل، وقبالة كل شيء. ما كان مستقبله ومن الجيران مقابل ومدابر، وشاة مقابلة: إذا قطعت من اذنها قطعة وتركت معلقة من مقدم، وان كانت من خلف فهي مدابرة وإذا ضممت شيئاً الى شيء قلت قابلته والقابلة هي الليلة: المقبلة، وكذلك العام القابل والمقبل، والقابلة: التي تقبل الولد والقبول من الريح: الصبا لأنها تستقبل الدبور، وهي تستقبل القبلة من المشرق والقبول: ان تقبل العفو وغير ذلك، وهو اسم المصدر وأميت الفعل منه والقبول الاسم. تقول: أفعل هذا من ذي قبل أي من ذي استقبال، والقبلة معروفة والفعل منه التقبيل، والقبلة قبلة الصلاة والتقبل تقبل الشيء تقول: تقبل الله منك وعنك عملك، وتقول: تقبلت فلانا من فلان بقبول حسن ورجل مقابل في كرم وفي شرف من قبل أعمامه وأخواله، ورجل مقبل الشاب لم ير فيه اثر من الكبر، والقبيل والدبير: في الحبل فالقبيل القتل الاول الذي عليه العمامة، والدبير الفتل الاخر وبعضهم يقول القبيل في قوى الحبل كل قوة على وجهها الداخل قبيل والوجه الخارج: دبير وقد قرئ قبلا وقبلا فمن قرأ قبلًا أراد جمع قبيل ومن قرأ قَبلا أراد مقابلة والقبيل والكفيل واحد وقبيل القوم عريفهم، والباب المقابلة خلاف المدابرة.

١٧. يجوز ان يكون المخاطبون بذلك اليهود، لأنهم زعموا ان اباءهم الأنبياء وتشفع لهم واويسوا بقوله ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، وبقوله: ﴿لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ﴾.

١٨. الشفاعة: مأخوذة من الشفع الذي هو خلاف الوتر فكأنه سؤال من الشفيع. شفع: سؤال المشفوع له والشفاعة، والوسيلة والقربة والوصلة نظائر.. ويقال شفع شفاعة وتشفع تشفعاً، واستشفع استشفاعاً، وشفعه تشفيعاً والشفع من العدد: ما كان أزواجا تقول كان وتراً فشفعته باخر حتى صار شفعاً ومنه قوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال الشفع: يوم النحر، والوتر: يوم عرفه، وقال بعض المفسرين: الشفع: الحفاء يعني كثرة الخلق والوتر الله والشافع: الطالب لغيره والاسم الشفاعة والطالب: الشفيع والشافع والشفعة في الدار معروفة، وتقول فلان يشفع إليّ بالعداوة أي يعين عليّ ويعاديني وتقول شفعت الرجل: إذا صرت ثانيه وشفعت له: إذا كنت له شافعا، وإنما سميت شفعة الدار، لأن صاحبها يشفع ماله بها،

ويضمها الى ملكه واصل الباب: الزوج من العدد.

١٩. العدل، والحق، والانصاف: نظائر، والعدل: نقيض الجور يقال: عدلا عدل واعتدل اعتدالا، وتعادل تعادلا وتعدلا، وعادله معادلة، وعدله تعديلا والعدل المرضي من الناس. يقع على الواحد والجماعة والذكر والأنثى: فإذا قلت هم عدل قلت هما عدلان والعدل: الحكم بالحق يقال هو حكم عدل ذو معدلة في حكمه وعدل الشيء نظيره ومثله تقول عدلت بفلان فلانا اعدله، والعادل المشرك الذي يعدل بربه والعدل ان يعدل الشيء عن وجهه فيميله تقول: عدلته عن كذا وعدلت أنا عن الطريق والعديل الذي يعادلك في المحمل أو نحوه ما كان، وسمعت العرب تقول: اللهم لا عدل لك أي لا مثل لك، وفي الكفارة (عدل ذلك) أي مثله في العدل، لا بالنظير بعينه والعدل الفداء، لقوله: ﴿لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ﴾، وقيل ايضاً: ان العدل: الفريضة والصرف: النافلة، وقوله ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يشركون، وقيل لما يؤكل: معتدل إذا لم يكن فيه ضرر من حر أو برد، وتقول عدلته أي أقمته حتى اعتدل واستقام وعدلت فلانا عن طريقه والدابة عن طريقها: إذا عطفتها فانعدلت وانعدل الطريق، ويقولون الطريق يعدل الى مكان كذا وكذا. فإذا أراد الاعوجاج نفسه قال ينعدل في مكان كذا وكذا أي ينعوج، والاعتدال: الاستواء. فلان عدل حسن العدالة، واصل الباب العدل الذي هو الاستقامة، والعدل المذكور في الآية الفدية. روي ذلك عن النبي ﷺ وهو قول ابن عباس وأبي الغالية، وقال قوم هو بدل والفرق بين العِدل والعَدل ان العدل بالكسر المثل تقول عندي عدل جاريتك أي جارية مثلها. فإذا قلت عندي عَدل جاريتك يجوز ان يكون قيمتها من الثمن.

٢٠. إنما كان في استحياء النساء محنة عليهم، وبلوى لهم:

أ. قيل: لأنهم كثيراً يستعبدون، وينكحن على الاسترقاق، فهو على رجالهن أعظم من قتلهن.

ب. وقيل: إنهن كن يستبقين للإذلال، والاستبقاء، محنة، كما ان من أحيي: للتعذيب فحياته نقمة، ومن احيي للتلذيذ فحياته نعمة.

٢١. الأبناء جمع ابن، والمحذوف من الابن عند الأخفش الواو، لأنها أثقل وهي بالحذف اولى، وقال الزجاج: يجوز أن يكون المحذوف ياء وواوا وهما سيان ولا حجة في البنوة كما لا حجة في الفتوة. لقولهم فتيان قال وقد جاء حذف الياء، كما في يد. كقولهم يديت اليه يدا، وفي دم قال الشاعر:

فلو أنا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين

٢٢. القتل الذي هو فري الأوداج، أو نقض بنية الحياة يقدر الواحد منا عليه وأما الموت بتسكين الحركة الحيوانية، أو فعل ضد الحيوة عند من قال لها ضد، فلا يقدر عليه غير الله.

٢٣. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾:

أ. قيل: كان بذبح الأبناء واستحياء النساء.

ب. وقيل: باستعمالهم في الاعمال الشاقة، واستحياء النساء كان بان يستبقين، وقيل انه كان يفتش احياء النساء عما يلدن.

ج. وقيل: انهم كانوا يستحيون ان يلجوا على النساء في بيوتهن إذا انفردن عن الرجال صيانة لهم فعلى هذا يكون انعاما عليهن، وهذا بعيد من اقوال المفسرين.

٢٤. السبب في أن فرعون كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء ما ذكره السدي وغيره، أن فرعون رأى في منامه نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخربت مصر فدعا السحرة والكهنة والقافة. فسألهم عن رؤياه فقالوا: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منهـ يعنون بيت المقدس ـ رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل الا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا جارية الا تركت.

٢٥. ليس في الآية دلالة على سقوط القود عمن قتل غيره مكرها ولا القود على المكره ولا ان كان مختاراً غير مكره، فالقود عليه لأنه لم يجر لذلك ذكر.

٢٦. سؤال وإشكال: إذا كانوا نجوهم والله أنجاهم، ما المنكر أن يكون العاصي هو الذي عصى الله والله خلق معصيته؟ والجواب: لا يجب ذلك، الا ترى انه يقال قد ينجيني زيد فانجو، وان لم يكن فعل بلا خلاف، وكذلك إذا استنقذنا النبي ﷺ من الضلالة فخلصنا لا يجب ان يكون من فعل فعلنا.

٢٧. اخبار الله اليهود بهذه القصة على لسان رسوله من دلائل نبوته، لأن منشأه معروف وبعده عن مخالطة الكتابيين معلوم.

٢٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾:

أ. قيل: أي جعلناكم بين فرقيه تمرون في طريق يبس، كما قال تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ

يَبَسًا﴾، وقال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾

ب. وقال بعضهم في معنى فرقنا يعني بين الماء وبينكم أي فصلنا بينكم وبينه، حجزنا حيث مررتم فيه وهذا خلاف الظاهر، وخلاف ما بينه في الآيات الاخر التي وردت مفسرة لذلك، ومبنية لما ليس فيه اختلاف.

٢٩. ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وان لم يكن في ظاهره انه أغرق فرعون فهو دال عليه، وكأنه قال وأغرقنا آل فرعون معهم ـ وأنتم تنظرون ـ فاختصر لدلالة الكلام عليه، لأن الغرض مبني على إهلاك فرعون وقومه ونظيره قول القائل: دخل جيش الأمير البادية، فان الظاهر من ذلك ان الأمير معهم.

٣٠. معنى ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾: النجاة، والسلامة، والإسعاد، والتخلص نظائر، وضد النجاة الهلاك تقول: نجا ينجو نجاة، وأنجاه الله: إنجاء ونجاه تنجية، وانتجوا انتجاء واستنجى استنجاء، وتناجوا تناجياً. قال صاحب العين: نجا ينجو نجاة في السرعة فهو ناج: اي. سريع وناقة ناجية اي سريعة وتقول نجوت فلاناً اي استنكهته قال الشاعر:

نجوت مجالدا فوجدت منه كريح الكلب مات حديث عهد

ونجا بنو فلان إذا أحدثوا ذنباً أو غيره، والاستنجاء: التنظيف بمدر أو ماء، والنجاة هي النجوة من الأرض وهي التي لا يعلوها السيل. قال الشاعر:

فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشي بقرواح

والنجو: السحاب أول ما ينشأ وجمعه نجاء، والنجوة: ما خرج من البطن من ريح وغيرها، والنجو: استطلاق البطن يقال: نجا فلان نجوا والنجو: كلام بين اثنين كالسر والسار. تقول ناجيتهم فتناجوا بينهم، وكذلك انتجوا وهم جميعاً نجوى وكلامهم نجوى، وفلان نجّي فلان اي يناجيه دون غيره، قال الشاعر:

إني إذا ما القوم كانوا انجيه واضطرب القوم اضطراب

والنجا: ما ألقيته عن نفسك من ثياب أو سلخته عن الشاة. تقول: نجوت الجلد انجوه نجا إذا كشطته ونجوت العود اي اقتضبته وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نلقيك على نجوة.

٣١. أصل الباب: النجوة وهي الارتفاع، والفرق بين النجاة وبين التخلص ان التخلص قد يكون من تعقيد ليس بأذى وليس كذلك النجاة، لأنها لا تكون الا من مكروه وكل نجاة: نعمة ولا يقال: لمن لا خوف عليه نجا، لأنه لا يكون ناجياً الا مما يخاف مثله.

٣٢. قوله ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فالآل، والأهل، والقرابة، نظائر، وقيل اصل الآل الأهل، لأنه يصغر اهيل: وحكى الكسائي: اويل فزعموا انها أبدلت. كما قالوا: أيهات وهيهات، وكما قالوا ماء وأصلها ماه بدليل قولهم مويه في التصغير، وفي الجمع: أمواه ومياه.. وقيل: لا بل أصل على حياله: والفرق بين الآل والأهل ان الأهل أعم منه يقال أهل الكوفة ولا يقال آل الكوفة، ويقال أهل البلد ولا يقال آل البلد.. وآل فرعون: قومه واتباعه وقال صاحب العين: الآل كل شيء يؤول الى شيء: إذا رجع اليه تقول: طبخت العصير حتى آل الى كذا، واولى كلمة وعيد على وزن فعلى والآل: السراب وآل الرجل: قرابته واهل بيته، وآل البعير: ألواحه، وما أشرف من أقطار جسمه، وآل الخيمة عمدها، والآلة: شدة من شدائد الدهر، قالت الخنساء:

سأحمل نفسي على آلة اما عليها وإمّا لها

وآل الجبل: أطرافه، ونواحيه، وقال ابن دريد آل كل شيء: شخصه.. وآل الرجل: اهله، وقراباته. قال الشاعر:

ولا تبك ميتا بعد ميت اجنه عليّ وعباس وآل أبي بكر

والآلة: الحربة، وأصل الباب: الأول، وهو الرجوع. قال ابو عبيدة: سمعت أعرابياً فصيحاً يقول أهل مكة آل الله: فقلنا: ما تعني بذلك؟ قال أليسوا مسلمين، والمسلمون آل الله؟ قال وقال: ليس يجوز ان ينصب رجلا من المسلمين، فيقول آل فلان، وإنما يجوز ذلك للرئيس المتبع، وفي شبه مكة لأنها ام القرى.. ومثل فرعون في الضلال واتباع قومه له فان جاوزت هذا فان آل الرجل اهل بيته خاصة فقلنا له: ا فيقول لقبيلته آل فلان. قال لا إلا أهل بيته خاصة.

٣٣. فرعون اسم لملوك العمالقة كما قيل: قيصر لملك الروم، وكسرى: لملك الفرس، وخاقان: لملك الترك، والاخشاذ: لملك الفراعنة، وتبع: لملك التبابعة فهو على هذا بمعنى الصفة، لأنه يفيد فيه انه ملك العمالقة بنفس الصفة الجارية عليه وعلى غيره، وقيل: ان اسم فرعون مصعب بن الريان، وقال محمد ابن

إسحاق: هو الوليد بن مصعب.

٣٤. معنى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ اي يولونكم سوء العذاب.. يقال سامه خطة خسفاً: إذا أولاه ذلك. قال الشاعر: ان سيم خسفاً وجهه تربدا.. وقيل: يجشمونكم سوء العذاب، والسوم، والتجشم، والتجمل، نظائر.. يقال: سامه الشقة وجسّمه إياها وحمّله إياها بمعنى واحد.. يقال: سام، يسوم، سوما، وساومه، واستامه، استياما، وتساوموا تساوماً، وسوم تسويماً، والسوم سومك سلعة ومنه المساومة والاستيام، والسوم من سير الإبل، وهبوب الرياح إذا كان مستمراً في سكون. يقال: سامت الرياح، وسامت الإبل وهي تسوم سوما والسوام هي الغنم السائمة، واكثر ما يقال ذلك في الإبل خاصة، والسائمة تسوم الكلأ سوما: إذا داومت رعيه، والراعي يسيمها والمسيم الراعي، والسويم: العلامة على الجبل يقال: سوم فلان فرسه: إذا اعلم عليه بحريرة أو شيء يعرف به والسيما: في الأصل ياء وهاء وواو وهي العلامة التي يعرف بها الخير والشر في الإنسان ومنه قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ (و ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ وقوله: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ ويقال سيماء الخير وسمت فلانا سوء العذاب من المشقة.. وقال ابن دريد سام الرجل ماشيته يسومها سوماً إذا وعاها فالماشية سائمة والرجل مسيم ولم يقولوا سام خرج من القياس، وأصل الباب: السوم الذي هو إرسال الإبل في المرعى.

٣٥. ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (واليم العذاب) (و ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ نظائر، يقال: ساءه يسوءه وأساء اساءة. قال صاحب العين: السوء اسم العذاب الجامع للآفات والداء تقول: سؤت فلانا أسوءه مساءة ومسائية: وتقول أردت مساءتك ومسائتيك واسأت اليه في الصنع واستاء فلان من السوء. كقوله: اهتم من الهم وسؤت فلانا وسوأت له وجهه، وتقول لساء ما صنع والسيء والسيئة اسم الخطيئة والسوأى فعلى اسم للفعلة السيئة بمنزلة الحسنى وامرأة سوء قبيحة والسوءة السوأى للفعلة القبيحة يقال للرجل السوء، والسوأة الفرج لقوله: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ والسوأة كل عمل يشين، تقول سوءة لفلان، تعيبه لأنه ليس بخير والسوأة السؤى: المرأة المخالفة، وتقول في النكرة رجل سوء فإذا عرفته قلت: الرجل السوء لا تضيفه، وتقول عمل سوء وعمل السوء، ورجل صدق ولا تقول الرجل الصدق لأن الرجل ليس من الصدق، وكلما ذكر بسيء فهو السوء، ويكنى عن البرص بالسوء. كقوله: ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير برص، وتقول: الأخير في قول السَّوء ولا في قول السُّوء. فإذا فتحت السين فعلى ما وصفناه، وإذا

ضممته فمعناه لا تقل سوء، وأصل الباب: السوء من قولك: ساء يسوء سوءً، ثم كثر حتى صار علماً على الضر القبيح، فقالوا أساء يسيء اساءة. نقيض احسن يحسن إحسانا.

٣٦. ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: الذبح، والنحر، والشنق: نظائر والذبح: فري الأوداج: يقال ذبح ذبحا واستذبح استذباحا، وتذابحوا تذابحا، وذبح تذبيحاً وأصل الذبح الشق وذبحت المسك إذا فتقت عنه، فهو ذبيح ومذبوح والذبح: الشيء المذبوح لقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ والذباح والذبحة بفتح الباء وتسكينها، داء يصيب الإنسان في حلقه.. وتقول العرب: حي الله هذه الذبحة. اي هذه الطلعة، والذباح: الشقوق في الرجل أصله: ذباح في رجله، والذبح نور أحمر، وسعد الذابح: كوكب معروف من منازل القمر. قال صاحب العين: الذبح: قطع الحلقوم من باطن، وموضعه المذبح والمذبح السكين الذي يذبح به الذباح والذباح. نبات من الشجر قال الأعشى: انما قولك صاب وذبح)، وقال آخر: كان عيني فيها الصاب مذبوح) وأصل الباب الشق.

٣٧. قوله: ﴿يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ﴾ إنما قال نساءكم وهم كانوا لا يستبقون الأطفال من البنات تغليباً، لأنهم كانوا يستبقون الصغار والكبار كما يقال: أقبل الرجال وإن كان معهم صبيان، وقيل إن اسم النساء يقع على الكبار والصغار.. وقيل: انهم سمعوا بذلك على تقدير انهن يبقين حتى يصرن نساء، والمرأة والنساء والزوجات، نظائر، ولا واحد للنساء من لفظه، ويقال: الرجال والنساء على وجه النقيض. قال صاحب العين: النسوة، والنسوان، والنسين، كل ذلك مثل النساء.

٣٨. قوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء، والإحسان، والنعمة، نظائر في اللغة، وبلى، بلى بلىً فهو بال والبلاء لغة. قال الشاعر:

والمرء يبليه بلاء السربال   تناكر الليالي واختلاف الأحوال

والبلية الدابة التي كانت تشد في الجاهلية عند قبر صاحبها رأسها في الركبة حتى تموت، ومنها ما يعقر عند القبر حتى يموت وناقة بلو مثل نضو قد أبلاها السفر، والفعل من البلية. ابتليت وتقول: بلى الإنسان وابتلى، والبلاء على وجهين في الخير والشر، والله تعالى يبلي العبد بلاء حسناً، وبلاء سيئاً، وأبليت فلاناً عذراً أي بليت فيما بينه وبيني بما لا لوم علي بعده، والبلوى: هي البلية، والبلوى التجربة.. تقول بلوته بلوى، وأصل الباب التجربة، والبلاء: الامتحان الذي فيه انعام.. والبلاء: الامتحان الذي فيه انتقام،

فإذا أردت الانعام، قلت: أبليته بلاء حسناً.. وفي الاختيار: تقول بلوته بلاء. قال الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالخير والشر فتنة﴾، وقال في الانعام: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا وابلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع المعنين لأنه أراد: وأنعم عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده، وقال الأحنف: البلاء ثم الثناء، يعني الانعام، ثم الشكر.

٣٩. موضع ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يحتمل أمرين من الاعراب:

أ. أحدهما الاستئناف: فيكون موضعه رفعاً، كأنه قال يسومونكم من قبل ذلك سوء العذاب.

ب. الثاني: ـ أن يكون موضعه نصباً على الحال من آل فرعون، والعامل فيه نجيناكم.

٤٠. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ الفرق والفصل والقطع نظائر: والفرق يقتضي الجمع يقال فرق فرقا، وافرق المريض افراقا وافترق الشيء افتراقا، واستفرق استفراقا، وفرقه تفريقا، وتفارقوا تفارقا وتفرق تفرقا وفارقه مفارقة وانفرق انفراقا والفرق موضع المفرق من الرأس والفرق تفريق ما بين الشيئين والفرق فرجك ما بين شيئين تفرق بينهما فرقا، حتى يتفرقا ويفترقا، وتقول تفارق هؤلاء الصبحة أي فارق بعضهم بعضاً، وافترقوا وتقول: مشطت الماشطة كذا وكذا فرقا. أي كذا وكذا ضربا، والفرق طائفة من الناس. قال أعرابي لصبيان رآهم هؤلاء فرق سوء والفرق: الطائفة من كل شيء، ومن الماء، إذا انفرق بعضه عن بعض، وكل طائفة من ذلك فرق، وقوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ يعني الفرق من الماء، والفريق الطائفة من الناس، والفرقة: مصدر الافتراق، وهو احد ما خالف فيه مصادر افعل، والفرقان: اسم للقرآن.. وكل كتاب انزل الله وفرق به بين الحق والباطل فهو فرقان، وسمى الله تعالى التوراة فرقانا، وقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ كان يوم بدر ويوم احد فرق الله بين الحق والباطل، والفرق هو الفلق، والمفرق هو مكيال لأهل العراق والفرق: الخوف. تقول: رجل فروقة وامرأة فروقة والفعل فرق يفرق من كذا فرقا، وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ ـ مخفف ـ معناه أحكمناه كقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وتقول: مفرق ما بين الطرفين، وافرق فلان من مرضه افراقا إذا بريء ولا يكون الافراق إلا من مرض لا يصيب الإنسان إلا دفعة واحدة: نحو الجدري، والحصبة، وديك افرق: إذا انفرق عرفه، وتيس افرق: إذا تباعد طرفا قرنيه، ورجل فروقة وكذلك المرأة: مثل، نسابة وعلّامة، وجاء مصدر

فرقته تفرقة، والفرق الذي جاء في الحديث: ما أسكر الفرق. فالجرعة منه حرام، مكيال يعرف بالمدينة، وفرقة من الناس وجمعه فرق، واصل الفرق الفصل بين الشيئين.. والفريقة حلبة تطبخ بتمر للنفساء، وغيرها.

٤١. البحر يسمى بحراً وهو انبساطه وسعته ويقال استبحر فلان في العلم وتبحر لاستبحاره إذا اتسع فيه وتمكن منه، ويقال تبحر الراعي في رعي كثير. قال امية الصغير:

أنفق نصابك في نفل تبحره   من الأباطح واحبسها بخلدان

وتبحر فلان في الماء، ومن ذلك بحيرة طبرية وهي عشرة أميال في ستة أميال وقيل: هي علامة خروج الدجال إذا يبست، فلا يبقى منها قطرة ماء، وبحرت اذن الناقة بحراً إذا شققتها، وهي البحير وكانت العرب تفعل ذلك إذا أنتجت عشرة ابطن فلا تركب ولا ينتفع بظهرها. فنهى الله عن ذلك، والسائبة التي تسيب فلا ينتفع منها بظهر ولا لبن، والوصيلة في الغنم كانت إذا وضعت أنثى تركت وان وضعت ذكراً أكله الرجال، دون النساء، وان ماتت الأنثى الموضوعة اشتركوا في أكلها، وان ولد مع الميتة ذكر حي اتصلت به، كانت للرجال دون النساء، ويسمونها وصيلة، وقد قيل غير ذلك، والباحر الأحمق الذي لبس في حديثه إذا كلم بقي كالمبهوت، وبحراني منسوب الى البحرين ودم بحراني وباحر: إذا كان خالص الحمرة من دم الجوف، والعرب تسمي المالح والعذب بحراً إذا كثر ومنه قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ يعني المالح والعذب وأصل الباب الاتساع، والبحر: هو المجرى الواسع الكثير الماء، واما المالح: فهو الذي لا يرى حافتيه من في وسطه، لعظمه وكثرة مائه. فدجلة بحر بالإضافة الى الساقية، وليست بحراً بالإضافة الى جدة، وما جرى مجراها.

٤٢. ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الغرق: الرسوب في الماء ويشبه به الدين والبلوى والتغريق والتغويص والتغييب نظائر، والنجاة ضد الغرق كما انها ضد الهلاك. يقال غرق غرقا وأغرق في الامر إغراقا، وغرقه تغريقا وتغرق تغرقا، ورجل غرق وغريق.. وغرقت السيل واغرقته إذا بلغت به غاية المد في النفوس، والفرس إذا خالط، ثم سبقها: يقال اغترقها، والغرق من اللبن القليل. قال ابن دريد: غرق يغرق غرقا في الماء.. وغرق في الطيب، والمال، وأصله في الماء، وكثر فاستعمل في غيره، وكذلك غرق في الذنوب، وأغرق في الأمر يغرق إغراقا: إذا جاوز الحد فيه، وأصله من نزع السهم حتى يخرجه من كبد

القوس، واغرورقت عيناه: شرقت بدمعها، وجمع غريق: غرقى واصل الباب الغرق: الرسوب في الماء.

٤٣. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال المفسرون: وأنتم ترون ذلك وتعاينونه.. والنظر والبصر والرؤية نظائر في اللغة. يقال نظر ينظر نظراً، وانظر ينظر انظاراً، وانتظر انتظاراً، واستنظر استنظاراً، وتناظر تناظراً، وناظره. مناظرة.. قال صاحب العين: نظر ينظر نظراً ـ بتخفيف ـ المصدر، وتقول: نظرت الى كذا ـ من غير ذكر العين ـ ونظرت في الكتاب ونظرت في الأمر، وقول القائل انظر الى الله تعالى، ثم اليك معناه اني أتوقع فضل الله ثم فضلك، ويقال: نظرت بعلمي ويقال انظر الدهر اليهم أي اهلكهم قال الشاعر: نظر الدهر اليهم فابتهل.. والنظر: الاسم من نظر، وقوله: ﴿لا ينظر اليهم﴾ أي لا يرحمهم، والمنظور من الناس هو المرجو فضله. ينعت به السيد، والنظور: الذي لا يغفل عن النظر الى ما أهمه، والمناظرة ان تناظر أخاك في امر تنظر انت في ذلك وينظر هو فيه كيف تأتيانه، والمنظرة موضع في رأس جبل يكون فيه رقيب ينظر فيه الى العدو ويحرس أصحابه، والمنظرة منظرة الرجل إذا نظرت اليه أعجبك أو أساءك. تقول: انه لذو منظرة بلا مخبرة والمنظر مصدر كالنظر، والمنظر: الشيء الذي يعجب بالنظر اليه ويسرّ به. تقول: ان فلانا لفي منظر ومسمع وفي ري ومشبع أي فيما أحب النظر اليه، ونظار بمعنى انتظر في الامر، وناظر العين: النقطة السوداء الخالصة الصافية التي في جوف سوداء العين مما يرى انسان العين والنظير: نظيرك الذي هو مثلك.. والأنثى نظيرة، وجمعه نظائر في الكلام والإنشاء، ونظرته وانتظرته بمعنى واحد ويقول انظرني يا فلان أي استمع الي لقوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ وتقول: بعت فلانا فأنظرته. أي انسأته والاسم النظرة، ومنه قوله: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي فانتظار، واستنظر فلان ـ من النظرة ـ: إذا هو سأل.. والنظر توقع أمر تنتظره، وبفلان نظرة أي سوء هيئة وقوله: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي انتظرونا، واصل الباب كله الإقبال نحو الشيء بوجه من الوجوه، وقال قوم: إن النظر إذا كان معه الى، لا يحتمل الا الرؤية، وحملوا قوله ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ على ذلك وقالوا لا يحتمل التأمل، وذلك غلط، لأنهم يقولون: انما انظر الى الله ثم اليك بمعنى أتوقع فضل الله ثم فضلك، وقال الطريح ابن إسماعيل:

وإذا نظرت اليك من ملك ... والبحر دونك جرتني نعماء

وقال جميل بن معمر:

اني اليك لما وعدت لناظر ... نظر الفقير الى الغني الموسر

وقال آخر:

وجوه يوم بدر ناظرات الى الرحمان تأتي بالفلاح

وأتوا ب (الى) على معنى نظر الانتظار، والصحيح ان النظر لا يفيد الرؤية وإنما حقيقته تحديق الجارحة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته ولو أفاد الرؤية، لما جعل غاية لنفسه، الا تراهم يقولون: ما زلت انظر اليه ولا يقولون ما زلت أراه حتى رأيته، ولأنهم يثبتون النظر وينفون الرؤية يقولون: نظرت اليه فلم أره ولا يقولون رأيته فلم أره.

٤٤. تأويل الآية: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وأنتم مقبلون عليهم متوقعون له، وقال الفرّاء قد كانوا في شغل من ان ينظروا مستورين بما اكتنفهم من البحر من ان يروا فرعون وغرقه ولكنه كقولك: قد ضربت وأهلك ينظرون. فما أتوك، ولا أعانوك، ومعناه وهم قريب بمرأى ومسمع ومثله قوله: أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) وليس هاهنا رؤية، وإنما هو علم، لأن الرؤية تستعمل في مثل ذلك يقول القائل رأيت فرعون أعتى الخلق وأخبثه وهذا الذي ذكره الفرّاء محتمل مليح، غير انه مخالف لقول المفسرين كلهم فإنهم لا يختلفون أن اصحاب موسى رأوا انفراق البحر والتطام أمواجه بآل فرعون، حتى غرقوا فلا وجه للعدول عن الظاهر مع احتماله ولأنهم إذا عاينوا ذلك، كانوا أشد في قيام الحجة، وأعظم في ظهور الآية وذكر الزجاج وجهاً آخراً قال معناه وأنتم بإزائهم. كما يقول القائل: دور آل فلان الى دور آل فلان أي هي بإزائها، لأنها لا تبصر.

٤٥. (وإذ) معطوفة على الآيات المتقدمة، كأنه قال: واذكروا إذ وعدنا وبينا وجه الحسن فيه فالوعد، والعدة، والموعد والميعاد، نظائر، والوعد في الخير والوعيد في الشر يقال وعده: وعدا، وأوعده: ايعاداً، وواعده: مواعدة.. تواعدوا: تواعداً، واتعدوا: اتعاداً، وتوعدوا ـ في الشر خاصة ـ قال صاحب العين: الوعد والعدة مصدران ويكونان اسمين. فأما العدة فيجمع على العدات والوعد لا يجمع، والموعد: موضع التواعد، وهو الميعاد، ويكون الوعد مصدر وعدته، ويكون الموعد وقتاً للحين، والموعدة اسم العدة، والميعاد: لا يكون إلا وقتاً أو موضوعا، والوعيد من التهدد: أو عدته المكاره ويقال ايضاً: وعدته من الشر كقوله: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ووعد الفحل: إذا هم ان يصول، وأصل الباب: الوعد الذي هو الخبر بانه سيفعل بالمخبر به خيراً أو شراً وقال احمد ابن يحيى: تقول أوعدته، وتسكت أو تجيء

بالباء تقول: أوعدته بالشر ولا تقول أو عدته الشر.

٤٦. موسى اسم مركب من اسمين بالقبطية (فمو) هو الماء و(سى) شجر.. وسمي به، لأن التابوت الذي كان فيه موسى وجد عند الماء، والشجر وجدنه جواري آسية امرأة فرعون وقد خرجن ليغتسلن، فسمي بالمكان الذي وجد فيه وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله.

٤٧. قال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ولم يقل يوماً على عادة العرب في التاريخ بالليالي، لأن الأهلة تطلع فيها، واعتمادهم على الأهلة:

أ. قال الأخفش، وعد بإتمام أربعين ليلة، أو انقضاء أربعين ليلة كقولك: اليوم أربعون يوما مذ خرج فلان، واليوم يومان: أي تمام يومين.. قال الطبري: لا يجوز ما قاله الأخفش، لأنه خلاف ظاهر التلاوة وما جاءت به الرواية قال الرماني: في هذا غلط ظاهر ان الوعد لا يتصل وقوعه في الأربعين كلها إذا كان الوعد هو الاخبار الموعود بما فيه النفع، فلم يكن ذلك الخبر في طول تلك المدة فلا بد على ذلك ان يكون التقدير على ما قاله الأخفش أو على وعدناه اقامة أربعين ليلة للمناجاة أو غيبته أربعين ليلة عن قومه للمناجاة، وما أشبه ذلك من التقدير.

ب. وقال غيره: الأربعون كلها داخلة في الميعاد.

ج. قال ابو العالية: واعدنا موسى أربعين ليلة يعني ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة.

د. وقال غيره: ذا الحجة وعشراً من المحرم، وذلك حين خلف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزلت عليه التوراة في الألواح، وعن الربيع نحوه.

٤٨. اتخذ: افتعل ومنه تخذت. قال الله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وتخذت: لا يتعدى، إلا الى مفعول واحد، واتخذت تارة يتعدى الى مفعول واحد وتارة الى مفعولين فتعديه الى مفعول واحد. مثل قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ومثل قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ وتعديه الى مفعولين مثل قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وقوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ومن ادغم فلقرب مخرج الذال من مخرج التاء، ومن لم يدغم فلان مخرجهما متغاير.. (واتخذ) قال الرماني: وزنه افتعل وأصله يتخذ فقلبت الياء تاء وأدغمت في التاء التي بعدها وقال ابو علي

يتخذت وليس من أخذت، لان الهمزة لا تبدل من الياء ولا تبدل الياء منها، واتخذت لا تكون افتعلت من أخذت وتكون أبدلت الهمزة ياء ثم أدغمت في التاء كما قالوا يسر الجزور وهو من اليسر لأنه لا يجوز على قول أصحابنا لاختلاف الحرفين وفائدة الآية التعجب من قولهم إذ كانوا في مقدار هذه المدة اليسيرة لغيبة موسى عنهم اتخذوا العجل إلها وادغام الذال عند التاء جائز وتركه أيضاً كذلك جائز.

٤٩. انما قال ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ولم يقل أربعين يوماً، لتضمن الليالي الأيام على قول المبرد، ومعنى ذلك: انه إذا ذكرت الليالي دخلت فيها الأيام وليس إذا ذكرت الأيام دخلت الليالي فيها. هكذا هو الاستعمال، والصحيح ان العرب كانت تراعي في حسابها الشهور والأيام والأهلة، فأول الشهر الليالي ولذلك أرخت بالليالي وغلبتها على الأيام ولذلك صارت الأيام تابعة لليالي، واكتفى بذكر الليالي من الأيام، فقيل لعشر خلون، ولم يقولوا لعشرة لأنه جرى على ما جرى على الليالي.

٥٠. العجل والثور والبقرة نظائر. الا أن العجل هو البقرة الصغيرة ويقال: عجل وعجول، واشتقاقه من عجل يعجل عجلة وأعجله إعجالا، واستعجل استعجالا، وتعجل تعجلا، وعجل تعجيلا، وعاجلته معاجلة، وتعاجلوا تعاجلا، ورجل عَجِل وعَجُل لغتان، وتقول: استعجلت فلانا أي حثثته وأعجلت فلانا أعجله إعجالا وتعجلت خراجه أي كلفته ان يعجله ورجل عجلان وامرأة عجلى وقوم عجال ونسوة عجال، والعجال الإبل، والعجل عجل الثيران والواحدة عجلة ويجمع على الاعجال والعجالة ما تعجلت من شيء، والعجالة طعام الراكب الذي لا يحسن طبخه ويقال: هو تمر ولبن والعجلة الإدواة الصغيرة وهي المطهرة، والجمع العجال، والعاجلة: نقيض الآجلة يعني الدنيا والآخرة، والعاجل: نقيض الآجل عام في كل شيء تقول عاجل وآجل.. والعجل: ولد البقرة، وجمعه عجاجيل ويقال عجول، والأنثى: عجولة وقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يقال إن آدم عليه السلام حين بلغ الروح منه الى الركبتين همّ بالنهوض قبل ان تبلغ القدمين فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ وأورثنا آدم العجلة، والعجل الظنين: من غير الخليل والعجل خشب يؤلف شبه المحفة تجعل عليه الأثقال، وجمعه الاعجال، وصاحب عجال واصل الباب العجل الذي هو الاسراع، والعجلة والسرعة والخفة نظائر ونقيض العجلة التأني ونقيض السرعة: الإبطاء.. وسمي العجل عجلا مأخوذ من التعجيل لأن قصر المدة كالعجل في الشيء.. وقال ابو العالية: انما سمّي العجل عجلا، لأنهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى.

٥١. بعد: نقيض قبل تقول: كان هذا بعد هذا، وتقول: بعد بعدا. أو أبعده الله إبعاداً وتباعد تباعدا وباعده مباعدة، واستبعده استبعاداً، وبعده تبعيداً.. وتبعد تبعدا. قال صاحب العين: بعد لما يكون على اثر الشيء إذا كان قد مضى فإذا افردوا قالوا: هو من بعد: كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وتقول: بعداً وسحقا، ويقرأ: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وبعد بمعنى واحد.. والأبعد نقيض الأقرب، والجمع: اباعد وأقارب ويقرأ (بعِدت ثمود) و(بَعُدت ثمود) ومعناهما واحد إلا انهم يقولون: بعد الرجل وأبعده الله والبعد من اللعن يقول: أبعده الله أي لا يرثي له مما نزل به وقال ابن دريد: البعد: ضد القرب وبعد ضد قبل، وسمع ابو زيد العرب تقول: فلان غير بعيد وغير بعد واصل الباب البعد نقيض القرب.

٥٢. ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي اتخذتموه إلهاً لأن بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين، لأن فعل ذلك ليس بمحظور، وانما هو مكروه وما روي عن النبي ﷺ انه لعن المصورين معناه: من شبه الله بخلقه أو اعتقد فيه انه صورة فلذلك قدر الحذف في الآية، كأنه قال اتخذتموه إلهاً وذلك انهم عبدوا العجل بعد موسى لما قال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ اي ترك آلهم ومضى ناسيا، وقيل: بل معنى فنسي اي فترك ما يجب عليه من عبادة الله.

٥٣. اختلف هل صار العجل لحماً ودماً أم لا:

أ. قال الحسن: صار العجل لحماً ودماً.. ومن وافق الحسن قال ان القبضة من اثر الملك كان الله قد اجرى العادة بأنها إذا طرحت على اي صورة كانت حية، فليس ذلك بمعجزة إذ سبيل السامري فيه وسبيل غيره سواء، ومن لم يجز انقلابه حيا، فأوّل الخوار على ان السامري جعل فيه خروقا، فدخلها الريح فحدث فيه صوت كالخوار.

ب. وقال غيره: لا يجوز لأن ذلك من معجزات الأنبياء

٥٤. انما وصفوا بأنهم اتخذوا العجل إلها وهي صفة ذم لهم بما لم يفعلوا لرضاهم بما كان عليه أسلافهم، وسلوكهم طرائقهم في المخالفة لأمر الله، والذم على الحقيقة على أفعالهم فان كان اللفظ على أفعال أسلافهم فاخرج اللفظ مخرج من كأنهم فعلوا ذلك لسلوكهم تلك الطرق وعدولهم الى المخالفة. فالذم متعلق بما كان منهم في الحقيقة.

٥٥. إنما قال ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ يعني ظالمي أنفسهم إذا دخلوا عليها الضرر بما يستحقون على

عبادته من العقوبة والظلم، وقد يكون للنفس وقد يكون للغير.

٥٦. قيل في معنى ما وقع العفو عنهم بقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما ـ أنا تركنا معاجلتكم بالعقوبة من بعد اتخاذكم العجل إلهاً.

ب. والآخر ـ عفونا عنكم بقبول التوبة من عبادة العجل.

٥٧. العفو، والصفح، والمغفرة، والتجاوز، نظائر. فالمغفرة نقيض العقوبة، ويقال عفا عفواً وأعفاه اعفاء واستعفى استعفاء، وعفى تعفية وعافاه معافاة وتعفى تعفيا.. وتعافى تعافيا، واعتفاه اعتفاء، والعفو أحل المال وأطيبه، والعفو: المعروف.. والعفاة: طلاب المعروف، وهم المعتفون. تقول: اعتفيت فلانا إذا طلبت معروفه وفضله، والعافية من الطير والدواب طلاب الرزق. اسم جامع لها، ومنه قوله عليه السلام من غرس شجرة مثمرة فما أكلت العافية منها كتب له صدقة، والعافية دفاع الله عن العبد يقول عافاه الله من مكروه وهو يعافيه معافاة، والاستعفاء: ان تطلب الى من كلفك امرا ان يعفيك منه، وعفى الشيء: إذا كثروا عفيته: إذا اكثرته، قال تعالى ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾، ومنه اعفاء اللحية: إكثارها، وعفى: درس يقال أخذ من فلان ما عفا، وصفا، والعفا: التراب تقول: يعفيه العفا، وعليه العفا، والعفا الدروس قال زهير: على اثار ما ذهب العفاء.. ومنه عفت الديار، والريح تعفو الديار عفاء، وعفوا، وتعفت الدار والأثر تعفياً والعَفوة والعِفوة والعُفوة، والجمع العفو: وهي الحمر الأفتأ والفتيات، والعفاء. ما كثر من الوبر والريش وناقة ذات عفاء كثيرة الوبر طويلة والعفو: ولد الأتان الوحشية.. وأصل الباب: الترك، ومنه قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ من ترك له، وعفو الشيء صفوه ومعنى (لعلكم) في الآية لكي تشكروا وقيل: معناه التعريض كأنه قال عرضناكم للشكر.

٥٨. قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ـ وان كان اشارة الى الواحد ـ فمعناه الجمع.. وانما كان ذلك كذلك، لان ذا اسم مبهم فمرة يأتي على الأصل، ومرة يأتي على مشاكلة اللفظ. إذا كان لفظ المبهم على الواحد وان كان معناه الجمع على انه قد يخاطب بلفظ الواحد ويراد به الجمع كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ثم قال ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ .. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إشارة الى اتخاذهم العجل إلهاً.

٥٩. قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الشكر: هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، وقال الرماني: الشكر هو الاظهار للنعمة، والصحيح هو الاول لأنه قد يظهر النعمة من لا يكون شاكرا لها،

والفرق بين الشكر والمكافاة ان المكافأة من التكافؤ وهو التساوي، وليس كذلك الشكر ففي مكافأة النعمة دلالة على انه قد استوفى حقها، وقد يكون الشكر مقصرا عنها وان كان ليس على المنعم عليه اكثر منه الا انه كلما ازداد من الشكر، حسن له الازدياد وان لم يكن واجبا لأن الواجب لا يكون إلا متناهياً وذلك كالشكر لنعمة الله لو استكثرته غاية الاستكثار لم يكن لينتهي الى حد لا يجوز له الازدياد لعظم نعم الله عز وجل وصغر شكر العبد، ويقال: شكر شكرا، وشكورا، وتشكر تشكرا، والشكور: من الدواب ما يكفيه قليل العلف لسمنه، والشكر من الحيوانات: التي تصيب حظا من بقل أو مرعى فتغزر ليتها بعد قلة. يقال اشكر القوم: إذا انزلوا منزلا فأصابت نعمهم شيئاً من بقل، فدرت عليه، وانهم ليحلبون شكرة بجزم الكاف وقد شكرت الحلوبة شكرا: والشكير شعر ضعيف ينبت خلال الشيب، وكذلك ما ينبت من ساق الشجر قضبان غضة تخرج بين قضبان عاسية يقال له الشكر واشكر ضرع الناقة إذا امتلأ لبنا والشكر بضع المرأة، وأصل الباب: الظهور ولا يستحق الكافر الشكر على وجه الإجلال والانعام، والكافر لا يستحق كذلك وإنما يجب له مكافاة نعمته كما يجب قضاء دينه على وجه الخروج اليه من غير تعظيم له ويسمى ذلك شكرا والشكر لا يستحق الا على نعمة ومعنى قولنا في الله انه غفور شكور انه يجازي العبد على طاعاته من غير ان ينقصه شيئاً من حقه فجعل المجازاة على الطاعة شكرا في مجاز اللغة ولا يستحق الإنسان الشكر على نفسه لأنه لا يكون منعماً على نفسه كما لا يكون مقرضاً لنفسه والنعمة تقتضي منعماً غير المنعم عليه. كما أن القرض يقتضي مقترضا، غير المقرض، وقد يصح ان يحسن الى نفسه كما يصح أن يسيء إليها، لأن الإحسان من المحسن. فإذا فعل بها فعلا حسنا ينتفع به، كان محسناً اليها بذلك الفعل، وإذا فعل بها فعلا قبيحاً كان مسيئاً اليها.

٦٠. الشكر متعلق في الآية بعفو الله عنهم، ونعمه عليهم: كأنه قال لتشكروا الله على عفوه عنكم وسائر نعمه عليكم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/٣٧١.

أ. الفضيلة: الدرجة والرفعة في الفضل، وضده النقص، والتفضيل: الترجيح في الفضل، ونقيضه التسوية.

ب. الجزاء: المكافأة بالإحسان إحسانًا، وبالإساءة إساءة، وأصله مقابلة الشيء بالشيء، والفعل جزى يجزي، وهذا مما يجري القول فيه على فَعَلَ وأَفْعَلَ، فإذا كان فعلا فهو غير مهموز، وإذا كان أفعل فهو مهموز.

ج. القبول مصدر قبل قبولاً، وأصله من المقابلة، ونظيره الإجابة، ونقيضه الامتناع، وقبول العمل هو إيجاب الحق به، والمقابلة بالجزاء عليه.

د. الشفاعة والوسيلة والقربة نظائر، يقال: فلان يشفع فيه، وفلان يغري به، فهما كالنقيضين، يقال: شفع شفاعة، والشفع من العدد ما كان زوجًا، ومنه: ﴿وَالْوَتْرِ﴾ وقيل: أصل الشفع الزوج، ومنه الشفاعة، وقيل: أصله الضم، فعلى الأول كأن الشفيع زوج الطالب، وعلى الثاني كأنه مضموم إليه، والشفاعة ثابتة لرسول اللهً ﷺ يوم القيامة بإجماع الأمة.

هـ. الأخذ والقبض بمعنى، وضده الإعطاء.

و. العدل: المرضي من الناس، والعدل: ضد الجور، يقال: رجل عَدْلُ، ورجلان عَدْلُ، ورجال عَدْل، وامرأة عدل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والجمع، وأصل العدل: الاستقامة، وسمي العدل لاستقامته، وعديل الشيء: نظيره، والعدل الفدية، وسمي بذلك لأنه يعادل المفتدى ويماثله، قال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ .

ز. النصر: المعونة، وأنصار الرجل أعوانه، وبه سُمِّيَ الأنصار، ومنه: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا).

ح. النجاة والسلامة والتخلص نظائر، ونقيض النجاة الهلاك، نجا ينجو، وأنجاه اللهً، وأصله من النجوة، وهو الارتفاع، فالنجاة: ارتفاع عن الهلاك والمكروه، ومنه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نلقيك على نجوة.

ط. الآل والأهل بمعنًى، وآل الرجل: أهله وقرابته، وهو مأخوذ من الأول، وهو الرجوع، وآلُ الرجل خاصتُّه، الَّذِينَ يرجعون إليه في نسب أو صحبة، و(أَوْلَى): كلمة وعيد ما يؤول إليه حاله، كأنه قال:

ستعلم ما يؤول إليه حالك، واختلفوا في أصل آل: فقيل: أصله (أهل) بدليل أن تصغيره أُهَيْل، وقيل: بل هو أصل على حاله، وحكي عن الكسائي في تصغيره أويل، وهذا يسقط ما اعتمدوا عليه، فآل الرجل معناه الَّذِينَ يؤول إليه أمرهم، والأهل أعم من الآل يقال: أهل البلد، ولا يقال: آل البلد.

ي. السَّوْمُ والتجشم والتحمل نظائر ويقال: سَامَهُ المشقةَ، وسامه السوء والشر، وهو أن يجنبه مشقة أو شرًّا، وسُمته سوء العذاب، قيل: أرسل عليه ذلك، والسوم فِعْل يحمل النفس على ما يكره.

ك. السوء: الاسم الجامع للآفات والداء، يقال: ساءه يسوؤه سوءًا، وأساء إساءة، وأسأت إليه في الصنع، والسيئة اسم كالخطيئة، والسيئ كذلك، والسُّوأى بوزن فُعْلَى اسم للفعلة السيئة، وأصله من ساءه يسوؤه كقولك: آذاه يؤذيه، وحقيقته الضراء الذي يسومه المضرور، ثم كثر حتى صرف إلى الضر القبيح.

ل. الذبح: فري الأوداج، وأصله من الشق، يقال: فَأْرَةُ مِسْكٍ ذُبِحَتْ في سَكٍّ، يقال: ذبح ذبحًا، فالذبح بفتح الذال المصدر، وبكسر الذال المذبوح، والفرق بين الذبح، والقتل، أن القتل نقض البنية التي بها تصح الحياة، بأي ضرب كان، والذبح فري الأوداج، فالقتل أعم.

م. النساء: جماعة، والرجال مقابله، ولا واحد له من لفظه، يقال: امرأة ونساء، ونسوة.

ن. البلاء: النعمة، والبلاء: المحنة، وقيل: أصلها واحد، وهو الابتلاء، بمعنى التجربة، فكأن العبد يبتلى عند النعمة بالشكر، وعند المحنة بالصبر، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يقال في النعمة: أبليته بالإحسان، وفي الاختبار بلوته بلاء.

س. الفَرْق: تفريق ما بين الشيئين، ونقيضه الجمع، وسمي القرآن فرقانًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل.

ع. البحر: معروف، وسمي بذلك لاستبحاره، وهو انبساطه، وتوسعه، ويقال: البر والبحر، وتبحر في العلم: اتسع.

ف. الغرق: الرسوب في الماء، ثم يشبه غيره كالدَّيْنِ والبلوى، يقال: رجل غَرِقٌ وغريق.

ص. النظر: النظر بالعين، والنظر الانتظار، والنظر التفكر، ونظرته بمعنى انتظرته، وأنظرته أخرته، وأصله الإقبال نحو الشيء لوجه من الوجوه، والنظر بالعين: الإقبال نحو المبصر، والنظر بالقلب: الإقبال بالفكر نحو المتفكر فيه، والنظر بالرحمة هو الإقبال بالرحمة. وحد النظر تقليب الحَدَقَة نحو المرئي

التماسا لرؤيته، مع سلامة الحاسة. والنظر أول الواجبات، وهو النظر في طريق معرفة اللهَّ تعالى، وهو معنى في القلب، يولد العلم إذا وقع على شرائطه.

ق. الوعد والعدة، والموعد نظائر، والوعد في الخير، والوعيد في الشر، يقال: وعده وعدًا، وأوعده إيعادًا، والوعد والعِدَةُ يكونان مصدرين، واسمين، والوعد لا يُجْمَع، والوعد والوعيد من جنس الخبر، فالوعد خبر بأنه سيفعل به خيرًا، والوعيد خبر بأنه سيفعل به شرًّا.

ر. موسى: اسم عبراني، وقيل: أصله موشا: فموشا: شجرة بالقبطية، وسمي بذلك لوجود التابوت الذي كان فيه عند الماء والشجر وَجَدَتهُ جواري آسية امرأة فرعون، وكن خرجن ليغتسلن، فسمي بالمكان الذي وجد فيه، عن السدي، وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهِث بن لاوِي بن يعقوب عن محمد بن إسحاق.

ش. الليل: اسم لوقت من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، كما أن النهار اسم لوقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقيل: أصله ليلاً فقصرت، وتصغيره لُيَيْلَة.

ت. العفو: التجاوز، وضده العقوبة، وأصله الترك، ومنه قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي ترك، ومنه العفو؛ لأنه ترك العقوبة، ومعنى عفا اللهَّ عنك، أي رفع اللهَّ العقاب عنك، والذنوب على ثلاثة أضرب: كفر، ويجوز العفو عنه عقلاً، إلا أن السمع مَنَعَ منه. والكبائر: ويجوز العفو عنه عقلاً، واختلفوا في جوازه سمعًا، وعن أبي القاسم لا يجوز العفو عقلاً. والصغائر: وهي مغفورة باجتناب الكبائر، واتفقوا أن الجميع واحد في أنه يجب العفو عند التوبة.

ث. الشكر: إظهار النعمة، وضده الكفر، وأصله من الظهور.

٢. اختلف في عموم الآية وخصوصها:

أ. قيل: نزلت في اليهود خاصة لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأولاد الأنبياء، وسيشفع لنا آباؤنا، فأنكر الله تعالى ذلك عليهم، وأَيَّسَهُمْ من ذلك، وأخرج الكلام على العموم، وليدل على إياس كل واحِدٍ منهم في الشفاعة مستند في إزالة عقابه، عن الأصم.

ب. وقيل: الآية عامة في الجميع.

٣. اختلف في سبب تكرير الله تعالى نداءه لبني إسرائيل بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أ. قيل: تأكيدًا للتنبيه على عظيم النعم عليهم، كما يقول أهل اللغة: اذهب اذهب، عَجِّلْ عَجِّلْ، وقيل: الأول جاء على الجملة، والثاني على جهة التفصيل.

ب. وقيل: في الأول ذَكَّرَهُمْ نعمه على أنفسهم، وههنا ذكرهم نعمه على آبائهم، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني ما أعطيتكم من نعم الدين والدنيا.

٤. اختلف في سبب تفضيلهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾:

أ. قيل: بكثرة الرسل والكتب إليهم.

ب. وقيل: بكثرة الأنبياء منهم.

ج. وقيل: بالنعم العظام دينًا ودنيا كالمن والسلوى والنجاة من فرعون، وما آتاهم من الملك وعلم الدين، عن أبي علي.

٥. سبب قوله تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾ مع أن التفضيل كان للآباء هو أن فيما أعطى الآباء شرفًا للأبناء، وذلك مشهور في العادة وكلام العرب.

٦. اختلف في المراد بالعالمين في قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قيل: عَالَمِي زمانهم، عن الحسن وقتادة وأبي العالية ومجاهد.

ب. وقيل: التفضيل مخصوص كقولك: فضل زيد على عمرو في الشجاعة لا يدل على أنه أفضل منه على الإطلاق، والتخصيص في التفضيل لا في العالمين، يعني فضلتكم بما أنعممت عليكم على العالمين.

٧. لما بَيَّنَ تعالى نعمه على بني إسرائيل حذرهم من الكفر، فأنذرهم بيوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ يعني: واحذروا، وأصله من الوقاية ﴿يَوْمًا﴾ يعني يوم القيامة.

٨. ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ أي لا تغني نفس ﴿عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾:

أ. قيل: هو كقوله: البقرة تجزي عن سبعة) وقال النبي ﷺ لأبي بردة بن نيار: تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك)

ب. وقيل: لا يؤدي أحد عن أحد حقًّا وجب عليه لله أو لغيره، عن الأصم.

ج. وقيل: لا تقضي.

د. وقيل: لا تقابل مكروهها بشيء يدرؤه عنها، وإنما نكر النفس ليبين أن كل نفس هذا حكمها.

٩. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ في النجاة من العقوبة ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾:

أ. قيل: فدية، روي مرفوعًا، وهو قول ابن عباس وجماعة.

ب. وقيل: بدل، وهو الفدية أيضًا.

١٠. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾:

أ. قيل: أي لا يعانون حتى ينجوا من العذاب.

ب. وقيل: ليس لهم ناصر ينتصر لهم من الله تعالى إذا عاقبهم، عن الأصم.

١١. بعض المفسرين يخصص العالمين، وبعضهم التفضيل، وأجمعت الأمة على أن هذه الأمة أفضل من سائر الأمم، ونطق به القرآن، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾

١٢. يعود الهاء في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ في الموضعين:

أ. قيل: على النفس من قوله: ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾

ب. وقيل: الهاء الأولى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ يرجع إلى النفس الأولى، وفي قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ يعود إلى النفس الثانية، وتقديره: لا يغني أحد عن أحد، ولا يشفع له، عن أبي مسلم.

١٣. اختلف في معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾:

أ. قيل: يذيقونكم.

ب. وقيل: يجشمونكم.

ج. وقيل: يعذبونكم، والكل يتقارب.

٢. ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أشده، وأسوأه، واختلفوا في ذلك:

أ. قيل: هو أنه استعملهم في الأعمال الشاقة.

ب. وقيل: جعلهم أصنافًا، فصنف يحرثون، وصنف يخدمون، ومن لم يعمل ضرب عليهم الجزية، وهو ما بينه تعالى في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾

١٤. في استحياء النسوة من المحنة:

قيل: كي يستعبدن وينكحن على الاسترقاق، فهو أعظم من قتل الرجال.

وقيل: كان استبقاؤهن للإذلال والمحنة.

١٥. سبب قتل الأبناء:

أ. قيل: إنه رأى رؤيا أن نارًا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، فعبروا بأنه يخرج رجل من بني إسرائيل يكون هلاكه على يده، فأمر بألا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا جارية إلا تركوها، عن السدي.

ب. وقيل: كان بنو إسرائيل عرفوا ذلك بإخبار الأنبياء، فكانوا يريدون بقتل الأبناء توهين أمرهم، وتكذيب. ما كانت بنو إسرائيل تحدث عن أنبيائهم، عن الأصم.

١٦. اختلفوا فيمن قتلوه:

أ. قيل: المراد أن القبط كانت تقتل رجال بني إسرائيل.

ب. وقيل: كانوا يقتلون الأطفال، وهو المجمع عليه.

١٧. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يعني يستبقونهن أحياء، ﴿نِسَاءَكُمْ﴾

١٨. سؤال وإشكال: لم قال: ﴿نِسَاءَكُمْ﴾؟ وكانوا يستبقون الأطفال:

أ. قيل: على التغليب، فإنهم كانوا يستبقون الصغار والكبار، يقال: اقتلوا الرجال، وإن كان فيهم صبيان.

ب. وقيل: لأن النساء اسم يقع على الصغار والكبار، كالأبناء.

ج. وقيل: سموا بذلك على التقدير أنهم يصيرون نساء.

١٩. اختلف في معنى ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾:

أ. قيل: في سومكم العذاب، وذبح الأبناء محنة عظيمة وابتلاء عظيم، (مِنْ رَبِّكُمْ) لما خلى بينكم وبينه، فيفعل بكم هذه الأفاعيل.

ب. وقيل: في نجاتكم من فرعون وقومه نعمة من الله عليكم عظيمة.

٢٠. خاطبهم بالنجاة، من فرعون، وإنما النجاة لأسلافهم:

أ. قيل: لأن النعمة على السلف تعد نعمة على الخلف، فهذا ظاهر.

ب. وقيل: أراد نجينا مَنْ أنتم مِنْ نسلهم، يوضحه أنه لولا السلف لما وجد الخلف أصلاً.

ج. وقيل: هو على عادة العرب، يقولون: قتلناكم يوم ذي قار، ويريدون الأسلاف.

٢١. ثم ذكر نعمة أخرى فقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾:

أ. قيل: جعلناكم بين فرقتيه تمرون في طريق يبس.

ب. وقيل: فرقنا بين الماء وبينكم، إذ فصلنا وحجزنا حتى مررتم فيه، والأول أوجه.

ج. وقيل: أراد به فرقهم في اثني عشر طريقًا لاثني عشر سبطًا.

د. وقيل: فرقنا بسببكم البحر لتمروا فيه.

٢٢. اختلف في فائدة جعل الطريق اثني عشر:

أ. قيل: كيلا يختلط سبط بسبط، وكانوا اثني عشر سبطًا؛ ولذلك فرق بين مشربهم في التيه.

ب. وقيل: ليتعجل خروجهم.

ج. وقيل: كيلا يتزاحموا ولا يتقاتلوا عليه.

٢٣. ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ يعني من البحر والغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني أشياعه وأتباعه، وهو معهم، فحذف لدلالة الحال، كأنه قيل: أغرقنا آل فرعون معه، وقد بين ذلك في قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾

٢٤. اختلف في سبب دخول فرعون مع كمال عقله البحر مع ما فيه من الخطر:

أ. قيل: إن جبريل عليه السلام قرب منه على رَمَكَةٍ ودِيق وهو على فرس حصان، فلم يملك ضبطه حتى دخل البحر.

ب. وقيل: كان ثَمَّ قلة تفكر.

ج. وقيل: رأى كثيرًا من المعجزات ونجا منها، فظن البحر كذلك، والعناد والتعصب يعمي ويصم.

د. وقيل: إنه تعالى قوى دواعيه لدخوله ليهلكه.

٢٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

أ. قيل: ترونه وتعاينونه، عن أكثر المفسرين.

ب. وقيل: ليس هو الرؤية، وإنما كقولك: ضربت وأهلك ينظرون فما أتوك، عن الفراء، وليس بالوجه؛ لأنهم عاينوا فلق البحر، والتطام الماء، وغرق آل فرعون، وإذا صح حمله على ظاهره فلا معنى

للعدول عنه.

ج. وقيل: وأنتم تنظرون إلى التطام البحر عليهم.

د. وقيل: تنظرون إلى نجاتكم وهلاك قوم فرعون ومصارعهم، عن الأصم، وفي هذا زيادة نعمة؛ لأن من رأى عدوه يهلك مع كونه معافى كان السرور أتم، ويجب الشكر على النعمتين.

٢٦. فصّل ذكر النعم التي أجملها من قبل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أي خلصناكم وأنقذناكم ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾:

أ. قيل: يعني قومه وأتباعه، وأهل دينه.

ب. وقيل: عترته.

٢٧. سؤال وإشكال: كيف لم يُسَوِّ الله بين الخلق في هذه الآيات التي أعطيت بني إسرائيل؟ والجواب: كانت الآيات إنما تجيء على قدر الحاجة، وبحسب المصلحة، فبحسب اختلاف المصالح اختلفت الآيات.

٢٨. ثم ذكرهم تعالى نعمًا أخرى معطوفًا على ما تقدم من النعم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾:

أ. قيل: أربعين كلها داخلة في الميعاد، عن أبي العالية، ذو القعدة وعشر من ذي الحجة.

ب. وقيل: وعدناه تمام الأربعين ليلة، أو مضي أربعين ليلة، عن الأخفش.

٢٩. كان هذا الوعد لما هلك فرعون، وعاد بنو إسرائيل إلى مصر وعدهم الله إنزال التوراة والشرائع، فخلف موسى أهله، واستخلف عليهم هارون، فمكث بالطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح.

٣٠. في الكلام حذف لا بد منه، إما انقضاء أربعين ليلة، أو تمام أربعين ليلة، على ما قاله الأخفش، أو إقامة أربعين ليلة، أو غيبته عن قومه، على ما قاله بعضهم.

٣١. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ قيل: اتخذتموه إلهًا وعبدتموه، وذلك أنهم عبدوا العجل بعد موسى لما قال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي ترك إلهه، وذهب ناسيًا، وقيل: فنسي أي. ترك ما يجب عليه من عبادة العجل.

٣٢. في سبب عبادتهم العجل قولان:

أ. أحدهما: أن السامري كان من قوم يعبدون البقر، فكان حب عبادة البقر في نفسه، فكان منافقًا، فلما خرج موسى إلى الطور، قال هارون لقومه: قد حملتم أوزارًا من زينة القوم فتطهروا منها، وأوقدوا نارًا فقذفوا ما كان معهم فيها، ورأى السامري أثر فرس جبريل فأخذ ترابًا من أثر حافره، فجاء إلى هارون وقال: أقذف ما في يدي؟ قال نعم، وهو لا يدري ما في يده، وكان الله تعالى أجرى العادة بأن يحيي ما ألقي عليه ذلك التراب، فألقى السامري، وقال: كن عجلاً جسدًا له خوار، فكان للبلاء والفتنة، فقال: هذا إلهكم وإله موسى.. وقيل: هذا لا يجوز لأنه إغراء بالمعصية، ولأنه يشبه المعجز.

ب. الثاني: أنه صاغ عجلاً له خوار كما تفعل البوقات ونحوه، وكان فيه خروق إذا دخلها الريح يخرج منه صوت، ودعاهم إلى عبادته فأجابوه وعبدوه، عن أبي علي.

٣٣. العجل هو ولد البقرة، وقيل: سمي البقر عجلاً:

أ. من التعجيل؛ لأنه كان في قصر من المدة كالعَجْلِ في الشيء.

ب. وقيل: لأنهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى.

٣٤. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم بعبادة العجل، وإنما يوجه الذم عليهم بما فعله أسلافهم لاقتدائهم بهم ورضاهم بما كانوا عليه، وسلوك طريقتهم في مخالفة أمر الله تعالى.

٣٥. هذا الميقات هو:

أ. الميقات في قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ عن أبي علي.

ب. حكي عن بعضهم أنه غيره، وهو غلط.

٣٦. من قال إنه انقلب حيوانًا جماعة، منهم: الحسن وأبو بكر أحمد بن علي، قالوا: صار لحمًا ودما.. وقيل: صار حيًّا، ولكن مِنْ ذَهَب، والصحيح أنه صاغه بقرًا، ولم يكن حيًّا، على ما حكيناه عن أبي علي.

٣٧. قال ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ولم يقل: أربعين يومًا:

أ. قيل: لأنه إذا ذكر الليالي دخل فيه الأيام، وإذا ذكر أيام لم تدخل فيه الليالي.

ب. وقيل: لأن العرب تراعي في الحساب بالشهور والأهلة، وأول الشهور الليالي.

ج. وقيل: لأن الليالي مقدمة على الأيام.

٣٨. العفو: التجاوز، وضده العقوبة، وأصله الترك، ومنه قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي ترك، ومنه العفو؛ لأنه ترك العقوبة، ومعنى عفا الله عنك، أي رفع الله العقاب عنك، والذنوب على ثلاثة أضرب:

أ. كفر، ويجوز العفو عنه عقلاً، إلا أن السمع مَنَعَ منه.

ب. الكبائر: ويجوز العفو عنه عقلاً، واختلفوا في جوازه سمعًا، وعن أبي القاسم لا يجوز العفو عقلاً.

ج. الصغائر: وهي مغفورة باجتناب الكبائر، واتفقوا أن الجميع واحد في أنه يجب العفو عند التوبة.

٣٩. بين تعالى ما أتوا من الذنب، وعفوه عنهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ يعني بقبول التوبة عن عبادة العجل، بعد أن عبدوه ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ قيل: من بعد اتخاذكم العجل عن أبي العالية.

٤٠. اختلف في ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

أ. قيل: معنى (لعل) معنى لام (كي)، أي لكي تشكروا الله على عفوه عنكم، وسائر نعمه عليكم.

ب. وقيل: معناه التعريض كأنه قيل: عرضناكم للشكر.

ج. وقيل: معناه للشكر عفوت عنكم، كما أنه للعبادة خلقتم.

٤١. اختلف في معنى شكر النعمة:

أ. قيل: هو طاعة الله في السر والعلانية، عن ابن عباس.

ب. وقيل: إظهار النعمة والتحدث بها، عن الحسن.

ج. وقيل: هو تعظيم المنعم بالقلب واللسان، والمحافظة على الطاعات، ومخالفة الشهوات، ومراقبة رب السماوات.

٤٢. قال: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ على التوحيد، والمعنى على الجمع:

أ. قيل: لأن الخطاب اتصل بذا، وهو مبهم، فمرة يأتي على الأصل، ومرة يأتي على مشاكلة اللفظ إذا كان لفظ المبهم على الواحد، وإن كان معناه على الجمع.

ب. وقيل: قد يخاطب الواحد في اللفظ، ويعنى به الجمع، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾

٤٣. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أنه تعالى فضل بني إسرائيل بنعم الدين والدنيا، ولا تدل على أنهم أفضل من أمة محمد ﷺ، لأن هذه الأمة أفضل من سائر الأمم، ونطق به القرآن، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾

ب. أن شكر النعمة والتحدث بها مما يجب، وإنما يجب بالقلب عمومًا، وباللسان عند التهمة في الجحود.

ج. عظم حال القيامة لما ذكر من تَأْيِيسٍ للعصاة من الناصر، وأخذ الفدية، وقبول الشفاعة.

د. وجوب اتقاء ذلك اليوم باتقاء المعاصي والكبائر، فتدل على أن صاحب الكبيرة لا يكون له شفيع، فيبطل مذهب مخالفينا في الشفاعة لأهل الكبائر، وإن وردت في بني إسرائيل، فالمعتبر عموم اللفظ لا خصوص السبب؛ لأن التعليل يشمل الجميع.

هـ. جواز التخلية بين الظالم والمظلوم، وأنه قد تكون المصلحة في ذلك، كما خلى بين بني إسرائيل وبين فرعون للابتلاء، وإن كانت العاقبة للمتقين.

و. أن النجاة من الظلمة نعمة من اللّٰه يجب شكره.

ز. أن من كانت على دين الرجل ويتبعه يسمى آله، فتدل على أن آل محمد أمته.

ح. وجوب شكر النعمة؛ إذ الغرض بذكر النعمة حثهم على الشكر بطاعة المنعم وتعظيمه.

ط. آيات باهرة لموسى من فرق البحر، ونجاة قومه، وغرق آل فرعون.

ي. أن هلاك الظالم نعمة يجب عليها الشكر، ولا يجوز التأسف عليه، وتدل على أن تفريق البحر كان لطفًا لبني إسرائيل، ومعجزة لموسى، وداعيًا لفرعون وقومه إلى الإيمان.

ك. نبوة نبينا محمد ﷺ لما أخبرهم عن أسرار ما في كتبهم، مع كونه أميًا لم يقرأ كتابًا، فدل من هذا الوجه على نبوته.

ل. نبوة نبينا محمد ﷺ حيث أخبرهم عن سرائر أخبارهم.

م. أن عبادة العجل كفر.

ن. أن للعبد فعلاً؛ إذ لو كان عبادتهم العجل من خلقه لم يكن لذمهم معنى.

س. أن القوم كانوا مقلدين متشبهين، ولم يكونوا على بصيرة، وإلا لما عبدوا العجل.

ع. أنه تعالى أراد منهم الشكر؛ لأن معنى لعلكم أي لكي تشكروا، ومعناه أريد منكم أن تشكروا.

ف. أن العفو عن الذنب بعد التوبة نعمة من اللهّ تعالى على عباده ليشكروه.

ص. أن التوبة من كل ذنب تصح؛ إذ لا ذنب أعظم من عبادة العجل.

٤٤. مسائل نحوية:

أ. موضع ﴿لَا تَجْزِي﴾ من الإعراب: نصب بإجماع؛ لأنه صفة لـ ﴿يَوْمَ﴾

ب. اختلف في العائد إلى يوم من الإضمار:

• قال الكسائي: لا يجوز أن يكون إلا هاء محذوفة من يجزيه.

• وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون المحذوف إلا فيه.

• وقال أكثر أهل العربية: يجوز الأمران، منهم: سيبويه والأخفش والزجاج، وفصل النحويون بين الظرف وغيره من الأسماء في الإضمار فقالوا: لما كان يجوز مع المظهر منها الأمران، جاز مع المضمر أيضًا الأمران، تقول: قمت اليوم، وقمت في اليوم. وكذلك يجوز: اليوم قمته، واليوم قمت فيه. ولما لم يجز: قمت زيدًا، وأنت تريد قمت إلى زيد لم يجز: زيد قمته، كما يجوز: زيد قمت إليه.

ج. في عودة الهاء في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ في الموضعين قولان: قيل: على النفس من قوله: ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ وقيل: الهاء الأولى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ يرجع إلى النفس الأولى، وفي قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ يعود إلى النفس الثانية، وتقديره: لا يغني أحد عن أحد، ولا يشفع له، عن أبي مسلم.

د. العامل في ﴿إِذْ﴾ من قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ قوله ﴿اذْكُرُوا﴾ من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ كأنه قال: فاذكروا إذ أنجيناكم، فموضعه نصب، وهو عطف على النعمة الأولى.

هـ. موضع ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ من الإعراب يحتمل وجهين:

• أحدهما: الاستئناف فيكون موضعه رفعًا، كأنه قال: يسومونكم من قبل ذلك سوء العذاب.

• والثاني: الحال فيكون موضعه نصبًا كأنه قيل: سامتكم سوء العذاب، والعامل فيه (نَجَّينَاكُمْ).

و. المحذوف من (ابن)، قال الأخفش: الواو؛ لأنها أثقل، فهي بالحذف أولى، وقال الزجاج: يجوز أن يكون المحذوف الياء، ويجوز الواو، وهما مستويان.

ز. العامل في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ ما عمل في ﴿إِذْ﴾ الأولى، وتقديره: وإذ فرقنا، فهو عطف على

﴿إِذٍ﴾ المتقدم.

ح. ﴿قَبْلِ﴾ و ﴿بَعْدِ﴾ بنيا على الضم، وأصله من البعد.

ط. الهاء في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ قيل: يرجع إلى موسى، وقيل: مِنْ بَعْدِ وَعْدِ اللهِّ إياكم بالتوراة، وقيل: من بعد غرق فرعون وما رأوا من الآيات، والكل محتمل.

ي. قيل ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ على التوحيد، والمعنى على الجمع لأن الخطاب اتصل بذا، وهو مبهم، فمرة يأتي على الأصل، ومرة يأتي على مشاكلة اللفظ إذا كان لفظ المبهم على الواحد، وإن كان معناه على الجمع، وقيل: قد يخاطب الواحد في اللفظ، ويعنى به الجمع، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الجزاء، والمكافأة، والمقابلة: نظائر، يقال: جزى يجزي جزاء، وجازاه مجازاة، وفلان ذو جزاء أي: ذو غناء، فكان قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تقابل مكروهها بشيء يدرأه عنها، ومنه الحديث أنه ﷺ قال لأبي بردة في الجذعة التي أمره أن يضحي بها: ولا تجزي عن أحد بعدك، وقال: البقرة تجزي عن سبعة أي: تقضي وتكفي، قال أبو عبيدة: هو مأخوذ من قولك جزا عني هذا الأمر، فأما قولهم أجزأني الشيء أي: كفاني فمهموز.

ب. وقبول الشيء هو تلقيه، والأخذ به، خلاف الإعراض عنه، ومن ثم قيل لتجاه الشيء قبالته، وقالوا: أقبلت المكواة الداء أي: جعلتها قبالته قال: (وأقبلت أفواه العروق المكاويا) والقبول والانقياد والطاعة والإجابة نظائر، ونقيضه الامتناع والشفاعة: مأخوذة من الشفع، فكأنه سؤال من الشفيع يشفع سؤال المشفوع له.

ج. الشفاعة، والوسيلة، والقربة، والوصلة: نظائر، والشفعة في الدار وغيرها: معروفة، وإنما سميت شفعة لأن صاحبها يشفع ماله بها، ويضمها إلى ملكه.

د. العدل، والحق، والإنصاف: نظائر، ونقيض العدل: الجور، والعدل: المرضي من الناس، الذكر

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٢٣.

والأنثى والجمع والواحد فيه سواء، والعدل: الفدية في الآية، والفرق بين العدل والعدل: إن العدل: هو مثل الشيء من جنسه، والعدل: هو بدل الشيء، وقد يكون من غير جنسه، قال سبحانه: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾

هـ. النصرة، والمعونة، والتقوية: نظائر، وفي الحديث: (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) أي: امنعه من الظلم إن كان ظالما، وامنع عنه الظلم إن كان مظلوما، وأنصار الرجل: أعوانه، ونصرت السماء: إذا أمطرت.

و. الإنجاء والتنجية والتخليص واحد، والنجاة والخلاص والسلامة والتخلص واحد، ويقال للمكان المرتفع: نجوة، لأن الصائر إليه، ينجو من كثير من المضار، وفرق بعضهم بين الإنجاء والتنجية فقال: الإنجاء يستعمل في الخلاص قبل وقوعه في الهلكة، والتنجية: يستعمل في الخلاص بعد وقوعه في الهلكة.

ز. الآل والأهل واحد، وقيل: أصل آل أهل، لأن تصغيره أهيل، وحكى الكسائي أويل، فزعموا أنها أبدلت كما قالوا هيهات وأيهات، وقيل: لا بل هو أصل بنفسه، والفرق بين الآل والأهل: إن الأهل أعم منه، يقال: أهل البصرة، ولا يقال آل البصرة، ويقال: آل الرجل قومه، وكل من يؤول إليه بنسب أو قرابة مأخوذ من الأول، وهو الرجوع، وأهله: كل من يضمه بيته، وقيل: آل الرجل قرابته وأهل بيته، وآل البعير: الواحة، وآل الخيمة: عمده، وآل الجبل: أطرافه ونواحيه، وقال ابن دريد: آل كل شيء: شخصه، وآل الرجل: أهله وقرابته، قال الشاعر:

ولا تبك ميتا بعد ميت أجنه ... علي وعباس وآل أبي بكر

وقال أبو عبيدة: سمعت أعرابيا فصيحا يقول: أهل مكة آل الله، فقلنا: ما تعني بذلك؟ قال: أليسوا مسلمين؟ المسلمون آل الله، وإنما يقال آل فلان للرئيس المتبع وفي شبه مكة لأنها أم القرى، ومثل فرعون في الضلال واتباع قومه له، فإذا جاوزت هذا، فإن آل الرجل أهل بيته خاصة، فقلنا له: أفتقول لقبيلته آل فلان؟ قال: لا، إلا أهل بيته خاصة.

ح. فرعون اسم لملك العمالقة، كما يقال لملك الروم: قيصر، ولملك الفرس: كسرى، ولملك الترك: خاقان، ولملك اليمن: تبع، فهو على هذا بمعنى الصفة، وقيل: إن اسم فرعون مصعب بن الريان، وقال

محمد بن إسحاق: هو الوليد بن مصعب.

ط. يسومونكم: يكلفونكم من قولهم: سامه خطة خسف: إذا كلفه إياه، وقيل: يولونكم سوء العذاب، وسامه خسفا: إذا أولاه ذلا، قال الشاعر: (إن سيم خسفا وجهه تربدا)، وقيل: يجشمونكم، وقيل: يعذبونكم، وأصل الباب السوم الذي هو: إرسال الإبل في الرعي.

ي. سوء العذاب، وأليم العذاب، وشديد العذاب: نظائر، قال صاحب العين: السوء اسم العذاب الجامع للآفات والداء، يقال: سؤت فلانا أسوؤه مساءة، ومسائية، واستاء فلان من السوء: مثل اهتم من الهم، والسوأة: الفعلة القبيحة، والسوأة: الفرج، والسوأة أيضا: كل عمل شين، وتقول في النكرة: رجل سوء، كما يقال: رجل صدق، فإذا عرفت قلت: الرجل السوء، فلا تضيفه، ولا تقول: الرجل الصدق، وقوله: ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير برص.

ك. الذبح والنحر والشق نظائر، والذبح: فري الأوداج، والتذبيح، التكثير منه، وأصله الشق، يقال، ذبحت المسك: إذا فتقت عنه، قال: كأن بين فكها، والفك... فارة مسك ذبحت في سك والذبح: الشيء المذبوح، والذباح والذبحة بفتح الباء وتسكينها: داء يصيب الانسان في حلقه.

ل. يستحيون أي: يستبقون، ومنه قول النبي ﷺ: (اقتلوا شيوخ المشركين، واستحيوا شرخهم) أي: استبقوا شبابهم، والنساء، والنسوة، والنسوان: لا واحد لها من لفظها.

م. البلاء، والنعمة، والإحسان: نظائر في اللغة، والبلاء: يستعمل في الخير والشر، قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ والابلاء في الانعام، قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ وقال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا   وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فالبلاء يكون بالإنعام، كما يكون بالانتقام، وأصل البلاء: الامتحان والاختبار، قال الأحنف: البلاء ثم الثناء.

ن. الفرق: هو الفصل بين شيئين إذا كانت بينهما فرجة، والفرق: الطائفة من كل شيء، ومن الماء إذا انفرق بعضه عن بعض، فكل طائفة من ذلك فرق، ومنه ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ والفرق: الخوف، وفي الحديث: (ما أسكر الفرق فالجرعة منه حرام) وهو مكيال يعرف بالمدينة.

س. البحر: يسمى بحرا لاستبحاره، وهو سعته وانبساطه، يقال: استبحر في العلم، وتبحر فيه،

وتبقر: إذا اتسع وتمكن، والباحر: الأحمق الذي إذا كلم بقي كالمبهوت، والعرب تسمي الماء الملح والعذب بحرا إذا كثر، ومنه قوله ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ يعني الملح والعذب وأصل الباب الاتساع، وأما اللج: فهو الذي لا يرى حافتيه من في وسطه، لكثرة مائه، وعظمه، ودجلة بالإضافة إلى الساقية بحر، وبالإضافة إلى جدة ونحوها ليست ببحر.

ع. الغرق: الرسوب في الماء، والنجاة: ضد الغرق، كما أنها ضد الهلاك، وأغرق في الأمر: إذا جاوز الحد فيه، وأصله من نزع السهم حتى يخرج عن كبد القوس، واغرورقت عينه: شرقت بدمعها.

ف. النظر: النظر بالعين، يقال: نظرت إلى كذا، ونظرت في الكتاب، وفي الأمر، وقول القائل: أنظر إلى الله، ثم إليك، معناه: أتوقع فضل الله، ثم فضلك، ونظرته وانتظرته بمعنى واحد، والنظر: التفكر، وأصل الباب كله الإقبال نحو الشيء بوجه من الوجوه، فالنظر بالعين: الإقبال نحو المبصر، والنظر بالقلب: الإقبال بالفكر به نحو المفكر فيه، والنظر بالرحمة: هو الإقبال بالرحمة.. وحقيقة النظر: هو تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلبا لرؤيته.

ص. الوعد، والموعد، والوعيد، والعدة، والموعدة، مصادر وعدته أعده، ووعدت يتعدى إلى مفعولين يجوز فيه الاقتصار على أحدهما كأعطيت، قال: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ فجانب مفعول ثان، والعدة والوعد قد يكونان اسمين أيضا، والوعد في الخير، والوعيد في الشر: ويجمع العدة على العدات، ولا يجمع الوعد، والموعد: قد يكون موضعا ووقتا ومصدرا، والميعاد: لا يكون إلا وقتا أو موضعا، وقد يقال: وعدته في الشر كقوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأوعدته: لا يكون إلا في الشر والمكاره، ويقال: أوعدته بالشر، ولا يقال أوعدته الشر، وحقيقة الوعد: هو الخبر عن خير يناله المخبر في المستقبل، أو شر.

ق. موسى اسم مركب من اسمين بالقبطية فمو: هو الماء، وسى: الشجر، وسمي بذلك لأن التابوت الذي كان فيه موسى وجد عند الماء والشجر، وجده جواري آسية امرأة فرعون، وقد خرجن ليغتسلن بالمكان الذي وجد فيه، عن السدي، وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عن محمد بن إسحاق بن يسار.

ر. إنما قال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ولم يقل أربعين يوما، لتضمن الليالي الأيام على قول المبرد عنى بذلك

أنك إذا ذكرت الليالي دخل فيها الأيام، وإذا ذكرت الأيام لا يدخل فيها الليالي، والصحيح: إن العرب كانت تراعي في حسابها الشهور والأيام والأهلة، فأول الشهر الليالي، فلذلك أرخت بالليالي، وغلبتها على الأيام، واكتفت بذكر الليالي عن الأيام، فقالت: لعشر خلون، ولخمس بقين، جريا على الليالي.

ش. الليلة: الوقت من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، واليوم: من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وليلة ليلاء: إذا اشتدت ظلمتها، ولييلة: تصغير ليلة، أخرجوا الياء الأخيرة مخرجها في الليالي، وقال بعضهم: أصل ليلة ليلاة، فقصر.

ت. اتخذ افتعل، وفعلت فيه تخذت قال:

وقد تخذت رجلي إلى جنب غرزها... نسيفا كأفحوص القطاة المطرق

قال أبو علي: وليس اتخذت من أخذت، لأن الهمزة لا تبدل من التاء، ولا تبدل منها التاء.

ث. العجل: البقرة الصغيرة، يقال: عجل وعجول، وهو من العجلة، لأن قصر المدة كالعجل في الشيء، وقال بعضهم: إنما سمي عجلا لأنهم عجلوا فاتخذوه إلها قبل أن يأتيهم موسى.

٢. اختلف في سبب تكرير الله تعالى نداءه لبني إسرائيل بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. قيل: لأنه لما كانت نعم الله هي الأصل فيما يجب شكره احتيج إلى تأكيدها كما يقول القائل اذهب اذهب عجل عجل.

ب. وقيل: أن التذكير الأول ورد مجملا والثاني ورد مفصلا.

ج. وقيل: أنه في الأول ذكرهم نعمة على أنفسهم وفي الثاني ذكرهم نعمة على آبائهم.

٣. اختلف في المراد بالعالمين في قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قال ابن عباس: أراد به عالمي أهل زمانهم، لأن أمتنا أفضل الأمم بالإجماع كما أن نبينا ﷺ أفضل الأنبياء، وبدليل قوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

ب. وقيل: المراد به تفضيلهم في أشياء مخصوصة، وهي إنزال المن والسلوى، وما أرسل الله فيهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب إلى غير ذلك من النعم العظيمة، من تغريق فرعون، والآيات الكثيرة التي يخف معها الاستدلال، ويسهل بها الميثاق، وتفضيل الله إياهم في أشياء مخصوصة لا يوجب أن يكونوا

أفضل الناس على الإطلاق كما يقال حاتم أفضل الناس في السخاء ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

٤. لما بين سبحانه نعمه العظام عليهم أنذرهم في كفرانها بيوم القيامة فقال ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي احذروا واخشوا ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ أي لا تغني أو لا تقضي فيه.

٥. اختلف في معنى ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾:

أ. قيل: ولا تدفع عنها مكروها.

ب. وقيل: لا يؤدي أحد عن أحد حقا وجب عليه لله أو لغيره وإنما نكر النفس ليبين أن كل نفس فهذا حكمها، وهذا مثل قوله سبحانه ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾

٦. حكم قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ مختص باليهود لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآباؤنا يشفعون لنا، فإياسهم الله عن ذلك، فخرج الكلام مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ويدل على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبي ﷺ شفاعة مقبولة، وإن اختلفوا في كيفيتها:

أ. فعندنا هي مختصة بدفع المضار وإسقاط العقاب عن مستحقيه من مذنبي المؤمنين.

ب. وقالت المعتزلة: هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين.

٤. اختلف في معنى ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾:

أ. قيل: أي فدية، وإنما سمي الفداء عدلا لأنه يعادل المفدي ويماثله، وهو قول ابن عباس، ومعناه لا يؤخذ من أحد فداء يكفر عن ذنوبه.

ب. وقيل: لا يؤخذ منه بدل بذنوبه.

٧. اختلف في معنى ما جاء في الحديث (لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا):

أ. قال الحسن: الصرف العمل والعدل الفدية.

ب. قال الأصمعي: الصرف التطوع والعدل الفريضة.

ج. قال أبو عبيدة: الصرف الحيلة والعدل الفدية.

د. قال الكلبي: الصرف الفدية والعدل رجل مكانه.

٨. اختلف في معنى قوله ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾:

أ. قيل: أي لا يعاونون حتى ينجوا من العذاب.

ب. وقيل: ليس لهم ناصر ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم.

٩. فصل سبحانه في هذه الآية النعم التي أجملها فيما قبل فقال ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ نَجَّيْناكُمْ﴾ أي خلصناكم من قوم ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وأهل دينه ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يلزمونكم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾، وقيل يذيقونكم ويكلفونكم ويعذبونكم والكل متقارب.

١٠. اختلفوا في العذاب الذي نجاهم الله تعالى منه:

أ. قيل: ما ذكر في الآية من قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وهذا تفسيره.

ب. وقيل: أراد به ما كانوا يكلفونهم من الأعمال الشاقة، فمنها أنهم جعلوهم أصنافا فصنف يخدمونهم وصنف يحرثون لهم، ومن لا يصلح منهم للعمل ضربوا عليهم الجزية، وكانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم مع ذلك، ويدل عليه قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، فعطفه على ذلك يدل على أنه غيره.

١١. قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ معناه يقتلون أبناءكم، ويستحيون بناتكم يستبقونهن ويدعونهن أحياء ليستعبدن وينكحن على وجه الاسترقاق، وهذا أشد من الذبح، وإنما لم يقل بناتكم:

أ. قيل: لأنه سماهن بالاسم الذي يؤول حالهن إليه.

ب. وقيل: إنما قال نساءكم على التغليب، فإنهم كانوا يستبقون الصغار والكبار، يقال: أقبل الرجال وإن كان فيهم صبيان.

ج. وقيل: يجوز أن يقع اسم النساء على الصغار والكبار كالأبناء.

١٢. اختلف في معنى قوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾:

أ. قيل: أي وفي سومكم العذاب وذبح الأبناء ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي لما خلى بينكم وبينه حتى فعل بكم هذه الأفاعيل.

ب. وقيل: في نجاتكم من فرعون وقومه نعمة عظيمة من الله عليكم.

١٣. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾:

أ. قيل: أي فرقنا بين المئين حتى مررتم فيه، فكنتم فرقا بينهما تمرون في طريق يبس.

ب. وقيل: معناه فرقنا البحر بدخولكم إياه فوقع بين كل فريقين من البحر طائفة منكم يسلكون طريقا يابسا، فوقع الفرق بينكم.

ج. وقيل: فرقنا بكم أي بسببكم البحر لتمروا فيه.

١٤. ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ يعني من البحر والغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يذكر غرق فرعون لأنه قد ذكره في مواضع كقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ فاختصر لدلالة الكلام عليه، لأن الغرض مبني على إهلاك فرعون وقومه، ونظيره قول القائل: دخل جيش الأمير البادية)، ويكون الظاهر أن الأمير معهم، ويجوز أن يريد بآل فرعون نفسه كقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ يعني موسى وهارون.

١٥. اختلف في معنى ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

أ. قيل: معناه وأنتم تشاهدون أنهم يغرقون، وهذا أبلغ في الشماتة وإظهار المعجزة.

ب. وقيل: معناه وأنتم بمنظر ومشهد منهم حتى لو نظرتم إليهم لأمكنكم ذلك لأنهم كانوا في شغل من أن يروهم، كما يقال دور بني فلان تنظر إلى دور آل فلان، أي هي بإزائها، وبحيث لو كان مكانها ما ينظر لأمكنه أن ينظر إليه، وهو قول الزجاج، وقريب مما قاله الفراء.

والأول أصح لأنهم لم يكن لهم شغل شاغل عن الرؤية، فإنهم كانوا قد جاوزوا البحر، وتظاهرت أقوال المفسرين على أن أصحاب موسى عليه السلام رأوا انفراق البحر والتطام أمواجه بآل فرعون حتى غرقوا فلا وجه للعدول عن الظاهر.

١٦. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ واعَدْنا مُوسى﴾ أن نؤتيه الألواح فيها التوراة والبيان والشفاء على رأس ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أو عند انقضاء أربعين ليلة أو عند تمام أربعين ليلة، وإنما قلنا أن قوله: ﴿اذْكُرُوا﴾ مضمر فيه لأن الله تعالى قال قبل هذا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، فإذ هاهنا معطوفة على الآيات المتقدمة.

١٧. هذه الأربعون ليلة هي التي ذكرها الله في سورة الأعراف فقال ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ وهي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة، قال المفسرون لما عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد

إنجائهم من البحر وهلاك فرعون وقومه وعدهم الله إنزال التوراة والشرائع فخلف موسى أصحابه واستخلف هارون عليهم فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الألواح.

١٨. قوله ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي اتخذتموه إلها لأن بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين لأن فعل ذلك ليس بمحظور وإنما هو مكروه وأما الخبر الذي روي أنه ﷺ لعن المصورين، فالمراد به من شبه الله بخلقه أو اعتقد فيه أنه صورة.

١٩. اختلف في قوله ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾:

أ. قيل: أي من بعد غيبة موسى وخروجه.

ب. وقيل: من بعد وعد الله إياكم بالتوراة.

ج. وقيل: من بعد غرق فرعون وما رأيتم من الآيات والكل محتمل.

٤. ﴿أَنْتُمْ ظالِمُونَ﴾ أي مضرون بأنفسكم بما استحققتم من العقاب على اتخاذكم العجل إلها.

٢٠. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي وضعنا عنكم العقاب الذي استحققتموه بقبول توبتكم من عبادة العجل.

٢١. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾:

أ. قيل: أي من بعد اتخاذكم إياه إلها.

ب. وقيل: معناه تركنا معاجلتكم بالعقاب من بعد اتخاذكم العجل إلها.

٢٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

أ. قيل: لكي تشكروا الله على عفوه عنكم وسائر نعمه عليكم.

ب. وقيل: معناه التعريض أي عرفناكم للشكر.

٧. في هذه الآية دلالة على وجوب شكر النعمة، وعلى أن العفو عن الذنب بعد التوبة نعمة من الله على عباده ليشكروه.

٢٣. معنى قولنا في الله أنه ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أنه يجازي العبد على طاعاته من غير أن ينقصه شيئا من حقه، فجعل المجازاة على الطاعة شكرا في مجاز اللغة، ولا يستحق الإنسان الشكر على نفسه لأنه لا يكون منعما على نفسه، فالنعمة تقتضي منعما غير المنعم عليه، كما أن القرض يقتضي مستقرضا غير المقرض،

وقد يصح أن يحسن الإنسان إلى نفسه كما يصح أن يسيء إليها لأن الإحسان من الحسن، فإذا فعل بها فعلا حسنا ينتفع به كان محسنا إليها بذلك الفعل، وإذا فعل بها فعلا قبيحا تستضر به كان مسيئا إليها ولا يستحق الكافر الشكر على الوجه الذي يستحقه المؤمن، لأن المؤمن من يستحق الشكر على وجه الإجلال والإعظام، والكافر لا يستحقه كذلك، وإنما يجب له مكافاة نعمته كما يجب قضاء دينه على وجه الخروج منه إليه من غير تعظيم له.

٢٤. الفرق بين الشكر والمكافاة أن المكافاة من التكافي وهو التساوي وليس كذلك الشكر ففي المكافاة للنعمة دلالة على أنه قد استوفى حقها وقد يكون الشكر مقصرا عنها، وإن كان ليس على المنعم عليه أكثر منه إلا أنه كلما ازداد من الشكر حسن الازدياد وإن لم يكن واجبا لأن الواجب لا يكون إلا متناهيا وذلك كالشكر لنعمة الله تعالى لو استكثر به غاية الاستكثار لم يكن لينتهي إلى حد لا يجوز له الازدياد لعظم نعمة الله سبحانه وصغر شكر العبد.

٢٥. مسائل نحوية:

أ. ﴿يَوْمًا﴾: انتصابه انتصاب المفعول، لا انتصاب الظروف، لأن معناه اتقوا هذا اليوم واحذروه، وليس معناه اتقوا في هذا اليوم، لأن ذلك اليوم لا يؤمر فيه بالاتقاء، وإنما يؤمر في غيره من أجله.

ب. موضع ﴿لَا تَجْزِي﴾: نصب لأنه صفة ﴿يَوْمَ﴾، والعائد إلى الموصوف فيه اختلاف: ذهب سيبويه إلى أن فيه محذوف من الكلام، أي: لا يجزي فيه، وقال آخرون: لا يجوز إضمار فيه، لأنك لا تقول هذا رجل قصدت أو رغبت، وأنت تريد إليه أو فيه، فهو محمول على المفعول على السعة، كأنه قيل واتقوا يوما لا تجزيه، ثم حذف الهاء، كما يقال رأيت رجلا أحب أي: أحبه، وهو قول السراج، قال أبو علي: حذف الهاء من الصفة كما يحذف من الصلة، لما بينهما من المشابهة، فإن الصفة تخصص الموصوف، كما أن الصلة تخصص الموصول، ولا يعمل في الموصوف، ولا يتسلط عليه، كما لا يعمل الصلة في الموصول، ومرتبتها أن تكون بعد الموصوف، كما أن مرتبة الصلة أن تكون بعد الموصول، وقد يلزم الصفة في أماكن، كما يلزم الصلة، وذلك إذا لم يعرف الموصوف إلا بها، ولا تعمل الصلة فيما قبل الموصول، كما لا تعمل الصف فيما قبل الموصوف، فإذا كان كذلك حسن الحذف من الصفة، كما يحسن من الصلة في نحو قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾

ج. ﴿شَيْئًا﴾: قال الأخفش: ﴿شَيْئًا﴾ في موضع المصدر، كأنه قال لا تجزي جزاء، ولا تغني غناء.. وقال الرماني: الأقرب أن يكون ﴿شَيْئًا﴾ في موضع حقا، كأنه قال لا يؤدي عنها حقا وجب عليها.

د. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾: موضع هذه الجملة نصب بالعطف على الجملة التي هي وصف قبلها، ومن ذهب إلى أنه حذف الجار، وأوصل الفعل إلى المفعول، ثم حذف الراجع من الصفة، كان مذهبه في لا يقبل أيضا مثله، فمما حذف منه الراجع إلى الصفة قول الشاعر: (وما شيء حميت بمستباح)

هـ. الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ عائد إلى نفس على اللفظ، وفي قوله ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ على المعنى، لأنه ليس المراد به المفرد، فلذلك جمع.

و. العامل في ﴿إِذْ﴾ من قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ قوله ﴿اذْكُرُوا﴾ من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ فهو عطف على ما تقدم.

ز. قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال من آل فرعون، والعامل فيه ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾، ويجوز أن يكون للاستئناف.

ح. الأبناء: جمع ابن، وأصل ابن بنو بفتح الفاء والعين، ويدل على أن الفاء كانت مفتوحة قولهم في جمعه أبناء على وزن أفعال، وأفعال بابه أن يكون لفعل نحو: جبل وأجبال، كما كان فعل بتسكين العين بابه أفعل، نحو: فرخ وأفرخ، والمحذوف من الابن الواو على ما قلناه، لأنها أثقل، فهي بالحذف أولى، وإليه ذهب الأخفش، وأبو علي الفسوي.

ط. قوله: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لا يخلو تعلق الأربعين بالوعد من أن يكون على أنه ظرف، أو مفعول ثان، فلا يجوز أن يكون ظرفا، لأن الوعد ليس فيها كلها، فيكون جواب كم، ولا في بعضها فيكون جوابا لمتى، وإنما الموعدة تقضي الأربعين، فإذا لم يكن ظرفا كان انتصابه بوقوعه موقع المفعول الثاني، والتقدير: وعدنا موسى انقضاء أربعين ليلة، أو تتمة أربعين ليلة، فحذف المضاف كما تقول اليوم خمسة عشر من الشهر أي: تمام خمسة عشر.

ي. انتصاب أربعين في قوله ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فالميقات هو الأربعون، وإنما هو ميقات وموعد، فيكون كقولك تم القوم عشرين رجلا، والمعنى تم القوم معدودين هذا العدد، وتم الميقات معدودا هذا العدد، وقد جاء الميقات في موضع الميعاد، كما جاء الوقت موضع الوعد، في قوله ﴿إِلَى يَوْمِ

الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وفي موضع آخر: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ويبين ذلك قوله ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وفي الآية ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

ك. ليلة: تنتصب على التبيين والتمييز للعدد، والأصل في بيان العدد أن يبين بذكر المعدود، وإنما انتصب بالاسم التام الذي هو أربعون، وهو مشبه بالكلام التام الذي ينتصب بعده ما يكون فضلة عنه.

ل. معنى تمام الاسم هاهنا هو تركيب هذا النون الذي تتممه معه فأشبه الجملة المركبة من فعل وفاعل من جهة أنه متمم بشيء آخر، وبينهما شبه آخر، وهو أن في الجملة التي من فعل وفاعل معنى يقتضي المفعول، وهو ذكر الفعل، وفي العدد إبهام يقتضي التفسير والبيان ليفيد أي نوع من الأنواع هو، فينصب على هذا المعنى، ولذلك قال سيبويه: إن في هذا الضرب، وهو تمام الاسم معنى يحجز بين الاسم الأول، وما يجيء بعد التمام، فالنون في ﴿أَرْبَعِينَ﴾ هو بمنزلة الفاعل الذي يحجز من أن يسند الفعل إلى المفعول، فيسند إلى الفاعل، وينتصب المفعول لذلك، والنون يتم الاسم الأول، فينتصب الاسم الذي بعده.

م. قوله: ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ فإن اتخذت على ضربين: أحدهما يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ والآخر: يتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ تقديره واتخذتم العجل إلها، فحذف المفعول الثاني، لأن من صاغ عجلا، أو عمله، لا يستحق الوعيد والغضب من الله تعالى.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، يعني: على عالمي زمانهم، قاله ابن عباس، وأبو العالية ومجاهد وابن زيد. قال ابن قتيبة: وهو من العام الذي أريد به الخاص.

٢. (العدل) هو الفداء، وسمّي عدلا، لأنه يعادل المفدى، واختلف اللغويون: هل (العدل) و(العدل) فتح العين وكسرها يختلفان، أم لا؟

أ. قال الفرّاء: العدل بفتح العين: ما عادل الشيء من غير جنسه، والعدل بكسرها: ما عادل الشيء

---

(١) زاد المسير: ١/٦٣.

من جنسه، فهو المثل، تقول: عندي عدل غلامك، بفتح العين: إذا أردت قيمته من غير جنسه، وعندي عدل غلامك، بكسر العين: إذا كان غلام يعدل غلاما.

ب. حكى الزّجّاج عن البصريين أن العدل والعدل في معنى المثل، وأن المعنى واحد، سواء كان المثل من الجنس أو من غير الجنس.

٣. قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾، أي: يمنعون من عذاب الله.

٤. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ تقديره: واذكروا إذ نجّيناكم، وهذه النّعم على آبائهم كانت.

٥. في ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنهم أهل مصر، قاله مقاتل.

ب. الثاني: أهل بيته خاصة، قاله أبو عبيدة.

ج. الثالث: أتباعه على دينه، قاله الزّجّاج.

٦. الآل والأهل بمعنى، أو يختلفان؟ فيه قولان.

أ. فرعون: اسم أعجميّ، وقيل: هو لقبه، وفي اسمه أربعة أقوال:

ب. أحدها: الوليد بن مصعب، قاله الأكثرون.

ج. الثاني: فيطوس، قاله مقاتل.

د. الثالث: مصعب بن الريّان، حكاه ابن جرير الطّبريّ.

هـ. الرابع: مغيث، ذكره بعض المفسّرين.

٧. قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، أي: يولونكم، يقال: فلان يسومك خسفا، أي: يوليك ذلا واستخفافا، و ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾: شديدة:

أ. كان الزّجّاج يرى أن قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ تفسير لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

ب. أبى هذا بعض أهل العلم، فقال: قد فرّق الله بينهما في موضع آخر، فقال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، وإنما سوء العذاب: استخدامهم في أصعب الأعمال.

ج. قال الفرّاء: الموضع الذي فيه الواو، يبيّن أنه قد مسّهم من العذاب غير الذبح، فكأنه قال يعذّبونكم بغير الذبح وبالذبح.

٨. قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾، أي: يستبقون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾، أي: بناتكم، وإنما استبقوا نساءكم للاستذلال والخدمة.

٩. في البلاء هاهنا قولان:

أ. أحدهما: أنه بمعنى النّعمة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو مالك، وابن قتيبة والزّجّاج.

ب. الثاني: أنه النّقمة، رواه السّدّيّ عن أشياخه، فعلى هذا القول يكون (ذا) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾: عائدا على سومهم سوء العذاب، وذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، وعلى القول الأوّل يعود على النجاة من آل فرعون.

١٠. قال أبو العالية: وكان السبب في ذبح الأبناء، أن الكهنة قالت لفرعون: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فقتل الأبناء.. قال الزّجّاج: فالعجب من حمق فرعون، إن كان الكاهن عنده صادقا، فما ينفع القتل!؟ وإن كان كاذبا فما معنى القتل!؟

١١. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، الفرق: الفصل بين الشيئين، و(بكم) بمعنى (لكم)، وإنما ذكر آل فرعون دونه، لأنه قد علم كونه فيهم.

١٢. في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، قولان:

أ. أحدهما: أنه من نظر العين، ومعناه: وأنتم ترونهم يغرقون.

ب. الثاني: أنه بمعنى: العلم؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، قاله الفرّاء.

١٣. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ﴾ وعدنا موسى تتمة أربعين يوما أو انقضاء أربعين ليلة، ولما ذا كان هذا الوعد؟ فيه قولان:

أ. أحدهما: لأخذ التوراة.

ب. الثاني: للتكليم.

١٤. في هذه المدّة قولان:

أ. أحدهما: أنها ذو القعدة وعشر من ذي الحجّة، وهذا قول من قال كان الوعد لإعطاء التوراة.

ب. الثاني: أنها ذو الحجّة وعشر من المحرّم، وهو قول من قال كان الوعد للتكليم.

١٥. إنما ذكرت الليالي دون الأيام:

أ. لأن عادة العرب التأريخ بالليالي، لأن أول الشهر ليله، واعتماد العرب على الأهلّة، فصارت الأيام تبعا لليالي.

ب. قال أبو بكر النّقّاش: إنما ذكر الليالي، لأنه أمره أن يصوم هذه الأيام ويواصلها بالليالي، فلذلك ذكر الليالي، وليس بشيء.

١٦. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ﴾، من بعده، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. إنما أعاد الله تعالى هذا الكلام مرة أخرى توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً من ترك اتباع محمد ﷺ ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨، ١٢٣] كأنه قال: إن لم تطيعوني لأجل سوالف نعمتي عليكم، فأطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل.

٢. النعمة بكسر النون المنة وما ينعم به الرجل على صاحبه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢]، وأما النعمة بفتح النون فهو ما يتنعم به في العيش، قال تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧].

٣. في عموم الآية وخصوصها، قال ابن زيد: أراد به المؤمنين منهم لأن عصاتهم مسخوا قردة وخنازير على ما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨].

٤. جميع ما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل تنبيه للعرب لأن الفضيلة بالنبي قد لحقتهم، وجميع أقاصيص الأنبياء تنبيه وإرشاد، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]، وقال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ولذلك روى قتادة قال ذكر لنا أن عمر كان يقول: قد مضى والله بنو إسرائيل وما يغني ما تسمعون عن غيركم.

٥. قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يدل على أن رعاية الأصلح لا تجب على الله تعالى لا

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٤٩٣.

في الدنيا ولا في الدين، لأن قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يتناول جميع نعم الدنيا والدين، فذلك التفضيل إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً، فإن كان واجباً لم يجز جعله منة عليهم لأن من أدى واجباً فلا منة له على أحد، وإن كان غير واجب مع أنه تعالى خصص البعض بذلك دون البعض، فهذا يدل على أن رعاية الأصلح غير واجبة لا في الدنيا ولا في الدين.

٦. قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لا يلزم أن يكونوا أفضل من محمد ﷺ باتفاق، للأدلة التالية:

أ. قال قوم: العالم عبارة عن الجمع الكثير من الناس كقولك: رأيت عالماً من الناس، والمراد منه الكثير لا الكل، وهذا ضعيف لأن لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل، فكل ما كان دليلًا على الله تعالى كان عالماً، فكان من العالم، وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات.

ب. المراد فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك الشخص من جملة العالمين حال عدمه لأن شرط العالم أن يكون موجوداً والشيء حال عدمه لا يكون موجوداً، فالشيء حال عدمه لا يكون من العالمين، وأن محمداً ﷺ ما كان موجوداً في ذلك الوقت، فما كان ذلك الوقت من العالمين فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت كونهم أفضل من محمد ﷺ في ذلك الوقت، وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وأراد به عالمي ذلك الزمان، وإنما كانوا أفضل من غيرهم بما أعطوا من الملك والرسالة والكتب الإلهية.

ج. أن قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عام في العالمين، لكنه مطلق في الفضل، والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة، فالآية تدل على أن بني إسرائيل فضلوا على العالمين في أمر ما، وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الأمور، بل لعلهم وإن كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد فغيرهم يكون أفضل منهم فيما عدا ذلك الأمر، وعند ذلك يظهر أنه لا يصح الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] على أن الأنبياء أفضل من

الملائكة.

٧. سؤال وإشكال: لما خصهم بالنعم العظيمة في الدنيا، فهذا يناسب أن يخصهم أيضاً بالنعم العظيمة في الآخرة كما قيل: إتمام المعروف خير من ابتدائه، فلم أردف ذلك التخويف الشديد في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؟ والجواب: لأن المعصية مع عظم النعمة تكون أقبح وأفحش فلهذا حذرهم عنها.

٨. اتقاء اليوم: اتقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد، لأن نفس اليوم لا يتقى، ولا بد من أن يرده أهل الجنة والنار جميعاً.

٩. وصف الله تعالى اليوم بأشد الصفات وأعظمها تهويلًا، وذلك:

أ. لأن العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة، وحاولت أعوانه دفاع ذلك عنه بذلت ما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته.

ب. فإن رأى من لا طاقة له بمانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة.

ج. فإن لم تغن عنه الحالتان من الخشونة والليان لم يبق بعده إلا فداء الشيء بمثله، إما مال أو غيره.

د. وإن لم تغن عنه هذه الثلاثة تعلل بما يرجوه من نصر الأخلاء والأخوان.

فأخبر الله سبحانه أنه لا يغني شيء من هذه الأمور عن المجرمين في الآخرة.

١٠. سؤال وإشكال: الفائدة من قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ هي الفائدة من قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ فما المقصود من هذا التكرار؟ والجواب: المراد من قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أنه لا يتحمل عنه غيره ما يلزمه من الجزاء، وأما النصرة فهي أن يحاول تخليصه عن حكم المعاقب.

١١. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾: الشفاعة أن يستوهب أحد لأحد شيئاً ويطلب له حاجة وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر، كأن صاحب الحاجة كان فرداً فصار الشفيع له شفعاً أي صارا زوجاً.

١٢. الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾:

أ. قيل: راجع إلى النفس الثانية العاصية، وهي التي لا يؤخذ منها عدل، ومعنى لا يقبل منها شفاعة إنها إن جاءت بشفاعة شفيع لا يقبل منها.

ب. وقيل: يجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئاً.

١٣. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية، وأصل الكلمة من معادلة الشيء تقول: ما أعدل بفلان أحداً، أي لا أرى له نظيراً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] ونظيره هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

١٤. قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾: التناصر إنما يكون في الدنيا بالمخالطة والقرابة، وقد أخبر الله تعالى أنه ليس يومئذ خلة ولا شفاعة وأنه لا أنساب بينهم، وإنما المرء يفر من أخيه وأمه وأبيه وقرابته، قال القفال: والنصر يراد به المعونة كقوله: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، ومنه معنى الإغاثة: تقول العرب: أرض منصورة أي ممطورة، والغيث ينصر البلاد إذا أنبتها فكأنه أغاث أهلها وقيل في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ١٥] أي أن لن يرزقه كما يرزق الغيث البلاد، ويسمى الانتقام نصرة وانتصاراً، قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٧] قالوا معناه: فانتقمنا له.

١٥. قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يحتمل هذه الوجوه، فإنهم يوم القيامة لا يغاثون، ويحتمل أنهم إذا عذبوا لم يجدوا من ينتقم لهم من الله، وفي الجملة كأن النصر هو دفع الشدائد، فأخبر الله تعالى أنه لا دافع هناك من عذابه.

١٦. في الآية الكريمة أعظم تحذير عن المعاصي، وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة، لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة، فإذا كان لا يأمن كل ساعة من التقصير في العبادة، ومن فوت التوبة من حيث إنه لا يقين له في البقاء صار حذراً خائفاً في كل حال.

١٧. الآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة للكل لأن الوصف الذي ذكر فيها وصف لليوم، وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم.

١٨. الأصل في جزى هذا عند أهل اللغة قضى، ومنه الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بردة بن يسار: تجزيك ولا تجزي أحداً بعدك)، هكذا يرويه أهل العربية: تجزيك) بفتح التاء غير مهموز أي تقضي عن أضحيتك وتنوب.

١٩. معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: أن يوم القيامة لا تنوب نفس عن نفس شيئاً، ولا تحمل عنها شيئاً مما أصابها، بل يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه ومعنى هذه النيابة أن طاعة المطيع لا تقضي على العاصي ما كان واجباً عليه، وقد تقع هذه النيابة في الدنيا كالرجل يقضي عن قريبه وصديقه دينه ويتحمل عنه، فأما يوم القيامة فإن قضاء الحقوق إنما يقع فيه من الحسنات، قال رسول الله ﷺ: رحم الله عبداً كان عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال أو جاه فاستحله قبل أن يؤخذ منه وليس ثم دينار ولا درهم فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته وإن لم يكن له حسنات حمل من سيئاته)

٢٠. قدّم الله تعالى في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الفدية، وذكر هذه الآية في هذه السورة بعد العشرين والمائة، وقدم قبول الفدية على ذكر الشفاعة لأن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى هذين الصنفين.

٢١. لما قدم الله تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالًا بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة، فكأنه قال اذكروا نعمتي واذكروا إذ نجيناكم واذكروا إذ فرقنا بكم البحر وهي إنعامات، والمذكور في هذه الآية هو الإنعام الأول.

٢٢. اختلف المفسرون في المراد من ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾:

أ. قال محمد بن إسحاق: إنه جعلهم خولًا وخدماً له وصنفهم في أعماله أصنافاً، فصنف كانوا يبنون له، وصنف كانوا يحرثون له، وصنف كانوا يزرعون له، فهم كانوا في أعماله ومن لم يكن في نوع من أعماله كان يأمر بأن يوضع عليه جزية يؤديها.

ب. قال السدي: كان قد جعلهم في الأعمال القذرة الصعبة مثل كنس المبرز وعمل الطين ونحت الجبال.

٢٣. حكى الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا

جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال موسى لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، وكون الإنسان تحت يد الغير بحيث يتصرف فيه كما يشاء لا سيما إذا استعمله في الأعمال الشاقة الصعبة القذرة، فإن ذلك يكون من أشد أنواع العذاب، حتى أن من هذه حالته ربما تمنى الموت فبين الله تعالى عظيم نعمه عليهم بأن نجاهم من ذلك.

٢٤. معنى ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: يقتلون الذكورة من الأولاد دون الإناث، وهو مضرة من وجوه:

أ. أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، وذلك يقتضي انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبتة في ذلك، وذلك يفضي آخر الآمر إلى هلاك الرجال والنساء.

ب. ثانيها: أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة، فإن المرأة لتتمنى وقد انقطع عنها تعهد الرجال وقيامهم بأمرها الموت، لما قد يقع إليها من نكد العيش بالانفراد فصارت هذه الخصلة عظيمة في المحن، والنجاة منها في العظم تكون بحسبها.

ج. ثالثها: أن قتل الولد عقيب الحمل الطويل وتحمل الكد والرجاء القوي في الانتفاع بالمولود من أعظم العذاب، لأن قتله والحالة هذه أشد من قتل من بقي المدة الطويلة مستمتعاً به مسروراً بأحواله، فنعمة الله من التخليص لهم من ذلك بحسب شدة المحنة فيه.

د. رابعها: أن الأبناء أحب إلى الوالدين من البنات، ولذلك فإن أكثر الناس يستثقلون البنات ويكرهونهن وإن كثر ذكرانهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ [النحل: ٥٨] الآية، ولذلك نهى العرب عن الوأد بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] وإنما كانوا يئدون الإناث دون الذكور.

هـ. خامسها: أن بقاء النسوان بدون الذكران يوجب صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان.

٢٥. اختلف في قوله تعالى: ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾:

أ. قيل: أراد به الرجال دون الأطفال ليكون في مقابلة النساء إذ النساء هن البالغات، وكذا المراد من الأبناء هم الرجال البالغون، قالوا: إنه كان يأمر بقتل الرجال الذين يخاف منهم الخروج عليه والتجمع لإفساد أمره.

ب. أكثر المفسرين على أن المراد بالآية الأطفال دون البالغين، وهذا هو الأولى لوجوه:

أ. الأول: حملًا للفظ الأبناء على ظاهره.

ب. الثاني: أنه كان يتعذر قتل جميع الرجال على كثرتهم.

ج. الثالث: أنهم كانوا محتاجين إليهم في استعمالهم في الصنائع الشاقة.

د. الرابع: أنه لو كان كذلك لم يكن لإلقاء موسى عليه السلام في التابوت حال صغره معنى.

٢٦. ذكر الأبناء في مقابلة النساء لأجل أن الأبناء لما قتلوا حال الطفولية لم يصيروا رجالًا، فلم يجز إطلاق اسم الرجال عليهم، أما البنات لما لم يقتلن بل وصلن إلى حد النساء جاز إطلاق اسم النساء عليهن.

٢٧. اختلف في سبب قتل الأبناء ذكروا فيه وجوهاً:

أ. أحدها: قول ابن عباس أنه وقع إلى فرعون وطبقته ما كان الله وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً فخافوا ذلك واتفقت كلمتهم على إعداد رجال معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، فلما رأوا كبارهم يموتون وصغارهم يذبحون خافوا الفناء فحينئذ لا يجدون من يباشر الأعمال الشاقة، فصاروا يقتلون عاماً دون عام.

ب. ثانيها: قول السدي: إن فرعون رأى ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل فدعا فرعون الكهنة وسألهم عن ذلك؟ فقالوا: يخرج من بيت المقدس من يكون هلاك القبط على يده.

ج. ثالثها: أن المنجمين أخبروا فرعون بذلك وعينوا له السنة فلهذا كان يقتل أبناءهم في تلك السنة.

٢٨. الأقرب هو الأول، لأن الذي يستفاد من علم التعبير وعلم النجوم لا يكون أمراً مفصلًا وإلا قدح ذلك في كون الإخبار عن الغيب معجزاً بل يكون أمراً مجملًا، والظاهر من حال العاقل أن لا يقدم على مثل هذا الأمر العظيم بسببه.

٢٩. سؤال وإشكال: إن فرعون كان كافراً بالله فكان بأن يكون كافراً بالرسل أولى، وإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يقدم على هذا الأمر العظيم بسبب إخبار إبراهيم عليه السلام عنه؟ والجواب:

أ. قيل: لعل فرعون كان عارفاً بالله وبصدق الأنبياء إلا أنه كان كافراً كفر الجحود والعناد.

ب. وقيل: إنه كان شاكاً متحيراً في دينه وكان يجوز صدق إبراهيم عليه السلام فأقدم على ذلك الفعل احتياطاً.

٣٠. هذه هي النعمة الثانية، وقوله: ﴿فَرَقْنَا﴾ أي فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم، وفي ﴿بِكُمُ﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أنهم كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما توسط بينهما.

ب. الثاني: فرقناه بسببكم وبسبب إنجائكم.

٣١. آل فرعون: قال صاحب الكشاف: أصل آل أهل ولذلك يصغر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفاً وخص استعماله بأولي الخطر والشأن، كالملوك وأشباههم ولا يقال: آل الحجام والإسكاف، قال عيسى: الأهل أعم من الآل، يقال: أهل الكوفة وأهل البلد وأهل العلم ولا يقال: آل الكوفة وآل البلد وآل العلم، فكأنه قال الأهل هم خاصة الشيء من جهة تغليبه عليهم، والآل خاصة الرجل من جهة قرابة أو صحبة، وحكي عن أبي عبيدة أنه سمع فصيحاً يقول: أهل مكة آل الله.

٣٢. فرعون: هو علم لمن ملك مصر من العمالقة كقيصر وهرقل لملك الروم وكسرى لملك الفرس وتبع لملك اليمن وخاقان لملك الترك، واختلفوا في فرعون من وجهين:

أ. أحدهما: أنهم اختلفوا في اسمه فحكى ابن جريج عن قوم أنهم قالوا: مصعب بن ريان، وقال ابن اسحق: هو الوليد بن مصعب، ولم يكن من الفراعنة أحد أشد غلظة ولا أقسى قلباً منه، وذكر وهب بن منبه أن أهل الكتابين قالوا: إن اسم فرعون كان قابوس وكان من القبط.

ب. الثاني: قال ابن وهب: إن فرعون يوسف عليه السلام هو فرعون موسى وهذا غير صحيح، إذ كان بين دخول يوسف مصر وبين أن دخلها موسى أكثر من أربعمائة سنة، وقال محمد بن اسحق: هو غير فرعون يوسف وأن فرعون يوسف كان اسمه الريان بن الوليد.

٣٣. لا شك أن المراد من آل فرعون هاهنا من كان من قوم فرعون وهم الذين عزموا على إهلاك بني إسرائيل ليكون تعالى منجياً لهم منهم بما تفضل به من الأحوال التي توجب بقاءهم وهلاك فرعون وقومه.

٣٤. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ فهو من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونه بكم.

٣٥. السوء مصدر ساء بمعنى السيئ، يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل يراد قبحهما، ومعنى سوء العذاب والعذاب كله سيئ أشده وأصعبه كأن قبحه [زاد] بالإضافة إلى ساء.

٣٦. الفائدة في ذكر هذه النعمة من وجوه:

أ. أحدها: أن هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخليص الله إياهم من هذه المحن من أعظم النعم، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم، وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم، ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم، وتعظيم النعمة يوجب الانقياد والطاعة، ويقتضي نهاية قبح المخالفة والمعاندة، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه النعمة العظيمة مبالغة في إلزام الحجة عليهم وقطعاً لعذرهم.

ب. ثانيها: أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل وكان خصمهم في نهاية العز إلا أنهم كانوا محقين وكان خصمهم مبطلًا لا جرم زال ذل المحقين وبطل عز المبطلين، فكأنه تعالى قال: لا تغتروا بفقر محمد وقلة أنصاره في الحال، فإنه محق لا بد وأن ينقلب العز إلى جانبه والذل إلى جانب أعدائه.

ج. ثالثها: أن الله تعالى نبه بذلك على أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، فليس للإنسان أن يغتر بعز الدنيا بل عليه السعي في طلب عز الآخرة.

٣٧. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أصل الكلمة من الابتلاء وهو الاختيار والامتحان قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].. والبلوى واقعة على النوعين، فيقال للنعمة بلاء وللمحنة الشديدة بلاء والأكثر أن يقال في الخير إبلاء وفي الشر بلاء وقد يدخل أحدهما على الآخر. قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

٣٨. البلاء هاهنا هو المحنة إن أشير بلفظ: ذلكم) إلى صنع فرعون والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء وحمله على النعمة أولى لأنها هي التي صدرت من الرب تعالى، ولأن موضع الحجة على اليهود إنعام الله

تعالى على أسلافهم.

٣٩. ذكر في هذه السورة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بلا واو وفي سورة إبراهيم ذكره مع الواو، والوجه فيه أنه إذا جعل قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ مفسراً بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ لم يحتج إلى الواو، وأما إذا جعل قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ مفسراً بسائر التكاليف الشاقة سوى الذبح وجعل الذبح شيئاً آخر سوى سوء العذاب، احتيج فيه إلى الواو، وفي الموضعين يحتمل الوجهين، إلا أن الفائدة التي يجوز أن تكون هي المقصودة من ذكر حرف العطف في سورة إبراهيم أن يقال: إنه تعالى قال قبل تلك الآية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] والتذكير بأيام الله لا يحصل إلا بتعديد نعم الله تعالى، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ نوعاً من العذاب، والمراد من قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ نوعاً آخر ليكون التخلص منهما نوعين من النعمة، فلهذا وجب ذكر العطف هناك، وأما في هذه الآية لم يرد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة، وهي قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢] فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير جنس النعمة حاصلًا فظهر الفرق.

٤٠. هذه الواقعة تضمنت نعماً دنيوية كثيرة في حق موسى عليه السلام وبني إسرائيل، منها:

أ. أحدها: أنهم لما وقعوا في ذلك المضيق الذي من ورائهم فرعون وجنوده وقدامهم البحر، فإن توقفوا أدركهم العدو وأهلكهم بأشد العذاب وإن ساروا غرقوا فلا خوف أعظم من ذلك، ثم إن الله نجاهم بفلق البحر فلا فرج أشد من ذلك.

ب. ثانيها: أن الله تعالى خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة، وذلك سبب لظهور كرامتهم على الله تعالى.

ج. ثالثها: انهم شاهدوا أن الله تعالى أهلك أعداءهم ومعلوم أن الخلاص من مثل هذا البلاء من أعظم النعم، فكيف إذا حصل معه ذلك الإكرام العظيم وإهلاك العدو.

د. رابعها: أن أورثهم أرضهم وديارهم ونعمهم وأموالهم.

هـ. خامسها: أنه تعالى لما أغرق آل فرعون فقد خلص بني إسرائيل منهم، وذلك نعمة عظيمة لأنه كان خائفاً منهم، ولو أنه تعالى خلص موسى وقومه من تلك الورطة وما أهلك فرعون وقومه لكان

الخوف باقياً من حيث إنه ربما اجتمعوا واحتالوا بحيلة وقصدوا إيذاء موسى عليه السلام وقومه، ولكن الله تعالى لما أغرقهم فقد حسم مادة الخوف بالكلية.

و. سادسها: أنه وقع ذلك الإغراق بمحضر من بني إسرائيل، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

٤١. هذه الواقعة تضمنت نعماً دنيوية كثيرة في حق موسى عليه السلام وبني إسرائيل، منها:

أ. أحدها: أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات، فإن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى عليه السلام تقرب من العلم الضروري، فكأنه تعالى رفع عنهم تحمل النظر الدقيق والاستدلال الشاق.

ب. ثانيها: أنهم لما عاينوا ذلك صار داعياً لهم إلى الثبات على تصديق موسى والانقياد له وصار ذلك داعياً لقوم فرعون إلى ترك تكذيب موسى عليه السلام والاقدام على تكذيب فرعون.

ج. ثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور بيد الله فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون ولا شدة أشد مما كانت ببني إسرائيل، ثم إن الله تعالى في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلًا والذليل عزيزاً، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا والإقبال بالكلية على خدمة الخالق والتوكل عليه في كل الأمور.

٤٢. هذه الواقعة تضمنت نعماً دنيوية كثيرة لأمة محمد ﷺ، منها:

أ. أحدها: أنه كالحجة لمحمد ﷺ على أهل الكتاب لأنه كان معلوماً من حال محمد ﷺ أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط أهل الكتاب، فإذا أورد عليهم من أخبارهم المفصلة ما لا يعلم إلا من الكتب علموا أنه أخبر عن الوحي وأنه صادق، فصار ذلك حجة له ﷺ على اليهود وحجة لنا في تصديقه.

ب. ثانيها: أنا إذا تصورنا ما جرى لهم وعليهم من هذه الأمور العظيمة علمنا أن من خالف الله شقي في الدنيا والآخرة ومن أطاعه فقد سعد في الدنيا والآخرة، فصار ذلك مرغباً لنا في الطاعة ومنفراً عن المعصية.

ج. ثالثها: أن أمة موسى عليه السلام مع أنهم خصوا بهذه المعجزات الظاهرة والبراهين الباهرة، فقد خالفوا موسى عليه السلام في أمور حتى قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وأما أمة محمد ﷺ فمع أن معجزتهم هي القرآن الذي لا يعرف كونه معجزاً إلا بالدلائل الدقيقة انقادوا لمحمد

ﷺ وما خالفوه في أمر ألبتة، وهذا يدل على أن أمة محمد ﷺ أفضل من أمة موسى عليه السلام.

٤٣. سؤال وإشكال: فلق البحر في الدلالة على وجود الصانع القادر وفي الدلالة على صدق موسى كالأمر الضروري، فكيف يجوز فعله في زمان التكليف؟ والجواب: أن في المكلفين من يبعد عن الفطنة والذكاء ويختص بالبلادة وعامة بني إسرائيل كانوا كذلك، فاحتاجوا في التنبيه إلى معاينة الآيات العظام كفلق البحر ورفع الطور وإحياء الموتى، ألا ترى أنهم بعد ذلك مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وأما العرب فحالهم بخلاف ذلك، لأنهم كانوا في نهاية الكمال في العقول، فلا جرم، اقتصر الله تعالى معهم على الدلائل الدقيقة والمعجزات اللطيفة.

٤٤. سؤال وإشكال: لما شاهد فرعون فلق البحر وكان عاقلًا فلا بد وأن يعلم أن ذلك ما كان من فعله بل لا بد من قادر عالم مخالف لسائر القادرين، فكيف بقي على الكفر مع ذلك؟ والجواب: حب الشيء يعمي ويصم فحبه الجاه والتلبيس حمله على اقتحام تلك المهلكة، حتى لو قيل إنه كان عارفاً بربه إلا أنه كان كافراً على سبيل العناد والجحود.

٤٥. في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وجوه:

أ. أحدها: أنكم ترون التطام أمواج البحر بفرعون وقومه.

ب. ثانيها: أن قوم موسى عليه السلام سألوه أن يريهم الله تعالى حالهم فسأل موسى عليه السلام ربه أن يريهم إياهم فلفظهم البحر ألف ألف ومائتي ألف نفس وفرعون معهم، فنظروا إليهم طافين وإن البحر لم يقبل واحداً منهم لشؤم كفرهم فهو قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] أي نخرجك من مضيق البحر إلى سعة الفضاء ليراك الناس، وتكون عبرة لهم.

ج. ثالثها: أن المراد وأنتم بالقرب منهم حيث توجهونهم وتقابلونهم وإن كانوا لا يرونهم بأبصارهم، قال الفراء وهو مثل قولك: لقد ضربتك وأهلك ينظرون إليك فما أغاثوك تقول ذلك إذا قرب أهله منه وإن كانوا لا يرونه ومعناه راجع إلى العلم.

٤٦. هذا هو الإنعام الثالث، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا﴾، والمواعدة مفاعلة، ولا بد من اثنين، فله وجوه:

أ. أحدها: أن الوعد وإن كان من الله تعالى فقبوله كان من موسى عليه السلام، وقبول الوعد يشبه

الوعد، لأن القابل للوعد لا بد وأن يقول أفعل ذلك.

ب. ثانيها: لا يبعد أن يكون الآدمي يعد الله، ويكون معناه يعاهد الله.

ج. ثالثها: أنه أمر جرى بين اثنين فجاز أن يقال واعدنا.

د. رابعها: وهو الأقوى أن الله تعالى وعده الوحي، وهو وعد الله المجيء للميقات إلى الطور.

٤٧. في اسم موسى وجوه:

أ. أحدها: وزنه فعلى والميم فيه أصلية أخذت من ماس يميس إذا تبختر في مشيته وكان موسى عليه السلام كذلك.. وهذا فاسد جداً، لأن بني إسرائيل والقبط ما كانوا يتكلمون بلغة العرب، فلا يجوز أن يكون مرادهم ذلك.

ب. ثانيها: وزنه مفعل فالميم فيه زائدة وهو من أوسيت الشجرة إذا أخذت ما عليها من الورق وكأنه سمي بذلك لصلعه.. وهذا فاسد جداً، لأن هذه اللفظة اسم علم، واسم العلم لا يفيد معنى في الذات.

ج. ثالثها: أنها كلمة مركبة من كلمتين بالعبرانية فمو هو الماء بلسانهم، وسى هو الشجر، وإنما سمي بذلك لأن أمه جعلته في التابوت حين خافت عليه من فرعون فألقته في البحر فدفعته أمواج البحر حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون، فخرجت جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأخذنه فسمي باسم المكان الذي أصيب فيه وهو الماء والشجر.. وهو الأقرب، وهو أمر معتاد بين الناس.

٤٨. يروى أن موسى عليه السلام قال لبني إسرائيل: إن خرجنا من البحر سالمين أتيتكم من عند الله بكتاب بين لكم فيه ما يجب عليكم من الفعل والترك، فلما جاوز موسى البحر ببني إسرائيل وأغرق الله فرعون قالوا: يا موسى ائتنا بذلك الكتاب الموعود فذهب إلى ربه ووعدهم أربعين ليلة وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] واستخلف عليهم هارون ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله التوراة عليه في الألواح، وكانت الألواح من زبرجد فقربه الرب نجياً وكلمه من غير واسطة وأسمعه صرير القلم، قال أبو العالية: وبلغنا أنه لم يحدث حدثاً في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور.

٤٩. معنى ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ واعدنا موسى انقضاء أربعين ليلة:

أ. كقولهم: اليوم أربعون يوماً منذ خرج فلان، أي تمام الأربعين، والحاصل أنه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]

ب. وأيضاً فليس المراد انقضاء أي أربعين كان، بل أربعين معيناً وهو الثلاثون من ذي القعدة والعشر الأول من ذي الحجة لأن موسى عليه السلام كان عالماً بأن المراد هو هذه الأربعون.

ج. وأيضاً فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يحتمل أن يكون المراد أنه وعد قبل هذه الأربعين أن يجيء إلى الجبل هذه الأربعين حتى تنزل عليه التوراة، ويحتمل أن يكون المراد أنه أمر بأن يجيء إلى الجبل هذه الأربعين ووعد بأنه ستنزل عليه بعد ذلك التوراة، وهذا الاحتمال الثاني هو المتأيد بالأخبار.

٥٠. قوله هاهنا: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يفيد أن المواعدة كانت من أول الأمر على الأربعين، وقوله في الأعراف ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ يفيد أن المواعدة كانت في أول الأمر على الثلاثين، والتوفيق بينهما هو أنه ليس المراد أن وعده كان ثلاثين ليلة ثم بعد ذلك وعده بعشر لكنه وعده أربعين ليلة جميعاً، وهو كقوله: ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]

٥١. إنما ذكر لفظه (ثم) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ لأنه تعالى لما وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين وأظهر في ذلك درجة موسى عليه السلام وفضيلة بني إسرائيل ليكون ذلك تنبيهاً للحاضرين على علو درجتهم وتعريفاً للغائبين وتكملة للدين، كان ذلك من أعظم النعم فلما أتوا عقيب ذلك بأقبح أنواع الجهل والكفر كان ذلك في محل التعجب فهو كمن يقول إنني أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا، ثم إنك تقصدني بالسوء والإيذاء.

٥٢. في تفسير الظلم في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ وجهان:

أ. الأول: قال أبو مسلم الظلم في أصل اللغة هو النقص، قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، والمعنى أنهم لما تركوا عبادة الخالق المحيي المميت واشتغلوا بعبادة العجل فقد صاروا ناقصين في خيرات الدين والدنيا.

ب. الثاني: أن الظلم في عرف الشرع عبارة عن الضرر الخالي من نفع يزيد عليه ودفع مضرة أعظم منه والاستحقاق عن الغير في علمه أو ظنه، فإذا كان الفعل بهذه الصفة كان فاعله ظالماً ثم إن الرجل إذا

فعل ما يؤديه إلى العقاب والنار قيل: إنه ظالم نفسه وإن كان في الحال نفعاً ولذة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢] ولما كانت عبادتهم لغير الله شركاً وكان الشرك مؤدياً إلى النار سمي ظلماً.

٥٣. استدلت المعتزلة بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ على أن المعاصي ليست بخلق الله تعالى من وجوه:

أ. أحدها: أنه تعالى ذمهم عليها ولو كانت مخلوقة لله تعالى لما استحق الذم إلا من فعلها.

ب. ثانيها: أنها لو كانت بإرادة الله تعالى لكانوا مطيعين لله تعالى بفعلها لأن الطاعة عبارة عن فعل المراد.

ج. ثالثها: لو كان العصيان مخلوقاً لله تعالى لكان الذم بسببه يجري مجرى الذم بسبب كونه أسود وأبيض وطويلًا وقصيراً.

٥٤. أجاب المخالفون لهم بأن هذا تمسك بفعل المدح والذم وهو معارض بمسألتي الداعي والعلم.

٥٥. في الآية تنبيه على أن ضرر الكفر لا يعود إلا عليهم لأنهم ما استفادوا بذلك إلا أنهم ظلموا أنفسهم، وذلك يدل على أن جلال الله منزه عن الاستكمال بطاعة الأتقياء والانتقاص بمعصية الأشقياء.

٥٦. قالت المعتزلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: المراد ثم عفونا عنكم بسبب إتيانكم بالتوبة، وهي قتل بعضهم بعضاً، وهذا ضعيف من وجهين:

أ. الأول: أن قبول التوبة واجب عقلًا فلو كان المراد ذلك لما جاز عده في معرض الإنعام لأن أداء الواجب لا يعد من باب الإنعام والمقصود من هذه الآيات تعديد نعم الله تعالى عليهم.

ب. الثاني: أن العفو اسم لإسقاط العقاب المستحق، فأما إسقاط ما يجب إسقاطه فذاك لا يسمى عفواً ألا ترى أن الظالم لما لم يجز له تعذيب المظلوم، فإذا ترك ذلك العذاب لا يسمى ذلك الترك عفواً فكذا هاهنا.

٥٧. إذا ثبت هذا فإنه لا شك في حصول التوبة في هذه الصورة لقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وإذا كان كذلك دلت هذه الآية على أن قبول التوبة غير واجب عقلًا، وإذا ثبت ذلك ثبت أيضاً أنه تعالى قد أسقط عقاب من يجوز عقابه عقلًا وشرعاً، وذلك أيضاً خلاف قول

المعتزلة، وإذا ثبت أنه تعالى عفا عن كفار قوم موسى فلأن يعفو عن فساق أمة محمد ﷺ مع أنهم: خير أمة أخرجت للناس كان أولى.

٥٨. قالت المعتزلة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: إنه تعالى بين أنه إنما عفا عنهم ولم يؤاخذهم لكي يشكروا، وذلك يدل على أنه تعالى لم يرد منهم إلا الشكر، والجواب: لو أراد الله تعالى منهم الشكر لأراد ذلك إما بشرط أن يحصل للشاكر داعية الشكر أولًا بهذا الشرط، والأول باطل إذ لو أراد ذلك بهذا الشرط كان هذا الشرط من العبد لزم افتقار الداعية إلى داعية أخرى، وإن كان من الله فحيث خلق الله الداعي حصل الشكر لا محالة، وحيث لم يخلق الداعي استحال حصول الشكر، وذلك ضد قول المعتزلة وإن أراد حصول الشكر منه من غير هذه الداعية فقد أراد منه المحال لأن الفعل بدون الداعي محال فثبت أن الإشكال وارد عليهم أيضاً.

٥٩. سؤال وإشكال: هذه القصة التي رواها أهل السير، وعليها إشكالان: إن الله تعالى لما أغرق فرعون ووعد موسى عليه السلام إنزال التوراة عليه قال موسى لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فلما ذهب موسى إلى الطور، وكان قد بقي مع بني إسرائيل الثياب والحلي الذي استعاروه من القبط قال لهم هارون إن هذه الثياب والحلي لا تحل لكم، فأحرقوها فجمعوا ناراً وأحرقوها، وكان السامري في مسيره مع موسى عليه السلام في البحر نظر إلى حافر دابة جبريل عليه السلام حين تقدم على فرعون في دخول البحر فقبض قبضة من تراب حافر تلك الدابة، ثم إن السامري أخذ ما كان معه من الذهب والفضة وصور منه عجلًا وألقى ذلك التراب فيه فخرج منه صوت كأنه الخوار، فقال للقوم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، فاتخذه القوم إلهاً لأنفسهم.

هذا ما في الرواية: والجمع العظيم من العقلاء لا يجوز أن يتفقوا على ما يعلم فساده ببديهة العقل وهذه الحكاية كذلك لأن:

أ. كل عاقل يعلم ببديهة عقله أن الصنم المتخذ من الذهب الذي لا يتحرك ولا يحس ولا يعقل يستحيل أن يكون إله السموات والأرض، وهب أنه ظهر منه خوار ولكن هذا القدر لا يصلح أن يكون شبهة في قلب أحد من العقلاء في كونه إلهاً.

ب. القوم كانوا قد شاهدوا قبل ذلك من المعجزات القاهرة التي تكون قريبة من حد الإلجاء في

الدلالة على الصانع وصدق موسى عليه السلام، فمع قوة هذه الدلالة وبلوغها إلى حد الضرورة ومع أن صدور الخوار من ذلك العجل المتخذ من الذهب يستحيل أن يقتضي شبهة في كون ذلك الجسم المصوت إلهاً.

٦٠. الجواب على هذا الإشكال هو أن هذه الواقعة يمكن تصحيحها بأن يقال:

أ. إن السامري ألقى إلى القوم أن موسى عليه السلام إنما قدر على ما أتى به لأنه كان يتخذ طلسمات على قوى فلكية، وكان يقدر بواسطتها على هذه المعجزات، فقال السامري للقوم: وأنا أتخذ لكم طلسماً مثل طلسمه، وروج عليهم ذلك بأن جعله بحيث خرج منه صوت عجيب فأطمعهم في أن يصيروا مثل موسى عليه السلام في الإتيان بالخوارق.

ب. أو لعل القوم كانوا مجسمة وحلولية، فجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام فلذلك وقعوا في تلك الشبهة.

٦١. في هذه القصة فوائد:

أ. أحدها: أنها تدل على أن أمة محمد ﷺ خير الأمم، لأن أولئك اليهود مع أنهم شاهدوا تلك البراهين القاهرة اغتروا بهذه الشبهة الركيكة جداً، وأما أمة محمد ﷺ فإنهم مع أنهم محتاجون في معرفة كون القرآن معجزاً إلى الدلائل الدقيقة لم يغتروا بالشبهات القوية العظيمة، وذلك يدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلًا وأزكى خاطراً منهم.

ب. ثانيها: أنه ﷺ ذكر هذه الحكاية مع أنه لم يتعلم علماً، وذلك يدل على أنه ﷺ استفادها من الوحي.

ج. ثالثها: فيه تحذير عظيم من التقليد والجهل بالدلائل فإن أولئك الأقوام لو أنهم عرفوا الله بالدليل معرفة تامة لما وقعوا في شبهة السامري.

د. رابعها: في تسلية النبي ﷺ مما كان يشاهد من مشركي العرب واليهود والنصارى بالخلاف عليه وكأنه تعالى أمره بالصبر على ذلك كما صبر موسى ﷺ في هذه الواقعة النكدة فإنهم بعد أن خلصهم الله من فرعون وأراهم المعجزات العجيبة من أول ظهر وموسى إلى ذلك الوقت اغتروا بتلك الشبهة الركيكة، ثم إن موسى عليه السلام صبر على ذلك فلأن يصبر محمد ﷺ على أذية قومه كان ذلك أولى.

هـ. خامسها: أن أشد الناس مجادلة مع الرسول ﷺ وعداوة له هم اليهود فكأنه تعالى قال إن هؤلاء إنما يفتخرون بأسلافهم، ثم إن أسلافهم كانوا في البلادة والجهالة والعناد إلى هذا الحد فكيف هؤلاء الأخلاف.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. معنى ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: أي لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئا تقول جزى عني هذا الامر يجزي كما تقول قضى عني واجتزأت بالشيء اجتزاء إذا اكتفيت به قال الشاعر:

فإن الغدر في الأقوام عار　　　وأن الحر يجزأ بالكراع

أي يكتفي بها، وفي حديث عمر (إذا أجريت الماء على الماء جزى عنك)، يريد إذا صببت الماء على البول في الأرض فجرى عليه طهر المكان ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع، وتنشيف الماء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس، وفي صحيح الحديث عن أبي بردة بن نيار في الأضحية: لن تجزي عن أحد بعدك)، أي لن تغني فمعنى لا تجزي: لا تقضي ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليها شي فإن كان فإنها تجزي وتقضي وتغني بغير اختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شي فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)، ومثله حديثه الآخر في المفلس.

٢. الشفاعة: مأخوذة من الشفع وهما الاثنان تقول كان وترا فشفعته شفعا والشفعة منه لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك، والشفيع صاحب الشفعة وصاحب الشفاعة وناقة شافع إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها تقول منه: شفعت الناقة شفعا وناقة شفوع وهي التي تجمع بين محلبين في حلبة واحدة، واستشفعته إلى فلان: سألته أن يشفع لي إليه، وتشفعت إليه في فلان فشفعني فيه فالشفاعة إذا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعته للمشفوع.

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٣٧٨.

٣. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: أي فداء والعدل (بفتح العين) الفداء و(بكسرها) المثل يقال عدل وعديل للذي يماثلك في الوزن والقدر، ويقال: عدل الشيء هو الذي يساويه قيمة وقدرا وإن لم يكن من جنسه، والعدل (بالكسر) هو الذي يساوي الشيء من جنسه وفي جرمه وحكى الطبري: أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية، فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير.

٤. قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي يعانون، والنصر العون والأنصار الأعوان، ومنه قوله ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي من يضم نصرته إلى نصرتي وأنتصر الرجل: أنتقم والنصر: الإتيان يقال: نصرت أرض بني فلان أتيتها قال الشاعر:

إذا دخل الشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر

والنصر: المطر يقال نصرت الأرض مطرت والنصر العطاء قال إني وأسطار سطرن سطرا... لقائل يا نصر نصرا نصرا.

٥. كان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية، وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا فان الواقع في الشدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو ينصر أو يفتدي.

٦. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: إذ في موضع نصب عطف على ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم.

٧. الخطاب للموجودين، والمراد من سلف من الآباء، كما قال ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، أي حملنا آباءكم، وقيل إنما قال: ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ لان نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين.

٨. معنى ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾: ألقيناكم على نجوة من الأرض، وهي ما ارتفع منها هذا هو الأصل ثم سمى كل فائز ناجيا.. فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة.

٩. قوله تعالى: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ مفعول ثان لـ ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، ومعناه أشد العذاب، ويجوز أن

يكون بمعنى سوم العذاب، وقد يجوز أن يكون نعتا بمعنى سوما سيئا، روى أن فرعون جعل بني إسرائيل خدما وخولا وصنفهم في أعماله فصنف يبنون وصنف يحرثون ويزرعون وصنف يتخدمون، وكان قومه جندا ملوكا ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية فذلك سوء العذاب.

١٠. ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو على البدل من قوله ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ كما قال:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

١١. قال الفراء وغيره ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو على التفسير لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] كما تقول: أتاني القوم زيد وعمرو، فلا تحتاج إلى الواو في زيد، ونظيره: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]

١٢. في سورة إبراهيم ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بالواو لان المعنى: يعذبونكم بالذبح، وبغير الذبح، فقوله ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ جنس آخر من العذاب، لا تفسير لما قبله.. ويحتمل أن يقال: إن الواو زائدة، والواو قد تزاد كما قال: فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى.. أي قد انتحى وقال آخر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة، وهو كثير.

١٣. قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ الذبح: الشق، والذبح: المذبوح، والذباح: تشقق في أصول الأصابع وذبحت الدن بزلته أي كشفته وسعد الذابح: أحد السعود، والمذابح: المحاريب، والمذابح: جمع مذبح وهو إذا جاء السيل فخد في الأرض فما كان كالشبر ونحوه سمي مذبحا.

١٤. كان فرعون يذبح الأطفال، ويبقي البنات، وعبر عنهم باسم النساء بالمال، وقالت طائفة ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ يعني الرجال، وسموا أبناء لما كانوا كذلك، واستدل هذا القائل بقوله ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ والأول أصح لأنه الأظهر.

١٥. اختلف في الإشارة بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾:

أ. قيل: إشارة إلى جملة الامر إذ هو خبر، فهو كمنفرد حاضر أي وفي فعلهم ذلك بكم بلاء أي امتحان واختبار و(بلاء) نعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧]، فالبلاء يكون حسنا، ويكون سيئا، وأصله المحنة، والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه

بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره، فقيل، للحسن بلاء، وللسيئ بلاء، حكاه الهروي.

ب. وقيل: الإشارة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى التنجية، فيكون البلاء على هذا في الخير، أي تنجيتكم نعمة من الله عليكم.

ج. وقيل: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر، والمعنى: وفى الذبح مكروه وامتحان، وقال ابن كيسان ويقال في الخير أبلاه الله وبلاه وأنشد

جزى الله بالإحسان ما فعلا وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين، والأكثر في الخير: أبليته، وفي الشر: بلوته، وفى الاختبار: ابتليته وبلوته.

١٦. اختلف في معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾:

أ. قيل: معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه، وقال أبو عبيدة: يولونكم يقال: سامه خطة خسف إذا أولاه إياها ومنه قول عمرو ابن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا

ب. وقيل: يديمون تعذيبكم، والسوم: الدوام ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعي. قال الأخفش: وهو في موضع رفع على الابتداء وإن شئت كان في موضع نصب غلى الحال أي سائمين لكم.

١٧. نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون، وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم، وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله. قال الطبري: ويقتضي أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به.

١٨. ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بالتشديد على المبالغة، إذ الذبح متكرر، وكان فرعون على ما روي قد رأى في منامه نارا خرجت من بيت المقدس، فأحرقت بيوت مصر، فأولت له رؤياه أن مولودا من بني إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه وقيل غير هذا والمعنى متقارب.

١٩. اختلف النحاة أيضا هل يضاف الآل إلى المضمر أو لا:

أ. منع من ذلك النحاس والزبيدي والكسائي، فلا يقال إلا اللهم صل على محمد وآل محمد ولا يقال وآله والصواب أن يقال: أهله.

ب. ذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال منهم ابن السيد وهو الصواب لان السماع الصحيح

يعضده فإنه قد جاء في قول عبد المطلب:

لاهمّ إن العبد يمن ع رحله فامنع حلالك

وانصر على آل الصلي ب وعابديه اليوم آلك

وقال ندبة:

أنا الفارس الحامي حقيقة وآلي كما تحمي حقيقة آلكا

٢٠. ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي الجبل العظيم، واصل الفرق الفصل، ومنه فرق الشعر ومنه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل أي يفصل، ومنه ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات: ٤] يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل، ومنه ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يعنى يوم بدر كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الاسراء: ١٠٦] أي فصلناه وأحكمناه.

٢١. معنى ﴿بِكُمُ﴾ أي لكم فالباء بمعنى اللام، وقيل الباء في مكانها أي فرقنا البحر بدخولكم إياه، أي صاروا بين المئين فصار الفرق بهم وهذا أولى يبينه ﴿فَانْفَلَقَ﴾

٢٢. ﴿الْبَحْرِ﴾ معروف سمي بذلك لاتساعه، ويقال: فرس بحر إذا كان واسع الجري أي كثيره، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ في مندوب فرس أبى طلحة (وإن وجدناه لبحرا) والبحر: الماء الملح، ويقال: أبحر الماء: ملح قال نصيب:

وقد عاد ماء الأرض بحرا إلى مرضي أن أبحر المشرب

والبحر: البلدة يقال: هذه بحرتنا أي بلدتنا. قاله الأموي، والبحر: السلال.. وذلك أن القابلة كانت تغرق المولود في ماء السلى عام القحط ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ثم جعل كل قتل تغريقا.

٢٣. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو (وعدنا) بغير ألف[1].، واختاره أبو عبيد ورجحه وأنكر ﴿وَاعَدْنَا﴾، واستدل لذلك:

أ. ان المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله عز وجل فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد، وعلى هذا

(١) وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر، وبه قرأ قتادة وابن أبي إسحاق.. قال أبو حاتم: قراءة العامة عندنا (وعدنا) بغير ألف.

وجدنا القرآن، كقوله عز وجل: ﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ (إبراهيم: ٢٢) وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الفتح: ٢٩) وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]

ب. إن ظاهر اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى، وليس فيه وعد من موسى، فوجب حمله على الواحد، لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده.

٢٤. قال الجوهري: الميعاد: المواعدة والوقت والموضع. قال مكي: المواعدة أصلها من اثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب، قالوا: طارقت النعل، وداويت العليل، وعاقبت اللص، والفعل من واحد. فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا، فتكون القراءتان بمعنى واحد، والاختيار ﴿وَاعَدْنَا﴾ بالألف لأنه بمعنى (وعدنا) في أحد معنييه، ولأنه لابد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة.. قال النحاس: وقراءة ﴿وَاعَدْنَا﴾ بالألف أجود وأحسن، وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي.

٢٥. ليس قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من هذا في شي، لأن ﴿وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ إنما هو من باب الموافاة، وليس هذا من الوعد والوعيد في شي، وإنما هو من قولك: موعدك يوم الجمعة، وموعدك موضع كذا، والفصيح في هذا أن يقال: واعدته.. قال أبو إسحاق الزجاج: ﴿وَاعَدْنَا﴾ ها هنا بالألف جيد، لان الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة، فمن الله عز وجل وعد، ومن موسى قبول واتباع يجري مجرى المواعدة. قال ابن عطية، ورجح أبو عبيدة (وعدنا) وليس بصحيح، لان قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة.

٢٦. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي اتخذتموه إلها من بعد موسى، وأصل اتخذتم ائتخذتم من الأخذ ووزنه افتعلتم سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفا في ياتخذ وواوا في موتخذ فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهي التاء وأدغمت ثم أجلبت ألف الوصل للنطق وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: ٨٠] فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير قال الشاعر:

استحدث الركب عن أشياعهم ... أم راجع القلب من أطرابه

ونحوه في القرآن ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ [مريم: ٧٨] ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ [الصافات: ١٥٣] ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ﴾ [ص: ٧٥]، ومذهب أبي علي الفارسي أن ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ من تخذلا من أخذ. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال.

٢٧. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ العفو: عفو الله عز وجل عن خلقه وقد يكون بعد العقوبة وقبلها بخلاف الغفران فإنه لا يكون معه عقوبة البتة، وكل من أستحق عقوبة فتركت له فقد عفي عنه فالعفو: محو الذنب أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم مأخوذ من قولك: عفت الريح الأثر أي أذهبته وعفا الشيء كثر فهو من الأضداد، ومنه قوله تعالى ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف ٩٥]

٢٨. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد عبادتكم العجل، وسمي العجل عجلا لاستعجالهم عبادته، والله أعلم، والعجل ولد البقرة، والعجول مثله والجمع العجاجيل والأنثى عجلة.

٢٩. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تشكروا عفو الله عنكم، والشكر هو في اللغة الظهور من قول دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه، قال الجوهري: الشكر: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف يقال: شكرته وشكرت له وباللام أفصح، والشكران: خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له.

٣٠. قول النبي ﷺ: لا يشكر الله من لا يشكر الناس) يتأول على معنيين:

أ. أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عز وجل وترك الشكر له.

ب. أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيدا للحجة عليهم وتحذيرا لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ وقوله:

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/٩٧.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ معطوف على مفعول اذكروا: أي اذكروا نعمتي وتفضيلي لكم على العالمين.

٢. اختلف في المراد بالعالمين في قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قيل: المراد بالعالمين عالم زمانهم.

ب. وقيل: على جميع العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء.

ج. وقال في الكشاف: على الجمّ الغفير من الناس كقوله: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، يقال: رأيت عالما من الناس؛ يراد الكثرة، وقد رد الرازي في تفسيره على هذا، وقال: وهذا ضعيف، لأن لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل، وكل ما كان دليلا على الله كان علما وكان من العالم، وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات.

٣. اعتراض الرازي ساقط لما يلي:

أ. دعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه.

ب. لو سلّمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدلّ بها على الخالق، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات؛ وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان فليس في اللفظ ما يفيد هذا، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه.

٤. من جعل العالم أهل العصر، فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ، ولا على ما بعده من العصور، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وعند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وعند قوله: ﴿إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

٥. سؤال وإشكال: إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم، والجواب: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزما لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات.

٦. ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وما بعده بدل من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ وقيل: إنه تفسير لما قبله، والذبح في

الأصل: الشقّ، وهو فري أوداج المذبوح.

٧. المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركونهن أحياء ليستخدموهنّ ويمتهنوهنّ؛ وإنما أمر بذبح الأبناء واستحياء البنات لأن الكهنة أخبروه بأنه مولود يكون هلاكه على يده.

٨. عبر عن البنات باسم النساء:

أ. قيل: لأنه جنس يصدق على البنات.

ب. وقيل: أنه أمر بذبح الرجال، واستدلوا بقوله: ﴿نِسَاءَكُمْ﴾

والأوّل أصح بشهادة السبب، ولا يخفى ما في قتل الأبناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها من إنزال الذلّ بهم وإلصاق الإهانة الشديدة بجميعهم لما في ذلك من العار.

٩. الإشارة بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ إلى جملة الأمر، والبلاء يطلق تارة على الخير، وتارة على الشرّ، فإن أريد به هنا الشر كانت الإشارة بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ إلى ما حلّ بهم من النقمة بالذبح ونحوه، وإن أريد به الخير كانت الإشارة إلى النعمة التي أنعم الله عليهم بالإنجاء وما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين.

١٠. اختلف السلف ومن بعدهم في مرجع الإشارة، فرجّح الجمهور الأوّل، ورجح الآخرون الآخر. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشرّ بلوته أبلوه بلاء، وفي الخير أبليه إبلاء وبلاء، قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين، لأنه أراد فأنعم عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده.

١١. اختلف في معنى ﴿بِكُمُ﴾:

أ. قيل: هي بمعنى اللام: أي لكم، الباء السببية: أي فرقناه بسببكم.

ب. وقيل: إن الجار والمجرور في محل الحال: أي فرقناه متلبسا بكم.

والمراد هاهنا: أن فرق البحر كان بهم؛ أي بسبب دخولهم فيه، أي لما صاروا بين المئين صار الفرق بهم.

١٢. ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي أخرجناكم منه ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ فيه، وقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

أ. قيل: في محل نصب على الحال: أي حال كونكم ناظرين إليهم بأبصاركم.

ب. وقيل معناه: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي ينظر بعضكم إلى البعض الآخر من السالكين في البحر.

ج. وقيل: نظروا إلى أنفسهم ينجون وإلى آل فرعون يغرقون.

١٣. ﴿إِذْ نَجَّيْناكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿اذْكُرُوا﴾ والنجاة: النجوة من الأرض، وهي ما ارتفع منها، ثم سمّى كل فائز ناجيا.

١٤. آل فرعون: قومه، وأصل آل: أهل بدليل تصغيره على أهيل.. وقيل: غير ذلك، وهو يضاف إلى ذوي الخطر. قال الأخفش: إنما يقال في الرئيس الأعظم، نحو آل محمد، ولا يضاف إلى البلدان فلا يقال من آل المدينة، وقال الأخفش: قد سمعناه في البلدان، قالوا: آل المدينة، واختلفوا هل يضاف إلى المضمر أم لا، فمنعه قوم وسوّغه آخرون وهو الحق، ومنه قول عبد المطلب:

وانصر على آل الصّلي ب وعابديه اليوم آلك

١٥. فرعون: قيل هو اسم ذلك الملك بعينه، وقيل إنه اسم لكل ملك من ملوك العمالقة، كما يسمى من ملك الفرس: كسرى، ومن ملك الروم: قيصر، ومن ملك الحبشة النجاشيّ، واسم فرعون موسى المذكور هنا: قابوس في قول أهل الكتاب، وقال وهب: اسمه الوليد بن مصعب بن الريان. قال المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية، وقال الجوهري: إن كل عات يقال له فرعون، وقد تفرعن وهو ذو فرعنة: أي دهاء ومكر، وقال في الكشاف: تفرعن فلان: إذا عتا وتجبر.

١٦. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يولونكم، قاله أبو عبيدة؛ وقيل يذيقونكم ويلزمونكم إياه، وأصل السوم: الدوام، ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعي، ويقال: سامه خطة خسف: إذا أولاه إياها، وقال في الكشاف: أصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى: يبغونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه.

١٧. سوء العذاب: أشدّه، وهو صفة مصدر محذوف؛ أي يسومونكم سوما سوء العذاب، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا، وهذه الجملة في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ مقدّر، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال: أي سائمين لكم.

١٨. معنى قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي جعلتم العجل إلها من بعده: أي من بعد مضي موسى إلى الطور، وقد ذكر بعض المفسرين أنهم عدوّا عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا: قد اختلف موعده فاتخذوا العجل، وهذا غير بعيد منهم، فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل

مخالفة لما يخاطبون به بل ويشاهدونه بأبصارهم، فلا يقال كيف تعدّون الأيام والليالي على تلك الصفة، وقد صرّح لهم في الوعد بأنها أربعون ليلة، وإنما سمّاهم ظالمين لأنهم أشركوا بالله وخالفوا موعد نبيهم عليه السلام.

١٩. سمّي العجل عجلا لاستعجالهم عبادته كذا قيل، وليس بشيء لأن العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر، وقد كان جعله لهم السامريّ على صورة العجل.

٢٠. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذي وقعتم فيه، وأصل الشكر في اللغة: الظهور من قولهم: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف. قال الجوهري: الشكر: الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام أفصح، والشكران خلاف الكفران.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَابَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ علَيكُمْ﴾ كرَّره للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم، وليبني عليه قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أي: بنعمتي، وتفضيلكم هذا عطف خاصٍّ على عامٍّ، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانكم من الناس، إذ جعلتُ فيكم النبوءة والرسالة، والمعجزات والكرامات وخرق العادات، كما فسّر في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَاكُم مَّا لَمْ يُوتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، كالمنِّ والسلوى، وفلق البحر؛ أمَّا غير الناس من الجمادات والحيوان فلا اعتداد به، وَأَمَّا الجنُّ فتبع للناس، أو يرادوا في (الْعَالَمِينَ)، وَأَمَّا الملائكة فليسوا في الآية؛ لأنَّها فيمن تُمكِنُ فيهم النبوءة وما يتبعها، ولو قلنا: إنَّ الإنسان المؤمن أفضل من الملائكة.

٢. وخرج بعالمي زمانهم نبيُّنا محمَّد ﷺ وأمَّتُه، فإنَّهم أفضل الخلق على الإطلاق، والدليل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠]، وحديث: (أنا سيِّد ولدِ آدم)، بل لا ينافي ذلك أنَّهم فُضِّلوا علينا، أي: زادوا علينا بكثرة الأنبياء وما ذُكر، لأنَّا أفضل منهم فردًا فردًا بالذات، بحيث إنَّ ثوابنا أكبر من ثوابهم، وسومح لنا ما لم يسامح لهم.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/٩٩.

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يوم القيامة، احذروا هوله وعذابه بالإيمان وأداء الفرائض واجتناب الحرام، و(يَوْمًا) مفعول به كما رأيت على حذف مضاف، ويجوز أنَّه ظرف لمفعول به محذوفٍ، أي: العذاب في يومٍ.

٤. ﴿لَّا تَجْزِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تغني عنها في شيء إغناء ما، أو لا تدفع عنها شيئا بقوَّتها، أو بأعوان لها لو كانوا ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ فيه ﴿مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي: لا شفاعة للنفس الأولى: في الثانية، فضلا عن أن تُقبل منها، والجملة السالبة تصدق بنفي الموضوع، قال جلَّ وعلا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

٥. ﴿وَلَا يُؤخَذُ مِنْهَا﴾ من النفس الثانية: ﴿عَدْلٌ﴾ فداء، أو لا تقبل من الأولى: الجازية شفاعة لعدم الشفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ أو لا يقبل من الثانية: شفاعة ولا يؤخذ منها عدل؛ لا تشفع مؤمنة في كافرة، ولا يقبل منها عدل فيها ولا في غيرها، وكذا كافرة لقرابة أو محبَّةٍ.

٦. ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي: النفس لتنكيرها بعد السلب ﴿يُنصَرُونَ﴾ يدفع عنهم العذاب بالمقاومة والغلبة.

٧. والآية دليل لنا وللمعتزلة على أن لا شفاعة لأهل الكبائر؛ لأنَّ الآية ولو كانت في المشركين، لكنَّها في وصف يوم من شأنه أنَّه لا شفاعة فيه بدفع العذاب عن مستحقِّه، ولا مقام أو زمان من مقامات الموقف وأزمنته نصَّ على ثبوتها للفسَّاق ولا لشخص مُصِرٍّ.

٨. ٩. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ واذكُروا إذ نجَّيناكم بإنجاء آبائكم، واذكُروا نعمتي وتفضيلي، ووقتَ إنجاء آبائكم ﴿مِّنَ ـ الِ فِرْعَوْنَ﴾ أتباع فرعون في دينه، وهو الوليد بن مصعب بن ريان، عُمِّر أكثر من أربعمائة، ولقبه فرعون، والفَرْعَنَةُ: الدهاء والمكر، كذا قيل، ولعلَّه تصرَّف بالعربيَّة من لفظ عجميٍّ لا عربيٍّ، بدليل منعه من الصرف، فإنَّه لا علَّة فيه مع العَلَميَّة سوى العجمة التي ندَّعيها، وهو من ذرية عمليق بن لاود بن إرم بن سام بن نوح، وألف (ءال) عن هاء (أهل)، والمعنى واحد، فيصغر على (أهيل)، وقيل عن همزة مبدلة عن هاء، والمعنى واحد أيضا، وقيل: عن واوٍ من (آلَ يؤول) بمعنى رجع إليك في قرابة أو رأيٍ أو نحوهما، فيصغر على (أُوَيْلٍ)، ونقله الكسائيُّ نصًّا عن العرب، وعن أبي عمرو غلام ثعلب: الأهل القرابة ولو بلا تابع، والآل بتابع.

١٠. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يولونكم على الاستمرار ﴿سُوءَ العَذَابِ﴾ ضرَّ العذاب ومرارته، أو العذابُ

السوءُ: الأشدُّ، صنفٌ يقطع الحجارة من الجبل وهم أقواهم، وصنفٌ ينقلها والطينَ للبناء، وصنفٌ يضرب اللَّبِن ويطبخ الآجُر، وصنف للنجارة (بالنون)، وصنف للحدادة، وصنف لضرب الجزية، وهم الضعفاء، كلّ يوم مَن غربت عليه الشمس ولم يؤدِّها غُلَّت يده لعنقه شهرا؛ وصنفٌ لغزل الكتَّان ونسجه وهم النساء.

١١. ومن سوء العذاب: تذبيح الأبناء، كما قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقد ذكر أنواع السوء إجمالا مع الذبح في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: ٦] (بالواو)، وَأَمَّا هنا فالمراد ذلك، والمراد بسوء العذاب خصوص التذبيح، ولا منافاة؛ لأنَّه لم يحصره في الذبح، بل ذكر في موضع الامتنان ما هو أشدُّ، مع أنَّه لا مانع من إرادة العموم هنا أيضا بسوء العذاب، إلَّا أنَّه ميَّز بعضا فقط؛ كأنَّه قيل: منه تذبيح الأبناء، ذبح اثني عشر ألف ابن أو سبعين ألفا، غير ما يسبِّب لإسقاط أمِّه، فإن أسقطت ذكرًا ذبحه، والتحقيق أنَّ سوء العذاب أعمُّ، فذِكْرُ التذبيحِ تخصيصٌ بعد تعميم، أو المراد ما عدا التذبيح.

١٢. وجملة (يُذَبِّحُونَ) حال، وعلى أنَّ المراد بسوء العذاب التذبيح تكون مفسِّرة، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يُبْقونهنَّ حيَّات، أو يعالجون حياتهنَّ إذا أسقطنهنَّ، أو النساء البنات الصغار يبقونهنَّ بلا قتل، وإن كان السقط بنتا عالجوا حياتها، أو المراد عموم ذلك كلِّه.

١٣. ﴿وَفِي ذَالِكُم﴾ المذكور من سوء العذاب إجمالا ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ امتحان، أو في ذلكم الإنجاء إنعام، أو في ذلك الإنجاء وسوء العذاب والذبح ابتلاء، أتصبرون وتشكرون أم تجزعون؟ والله عالم، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿فَأَمَّا الِانسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِي وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِي﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧].

١٤. رأى فرعون في النوم نارا أقبلت من بيت المقدس، وأحاطت بمصر، وأحرقت كلَّ قبطيٍّ بها، ولم تتعرَّض لبني إسرائيل، فشقَّ ذلك عليه وسأل الكهنة؛ فقالوا له: يولد في بني إسرائيل مَن يكون سببا في ذهاب ملكك؛ فأمرَ بقتل كلِّ غلام يولد فيهم، وأسرع الموت في شيوخهم، فجاء رؤساء القبط وقالوا: أنت تذبح صغارهم ويموت كبارهم، ويوشك أن يقع العمل علينا، فأمر بالذبح سنة والترك أخرى، فوُلد هارون سنة ترك الذبح، وموسى سنة الذبح.

١٥. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُم﴾ لأجلكم يا بني إسرائيل، أو بسببكم، أو شبَّه سلوكهم بالآلة في كونه واسطة في حصول الفرق، فكانت الباء، ففي ذلك استعارة تبعيَّة، والفرق مقدَّم على السلوك فيه، لقوله تعالى: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وما قيل من أنَّه فرق شيئا فشيئا بسلوكهم لا يصحُّ.

١٦. ﴿الْبَحْرَ﴾ لتسلكوه وتنجوا من عدوِّكم، بحر القَلْزَم، فرقًا مستديرا راجعا إلى جهة المدخل، وكان عرضه في ذلك المحلِّ أربعة فراسخ، فيستبعد السلوك فيه على ذلك الطول بلا تقويس، فيحتاجون إلى رجوع في سفن مع كثرتهم، وقيل: النيل فُرِقَ على سمت، ويسهل رجوعهم في سفن، أو على استدارة وتقويس إلى جهة المدخل، وهو أولى، ويُهلكَ عدوَّكم.

١٧. ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من عدوِّكم ومن الغرَق ﴿وأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَونَ﴾ المراد فرعون وآله، هذا الجنس الشامل لفرعون وآله، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، أي: جنس البشر الشامل لآدم وذرِّيَّته، أو آل فرعون هو فرعون وَأَمَّا قومه فأتباعٌ له، وذُكِرَ بالغرق في آيٍ أُخَر، وذلك كقوله ﷺ: (مزامير آل داود)، أي: مزامير داود، وكان الحسن البصريُّ يقول: (اللهمَّ صلِّ على آل محمَّد) بدل: (اللهمَّ صلِّ على محمَّد)، وذلك أنَّ ما للإنسان يكون لأهله تحقيقا أو فخرًا، وأيضًا إذا غرق أهله فهو أولى؛ لأنَّه رأسهم وبه ضلُّوا.

١٨. وناسب نجاة موسى من الغرق نجاته منه حين ألقي فيه طفلا، وللأمَّة نصيبٌ ممَّا لنبيئها، وفرعون غرق بالماء إذ فاخر به في قوله: ﴿وَهَذِهِ الاَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ﴾ [الزخرف: ٥١] ولقومه نصيب ممَّا له، وكما عَجَّل الموتَ بإِنْهَارِ الدم عُجِّل موتُه بالغرق، والموت به شديد؛ ولذلك كان الغريق شهيدا.

١٩. ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ بعد خروج آخركم منه، أو انطباق البحر عليهم بعد دخول آخرهم وبعد خروج أوَّلهم، وبنو إسرائيل يومئذ ستُّمائة وعشرون ألفا، ليس فيهم ابن عشرين لصغره، ولا ابن ستِّين لكبره، وإنَّهم بقوا في مصر، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام اثنين وسبعين إنسانا ما بين رجل وامرأة، وبين يعقوب وموسى ٦ ألف سنة، وقيل: أربعمائة، بارك الله في ذلك النسل، وهم مَن عدَا مَن مات ومن ذُبح؛ وآل فرعون ألف ألفٍ وسبعمائة ألف، وفيهم من دُهْمِ الخيل سبعون ألفا.

٢٠. وإسناد النظر إذا كان بمعنى النظر بالعين إنَّما هو للمجموع؛ لأنَّه إنَّما يُرَى الغرق، أو أخَّر بني

إسرائيل الذين يقربون من البحر، وإن فسَّرناه بالعلم فهو لكلِّ واحد، وفي المشاهدة نعمة زائدة، وإن فسَّرنا النظر بنظر بعض إلى بعض من الكُوى حين استوحشوا، فأشار بالعصا فكانت الكُوى، فالأمر ظاهر، لكن على هذا تتعلَّق الجملة بـ (أَنجَيْنَاكُم) أو بـ (فَرَقْنَا) لا بـ (أَغْرَقْنَا).

٢١. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ المفاعلة للمبالغة؛ لأنَّ من شأن المتفاعلَيْن جِدُّ كلِّ واحد ليَغلِب الآخَرَ، وعلى بابها إذ وعده الله إنزال التوراة، ووعدَ اللهَ المجيءَ إلى الطور للعبادة، أو يكفي فيها فعلٌ من طرفٍ وقبولٌ من طرفٍ آخَر، كعالجتُ المريض، أو الطلب طرف وامتناع القبول طرف.

٢٢. ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ تمام أربعين يوما بلياليها: ذا القعدة وعشرة من ذي الحجَّة، أو ذي الحجَّة وعشرة من المحرَّم، يصوم الأيَّام في الطور بوصال، ويقوم الليالي ويتعبَّد، جَعلتُ له ذلك لأُنزِلَ عليه التوراة بعد تمامها فتعملوا بها، وأخبره الله بذلك، وعبَّرنا بالليالي لأنَّها أوَّل اليوم، والشهور والأعوام فإنَّها بالهلال، والهلال بالليل؛ ولأنَّ الظلمة أقدم من الضوء: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

٢٣. استخلف هارونَ على بني إسرائيل، فذهب إلى الطور فتعبَّد أربعين، وأُنزل عليه بعد تمامها ـ أو في العشرة الأخيرة، وفي الأربعين كلِّها أو في أوَّلها، أقوالٌ ـ التوراة سبعين سفرا، وقلَّما توجد كلُّها عند إنسان واحد على عهد موسى أو ما يليه، وذلك بعدما ذهب منها بإلقائه الألواح الزبرجديَّة المكتوبة هي فيها، فيحتاج إنسان إلى مسألة، فيقال: هي في سفر كذا وكذا، عند فلان في موضع كذا، فتلاشت ولم يبق منها إلَّا قليل، ثمَّ وقع التحريف أيضا، ومواعدة الأربعين إخبار بها في نفس الأمر عند الله، إذ كان في الغيب عند الله أن يتعبَّد ثلاثين أمره بها، ثمَّ يزيد عليه عشرة.

٢٤. والنَّصْب على المفعوليَّة، أي: واعدنا موسى إعطاء أربعين يتعبَّد فيها، أو على الظرفيَّة، أي: أمرا واقعا فيها أو بعدها، أو مفعول مطلق في مواعدة أربعين.

٢٥. ﴿ثُمَّ اتَّخَذتُّم﴾ اتَّخذ آباؤكم الباقون في مصر ومَن معهم، إلَّا اثني عشر ألف رجل مع هارون، وقيل: اتَّخذه ثمانية آلاف ﴿الْعِجْلَ﴾ الذي صاغه موسى السامريُّ المنافق إلها يعبدونه، فالمفعول الثاني (إلهًا)، أو لا ثاني له كقولك: اتَّخذت سيفا صنعته، ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات الأربعين.

٢٦. ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ باتِّخاذه لأنفسكم، ولدين الله، ولمن يقتدي بكم، وزمانِكم، ومكانِكم، وكلُّ من عصى الله فقد ظلم وقته ومكانه، والظلم: الضرُّ، ونقصُ حقِّ الشيء، ووضع الشيء في غير موضعه، فاحفظ ذلك لغير هذا الموضع واعتبره، وقد وضعوا العبادة واسم الألوهيَّة في غير موضعها، وذلك العجل لحم ودم بإذن الله على الصحيح، وقيل: صورة، فنسبة الخوار إليه على التجوُّز، ونُسب للجمهور.

٢٧. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنم بَعْدِ ذَالِك﴾ الاتِّخاذِ، قبِلنا توبة عَبَدةِ العجل بعدما قتلوا منهم سبعين ألفا، ورفع الله عنهم السيف، وصحَّ إطلاق العفو مع عقابهم بالقتل لأنَّه عفو عن مزيد العقاب، بخلاف الغفران فلا يكون مع العقاب، كذا قيل، والصحيح أنَّه يُستعمل كالعفو بلا عقاب ومع عقاب.

٢٨. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تستعملون قلوبكم وألسنتكم وجوارحكم في العبادة لمقابلة نعمة العفو، أي: عاملناكم معاملة من يرجو الشكر على ما أُنعم عليه به لتشكروا، والشكر استشعار العجز عن الوفاء بحقِّ النعم عند (الجُنَيْد)، والتواضع عند حضور النعمة في القلب عند (الشبلي)، والطاعة لمن فوقك لنعمه، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به.

٢. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطف على نعمتي، عطف الخاص على العام لكماله، أي فضلت آباءكم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم بإنزال الكتاب عليهم وإرسال الرسل فيهم وجعلهم ملوكا، وهم آباؤهم الذين كانوا في عصر موسى عليه السّلام وبعده قبل أن يغيروا، وتفضيل الآباء شرف الأبناء.

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يريد يوم القيامة أي حسابه أو عذابه ﴿لَا تَجْزِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تقضي عنها شيئا من الحقوق. فانتصاب ﴿شَيْئًا﴾ على المفعولية. أو شيئا من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية، وإيراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكليّ.

٤. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ﴾ لا يقبل ﴿مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

---

(١) تفسير القاسمي: ١/٣٠٣.

يمنعون من عذاب الله، وجمع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة وذكر لمعنى العباد أو الأناسيّ.

٥. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تذكير لتفاصيل ما أجمل في قوله تعالى: ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ من فنون النعماء، أي واذكروا وقت تنجيتنا إياكم، أي آباءكم، فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم، والمراد بالآل، فرعون وأتباعه، فإن الآل يطلق على الشخص نفسه وعلى أهله وأتباعه وأوليائه.

٦. ثم بين ما أنجاهم منه بقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يبغونكم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي أفظعه وأشده ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يتركونهم أحياء ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء إما المحنة، إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون، أو النعمة، إن أشير به إلى الإنجاء، والعرب تسمي الخير بلاء والشر بلاء.

٧. سبب سومه بني إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم (على ما روي في التوراة) خوفه من نموّهم وكثرة توالدهم، وكانت أرض مصر امتلأت منهم، فإن يوسف، عليه السلام، لما استقدم أباه وإخوته وأهلهم من أرض كنعان إلى مصر، أعطاهم ملكا في أرض مصر في أفضل الأرض كما أمره ملك مصر، وكان لهم في مصر مقام عظيم بسبب يوسف عليه السّلام، فتكاثروا وتناسلوا، ولما توفي يوسف عليه السّلام والملك الذي اتخذه وزيرا عنده، انقطع ذلك الاحترام عن بني إسرائيل، إلى أن قام على مصر أحد ملوكها الفراعنة. فرأى غوّ الإسرائيليين، فقال لقومه: أضحى بنو إسرائيل شعبا أكثر منا وأعظم، فهلمّ نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون، إذا حدثت حرب، أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا، ويخرجون من أرضنا. فسلط عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، وكانوا كلما أشتد تعبدهم ازدادوا كثرة وشدة. فشق على المصريين كثرتهم واختشوا منهم. فجعل أهل مصر يستعبدونهم جورا ويمرّرون عليهم حياتهم بالعمل الشديد بالطين واللّبن، وكل فلاحة الأرض، وكل الأفعال التي استعبدوهم بها بالمشقّة.. وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قصه الله تعالى، ولم يزل الأمر في هذه الشدة عليهم حتى نجاهم سبحانه بإرسال موسى عليه السلام، وقوله جل ذكره.

٨. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ بيان لسبب التنجية، وتصوير لكيفيتها، إثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها، وقد بين في تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هي الإنجاء من الغرق.. أي واذكروا إذ فلقناه بسلوككم أو ملتبسا بكم أو بسبب إنجائكم، وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك:

أ. فالباء على الأول استعانة، مثلها في: كتبت بالقلم.. وهو ضعيف من حيث إن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببني إسرائيل والمنصوص عليه في التنزيل أن البحر إنما انفرق بعصا موسى، قال تعالى: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] فآلة التفريق العصا لا بنو إسرائيل.

ب. على الثاني للمصاحبة، مثلها في: أسندت ظهري بالحائط.

ج. على الثالث للسببية.

٩. ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي من الغرق بإخراجكم إلى الساحل ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أريد فرعون وقومه، وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي إلى ذلك وتشاهدونه لا تشكون فيه. ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم.

١٠. فرعون لقب لمن ملك مصر كافرا. ككسرى لملك الفرس، وقيصر لملك الروم، وتبّع لمن ملك اليمن كافرا، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وخاقان لملك الترك، ولعتوّه اشتق منه: تفرعن الرجل، إذا عتا وتمرد.

١١. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ أي بعد فراغه من مقاومة آل فرعون وإهلاكهم ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي لنعطيه عند انقضائها التوراة لتعملوا بها، وقد روي في ترجمة التوراة أنه تعالى قال لموسى: اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك ألواحا من حجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعلمهم. فصعد موسى إلى الجبل وبقي هناك أربعين يوما وأربعين ليلة، وموسى كلمة عبرانية معناها منشول من الماء.

١٢. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي إلها ومعبودا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد مضيّه للميقات ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي بوضع العبادة في غير موضعها، وهو حال من ضمير اتخذتم. أو اعتراض تذييليّ. أي وأنتم قوم عادتكم الظلم.

١٣. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي محونا ذنوبكم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي الاتخاذ والظلم القبيح ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. بدأ الله تعالى تذكير بنى إسرائيل بما بدأ وثنى بها ثنى، وهو يتضمن من التقريع والتوبيخ ما يشعر بغلظ طباعهم وفساد قلوبهم فان من لا يتأدب بإحياء إحساس الكرامة؛ يؤدب بالتأنيب والاهانة:

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة

٢. قوله تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ مؤكد لمثله سابق، وتمهيد لما عطفه عليه من تفصيل الاجمال في الآية وما بعدها من الآيات، وما اقترن به من بيان كفرهم للنعم، وما تخللها من المواعظ والحجج، وأوله وأعلاه قوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي أعطيتكم من الفضل ـ وهو الزيادة فيما يحسن ـ مالم أعط غيركم من الشعوب حتى ذات المزايا الدنيوية كالمصريين وسكان البلاد المقدسة

٣. ناداهم باسم أبيهم الذي هو أصل عزهم وسؤددهم ومنشأ تفضيلهم، وأسند النعمة إليهم جميعا لا إليه وحده لأن النعمة عمتهم والتفضيل شملهم، ثم طفق يفصل النعمة التي ذكرها مجملة فيما سبق بذكر أمهات أنواعها فذكر تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله، فإن بنى إسرائيل كغيرهم من البشر.

٤. التفضيل مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل، لأن الذي يرى نفسه رذلا خسيسا، لا يبالى ما يفعل، ومن يرى نفسه مفضلا مكرما، فإنه يترفع عن الدنايا والخسائس التي تدنس شرفه وتذهب بفضله، والحكمة في التذكير بالتفضيل: أن يتذكروا أن الذي فضلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمته، وتنبيههم إلى عدم الذهول عن أنفسهم ليذكروها عند أمر الناس بالبر، ويعلموا أنهم أولى بأن يبروا ممن يأمرونهم بالبر، لأنهم يتلون الكتاب الداعي إليه وهو آية تفضيلهم.. والى أنهم أحق باستعمال الفكر في الآيات التي أوتيها النبيّ ﷺ وأجدر من جميع الشعوب بالإيمان به، فإن المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل هو عليه.

٥. الفضل على العالمين:

---

(١) تفسير المنار: ١/٣٠٥.

أ. إن كان بكثرة الأنبياء فيهم، فهو ظاهر على عمومه لأنه لا يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم في هذه المزية، ولا تقضى هذه الفضيلة بأن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تنافى أن يفضلهم أخس الشعوب ـ بله غيره ـ إذا هم انحرفوا عن هدى أنبيائهم وتركوا سنتهم واهتدى إليها ذلك الشعب الذي كان مفضولا.

ب. وإن كان المراد من التفضيل هو القرب من الله تعالى بمرضاته، فلا بد من تخصيصه بأولئك الأنبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه، ومن تقييده بمدة الاستقامة على العمل الذي استحقوا به التفضيل.

٦. معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي واحذروا يوما عظيما أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء مالا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال، ومراقبته في جميع الأعمال، فهو يوم لا تقضي فيه نفس، مهما يكن قدرها عظيما عن نفس مهما يكن ذنبها صغيرا ـ شيئا ما، كحمل وزرها، أو تكفير ذنبها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾

٧. وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل (يوم القيامة) مثلا للإشعار بأن التصرف في ذلك اليوم والأمر كله لله، فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض، وعبر عن هذا المعنى في أول سورة بقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

٨. ثم وصفها الله تعالى هنا بوصف آخر يناسب الأول فقال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها أن تأتي بشفيع يشفع لها ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هي استطاعت أن تأتي بذلك كما يظن أكثر الكفار، ولن تستطيع. قال البيضاوي: وكأنه أريد بالآية نفى أن يدفع أحد عن أحد العذاب من كل وجه محتمل، وفصل هذه الوجوه بما يشمل الثلاث المنفية، وجملة المعني: أنه يوم لا تأثير لأحد فيه ولا كسب، ولا ينطق فيه أحد إلا بإذن الله تعالى.

٩. لا دليل في هذا على أن المراد ما ذكره في مسألة الشفاعة، وإنما السياق في الآية وأمثالها يدل على أن المراد بيان أن ذلك اليوم يوم تنقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة هذه الحياة من انطلاق الانسان في اختياره يدفع عن نفسه بالعدل والفداء، ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند

السلاطين والأمراء، وقد يوجد له فيها أنصار ينصرونه بالحق وبالباطل على سواء، بل يكون له في ذلك اليوم شأن آخر مع ربه تضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاصه في عمله، قبل حلول أجله، ورحمة الله العلى الكبير له، لضعف حوله، وضيق طوله، وأنه يوم لا يتحرك فيه عضو إلا بإذن الله، ولا يقدر أحد أن ينبس بكلمة إلا بإذن الله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

١٠. هذه الآية كالتي قبلها، واللواتي بعدها تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل التي ذكرت من قبل مجملة؛ وابتدئ التفصيل بذكر التفضيل لما تقدم من الحكمة في ذكره، وهو نهوض الهمة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والترفع عن الرضا بما دون لمقام الذي رفعهم الله إليه، وتوطين النفس لقبول الموعظة الخ ما تقدم. ثم ذكرهم عاجل بهم من البلاء والعقوبات جزاء على جرائمهم، وبلطف الله تعالى بهم إنجائهم من البلاء وتوبته عليهم المرة بعد المرة ليعرفهم مقدار فضله وعقوبته معا والآية معطوفة على ما قبلها من سلسلة الذكريات.

١١. فقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ عطف تفصيل على الاجمال في قوله ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ أي نعمى كثيرة، لأن المفرد المضاف يفيد العموم، أي واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، وفرعون لقب لمن تولى ملك مصر قبل البطالسة، وآله خاصته، وقد يطلق على قومه قدماء المصريين.

١٢. لما كانت التنجية لا تكون إلا من ظلم أو شر بيّن ما نجاهم منه بقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يكلفونكم ويبغونكم ما يسوؤكم ويذلكم من العذاب، ثم بين ذلك بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: أي يقتلون ذكران نسلكم ويستبقون إناثه أحياء لإضعافكم وإذلالكم المفضي إلى قطع نسلكم وإبادتكم.

١٣. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفى ذلكم العذاب وفى التنجية منه ـ في كل منهما ـ بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم، كما قال في آية أخرى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

١٤. جاء في الآية السابقة ذكر تنجية بنى اسرائيل من آل فرعون، وهو على كونه تفصيلا لما قبله من حيث التذكير بالنعم، مجمل من حيث الانجاء، فإنه يشمل النجاة بجميع أنواعها من ذلك العذاب، وذكر في هذه الآية نعمته في طريق الانجاء بالتفصيل بعد الإجمال لبيان عناية الله تعالى بهم فيها، إذ جعل وسيلته من خوارق العادات؛ وجعل في طريقه هلاك عدوهم، وقد يقال: إن هذه نعمة مستقلة من نعمه

تعالى عليهم، لا أنها بيان الإجمال في التي قبلها.

١٥. لما أرسل الله تعالى موسى عليه السّلام إلى فرعون وملئه يدعوهم إلى توحيد الله وإلى أن يخلى بينه وبين شعب إسرائيل بعد إطلاقهم من ذلك الاستعباد والتعذيب لم يزدهم فرعون إلا تعذيبا وتعبيدا، وفى سفر الخروج من تاريخ التوراة أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه يقسى قلب فرعون، فلا يخفف العذاب عن بنى إسرائيل، ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته، وأنه بعد الدعوة زاد ظلما وعتوا فأمر الذين كانوا يسخرون بنى إسرائيل في الأعمال الشاقة بأن يزيدوا في القسوة عليهم وأن يمنعوهم التبن الذي كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفوهم أن يجمعوا التبن ويعملوا كل ما كانوا يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شيء. فأعطى الله تعالى موسى وأخاه هارون الآيات البينات، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون لعلمهم أن ما جاء به ليس من السحر وإنما هو تأييد من الله تعالى ورأى ما رأى بعد ذلك من آيات الله لموسى سمح بخروج بنى اسرائيل بل طردهم طردا، وفى سفر الخروج أنهم خرجوا في شهر أبيب وكانت إقامتهم في مصر ٤٣٠ سنة، ثم أتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم وأنجى الله بنى إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي واذكروا من نعمنا عليكم إذ فرقنا بكم البحر فجعلنا لكم فيه طريقا يبسا سلكتموه في هربكم من فرعون ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ بعبوره من جانب إلى آخر ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ إذ عبروا وراءكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ذلك بأعينكم، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه.

١٦. خاطب الله تعالى الذين كانوا في زمن النبيّ ﷺ بما كان لآبائهم لأن الانعام على أمة بعنوان أنها أمة كذا، هو إنعام شامل للأمة من أصابه ذلك الإنعام من أفرادها ومن لم يصبه، ويصح الامتنان به على اللاحقين منهم والسابقين، كما يصح الفخر به منهم أجمعين، كما أن الانعام على شخص بشيء يختص بعضو من أعضائه كلبوس يلبسه، أو لذيذ طعام يطعمه، يكون إنعاما على الشخص، ولا يقال: إنه إنعام على لسان فلان ولا على رأسه، أو يده أو رجله؛ ولأن ما وصل إلى مجتمع بعنوان ذلك الاجتماع والرابطة التي ربطت أفراده بعضهم ببعض يكون له أثر في مجموع الأفراد، لا سيما إذا كان الواصل من نقمة أو نعمة مسببا عن عمل الأمة. شرا أو خيرا، ويكون لذلك أثر في الأمة يورثه السلف الخلف ما بقيت الأمة، وأنواع البلاء التي ذكر بها اليهود في القرآن كانت لشعب إسرائيل من حيث هو شعب إسرائيل لأن الجرائم التي

كان البلاء عقوبة عليها إنما كانت من مجموع الشعب. من حيث هو شعب إسرائيل، ثم إن الله تعالى كان يتوب على الشعب بعد كل بلاء ويفيض عليه النعم. فتكون العقوبة تربية وتعليما تفيد المعتبرين بها نعمة وسعادة.

١٧. فلق البحر كان من معجزات موسى، والخوارق الجائزة عقلا أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما لا مانع من وقوعها بقدرة الله تعالى على يد نبيّ من الأنبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها، ولا يمنعنا هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله تعالى في الخلق واعتقاد أنها لا تتبدل ولا تتحول، كما قال الله في كتابه الذي ختم به الوحى، على لسان نبيه الذي ختم به النبيين، فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال، كما كان في سن الطفولية (النوعية) بل أرشده تعالى بالوحى الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحى، ثم جعل له كل ارشادات الوحى مبينة معللة مدللة حتى في مقام الأدب، فإيماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان، لا ينافى كون ديننا هو دين العقل والفطرة وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان، من أن سننه تعالى في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل.

١٨. جملة القول أن الذي يمنعه العقل هو وقوع المحال، فلا يمكن أن يؤيد نبيّ بما هو مستحيل عقلا، لأن المستحيل هو الذي لا يمكن وقوعه وما وقع لا يكون مستحيلا، ولذلك سمى المتكلمون المعجزات (خوارق العادات):

أ. ومنهم من يقول: إن لها أسبابا خفية روحية لم يطلع الله الامم عليها ولكنه خص بها الأنبياء عليهم السّلام.

ب. والمشهور: أن الله يخلقها بغير سبب لتدل على أن السنن والنواميس لا تحكم على واضعها ومدبرها، وإنما هو الحاكم المتصرف بها، وإنما كان هذا هو المشهور لأنه الظاهر، والا فمن ذا الذي يستطيع أن ينفى ذلك النفي المطلق عن عالم الغيب؟

١٩. زعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بنى إسرائيل البحر كان في إبان الجزر، فإن في البحر الأحمر رقارق إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدا يتيسر للإنسان أن يعبر ماشيا ولما اتبعهم

فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم وكان المد تفيض ثوائبه (وهى المياه التي تجيء عقيب الجزر) فلما نجا بنو اسرائيل كان المد قد طغى وعلا حتى أغرق المصريين، تحقق إنعام الله على بنى إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم ولا ينافى الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى عليه السّلام، فان نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر ـ كذا قالوا، قال محمد عبده: ولكن يدل على كونه آية له وصف كل فرق منه بالطود العظيم، وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الموافق لما في التوراة.

٢٠. يقول المؤولون إنهم لما عبروا انفرق بهم وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض قد جعلوا ذلك الماء الرقارق فرقين عظيمين ممتدين كالطودين وأن هذه الآية تشعر بذلك، فإنه يقول ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ ولم يقل: فرقنا لكم البحر، والظاهر أن الباء هنا للآلة، كما تقول قطعت بالسكين، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ فإنه لا ينافى أن الانفلاق كان بهم كما في آية البقرة لا بالعصا، وذلك أن الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى هو أن يخوض البحر ببنى إسرائيل، وقد عهد أن من كان بيده عصا إذا أراد الخوض في ماء كترعة أو نهر فإنه يضرب الماء أولا بعصاه، ثم يمشى، فهذه الآية معبرة عن هذا المعنى أي ألهمه الله عندما وصل إلى البحر أن يضربه بعصاه، ويمشى ففعل ومشى وراءه بنو اسرائيل بجمعهم الكبير، فانفلق بهم البحر، وأما قوله تعالى ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ فهو تشبيه معهود مثله في مقام المبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ فالأمواج والسفن الجواري لا تكون كالجبال الشاهقة، والأعلام الباسقة، وإنما تقضى البلاغة بمثل هذا التعبير، لكمال التصوير وإرادة التأثير.

٢١. هذا ما ينتهى إليه تأويل المؤولين ولم يبسطه الاستاذ محمد عبده في الدرس، وإنما قرر أن فرق البحر كان معجزة لموسى عليه السّلام، وحكى عن المتهورين من الذين لا يحبون المعجزات خلافه، وهو أنهم يزعمون أن عبور البحر كان في وقت الجزر وإنما بسطنا تأويلهم لئلا يتوهموا أننا لم نقل به لأننا لم نهتد لتوجيهه مثلهم، ولا يهمنا أن ننازعهم في تأويل آية بخصوصها إذا علمنا أنهم يثبتون الآيات الكونية تأييدا للأنبياء عليهم الصلاة والسّلام، فاذا كانوا ينفونها كلها فالأولى لهم أن لا يتعبوا في تأويل جزئياتها، فان منها مالا يقبل التأويل بحال من الأحوال، وحينئذ يكون الكلام بيننا وبينهم لإثباتها أولا في قدرة الله

وإرادته، ثم في إثبات أصل الوحى وإرسال الرسل، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

٢٢. ذكر النعمة التي وليتها، وذكرهم بما كان من كفرهم اياها، فقال ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد كانت هذه المواعدة لإعطائه التوراة، ولما ذهب لميقات ربه استبطئوه فاتخذوا عجلا من ذهب فعبدوه.

٢٣. المراد هنا التذكير بالنعمة وبيان كفرها، ليظهر أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ومعاندته ليس ببدع من أمرهم، وإنما هو معهود منهم مع رؤية الآيات وبعد اغراق النعم عليهم، ولذلك اكتفى بالإشارة اليه بقوله ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي اتخذتموه إلها ومعبودا، وبعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ثم بالعفو الذي هو جزاء التوبة

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. كرر تذكيرهم بالنعم لكمال غفلتهم عما يجب عليهم من شكرها، وقد ذكرت فيما سبق مقترنة بوعد الله لهم بالنصر على الأعداء وسكنى الأرض المقدسة، واقترنت هنا بالوعيد، واتقاء عقاب الله في ذلك اليوم الشديد الهول الذي لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا، فكأنه قد قيل لهم إن لم تطيعوا الله لنعمه السالفة فأطيعوه للخوف من عقابه اللاحق.. وفي هذا التقريع والتوبيخ ما يدل على قساوة قلوبهم، فإن من شعر بقدر نفسه إذا خلا ونفسه وتذكر أنه ألمّ بنقيصة يتألم، ولم ير من اللائق به أن يدنسها مرّة أخرى برذيلة.

٢. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تأكيد لما تقدم وتمهيد لما عطفه عليه من التذكير بالتفضيل الذي هو من أجلّ النعم.

٣. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي وأعطيتكم الفضل والزيادة على غيركم من الشعوب حتى الأمم ذات الحضارة والمدنية كالمصريين وسكان الأراضي المقدسة.

٤. ناداهم باسم أبيهم لأنه منشأ فخارهم وأصل عزهم، وأسند النعمة والفضل إليهم جميعا لشمولهما إياهم، والتفضيل إنما أتاهم لتمسكهم بالفضائل وتركهم للرذائل، إذ من يرى نفسه مفضلا شريفا

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٠٨.

يترفع عن الدنايا.

٥. ذكّرهم بهذا الفضل لينبههم إلى أن الذي فضلهم على غيرهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمته، وإلى أنهم أجدر من جميع الشعوب بالتأمل فيما أوتيه النبي ﷺ من الآيات، فإن المفضّل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضّل عليه وهذا الفضل إن كان بكثرة الأنبياء فلا مزاحم لهم فيه، ولا تقتضى هذه الفضيلة أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تمنع أن يفضلهم أخسّ الشعوب إذا انحرفوا عن جادّة الحق وتركوا سنة أنبيائهم واهتدى بهديها غيرهم، وإن كان بالقرب من الله باتباع شرائعه، فذلك إنما يتحقق في أولئك الأنبياء والمهتدين من أهل زمانهم ومن تبعهم بإحسان ما داموا على الاستقامة وسلكوا الطريق الذي استحقوا به التفضيل.

٦. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي واخشوا يوما يقع فيه من الأهوال ما لا قدرة لكم على دفعه، ولا منجاة لكم منه إلا بتقوى الله في السر والعلن، يوم لا تحمل نفس أوزار نفس أخرى كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقال: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾، وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

٧. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي إنها إذا جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها.. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي ولا يؤخذ منها فداء إن هي استطاعت أن تأتى بذلك.. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي يمنعون من العذاب.

٨. إن ذلك يوم تتقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع المكروه عن النفس بالفداء أو بشفاعة الشافعين، عند الأمراء والسلاطين، أو بأنصار ينصرونها بالحق والباطل على سواها، وتضمحلّ فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص في العمل قبل حلول الأجل، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله.

٩. فصل في هذه الآية نعمة مما أنعم به على هذا الشعب العظيم، ذكر فيها ما حلّ بهم من العذاب والبلاء جزاء ما صنعوا من جرائم وارتكبوا من آثام، ثم ما كان من لطف الله بهم، إذ رفع عنهم البلاء ليتوبوا ويعرفوا قدر نعمته عليهم كما قال ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

١٠. امتنّ الله تعالى على اليهود الذين كانوا عصر التنزيل بنعمة كانت لآبائهم، لأن الإنعام على أمة إنعام شامل لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك ومن لم يصبه، لما يكون له من الأثر في مجموع الأفراد يرثه الخلف عن السلف، فصنوف البلاء التي ذكّر بها اليهود في القرآن كانت للشعب من جراء جرائم وقعت من مجموعه.

١١. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي واذكروا وقت تنجيتنا إياكم أي تنجية آبائكم، وتنجيتهم تنجية لأعقابهم، وهو استعمال تعهده العرب في كلامها، يقولون قتلناكم يوم عكاظ أي قتل آباؤنا آباءكم.

١٢. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يكلفونكم ما يسوؤكم ويذلكم من العذاب، ثم فصل هذا العذاب بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يقتلون الذكور ويستبقون البنات إذلالا لكم حتى ينقرض شعبكم من البلاد.

١٣. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي ذلكم العذاب والتنجية منه امتحان عظيم من ربكم كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ وقوله: من ربكم: أي من جهته تعالى بتسليطهم عليكم، وبعث موسى وتوفيقه لخلاصكم.

١٤. في الآية الأولى تفصيل لمجمل ما ذكر في الآية السالفة من الإنجاء، وتصوير لحصوله وعظيم هوله، وكونه من خوارق العادات، وفي تضاعيف ذلك ذكر لهم نعمة أخرى وهى هلاك عدوهم فرعون وقومه وهم ينظرون، ثم ذكر النعمة التي تلتها وهى العدة بإعطاء التوراة وكفرهم بها باتخاذهم عجلا من ذهب وعبادتهم إياه، ثم عفوه عنهم بعد ذلك، ثم قفّى على ذلك بذكر إيتائهم الكتاب وهى المنة الكبرى مع الآيات التي أيّد بها موسى لتصديق نبوّته.

١٥. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي واذكروا من نعمتنا عليكم نعمة فرق البحر بكم وجعلنا لكم فيه طرقا تسلكونها حين هربكم من فرعون.

١٦. ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي فأنجيناكم من الغرق وأخرجناكم إلى الشاطئ الآخر، وأغرقنا فرعون ومن معه حين عبروا وراءكم، وأنتم تشاهدون ذلك بأبصاركم ولا تشكّون في حصوله، ولولا ذلك لكان لكم وجه للريبة والشك في وقوعه، والفائدة من قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ بيان تمام النعمة، فإن هلاك العدوّ نعمة، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى فيها سرور لا يقدر قدره.

١٧. كان فرق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التي يظهرها الله تعالى على أيديهم لترشد الناس إلى أن السنن والنواميس الكونية لا تحكم على واضعها ومدبرها، بل هو الحاكم المتصرف فيها، وهى أيضا سنة أخرى في الكون يخلقها الله متى شاء على يد من يصطفيه من عباده.

١٨. زعم بعض الناس أن عبور بنى إسرائيل البحر كان وقت الجزر، وفي بحر القلزم (البحر الأحمر) رقارق يتيسر للإنسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديدا، وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض، قد جعلوا الماء الرقارق فرقين عظيمين ممتدين كالطود العظيم، يرشد إلى ذلك قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ ولم يقل فرقنا لكم البحر، وقوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ تشبيه معروف معهود مثله في مقام المبالغة كقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ألا ترى أن الأمواج والسفن الجواري لا تكون كشواهق الجبال، لكنه يراد بمثل هذا التعبير زيادة البيان، وإرادة التأثير في نفس السامع.. ولما أتبعهم فرعون وجنوده ورآهم قد عبروا البحر مشى إثرهم، وكان المد قد بدأ، ولم يتم خروج بنى إسرائيل إلا وقد علا المدّ، وطغى حتى أغرق المصريين جميعا، وتحققت نعمة الله على بنى إسرائيل، وتمّ لهم التوفيق ولعدوهم الخذلان، ونعم الله بغير طريق المعجزات أتمّ وأكثر، فليس بلازم أن نجعل الامتنان في كونه معجزة لموسى عليه السلام.

١٩. مثل هذا التأويل ليس بضائر إذا كان أربابه يثبتون صدور خوارق العادات على يد الأنبياء تأييدا من الله لهم، أما إذا أنكروها فلا حاجة إلى الكلام معهم، إذ لا بد أن نثبت لهم قدرة الله وإرادته، ثم نثبت لهم إمكان الوحى وإرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات.

٢٠. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي واذكروا نعمة أخرى كفرتم بها وظلمتم أنفسكم، ذاك أنهم بعد أن اجتازوا البحر سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من ربهم، فواعده ربه أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا لذلك، يقولون إنه ذو القعدة وعشر ذي الحجة، فاستبطئوه واتخذوا عجلا من ذهب، له خوار فعبدوه وظلموا أنفسهم بإشراكهم ووضعهم للشيء في غير موضعه بعبادة العجل بدل عبادة خالقهم وخالقه.

٢١. في ذكر هذا تعجيب من حالهم، فإن مواعدة الله موسى بإنزال التوراة إليه نعمة وفضيلة لبنى إسرائيل قابلوها بأقبح أنواع الكفر والجهل.

٢٢. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ثم محونا تلك الجريمة بقبول التوبة ولم نعاجلكم بالإهلاك، بل أمهلناكم حتى جاءكم موسى وأخبركم بكفارة ذنوبكم، ليعدّكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر، فإن الإنعام يوجب الشكر على النعم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد.

٢. تذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده؛ وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان، وإلى عهد الله؛ شكرا على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون.

٣. مع الإطماع في الفضل والنعمة، التحذير من اليوم الذي يأتي وصفه: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ .. فالتبعة فردية، والحساب شخصي، وكل نفس مسئولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئا.. وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم. مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله، وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره، وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام.

٤. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فلا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيمانا وعملا صالحا؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته.

٥. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ .. فما من ناصر يعصمهم من الله، وينجيهم من عذابه.. وقد عبر هنا بالجمع باعتبار مجموع النفوس التي لا تجزي نفس منها عن نفس، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، وانصرف عن الخطاب في أول الآية إلى صيغة الغيبة في آخرها للتعميم. فهذا مبدأ كلي ينال المخاطبين

---

(١) في ظلال القرآن: ٧٠/١.

وغير المخاطبين من الناس أجمعين.

٦. بعدئذ يمضي يعدد آلاء الله عليهم، وكيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق، وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ .

٧. إنه يعيد على خيالهم ويستحيي في مشاعر هم صورة الكرب الذي كانوا فيه ـ باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد ـ ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب.. يقول لهم: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم، (من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائما) وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذي يطعمونهم إياه!

٨. ثم يذكر لونا من هذا العذاب، هو تذبيح الذكور واستيحاء الإناث. كي يضعف ساعد بني إسرائيل وتثقل تبعاتهم!

٩. وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم. ليلقي في حسهم ـ وحس كل من يصادف شدة ـ أن إصابة العباد بالشدة هي امتحان وبلاء، واختبار وفتنة، وأن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة، ويعتبر بالبلاء، ويكسب من ورائها حين يستيقظ، والألم لا يذهب ضياعا إذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها، والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله، وبالتضرع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته.. ومن ثم هذا التعقيب الموحى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

١٠. إذا فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشاهد العذاب.. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكية التي نزلت من قبل، أما هنا فهو مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة، سواء من القرآن المكي، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة.

١١. إنما يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها، ويتأثروا بهذا التصور، وكأنهم هم

الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام على مشهد منهم ومرأى! وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب.

١٢. قصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وعبادته في غيبة موسى عليه السلام عندما ذهب إلى ميعاد ربه على الجبل، مفصلة في سورة طه السابقة النزول في مكة، وهنا فقط يذكرهم بها، وهي معروفة لديهم.

١٣. يذكرهم بانحدار هم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم، الذي أنقذهم باسم الله، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ .. ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلا جسدا، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول!

١٤. ومع هذا فقد عفا الله عنهم، وآتى نبيهم الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيه فرقان بين الحق والباطل، عسى أن يهتدوا إلى الحق البين بعد الضلال.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذه النداءات المكررة من ربّ العزة إلى هذا القطيع الشارد، من بنى إسرائيل ـ إنما تشير إلى ما في نفوس هؤلاء القوم من كنود، وما في طباعهم من جفاء وجماح، وما ضمّ عليه كيانهم من جحود للإحسان، وكفران بالنعم.

٢. ليست هذه النداءات المتكررة إلا لإقامة الحجة عليهم، ومظاهرة النذر لهم، حتى إذا أخذوا بعنادهم وجماحهم كان أخذهم شديدا أليما.. ومن أجل هذا أخذهم الله بالبأساء والضراء، وأوقع عليهم اللعنة، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، فقال تعالى في بنى إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، ويقول سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ الله، وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وباؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ الله ويَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ﴾

٣. المراد بالعالمين هم أهل زمانهم المعروفون لهم من الأمم المجاورة، إذ كانوا هم أهل كتاب، وفيهم الرسل والأنبياء، على حين كان جيرانهم وثنيين، على كفر وشرك وضلال، وممّا يشهد لهذا:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٨٢/١.

أ. أن موسى عليه السلام وهو رأس بنى إسرائيل في الكرامة والفضل عند الله ـ كان بمنزلة تلميذ، يتلقى العلم والمعرفة على يد عبد من عباد الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾

ب. ويشهد لهذا أيضا شهادة قاطعة، قوله تعالى عن أمة الإسلام: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ .. فهذا حكم قاطع بالخيرية المطلقة لهذه الأمة ـ في مقام الهداية، وصدق الإيمان بالله ـ على سائر الأديان، وجميع الملل!

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أعيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء مماثلا لما وقع في خطابهم الأول لقصد التكرير للاهتمام بهذا الخطاب وما يترتب عليه، فإن الخطاب الأول قصد منه تذكيرهم بنعم الله تعالى ليكون ذلك التذكير داعية لامتثال ما يرد إليهم من الله من أمر ونهي على لسان نبيه ﷺ، غير أنه لما كان الغرض المقصود من ذلك هو الامتثال كان حق البلاغة أن يفضي البليغ إلى المقصود ولا يطيل في المقدمة، وإنما يلم بها إلماما ويشير إليها إجمالا، تنبيها بالمبادرة إلى المقصود على شدة الاهتمام به.

٢. لم يزل الخطباء والبلغاء يعدون مثل ذلك من نباهة الخطيب، ويذكرونه في مناقب وزير الأندلس محمد بن الخطيب السلماني إذ قال عند سفارته عن ملك غرناطة إلى ملك المغرب ابن عنان أبياته المشهورة التي ارتجلها عند الدخول عليه طالعها:

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح في الدجا قمر

ثم قال:

والناس طرا بأرض أندلس ... لولاك ما وطنوا ولا عمروا

وقد أهمتهم نفوسهم ... فوجهوني إليك وانتظروا

فقال له أبو عنان: ما ترجع إليهم إلا بجميع مطالبهم وأذن له في الجلوس فسلم عليه، قال القاضي

(١) التحرير والتنوير: ١/٤٦٧.

أبو القاسم الشريف ـ وكان من جملة الوفد ـ لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا، فكان الإجمال في المقدمة قضاء لحق صدارتها بالتقديم وكان الإفضاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية، والرجوع إلى تفصيل النعم قضاء لحقها من التعداد فإن ذكر النعم تمجيد للمنعم وتكريم للمنعم عليه وعظة له ولمن يبلغهم خبر ذلك تبعث على الشكر.. فللتكرير هنا نكتة جمع الكلامين بعد تفريقهما ونكتة التعداد لما فيه إجمال معنى النعمة.

٣. النعمة هنا: مراد بها جميع النعم لأنّه جنس مضاف فله حكم الجمع كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

٤. قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عطف على ﴿نِعْمَتِي﴾ أي واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة فعطفه على ﴿نِعْمَتِي﴾ عطف خاص على عام، وهو مبدأ لتفصيل النعم وتعدادها، وربما كان تعداد النعم مغنيا عن الأمر بالطاعة والامتثال لأن من طبع النفوس الكريمة امتثال أمر المنعم لأن النعمة تورث المحبة، وقال منصور الوراق:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه   هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبّك صادقا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

وهذا التذكير مقصود به الحث على الاتسام بما يناسب تلك النعمة ويستبقي ذلك الفضل.

٥. معنى العالمين: المراد به هنا صنف من المخلوقات، ولا شك أن المخلوقات تصنف أصنافا متنوعة على حسب تصنيف المتكلم أو السامع:

أ. فالعالمون في مقام ذكر الخلق هم أصناف المخلوقات كالإنس والدواب والطير والحوت.

ب. والعالمون في مقام ذكر فضائل الخلق أو الأمم أو القبائل يراد بها أصناف تلك المتحدث عنها.

٦. المراد من العالمين هنا: هم الأمم الإنسانية، فيعم جميع الأمم لأنه جمع معرف باللام لكن عمومه هنا عرفي يختص بأمم زمانهم كما يختص نحو: جمع الأمير الصاغة بصاغة مكانه أي بلده، ويختص أيضا بالأمم المعروفة كما يختص جمع الأمير الصاغة بالصاغة المتخذين الصياغة صناعة دون كل من يعرف الصياغة، وذلك كقولك: هو أشهر العلماء وأنجب التلامذة.

٧. الآية الكريمة تشير إلى تفضيل بني إسرائيل المخاطبين أو سلفهم على أمم عصرهم:

أ. لا على بعض الجماعات الذين كانوا على دين كامل مثل نصارى نجران.

ب. ولا علاقة له بمسألة تفضيل الأنبياء على الملائكة بحال.

ج. ولا التفات إلى ما يشذ في كل أمة أو قبيلة من الأفراد، فلا يلزم تفضيل كل فرد من بني إسرائيل على أفراد من الأمم بلغوا مرتبة صالحة أو نبوءة لأن التفضيل في مثل هذا يراد به تفضيل المجموع، كما تقول قريش أفضل من طيء وإن كان في طيء حاتم الجواد.. فكذلك تفضيل بني إسرائيل على جميع أمم عصرهم وفي تلك الأمم أمم عظيمة كالعرب والفرس والروم والهند والصين وفيهم العلماء والحكماء ودعاة الإصلاح والأنبياء لأنه تفضيل المجموع على المجموع في جميع العصور.

٨. معنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم، وهي شرف النسب وكمال الخلق وسلامة العقيدة وسعة الشريعة والحرية والشجاعة، وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم، وقد أشارت إلى هذا آية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٢٠]

٩. هذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها، وقد شاع أن الفضائل تعود على الخلف بحسن السمعة، وإن كان المخاطبون يومئذ لم يكونوا بحال التفضيل على العالمين ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه فإن فضائل الأمم لا يلاحظ فيها الأفراد ولا العصور، ووجه زيادة الوصف بقوله: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ مر في أختها الأولى.

١٠. عطف التحذير على التذكير، فإنه لما ذكرهم بالنعمة، وخاصة تفضيلهم على العالمين في زمانهم، وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيل ذاتي، فتوهموا أن التقصير في العمل الصالح لا يضرهم فعقب بالتحذير من ذلك.

١١. المراد بالتقوى هنا معناها المتعارف في اللغة لا المعنى الشرعي، وانتصاب ﴿يَوْمًا﴾ على المفعولية به وليس على الظرفية ولذلك لم يقرأ بغير التنوين.. والمراد باتقائه اتقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب فهو من إطلاق اسم الزمان على ما يقع فيه كما تقول مكان مخوف.

١٢. تنكير النفس في الموضعين وهو في حيز النفي يفيد عموم النفوس، أي لا يغني أحد كائنا من كان، فلا تغني عن الكفار آلهتهم ولا صلحاؤهم على اختلاف عقائدهم في غناء أولئك عنهم، فالمقصود

نفي غنائهم عنهم بأن يحولوا بينهم وبين عقاب الله تعالى، أي نفي أن يجزوا عنهم جزاء يمنع الله عن نوالهم بسوء رعيا لأوليائهم، فالمراد هنا الغناء بحرمة الشخص وتوقع غضبه وهو غناء كفء العدو الذي يخافه العدو على ما هو معروف عند الأمم يومئذ من اتقائهم بطش مولى أعدائهم وإحجامهم عما يوجب غضبه تقية من مكره أو ضره أو حرمان نفعه قال السموأل:

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال العنبري:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو الشقيقة من ذهل بن شيبان

١٣. بهذا يتبين أن مفاد قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ مغاير لمفاد ما ذكر بعده بقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾، فقوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، هو بمعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]

١٤. قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ الضميران عائدان للنفس الثانية المجرورة بعن أي لا يقبل من نفس شفاعة تأتي بها ولا عدل تعتاض به لأن المقصود الأصلي إبطال عقيدة تنصل المجرم من عقاب الله ما لم يشإ الله؛ ليكون الضمير في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ راجعا إلى مرجع الضميرين قبله، وهذا التأييس يستتبع تحقير من توهمهم الكفرة شفعاء، وإبطال ما زعموه مغنيا عنهم من غضب الله من قرابين قربوها ومجادلات أعدوها، وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]

١٥. الشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر سواء كانت الوساطة بطلب من المنتفع بها أم كانت بمجرد سعي المتوسط ويقال لطالب الشفاعة مستشفع، وهي مشتقة من الشفع لأن الطالب أو التائب يأتي وحده فإذا لم يجد قبولا ذهب فأتى بمن يتوسل به فصار ذلك الثاني شافعا للأول أي مصيّره شفعا.

١٦. العدل ـ بفتح العين ـ العوض والفداء، سمي بالمصدر لأن الفادي يعدل المفدى بمثله في القيمة أو العين ويسويه به، يقال عدل كذا بكذا أي سواه به.. ويطلق على الشيء المساوي شيئا والمماثل له ولذلك جعل ما يفتدي به عن شيء عدلا وهو المراد هنا كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]

فالمعنى: ولا يقبل منها ما تفتدي به عوضا عن جرمها.

١٧. النصر هو إعانة الخصم في الحرب وغيره بقوة الناصر وغلبته، وإنما قدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق زيادة على ما استفيد من نفي الفعل مع إسناده للمجهول كما أشرنا إليه آنفا.. والنصر هو إعانة العدو على عدوه ومحاربه إما بالدفاع معه أو الهجوم معه فهو في العرف مراد منه الدفاع بالقوة الذاتية وأما إطلاقه على الدفاع بالحجة نحو ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وعلى التشيع والاتباع نحو ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] فهو استعارة.

١٨. كانت اليهود تتوهم أو تعتقد أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله تعالى مما يجعلهم في أمن من عقابه على العصيان والتمرد كما هو شأن الأمم في إبان جهالتها وانحطاطها وقد أشار لذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨].

١٩. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ راجعا إلى مرجع الضميرين قبله، وهذا التأييس يستتبع تحقير من توهمهم الكفرة شفعاء وإبطال ما زعموه مغنيا عنهم من غضب الله من قرابين قربوها ومجادلات أعدوها وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]

٢٠. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ عطف على قوله: ﴿نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٧]، فيجعل (إذ) مفعولا به كما هو في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] فهو هنا اسم زمان غير ظرف لفعل والتقدير اذكروا وقت نجيناكم، ولما غلبت إضافة أسماء الزمان إلى الجمل، وكان معنى الجملة بعدها في معنى المصدر وكان التقدير: اذكروا وقت إنجائنا إياكم.

٢١. فائدة العدول عن الإتيان بالمصدر الصريح لأن في الإتيان بإذ المقتضية للجملة استحضارا للتكوين العجيب المستفاد من هيئة الفعل لأن الذهن إذا تصور المصدر لم يتصور إلا معنى الحدث، وإذا سمع الجملة الدالة عليه تصور حدوث الفعل وفاعله ومفعوله ومتعلقاته دفعة واحدة، فنشأت من ذلك صورة عجيبة، فوزان الإتيان بالمصدر وزان الاستعارة المفردة، وزان الإتيان بالفعل وزان الاستعارة التمثيلية، وليس هو عطفا على جملة ﴿اذْكُرُوا﴾ [البقرة: ٤٧] كما وقع في بعض التفاسير لأن ذلك يجعل (إذ) ظرفا فيطلب متعلقا وهو ليس بموجود، ولا يفيده حرف العطف لأن العاطف في عطف الجمل لا

يفيد سوى التشريك في حكم الجملة المعطوف عليها، وليس نائبا مناب عامل، ولا يريبك الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه أعني ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ بجملة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨] فتظنه ملجأ لاعتبار العطف على الجملة لما علمت فيما تقدم أن قوله: ﴿وَاتَّقُوا﴾ ناشئ عن التذكير فهو من علائق الكلام وليس بأجنبي، على أنه ليس في كلام النحاة ما يقتضي امتناع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالأجنبي فإن المتعاطفين ليسا بمرتبة الاتصال كالعامل والمعمول.

٢٢. عدي فعل ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ إلى ضمير المخاطبين مع أن التنجية إنما كانت تنجية أسلافهم لأن تنجية أسلافهم تنجية للخلف، فإنه لو بقي أسلافهم في عذاب فرعون لكان ذلك لاحقا لأخلافهم، فذلك كانت منة النتيجة منتين: منة على السلف، ومنة على الخلف، فوجب شكرها على كل جيل منهم، ولذلك أوجبت عليهم شريعتهم الاحتفال بما يقابل أيام النعمة عليهم من أيام كل سنة وهي أعيادهم، وقد قال الله لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]

٢٣. جملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ حال من ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يحصل بها بيان ما وقع الإنجاء منه وهو العذاب الشديد الذي كان الإسرائيليون يلاقونه من معاملة القبط لهم.

٢٤. معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يعاملونكم معاملة المحقوق بما عومل به يقال سامه خسفا إذا أذله واحتقره فاستعمل سام في معنى أنال وأعطى ولذلك يعدى إلى مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وحقيقة سام عرض السوم أي الثمن.

٢٥. سوء العذاب أشده وأفظعه وهو عذاب التسخير والإرهاق وتسليط العقاب الشديد بتذبيح الأبناء وسبي النساء والمعنى يذبحون أبناء آبائكم ويستحيون نساء قومكم الأولين.

٢٦. المراد من الأبناء قيل أطفال اليهود وقيل: أريد به الرجال بدليل مقابلته بالنساء وهذا الوجه أظهر وأوفق بأحوال الأمم إذ المظنون أن المحق والاستئصال إنما يقصد به الكبار، ولأنه على الوجه الأول تكون الآية سكتت عن الرجال إلا أن يقال: إنهم كانوا يذبحون الصغار قطعا للنسل ويسبون الأمهات استعبادا لهن ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدريج، وإبقاء الرجال في مثل هاته الحالة أشد من قتلهم. أو لعل تقصيرا ظهر من نساء بني إسرائيل مرضعات الأطفال ومربيات الصغار وكان سببه شغلهن بشئون أبنائهن فكان المستعبدون لهم إذا غضبوا من ذلك قتلوا الطفل.

٢٧. الاستحياء استفعال يدل على الطلب للحياة أي يبقونهن أحياء أو يطلبون حياتهن، ووجه ذكره هنا في معرض التذكير بما نالهم من المصائب أن هذا الاستحياء للإناث كان المقصد منه خبيثا وهو أن يعتدوا على أعراضهن ولا يجدن بدا من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق فيكون قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ كناية عن استحياء خاص ولذلك أدخل في الإشارة في قوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ولو كان المراد من الاستحياء ظاهره لما كان وجه لعطفه على تلك المصيبة.

٢٨. جملة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ إلخ بيان لجملة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فيكون المراد من سوء العذاب هنا خصوص التذبيح وما عطف عليه وهو ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ لما عرفت فكلاهما بيان لسوء العذاب فكان غير ذلك من العذاب لا يعتد به تجاه هذا.. ولك أن تجعل الجملة في موضع بدل البعض تخصيصا لأعظم أحوال سوء العذاب بالذكر وهذا هو الذي يطابق آية سورة إبراهيم [٦] التي ذكر فيها ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بالعطف على ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وليس قوله ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ مستأنفا لإتمام تفصيل صنيع فرعون بل هو من جملة البيان أو البدل للعذاب ويدل لذلك قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] فعقب الفعلين بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

٢٩. البلاء الاختبار بالخير والشر قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وهو مجاز مشهور حقيقته بلاء الثواب ـ بفتح الباء مع المد وبكسرها مع القصر ـ وهو تخلقه وترهله ولما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء كأنه يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر لأنه أكثر إعناتا للنفس، وأشهر استعماله إذا أطلق أن يكون للشر، فإذا أرادوا به الخير احتاجوا إلى قرينة أو تصريح، كقول زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فيطلق غالبا على المصيبة التي تحل بالعبد لأن بها يختبر مقدار الصبر والأناة، والمراد هنا المصيبة بدليل قوله ﴿عَظِيمٍ﴾، وقيل: أراد به الإنجاء والبلاء بمعنى اختبار الشكر وهو بعيد هنا.

٣٠. تعلق الإنجاء بالمخاطبين:

أ. لأن إنجاء سلفهم إنجاء لهم، فإنه لو أبقى سلفهم هنالك للحق المخاطبين سوء العذاب وتذبيح

الأبناء.

ب. أو هو على حذف مضاف أي نجينا آباءكم.

ج. أو هو تعبير عن الغائب بضمير الخطاب إما لنكتة استحضار حاله وإما لكون المخاطبين مثالهم وصورتهم فإن ما يثبت من الفضائل لآباء القبيلة يثبت لأعقابهم.

فالإتيان بضمير المخاطب على خلاف مقتضى الظاهر على حد ما يقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] فالخطاب ليس بالتفات لأن اعتبار أحوال القبائل يعتبر للخلف ما ثبت منه للسلف.

٣١. ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي جنده وأنصاره، ولم يذكر في هاته الآية غرق فرعون لأن محل المنة هو إهلاك الذين كانوا المباشرين لتسخير بني إسرائيل وتعذيبهم والذين هم قوة فرعون، وقد ذكر غرق فرعون في آيات أخرى، وكان ذلك في زمن الملك (منفتاح) ويقال له (منفطة) أو (مينيتاه) من فراعنة العائلة التاسعة عشرة في ترتيب فراعنة مصر عند المؤرخين.

٣٢. المراد من آل فرعون وزعته ووكلاؤه، ويختص الآل بالإضافة إلى ذي شأن وشرف دنيوي ممن يعقل فلا يقال آل الجاني ولا آل مكة، ولما كان فرعون في الدنيا عظيما وكان الخطاب متعلقا بنجاة دنيوية من عظيم في الدنيا أطلق على أتباعه آل فلا توقف في ذلك حتى يحتاج لتأويله بقصد التهكم كما أول قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] لأن ذلك حكاية لكلام يقال يوم القيامة وفرعون يومئذ محقر، هلك عنه سلطانه.

٣٣. سؤال وإشكال: إن كلمة أهل تطلق أيضا على قرابة ذي الشرف لأنها الاسم المطلق فلما ذا لم يؤت بها هنا حتى لا يطلق على آل فرعون ما فيه تنويه بهم؟ والجواب: خصوصية لفظ آل هنا أن المقام لتعظيم النعمة وتوفير حق الشكر والنعمة تعظيم بما يحف بها فالنجاة من العذاب وإن كانت نعمة مطلقا إلا أن كون النجاة من عذاب ذي قدرة ومكانة أعظم لأنه لا يكاد ينفلت منه أحد.. ولا قرار على زأر من الأسد.

٣٤. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ هذا زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة، بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون، وفيها بيان مقدار إكرام الله

تعالى لهم ومعجزة لموسى عليه السلام وتعدية فعل ﴿فَرَقْنَا﴾ إلى ضمير المخاطبين بواسطة الحرف جار على نحو تعدية فعل ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] إلى ضميرهم.

٣٥. فرق يدل على شدة التفرقة، وذلك إذا كانت الأجزاء المفرقة أشد اتصالا، وقد قيل: إن فرّق للأجسام وفرق للمعاني.. وقد اتفقت القراءات المتواترة العشر على قراءة (فرقنا) بالتخفيف والتخفيف منظور فيه إلى عظيم قدرة الله تعالى فكان ذلك الفرق الشديد خفيفا.. وتصغر في عين العظيم العظائم.

٣٦. وأل في (البحر) للعهد وهو البحر الذي عهدوه أعني بحر القلزم المسمى اليوم بالبحر الأحمر وسمته التوراة بحر سوف.

٣٧. الباء في (بكم) إما للملابسة كما في طارت به العنقاء وعدا به الفرس، أي كان فرق البحر ملابسا لكم والمراد من الملابسة أنه يفرق وهم يدخلونه فكان الفرق حاصلا بجانبهم، وجوز صاحب (الكشاف) كون الباء للسببية أي بسببكم يعني لأجلكم.

٣٨. قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ هو محل المنة وذكر النعمة وهو نجاتهم من الهلاك وهلاك عدوهم، قال الفرزدق:

كيف تراني قاليا مجنى ... قد قتل الله زيادا عني

فكون قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ تمهيدا للمنة لأنه سبب الأمرين النجاة والهلاك وهو مع ذلك معجزة لموسى عليه السلام.

٣٩. قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ جملة حالية من الفاعل وهو ضمير الجلالة في ﴿فَرَقْنَا﴾ وأنجينا و ﴿أَغْرَقْنَا﴾ مقيدة للعوامل الثلاثة على سبيل التنازع فيها، ولا يتصور في التنازع في الحال إضمار في الثاني على تقدير إعمال الأول لأن الجملة لا تضمر كما لا يضمر في التنازع في الظرف نحو سكن وقرأ عندك ولعل هذا مما يوجب إعمال الأول وهذا الحال زيادة في تقرير النعمة وتعظيمها فإن مشاهدة المنعم عليه للنعمة لذة عظيمة لا سيما ومشاهدة إغراق العدو أيضا نعمة زائدة كما أن مشاهدة فرق البحر نعمة عظيمة لما فيها من مشاهدة معجزة تزيدهم إيمانا وحادث لا تتأتى مشاهدته لأحد، ويجوز أن تكون الجملة حالا من المفعول وهو (آل فرعون) أي تنظرونهم، ومفعول ﴿تَنْظُرُونَ﴾ محذوف ولا يستقيم جعله منزلا منزلة اللازم، وإسناد النظر إليهم باعتبار أن أسلافهم كانوا ناظرين ذلك لأن النعمة على السلف نعمة على الأبناء

لا محالة فضمير الخطاب مجاز.

٤٠. تذكير لهم بنعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غيره وذلك مما فعله سلفهم، فإسناد تلك الأفعال إلى ضمير المخاطبين باعتبار ما عطف عليه من قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ فإن العفو عن الآباء منة عليهم وعلى أبنائهم يجب على الأبناء الشكر عليه، كما قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧].

٤١. وقع في (الكشاف) و(تفسير البغوي) و(تفسير البيضاوي) أن الله وعد موسى أن يؤتيه الشريعة بعد أن عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد مهلك فرعون، وهذا وهم فإن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر البتة بعد خروجهم، كيف والآيات صريحة في أن نزول الشريعة كان بطور سينا، وأن خروجهم كان ليعطيهم الله الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وقد أشار في (الكشاف) في سورة الدخان إلى التردد فيه، ولا ينبغي التردد في ذلك.

٤٢. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ هو المقصود وأما ما ذكر قبله فهو تمهيد وتأسيس لبنائه وتهويل لذلك الجرم إظهارا لسعة عفو الله تعالى وحلمه عنهم، وتوسيط التذكير بالعفو عن هذه السيئة بين ذكر النعم المذكورة مراعاة لترتيب حصولها في الوجود ليحصل غرضان غرض التذكير وغرض عرض تاريخ الشريعة.

٤٣. المراد من المواعدة هنا أمر الله موسى أن ينقطع أربعين ليلة لمناجاة الله تعالى وإطلاق الوعد على هذا الأمر من حيث إن ذلك تشريف لموسى ووعد له بكلام الله وبإعطاء الشريعة.

٤٤. ﴿وَوَاعَدْنَا﴾ بألف بعد الواو على صيغة المفاعلة المقتضية حصول الوعد من جانبين الوعد والموعود:

أ. والمفاعلة على غير بابها لمجرد التأكيد على حد سافر وعافاه الله، وعالج المريض وقاتله الله، فتكون مجازا في التحقيق لأن المفاعلة تقتضي تكرر الفعل من فاعلين فإذا أخرجت عن بابها بقي التكرر فقط من غير نظر للفاعل، ثم أريد من التكرر لازمه وهو المبالغة والتحقق فتكون بمنزلة التوكيد اللفظي، والأشهر أن المواعدة لما كان غالب أحوالها حصول الوعد من الجانبين شاع استعمال صيغتها في مطلق الوعد وقد شاع استعمالها أيضا في خصوص التواعد بالملاقاة كما وقع في حديث الهجرة (وواعداه غار

ثور)، وقول الشاعر:

فواعديه سرحتي مالك أو الرّبا بينهما أسهلا

واستعملت هنا لأن المناجاة والتكلم يقتضي القرب فهو بمنزلة اللقاء على سبيل الاستعارة ولذلك استغني عن ذكر الموعود به لظهوره من صيغة المواعدة.

ب. وقيل: المفاعلة على بابها بتقدير أن الله وعد موسى أن يعطيه الشريعة وأمره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه أن يمتثل لذلك، فكان الوعد حاصلا من الطرفين وذلك كاف في تصحيح المفاعلة بقطع النظر عن اختلاف الموعود به، وذلك لا ينافي المفاعلة لأن مبنى صيغة المفاعلة حصول فعل متماثل من جانبين لا سيما إذا لم يذكر المتعلق في اللفظ كما هنا لقصد الإيجاز البديع لقصد إعظام المتعلق من الجانبين، ولك أن تقول سوغ حذفه علم المخاطبين به فإن هذا الكلام مسوق للتذكير لا للإخبار والتذكير يكتفى فيه بأقل إشارة فاستوى الحذف والذكر فرجح الإيجاز وإن كان الغالب اتحاده.

٤٥. عطفت جملة ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ الذي هو في عطف الجمل للتراخي الترتيبي للإشارة إلى ترتيب في درجات عظم هذه الأحوال، وعطف ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أيضا لتراخي مرتبة العفو العظيم عن عظيم جرمهم، فروعي في هذا التراخي أن ما تضمنته هذه الجمل عظائم أمور في الخير وضده تنبيها على عظم سعة رحمة الله بهم قبل المعصية، وبعدها وحذف المفعول الثاني لاتخذتم لظهوره وعلمهم به ولشناعة ذكره وتقديره معبودا أو إلها وبه تظهر فائدة ذكر ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ لزيادة التشنيع بأنهم كانوا جديرين بانتظارهم الشريعة التي تزيدهم كمالا لا بالنكوص على أعقابهم عما كانوا عليه من التوحيد والانغماس في نعم الله تعالى وبأنهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى فلا يحدثوا ما أحدثوا في مغيبه بعد أن رأوا معجزاته وبعد أن نهاهم عن هاته العبادة لما قالوا له: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] الآية.

فائدة ذكر (من) للإشارة إلى أن الاتخاذ ابتدأ من أول أزمان بعدية مغيب موسى عليه السلام، وهذه أيضا حالة غريبة لأن شأن التغير عن العهد أن يكون بعد طول المغيب على أنه ضعف في العهد كما قال الحرث بن كلدة:

فما أدري أغيّرهم تناء وطول العهد أم مال أصابوا

ففي قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ تعريض بقلة وفائهم في حفظ عهد موسى.

٤٦. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد مغيبه وتقدير المضاف مع بعد المضاف إلى اسم المتحدث عنه شائع في كلام العرب لظهوره بحسب المقام وإذا لم يكن ما يعنيه من المقام فالأكثر أنه يراد به بعد الموت كما في قوله تعالى: ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة: ٢٤٦].

٤٧. إنما اتخذوا العجل تشبها بالكنعانيين الذين دخلوا إلى أرضهم وهم الفنيقيون سكان سواحل بلاد الشام فإنهم كانوا عبدة أوثان، وكان العجل مقدسا عندهم، وكانوا يمثلون أعظم الآلهة عندهم بصورة إنسان من نحاس له رأس عجل جالس على كرسي مادا ذراعيه كمتناول شيء يحتضنه وكانوا يحمونه بالنار من حفرة تحت كرسيه لا يتفطن لها الناس فكانوا يقربون إليه القرابين وربما قربوا له أطفالهم صغارا فإذا وضع الطفل على ذراعيه اشتوى فظنوا ذلك أمارة قبول القربان فتبا لجهلهم وما يصنعون، وكان يسمى عندهم (بعلا) وربما سموه (مولوك) وهم أمة سامية لغتها وعوائدها تشبه في الغالب لغة وعوائد العرب فلما مر بهم بنو إسرائيل قالوا لموسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فانتهرهم موسى وكانوا يخشونه فلما ذهب للمناجاة واستخلف عليهم هارون استضعفوه وظنوا أن موسى هلك فاتخذوا العجل الذي صنعوه من ذهب وفضة من حليهم وعبدوه.

٤٨. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ حال مقيدة لاتخذتم ليكون الاتخاذ مقترنا بالظلم من مبدئه إلى منتهاه وفائدة الحال الإشعار بانقطاع عذرهم فيما صنعوا وأن لا تأويل لهم في عبادة العجل أو لأنهم كانوا مدة إقامتهم بمصر ملازمين للتوحيد محافظين على وصية إبراهيم ويعقوب لذريتهما بملازمة التوحيد فكان انتقالهم إلى الشرك بعد أن جاءهم رسول انتقالا عجيبا، فلذلك كانوا ظالمين في هذا الصنع ظلما مضاعفا فالظاهر أن ليس المراد بالظلم في هاته الآية الشرك والكفر وإن كان من معاني الظلم في اصطلاح القرآن لظهور أن اتخاذ العجل ظلم فلا يكون للحال معه موقع.

٤٩. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ هو محل المنة، وعطفه بثم لتراخي رتبة هذا العفو في أنه أعظم من جميع تلك النعم التي سبق عدها ففيه زيادة المنة، فالمقصود من الكلام هو المعطوف بثم وأما ما سبق من قوله: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إلخ فهو تمهيد له وتوصيف لما حفّ بهذا العفو من عظم

الذنب.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ حال من ضمير ﴿عَفَوْنَا﴾ مقيدة للعفو إعجابا به أي هو عفو حال حصوله بعد ذلك الذنب العظيم وليس ظرفا لغوا متعلقا بعفونا حتى يقال: إن ثم دلت على معناه فيكون تأكيدا لمدلول، ثم تأخير العفو فيه وإظهار شناعته بتأخير العفو عنه، وإنما جاء قوله ذلك مقترنا بكاف خطاب الواحد في خطاب الجماعة لأن ذلك لكونه أكثر أسماء الإشارة استعمالا بالإفراد إذ خطاب المفرد أكثر غلب فاستعمل لخطاب الجمع تنبيها على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى البعد ومثل هذا في كلام العرب كثير لأن التثنية والجمع شيئان خلاف الأصل لا يصار إليهما إلا عند تعيين معناهما فإذا لم يقصد تعيين معناهما فالمصير إليهما اختيار محض.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ رجاء لحصول شكركم، وعدل عن لام التعليل إيماء إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يتطرقه احتمال التخلف فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بديع البلاغة فتفسير لعل بمعنى لكي يفيت هذه الخصوصية.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. التفضيل ليس تفضيل ذواتهم على غيرهم كما توهموا هم، ودلاهم غرورهم، فزعموا أنهم صنف الله المختار، ودلوا على الناس بذلك، بل دلوا على الله تعالى وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وأكلوا الحقوق، وعاملوا غيرهم بكل أمر ليس فيه خلق ولا دين، وقالوا ليس علينا في الأميين سبيل.

٢. ليس التفضيل لذواتهم إنما الفضل الذي اختصهم الله تعالى به في جيلهم أنه جيل فيهم أنبياء، ودعاهم أولئك الأنبياء إلى التوحيد لله سبحانه وتعالى، فقد كانوا موحدين كما دعاهم موسى ومن جاء بعده من الأنبياء في وسط وثنيين، فكان كل من حولهم وثنيين؛ فالمصريون وثنيون يعبدون الشمس ومن دونها، والفرس يعبدون النيران، والروم يعبدون الأوثان، واليونان من قبلهم على شاكلتهم، والبابليون يعبدون الكواكب، وهكذا كان جيلهم الأول جيل موسى، وحين نزول التوراة على موسى.

٣. اختارهم الله تعالى أن يكونوا قوم موسى، وأن يكون التوحيد فيهم، وكان مقامهم يمكنهم من

---

(١) زهرة التفاسير: ١/٢٢٢.

أن يدعو إلى التوحيد؛ لأنهم كان مقامهم في وسط تلك الأراضي التي كان يسكنها الوثنيون.

٤. ذلك التفضيل نعمة أنعم الله تعالى بها عليهم، وأنها توجب شكرا، وتحملهم تكليفا:

أ. أما الشكر فلأن شكر النعم واجب بحكم العقل، وبحكم التكليف الإلهي وقد كفروا بأنعم الله تعالى.

ب. أما التكليف الذي حملوه فهو الدعوة إلى الوحدانية ولم يقوموا بحقها، بل إنهم اعتبروا اليهودية جنسا، ومن دخل معهم فى ديانة موسى عليه السلام من غيرهم كالسامرة لم يعترفوا به، وبذلك ضلوا ضلالا بعيدا.

٥. ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم عذاب يوم شديد الهول، فيه العذاب الشديد، ولا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل، وهو يوم القيامة.

٦. قال سبحانه: ﴿يَوْمًا﴾ بالتنكير لتذهب النفس مذاهب شتى في تصوير هوله، والإبهام وحده يوجد رهبة، ويشعر بالتهويل، وبأنه لا يحد عذابه وصف، ولا هوله ذكر، وإن ذلك اليوم الذي اتقاؤه بالعمل الصالح والقيام بالحقوق التي للغير، وأداء الواجبات التي عليه، يتقدم فيه الإنسان منفردا إلا من عمله، لا يجزيه إلا عمله إن خيرا فخير، ولا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا، أي لا يجزى عمل نفس عن نفس شيئا من الجزاء، فيقدر في قوله لا تجزى نفس عن نفس أي عمل نفس عن نفس أخرى، أو نقول تجزى بمعنى تقضى، أي لا تقضى نفس عن أخرى أي شيء قلّ أو جلّ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وكل امرئ بما كسب رهين.

٧. عقب سبحانه وتعالى بما يؤكد أن النفس لا يجزى عنها غيرها، وأنه لا منفعة إلا من عملها، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ والشفاعة من الشفع، والشافع يضم قوته إلى من يشفع فيه، فلا يقبل الله تعالى شفاعة من أحد لأحد، إنما العمل وحده هو الذي ينفع كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر] وإذا كان للأنبياء شفاعة فبأمر الله تعالى وحده ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء]

٨. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يؤخذ منها بدل، فالعدل البدل، فلا ينجيهم من عذاب شفاعة ولا فدية من العذاب ببدل يدفع، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ لأنه لا ناصر إلا الله، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد

القهار.

٩. أخذ سبحانه وتعالى يذكر النعم التي أنعمها عليهم، وابتدأ بأعلى النعم التي أنعم بها عليهم، وهى نعمة الإنقاذ من شر من في الوجود إبان ذلك، وهو فرعون الذي اتخذه الفساق الظالمون من الحكام قدوة يقتدون به في مظالمه، وإن لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أن ينتصروا في الحروب مثل انتصاره في عصره.

١٠. أنقذهم الله تعالى على يد موسى كليم الله من بطش فرعون، وقد كان بطشه شديدا بهم؛ لأنهم كانوا يعدون أجانب في مصر، وكانوا أعداء لهم، فكان فرعون يتخذ السبيل لإفنائهم، أو إضعافهم، فكان يقتل شبابهم ذبحا، ويبقى النساء، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

١١. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أي اذكروا الوقت الذي أنجيناكم فيه من آل فرعون، فإذا تدل على الوقت الماضي ومعنى ذكر الوقت ذكر ما كان فيه من أحداث خطيرة وشديدة، واستحضار الأهوال التي كانوا يعيشون في بأسائها، وضرائها، وإنه تقدر النجاة من الله تعالى بمقدار ما كان هول الأمر الذي نجاهم الله تعالى منه.

١٢. ذكر سبحانه ما كان يفعله فرعون وآله، فقال سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم سوء العذاب ويجعلونه ملازما لكم لا تفارقونه، ولا يفارقكم، ويقال: سامه خطة خسف، وأولاه خطة خسف، أي جعل ولايته خسفا وعسفا، ولقد قال عمرو بن كلثوم الفارس العربي:

إذا ما الملك سام النّاس خسفا أبينا أن نقرّ الخسف فينا

١٣. سوء العذاب: أشد سوءا وأثرا في النفوس، ويديمونه؛ لأن (سام) تدل على الدوام، ومن ذلك السائمة التي تديم الرعي في الكلأ، وبين سبحانه وتعالى هذا العذاب الهون فقال مبينا: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فهم يعملون على إفناء الذكور، وإبقاء النساء.

١٤. التعبير ب ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كناية عن العمل على إفنائهم وتخضيد شوكتهم وإبعادهم عن مواطن السلطان، وذلك بذبحهم أحيانا، ووضعهم في مواضع الذل والمهانة، والغاية ألا يكون لهم وجود قائم بذاته، فقد حكى عنهم أن فرعون كان يذبح منهم، وكان يتخذ منهم عمالا مسخرين في الأبنية التي يشيدها، وكان يسخرهم لحرث الأرض، والثمرة لغيرهم ليذلهم، وكان يتخذ منهم خدما في البيوت وهم

الأرذلون.

١٥. ذكر الذبح بالذات، وهو إحدى وسائل فرعون لسوء العذاب الذي كان يذيقه إياهم لأنه أشدها هولا، ولأن إفناءهم هو الغاية، وهو أقرب طرقه، وهو المصدر لما كانوا عليه من الآلام.

١٦. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي أبقوهن أحياء لم يذبحوهن، وكانوا راغبين في ذلك، ولذلك كانت السين والتاء اللتان تدلان على الطلب، والمعنى طلبوا حياة نسائهم لغايات في نفوسهم وليشبعوا بهن شهواتهم.

١٧. بيّن الله تعالى أن ذلك هول شديد تختبر به نفوسهم؛ ولذلك قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ والإشارة هنا إلى هذا العذاب الشديد السيئ، والخطاب لهم، ولأن الإشارة إلى ما نزل بهم جعل الخطاب لهم لا بالكاف المفردة، بل بالكاف وعلامة خطاب الجمع، وبلاء معناه الاختبار الشديد لتتربى نفوسهم على التحمل، ولبثّ الرحمة في قلوبهم، لأنه لا تكون الرحمة إلا بالآلام الشديدة التي يحس بها الشخص فيرحم غيره، فإنه لا تنبع الرحمة إلا من قلب أحس بالآلام، وتربى في أحضانها فلا يكون قاسيا على الناس، ويكون رحيما بهم، فكان هذا البلاء الفرعوني تربية لنفوسهم لتكون بارة؛ ولذلك قال: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي من الله الذي خلقكم، وربكم بعنايته وحماكم بكلاءته، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه ﴿عَظِيمٍ﴾ لكبر هوله، وبعد أثره.

١٨. مكّن الله تعالى فرعون منهم لكي يعلموا أنهم ليس لهم فضل لذواتهم، ولكن لما هيأهم الله تعالى لتلقى رسالته، وتبليغ كلمته، وهي كلمة التوحيد، والعمل بالأوامر الإلهية.

١٩. بين الله سبحانه وتعالى كيف نجاهم بقدرته الإلهية القاطعة في الدلالة على إخراجهم من ظلمات القهر والطغيان إلى نور العدالة والإيمان، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ والمعنى اذكروا ذلك الوقت الذي فرقنا أي أوجدنا شقا طوليا في البحر من ساحل مصر إلى ساحل سيناء، وقد كان متصل الأجزاء، وسطحا لا فرقة فيه ولا انشقاق، فسرتم فيه، كأن الماء قد افترق على قدر حاجتكم، وسرتم فيه آمنين مطمئنين، وسار وراءكم الذين عذبوكم، ودبروا السوء لكم، وذبّحوا أبناءكم، واستحيوا نساءكم لأهوائهم، وهم آل فرعون الذين ناصروه وأيدوه، وقد ازدلفوا من ورائكم فأغرقهم، وأنتم تنظرون إلى تدبير الله تعالى، وإعجازه، وأنتم ترونه رأى العين لا بالخبر

والسماع.

٢٠. نجا بنو إسرائيل، وظهرت آيتان:

أ. إحداهما أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه، فانشق وانفلق، وكان كل فرق من أقسامه، كأنه الجبل العظيم من الماء.

ب. الثانية أن هذا كان على قدر مسير بنى إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، وظن فرعون وآله أن الطريق مفتوح لهم، كما فتح لبنى إسرائيل، فساروا وراءهم فانطبق البحر عليهم، وكانوا مغرقين.

٢١. كانت هذه النجاة بمعجزة من الله تعالى كافية لإيمان الكافر حتى إن فرعون قال آمنت بالذي آمن به بنو إسرائيل، وإن كان لم ينفعه إيمانه.

٢٢. قال تعالى: ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يقل أنجاكم من فرعون، وذلك لأن آله شيعته ونصراؤه وأعوانه، وطغاة الدنيا يكون شرهم من أنفسهم أولا، ومن حاشيتهم الذين يحطون على أهوائهم ثانيا، فيزينون لهم ظلمهم، ويسمونه عدلا ويبينون له وجوه الكيد، ويمكرون مكرهم، فلولا بطانة السوء ما كان السوء، ولولا حاشية فساق الحكام ما استمكنوا، وما طغوا في البلاد، وكلمة حق من حاشيتهم تقيم عدلا، وتدفع ظلما، لذلك عبر بآل فرعون، لأنه لم يستمكن وحده من الظلم.

٢٣. نزل بنو إسرائيل أرض سيناء التي انبعث فيها نور الرسالة الموسوية، وكان حقا أن يكونوا أول المؤمنين، ولكن الله أخبر أنه لم يكن أكثرهم مؤمنين مع هذه المعجزات الحسية الباهرة، وكانوا قد ألفوا عبادة العجل من غير بيّنة ولا دليل بل قلدوا المصريين تقليدا في عباداتهم، وتأثروا طريقهم، وألفوا ما ألفوه هم، وإن الهوى والوهم هما اللذان سيطرا على نفوسهم، فضلوا بضلالهم، ولذلك صنعوا عجلا من الحلى؛ وجعلوه في مهب الريح، فكانت الريح إذا مرت به كان له خوار كخوار العجل الحى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ هذا ما كان منهم كفرا بالنعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وفيها الدلالة القاطعة مع النعم الظاهرة، ومع ذلك قلدوا المصريين في عبادتهم.

٢٤. واعد الله تعالى نبيه موسى عليه السلام على أن يترك بنى إسرائيل لتلقى التوراة، وفيها الألواح العشرة التي تتضمن التكليفات التي كلف الله تعالى بنى إسرائيل، فتركهم فتحرك فيهم ما ألفوه من عبادة

العجل، كما كان يعبد المصريون العجل، وقد جعل لهم السامري ذلك العجل من الذهب، وكان عجلا جسدا لا حياة فيه، ولكن كان له خوار أي صوت كصوت البقر، إذا مرت الريح في التجاويف التي صنعت فيه، وقد ذكر الله تعالى هذا العجل المصنوع ببعض قليل من البيان فى سور أخرى، وذكر عنهم الله تعالى في هذه السورة أنهم عبدوه، وأن هارون أخا موسى وردأه في الرسالة نهاهم عن العبادة، وقد خلفه موسى فيهم.

٢٥. نسبت العبادة إلى كلهم، والذى عبد العجل بعضهم؛ لأن الذين لم يعبدوا لم ينهوا غيرهم فكانوا مثلهم كما قال تعالى فيهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

٢٦. هذا خبر عبادتهم العجل، وكيف كانت وذلك لتأثرهم طريق المصريين، وسلوكهم طريق الأوهام التي سلكوها.

٢٧. ﴿وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ بما أن المواعدة لا تكون إلا بين طرفين، وذلك بعيد عن الله تعالى:

أ. ولذا قيل: إن معنى واعدنا ليس المفاعلة التي تكون بين طرفين، بل معناها وعدنا، وقد تستعمل: صيغة فاعل في غير معنى المفاعلة، كقولهم داويت العليل، وعالجت المريض، وعاقبت المجرم.

ب. وقيل: أن المواعدة على معناها وهى من الله الوعد، ومن موسى التلقي والاستجابة وإنجاز ما وعد الله.

٢٨. توالت نعمة الله تعالى، ولكنهم فتنوا بما كان عليه المصريون الأقوياء، وكانوا هم الضعفاء، والضعيف دائما مأخوذ بتقليد القوى، فسرى ما عند الأقوياء، وهم قوم فرعون إلى الضعفاء، وكانوا يشعرون بالمذلة والاستكانة، وشعروا من بعد بأنهم ذلوا، فتابوا وتاب الله تعالى عليهم وعفا عنهم، وعدّ الله تعالى ذلك عليهم نعمة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي أن هذه الجريمة الكبرى، وهى الإشراك بالله تعالى ما كانت لتغفر، ولكن الله تعالى عفا عنها، والتعبير هنا بثم الدالة على التراخي والبعد، لبيان بعد ما كان منهم عن أن ينالوا من بعده عفو الله تعالى، ولكنه سبحانه وتعالى توّاب رحيم وسعت رحمته كل شيء ما دام التوبة قد حصلت.

٢٩. هنا نجده سبحانه وتعالى عبر بالعفو، ولم يعبر بالغفران وقبول التوبة، وذلك لأن العفو يكون

عما وقع بجهالة، وهم كانوا في حال جهالة، لتأثرهم بما كان عند المصريين من عادات جاهلية، ولأنهم خرجوا من ذل المعاصي إلى عزة الحق، فكان العفو أدنى إليهم، لأنهم كانوا في فتنة.

٣٠. قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الكفران، والفتنة التي أضلتهم، فالإشارة إلى البعيد، لبعد ما ارتكبوا عن موجب العفو الذي نالوه، فهم كفروا كفرانا مبينا، ولكن التوبة تجبّ ما قبلها.

٣١. لم يكن الخطاب بالجمع لأن فتنة العجل لم تكن منهم أجمعين، بخلاف ما كان يسومهم به فرعون وآله من عذاب، فقد كان يعمهم، ولا يخص فريقا.

٣٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، لعل هنا للرجاء:

أ. والرجاء هنا من العبيد لا من الله، والمعنى: عفونا عنكم لتكون حالكم حال الرجاء لشكر الله تعالى، فالرجاء لأمر يقع أو لا يقع إنما هو من شأن الناس، ولا يمكن أن يكون من الله تعالى الذي يعلم ما يقع وما لا يقع، ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض، ولا في السماء، والله سميع عليم.

ب. أو يكون الرجاء من الله تعالى، ويكون بمعنى الأمر، كما يقول السيد لخادمه فعلت معك كذا وكذا رجاء أن تعترف بالجميل، وتشكر لي حسن صنيعي، فهذا يكون حثا على فعل الجميل، بذكر موجبه، وعلى هذا المعنى تكون ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ في مقام التعليل لوجوب الشكر، وتكون بمعنى: لكى تشكروا، إن كنتم لا تكفرون بالنعمة، ولكن تشكرونها.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ هذه الآية تأكيد للآية السابقة، وتمهيد لما يأتي بعدها من الآيات، والمراد بالذكر هنا الشكر، أي اشكروا نعمتي عليكم بالسمع والطاعة.

٢. مرة ثانية يذكّر الله بني إسرائيل بنعمته، وقد أعاد الآية بلفظها بعد خمس آيات، وليست هي الآية الوحيدة التي أعادها القرآن فلقد كرر العديد من آياته في أكثر من سورة بخاصة ما يتصل منها ببني إسرائيل، وسيرتهم مع كليم الله موسى عليه السلام.

٣. اتفق المفسرون على ان الغرض من التكرار هو التأكيد.. وبمضي الأيام تكتشف الأحزاب،

---

(١) التفسير الكاشف: ١/٩٦.

وأرباب الأهداف من الساسة والتجار وأصحاب الشركات ان التكرار من اجدى الوسائل للترغيب والاقناع، وترويج السلع والآراء ومن أجل هذا تفننوا في الاعلانات، وتخصصوا بها، ورصدوا لها المبالغ، قال غوستاف لوبون في كتاب الآراء والمعتقدات: من يكرر لفظا أو صيغة تكرارا متتابعا يحوله الى معتقد).. وقال الدكتور جبسون في كتاب كيف تفكر: للعبارات حين تكرر أمام أعيننا، وعلى مسامعنا مرة ومرة فعل مغناطيسي ينوم عقولنا تنويما)، ولبلوغ هذه الغاية يكرر القرآن المعنى بأسلوب آخر، مع زيادة الوعد أو الوعيد، وما اليهما، حسبما تستدعيه الحكمة.

٤. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .. فضلهم الله على شعوب ذاك العصر، واللام في العالمين للعموم العرفي، لا للعموم الحقيقي، ويكفي في صحة التفضيل أن تكون لهم الأفضلية من جهة واحدة، لا من جميع الجهات، وهذه الجهة التي امتاز بها بنو إسرائيل ان الله أرسل منهم العديد من الأنبياء والرسل: فموسى وهارون ويوشع وعزير وزكريا ويحيى، وغيرهم كثير، وكلهم من بني إسرائيل.

٥. مهما يكن، فان تفضيلهم على أهل زمانهم من وجه لا يدل على فضلهم وتفضيلهم على أهل ذاك الزمان من كل وجه، ولا على ان كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، بل ان تضخم عدد الأنبياء فيهم ومنهم حجة عليهم، لا لهم، لأنه يدل على انهم كانوا لشدة ضلالهم في أمسّ الحاجة الى كثرة التحذير والانذار.

٦. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ أي ان كل انسان وما عمل، فلا ظاهر ولا باطن، ولا تعاون ولا تعاطف: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

٧. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي ان الشأن في يوم القيامة؛ تماما كالموت لا تجدي معه واسطة من أي كان، ولا تنفع فدية وان غلت، ولا تمنع قوة مهما عظمت.. لا شيء على الإطلاق الا رحمة الله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

٨. بعد أن ذكّر الله سبحانه بني إسرائيل بنعمه عليهم بنحو الإجمال ذكّرهم بها على سبيل التفصيل، وأولى هذه النعم التي أشار اليها هي نجاتهم من فرعون وأتباعه الذين أذاقوا اليهود أشد العذاب، وفسر الله سبحانه هذا العذاب بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يقتلون الذكور من نسلكم، ويستبقون الإناث أحياء ليتخذوهن خدما.. هذا، الى ان المصريين كانوا يسخّرون اليهود في قطع الأحجار

ونقلها، وحفر الأقنية، وما الى ذلك من الأعمال الشاقة.

٩. جاء الخطاب لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ لأنهم على دين أسلافهم، وراضون بعملهم، ومن أحب عمل قوم شاركهم فيه.

١٠. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي ان الله سبحانه قد اختبركم - يا بني إسرائيل - في السراء والضراء معا، لتعرفوا: هل تجاهدون وتصبرون في الجهاد صبر الكرام في الأولى، وتشكرون على الثانية، أو انكم تخضعون وتستسلمون في الشدة، وتكفرون وتطغون في الرخاء شأن كل جبان لئيم.

١١. تجدر الاشارة الى ان الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم ما هو عليه.. كلا، فإنه يعلم بكل كائن قبل أن يكون.. ولكنّه يختبر العبد، لإقامة الحجة عليه، إذ لا دعوى لمن لا حجة له، حتى ولو كان المدعى به ثابتا في علم الله تعالى.

١٢. أشار سبحانه الى النعمة الثانية على بني إسرائيل بقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي فصلنا البحر وجعلناه اثني عشر طريقا على عدد الأسباط، والباء من (بكم) للسببية أي بسببكم، والسبط هو ولد الولد، والأسباط من بني إسرائيل عشائر من نسل يعقوب.

١٣. لقد كان اليهود في غاية الضعف والمذلة، وكان خصمهم في غاية القوة والعزة، فعكس الله الآية على يد نبيه موسى عليه السلام فصاروا هم الأعزاء، وخصمهم الذليل، وعاينوا ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ذل من بالغ في إذلالهم، وهلاك من حاول إهلاكهم، وبهذا لزمتهم الحجة، ووجب عليهم أن يتعظوا ويعتبروا ولا يعاملوا غيرهم بما كان يعاملهم الغير.

١٤. وما أشبه معاملة اليهود اليوم لعرب فلسطين بمعاملة الفراعنة لليهود من قبل.. وستنعكس الآية، وتدور الدائرة على اليهود كما دارت على فرعون لا محالة، وعليهم في يد بختنصر والرومان.. ان للباطل جولة، ثم يضمحل.. وأعجب ما في الإنسان انه يقع في الشدائد، فإذا أنجاه الله منها طغى وبغى، ونسي كل شيء.

١٥. الآل مأخوذ من آل يؤول بمعنى رجع، فكل من رجع الى غيره بنسب، أو رأي، أو عقيدة فهو من آل من يرجع اليه، ثم كثر استعمال الآل في أهل بيت الرجل الذي هم منه، حتى اختص عرفا بهذا المعنى.. بل لا يقال آل فلان الا إذا كان لهذا الفلان مكانة وشأن، بعكس الأهل، فإنها أعم من ذلك..

والمراد بآل فرعون هنا أتباعه الذين كانوا يباشرون التنكيل بالاسرائيليين بأمر منه، وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره الكبير البحر المحيط: لم يكن لفرعون ابن ولا بنت ولا عم ولا خال ولا عصبة).. ولا أعرف الدليل الذي اعتمده لقوله هذا.

١٦. فرعون لقب لملك مصر في ذاك العهد، ككسرى الفرس، وقيصر الروم، ونجاشي الحبشة، وتبع اليمن، وخاقان الترك.. وقد أصبحت هذه الألقاب المالكة في خبر كان، ولله الحمد، ومعنى البلاء الاختيار والامتحان بما ينفع أو يضر، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

١٧. بعد ان أهلك الله فرعون ومن معه تنفس الاسرائيليون الصعداء، وعادوا الى مصر آمنين، ولم تكن التوراة قد نزلت بعد على موسى، فسألوه ان يأتيهم بكتاب من ربهم، فوعده الله أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاتا، فقال لهم موسى: ان ربي وعدني بكتاب، فيه بيان ما يجب عليكم أن تفعلوه، وتذروه، وضرب لهم ميقاتا أربعين ليلة، وهذه الليالي ـ على ما قيل ـ هي ذو القعدة، وعشر ذي الحجة.. وذهب موسى الى ربه ليأتي قومه بالكتاب، واستخلف عليهم أخاه هارون، وقبل أن يمضي الميقات الموعود على غيابه عبدوا العجل من دون الله، وظلموا بذلك أنفسهم، وهذا هو المعنى الظاهر من قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾

١٨. بعد ان رجع موسى الى قومه تابوا من شركهم، ورجعوا الى ربهم، فقبل الله توبتهم.. وهذه نعمة ثالثة من الله عليهم، واليها أشارت الآية: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ الملك والسلطان الدنيوي بأنواعه وأقسامه وبجميع شئونه، وقواه المقننة الحاكمة والمجرية مبتنية على حوائج الحياة، وغايتها رفع الحاجة حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانية والمكانية، فربما بدل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلي يضبط الحكم ويجري ذلك في باب المجازاة أيضا، فإن الجرم والجناية عندهم يستتبع العقاب، وربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعي منه ذلك كأن يلح المحكوم الذي يرجى عقابه على القاضي ويسترحمه أو

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/١٥٥.

يرتشيه فينحرف في قضائه فيجزي أي يقضي فيه بخلاف الحق، أو يبعث المجرم شفيعا يتوسط بينه وبين الحاكم أو مجري الحكم أو يعطي عدلا وبدلا إذا كانت حاجة الحاكم المريد للعقاب إليه أزيد وأكثر من الحاجة إلى عقاب ذلك المجرم، أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعة العقاب ونحو ذلك.. تلك سنة جارية وعادة دائرة بينهم.

٢. كانت الملل القديمة من الوثنيين وغيرهم تعتقد أن الحياة الآخرة نوع حياة دنيوية يطرد فيها قانون الأسباب ويحكم فيها ناموس التأثير والتأثر المادي الطبيعي، فيقدمون إلى آلهتهم أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد في حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يفدون بشيء عن جريمة أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى إنهم كانوا يدفنون مع الأموات أنواع الزخرف والزينة، ليكون معهم ما يتمتعون به في آخرتهم، ومن أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، وربما ألحدوا معه من الجواري من يستأنس بها، ومن الأبطال من يستنصر به الميت، وتوجد اليوم في المتاحف بين الآثار الأرضية عتائق كثيرة من هذا القبيل، ويوجد عقائد متنوعة شبيهة بتلك العقائد بين الملل الإسلامية على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، بقيت بينهم بالتوارث، ربما تلونت لونا بعد لون، جيلا بعد جيل.

٣. أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهية، والأقاويل الكاذبة، فقد قال عز من قائل: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، وقال ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، وقال ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وقال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات التي بين فيها: أن الموطن خال عن الأسباب الدنيوية، وبمعزل عن الارتباطات الطبيعية، وهذا أصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الأقاويل والأوهام على طريق الإجمال.

٤. فصل الله تعالى القول في نفي واحد واحد منها وإبطاله فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾، وقال: ﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾، وقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾، وقال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة النافية لوقوع الشفاعة وتأثير الوسائط والأسباب يوم القيامة هذا.

٥. ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفي الشفاعة من أصلها، بل يثبتها بعض الإثبات، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، وقال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

٦. قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، أي يتركونهن أحياء للخدمة من غير أن يقتلوهن كالأبناء فالاستحياء طلب الحياة، ويمكن أن يكون المعنى ويفعلون ما يوجب زوال حيائهن من المنكرات.

٧. معنى يسومونكم يولونكم.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. إعادة النداء لهم كإعادة التنبيه للنائم إذا لم ينتبه لأول نداء، وإعادة التذكير بالنعمة تنبيهٌ لهم من غفلتهم عن النعمة، وبعثٌ لهم على الشكر.

٢. تفضيلهم على العالمين تفضيلهم في النعم؛ لأنه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل: ٧١]، وقوله تعالى في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذا واضح من عطف ﴿أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ وفتح الهمزة؛ لأن معناه: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ومعناه: التذكير بالنعمة، فالتفضيل هو التفضيل في النعمة.

٣. قوله تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ معناه: في الماضي، فكانوا أفضل العالمين في النعم، ولا

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١١١.

يلزم بقاء الفضل واستمراره؛ لأن فضلتكم فعل ماض يصدق بتفضيلهم على العالمين الأولين؛ لأنهم إذا فضلوا على الناس كلهم الموجودين في الزمان الأول فقد فضلوا على العالمين؛ لأن العالمين اسم لمن قد وجد ولا يشمل المعدوم الذي هو غير موجود في ذلك الزمان.

٤. سؤال وإشكال: التفضيل في النعمة نعمة، فكيف عطف على ﴿نِعْمَتِي﴾؟ الجواب: أن ﴿نِعْمَتِي﴾:

أ. يحتمل: أن المراد به أنه آتاهم الكتاب، كقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فالكتاب الجامع للآيات الكثيرة نعمة كبرى، فالتذكير بالتوراة من حيث هي نعمة، ومن حيث هي حجة عليهم، وعلى هذا فلا إشكال في العطف.

ب. ويحتمل أن: ﴿نِعْمَتِي﴾ عام لكل نعمة، فعطف التفضيل عليها من عطف الخاص على العام، كعطف جبريل على الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهَّ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِلَ﴾.

٥. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ يعني اتقوا شر يوم هذه صفته، فهو يوم لا ينجي منه إلاَّ اتقاءه في الدنيا ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تؤدي عنها حقاً ولا تقضي عنها ديناً ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ لتنقذها من شره لو جاءت بشفاعة شافع.

٦. في الآية دلالة على أنها لا تنفع الشفاعة للمجرمين كلهم، ويدخل في ذلك أهل الكبائر المتسبين إلى الإسلام، وليس ذلك حطاً من مرتبة الشافع؛ لأنه يكون على وجه يحصل فيه التكريم للشافع والإهانة للمشفوع له، كما روي عنه ﷺ أنه قال: إني فرطكم على الحوض، وسيُجاء برجال فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)، أو كما قال فقوله: أصحابي أصحابي) شفاعة ليردوا إليه ويسقيهم من الحوض، ولكنها لم تنفعهم، بل كان الجواب ذمهم وبيان استحقاقهم للعذاب.

٧. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فدية تعدلها وتقوم مقامها في القَدْر ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١] ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم شملهم عموم النكرة في سياق النفي، وهم نفوس كثيرة ولا ينصرهم أحد لدفع شر ذلك اليوم.

٨. ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لا يبعد حمل كلمة ﴿آلَ﴾ هنا على قرابة فرعون،

أو على فرعون وقرابته، على معنى أنهم هم الذين يظلمون بني إسرائيل ويأمرون الأقباط بظلمهم.

٩. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يكلفونكم سوء العذاب يكرهونكم عليه من سامه خسفاً إذا حمله على ما هو ذل، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما المَلْكُ سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، يعني: إذا طلب بيعها منه.. وقيل: من سام الإبل: إذا رعاها وهو بعيد غير مناسب للمعنى، والظاهر: في مضارعه يسيمون، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] لأن السائمة: هي الإبل الراعية، والسوم: الرعي، وإن صح نسبته إلى صاحب الإبل تجوزاً.

١٠. ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ووجه السوم فيه أنهم جعلوا ذبح الأبناء واستحياء النساء عادة مستمرة، فإذا ولد مولود إسرائيلي فهم يتوقعون ذبحه، فكانت هذه العادة سوماً لهم سوء العذاب من أجل أنهم لا يزالون يتوقعون قتل الأولاد في المستقبل، وهذا يناسب ذكر الإنجاء منهم؛ لأنه تخليص من الشر المستقبل لا مما قد وقع.

١١. هذا المذكور ليس كل سومهم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ولكنه أعظمه وأشده عليهم، فذكر بعينه، وهم يعرفون سومهم سوء العذاب غير ذلك.

١٢. في (سورة إبراهيم): ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ﴾ [آية: ٦] بالعطف، فعُطف عطف الخاص على العام وسوء العذاب أقبحه.

١٣. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة من الله، كقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧] ولعل (بني إسرائيل) كانوا من العدد بحيث يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، أو بحيث يتجنب الظالم ظلمهم لقوتهم، ولكنهم تواكلوا وتخاذلوا وغلب عليهم اليأس، وعدمت ثقة بعضهم ببعض، فلم يجتمعوا بل تفرقوا، وتركوا محاولة الاجتماع والتوحد الذي تكون القوة معه، إذا كان مع صدق الديانة، والتوكل على الله، فلذلك استحقوا أن يتركوا وشأنهم حتى استضعفهم فرعون وصار يعاملهم المعاملة الجائرة، بسوء ما سبق منهم من التواكل والتخاذل وقلة المبالاة بعواقب ذلك، فمن هنا كان إنجاؤهم بعد ذلك بلاءً من ربهم عظيماً.

١٤. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ إذ فرقنا لكم البحر، حين ضربه موسى بعصاه ﴿فَانْفَلَقَ

فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] ولما كان فرق البحر من أجلهم ليمرُّوا طريقهم بين الفرقين، كانوا كأنهم آلة لفرق البحر انفلق بمرورهم فيه، فهذه نعمة عليهم أن فرق لهم البحر وهي من الخوارق العظام، وجعل لهم فيه طريقاً سلكوه وحولهم من البحر كل فرق كالطود العظيم لا يسيل عليهم حتى خرجوا من البحر سالمين من الغرق وسالمين من إدراك فرعون وقومه.

١٥. ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ في مروركم فيه من الغرق ومن فرعون ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وهذه نعمة أخرى إهلاك عدوهم وهم ينظرون؛ لأنها بذلك تحققت لهم نجاتهم من آل فرعون، وحصل لهم شفاء لما في صدورهم من الغيظ، أو خفف عنهم بمشاهدتهم هلاك عدوهم في تلك الحال، وبتلك الصورة التي اقترنت فيها نجاتهم بهلاك عدوهم كلهم في وقت واحد برجوع البحر عليهم.

١٦. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يحضر فيها في جانب الطور الأيمن يسمع فيها كلام ربه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً، وكان ذلك منكم من بعد موسى الذي هو رسول الله إليكم، والذي قد علمكم التوحيد، وأنكر عليكم ابتغاء إله غير الله فعظمت الجريمة بسرعة انقلابهم عن دينه واستبدال هداه لهم بالضلالة.. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ معناه: أنهم ظالمون بذلك؛ لأن الشرك ظلم عظيم.

١٧. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أما العفو فحين تابوا، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يشير إلى أن العفو عن مثل ذلك في العادة بعيد، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ٨٦] فلما أن هداهم الله للتوبة ببركة موسى وعفا عنهم حين تابوا كانت تلك نعمة عظيمة يجب عليهم شكرها، ولما كان هذا تعريضاً لهم على الشكر شبه بالإنعام رجاء الشكر، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ولا تغفلوا عنها كما يعيش الناس الغفلة عن الواقع من خلال استغراقهم فيه، فلا يتحسسونه بشكل واع، لتتعرفوا من خلال ذلك الامتيازات الحياتية التي منحكم الله إياها.

(١) من وحي القرآن: ٢/٣٠.

٢. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنعمة التي قد تتحول إلى تفضيل بالقيمة، إذا أخذتم بأسباب الاستقامة في خط الله على أساس التقوى.

٣. التفضيل ليس تفضيلا طبقيا يمنحهم القيمة الذاتية التي يشعرون معها بالعلو على الناس، بل هو تفضيل النعمة بما أغدقه الله عليهم من ألطافه وفيوضاته، مما يستوجب الشكر والطاعة والتقوى.

٤. لعل هذا الجو الذي يريد القرآن الكريم أن يضع التفضيل فيه في موقع النعمة، هو الذي جعل الآية الثانية تمثل الدعوة إلى التقوى والخوف من اليوم الآخر، الذي يقف فيه كل إنسان أمام عمله ومسئوليته، ليواجه مصيره بعيدا عن كل الامتيازات الطبقية والعائلية، وعن كل البدائل التي يمكن أن يفكر بها الإنسان في التخلص من مسئوليته.. إنه الموقف الذي يحس الإنسان فيه بإنسانيته في مسارها الروحي والعملي عندما تلتقي بالله، ليعرف أنها طريق الخلاص الوحيد.

٥. ربما كان في هذه الآية بعض الإيحاء إلى هؤلاء اليهود الذين عاشوا في زمان النبي ﷺ ممن وقفوا ضد الرسالة، بأنّ عليهم أن ينسجموا مع خط الدعوة الجديدة، باعتبارها مظهرا للتقوى والانقياد إلى الله، كونها تمثل إرادته الحقيقية الأخيرة في خط الرسالات، وهذا ما نستوحيه من الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ حاسما في مسألة المصير، وهو يوم القيامة الذي يواجه فيه الناس حساب المسؤولية عما قاموا به في الدنيا، بعيدا عن كل الذاتيات الشخصية والعلاقات الاجتماعية.

٦. ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، لأن القضية لا تتصل بأية علاقة شخصية في امتيازاتها الطبقية، مما كان الناس يتعاملون به في سلوكهم العام والخاص، مثل قيام شخص بإبعاد العقاب عن شخص آخر، بحيث يتخفف من ثقل المسؤولية لقرابته له، أو لعلاقته به؛ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، وموقع خاص يحدد له حساباته التي لن تتعداه إلى غيره.

٧. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وهو البدل الذي يقوم مقام المذنب في تحمل العقوبة، كما هي الحال في الدنيا، إذ قد يقدّم الإنسان شخصا آخر بدلا عنه في مواجهة نتائج المسؤولية، بحيث ينجو من آثارها الصعبة. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من قبل أنصارهم وأصحابهم وأقربائهم، لأنهم لا يملكون شيئا أمام الله.

٨. ما نستوحيه من جوّ الآية، هو الإيحاء بأن على الإنسان أن يتحرك في حياته من موقع التفكير بأن خلاصة لا يرتبط بأي شيء مما تعارف عليه الناس من أساليب اللف والدوران من المصانعات

والمجاملات والتسويات، بل يرتبط بالخط العملي الذي يتحرك في حدود الشعور بالمسؤولية العملية، في التصور الإنساني للموقف الحاسم في يوم القيامة الذي يقف فيه الإنسان ليواجه مصيره من خلال عمله، فلا شيء إلا العمل مع رحمة الله؛ مما يدعونا إلى التركيز في خطوات الحياة، على أساس الخط العملي المستقيم، وعلى الرجوع الخاشع إلى الله، والارتباط الوثيق به في صفاء العقيدة وحيويتها.

٩. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الذين كانوا يستعبدونكم ويضغطون على حريتكم، فلا يملك أحد منكم أمامهم أي حول أو قوّة، فلا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حماية وجوده.

١٠. فكانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يذيقونكم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي العذاب السيئ الشديد في وحشيته وقسوته، في استخدامهم لكم في أعمالهم العمرانية والزراعية والخدماتية، وفي فرض الجزية عليكم من دون أساس.

١١. هذه إحدى النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، فقد كانوا يرزحون تحت حكم الطغيان الفرعوني الذي كان يعمل على إبادة رجالهم بكل وسيلة مهما كانت وحشية قاسية، فقد كان يذبح الأولاد الذكور الذين يولدون خوفا من أن يكونوا قوة مضادة، ويبقي النساء لحاجته لهنّ في خدمته وخدمة قومه.

١٢. ذكر في كلمة (يستحيون) وجهان:

أ. الأول: أنها مشتقة من الحياة بمعنى أنهم يطلبون الحياة لهن.

ب. الثاني: أنها مشتقة من الحياء أو الاستحياء، بمعنى أن الحياء يبعثهم على الإبقاء عليهن بعلاقة المجاز، لأن الاستحياء يمنع الإنسان عن عمل ما يستحي منه عادة.

١٣. هناك أحاديث متعددة لا نستطيع الوثوق بها لإمكان أن تكون مستمدة من بعض رواة اليهود الذين جعلوا من أنفسهم مفسرين للقصص القرآني، وهو ما نسميه بالإسرائيليات، ولا مانع من أن يكون لها نصيب من الواقع في بعض الحالات.. وعلى كل حال، فإنها قد تعطينا ظلالا على الأجواء التي تحدثنا عنها الآية الكريمة، وذلك ما نحتاجه من القصص القرآني، فإننا لسنا في حديث يربطنا بالتاريخ من خلال التفاصيل، بل نحن في حديث يربطنا بالعبرة الحية من خلال التاريخ، وبذلك فلا نخضع للقصص المروية في استيحاء الآيات القرآنية، بل نعمل على أن نعيشها ونحاكمها في الأجواء التي نستوحيها من الآية في قراءتنا لها.

١٤. خلاصة ما ترويه هذه الأحاديث، أن فرعون رأى في منامه أنه سيموت على يد شخص من بني إسرائيل، فأراد أن يعطّل مفعول المنام في المستقبل بإفناء كل الذكور منهم وذلك بقتل كل وليد ذكر، الأمر الذي أدى ـ كما تقول القصة ـ إلى أن قومه ضجوا إليه، فقالوا له: يوشك أن نفقد العمال ونكلّف نحن بالعمل، لأن بني إسرائيل كانوا يمثّلون اليد العاملة في ذلك المجتمع، فبادر إلى ذبح أبنائهم سنة وتركهم سنة، وربما كانت قصة ولادة موسى وإلقاء أمه له في البحر دليلا على صدق بعض هذه التفاصيل في القصة.

١٥. ربما كان الأساس في هذا السلوك الفرعوني، خوف الفراعنة من تكاثر هؤلاء المستضعفين من الناحية العددية، وتطوّرهم في قوتهم النامية، بحيث يتحولون إلى خطر يتهدد ملكهم وجبروتهم؛ الأمر الذي يفسر ذبح الأولاد الذين هم شباب المستقبل القوي ورجاله، بينما لا تمثل النساء أيّ عنصر قوّة اجتماعي أو اقتصادي أو عسكري، ولا سيما في ذلك الزمان، بل ربما يحتاج إليهن كقوة عاملة للخدمة في تقوية ملك الفراعنة، ويشتد ذلك ويتعاظم في صورة أكثر قسوة ووحشية، فهم ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ولا يبقى منكم في المستقبل شباب يملكون القوة ورجال يعملون من أجل الحرية، كوسيلة من وسائل مصادرة وجودكم القوي في المستقبل، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فيبقونهنّ للخدمة وللّذّة ولغير ذلك.

١٦. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ لأنه يمثل الموت الجسدي للذكور والموت المعنوي للإناث، وقد نجّاكم الله من ذلك كله ببركة موسى عليه السّلام الذي جاهد في رسالته جهاد الأبطال من أجل حريتكم، التي هي رمز حرية الإنسان المستضعف.

١٧. جاءت هذه الآية لتقول لهم ـ للبقية الباقية منهم ـ في زمن النبي محمد ﷺ: إن الله قد رفع عنكم هذا البلاء العظيم بفضل موسى عليه السّلام ورسالته، وأنعم عليكم بنعمة الامتداد في الحياة بعيدا عن كل طغيان مدمّر وحشي، فلما ذا لا تشكرون؟

١٨. هذه هي النعمة الثانية التي أنعمها الله عليهم، وذلك في صورة المعجزة، فقد خرج موسى ببني إسرائيل ليخلصهم من طغيان فرعون، بعد أن أعيته الوسائل الطبيعية التي حاول من خلالها إقناع فرعون بالسماح لهم بالخروج معه، حتى إذا عرف فرعون بذلك، لحقهم بجنوده ليمنعهم من التقدم.. وهنا كانت المفاجأة الإلهية التي أنقذت الموقف بمعجزة حطمت كبرياء فرعون، كما استطاعت أن تحطم زهوه في معجزة العصا، فشق الله البحر لموسى وقومه وفتح لهم طريقا يابسا ـ كما يحدثنا القرآن فيما نستقبله من

آياته ـ وعبروا إلى الجانب الآخر، وأراد فرعون أن يلحقهم في هذا الطريق اليابس نفسه الممتد أمامه بعد عبورهم، فدخلت خيوله البحر فغمره الماء الذي غطّى الطريق، وهم ينظرون إليه في حيرته الذليلة، زيادة في إذلاله وفي إعزاز المستضعفين الذين انطلقوا في طريق الرسالة والرسول.

١٩. إن الموقف قد تحرك هنا من خلال المعجزة، لأن الوسائل العادية قد استنفدت، ولم يبق هناك من سبيل لإنقاذ الموقف الرسالي إلا ذلك، فلو أن فرعون استطاع أن يدركهم لدمّرهم ودمّر موسى معهم، مما يجعل القضية تمثل انتصارا ساحقا للكفر على الإيمان، وهذا ما لا يريده الله في تلك المرحلة التي تحولت إلى موقف للتحدي المباشر له.

٢٠. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: فلقناه وجعلنا فيه جسرا تعبرون عليه هربا من عدوكم، ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من ظلم فرعون وطغيانه، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الذين خيّل إليهم أنهم قادرون على ملاحقتكم، من خلال الأرض اليابسة التي جعلها الله بقدرته في قلب البحر، فاندفعوا إليه، واندفع الماء إليهم، فغمرهم بعد أن تجاوزتم البحر إلى البرّ، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إليهم، وهم يلاقون جزاء طغيانهم في مصيرهم المحتوم.

٢١. تلك هي قصة المعجزة في كل زمان ومكان في مسيرة النبوّات، فهي تأتي لتنقذ الموقف حيث لا مجال للموقف البديل، وهي ليست حدثا يوميا يأتي بمناسبة وبغير مناسبة، كما قد توحي بذلك بعض الأقاصيص المنقولة في قصص الأنبياء والأئمة والأولياء، فإن الله قد أقام الحياة على أساس السنن الطبيعية التي أودعها في الكون، فلا يغيّر سننه الطبيعية إلا لأمر عظيم.

٢٢. يمكن لنا أن نستوحي هذه النعمة في كل موقف يقفه أفراد أيّ شعب من الشعوب تحت سلطة الحكم الظالم الذي يقهرهم، ويضطهدهم، ويقتل الأبرياء من أبنائهم، ويستغل خيراتهم وثمراتهم، ويكبت حرياتهم، ويعطل طاقاتهم عن الحركة والانطلاق، وذلك عندما يرتفع عنهم هذا الكابوس الثقيل بما يصنعه الله لهم من الظروف والأوضاع والوسائل الداخلية والخارجية، فلا بد لهم من الوقوف أمام ذلك موقف المؤمن الواعي الشاكر لنعمة الله، عندما يلتفت ـ بعمق ـ إلى ألطاف الله وآلائه، في تيسير ذلك كله بشكل مباشر، فيواجهون الحياة من موقع إرادة الله الأصيلة العميقة في الأشياء، لا من موقع الأسباب الظاهرية فقط، لأن ذلك ما يربطهم بالله دائما من خلال الوعي الأعمق والفهم الأرحب، فلا يتصورون

شيئا إلا ويرون الله معه، ولا يواجهون شيئا إلا ويرون الله خلفه.

٢٣. هذه هي الحادثة الثالثة التي واجه الله بها بني إسرائيل في مجال تعداد ممارساتهم السيئة أمام نعمه عليهم، فقد أراد لهم أن يبدؤوا حياة جديدة في ظل شريعة شاملة تنظم لهم حياتهم، وترعى لهم شؤونهم وعلاقاتهم، وتفتح لهم أبواب الحياة الواسعة على أساس من الحكمة والمصلحة، وفي هذا الجو، استدعى الله موسى لميقاته لينزل عليه التوراة في مدى أربعين ليلة؛ وهنا كانت المفارقة ـ المفاجأة، فلم يكد موسى يغيب عنهم حتى نسوا الرسالة والرسول، ونسوا الله سبحانه، فعبدوا العجل في قصة طويلة ذكرها القرآن أكثر من مرة، ولم ينفتحوا على الآفاق الواسعة التي أراد الله لهم أن ينفتحوا عليها، لينطلقوا إلى العالم كحملة للرسالة الشاملة، فيكون لهم المركز الكبير في ظل هذه الرسالة.

٢٤. لكن الله لم يعاملهم بظلمهم، بل عفا عنهم ليفسح لهم المجال للتراجع ولتصحيح الفكر والمسيرة، ليهيئ لهم الجو الروحي والنفسي الذي يعينهم على الرجوع إليه والشكر له على نعمائه من ناحية عملية.

٢٥. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ليتلقى الوحي الإلهي الذي فيه الهدى للناس في كل قضاياهم العامة، في مسئولياتهم اتجاه أنفسهم، واتجاه الناس من حولهم، واتجاه الحياة المحيطة بهم، بالإضافة إلى مسئوليتهم في عبادة الله.

٢٦. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، فرجعتم إلى السلوك الوثني الذي يعود إلى تاريخكم المنحرف في حياتكم مع فرعون، مما يوحي بأنكم لم تنفتحوا على الرسالة الإلهية التوحيدية من موقع العمق الفكري والروحي والاستقامة العملية، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم من خلال النتائج السلبية للوثنية الجديدة في الدنيا والآخرة.

٢٧. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ لتعودوا إلى الخط المستقيم واليقظة الروحية في حركة التوبة النفسية والإخلاص العملي، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على هذه النعمة التي فتحت لكم الفرصة الجديدة للعودة إلى التوازن في طاعة الله ومرضاته.

٢٨. إذا كان الخطاب موجها لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ الذين لم يعبدوا العجل، فذلك لاعتبارهم امتدادا لأولئك كفريق واحد يمتد في الحاضر من خلال امتدادات التاريخ، مما يجعل الخصائص

التاريخية لأسلافهم بمثابة الخصائص الذاتية لهم.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا التفضيل إنما هو بما جعل الله فيهم من النبوات المتعاقبة ـ بحيث كانوا أكثر الأمم أنبياء ـ وبما منحهم الله من النعم الخارقة للعادات كفرق البحر لهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، ويستبان ذلك مما حكاه الله تعالى عن موسى من قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

٢. لا بد من تقييد مفهوم العالمين هنا بما يقتضيه الأدلة، وهو أنهم فضلوا على عالم العصر الذي مُنحوا فيه القيادة الروحية بين الأمم بما أوتوه من الآيات وما أكرموا به من النبوات، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أما بعد ما انتزع زمام القيادة من أيديهم ووُضع في أيدي قوم آخرين ـ وهم أمة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ـ فلا تفضيل لهم على أحد، ومهما يكن لهم من فضل فيما سبق فإنه لا يبلغ إلى شأو فضل هذه الأمة التي قال لها الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وإذا كان تفضيل بني إسرائيل بسبب تلك النبوات المتعاقبة والرسالات المتتابعة في المحيط الإسرائيلي فإن تفضيل هذه الأمة بالرسالة العظمى الخاتمة التي هيمنت على جميع الرسالات وجمعت كل ما فيها من الهدى ولم تأفل شمسها منذ سطعت على الوجود، وبأن المضطلع برسالتها هو أفضل النبيين الذي يظللهم جميعا لواؤه في المحشر، وكفى بأن جعل الله رسالته رحمة للعالمين.

٣. ذهب الزمخشري ـ وتابعه كثير من المفسرين ـ إلى أن المراد بالعالمين هنا الجم الغفير من الناس، كما يقال رأيت عالما من الناس، أي عددا كبيرا منهم، واستدلوا له بقوله تعالى: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، وضعفه الفخر الرازي لأن لفظ العالم مشتق من العلم، فكل ما كان دليلا على الله تعالى كان عالما، فكان من العالم، قال: وهذا تحقيق قول المتكلمين العالم كل موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات)، ورده الشوكاني من وجهين:

---

(١) تفسير الخليلي: ٣/٢٠٤.

أ. أولهما: أن دعوى اشتقاق العالم من العلم لا برهان له.

ب. ثانيهما: لو سلم صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق اسم العالم عليه وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها الخالق، وغايته أن جميع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات، وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان فليس في اللفظ ما يفيد هذا، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه.

وهذا ظاهر فإنه من المعلوم أن لفظ العالمين هنا لا يشمل عالم النباتات ولا عالم الجمادات كما لا يشمل عالم الملائكة لعدم وجود النبوات فيهم، وإنما مفهومه محصور في العالم الإنساني، وهو محمول على طائفة من الناس دون سائرهم.

٤. تحذير إثر ذلك التذكير بنعم الله سبحانه التي أسبغها على بني إسرائيل، وهذا لأن تلك النعم ـ ومن بينها تفضيلهم على العالمين بما جعل فيهم من النبوات وأكرمهم به من خوارق العادات ـ كانت مصدر غرورهم، وسبب استهتارهم، فبدلا من أن يكونوا لها شاكرين كانوا بها كافرين، فلقد تلونت ضلالالتهم، وتنوعت مفاسدهم، وأصروا على غيهم، واستكبروا استكبارا، وزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه فلن يمسهم عذابه، لأن شفقة الأبوة على البنوة ستقيهم شر الوعيد، ولئن مسهم العذاب فلن يكون ذلك إلا أياما معدودات، لأن آبائهم من النبيين الطاهرين لن يقر لهم قرار حتى يشفعوا لهم عند الله فيجيرهم مما هم فيه من العذاب، ولن يسكتوا عن أفلاذ أكبادهم وهم يصطلون السعير الدائم، إلى غير ذلك مما نسجته أخيلتهم المريضة من الهراء الذي ليس له حظ من الصدق.

٥. جاءت هذه الآية قاطعة حبال هذه الأمنيات الباطلة والمطامع الفارغة، وقد أعيدت مع الفارق اليسير في التعبير في آيات هذه السورة، والآيتان الكريمتان كاشفتان لحال ذلك اليوم، فكل ما يغني في هذه الدنيا من الشفاعات والفدى لا يغني في ذلك اليوم شيئا، وقد جاء وصفه في معرض التحذير منه في آيات متعددة من سور مختلفة، من ذلك قوله سبحانه: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهو لا يظلمون﴾، وقوله: ﴿واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا

أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

٦. إذا كان التحذير منه في هذه الآية ومثيلتها خاصا ببني إسرائيل، وفي سائر الآيات التي أوردناها شاملا لعموم الناس، فإن المؤمنين أيضا قد خصوا بالتحذير منه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾، وهو دليل على أن ما ذكر من صفته ليس خاصا بأحد دون غيره أو طائفة دون أخرى من الناس، فجميع الناس تنحل يومئذ روابطهم النسبية والسببية وإنما تبقى رابطة واحدة فحسب تشد بعض أهلها إلى بعض، وهي رابطة التقوى، يقول الله عز من قائل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، ويقول: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، وهو يعني أن لا جدوى إلا من التقوى، فلا أنساب ولا أسباب، ولا شفاعة ولا فدية.

٧. اتقاء ذلك اليوم بالمعنى الحقيقي متعذر فإنه يوم يغشى جميع الناس أبرارا وفجارا، سعداء وأشقياء، فلا ملجأ للإنسان منه، وإنما اتقاؤه هو اتقاء ما يسبب العطب فيه، وذلك لا يكون إلا بالمداومة على الإعمال الصالحة الواقية من شره، والابتعاد عن سيئات الأعمال الموقعة في عذابه.

٨. هذا اليوم هو المعبر عنه بيوم الدين، ويوم القيامة، واليوم الآخر، وهو يبدأ بالبعث ولا نهاية له، وما ذكر هنا من وصفه ينطبق على جميع مواقفه حتى يستقر السعداء في دار قرارهم وهي الجنة، والأشقياء في مستقرهم الأبدي وهو النار.

٩. الشفاعة: هي توسط أحد بين ذي حق ومن عليه الحق لعفو ذي الحق عن حقه، سواء كان الحق عينيا أم اعتباريا وهي تنبئ عن مكانة الشافع لدى المشفوع لديه، وتعود ثمرتها إلى المشفوع له، وهي مأخوذة من الشفع ضد الفرد لأن المستشفع بغيره إنما استكثر به لدى المشفوع لديه، فإذا ضم صوته إلى صوته كان شفعا بعد أن كان المشفوع له فردا.

١٠. العدل: الفدية وأصله ما يساوي الشيء قيمة وقدرا وإن لم يكن من جنسه، وأما العِدل (بالكسر) فهو ما يساويه من جنسه وفي جرمه.

١١. أصل النصر المعونة، ومنه الأرض المنصورة، أي الممدودة بالمطر، والمراد به هنا دفع الضرر، والضمير هنا ـ كسابقيه في قوله: ﴿ولا يقبل منه شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ ـ عائد إلى ما دلت عليه لفظة

﴿نَفْسٍ﴾ الثانية وإنما جمع لكون نفس نكرة في سياق النفي، والنكرات المنفية للعموم، وذُكِّر لأنه بمعنى العباد أو الأناسي وإنما كانت هذه الضمائر عائدة إلى ﴿نَفْسٍ﴾ الثانية دون الأولى لأنها هي المقصودة بالتحذير والإنذار، ومعنى ذلك أن النفس العاصية لا تجد يومئذ نفسا أخرى تقضي عنها شيئا، ولو وجدتها لم يقبل منها قضاؤها، ولو جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها، وكذلك لو ما جاءت بعدل يفديها ثم لو التمست نصيرا حميها من عذاب الله لم تجده.

١٢. قيل: إن الضميرين السابقين عائدان إلى نفس الأولى بخلاف هذا الضمير الأخير، ومعنى ذلك أن تلك النفس ـ كما أنها لا يقبل قضاؤها عن النفس العاصية ـ فكذا لا تقبل شفاعتها لها، ولا فديتها عنها، واعتمد هذا القول القطب في الهيميان، واستدل له بكون النفس الأولى هي العمدة والثانية فضلة، والأصل أن يعود الضمير إلى العمدة دون الفضلات، وذهب في التيسير إلى أن الضمير الأولى للأولى والثاني للثانية، وسوغ ذلك في الهيميان كما سوغ عودهما معا إلى النفس الثانية للتناسب مع قوله: ﴿ولا ينصرون﴾؛ وجوز ابن عطية عود الضمير في قوله: ﴿لَا يُنْصَرُونَ﴾ على النفسين المتقدم ذكرهما، لأن اثنين جمع، أو لأن النفس للجنس وهو جمع، وأنكر الألوسي الوجه الأول ووصفه بأنه ليس بشيء، كما ضعفه قطب الأئمة لاختصاصه بكون النفسين مشركتين أو فاسقتين أو فاسقة ومشركة، ثم قال لكن له وجه هو أن يكون المعنى أن الأخلاء على المعصية مع حب بعضهم لبعض في الدنيا لا ينصر بعضهم بعضا ولا ينصرهم المؤمنون، وأضاف إلى ذلك قوله: والأولى إبقاء النفس على عمومها في المطيع والعاصي وعود الضمير في: ولا هم ينصرون للعصاة)، وفي هذا التوجيه بعد وتكلف كأول توجيهي ابن عطية، وإنما يسوغ عوده على النفسين باعتبار ما في كل منهما من الدلالة العمومية، وحمل النصر على التوفيق لبلوغ المراد، فالنفس الأولى لا تبلغ مرادها في جدوى جزائها أو شفاعتها أو فديتها، كما أن النفس الثانية ليست ببالغة أمنيتها من إجداء ذلك لها ودرء العذاب عنها.

١٣. فسر بعضهم النصر هنا بالانتقام كالذي في قوله: ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا)، وتوجيه هذا التفسير أنهم لا ينتقم لهم من الله ـ تعالى الله ـ للإثار لهم مما أنزل لهم من العذاب.

١٤. وما ذكر هنا من عدم جزاء نفس عن نفس شيئا في ذلك اليوم.. جاء منسقا حسبما عهد في هذه الدنيا من طرق الدفع عن الحميم عندما تنزل به كريهة من عدو قاهر فإن أول ما يبدأ به ذوو مودته أن

يدفعوا عنه بمالهم من جاه ومكانة اجتماعية.

١٥. شروع في تفصيل النعم بعدما ذكرت مجملة في لفظ ﴿نِعْمَتِي﴾ المفيدة للاستغراق، لأن تعريف اسم الجنس بأل أو الإضافة دال على قصد جميع أفراد مدلولاته، وقبل الشروع في هذا التفصيل ذكروا بنعمة كبرى تعد أساسا لهذه النعم ـ وهي تفصيلهم على العالمين ـ وذلك لأجل تحريك هممهم الخاملة عن الخير وإثارة عزائمهم المتوانية عن الحق كما سبق تفصيله.

١٦. قصة تنجية بني إسرائيل من عذاب فرعون وآله، وإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض جاءت مفصلة في القرآن المكي السابق نزوله على هذه السورة، وإنما ذكرت هنا عرضا لقصد التذكير، والقرآن الكريم ليس كتابا تأريخيا معنيا بعرض أحداث الزمن وقضايا التأريخ وإنما هو كتاب دعوة يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، وبما أن كل جيل من هذا الجنس هو حقلة في سلسلة الأجيال المتعاقبة منذ خلق الإنسان وإلى نهاية وجوده في هذه الأرض كان جديرا أن تستفيد هذه الأجيال من جميع الأحداث التي مرت بمن قبلها، فإن السنن الكونية التي تحكم الإنسان ـ بمشيئة الله ـ لا تتبدل، فأسباب الفوز والنجاح والاستقرار والاطمئنان وأسباب الفشل والاضطراب والدمار هي لا تختلف باختلاف العصور.

١٧. المراد بسومهم سوء العذاب إذاقتهم إياه وإلصاقه بهم وفسر بإيلائهم إياه، وحروفه توحي بالمداومة، ومن ذلك سميت الماشية التي لا تعلف سائمة لمداومتها الرعي، وقد شاع عند العرب قولهم (سامه الخسف)، أو (أسامه خطة خسف) إذا ألزمه ذلك.

١٨. رويت عن مفسري السلف روايات في بيان أنواع هذا العذاب يفيد مجملها أن جميع الأعمال الشاقة والرديئة كانوا يحملونها دون غيرهم، وبالجمع بين فائدتي الفصل في هذه السورة والوصل في سورة إبراهيم يستفاد أن هذه البديلة هنا هي بديلة بعض من كل، وأن العطف هناك عطف هناك عطف خاص على خاص.

١٩. ذهب أكثر المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ إلى مذاهب لا تستند لحجة سوى روايات ليس لها من أصل وإن عزيت إلى من عزيت إليه من السلف:

أ. منها أن فرعون أخبرته الكهنة عن إظلال زمن مولود إسرائيلي يكون هلاكه على يديه.

ب. ومنها أنه رأى في نومه نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت

القبط وسلمت بني إسرائيل فأولت له رؤياه بما سبق ذكره.

ج. ومنها أنه نمي إليه حديث تردده ألسنة بني إسرائيل مفاده أن الله تعالى وعد عبده الخليل إبراهيم عليه السلام أن يجعل ذريته أنبياء وملوكا، وأنهم يتطلعون إلى هذا الوعد ليتخلصوا مما هم فيه من النكد.

٢٠. وهذه الأقوال ظاهرة البطلان:

أ. أما الأول والثاني فبطلانهما من حيث إن الرؤيا والكهانة لو أفادا علما يقينيا بأمر ما مع تحديد زمنه لبطل إعجاز النبوات بالإخبار عن المغيبات لتساوي الكل في ذلك، وأين النبوة من الكهانة؟ والرؤيا الصادقة وإن كانت في كثير من أحوالها نافذة للاطلاع على بعض الأحوال المستقبلة، فإنها تختلف عن الوحي الظاهري لأنها تأتي مطوية في غلف تختلف رقة وغلظة ولذلك تحتاج إلى تأويل يصدر عن فهم وإدراك عميقين، ويبعد أن يكرم الله بالرؤيا الصادقة أمثال فرعون ممن ران على نفوسهم الكفر واستولى على وجدانهم الضلال، ومن ناحية أخرى فإنه من المستبعد أن يجرأ أحد على فرعون الجبار العنيد ذي البطش الشديد فيخبره بانتهاء ملكه على يدي ناشئ من بني إسرائيل.

ب. أما القول الثالث فبطلانه من حيث إن أخبار النبوات لم تكن لتؤثر على نفسية فرعون بعدما تكبر وطغى وبلغ به غروره أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، فإن تأثيرها على نفسه نافذة إلى تصديقها والإيمان بها وأنى لمن يؤمن بالله رأسا بل ادعى انه هو الإله الواحد أن يؤمن أو تأثير بشيء مما تردده الألسن عن أخبار الأنبياء؟ وهب ذاك صحيحا فإن ذرية إبراهيم لم تكن منحصرة في ولد إسرائيل، فليس تذبيحه لأبناء الإسرائيليين كافيا في الاحتياط عما يحذره من ذلك.

٢١. المراد بالأبناء الأطفال كما يقتضيه الظاهر، وذهب قوم إلى أن المراد به الرجال البالغون، وقال ابن عاشور: وهذا الوجه أظهر وأوفق بأحوال الأمم، إذ الظنون أن المحق والاستئصال إنما يقصد به الكبار ولأنه على الوجه الأول تكون الآية سكتت عن الرجال إلا أن يقال إنهم كانوا يذبحون الصغار قطعا للنسل، ويسبون الأمهات استعبادا لهن، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدريج، وإبقاء الرجال في مثل هذه الحالة أشد من قتلهم، أو لعل تقصيرا ظهر من نساء بني إسرائيل مرضعات الأطفال ومربيات الصغار، وكان سببه شغلهن بشؤون أبنائهن، فكان المستعبدون لهن إذا غضبوا من ذلك قتلوا

الطفل)، وعمدة أصحاب هذا القول مقابلة الأبناء بالنساء، وليس في ذلك دليل لما قالوه، والقول الأول هو للجمهور وبه نصت التوراة، ويقويه أن موسى عندما خشيت عليه القتل أوحى الله إليها أن تجعله في التابوت وأن تلقيه في البحر، وأن امرأة فرعون قالت لآل فرعون عندما التقطوه: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، فلو كان القتل للرجال البلغ لما كان لخوف أم موسى عليه سبب، ولا لقول امرأة فرعون وجه.

٢٢. استحياء النساء طلب حياتهن بالإعراض عن قتلهن، وعد ذلك من سوء العذاب الذي يسومونهم إياه لأن القصد منه سيء للغاية إذ لم يريدوا باستحيائهن تسليمهن من القتل، وإنما أرادوا به هتك أعراضهن وإنزال صنوف المهانة بهن، وذلك أبلغ في إيذائهم وإيذائهن من القتل. فلربما تمنى الحر الأبي موته أو موت كرائمه عندما يجدهن معرضات لمثل هذا البلاء، وكم سارعت الحرائر إلى الموت من تلقاء أنفسهن خشية العار واتقاء سوء الأحدوثة.

٢٣. عبر عن البنات بالنساء ولم يعبر عن الأبناء بالرجال لأنهم بقتلهم في طور الطفولة حيل بينهم وبين الوصول إلى طور الرجولة، بخلافهن فإن استحياءهن سبب لبلوغهن مبلغ النساء البالغات.

٢٤. البلاء الاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، ويكون بالنعمة وبضدها، ومن هنا اختلف في المشار، وقيل: هو المحنة المتمثلة في سوم العذاب وتذبيح ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ إليه بقوله: الأبناء واستحياء النساء، وقيل: هو نعمة النتيجة من ذلك، ورجح الأول بعضهم بكونه أقرب مذكور، والثاني آخرون لأن السياق في الحديث عن النتيجة، وذهب بعض اللغويين إلى أن ما كان بالمحنة يأتي فعله مجردا ومزيدا على وزن افتعل، فيقال فيه بلوته وابتليته، وما كان بالنعمة فيأتي فعله مزيدا بالهمزة غالبا ومجردا منها قليلا، فيقال: أبليته في الغالب، وبلوته في النادر.

٢٥. الآل هم الأهل والعشيرة والأتباع، وليس خاصا بذوي القرابة النسبية، والدليل على شموله التباع هذه الآية وأمثالها، فإنه مما يدرك بداهة أن الذين كانوا يسومون بني إسرائيل الخسف وينزلون بهم سوء العذاب لم يكونوا خاصة فرعون فحسب بل هم جميع أتباعه، كما أن الذين عوقبوا بالغرق مع فرعون ما كانوا ذوي قرابته وحدهم بل جميع جنوده كما نص عليه قوله تعالى: فأخذناه وجنوده)، ويدل أيضا على شمول الآل لجميع الأتباع قول النبي ﷺ: آل محمد كل تقي)

٢٦. أجاد الإمام اللغوي نشوان ابن سعيد الحميري صاحب شمس العلوم حيث قال: ولأجل دلالته على التبعية خصت إضافته ـ عند بعض ـ إلى من كان ذا مكانة لفضله وصلاحه، أو لقوته ونفوذه، فمن الأول آل النبي، ومن الثاني آل فرعون، وبما أن فرعون نفسه كان مصدر بلاء بني إسرائيل لأنه هو الذي مكن لآله من سومهم سوء العذاب وأمرهم به يتبادر هنا سؤال، لم جعلت النجاة منهم ولم تجعل منه، والجواب: أن ذلك لأن النفس ترتاح إذا خلصت من قهر من يباشرها بالعذاب، وتشتفي إذا ما تلقى جزاءه العادل على فعله ذلك ولم يكن فرعون نفسه يتولى تعذيبهم بيديه، وإنما أولئك الأتباع كانوا ينفذون أمره ويبلغونه قصده، ولعل منهم من كان يتجاوز حدود ما أمر به، فيفرط في التنكيل بهم والنيل منهم، وهذا هو دبدن حواشي الظلمة وأعوانهم، ومن ناحية أخرى فإن القائد بجنده، بهم يصول ويجول، ويعد ويتوعد، ويصل ويقطع لولاهم لما كان له شأن، ولا اختص بمزية بين الناس.

٢٧. فرعون لقب لحكام مصر قبل البطالسة، وقد شاع عند المفسرين أن فرعون الذي تردد ذكره في القرآن وتربى في حجره موسى بن عمران فكان ـ بمشيئة الله ـ هلاكه على يديه هو أحد العمالقة الذين تغلبوا على حكم مصر السلفي، أي الشطر الشمالي من القطر المصري؛ وباستقراء التأريخ المصري القديم يتضح خلاف ذلك فإن الحكم العمليقي لمصر قد انتهى عام ١٧٠٠ق. م عندما ظهرت العائلة الثامنة عشرة وذلك قبل ميلاد موسى عليه السلام بعهد طويل، فإنما كان ميلاده ونبوته عليه السلام إبان حكم العائلة التاسعة عشرة التي شمل حكمها القطر المصري بشطريه الجنوبي والشمالي، وبسبب هذا الوهم قالت طائفة بأن هذا اللقب خاص بحكام العمالقة، وليس الأمر كذلك كما عملت، وفي مقابل هذا الرأي ذهب آخرون إلى أنه لقب عام لكل حكام مصر قبل الإسلام ـ أي قبل ظهور النبي الخاتم عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ويرد ذلك بأنه لم يعهد إطلاقه على أحد إبان خضوع مصر للإمبراطورية الرومانية، وعندما وجه النبي ﷺ نداءه إلى حاكمها المحلي المقوقس يدعوه إلى دين الله لم يطلقه عليه، وهو في أصله جامد غير مشتق لكن بما أنه أطلق على أعتى الناس وأمردهم صار كالعلم على العتو والتمرد فاشتق منه بعضهم تفرعن إذا عتا.

٢٨. التذكير بالنعمة مقرونا بذكر البلاء ليكون أبلغ وقعا في النفس فإن كل نعمة لا يقدرها قدرها إلا من سلبها، فنعمة الغنى لا يعرف كنهها إلا من يكابد مشقة الفقر، ونعمة الصحة لا يدرك حجمها إلا

من يعاني من بلوى المرض، ولذة النعيم لا يدريها إلا من تذوق آلام البؤس، وقد أريد لهؤلاء المخاطبين أن يستحضروا حالة آبائهم وهم يرزحون تحت نير فرعون وآله، ويتململون في قيود المهانة والذلة، ويواجهون في كل يوم صنوفا من البلاء، ويتحملون ضروبا من العذاب، وكيف كانت عناية الله بهم إذ غشيتهم نعمته بقدر ما لم يكونوا يتصورونه فأنقذتهم من كل ما كانوا فيه، وأخرجتهم من الذلة إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى، ومن التعب إلى الراحة، ومن البؤس إلى النعيم، والتذكير بهذا الأسلوب أدعى إلى الارعواء عن الغي، والاستجابة إلى الرشد، والقيام بواجب شكر المنعم قدر المستطاع.

٢٩. التنجية التخليص من الأذى، وأصلها ـ عند القرطبي ـ الإلقاء على نجوة من الأرض، وعند غيره هي الأصل وأخذت منها النجوة لارتفاعها وخلوصها عن سائر الأرض، ولأنها مظنة النجاة.

٣٠. نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وأسند التذبيح إلى الآل لأنهم يباشرونه وإن كان فرعون هو الآمر به، واستدل به على أن من باشر قتل أحدهم بأمر ظالم فالمباشر هو المقتول به.

٣١. يستفاد أن البحر المقصود في هذه الآية ونظائرها هو البحر الأحمر، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾، وقد سمعت من أحد الفضلاء بمصر أن الخبراء الروس اكتشفوا آثار هذا الفرق في البحر المذكور وتلك من آيات الله التي تقوم بها حجته على الجاحد والمعاند.. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالبحر في هذه الآية وأشباهها النيل وأن غرق فرعون كان فيه، وهذا رأي مرفوض.

٣٢. كان انفلاق البحر مسببا عن ضربة موسى للعصا، وذلك يستفاد من قوله عز من قائل: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، وتلك إحدى المعجزات التي قرن الله بها دعوة عبده موسى عليه السلام، إذ لم يكن ذلك أمرا طبيعيا مألوفا، فما للعصا وانفلاق البحر لولا أن الله أودع فيها من سره الغيبي ما لا تكتنه عقول البشر، وقد مضت سنة الله في خلقه أن يهيئ ما شاء من الأسباب لما يشاء من المسببات، سواء كانت داخلة في النواميس الكونية المألوفة لدى البشر أم خارجة عنها، ولا جدال في ذلك إلا المرتابون الذين هم في ريبهم يعمهون.

٣٣. أجاد محمد عبده في حديثه عن هذه المعجزة، وإن عهد منه الميل إلى تفسير الحقائق الغيبية بما يتلاءم مع السنن الكونية المعهودة عند الناس، وقد كرر هنا ما قاله في رسالة التوحيد، فهو أن الخوارق

الجائزة عقلا ـ أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما ـ لا مانع من وقوعها وقدرة الله في يد نبي من الأنبياء وأنه يجب أن يؤمن بها على ظاهرها، ووصف المنكرين للمعجزات بأنهم من المتهورين، ونسب إليهم في تأويل هذه القصة أنهم يزعمون بأن عبور بني إسرائيل البحر كان في إبان الجزر، فإن البحر الأحمر رقارق إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدا يتيسر للإنسان أن يعبره ماشيا، ولما أتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم، وكان المد تفيض ثوائبه ـ وهي المياه التي تجيء عقيب الجزر ـ فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد طغى وعلا حتى أغرق المصريين فتحقق إنعام الله على بني إسرائيل بأن تم هذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم، وزعموا أن كونه ليس آية لموسى عليه السلام لا ينافي الامتنان به عليهم، فإن نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر ـ قال الإمام ـ ولكن يدل على كونه آية له وصف كل فرق منه كالطود العظيم، وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن، فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، وهو الموافق لما في التوراة.

٣٤. لخص صاحب المنار قول المؤولين.. ويستفاد مما قاله أنه لا يستبعد صحة مقالة هؤلاء المتأولين ما داموا يحملون هذه الآيات الكونية المتفقة مع سنن الوجود على أن فيها تأييدا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا جرى على ما عهد منه من حمله كثيرا من هذه الأخبار الغيبية على ما يتفق مع الأحوال المألوفة للناس وإن أفضي ذلك إلى التكلف الممقوت في حمل ألفاظ القرآن على ما لا تنسجم معه من المعاني، وحسبكم دليلا على بطلان هذا التأويل وتعذره إذا ما قسناه على الحالة الطبعية المعهودة للماء إذا خيض فيه فإنه لم يعهد منه انقسامه إلى شطرين كل شطر على جانب الخائضين كالطود العظيم، بل من طبع الماء الانسياب في الفرج بين أقدام الماشين فيه، وتساوي سطحه من كل جانب، ومما يؤكد بطلان تأويله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، فإنه نص في أن انشقاق الطريق لهم كان بضرب موسى البحر، وأنهم اجتازوا مكانا يبسا لا ماء فيه.

٣٥. امتلأت كتب التفسير بروايات متعددة متناقضة في وصف قصة نجاة موسى ومن معه، وغرق فرعون وآله، وقد نص ابن عطية وأبو حيان والألوسي في تفاسيرهم على أن هذه الروايات لا تعتضد بشاهد من الكتاب ولا الأحاديث الصحيحة غير أنهم مع ما قالوه لم تسلم تفاسيرهم من شوائبها، ومن ذلك قول أبي حيان: ولم يختلفوا في أن فرق البحر كان بعدد الأسباط اثنا عشر مسلكا)، وحمل عليه قراءة

الزهري (فرقناه وهي قراءة شاذة تخالفها جميع القراءات العشر، فليست موضعا للاستدلال على أن ابن عاشور حملها في تفسيره على مراعاة شدة الاتصال بين أجزاء المفرق، وذلك يستدعي شدة التفرقة، وإنما اتفقت القراءات العشر على التخفيف بما فيه من النظر إلى عظيم قدرة الله تعالى، فكان ذلك الفرق الشديد خفيفا.

٣٦. القرآن لم يذكر طرقا وإنما ذكر طريقا، وكل زيادة على ما جاء فيه غير مسلمة على أنه يبعد في مثل ذلك المقام المدهش والرعب المؤدي إلى الفوضى عادة أن ينحاز كل سبط من بني إسرائيل بنفسه ويسلك طريقا غير طريق الآخرين.. والفرق الفصل إما بين الشيء الواحد حتى يكون شيئين، وإما بين الشيئين المتصلين حتى يكونا منفصلين، وإذا استعمل في الشيء الواحد كان بمعنى الشق، ففرق البحر إذا هو شقه ليتهيأ بين شطريه سبيل للسالكين.

٣٧. اختلف في الباء في (بكم):

أ. قيل: إنها للآلة، ومعنى ذلك أن الفرق حصل بسلوكهم، وعبر عنها بعض المفسرين بالاستعانة، وهو تعبير لا يليق بواجب الأدب مع الله تعالى، فإنه هو الذي أسند إليه الفرق، وهو أجل من أن يستعين بشيء، وإذا عبر عن هذه الباء بأنها للاستعانة إذا أسند الفعل إلى غيره فإن هذا التعبير يجب استبداله بما يتفق مع التأدب أما الربوبية إذا أسند إليه تعالى.

ب. وقيل: هي للسببية فتكون بمعنى اللام إذا ما قيل بجواز تعليل أفعاله تعالى لعدم الفرق بين قولك: فعلت هذا لأجلك، وقوله فعلته بسببك، إذ كان المخاطب هو الباعث على الفعل؛ وعند من يمنع تعليل أفعاله سبحانه فهي للسببية الشبيهة بالسببية الباعثة على الفعل في ترتبه على مدخولها وكونه هو المقصود به.

٣٨. اختلف في هذا الفرق:

أ. قيل كان خطيا أي من ضفة إلى أخرى.

ب. وقيل: كان قوسيا، أي رجعوا إلى الضفة التي خرجوا منها، وكانت بين مدخلهم البحر ومخرجهم منه جبال وأوعار لا يخشون بسببها أن يلحق بهم العدو من طريق البر.

٣٩. القول بأنه كان قوسيا هو الذي اعتمده ابن عطية في تفسيره وقطب الأئمة في هيميانه

وتيسيره، وبما ذكراه يندفع ما قاله الألوسي، وهو أن احتمال الرجوع في طريق الدخول يكاد يكون باطلا لأن الأعداء في أثرهم، وأيد القطب القول بأن الفرق كان قوسيا بأنهم من الكثرة بحيث يحتاجون إلى سفن ترجع بهم إلى مصر، لو أن الفرق كان خطيا ووصلوا إلى الضفة الثانية مع التئام البحر ورجوعه إلى حاله، وكلامه هذا يشير إلى أنهم عادوا إلى مصر بعد أن أنقذهم الله تعالى وأهلك عدوهم، هذا الذي ذهب إليه كثير من أئمة التفسير.

٤٠. اعتبر ابن عاشور هذا وهما، وأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر البتة بعد خروجهم، كيف والآيات صريحة في أن نزول الشريعة كان بطور سيناء، وأن خروجهم كان ليعطيهم الله الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.. وابن عاشور هو الواهم في هذا التوهيم، فإن القرآن صريح في أن الله تعالى أورث بني إسرائيل ما كان خوله فرعون من قبل من جنات، وعيون، وكنوز، وزروع، ومقام، وهو نص في سورة الشعراء حيث يقول تعالى فيها: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ويقول في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾، والقوم الآخرون هنا هم بنو إسرائيل قطعا لبيان ذلك في سورة الشعراء، وأولى ما فسر القرآن القرآن.. وخروجهم إلى طور سيناء لتلقي التوراة واستمرار سيرهم بعده إلى الأرض المقدسة كان بعد عودهم إلى مصر لينفلهم الله مخلفات فرعون وآله، إذ يستحيل أن يكونوا وارثين لها من غير أن يعودوا إليها.

٤١. فيما ذكرته الآية نعم متعددة ترتبت على فرق البحر فإن الفرق نفسه نعمة جلى إذ جاءت مخالفة لما استقرت عليه العادة وألف عند الناس من سنن الكون، وإنجاؤهم من عدوهم باجتيازهم البحر نعمة عظيمة مقصودة بالفرق، وإغراق عدوهم فيه عليهم نعمتان:

أ. أولاهما الأمن من شره، إذ لعله لو بقي حيا لأخذ يتتبع فلولهم، ويدبر لهم المكائد، ويكيل لهم الشرور.

ب. ثانيتهما: شفاء غيظ صدورهم بمهلكه، فإن من شأن المظلوم أن يشعر بارتياح الضمير ولذة معنوية كبرى إذا تلقى ظالمه جزاءه، وقد تحقق ذلك كله بمرأى منهم لتطمئن نفوسهم ويلتذوا بهذا المشهد، مشهد المعجزة الخارقة للعادة التي أجراها الله على يد نبيهم، ومشهد نجاتهم بسبب هذه المعجزة، ومشهد

هلاك عدوهم بما كانت به نجاتهم، وهذا كله يستفاد من تذييل الآية بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

٤٢. نسب الإغراق في الآية إلى آل فرعون، مع أن فرعون نفسه كان من الغارقين، كما نصت عليه آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾، وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وذلك إما لأن استحقاق آلة الغرق ـ وهم له أتباع لا يصدرون إلا عنه في شرورهم، ولا ينفذون إلا رغباته في ظلمهم، لأنه رأس الشر ومصدر الظلم ـ يقضي بأنه أحق به منهم، فإذا ما نص على غرقهم كان ذلك أدل على أنه من الغارقين، وإما لأن آله هم الذين كانوا يباشرون تعذيبهم الجسدي والنفسي، فهم الذين سخروهم للأعمال الشاقة، وسفكوا دمائهم بأيديهم، وذبحوا أبنائهم، واستحيوا نسائهم، فكان إغراق أولئك الآل أشفى لغيظ صدورهم، وفي هذين الاحتمالين غنى عن دعوى بعضهم أن المراد بالآل نفس فرعون استنادا إلى ما روي عن الحسن البصري أنه كان يقول (اللهم صل على آل محمد)، ومراده اللهم صل على محمد، فإن في توجيه ذلك ـ إن صح النقل ـ احتمال، وإذا طرق الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال.

٤٣. من دواعي الاعتبار وبواعث الاستعبار أن يكون هلاك فرعون بما كان يفاخر به ويباهي، فهو القائل: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ فأهلكه الله بالماء، وهذه هي سنة الله في خلقه، فكل مغرور بشيء يأتيه قضاء الله من طريق غروره، وكم في الأرض من عات مشاقق سعى في الأرض فسادا وأهلك الحرث والنسل حتى إذا بلغ به الغرور أوجه وخيل إليه أنه ينطح السماء بفوديه، ويطأ الجوزاء بنعليه أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وفي مصارع القوم الظالمين عبر للمعتبرين، وذكرى لقوم يعلمون: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

٤٤. فيما يورده القرآن من هذه القصص إنذارا للظالمين وتبشير للضعفاء المضطهدين، فإن المصير لا يختلف، والعاقبة لا تتبدل، ولكل أحد آتاه الله في الدنيا ما يراه ميزة لنفسه بين بني جنسه معتبر فيمن أهلك الله قبله من أمثاله، ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا﴾، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾

٤٥. بدء في عرض سيئات بني إسرائيل ومقابلتهم النعمة بالكفران، والبرهان بالنكير والإعراض، والدعوة الصادقة المؤيدة بالمعجزات بالسخرية والاستخفاف، وهكذا كان ديدنهم، فقد عانى

منهم موسى عليه السلام الذي أكرمهم الله برسالته فكانت نجاتهم على يديه ما عاناه من الإعانات والشقاق، وكانت نذر الهلاك تحيط بهم من أمامهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن فوقهم ومن تحتهم، وغير أنهم لا يكادون يرعوون عندما يواجهون الشدائد حتى يعودوا إلى غيهم وينقلبوا إلى نزعتهم البغيضة عندما يجدون أدنى متنفس ويبصرون أصغر ثغرة للفرج، فظل موسى عليه السلام بينهم في محنة وبلاء، وعنت وعناء، كما يتضح ذلك في هذه الآيات من السورة وغيرها.

٤٦. المواعدة مفاعلة، وهي في الأصل لا تكون إلا من جانبين، وقد يعبر بها عما يكون من جانب واحد لما يكون في هذا التعبير من نكتة طريفة وظريفة، ومن هذا الباب (قاتلهم الله)، وعاقبت اللص، وداويت المريض.

٤٧. كانت هذه المواعدة من الله لموسى لإيتائه التوراة هدى لبني إسرائيل، وحدد أكثر العلماء هذه الأربعين ليلة بذي القعدة وعشر من ذي الحجة، وذهب بعضهم إلى أنها ذو الحجة وعشر من المحرم، وذكر الليالي دون الأيام مع أن اليوم يطلق على مجموع الليل والنهار كما يطلق على النهار وحده الذي يتخلل كل ليلتين لأن بداية الليل ينتهي يوم ويبتدئ غيره إذ غروب الشمس هو الحد الفاصل بين كل يوم وآخر، ولأن هذا الميقات الزمني كان بحسب الأشهر القمرية التي تبتدئ بالليل، ويحتمل أن يكون ذلك لكون الليل هو الأصل والنهار طارئ عليه، فإن الظلمة أسبق من النور ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ وذكر بعض أن ذكر الليالي للإشارة إلى أنه عليه السلام كان مطالبا بالتهجد في أثناء هذه المدة، ورده آخرون بأن المروي أنه كان مأمورا بالصيام لا القيام، واستدل بعض هؤلاء بذكر الليالي على أن صومه عليه السلام كان وصالا يشمل الليل والنهار، واحتجوا بذلك على جواز الوصال، وأن أفضله أربعون يوما كما فعل موسى عليه السلام، وليس في القرآن ما يدل على أنه عليه السلام كان مأمورا بالصوم في هذه المواعدة، ولم أجد في ذلك رواية يعتمد عليها، فما القول به ـ حسبما إخال ـ إلا جزاف من قائله، بله صلاحيته للاستدلال به على فضل الوصال، ومثله القول بأن موسى عليه السلام في خلال تلك المدة لم يحدث أبدا.

٤٨. عندما ذهب موسى عليه السلام للميعاد انتهز بنو إسرائيل فرصة غيبوبته نازعين إلى ما هم عليه من لؤم الطباع وفساد الفطرة وانحراف الفكر، فألهوا عجلا جسدا له خوار، أخرجه لهم السامري ليضلهم عن سواء الصراط، قائلا لهم: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسى﴾ أي نسى موسى أن هذا هو الإله

فلذا ذهب إلى الطور لطلب مناجاة الإله، أو نسى السامري بأن هذا مجرد عجل لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع، وأن ما جرى على يد موسى عليه السلام من المعجزات العظام أقطع حجة وأصدق برهان بأنه رسول رب العالمين الذي له ملك السماوات والأرض والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل؛ وعلى الأول فجملة ﴿فنسى﴾ من ضمن المحكي عن السامري، وعلى الثاني فهي رد من الله تعالى عليه، ونداء عليه بالسفه والضلالة، وقصة العجل ذكرت هنا عرضا لتذكير يهود المدينة بجرائر أسلافهم، وما قابلوا به نعم الله وآياته من الجحد والكفران، وإنما تفصليها فيما نزل من قبل بمكة في سورتي الأعراف وطه.

٤٩. ذكر جماعة من أهل التفسير أنهم كانوا يعدون اليوم ليله ونهاره ليلتين فلما انقضت عشرون يوما، وهي عشرون ليله وعشرون نهارا زعموا أن موسى أخلفهم وعده فركنوا إلى ما دعاهم إليه السامري من اتخاذ العجل معبودا دون الله تعالى.

٥٠. العجل هو ولد البقرة، وقد درج كثير من المفسرين على أن تسميته بذلك لأن بني إسرائيل تعجلوا عبادته قبل أن يرجع إليهم موسى من الميقات، وهذا وهم ظاهر، فإن العرب عهدت منهم تسميته بذلك منذ القدم، وليست هذه التسمية مقتبسة من اللغة العبرانية، إذ لم تكن قبائل العرب على اتصال باليهود إلا قليلا منهم كقبيلتي الأوس والخزرج وبعض قبائل اليمن، ومع ذلك لم يكونوا قبل نزول القرآن على علم بأحداث بني إسرائيل.

٥١. العجل المذكور صنع مما حمله بنو إسرائيل من حلي المصريين، كما يشير إلى ذلك قولهم: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾، وذلك:

أ. أن هارون عليه السلام أخبرهم بعد ذهاب موسى إلى الميقات بأن تلك الغنائم لا تحل لهم، وأمرهم بإحراقها، فجاء السامري فألقى فيها قبضة من تراب وطئته دابة جبريل عليه السلام عندما جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات، أو عندما جاء إلى موسى ومن معه لينقذهم من شر فرعون وآله، بإخبار موسى أن يضرب بعصاه البحر؛ والأول هو الأظهر، وكان السامري يعلم أن في هذه الدابة سرا غيبيا، ولعله استنتج من ذلك أن ما لامسته تسري فيه الحياة ولو كان جمادا، فألقى بتلك القبضة الترابية في ذلك الذهب المشتعل نارا، فصار عجلا جسدا له خوار.

ب. وقيل: إنه هو الذي صنع منه العجل، لأنه كان صانعا، ثم ألقى فيه القبضة الترابية التي بيده، ويشير إلى صنيعه هذا جوابه الذي حكاه الله عنه بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

٥٢. اختلف في السامري:

أ. قيل: كان شابا إسرائيليا أوتي حظا من الذكاء فاستغله في إضلال بني إسرائيل.

ب. وقيل: لم يكن إسرائيليا وإنما كان دخيلا فيهم، وأصله من عباد البقر فنزع إلى أصله.

ج. وقيل: إن سبب اختياره العجل من بين سائر المعبودات أنه كان مع بني إسرائيل لما جاز بهم موسى البحر: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وقد كانت تلك الأصنام تماثيل أبقار، وقد كان السامري قبل انكشاف أمره منافقا يظهر عند موسى ومن معه من المؤمنين الإيمان ويبطن في خفايا نفسه عقيدة وثنية.

٥٣. قوله: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ إما حال مؤكدة أريد بها تسفيههم وقطع عذرهم، فإن اتخاذ الأنداد لله سبحانه معلوم بالضرورة أنه ظلم، وإما حال مقيدة أريد بها التنصيص على أن الظلم لم يفارقهم في فترة هذا الاتخاذ، أو أريد به استئصال توهم كون شبهة عرضت لهم في هذا الاتخاذ؛ وأرى أن هذا الوجه لا يختلف عن الذي قبله إلا اختلافا لفظيا.

٥٤. العفو لغة إزالة الأثر كما يقال: عفت الريح أثره) إذا مسحته، واصطلاحا إسقاط عقوبة الجاني وإزالة ما يترتب على جنايته من الآثار المعنوية، وعفو الله عن عباده إسقاط عقوبتهم في الآخرة بقبول توبتهم وتكفير سيئاتهم، ويطلق على رفع العقوبات الدنيوية كما في قوله: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾، والمراد بالعفو في هذه الآية قبول توبة بني إسرائيل من عبادتهم العجل.

٥٥. ﴿ثُمَّ﴾ هنا كسابقاتها:

أ. إما أن تكون للمهلة الزمنية لأن قبوله تعالى التوبة منهم كان بعدما رجع موسى إليهم وأمرهم بقتل أنفسهم تكفيرا لسيئتهم، ولا يخفى ما بين الأمرين من المهلة.

ب. وإما للمهلة الرتبية، وقد أراد الله بها شد عقول السامعين إلى سعة حلمه وواسع مغفرته، فبعد هذا العنت وهذه المكابرة للحق، ومغالطة الحقيقة م بني إسرائيل الذين بسط الله لهم نعمته، وأراهم في

تنجيتهم من عدوهم آيته، قبل سبحانه توبتهم مع ما اقترفوه من الإشراك بالله، واتخاذ الند له تعالى.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. في هذه الآيات خطاب آخر إلى بني إسرائيل فيه تذكير بنعم الله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداء من الهداية والإيمان، وانتهاء بالنجاة من فرعون ونيل العظمة والاستقلال.

٢. ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم إلى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهي نعمة مركبة من نعم مختلفة، وتقول: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

٣. لعل البعض تصور أن هذا التفضيل صفة أبدية مستمرة على مرّ العصور، لكن دراسة سائر آيات القرآن تبين أن هذا التفضيل هو تفضيل بني إسرائيل على غيرهم من أفراد عصرهم ومنطقتهم، لا تفضيلا مطلقا. فالقرآن الكريم يخاطب المسلمين في آية أخرى ويقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، كما يتحدث القرآن عن وراثة بني إسرائيل للأرض فيقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، وواضح أن هذه الوراثة لم تكن تشمل آنذاك جميع العالم، والمقصود من الآية مشارق المنطقة التي كانوا يعيشون فيها ومغاربها، من هنا فالتفضيل على العالمين هو تفضيلهم على أفراد منطقتهم.

٤. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

٥. هذه الآية الكريمة ترفض أوهام اليهود، التي كانوا يتصورون بموجبها أن الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنّهم قادرون على دفع فدية وبدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة في هذه الحياة الدنيا، القرآن يخاطبهم ويقول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

٦. الحاكم أو القاضي في تلك المحكمة الإلهية، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما تقول الآية

---

(١) تفسير الأمثل: ١/١٩٧.

الكريمة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

٧. إنّ الآية المذكورة من سورة البقرة، تشير في الواقع إلى ما يجري من محاولات في هذه الحياة الدنيا لانقاذ المذنب من العقاب:

أ. ففي الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن إنسان مذنب لإنقاذه من العقاب، أما في الآخرة فإنّه: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾

ب. وربّما يلجأ المذنب في هذه الحياة إلى الشفعاء لينقذوه ممّا ينتظره من الجزاء، ويوم القيامة ﴿لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ﴾

ج. وإذا لم توجد الشفاعة، يتقدم الإنسان في الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهو بدل الشيء من جنسه، أما في الآخرة ف ﴿لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ﴾

د. وإذا لم تنفع الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ أصحابه لينصروه ويخلصوه من الجزاء، وفي الآخرة لا يقوم بنجاتهم أحد ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

٨. القرآن الكريم يؤكد أن الأصول الحاكمة على قوانين الجزاء يوم القيامة تختلف كليّا عمّا هو السائد في هذه الحياة، فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، هو الإيمان والتقوى والاستعانة بلطف البارئ تعالى.

٩. تاريخ الشرك وتاريخ المنحرفين من أهل الكتاب، مليء بأفكار خرافية تدور حول محور التوسل وبمثل الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة للفرار من العقاب الاخروي. صاحب المنار يذكر مثلا، أن النّاس في بعض مناطق مصر ـ كانوا يدفعون مبلغا من المال إلى الذي يتعهد غسل الميت، ويسمون هذا المبلغ أجرة الانتقال إلى الجنّة.

١٠. في تاريخ اليهود نقرأ أنهم كانوا يقدمون القرابين للتكفير عن ذنوبهم، وإن لم يجدوا قربانا كبيرا يكتفون بتقديم زوج من الحمام. وفي التاريخ القديم كانت بعض الأقوام تدفن مع الميت حليّة وأسلحته، ليستفيد منها في الحياة الأخرى.

١١. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

١٢. في هذه الآية إشارة إلى نعمة كبيرة أخرى، منّ بها الله سبحانه على بني إسرائيل، وهي نعمة تحريرهم من براثن الظالمين.

١٣. القرآن يعبّر عن العذاب الذي أنزله فرعون ببني إسرائيل بفعل يَسُومُونَكُمْ من (سام) التي تعني في الأصل الذهاب في ابتغاء الشيء، واستعمال هذا الفعل بصيغة المضارع يشير إلى استمرار العذاب، وإلى أن بني إسرائيل كانوا دوما تحت التعذيب من قبل الفراعنة.

١٤. من الملفت للنظر أن القرآن يسمّي ذبح الأبناء واستحياء النساء عذابا، ولو عرفنا أن استحياء النساء يعني استبقاءهنّ، وتركهن أحياء، لاتّضح لنا أن القرآن يشير إلى أن مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضا مثل عذاب القتل، وهذا المعنى يشير إليه الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام إذ يقول: فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين)

١٥. عملية الإماتة كانت شاملة للذكور والإناث مع اختلاف في ممارسة هذه العملية، وفي عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإماتة أيضا بأساليب أخرى، وذلك عن طريق قتل روح الرجولة في الذكور، ودفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات.

١٦. من المفسرين من ذهب إلى أن سبب قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، يعود إلى رؤيا عرضت لفرعون في منامه، ولكن السبب ليس الرؤيا وحدها، بل أيضا خوف الفرعونيين من اشتداد قوة بني إسرائيل وتشكيلهم خطرا على سلطة آل فرعون.

١٧. عبّر القرآن الكريم بكلمة (البلاء) عمّا كان ينزل ببني إسرائيل من عذاب يتمثل في قتل الذكور واستخدام الإناث لخدمة آل فرعون، واستثمار طاقات بني إسرائيل لخدمة الاقباط وإشباع رغبات ونزوات المستكبرين.

١٨. البلاء يعني الامتحان، فالحوادث والمصائب التي نزلت ببني إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم، كما قد يأتي البلاء بمعنى العقاب، لأن بني إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربّهم، فكان ما أصابهم من آل عمران عقابا على كفرانهم.. وذكر بعض المفسرين معنى ثالثا للبلاء، وهو النعمة، وبذلك يكون البلاء العظيم يعني النعمة العظيمة، والمقصود منها نعمة النجاة من آل فرعون.

١٩. حادثة الانقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابة فرعون وقومه لدعوة موسى عليه السّلام

مع كل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذاك امر أن يخرج مع بني إسرائيل في منتصف الليل من مصر، وعند وصولهم النيل، علموا أن فرعون وجيشه يلاحقونهم، فاعترى، بني إسرائيل خوف واضطراب شديد. فالبحر أمامهم والعدوّ وراءهم، وفي هذه اللحظات الحساسة، امر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانشقت فيه طرق متعدّدة عبر منها بنو إسرائيل، بينما التحم الماء حينما كان آل فرعون في وسطه، فغرقوا جميعا ونجا بنو إسرائيل، وهم ينظرون إلى هلاك أعدائهم.

٢٠. في هذه الآيات تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بني إسرائيل، وعلى أكبر انحراف أصيبوا به في تاريخهم الطويل، وهو الانحراف عن مبدأ التوحيد، والاتجاه إلى عبادة العجل، وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، وتحذير لهم من تكرر هذه التجربة في مواجهة الدين الخاتم: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وهي ليالي افتراق موسى عن قومه، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾

٢١. أمر موسى عليه السّلام بعد نجاة بني إسرائيل من قبضة الفراعنة بالذهاب إلى جبل الطور مدة ثلاثين ليلة لتسلم ألواح التوراة، ثم مدّت هذه الليالي إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه، واستغل السامريّ الدّجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بني إسرائيل من ذهب الفراعنة ومجوهراتهم، وصنع منها عجلا له صوت خاص، ودعا بني إسرائيل لعبادته. فأتبعه أكثر بني إسرائيل، وبقي هارون ـ أخو موسى وخليفته ـ مع أقلية من القوم على دين التوحيد، وحاول هؤلاء الموحّدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، وأوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضا.. بعد أن عاد موسى من جبل الطور تألم كثيرا لما رآه من قومه، ووبّخهم بشدّة فثاب بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأدركوا خطأهم وطلبوا التوبة، فجاءهم أمر السماء بتوبة ليس لها نظير.

٢١. موسى والكتاب والفرقان

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٣ ـ ٥٧]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: السلوى: طائر يشبه السمانى[١].

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) أنّه قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال يقتل بعضكم بعضا، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه، لا يبالي من قتل، حتى قتل منهم سبعون ألفا، فأوحى الله إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم، وقد غفر لمن قتل، وتيب على من بقي[٢].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ الفرقان جماع اسم التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان[٣].

---

(١) ابن جرير: ١/٧٠٤.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١١١.

(٣) ابن جرير: ١/٦٧٧.

٢. روي أنّه قال: أراد بالفرقان: النصر على الأعداء، نصر الله تعالى موسى، وأهلك فرعون وقومه[١].

٣. روي أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، قال خالقكم، وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت قول تبع[٢]:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم

٤. روي أنه قال: أمر موسى قومه ـ عن أمر ربه ـ أن يقتلوا أنفسهم، واحتبى الذين عكفوا على العجل، فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا، فانجلت الظلمة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة[٣].

٥. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ علانية[٤].

٦. روي أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، قال العذاب، وأصله: الموت، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول[٥]:

وقد كنت أخشى عليك الحتوف وقد كنت آمنك الصاعقة

٧. روي أنّه قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام[٦].

٨. روي أنّه قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله ـ جل وعز فيه ـ يوم القيامة ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، قال ابن عباس أنّه قال: وكان معهم في التيه[٧].

---

(١) تفسير الثعلبي: ١/١٩٧.
(٢) الطستي ـ كما في الإتقان: ٢/١٠٣.
(٣) ابن جرير: ١/٦٨٠.
(٤) ابن جرير: ١/٦٨٤.
(٥) الدرّ المنثور: الطستي.
(٦) ابن أبي حاتم: ١/١١٣.
(٧) ابن جرير: ١/٦٩٩.

٩. روي أنّه قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ كان المن ينزل عليهم بالليل على الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون منه ما شاءوا[١].

١٠. روي أنّه قال: المن الذي يسقط من السماء على الشجر، فيأكله الناس[٢].

١١. روي أنّه قال: السلوى: طائر شبيه بالسماني، كانوا يأكلون منه ما شاءوا[٣].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ فرق فيه بين الحق والباطل[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم[٥].

٣. روي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قال فصاروا صفين، فجعل يقتل بعضهم بعضا، فبلغ القتلى ما شاء الله، ثم قيل لهم: قد تيب على القاتل والمقتول[٦].

٤. روي أنه قال: في السلوى: هو طير حمر، بعث الله سحابة، فمطرت السماني في عرض ميل، وقدر طول رمح في السماء، بعضه على بعض[٧].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ علم الكتاب وتبيانه وحكمته، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: لكي[٨].

الشعبي:

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١١٤.

(٢) ابن جرير: ١/٧٠٢.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١١٤ ـ ١١٥.

(٤) ابن جرير: ١/٦٧٥.

(٥) ابن جرير: ١/٦٨٥.

(٦) ابن جرير: ١/٦٨٢.

(٧) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٠.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/١٠٩.

روي عن الشعبي (ت ١٠٣ هـ) أنّه قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ المن: الذي يقع على الشجر[١].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ الكتاب هو الفرقان، فرق بين الحق والباطل[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ هو التوراة أيضا، ذكرها باسمين[٣].

٣. روي أنّه قال: كان موسى أمر قومه عن أمر ربه أن يقتل بعضهم بعضا بالخناجر، ففعلوا، فتاب الله عليهم[٤].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، قال ليس بالسحاب، [هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم؟][٥].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾، فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، وحين قال الله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٤٩]، قال فذلك حين يقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾[٦].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، قال أصابت بني إسرائيل ظلمة حندس، فقتل بعضهم

---

(١) ابن جرير: ١/٧٠٢.

(٢) ابن جرير: ١/٦٧٧.

(٣) تفسير البغوي: ١/٩٥.

(٤) تفسير مجاهد: ص٢٠٢.

(٥) ابن جرير: ١/٦٩٩.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١٠٩.

بعضا، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أما إنه لم يذكر أصفركم وأحمركم، ولكنه قال ينتهون إلى حلاله[2].

منبه:

روي عن وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أرسل الله تعالى عليهم جندا من السماء، فلما سمعوا بحسها ماتوا يوما وليلة[3].

٢. روي أنه قال: سألت بنو إسرائيل موسى اللحم، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحا، فأذرت عند مساكنهم السلوى ـ وهو: السمانى ـ ميلا في ميل، قيد رمح في السماء، فخبئوا للغد، فنتن اللحم[4].

٣. روي أنه قال: إن بني إسرائيل لما حرم الله عليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ شكوا إلى موسى، فقالوا: ما نأكل؟ فقال: إن الله سيأتيكم بما تأكلون، قالوا: من أين لنا إلا أن يمطر علينا خبزا!؟ قال إن الله تعالى سينزل عليكم خبزا مخبوزا، فكان ينزل عليهم المن ـ سئل وهب: ما المن؟ قال خبز الرقاق مثل الذرة، أو مثل النقي ـ، قالوا: وما نأتدم؟ ولا بد لنا من لحم؟ قال فإن الله يأتيكم به، فقالوا: من أين لنا إلا أن تأتينا به الريح!؟ قال فإن الله يأتيكم به، فكانت الريح تأتيهم بالسلوى ـ فاسأل وهب: ما السلوى؟ قال طير سمين مثل الحمام، كانت يأتيهم فيأخذون منه من السبت إلى السبت ـ، قالوا: فما نلبس؟ قال لا يخلق لأحد منكم ثوب أربعين سنة، قالوا: فما نحتذي؟ قال لا ينقطع لأحدكم شسع أربعين سنة، قالوا: فإن فينا أولادا، فما نكسوهم؟ قال ثوب الصغير يشب معه، قالوا: فمن أين لنا الماء؟ قال يأتيكم به الله، قالوا: فمن أين إلا أن يخرج لنا من الحجر!؟ فأمر الله تبارك وتعالى موسى أن يضرب

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١١٠.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١١٦.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/١٩٩.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/١١٥.

بعصاه الحجر، قالوا: فبم نبصر إذ تغشانا الظلمة؟ فضرب لهم عمودا من نور في وسط عسكرهم أضاء عسكرهم كله، قالوا: فبم نستظل؛ فإن الشمس علينا شديدة؟ قال يظلكم الله بالغمام[(١)].

٤. روي أنه قال: عن السلوى: طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت[(٢)].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إن الله أعظم وأعز وأجل وأمنع من أن يظلم، ولكنه خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني الأئمة منا، ثم قال في موضع آخر: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(٣)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قال أمر القوم بشديد من البلاء، فقاموا يتناحرون بالشفار، ويقتل بعضهم بعضا، حتى بلغ الله نقمته فيهم وعقوبته، فلما بلغ ذلك سقطت الشفار من أيديهم، وأمسك عنهم القتل، فجعله الله للحي منهم توبة، وللمقتول شهادة[(٤)].

٢. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾، أي: عيانا[(٥)].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ عوقب القوم، فأماتهم الله عقوبة[(٦)].

٤. روي أنّه قال: كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس[(٧)].

---

(١) ابن جرير: ١/٧٠٩.

(٢) ابن جرير: ١/٧٠٦.

(٣) الكافي: ١/١١٣/١١.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/١١٠.

(٥) ابن جرير: ١/٦٨٨.

(٦) عبد الرزاق: ١/٤٦.

(٧) ابن أبي حاتم: ١/١١٣.

٥. روي أنّه قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ الآية، قال أطعمهم المن والسلوى حين برزوا إلى البرية، فكان المن يسقط عليهم في محلتهم سقوط الثلج، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإن تعدى فسد وما يبقى عنده، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فيبقي عنده؛ لأنه إذا كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشة، ولا لطلب شيء، وهذا كله في البرية[1].

٦. روي أنّه قال: كانت السلوى طيرا إلى الحمرة، تحشرها عليهم الريح الجنوب، فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه[2].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ أي أعطينا.. والفرقان: ما فرق بين الحقّ والباطل[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي خالقكم[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ . قال فقاموا صفين.. فقتل بعضهم بعضا، حتّى قيل لهم كفّوا، فكانت شهادة للمقتولين، وتوبة للأحياء منهم[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ معناه الموت[6].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ معناه السّحاب الأبيض.. وواحدها غمامة غمامات..

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١١٤.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١١٥.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٤) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

والسّحاب جمع سحابة، ويجوز سحابات وسحائب[1].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ معناه جعلنا لكم المنّ والسّلوى.. ويقال المنّ: الترنجبين.. والسّلوى: السمّان.. ويقال طائر يشبهه[2].

الزهري:

روي عن ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) أنّه قال: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم قالوا: يا نبي الله، ادع لنا، وأخذوا بعضديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قتل منكم فحي عندي يرزق، وأما من بقي فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل[3].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: فلما سقط في أيدي بني إسرائيل حين جاء موسى، ورأوا أنهم قد ضلوا؛ قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين، فأبى الله أن يقبل توبة بني إسرائيل إلا بالحال التي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل، فقال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، قال فصفوا صفين، ثم اجتلدوا بالسيوف، فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيدا، حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم سبعون ألفا، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا، هلكت بنو إسرائيل، ربنا، البقية البقية، فأمرهم أن يضعوا السلاح، وتاب عليهم، فكان من قتل شهيدا، ومن بقي كان مكفرا عنه، فذلك قوله: ﴿فَتَابَ

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ٨٢.

(٣) ابن جرير: ٦٨٢/١.

عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، والصاعقة: نار[٢].

٣. روي أنّه قال: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم به؛ أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾، فإنك قد كلمته، فأرناه، فأخذتهم الصاعقة، فماتوا، فقام موسى يبكي، ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فأوحى الله إلى موسى: إن هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجل، فذلك حين يقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦]، وذلك قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، ثم إن الله ـ جل ثناؤه ـ أحياهم، فقاموا، وعاشوا رجلا رجلا، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فقالوا: يا موسى، [أنت تدعو الله فلا تسأله شيئا إلا أعطاك، فادعه يجعلنا أنبياء، فدعا الله تعالى، فجعلهم أنبياء؟]، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، ولكنه قدم حرفا وأخر حرفا[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾، أي: [بعثناكم أنبياء، ولكنه قدم حرفا وأخر حرفا؟][٤].

٥. روي أنّه قال: ﴿الْمَنَّ﴾ عسل كان يقع على الشجر من الليل، فيأكلون منه[٥].

٦. روي أنّه قال: قالوا: يا موسى، كيف لنا بماء ههنا!؟ أين الطعام!؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على الشجرة الزنجبيل[٦].

---

(١) ابن جرير: ١/٦٨٠.

(٢) ابن جرير: ١/٦٩٠.

(٣) ابن جرير: ١/٦٩٥.

(٤) ابن جرير: ١/٦٩٥.

(٥) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٠.

(٦) ابن جرير: ١/٧٠٢.

٧. روي أنه قال: لما تاب الله على قوم موسى، وأحيا السبعين الذين اختارهم موسى بعد ما أماتهم؛ أمرهم الله بالمسير إلى أريحا، وهي أرض بيت المقدس، فساروا، حتى إذا كانوا قريبا منها بعث موسى اثني عشر نقيبا، وكان من أمرهم وأمر الجبارين وأمر قوم موسى ما قد قص الله في كتابه، فقال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فغضب موسى، فدعا عليهم، قال ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، فكانت عجلة من موسى عجلها، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، فلما ضرب عليهم التيه ندم موسى، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه، فقالوا له: ما صنعت بنا، يا موسى؟ فلما ندم أوحى الله إليه: أن لا تأس على القوم الفاسقين، أي: لا تحزن على القوم الذين سميتهم فاسقين، فلم يحزن، فقالوا: يا موسى، كيف لنا بماء ههنا!؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على الشجر الزنجبيل، والسلوى، وهو طير يشبه السماني، فكان يأتي أحدهم، فينظر إلى الطير إن كان سمينا ذبحه، وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام، فأين الشراب؟ فأمر موسى، فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الطعام والشراب، فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠][(١)].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، فسمعوا كلاما، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فسمعوا صوتا، فصعقوا، يقول: ماتوا، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، فبعثوا من بعد موتهم؛ لأن موتهم ذاك كان عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم[(٢)].

---

(١) ابن جرير: ١/٧٠٧.

(٢) ابن جرير: ١/٦٩٧.

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ فبعثوا من بعد موتهم؛ لأن موتهم ذاك كان عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿الْمَنَّ﴾ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء، ثم يشربونه[2].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: نومة الغداة مشؤومة تطرد الرزق، وتصفر اللون، وتقبحه وتغيره، وهو نوم كل مشؤوم، إن الله تعالى قسم الأرزاق ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وإياكم وتلك النومة، وكان المن والسلوى ينزل على بني إسرائيل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فمن نام تلك الساعة لم ينزل نصيبه، وكان إذا انتبه فلا يرى نصيبه احتاج إلى السؤال والطلب[3].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال لي عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: قام بعضهم إلى بعض يقتل بعضهم بعضا، ما يتوقى الرجل أخاه ولا أباه ولا ابنه ولا أحدا، حتى نزلت التوبة، قال ابن جريج: وقال ابن عباس أنّه قال: بلغ قتلاهم سبعين ألفا، ثم رفع الله تعالى عنهم القتل، وتاب عليهم[4].

٢. روي أنه قال: قاموا صفين، فاقتتلوا بينهم، فجعل الله القتل لمن قتل منهم شهادة، وكانت توبة لمن بقي، وكان قتل بعضهم بعضا أن الله علم أن ناسا منهم علموا أن العجل باطل، فلم يمنعهم أن ينكروا عليهم إلا مخافة القتال، فلذلك أمر أن يقتل بعضهم بعضا[5].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة، ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ يعني: النصر حين فرق

---

(١) ابن جرير: ١/٦٩٧.

(٢) ابن جرير: ١/٧٠٠.

(٣) التّهذيب: ٢/١٣٩/٥٤٠.

(٤) ابن جرير: ١/٦٨٣.

(٥) ابن جرير: ١/٦٨٤.

بين الحق والباطل، ونصر موسى، وأهلك فرعون، نظيرها في الأنفال [٤١] قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يعني: يوم النصر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ فنصر الله تعالى المؤمنين، وهزم المشركين[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ﴾ أي: ضررتم ﴿أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها من دون الله[2].

٣. روي أنّه قال: أنه قال ندم القوم على صنيعهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾، يعني: أشركوا بالله تعالى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، فقالوا: كيف لنا بالتوبة، يا موسى؟ قال اقتلوا أنفسكم، يعني: يقتل بعضكم بعضا ـ كقوله سبحانه في النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يقول: لا يقتل بعضكم بعضكم؛ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] ـ يعني: ذلك القتل والتوبة خير لكم عند بارئكم، يعني: عند خالقكم، قالوا: قد فعلنا، فلما أصبحوا أمر موسى عليه السلام البقية الاثني عشر ألفا الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوهم بالسيف والخناجر، فخرج كل بني أب على حدة من منازلهم، فقعدوا بأفنية بيوتهم، فقال بعضهم لبعض: هؤلاء إخوانكم أتوكم شاهرين السيوف، فاتقوا الله واصبروا، فلعنة الله على رجل حل جيوبه، أو قام من مجلسه، أو اتقى بيد أو رجل، أو حار إليهم طرفة عين، قالوا: آمين فقتلوهم من لدن طلوع الشمس إلى انتصاف النهار يوم الجمعة، وأرسل الله تعالى عليهم الظلمة حتى لا يعرف بعضهم بعضا، فبلغت القتلى سبعين ألفا، ثم أنزل الله تعالى الرحمة، فلم يحد فيهم السلاح، فأخبر الله تعالى موسى عليه السلام أنه قد نزلت الرحمة، فقال لهم: قد نزلت الرحمة، ثم أمر موسى المنادي، فنادى: أن ارفعوا سيوفكم عن إخوانكم، فجعل الله تعالى القتلى شهداء، وتاب الله على الأحياء، وعفا عن الذين صبروا للقتل فلم يقتلوا، فمن مات قبل أن يأتيهم موسى عليه السلام على عبادة العجل دخل النار، ومن هرب من القتل لعنهم الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة، فذلك قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فكان الرجل يأتي نادي قومه وهم جلوس، فيقتل من العشرة ثلاثة، ويدع البقية، ويقتل الخمسة من العشرين ومن كتب عليهم الشهادة، ويبقى الذين لم يقض لهم أن يقتلوا، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١٠٧.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١٠٦.

﴿عَنْكُمْ﴾ فلم نهلككم جميعا ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني: بعد العجل؛ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: لكي ﴿تَشْكُرُونَ﴾ ربكم في هذه النعم، يعني: العفو، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وذلك قوله سبحانه في الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني: من بعد عبادة العجل، ﴿وَآمَنُوا﴾ يعني: وصدقوا بأن الله واحد لا شريك له ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لذو تجاوز عنهم، رحيم بهم عند التوبة[(١)].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني: الموت ـ نظيرها: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: ميتا، وكقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الزمر: ٦٨]، يعني: فمات ـ، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يعني: السبعين[(٢)].

٥. روي أنّه قال: قال السبعون لموسى: نحن أصحابك، جئنا معك، ولم نخالفك في أمر، ولنا عليك حق؛ فأرنا الله جهرة ـ يعني: معاينة ـ كما رأيته، فقال موسى: والله، ما رأيته، ولقد أردته على ذلك، فأبى، وتجلى للجبل فجعله دكا ـ يعني: فصار دكا ـ، وكان أشد مني وأقوى، فقالوا: إنا لا نؤمن بك ولا نقبل ما جئت به حتى تريناه معاينة، فلما قالوا ذلك أخذتهم الصاعقة، يعني: الموت عقوبة.. ثم أنعم الله عليهم، فبعثهم، وذلك أنهم لما صعقوا قام موسى يبكي، وظن أنهم إنما صعقوا بخطيئة أصحاب العجل، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، وقال: يا رب، ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقد أهلكت أحبارهم!؟ فبعثهم الله تعالى لما وجد موسى من أمرهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٣)].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، ظلل الله تعالى عليهم الغمام الأبيض؛ يقيهم حر الشمس[(٤)].

٧. روي أنّه قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ يعني: من حلال، كقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١٠٥.

(٣) تفسير مقاتل: ١/١٠٨.

(٤) تفسير مقاتل: ١/١٠٨.

٦]، يعني: حلالا طيبا في غير مأثم[١].

٨. روي أنّه قال: أنه قال ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾، وذلك أن موسى عليه السلام قالت له بنو إسرائيل وهم في التيه: كيف لنا بالأبنية، وقد نزلنا في القفر، وخرجنا من العمران، من حر الشمس!؟، فظلل الله تعالى عليهم الغمام الأبيض يقيهم حر الشمس، ثم إنهم سألوا موسى عليه السلام الطعام، فأنزل الله عليهم طعام الجنة، وهو المن والسلوى، أما المن فهو الترنجبين، فكان ينزل بالليل على شجرهم، أبيض كالثلج، حلو مثل العسل، فيغدون عليه، لكل إنسان صاع لكل ليلة، فيغدون عليه، فيأخذون ما يكفيهم ليومهم ذلك، لكل رجل صاع، ولا يرفعون منه في غد، ويأخذون يوم الجمعة ليومين؛ لأن السبت كان عندهم لا يشخصون فيه ولا يعملون، كان هذا لهم في التيه، وتنبت ثيابهم مع أولادهم، فأما الرجال فكانت ثيابهم عليهم، لا تبلى، ولا تنخرق، ولا تدنس، وأما السلوى فهو الطير، وذلك أن بني إسرائيل سألوا موسى اللحم، وهم في التيه، فسأل موسى ربه تعالى، فقال الله: لأطعمنهم أقل الطير لحما، فبعث الله سبحانه السماء، فأمطرت لهم السلوى، وهي السماني، وجمعتهم ريح الجنوب، وهي طير حمر تكون في طريق مصر، فأمطرت قدر ميل في عرض الأرض، وقدر رمح في السماء بعضه على بعض، فقال الله تعالى لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ يعني: من حلال ـ كقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]، يعني: حلالا طيبا في غير مأثم، وإذا وجدوا الماء فهو حرام، فمن ثم قال ﴿طَيِّبًا﴾، يعني: حلالا ـ، ﴿مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من السلوى، ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١] يعني: تعصوا الله في الرزق فيما رزقكم، ولا ترفعوا منه لغد، فرفعوا وقددوا مخافة أن ينفد، ولو لم يفعلوا لدام لهم ذلك، فقددوا منه، ورفعوا، فدود، وتغير ما قددوا منه وما رفعوا، فعصوا ربهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، يعني: وما ضرونا، يعني: ما نقصونا من ملكنا بمعصيتهم شيئا حين رفعوا وقددوا منه في غد، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يعني: أنفسهم يضرون، نظيرها في الأعراف [١٦٠] قوله سبحانه: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إلى آخر الآية[٢].

ابن إسحاق:

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١٠٩.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١٠٨ ـ: ١٠٩.

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذراه في اليم؛ خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثوا، سأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم، قال فبلغني: أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله، فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده، فجلسوا بالأفنية، وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبهش إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم، فتاب عليهم، وعفا عنهم، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف[1].

٢. روي أنّه قال: لما رجع موسى إلى قومه، ورأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال وحرق العجل وذراه في اليم؛ اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله، فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا، وتطهروا، وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون ـ فيما ذكر لي ـ حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء ربه، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى، فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، ـ وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾، فأخذتكم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعا، وقام موسى يناشد ربه، ويدعوه، ويرغب إليه، ويقول: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما فعل السفهاء منا؟ ـ أي: إن هذا لهم هلاك ـ، اخترت منهم سبعين رجلا؛ الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد، فما الذي يصدقوني به أو يأمنوني عليه بعد هذا!؟ إنا هدنا إليك، فلم يزل موسى يناشد ربه، ويسأله، ويطلب إليه، حتى رد إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم [أي

(١) ابن جرير: ٦٨٤/١.

المعتدين منهم][1].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أما الفرقان الذي قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] فذلك يوم بدر، يوم فرق الله بين الحق والباطل، والقضاء الذي فرق به بين الحق والباطل، قال فكذلك أعطى الله موسى الفرقان، فرق الله بينهم، وسلمه الله وأنجاه، فرق بينهم بالنصر، فكما جعل الله ذلك بين محمد والمشركين، فكذلك جعله بين موسى وفرعون[2].

٢. روي أنّه قال: لما رجع موسى إلى قومه، وكانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه، فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم، فقالوا: يا موسى، أما من توبة؟ قال بلى، ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فاخترطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين، قال وبعث عليهم ضبابة، قال فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضا، قال ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدري، ويتنادون فيها: رحم الله عبدا صبر حتى يبلغ الله رضاه، وقرأ قول الله جل ثناؤه: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣]، قال فقتلاهم شهداء، وتيب على أحيائهم، وقرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ حتى يطلع إلينا[4].

٤. روي أنّه قال: قال لهم موسى ـ لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم ـ: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمره الذي أمركم به، ونهيه الذي نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت!؟ لا والله، حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله إلينا، فيقول: هذا كتابي؛ فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى، فيقول: هذا

---

(١) ابن جرير: ١/٦٩٣.

(٢) ابن جرير: ١/٦٧٧.

(٣) ابن جرير: ١/٦٨٤.

(٤) ابن جرير: ١/٦٨٨.

كتابي فخذوه!؟ وقرأ قول الله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، قال فجاءت غضبة من الله تعالى، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم، فماتوا أجمعون، قال ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ قالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا، قال خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، قال فبعث الله ملائكة، فنتقت الجبل فوقهم[1].

العسكري:

روي عن الإمام العسكري (ت ٢٦٠ هـ) أنّه قال: قال الله عز وجل: واذكروا، يا بني إسرائيل ﴿إِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِه﴾ عبدة العجل ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أضررتم بها ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ الذي برأكم وصوركم ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بقتل بعضكم بعضا، يقتل من لم يعبد العجل من عبده ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي ذلك القتل خير لكم ﴿عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ من أن تعيشوا في الدنيا وهو لم يغفر لكم، فتتم في الحياة الدنيا حياتكم، ويكون إلى النار مصيركم، وإذا قتلتم وأنتم تائبون جعل الله عز وجل ذلك القتل كفارة لكم، وجعل الجنة منزلكم ومنقلبكم، قال الله عز وجل: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم، قبل استيفاء القتل لجماعتكم، وقبل إتيانه على كافتكم، وأمهلكم للتوبة، واستبقاكم للطاعة ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وذلك أن موسى لما أبطل الله تعالى على يديه أمر العجل، فأنطقه بالخبر عن تمويه السامري، وأمر موسى أن يقتل من لم يعبده من يعبده، تبرأ أكثرهم، وقالوا: لم نعبده، فقال الله عز وجل لموسى: أبرد هذا العجل الذهب بالحديد بردا، ثم ذره في البحر، فمن شرب ماءه اسودت شفتاه وأنفه وبان ذنبه ففعل، فبان العابدون للعجل، وأمر الله تعالى اثني عشر ألفا أن يخرجوا على الباقين شاهرين السيوف يقتلونهم، ونادى مناديه: ألا لعن الله أحدا أبقاهم بيد أو رجل، ولعن الله من تأمل المقتول لعله تبينه حميما أو قريبا فيتعداه إلى الأجنبي فاستسلم المقتولون، فقال القاتلون: نحن أعظم مصيبة منهم، نقتل بأيدينا آباءنا وأبناءنا وإخواننا وقراباتنا، ونحن لم نعبد، فقد ساوى بيننا وبينهم في المصيبة، فأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى، إني إنما امتحنتهم بذلك لأنهم ما اعتزلوهم لما عبدوا العجل، ولم يهجروهم، ولم يعادوهم

---

(١) ابن جرير: ١/٦٩٦.

على ذلك[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة، والكتاب: اسم لكل مكتوب.

٢. اختلف في سبب تسميته ﴿الْفُرْقَانَ﴾:

أ. قيل: سميت فرقانا؛ لما فرق وبيّن فيها الحلال والحرام، وكل كتاب فرق فيه بين الحلال والحرام فهو فرقان.

ب. وقيل: يسمى فرقانا؛ لما فرق فيه بين الحق والباطل، وهما واحد.

ج. وقيل: سميت التوراة فرقانا؛ لما فيها المخرج من الشبهات.

د. وقيل: الآية على الإضمار؛ كأنه قال وإذ آتينا موسى الكتاب ـ يعنى التوراة ـ ومحمدا الفرقان؛ كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]

٣. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ قيل: ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلها.

٤. اختلف في معنى ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾:

أ. قيل: ارجعوا عن عبادة العجل إلى عبادة ربكم.

ب. وقيل: ارجعوا عن اتخاذ العجل إلها إلى اتخاذ خالقكم إلها.

٥. ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: لولا اجتماع أهل التأويل والتفسير على صرف ما أمر الله ـ جل وعزّ ـ إياهم بقتل أنفسهم على حقيقته، وإلا لم نكن نصرف الأمر بقتل أنفسهم على حقيقة القتل؛ وذلك لأن الأمر بالقتل كان بعد التوبة، ورجوعهم إلى عبادة الله، والطاعة له، والخضوع، دليله:

أ. قوله عزّ وجل: ـ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩] ظهر بهذا: أنهم تابوا قبل أن يؤمروا بالقتل.

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري، ص١٢٤/٢٥٤.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٤٦٢/١.

ب. وقد شرع على ألسن الرسل: قتال الكفرة حتى يسلموا؛ فلا يجوز ذلك إن أسلموا، فيحصل الإرسال للقتل خاصة، لا للدين.

ج. ولأن القتل هو عقوبة الكفر، لا عقوبة الإسلام، وخاصة قتل استئصال، على ما روى في الخبر: أن قتل سبعون ألفا في يوم واحد.

د. وذلك استئصال وإهلاك، ولم يهلك الله قوما إلا في حال الكفر والعناد؛ إذ الإسلام سبب درء القتل وإسقاطه؛ لأن من يقتل لكفره إذا أسلم سقط القتل عنه وزال، وكذلك إذا أسلم وتاب ومات عليه، لم يعاقب في الآخرة لكفره في الدنيا.

٦. على ذلك: يجب ألا يعاقب هؤلاء في الدنيا ـ بالقتل ـ بعد التوبة والرجوع إلى عبادة الله وطاعته، ويصرف الأمر بالقتل، إلى إجهاد أنفسهم بالعبادة لله، والطاعة له، واحتمال الشدائد والمشقة؛ لتفريطهم في عصيان ربهم، باتخاذهم العجل إلها، وبعبادتهم إياه دون الله، وذلك جار في الناس، يقال: فلان يقتل نفسه في كذا، لا يعنون حقيقة القتل، ولكن: إجهاده نفسه في ذلك، وإتعابه إياها، واحتمال الشدائد والمشقة فيه، فعلى ذلك، يصرف الأمر بقتل أنفسهم إلى ما ذكر، بالمعنى الذي وصفنا.

٧. صرف ذلك إلى حقيقة القتل احتمل وجهين:

أ. أحدهما: أن يجعل ذلك ابتداء محنة من الله ـ تعالى ـ لهم بالقتل، لا عقوبة لما سبق من العصيان، ولله أن يمتحنهم ـ ابتداء ـ بقتل أنفسهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٦] على تأويل كثير من المتأولين في ذلك؛ إذ له أن يميتهم بجميع أنواع الإماتة.. فعلى ذلك: له أن يأمر بقتل أنفسهم، وفيه إماتة، مع ما فيه الاستسلام لعظيم ما دعوا إليه، من بذل النفس لله، مما في مثله جعل وفاء إبراهيم الأمر بالذبح، وبذل ولده النفس له، فيكون في ذلك القدر وفاء وتوبة لا حقيقة القتل.

ب. والثاني: يجوز ذلك؛ لأن عقوبات الدنيا وثوابها محنة، لجواز الامتحان بعد التوبة والرجوع إلى طاعة الله؛ لأنها دار محنة.. وأما عقوبات الآخرة وثوابها فليستا بمحنة؛ لأنها ليست بدار امتحان؛ لذلك: جاز التعذيب في الدنيا بعد التوبة، ولم يجز في الآخرة إذا مات على التوبة.

٨. اختلف في معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، بوجوه:

أ. قيل: أمروا ببذل الأنفس للقتل، والتسليم له؛ فصاروا كأن قد قتلوا أنفسهم.

أ. وقيل: يجوز أن يكون الأمر بقتل أنفسهم أمرا بمجاهدة الأعداء، وإن كان فيها تلفهم على ما قال ﴿إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١١] مذكور ذلك في التوراة، وكذا قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] نهى عن القتل الذي فيه قتل أنفسهم، وقد قيل في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] بمعنى: أي لا تقتلوا من تقتلون، فكأنما قد قتلتم أنفسكم، وعلى هذا التأويل خرّج أبو بكر قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]

ب. وقيل: أمر بعضا بقتل بعض، كقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً﴾ [النور: ٦١] أي يسلم بعضهم على بعض.

ج. وقيل: أمر كلّ من عبد العجل بقتل نفسه.

٩. اختلف في معنى ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾:

أ. قيل: إن التوبة خير لكم عند خالقكم.

ب. وقيل: قتلكم أنفسكم خير لكم من لزوم عبادة العجل.

ج. ويحتمل: عبادة الرب ـ عزّ وجل ـ خير لكم من عبادة العجل.

١٠. في بذل أنفسهم للقتل، والصبر عليه، وكف أيديهم عن الدفع، والمارسة ـ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه كأنهم طبعوا على أخلاق البهائم والدواب، وذلك أن موسى ﷺ استنقذهم من خدمة فرعون وآله، ونجاهم من الشدائد التي كانت عليهم، ولحوق الوعيد بهم، وأراهم من الآيات العجيبة: من آية العصا، واليد البيضاء، وفرق البحر، وإهلاك العدو فيه، وتفجير الأنهار من حجر واحد، وغير ذلك من الآيات ما يكثر ذكرها، أن لو كانت واحدة منها لكفتهم، ودلتهم على صدقه ونبوته، ثم ـ مع ما أراهم من الآيات ـ إذا فارقهم، دعاهم السامري إلى عبادة العجل، واتخاذه إلها، كقوله: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] فأجابوه إلى ذلك، وأطاعوه.. وكان هارون ـ صلوات الله على نبينا وعليه ـ فيهم، يقول: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، فلم يجيبوه ولا صدقوه، ولا اكترثوا إليه، مع ما كان هارون من أحب الناس إليهم.. فلولا أنهم كانوا مطبوعين على أخلاق البهائم والدواب، وإلا ما تركوا إجابته، ولا عبدوا العجل، مع ما أروا من الآيات التي ذكرنا.. فإذا كان

إلى هذا يرجع أخلاقهم لم يبالوا ببذل أنفسهم للقتل، والله أعلم، ونحو ذلك قوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وعلى ذلك جعلت آيات موسى كلها حسية لا عقلية؛ إذ عقولهم كادت تقصر عن فهم المحسوس ودركه، فضلا عن المستدل عليه.

ب. الثاني: يحتمل أن أروا ثواب صبرهم على القتل في الآخرة، وجزيل جزائهم، وكريم مآبهم؛ فهان ذلك عليهم وخف، كما روى أن امرأة فرعون لما علم فرعون ـ لعنه الله ـ بعبادتها ربها، وطاعتها له، أمر أن تعاقب بأشد العقوبات، ففعل بها فضحكت في تلك الحال، لما أريت مقامها في الجنة، وكريم مآبها؛ فهان ذلك عليها وسهل، فعلى ذلك يحتمل بذل هؤلاء أنفسهم للقتل، والصبر عليه لذلك.

١١. اختلف في ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾:

أ. قال بعضهم: قال الذين اختارهم موسى ـ وكانوا سبعين رجلا ـ لن نصدقك بالرسالة والتوراة حتى نرى الله جهرة، يخبرنا أنّه أنزلها عليك.

ب. ويحتمل: لن نؤمن لك أنه إله، ولا نعبده حتى نراه جهرة عيانا.

١٢. احتج بعض من ينفى الرؤية في الآخرة بهذه الآية؛ حيث أخذتهم الصاعقة لما سألوا الرؤية، قالوا: فلو كان يجوز أن يرى لكان لا تأخذهم الصاعقة، ولا استوجبوا بذلك العذاب والعقوبة، والصحيح أنه ليس في الآية دليل نفى الرؤية، بل فيها إثباتها:

أ. ذلك أن موسى عليه السلام لما سئل الرؤية لم ينههم عن ذلك، ولا قال لهم: لا تسألوا هذا.

ب. وكذلك سأل هو ربه الرؤية، فلم ينهه عنها، بل قال: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وإذا صرف الوعد لا يجوز ذلك، لو كان لا يحتمل؛ لأنه كفر، ومحال ترك النهى عنه.

ج. كذلك ما روى في الأخبار: من سؤال الرؤية لرسول الله ﷺ حيث قالوا: أنرى ربنا؟ لم يأت عنه النهى عن ذلك، ولا الرد عليهم؛ فلو كان لا يكون لنهوا عن ذلك ومنعوا.

د. إنما أخذ هؤلاء الصاعقة بسؤالهم الرؤية؛ لأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد، وإنما سألوا سؤال تعنت، ودليل التعنت، فيما جاء من الآيات، من وجه الكفاية لمن ينصف؛ لذلك أخذتهم الصاعقة.

هـ. أو أن يقال: أخذتهم الصاعقة بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، لا بقولهم: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾:

أ. قيل: الصاعقة كل عذاب فيه هلاك، لكن الهلاك على ضربين:

• هلاك الأبدان والأنفس.

• وهلاك العقل والذهن، كقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قيل: مغشيًا.. وفيه هلاك الذهن والعقل؛ وكذلك قوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] أي غشى.

ب. وقيل: الصعقة: صياح شديد.

اختلف في معنى ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

أ. قيل: تعلمون أن الصاعقة قد أخذتهم وأهلكتهم بقولهم الذي قالوا؛ فكونوا أنتم على حذر من ذلك القول.

ب. وقيل: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ـ الخطاب لأولئك الذين أخذتهم الصاعقة ـ أي تنظرون إلى الصاعقة وقت أخذتها لكم، أي لم تأخذكم فجأة، ولا بغتة، ولكن عيانا جهارا.

١٤. يذكرهم ـ عزّ وجل ـ عظيم منّته عليهم، وجزيل عطائه لهم؛ ببعثهم بعد الموت، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى من السماء لهم، وذلك مما خصوا به دون غيرهم.. ثم ما كان لنا من الموعود في الجنة، فكان ذلك لهم في الدنيا معاينة، من نحو البعث بعد الموت ومن الظل الممدود، والطير المشوي، والثياب التي كانت لا تبلى عليهم ولا تتوسخ؛ فذلك كله مما وعد لنا في الجنة، وكان لهم في الدنيا معاينة يعاينون.. مع ما كان لهم هذا لم يجيبوا إلى ما دعوا، ولا ثبتوا على ما عاهدوا، وذلك لقلة عقولهم، وغلظ أفهامهم، ونشوئهم على أخلاق البهائم والدواب.

١٥. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يحتمل:

أ. يحتمل: ما لم يحل لهم الفضل على حاجتهم، فأباح لهم القدر الذي لهم إليه حاجة، وسماه طيبات.

ب. ويحتمل: أنه سماه طيبات؛ لما لا يشوبه داء يؤذيهم، ولا أذى يضرهم، ليس كطعام الدنيا مما لا يسلم عن ذلك.

ج. وقيل: الطيب هو المباح الذي يستطيبه الطبع، وتتلذذ به النفس.

١٦. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يحتمل: النقصان؛ كقوله: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص منه.. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه.

العياني:

قال الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: أي اقتلوا بعضكم في الله عز وجل مثل قوله: ﴿رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي من بعضكم[1]..

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[2]:

١. (إذ) اسم للوقت الماضي وإذا اسم للوقت المستقبل.

٢. الكتاب هو:

أ. التوراة والفرقان وذكره باسمين.

ب. ويحتمل أن يكون الفرقان الفرق بين الحق والباطل فيكون ذلك نعتاً للتوراة.

ج. وقيل: الفرقان هو انفراق البحر لبني إسرائيل حتى يعبروا فيه.

٣. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ يعني فارجعوا إلى طاعة ربكم الباري الخالق والبرية الخلق وهي فعيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تهمز.

٤. ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: فليقتل بعضكم بعضاً.

ب. الثاني: فاستسلموا للقتل والاستسلام للقتل يقال له القتل هو إماتة الحركة يقال: قتلت الخل إذا مزجته بالماء لتذهب حدتها وحركتها، قال الشاعر:

فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها وحب بها مقتولة لم تقتل

٥. إنما جعل القتل توبة لهم لأن من كف عن الإنكار لعبادة العجل إنما كف مخافة القتل والقتال، فجعل توبتهم إيجاب نفس ما أشفقوا منه، وورد في الخبر أن الذين كانوا قد عبدوا العجل احتبوا وجلسوا والذين لم يعبدوا قاموا ولحقتهم ظلمة فضل بعضهم يقتل بعضاً حتى انجلت عن سبعين ألف قتيل في ساعة من نهار وكانوا ينادون في تلك الحال: رحم الله عبداً صبر حتى يبلغ الله رضاه؛ فحزن موسى وبنو

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٤.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٥٣.

إسرائيل لذلك فأوحى الله عز وجل إلى موسى: لا يحزنك ما رأيت أما من قتل فأحياء عندي يرزقون فأما من بقي فقد قبلت توبته.

٦. ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ والجهرة الظهور، ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها والمجاهرة بالمعاصي المظاهرة بها.

٧. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني الموت وما نزل بكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

٨. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني الذين أخذتهم الصاعقة بعثهم الله من بعد موتهم السبعون الذين اختارهم موسى لميقاته ويسمعوا مناجاة بعد أن تاب عن من عبد العجل ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أي أحييناكم لتستكملوا حالكم.

٩. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهو كلما غمى السماء فغطاها من سحاب أو قتام وكل مغطى فهو مغموم ومنه غم الهلال إذا غطاه غيم والغمام الذي ظلله الله تعالى عليهم هو السحاب.

١٠. يحتمل أن يكون مثل الغمام الذي ذكره الله سبحانه لنبيه الذي أتت به الملائكة وهو قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فكان ذلك يوم بدر.

١١. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ ما كان يسقط لهم على الشجر مثل العسل فكانوا يمزجونه بالماء ويشربونه بعد مزجه، والسلوى طائر يقال له السماني ليس من كبار الطير ولا من صغارها كانت تحشره إليهم الريح الجنوب.

١٢. قيل: كان الرجل يأخذ منهم من المن والسلوى زيادة على طعام يوم واحد فيفسد عليهم إلا يوم الجمعة فإنهم كانوا إذا أخذوا طعام يومين لم يفسد.

١٣. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات أحدها: المشتهيات اللذيذات.. والثاني الحلال الطيبات.. والثالث المباحات.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. (إذ) فاسم للوقت الماضي، و(إذا) اسم للوقت المستقبل، و(الكتاب) هو التوراة.

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١٢٢.

٢. في الفرقان أربعة أقاويل:

أ. أحدها: أن الفرقان هو الكتاب فذكره باسمين تأكيدا، وهو قول الفراء.

ب. الثاني: أن الفرقان: ما في التوراة من فرق بين الحقّ والباطل، فيكون ذلك نعتا للتوراة، وهذا قول ابن عباس وأبي العالية.

ج. الثالث: أن الفرقان النصر، الذي فرّق الله به بين موسى وفرعون، حتى أنجى موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، وهذا قول أبي زيد.

د. الرابع: أن الفرقان: انفراق البحر لبني إسرائيل، حتى عبروا فيه.

٣. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ يعني: فارجعوا إلى طاعة خالقكم، والبارئ الخالق، والبريّة الخلق، وهي فعيلة، بمعنى مفعولة، غير أنها لا تهمز، واختلفوا في هذه التسمية:

أ. أحدها: أنها مأخوذة من برأ الله الخلق، يبرؤهم برءا.

ب. الثاني: أنها فعيلة من البرء، وهو التراب.

ج. الثالث: أنها مأخوذة من بريء الشيء من الشيء، وهو انفصاله عنه، ومنه البراءة من الدين لانفصاله عنه، وأبرأه الله من المرض، إذا أزاله عنه.

٤. اختلف في معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. أحدهما: معناه: ليقتل بعضكم بعضا، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

ب. الثاني: استسلموا للقتل، وجعل ذلك بمنزلة القتل، وهذا قول أبي إسحاق.

٥. أصل القتل: إماتة الحركة، ومنه: قتلت الخمر بالماء، إذا مزجتها، لأنك أمتّ حركتها، وإنما جعل القتل توبة، لأن من كفّ عن الإنكار لعبادة العجل، إنما كف خوفا من القتال والقتل، فجعلت توبتهم بالقتل، الذي خافوه، هكذا قال ابن جريج.

٦. في قوله تعالى: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: علانية، وهو قول ابن عباس.

ب. الثاني: عيانا، وهو قول قتادة.

٧. أصل الجهر الظهور، ومنه الجهر بالقراءة، إنما هو إظهارها، والمجاهرة بالمعاصي: المظاهرة بها.

٨. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني الموت، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ما نزل بكم من الموت.

٩. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ يعني الذين ماتوا بالصاعقة، وهم السبعون الذين اختارهم موسى ليستمعوا مناجاة ربّه له بعد أن تاب على من عبد العجل.

١٠. في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أنه إحياؤهم بعد موتهم لاستكمال آجالهم، وهذا قول قتادة.

ب. الثاني: أنهم بعد الإحياء سألوا أن يبعثوا أنبياء فبعثهم الله أنبياء، وهذا قول السّدّيّ.

١١. أصل البعث الإرسال.. وقيل: بل أصله: إثارة الشيء من محلّه.

١٢. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾: والغمام: هو ما غمّ السماء، فغطّاها من سحاب وقتام، وكلّ مغطّ فهو غمام، ومنه: غمّ الهلال، أي غطاه الغيم، وفي الغمام الذي ظلله الله عليهم تأويلان:

أ. أحدهما: أنه السحابة، وهو قول ابن عباس.

ب. والثاني: أنه الذي أتى الملائكة في يوم بدر، مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾، [البقرة: ٢١٠] وهذا قول مجاهد.

١٣. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ فيه سبعة أقاويل:

أ. أحدها: أن المنّ ما سقط على الشجر فيأكله الناس، وهو قول ابن عباس.

ب. الثاني: أن المنّ صمغة، وهو قول مجاهد.

ج. الثالث: أن المنّ شراب، كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجه بالماء، وهو قول الربيع بن أنس.

د. الرابع: أن المنّ عسل، كان ينزل عليهم، وهو قول ابن زيد.

هـ. الخامس: أن المن الخبز الرقاق، هو قول وهب.

و. السادس: أنه الزنجبيل، وهو قول السدي.

ز. السابع: أنه الترنجين.

١٤. في السلوى قولان:

أ. أحدهما: أنه السماني.

ب. الثاني: أنه طائر يشبه السماني كانت تحشره عليهم الريح الجنوب، وهذا قول ابن عباس،

واشتقاقه من السلو، كأنّه مسلّي عن غيره.

١٥. في قوله عزّ وجل: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: الشّهيّات اللذيذة.

ب. الثاني: أنه الحلال.

ج. الثالث: أنها المباح.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. (وإذ) عطف على ما مضى من التذكير بنعمه، فكأنه قال واذكروا إذ آتينا موسى الكتاب، لان (إذ) اسم للوقت الماضي و(إذا) للوقت المستقبل.. وكذلك تستعمل في الجزاء، لأن الجزاء لا يكون إلا بالمستقبل. كقولهم: ان تأتني آتك ولو تشبه الجزاء من حيث انه لا بد لها من الجواب. كما لا بد لحرف الجزاء من الجواب.

٢. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ معناه أعطيناه، والكتاب يريد به التوراة.

٣. اختلف في معنى الفرقان:

أ. قال الفراء وقطرب وتغلب: يحتمل أن يكون اتى موسى كتاب التوراة ومحمد الفرقان: كما قال الشاعر: متقلدا سيفا ورمحا.. وضعف قوم هذا الوجه، لأن فيه حمل القران على المجاز من غير ضرورة مع انه تعالى اخبر انه اتى موسى الفرقان في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ وقال الفراء: هو كلام مثنى يراد به: التوراة، وكرر لاختلاف اللفظين: كقولهم: بعداً وسحقاً، وهما بمعنى واحد. قال الرماني: هذا المثال لا يشبه الآية، لأنه جمع الصفتين لموصوف واحد على معنيين متفقين، والاولى ان يمثل بقولهم: هو العالم الكريم فجمعت الصفتان لموصوف واحد على معنيين مختلفين وقال عدي ابن زيد:

وقدّدت الأديم لراهشيه ... والفى قولها كذبا ومينا

ب. وقال قوم: الكتاب: التوراة، والفرقان: انفراق البحر لبني إسرائيل، والفرج الذي أتاهم كما

---

(١) تفسير الطوسي: ١/٢٤٢.

قال: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ اي مخرجا.

ج. وقال بعضهم: الفرقان: الحلال والحرام الذي ذكره في التوراة.

د. وروي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد: ان الفرقان الذي ذكره هو الكتاب الذي أتاه يفرق فيه بين الحق والباطل.

هـ. وقال ابن زيد: الفرقان: النصر الذي فرق الله به بين موسى وفرعون، كما فرق بين محمد ﷺ وبين المشركين. كما قال ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾

و. وقال ابو مسلم: هو ما اوتي موسى من الآيات والحجج التي فيها التفرقة بين الحق والباطل.

٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ اي لكي تهتدوا.. وفيه دلالة على انه (تعالى) أراد ان يهتدوا لان هذا اللام لام الغرض، وذلك يفسد قول المجبرة إنه أراد منهم الكفر.

سؤال وإشكال: كيف يهتدون بما اوتي موسى من البيان، وما اوتي في التوراة من البرهان مع انقطاع النقل الذي تقوم به الحجة، والجواب: من وجهين:

أ. أحدهما ـ ان الخطاب لأسلافهم: كما قال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

ب. الثاني ـ ان اخبار الرسول لهم ما تقوم به الحجة عليهم، فيمكنهم ان يستدلوا بذلك على ما أنعم الله به على أسلافهم، ولأنهم مقرون بان موسى عليه السلام اوتي التوراة بما فيها من الهدى والبينات، فتقوم الحجة عليهم بإقرارهم.

٥. ﴿فَاقْتُلُوا﴾: فالقتل والذبح والموت نظائر، وبينها فرق: فالقتل نقض بنية الحياة، والذبح فري الأوداج، والموت عند من أثبته معنى عرض يضاد الحياة. يقال: قتل يقتل قتلا، واقتتلوا اقتتالا، وتقاتلوا تقاتلا، واستقتل استقتالا، وقتل تقتيلا، وقاتله مقاتلة، وقوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ معناه لعنهم الله، وقوم اقتال: اي هم اهل الوتر، والترة: اي هم اعداء وتراة، وتقول: تقتلت الجارية للفتى يصف به العشق، وقال الشاعر:

تقتلت لي حتى إذا ما قتلتني ... تنسكت ما هذا بفعل النواسك

قال ابن دريد: قتلت الخمر بالماء إذا مزجتها. قال الشاعر:

ان التي ناولتني فرددتها قُتلت قتلت فهاتها لم تقتل

وتقتل الرجل لحاجة اي يأتي لها، ويقتل الرجل للمرأة: إذا خضع لها في كلامه وقتل الرجل: عدوه، والجمع اقتال، وفلان قتل فلان: أي نظيره، وابن عمه وقتله قتلة سوء واقتتلوا بمعنى تقاتلوا ومثله قتلوا قال ابو النجم: ندافع الشيب ولم يقتل.. وناقة ذات قتال وذات كيال، إذا كانت غليظة وثيقة الخلق. في المثل: قتلت ارض جاهلها، وقتل أرضا عالمها، ومقاتل الإنسان: هي التي إذا أصيبت قتلت.. وأصل الباب: القتل وهو نقض البنية التي تصح معها الحياة، وقال المبرد: وأصله اماتة الحركة، وقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ اي قد حلوا محل من يقال له هذا القول. اي انزل الله بهم القتل، ويقول قتله علما إذا ايقنه وتحققه.

٦. اختلف في معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ على أقوال:

أ. قيل: يقتل بعضكم بعضا، ذهب اليه ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن وغيرهم من اهل العلم، كما يقول القائل: قتل آل فلان إذا قتل بعضهم بعضا.

ب. وقيل: ان يستسلموا للقتل فجعل استسلامهم للقتل قتلا منهم لأنفسهم على وجه التوسع، ذكره ابن عباس وإسحاق واختاره ابو علي.

ج. وقيل: ان السبعين الذين اختارهم موسى للميقات أمروا بالقتل لمن سأل الرؤية من بني إسرائيل.

د. وقيل: إنهم قتلوا أنفسهم كما أمروا. عمدوا الى الخناجر وجعل بعضهم يطعن بعضا.

هـ. وقيل: غشتهم ظلمة شديدة فجعل بعضهم يقتل بعضا، ثم انجلت الظلمة، فاجلوا عن سبعين الف قتيل، قاله ابن عباس وغيره من اهل العلم.

٧. اختلف في السبب الذي لأجله أمروا بقتل أنفسهم:

أ. قيل: ان الله علم ان ناساً منهم علموا ان العجل باطلا فلم يمنعهم ان ينكروا الا خوف القتل، فلذلك بلاهم الله ان يقتل بعضهم بعضا، ذكره ابن جريج.

ب. وقيل: ولا بد ان يكون في الامر بالقتل لطف لهم ولغيرهم، كما يكون في استسلام القاتل لطف له ولغيره، قاله الرماني.

٨. سؤال وإشكال: كيف يكون في قتلهم نفوسهم لطف لهم، وبعد القتل لا تكليف عليهم، واللطف لا يكون لطفاً فيما مضى ولا فيما يقاربه والجواب:

أ. إذا كان القوم كلفوا ان يقتل بعضهم بعضا وكل واحد منهم يقصد قتل غيره ويجوز ان يبقى بعده فيكون القتل لطفاً له فيما بعد، ولو كان بمقدار زمان يفعل فيه واجبا واحدا: ويمتنع فيه من قبيح، وذلك كما نقول في عبادتنا في قتال المشركين، فان الله تعالى تعبدنا ان نقاتل حتى نقتل ونقتل ومدح على ذلك، فلذلك روى اهل السير ان الذين عبدوا العجل تعبدوا ان يقاتلوا من لم يعبد ويصبروا على ذلك حتى يقتل بعضهم بعضا، وكان القتل شهادة لمن قتل، وتوبة لمن بقي، وإنما كانت تكون شبهة، لو أمروا بان يقتلوا نفوسهم بأيديهم، ولو صح ذلك لكان لا يمتنع بان يكونوا أمروا بان يفعلوا بنفوسهم الجراح التي تفضي الى الموت ـ وان لم يزل معها العقل فينا في التكليف.

ب. أما على القول الآخر، وهو انهم أمروا بالاستسلام والقتل والصبر عليه، فلا مسألة لأنهم أمروا بقتل نفوسهم، وعلى هذا يكون قتلهم حسناً، لأنه لو كان قبيحاً لما جاز ان يؤمروا بالاستسلام، وكذلك نقول: لا يجوز ان يتعبد نبي أو امام بان يستسلم للقتل مع قدرته على الدفع عن نفسه، فلا يدفعه لان في ذلك استسلاما للقبيح مع القدرة على الدفع منه، وذلك لا يجوز وإنما يقع قتل الأنبياء والائمة على وجه الظلم، وارتفاع التمكن من الدفع مع الحرص على الدفع، غير انه لا يمتنع ان يتعبد بالصبر على الدفاع، وتحمل المشقة في ذلك ـ وان قتله غيره ظلما والقتل ـ وان كان قبيحا بحكم العقل ـ فهو ما يجوز تغيره بان يصير حسنا، لأنه جار مجرى سائر الآلام، وليس يجري ذلك مجرى الجهل والكذب الذي ليس يصير قط حسناً ووجه الحسن في القتل انه لطف على ما قلناه، وكما يجوز من الله ان يميت الحي، كذلك يجوز ان يأمرنا بإماتته ويعوضه على ما يدخل عليه من الآلام ويكون فيه لطف على ما قدمناه.

٩. ﴿ذَلِكُمْ﴾ اشارة الى التوبة مع القتل لأنفسهم على ما أمرهم الله تعالى به بدلالة قوله. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فقوله: توبوا) دال على التوبة، فكأنها مذكورة.

١٠. البارئ هو الخالق الصانع. يقال: برأه، واستبرأ استبراء، وتبرأ تبريا، وباراه مباراة، وبرأه براءة، وتبرئة. قال صاحب العين: البرأ مهموز وهو الخلق تقول برأ الله الخلق وهو يبرؤهم وهو البارئ وقال امية:

الخالق البارئ المصور في ال أرحام ماء حتى يصير دما

والبرء السلامة من السقم. تقول برأ برؤه وبرئت وبرأت وبرؤت براءة.

وتبرأ تبريا لغة في هذا والبراءة من العيب والمكروه لا يقال منه: الا بريء براء وفاعله بريء وفلان بريء وبراء كقوله: إني براء، وامرأة براء، ونسوة براء وبراء على وزن فعلاء، ومنه قوله: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ جمع بريء ومن ترك الهمزة.. قال براء على وزن فعال، وتقول بارأت الرجل اي برئت اليه، وبريء الى مثل ذلك، وبارات المراة اي صالحتها على المفارقة وأبرأت الرجل من الضمان والدين وبرأه تبرئة، ويقال: ابرأ الله فلانا من المرض إبراء حسناً، والاستبراء: استبراء الجارية والمرأة بان لا يطأها حتى تحيض، والاستبراء نقاء الفرج من القذر، وأصل الباب تبري الشيء من الشيء: وهو انفصاله منه، وبرأ الله الخلق اي فطرهم، فإنهم انفصلوا من العدم الى الوجود، والبرية الخلق، فعلية بمعنى مفعول، لا يهمز كما لا يهمز ملك وان كان أصله من الالوكة، وقيل البرية مشتقة من البراوة، وهو التراب، فلذلك لم تهمز، وقيل إنه مأخوذ من بريت العود، فلذلك لم يهمز.. والبراءة من الشيء: المفارقة والمباعدة عنه: وبريء الله من الكافر: باعده عن رحمته وانواع الفعل كثيرة: منها الخلق، والإنشاء، والارتجاع، والبرء: الفطر، فأما الأحداث، والإيجاد والتكوين فكالفعل والجعل: أعم من الفعل، لأنه لما وجد بعد ان لم يكن كقولك: جعلت الطين خزفا. فلم يحدث الخزف في الحقيقة، وإنما أحدث ما صار خزفاً.

١١. ﴿خَيْرٌ﴾: فالخير، والنفع، والفضل، والحظ نظائر وضد الخير: الشر، وضد النفع: الضرر. تقول: خار الله له الخير خيرة، واختار اختياراً واستخار فلان استخارة وتخير تخيراً وتخايراً، وخيره تخييراً، وخايره مخايرة، ورجل خير وامرأة خيرة: أي فاضلة، وقوم اخيار، وخيار، وامرأة خيرة. حقيقة في جمالها، وميسمها، ومنه قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾، وناقه خيار، ورجل خيار، وتقول: والجمع خيار، وتقول: هذه وهذا وهؤلاء خيرتي، وما تختاره، وتقول: انت بالخيار وانت بالخيار سواء، والرجل يستخير الضبع واليربوع: إذا جعل حبسه في موضع النافقاء، فخرج من القاصعاء، والخيرة مصدر خار خيرة ساكنة الياء مثل راب ريبة، واصل الباب الخير نقيض الشر، والخير: الهيئة المختارة.

١٢. حذفت الياء من قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ وأثبتت في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي﴾ لأن ياء الاضافة تحذف في النداء، لأنه موضع حذف، يحذف فيه التنوين، ويحذف الاميم للترخيم، فلما كانت بالإضافة تحذف في

غير النداء، لزم حذفها في النداء، وأما قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، فإنها تثبت لأنها ياء الاضافة لا يلحقها ما يوجب حذفها، كما لحق الياء في النداء، ويجوز في ﴿يَا قَوْمِ﴾ كسر الميم وحذف الياء هو اجماع القراء ويجوز بياء ساكنة، ويجوز بفتح الياء وما قرئ بها. فأما إسكان الهمزة. فالذي رواه سيبويه عن أبي عمر واختلاس الحركة، وهو اضبط من غيره والإسكان في مثل هذا يجوز في ضرورة الشعر كقول الشاعر:
إذا اعوججن قلت صاحبْ قوم.. وكان ينبغي ان يقال صاحبَ لأنه منادى، وقال امرؤ القيس:

فاليوم فاشرب غير مستحقب اثما من الله ولا واغل

وقد روى بعضهم صاح قوم وروي فاليوم فاشرب وروى بعضهم: فاليوم فاسقي ولا يقال في الله تعالى تائب مطلقاً، وإنما يقال: تائب على العبد.

١٣. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، الفاء متعلق بمحذوف كأنه قال ففعلتم أو قتلتم أنفسكم فتاب عليكم، وكان فيما بقي دلالة عليه.

١٤. الرؤيا والنظر والأبصار نظائر في اللغة يقال: رأى رؤية ورأى من الرأي رأيا، وأراه الله اراءة وتراءى القوم ترائيا، وارتأى ارتياء وراءاه مراءاة، قال صاحب العين: الرأي رأي القلب والجمع الآراء، وتقول: ما أضل آراءهم على التعجب ورأيهم ايضاً ورأيت رؤية وتقول رأيته رأي العين. أي حيث يقع البصر عليه، وتقول من رأي القلب: ارتأيت، وتقول: رأيت رؤيا حسنة، وتقول: رأيت فلانا ذا مسحة في اللون، وزية حسنة في اللباس، والمتاع، والذي يتعرض بزيه كهانة أو طبا، وفي بعض اللغات ريت بمعنى رأيته، وعلى ذلك قراءة من قرأ اريت قال الشاعر: قد ريت منه عجبا من الكبر.. وتراءى القوم: إذا رأى بعضهم بعضا وتراءى لي فلان: إذا تصدى لي فأراه والرواء: المنظر في البهاء والجمال. تقول: امرأة لها رواء وبهاء وسناء أي حسنة.. والمرآة مثل المنظرة والمنظر والمرآة التي ينظر فيها وجمعها مراءى، ومن حوّل الهمزة قال مرايا. تقول مرأت المرأة: إذا نظرت وجهها، وفي الحديث لا يتراءى أحدكم في الماء أي لا ينظر فيه.. ويحذفون الهمزة في كل كلمة تشتق من رأيت إذا كانت الراء ساكنة تقول أريت فلانا فانا مري وهو مري. أي بحذف الهمزة وأثبتوها في موضعين في قولهم رأيته فهو مرئي أرأت الناقة والشاة إذا يرى ضرعها انها قد اقربت وأنزلت، وهي مرئي، والحذف فيه ايضا صواب وتقول: من الظن رأيت ان فلانا أخوك، ومنهم من يحذف الهمزة يقول ريت انه ومن قلب الهمزة من رأى قال رأى مثل ما تقولون: أرتيت واستريت بالمرآة

والمرئية: مكسورة الراء مهموزة ممدودة ما ترى المرأة من الحيض صفرة أو بياضاً قبلا أو بعدا وأما البصير بالعين فهو الرؤية. إلا أن تقول نظرت اليه رأي العين فيه وتقول: ما رأيته إلا رؤية واحدة وتقول للذي يريك الشيء مري والمرأة مرية بلا همزة وتقول رأيت فلانا برؤية والمرآة التي تنظر فيها والرأي ما رأيت القوم في حسن البشارة والهيئة قال جرير:

وكل قوم لهم رأى ومختبر ... وليس في تغلب رأي ولا خبر

واصل الباب: الرؤية بالعين وشبه الرؤية بالقلب به بمعنى العلم، والرأي يرى حال صلاح ويظن خلافها، والمرية لأنها بمنزلة الآلة للقلب يرى بها.

١٥. الجهرة، والعلانية، والمعاينة نظائر تقول: جهر جهرا أو جاهر مجاهرة، وجهاراً، وتجاهروا تجاهراً، ورجل جهير الصوت. قال صاحب العين: جهر فلان بكلامه، وهو يجهر بقراءته جهارا، واجهر بقراءته اجهاراً، وجاهرتم بالأمر جهارا أي عالنتم به إعلانا واجتهر القوم فلانا جهاراً: إذا نظروا اليه وكل شيء يبدو فقد جهر ورجل جهير: إذا كان في المنظر والجسم في الناس مجهراً، وكلام جهير، وصوت جهير أي عال، والفعل منه جهر جهارة، والجهير هو الجريء المتقدم والجهوري: هو الصوت العالي، والجوهر: كل حجارة يستخرج منها شيء ينتفع به وجوهر كل شيء ما خلقت عليه حلية، والشاة الجهر التي لا تبصر في الشمس والكبش اجهر وقال بعضهم: جهرت البئر: إذا أخرجت ما فيها من الحمأة، والماء، وبئرٌ مجهورة، والجهر: ضد السر وجهرني الرجل إذا راعك جماله وهيئته، ورجل جهير ذو رواء واصل الباب الظهور.. والجهر يقتضي ظاهراً بعد ان يكون خافياً، ليدرك ما لم يكن قبل مدركا ويستدل بالجهر على أنهم أرادوا الرؤية بالعين دون رؤية القلب، وحقيقة الجهر ظهور الشيء معاينة والفرق بين الجهر والمعاينة أن المعاينة ترجع الى حال المدرِك والجهرة ترجع الى حال المدرَك.

١٦. معنى قوله: ﴿حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾ قال ابن عباس: علانية، وقال قتادة عيانا، وقد تكون الرؤية غير جهره كالرؤية في النوم والرؤية بالقلب، فإذا قال جهرة لم يكن إلا رؤية العين على التحقيق، دون التخيل وسؤالهم الرؤية:

أ. قال قوم: هو كفر لأن اجازة الرؤية كفر.

ب. وقال آخرون: ليس بكفر، وإنما اجازة الرؤية التي تقتضي التشبيه كفر.

١٧. هذا القول منهم فكفر اجماعا، لأنه رد على الرسول وكل من يلقى قول الرسول بالرد من المكلفين، كان كافراً.

١٨. اختلف في ﴿جَهْرَةً﴾:

أ. قيل: مشتق من جهرت الركية اجهرها جهرا وجهرة: إذا كان ماؤها قد غطاه الطين، فنقيت حتى ظهر الماء.

ب. وقيل: أخذ من قولهم: فلان تجاهر بالمعاصي: إذا كان لا يسرها.

١٩. إنما فزعوا بسؤال أسلافهم الرؤية من حيث انهم سلكوا طريقهم في المخالفة للنبي الذي لزمهم اتباعه والتصديق بجميع ما اتى به فجروا على عادة أسلافهم في ذلك الذين كانوا يسألون تارة ان يجعل لهم إلهاً غير الله ومرة يعبدون العجل من دون الله ومرة يقولون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾ ومرة يقولون: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

٢٠. ذكر بعضهم أن في هذه الآية دلالة على مشركي العرب الذين كانوا ينكرون البعث، لأهل الكتاب مع مخالفتهم الرسول يقرون بإذن الله أمات قوماً في الدنيا، ثم أحياهم قاله الزجاج.. والصحيح ان نقل اهل الكتاب لمثل هذا ليس بحجة وإنما الحجة في اخبار الله على لسان نبيه وحده إذ كان كلما يخبر به فهو حق وصدق.

٢١. استدلّ بهذه الآية على ان الرؤية لا تجوز على الله تعالى لأنها تدل على انكارهم أمرين: ردهم على نبيهم، وتجويزهم الرؤية على ربهم، وبين ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَّ جَهْرَةً﴾ فدل ذلك على ان المراد إنكار الامرين.

٢٢. هذه الآية تدل على أن قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ كان سؤالا لقومه، لأنه لا خلاف بين اهل التوراة ان موسى ما سأل الرؤية الا دفعة واحدة، وهي التي سألها لقومه.

٢٣. اختلف في ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾:

أ. قيل: تتعلق بما يخبرهم به من صفات الله عز وجل، لأنهم قالوا لن نؤمن لك بما تخبرنا به من صفاته وما يجوز عليه حتى نراه.

ب. وقيل: انه لما جاءهم بالألواح وفيها التوراة قالوا لن نؤمن بان هذا من عند الله حتى نراه جهرة.

٢٤. نرى على وزن نفعل وأصله: نرأى، قال الشاعر:

أرى عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات

فجاء به على الأصل وقال آخر:

ألم تر ما لاقيت والدهر اعصر ومن يتمل العيش يرأى ويسمع

٢٥. انما دعاهم الى ان قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله شكهم، وحيرتهم فيما دعاهم اليه موسى عليه السلام من توحيد الله عز وجل، ولو كانوا عارفين، لكان دعاهم اليه العناد لموسى ومعلوم انهم لم يكونوا معاندين له عليه السلام.

٢٦. اختلف في ﴿جَهْرَةً﴾:

أ. في الناس من قال إن قولهم: ﴿جَهْرَةً﴾ من صفة السؤال على التقديم والتأخير كأنه قال: وإذا قلتم جهرة لن نؤمن لك حتى نرى الله).

ب. قال الأكثر: إنها من صفه الرؤية، وهو الأقوى، لان ما قالوه ترك الظاهر، وتقدير التقديم والتأخير ليس هنا إلى ذلك حاجة.

٢٧. تكون الصاعقة على ثلاثة أوجه:

أ. أولها ـ الموت: كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾

ب. الثاني ـ العذاب. كقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾

ج. الثالث ـ نار تسقط من السماء كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾

٢٨. اختلف في موسى عليه السلام، وهل مات بالصاعقة:

أ. أكثرهم على ان موسى لم يمت بالصاعقة كما مات من سأل الرؤية، وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أي مغشياً عليه عند اكثر المفسرين بدلالة قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والافاقة لا تكون إلا من الغشية دون الموت، وإلا لكان قد قال فلما حيي.

ب. قال شاذ منهم: انه مات بالصاعقة.

٢٩. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يعني ما نزل بكم من الصاعقة والموت.

٣٠. اختلف في ﴿بَعَثْنَاكُمْ﴾:

أ. قيل: أحييناكم، عند اكثر المفسرين: كالحسن، وقتادة، وغيرهما، وهو أصح لأنه ظاهر الكلام. فلا يجوز العدول عنه.

ب. قيل: بعثناكم أنبياء، قاله السدي.

٣١. أصل البعث: إثارة الشيء من محله، ومنه قيل: بعث فلان راحلته: إذا أثارها من مبركها للسير، ومنه قولهم بعثت فلانا لحاجتي: إذا أقمته من مكانه الذي هو فيه للتوجه فيها، ومن ذلك قيل: ليوم القيامة يوم البعث لأنه يوم تثار فيه الناس من قبورهم لموقف الحساب.. والبعث والإرسال وكل الإطلاق نظائر. يقال: بعثت بعثا، وانبعثت انبعاثا.. وتبعثت تبعثة، وبعثته من نومه فانبعث. اي نبهته فانتبه، وتقول: ضرب البعث على الجند. إذا بعثوا إلى العدو، وكل قوم يبعثون الى وجه أو في امر فهم بعث.. وأصل الباب: البعث وهو الإرسال، وكل باعث فاعل، واما المبعوث فقد يكون فاعلا، وقد لا يكون. يقال: بعث الله عليهم ريحا فاقتلعتهم والريح مبعوثة، ويقال: الشهوة للشيء تبعث على الطلب له.

٣٢. سؤال وإشكال: هل يجوز ان يرد الله احداً الى التكليف بعد ان مات، وعاين ما يضطره الى معرفته بالله؟ والجواب: في ذلك خلاف:

أ. قال ابو علي: لا يجوز ذلك إلا على من لم يضطره الله الى معرفته، وهو أقوى، واعله الرماني، ووجهه: أنه لما كانت المعرفة لأجل الطاعات التي كلفها العبد كانت هي الغرض الذي يتبعه سائر الطاعات فلو ارتفع الغرض، ارتفع التابع له. كما ان الغرض في الشرائع الاستصلاح في الأصول التي تجب بالعقل فلو ارتفع ذلك الغرض، ارتفع وجوب العمل بالشرع، وكما انه لا يجوز تكليف الطاعة مع رفع التمكن مع المعرفة من غير ضرورة اليها.

ب. وقال بعضهم: يجوز التكليف في الحكمة، وان اضطر الى المعرفة، ووجهه أنه لما كان الشكر على النعمة يجب في المشاهد مع الضرورة الى معرفة النعم، كان الشكر للنعمة التي هي اجل من نعمة كل منعم في الشاهد اولى ان تجب مع الاضطرار الى المعرفة، ولابي علي ان يقول لا نمنع من الوجوب، لكن لا يجوز التكليف، لان الغرض المعرفة. اي هي اصل ما وقع التكليف به للعباد.

٣٣. الصحيح هو أن الذي يحيى بعد الاماتة، ان كان لم يخلق له المعرفة الضرورية لم يضطر إليها، فإنه يمتنع تكليفه، لأن العلم بان الأحياء بعد الاماتة، لا يقدر عليه غير الله طريقه الدليل وغوامض

الاستدلال، فليس إحياؤه بعد الاماتة ما يوجب ان يكون مضطرا الى معرفته، فلذلك يصح تكليفه، وليس الأحياء بعد الاماتة الا كالانتباه من النوم والافاقة بعد الغشية، فان ذلك لا يوجب علم الاضطرار، وان فرضنا انه خلق فيه المعارضة ضرورة، فلا يحسن تكليفه، لان حسن التكليف موقوف على ازاحة علة المكلف من فعل اللطف، والاقدار وغير ذلك، ومن جملة الالطاف تكليفه للمعرفة، والضرورية لا تقوم مقامها على ما بيناه في الأصول، واذاً لا يحسن تكليفه، لأنه يصير مكلفا ولم يفعل به ما هو لطف له، وذلك لا يجوز.

٣٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ معناه لكي تشكروا، وهذه لام الغرض، وفيه دليل على فساد قول المجبرة إن الله تعالى ما أراد من الكفار الشكر، لأنه لو أراد كفرهم، لقال: لتكفروا، وذلك خلاف القرآن، ومن استدلّ بها على جوازها كان صحيحاً، لان من منع منه واحاله، فالقرآن يكذبه.

٣٥. ان استدلّ به على وجوب الرجعة وحصولها فلا يصح، لان احياء قوم في وقت، ليس بدلالة على احياء اخرين في وقت اخر، ذلك يحتاج إلى دلالة أخرى، وقول من قال لا تجوز الرجعة، لان ذلك معجزة ودلالة على نبوة نبي، وذلك لا يجوز إلا في زمن نبي غير صحيح، لان عندنا يجوز اظهار المعجزات على يد الائمة والصالحين.

٣٦. قال البلخي: لا تجوز الرجعة مع الاعلام بها، لان فيها إغراء بالمعاصي من جهة الاتكال على التوبة في الكرة الثانية.. وهو ليس بصحيح، لان من يقول بالرجعة، لا يقطع على ان الناس كلهم يرجعون، فيكون، في ذلك اتكال على التوبة في الرجعة، فيصير إغراء. فلا احد من المكلفين الا ويجوز ان لا يرجع، وان قطع على الرجعة في الجملة ويجوز ان لا يرجع، فكفى في باب الزجر.

٣٧. قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ عطف على قوله ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وكأن التقدير ثم بعثناكم من بعد موتكم وظللنا عليكم الغمام.

٣٨. الظلمة والغمامة والسترة نظائر في اللغة، تقول: ظل يظل ظلولا، وأظل اظلالا، واستظل استظلالا، وتظلل تظللا، وظلله تظليلا. قال صاحب العين: تقول ظل نهاره فلان صائماً، ولا تقول العرب: ظل إلا لكل عمل بالنهار، كما لا تقول: بات إلا بالليل، وربما جاءت ظل في أشعارهم نادرا، ومن العرب من يحذف لام ظللت، ونحوها فأما اهل الحجاز فيكسرون الظاء على كسر اللام التي ألقيت

فيقولون: ظللنا وظللتم. كما قال تعالى ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ والمصدر: الظلول. فالأمر فيه اظلل والظل ضد الضح ونقيضه، ويقال لسواد الليل، فيسمى ظلا، وجمعه ظلال. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً﴾ يعني الليل، والظل في كلام العرب هو الليل، وتقول اظلتني هذه الشجرة اظلالا.. والمكان الظليل: الدائم الظل، وقد دامت ظلاله، والظلة كهيئة الصفة، وقوله: ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ يقال هو عذاب يوم الصفة، والظلة البرطلة، والاظلال: الدنوّ يقول قد اظلك فلان اي كأنه القى عليك ظله من قربه، وتقول لا تجاوز ظل ظلك وملاعب ظله: طائر يسمى بذلك، والأظل: باطن منسم البعير وجمعه اظلال قال الشاعر: يشكو الوجى من اظلل واظلل.. يعني من أظل وأظل. فأظهر التضعيف بضرورة الشعر قال لبيد: بنكيب معر دامي الأظل.. أراد بخف نكيب: منكوب نكبته الحجارة. معر: ساقط الشعر أملس، والظل كون النهار تغلب عليه الشمس. قال رؤبة: كل موضع تكون فنزول عنه ظل وفيء يقالان جميعا، وما سوى ذلك يقال له ظل ولا يقال: فيه الفيء، والظل الظليل: الجنة قال الله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾، والظل: الخيال الذي يرى من الجن وغيره، والمظلة ايضا تتخذ من خشب وغيره يستظل بها والظل: المنعة والعز.. كذا ذكر ابن دريد يقال: فلان في ظل فلان اي في عزه وأصل الباب: التظليل.. وهو الستر والاظلال الدنو: كدنو الساتر، وحد التظليل الستر من علة.

٣٩. الغمام: السحاب والقطعة منها غمامة تقول: يوم غم، وليلة غمة وامر غام.. ورجل مغموم، ومغتم، ذو غم، وفلان في غمة من أمره: إذا لم يهتد له، والغماء: الشديدة من شدائد الدهر، ورجل أغم، وجبهة غماء: كثيرة الشعر تقول منه: غم يغم، وكذلك في القفا. قال الشاعر:

فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا   أغم القفا والوجه ليس بانزعا

والغميم: الغمس وهو ان يسحق حتى يغلط، والغم: ضد الفرح، والغمة: الغطاء على القلب من الغم، والغمة: الضيقة تقول: اللهم احسر عنا هذه الغمة أي الضيقة، وغم الهلال إذا غطاه الغيم، وكل شيء غطيته فقد غميته ولذلك سمي الرطب الغموم وهو الذي يوضع في جرة وهو بسر ثم يغطى حتى يرطب، والغمام اشتق من هذا، لأنه يغطى السماء، ورجل أغمم، وامرأة غماء إذا دنا قصاص الشعر من حاجبه حتى يغطى جبهته، وكذلك هو في القفا، وأصل الباب الغطاء.

٤٠. يوم الغمام الذي ظلل على بني إسرائيل:

أ. قال ابن عباس ومجاهد: لم يكن بالسحاب، ولكنه الذي عنى في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾، وهو الغمام الذي أتت فيه الملائكة يوم بدر، ولم يكن لغيرهم، قال ابن عباس كان معهم في التيه.

ب. وقيل: هو ما ابيض من السحاب.

٤١. اختلف في معنى المن:

أ. قيل: هو المن الذي يعرفه الناس يسقط على الشجر، قاله ابن عباس، وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم مثل الثلج.

ب. وقيل: هو عسل.

ج. وقيل: خبز مرقق.

د. وقيل: هو الزنجبيل.

هـ. وقيل: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار وطعمه كالشهد والعسل عن مجاهد.

و. وقيل: جملة المن ما من الله تعالى على عباده مما لا تعب فيه ولا نصب، قاله الزجاج.

ز. وقيل: هو الذي يسقط على الثمام.

٤٢. المنّ في اللغة: روي عن النبي ﷺ انه قال: الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، قال بعض اهل العلم: يعني بمائها الوسمي الذي يكون منها الكمأة، وهو أول مطر يجيء في الخريف حلوٌ كالعسل، وإياه عنى الأعشى في قوله:

لو أطعموا المن والسلوى ... ما ابصر الناس طعما فيهم نجعا

وجعله امية بن أبي الصلت في شعره عسلا، فقال:

ورأى الله انهم بمضيع ... لا بذي مزرع ولا معمورا

فنساها عليهم غاديات ... ومرى مزنهم خلايا وخورا

عسلا ناطفا وماء فراتا ... وحليباً ذا بهجة مثمورا

الناطف: القاطر والصافي من اللبن والمن قطع الخير قال الله تعالى لهم: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع، والمن: هو الإحسان الى من لا يستثنيه والاسم هو المنة، والله تعالى المنان علينا الرحيم والمنة: قوة

القلب. يقال ضعيف المنّة، ويقال ليست لقلبه منة والمنون: الموت، وهو اسم مؤنث. قال ابن دريد: منّ يمنّ منا: إذا اعتقد منه ومن عليه بيدٍ أسداها اليه إذا قرعه بها، واصل الباب: الإحسان. فالمن الذي كان يسقط على بني إسرائيل مما من الله عليهم أي أحسن به اليهم.

٤٣. اختلف في معنى السلوى: فقال ابن عباس: هو السماني.. وقيل: هو طائر كالسماني، واحده سلوى، قال الأخفش: لم اسمع له بواحد، قال: ويجوز ان يكون واحده سلوى مثل جماعته، كما قالوا دفلى للواحد والجماعة، وقال الخليل: واحده سلواة قال الشاعر: كما انتفض السلواة بلله القطر، ويقال سلا فلان يسلو عن فلان: إذا تسلى عنه، وفلان في سلوة من العيش إذا كان في رغد يسليه الهم، والسلوان: ماء من شربه ذهب غمه على ما يقال ويقال هذا مثل يضرب لمن سلا عن شيء يقال سقي سلوة وسلوانا، وقال ابن دريد: سلا يسلو سلوا، وسلوا وسلوة والسلوانة: خرزة زعموا انهم إذا صبوا عليها الماء، فسقي منها الرجل، سلا واصل الباب السلو، وهو زوال الهم.

٤٤. كان سبب انزال المن والسلوى عليهم انه لما ابتلاهم الله تعالى بالتيه، حين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فأمرهم بالمسير الى بيت المقدس، فلما ساروا تاهوا في قدر خمس فراسخ أو الستة، فلما أصبحوا ساروا عادين فامسوا، فإذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه فلم يزالوا كذلك، حتى تمت أربعين سنة، تفضل عليهم في تلك الحال، واحسن اليهم، وانزل عليهم المن والسلوى.. وكانت ريح الجنوب تحشره عليهم قال ابن جريج: كان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى زيادة على طعام يوم واحد، فسد إلا يوم الجمعة فإنهم إذا أخذوا طعام يومين لم يفسد.

٤٥. قيل في معنى ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ قولان:

أ. أحدهما ـ انه المشتهى اللذيذ.

ب. الثاني ـ انه المباح الحلال الذي يستلذ أكله.

٤٦. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: انما يتصل بما قبله بتقدير محذوف، فكأنه قال: فخالفوا ما امر الله به أو كفروا هذه النعمة، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾

أ. قيل: وما نقصونا، ولكن كانوا أنفسهم ينقصون، قاله ابن عباس.

ب. وقيل: معناه وما ضرونا، ولكن كانوا أنفسهم يضرون.

٤٧. اختلف في حقيقة الظلم:

أ. قال ابو علي: الظلم الذي لا يستحقه المضرور ممن قصده وليس للمضرور فيه نفع.

ب. قال الرماني: حقيقة الضرر القبيح.

٤٨. الصحيح في حقيقة الظلم هو الضرر الذي لا نفع فيه يوفي عليه، ولا دفع ضرر أعظم منه عاجلا وآجلا ولا يكون واقعاً على وجه المدافعة:

أ. اما ما قاله الرماني فهو حد الشيء نفسه، لأن السؤال باق ولقائل ان يقول: وما الضرر إلا القبيح، لأن كونه قبيحا حكم من أحكامه فلا بد من بيان ذلك حينئذ.

ب. وما ذكره ابو علي ينتقض بالألم الواقع على وجه المدافعة وبالألم الذي فيه وجه ضرر أعظم منه عن الضرورة، وبالضرر الذي فيه نفع يوازيه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الإيتاء: الإعطاء، آتينا: أعطينا.

ب. الكتاب: بمعنى المكتوب، كالحساب بمعنى المحسوب.

ج. الفرقان، أصله من الفرق، وهو التفريق بين الشيئين.

د. الاهتداء: الأخذ في طريق الاهتداء، والهدى: الدلالة والبيان.

هـ. البَرْءُ مهموز هو الخلق، يقال: بَرَأَ اللهّ الخلق أي خلقهم، وهو البارئ أي الخالق.

و. القتل: نقيض البنية التي معها يصح أن يحيا بضرب أو جراح ونحوه.

ز. الخير نقيض الشر.

ح. الرحيم فعيل من الرحمة، والرحمة من اللهّ تعالى النعمة.

ط. الإيمان: التصديق، ومنه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ .

ي. الرؤية: الإدراك بالبصر، ثم يستعمل بمعنى العلم، ومنه رأى بقلبه، تشبيهًا، ومنه المرآة لأنه

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/٣٨٥.

يُرَى بها.

ك. الجهر والعلانية بمعنى يقال: جهر فلان بكلامه، وجهر بقراءته إذا أعلن، وضده السر، فأصله الظهور، وحد الجهر ظهور الشيء للمعاينة.

ل. الصاعقة: أصلها نار تنزل من السماء تحرق ما تأتي عليه، ثم يستعمل في كل عذاب.

م. النظر: تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته مع سلامة الحاسة، ثم يستعمل في الفكر توسعًا.

ن. البعث: الإرسال، وأصله إثارة الشيء عن موضعه، يقال: بعثت البعير، إذا أرسلته وحللت عقاله، وبعث اللهَّ مَنْ في القبور إذا أحياهم وأرسلهم.

س. الظُّلَة والسُّتْرَة بمعنى، يقال: ظلله تظليلاً، والظِّل بكسر الظاء معروف، ويقال: لسواد الليل: ظل، ومنه: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ومكان ظليل دائم الظل، وأصله السترة.

ع. الغمام: السحاب، والقطعة منها غمامة، وقيل: هو ما ابيض من السحاب، وأصله: الغطاء: ومنه أغم الرأس.

ف. المن: الإحسان، والمن القطع، ومنه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

ص. المن: الذي كان يسقط على بني إسرائيل سمي مَنًّا؛ لأنه إحسان من اللهَّ إليهم.

ق. السلوى: طير أبيض مثل السُّمَّانى، وأصل السلو: ذهاب الغم، يقال: سلا يسلو سلوًا، وسمي السلوى بذلك كأنه يزيل الهم، قال الأخفش: واحده سلوى، كقولك: دفلى للواحد والجمع، وقال الخليل: سَلْوَاةٌ، وقيل: لا واحد له.

ر. الظلم: ضرر ليس فيه نفع، ولا دفع ضرر أعظم منه، وليس بِمُسْتَحَقٍّ عن أبي علي. وقيل: هو الضرر القبيح، عن علي بن عيسى.

٢. ذكر تعالى نعمة أخرى فقال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا﴾ يعني اذكروا إذ أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة.

٣. اختلف في ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ ي

أ. قيل: المراد به الكتاب، عن الفراء والزجاج، وصفه بصفتين كقوله: بعدًا وسحقًا، قال وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا.. وتقول: هو الرجل الكريم، قال الشاعر:

إِلَى المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ   وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمْ

ب. وقيل: وصفه بصفتين مختلفتين في المعنى، فالكتاب المكتوب، والفرقان يفرق به بين الحق والباطل، تقول: هو الرجل الكريم العادل، عن ابن عباس وأبي مسلم، قال الكسائي: كأنه وصف الكتاب بالفرقان، وتكون الواو صلة.

ج. وقيل: الكتاب: التوراة، والفرقان: الأدلة التي تفرق بين الحق والباطل سوى ما في التوراة.

د. وقيل: الفرقان النصر على أعدائه.

هـ. وقيل: انفراق البحر لبني إسرائيل.

و. وقيل: ما أوتي موسى من المعجزات الباهرة.

ز. وقيل: يغلب الفرقان على القرآن، وتقديره: وإذ آتينا موسى التوراة، ومحمدًا الفرقان، وهذا بعيد؛ لأنه لم يجر له ذكر، ولأنه تعالى أخبر أنه آتى موسى الفرقان وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾

٤. اختلف في معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

أ. قيل: لكي تهتدوا.

ب. وقيل: عرضناكم للاهتداء.

٥. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ خطاب:

أ. قيل: لبني إسرائيل، الَّذِينَ كانوا أيام موسى، وتقديره: وقلنا لهم: لعلكم تهتدون.

ب. وقيل: هو خطاب لمن كان في عصر رسول الله ﷺ تقديره: لكي تهتدوا للإيمان لما دعوتكم إليه.

٦. يقع به الاهتداء، وقد انقطع نقله:

أ. قيل: لأنه خطاب لأسلافهم.

ب. وقيل: أن النبي ﷺ يخبرهم بذلك فيمكنهم أن يستدلوا ويعرفوا.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه تعالى أراد من الجميع الاهتداء، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا فيبطل قول المُجْبِرَةِ

في المخلوق والإرادة.

ب. أنه تعالى أنزل الكتاب، والغرض هداية الخلق به.

٨. لما تقدم ما أتاه بنو إسرائيل من عبادة العجل بَيَّنَ توبتهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ يعني اذكر إذ قال ﴿مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الَّذِينَ عبدوا العجل عند رجوعه إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ معبودًا ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي ارجعوا بالندم والاستغفار إلى خالقكم.

٩. اختلف في معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. قيل: ليقتل بعضكم بعضًا، تقول العرب: قتل آل فلان رأي بعضهم، ومنه قوله: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير.

ب. وقيل: استسلموا للقتل، فجعل استسلامهم للقتل قتلاً منهم لأنفسهم على التوسع في اللغة، عن أبي علي.

١٠. اختلف في المأمور بالقتل والقاتل:

أ. قيل: من لم يعبد العجل أمره بقتل من عبد العجل.

ب. وقيل: السبعون الَّذِينَ اختارهم موسى للميقات أمروا بقتل من سأل الرؤية من بني إسرائيل، عن ابن عباس وأبي علي.

ج. وقيل: السبعون الَّذِينَ لم يعبدوا العجل.

د. وقيل: سبعون ألفا، عن الأصم.

١١. اختلف في كيف كان قتلهم لأنفسهم:

أ. قيل: قتل بعضهم بعضًا بأن عمدوا إلى الخناجر، فجعل بعضهم يطعن بعضًا، عن ابن عباس وجماعة.

ب. وقيل: غشيتهم ظلمة فجعل بعضهم يقتل بعضًا ثم انجلت الظلمة عن سبعين ألف قتيل.

١٢. اختلف في سبب أمرهم بالقتل:

أ. قيل: لأن جماعة منهم ممن لم يعبدوا العجل لم يَنْهَ مخافة القتل، فأمروا بالقتل، عن ابن جريج.

ب. وقيل: كان القتل لطفًا للقاتل، وتوبة للمقتول، كما يكون في استسلام القاتل للقصاص.

١٣. سؤال وإشكال: هَٰؤُلَاءِ كانوا مرتدين، والمرتد إذا تاب لم يقتل؟ والجواب:

أ. لم يكن القتل عقوبة للردة حتى تسقط بالإسلام، وإنما كان شرطًا في قبول توبتهم، كما أن السارق من شرط قبول توبته رد المال، ولهذا قيل: إنه كان شهادة لهم.

ب. وأيضًا فإن هذا مما يختلف بالشرائع فيجوز أن يكون في شريعة موسى أن يقتل المرتد بعد التوبة كما في شريعتنا إقامة الحدود بعد التوبة.

١٤. سؤال وإشكال: من لم يقتل منهم، هل قبلت توبته؟ والجواب: نعم وخص القتل في حقه، وروي أن موسى وهارون وقفا يدعوان الله ويتضرعان وهم يقتلون بعضهم بعضًا حتى نزل الوحي برفع القتل، وقبلت توبة من بقي، وقد قُتِلَ منهم سبعون ألفًا، ومنهم من يقتل أباه وابنه وأخاه.

١٥. ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى التوبة والقتل؛ لأن قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ يدل على التوبة، يعني التوبة والقتل، وإنْ كان فيه مشقة عظيمة ﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم.

١٦. اختلف لم كرر ذكر ﴿بَارِئِكُمْ﴾:

أ. قيل: تعظيمًا لما أتوا به مع كونه خالقًا لهم.

ب. وقيل: الأول الدعاء إلى التوبة، والثاني: لوعدهم لما أعد لهم من الخير

١٧. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، وفيه محذوف تقديره: ففعلتم فتاب عليكم، يعني قبل توبتكم.

١٨. اختلف في معنى ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾:

أ. قيل: القابل للتوبة مرة بعد مرة.

ب. وقيل: قابل التوبة عن الذنوب العظام ﴿الرَّحِيمُ﴾ يرحمكم إذا تبتم، بأن يدخلكم الجنة.

١٩. حذفت الياء من ﴿يَا قَوْمِ﴾ وأثبتت في ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ لأن ياء الإضافة تحذف في النداء؛ لأنه موضع حذف يحذف فيه التنوين، ويحذف الاسم للترخيم، فلما كانت ياء الإضافة قد تحذف في غير النداء لزم حذفها في النداء، وأما في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي﴾ ياء الإضافة لم يدركها ما يوجب حذفها كما في الإضافة في النداء، ويجوز فيه ثلاثة أوجه: يا قوم بحذف الياء، وهو إجماع القراء، ويا قومي: بإثبات الياء، ويا قوميَ بفتح الياء.

٢٠. تدل الآية الكريمة:

أ. على تشديد التكليف على بني إسرائيل لما عبدوا العجل بأن أمروا بقتلهم، وقد استدلّ بعضهم بالآية على أنه يجوز أن يؤمر المكلف بقتل نفسه، وهو غلط؛ لأن قتل المكلف نفسه لا صفة له يجب لأجله، فمتى وجب إنما وجب لكونه لطفًا، ولا لطف له بعد الموت، ولا يجوز أن يكلف المشاق للطف غيره، كما لا يكلف دفع الضرر عن غيره؛ لأن ذلك ليس بوجه وجوب، ولا يجوز كونه لطفًا فيما يقارنه لأن بوقوعه تنتفي الحياة، ولا يصح أن يجامعها طاعة، ولأن من حق اللطف أن يتقدم الملطوف فيه.. وعلى معنى هذا وجب أن يجوز أن يأمر بقطع يده أو رجله لطفًا له.

ب. على أن للعبد فعلاً؛ لأنه أضاف عبادة العجل إليهم، وأمرهم بالتوبة وعاقبهم عليها، وكل ذلك لا يصح إلا بعد إثبات الفعل للعبد.

ج. على أن التوبة قد يشترط فيه سوى الندم ما لا تصح التوبة إلا به كما أمروا بالقتل.

د. على أن العبد يكون ظالمًا متى عصى الله وخالف أمره.

٢١. ذكر تعالى خصلة من خصال أسلافهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ أي اذكروا إذ قلتم، أي قال أسلافكم، وَمَنْ أنتم على طريقتهم: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾:

أ. قيل: يعني لا نصدقك فيما تصف الله به من الصفات حتى نراه جهرة: معاينة.

ب. وقيل: لا نصدقك في نبوتك، عن الأصم، ﴿حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾ قيل: نراه معاينة.

ج. وقيل: قلتم جهرة لن نؤمن لك حتى نرى الله، فعلى الأول الجهرة من صفة الرؤية، وعلى الثاني من صفة المقالة.

٢٢. قُرِعُوا بسؤال أسلافهم الرؤية:

أ. قيل: لأنهم رضوا بفعلهم وسلكوا طريقتهم في مخالفة من لزمهم اتباعه.

ب. وقيل: فيه ذم لهم وتسلية للنبي ﷺ في أنهم بمخالفتهم إياه كأسلافهم بمخالفتهم موسى، وسؤالهم هذه المحالات.

٢٣. سؤال وإشكال: هذا سؤال السفهاء، والَّذِينَ حضروا الطور مع موسى عدول بني إسرائيل، فكيف جعل الخطاب خطابًا واحدًا؟ والجواب: هذا خطاب لليهود الَّذِينَ كانوا في زمن نبينا ﷺ، وكان هذا القول وُجِد من بعض أسلافهم، ولم يفصل القديم سبحانه، وإنما أجمل ذلك وبين ما وجد في أسلافهم

من الجرائم.

٢٤. قالوا: جهرة، والرؤية لا تكون إلا جهرة:

أ. قيل: قد تكون كرؤية القلب، والرؤية في النوم.

ب. وقيل: علانية، عن ابن عباس.

ج. وقيل: عيانًا، عن قتادة.

٢٥. هذا السؤال كفر بالإجماع؛ لأنه ردٌّ على الرسول، فأما إجازة الرؤية على جهة التشبيه فكفر، وإجازتها من غير تشبيه:

أ. قيل: ليس بكفر، عن أبي علي وأبي هاشم.

ب. وقيل: كفر، عن أبي القاسم.

٢٦. اختلف في معنى ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾:

أ. قيل: الموت.

ب. وقيل: العذاب.

٢٧. الصاعقة: تستعمل على ثلاثة أوجه:

أ. الموت كقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾

ب. العذاب، كقوله: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾

ج. نار تسقط من السماء، كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ .

٢٨. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يعني تعاينونه وترونه.

٢٩. البعث: الإرسال، وأصله إثارة الشيء عن موضعه، يقال: بعثت البعير، إذا أرسلته وحللت عقاله، وبعث الله مَنْ في القبور إذا أحياهم وأرسلهم.

٣٠. ثم ذكر تعالى نعمة أخرى فقال: ﴿ثُمَّ﴾ يعني بعد أن أخذتهم الصاعقة وماتوا ﴿بَعَثْنَاكُمْ﴾:

أ. قيل: أي أحييناكم، عن الحسن وقتادة وجماعة، وهو أوجه؛ لأن ظاهر الكلام يدل عليه، ولأنه ذكره عقيب الموت.

ب. وقيل: بعثناكم أنبياء، عن السدي.

٣١. اختلف في ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

أ. قيل: أي لكي تشكروا الله على نعمه.

ب. وقيل: إنه تعالى أحياهم بدعاء موسى، وذلك أنه تعالى لما أماتهم قعد موسى يبكي ويدعو، ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكتهم؟، وهم خيار بني إسرائيل، فأحياهم الله رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحييه، حتى أحياهم كلهم.

٣٢. سؤال وإشكال: كيف كلفهم بعد ما اضطروا إلى المعرفة بما عاينوا من أحكام الآخرة؟ والجواب: لم يضطروا، ولم يعاينوا، فكان موتهم بمنزلة النوم والإغماء.

٣٣. اختلف في الَّذِينَ سألوا الرؤية:

أ. قيل: هَؤُلَاءِ صعدوا الجبل يعتذرون لبني إسرائيل في عبادة العجل فلما سمعوا كلام الله طلبوا رؤيته، فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثوا.

ب. وقيل: سأل غيرهم.

٣٤. تدل الآية الكريمة:

أ. على أن القوم كانوا شاكين في معرفة الله وصفاته، إذ طلبوا منه مرة أن يجعل لهم إلهًا، ومرة أن يروه جهرة.

ب. على أن موسى عليه السلام سأل الرؤية عن قومه لا عن نفسه، فلذلك أضاف إليهم، وأنزل العقوبة بهم.

ج. على أن الرؤية لا تجوز عليه لذلك أنزل عليهم الصاعقة.

د. على أن الصاعقة نزلت، ولم يضطروا إلى المعرفة، وإلا كان لا يحسن إعادتهم وتكليفهم.

هـ. على أن قول الأمة للرسول بعد إقامة الحجة: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ كفر؛ لأنه رد عليه.

و. على فساد قول المُجْبِرَةِ في الإرادة في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والمعنى لكي تشكروا، ولو أراد كفرهم لقال: لتكفروا، عن أبي علي.

٣٥. سؤال وإشكال: هل سألوا الرؤية مع الكيفية؟ والجواب: الله تعالى أنكر عليهم مجرد سؤال الرؤية، ولم يعتبر الزيادة التي أوردها.

٣٦. سؤال وإشكال: كيف كان سؤالهم حتى عظم هذا التعظيم، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾؟ والجواب:

أ. قيل: أن المدرك بحاسة البصر إنما يدرك لكونه على صفة في نفسه لأجلها يدرك كالجسم واللون، فجواز الرؤية يقتضي التشبيه.

ب. وقيل: لأنهم قرنوا الرؤية بالتشبيه، وهو قولهم: ﴿جَهْرَةً﴾ .

٣٧. سؤال وإشكال: كيف كان جواب القوم الصاعقة؟ والجواب: لما عظم سؤالهم عاقبهم حتى يحسم مادة السؤال منهم ومن غيرهم.

٣٨. سؤال وإشكال: هل تدل الآية على جواز الرجعة؟ والجواب: لا، وهذا كان معجزة لنبي، ولأنه ليس في إعادة بعض الأحياء دليل على إعادة الكل، وقد قام الدليل أن الناس لا يردون إلى دار الدنيا، وأجمعت الأمة عليه.

٣٩. سؤال وإشكال: هل قطع آجالهم بالإحراق؟ والجواب: لا، بل انتهى أجلهم؛ لأن الأجل هو الوقت المضروب للشيء وكان أجل إحراقهم ذلك الوقت، فلما أحياهم كان هذا أجلاً ثانيًا، كما لو أحياهم في الآخرة.

٤٠. لما تقدم ذكر النعم ذَكَّرَهُمْ في هذه الآية نِعَمَهُ عليهم بالغمام الذي وقاهم الحر، وما أنزل من المن والسلوى في التيه، وذلك من أعظم النعم.. وذكرهم أنهم مع عصيانهم لم يخلهم من نعمه، كما فعل بهم في التيه.

٤١. سبب التيه هو أنهم أمروا بالمشي إلى بيت المقدس، وحرب العمالقة بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ فخالفوا، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾، فوقعوا في التيه، وكان التيه قيل: في خمسة فراسخ، أو ستة.. وقيل: اثنا عشر، وبقوا فيها أربعين سنة، وفي التيه هلك موسى وهارون، وانقرض القوم، ثم خرج يوشع بن نون بالناس.

٤٢. لما حصلوا في التيه شكَوْا حر الشمس فظللهم الله بالغمام:

أ. قيل: كان غمامًا أبيض.

ب. وقيل: هو السحاب الذي أتت الملائكة فيه يوم بدر، كان معهم في التيه، عن ابن عباس

ومجاهد.

٤٣. ثم سألوا موسى الطعام، فأنزل الله تعالى عليهم المن والسلوى، قيل: كان يسقط عليهم المن من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فكانوا يأخذون منها ما يكفيهم ليوم إلا يوم الجمعة، فإنهم يأخذون ما يكفيهم ليوم الجمعة والسبت؛ لأنه لم يكن يسقط عليهم المن والسلوى يوم السبت.

٤٤. أنزل عليهم المن، قيل: خلقه على الشجر.. وقيل: أمطر عليهم، وكانوا إذا احتاجوا إلى الماء أخرج من حجر كان معهم اثنتي عشرة عينًا على ما قص الله تعالى.

٤٥. الظلم: ضرر ليس فيه نفع، ولا دفع ضرر أعظم منه، وليس بِمُسْتَحَقٍّ عن أبي علي.. وقيل: هو الضرر القبيح، عن علي بن عيسى.

٤٦. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلنا لكم الغمام ظلة وسترة، تقيكم حر الشمس:

أ. قيل: في التيه، عن أبي علي وجماعة من المفسرين.

ب. وقيل: لما خرجوا من مصر إلى بيت المقدس، عن الأصم.

٤٧. روي أنهم لما حصلوا في التيه شكوا إلى موسى حر الشمس، فأنزل الله عليهم غمامًا أبيض رقيقًا، ليس بغمام المطر، أبلق وأبيض وأبرد، فأظلهم، فقالوا: هذا الظل قد حصل، فأين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾

أ. قيل: شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار، وطعمه كالشهد عن مجاهد.

ب. وقيل: هو الطرنجبين عن الضحاك.

ج. وقيل: الخبز الرقاق، عن وهب.

د. وقيل: عسل يقع على الأشجار من الليل، عن السدي.

هـ. وقيل: شيء مثل الرُّبُّ الغليظ، عن عكرمة.

و. وقيل: هو ما منَّ الله عليهم به حالاً بعد حال، مما لا تعب فيه، ولا نصب، عن الزجاج.

ز. وقيل: هو الزنجبيل.

ح. وقيل: كان مثل الثلج، عن قتادة.

٤٨. ﴿وَالسَّلْوَى﴾:

أ. قيل: طائر يشبه السماني، عن ابن عباس وأكثر المفسرين.

ب. وقيل: طير حمر، عن مقاتل.

٤٩. أرسل الطير عليهم كل يوم:

أ. قيل: كان يحشرها إليهم.

ب. وقيل: قوى دواعيهم بحضور تلك البقعة كما يقوي دواعي الصغير في شيء.

ج. وقيل: كانت سحابة تمطر عليهم بعضهم فوق بعض، عن أبي العالية ومقاتل.

د. وقيل: كان يحشرها عليهم الجنوب

٥٠. ﴿كُلُوا﴾ يعني قلنا لهم: كلوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ﴾:

أ. قيل: الشهي اللذيذ.

ب. وقيل: المباح الحلال.

ج. وقيل: المباح الذي يستلذ أكله، عن أبي علي.

٥١. ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي أعطيناكم، وجعلنا ذلك رزقًا لكم.

٥٢. يتصل قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾:

أ. قيل: على تقدير أنهم خالفوا ما أمروا وما ظلمونا، ولكن أنفسهم ظلموا.

ب. وقيل: تقديره: فكفروا بهذه النعم، وما ظلمونا بل ظلموا أنفسهم.

ج. وقيل: قلنا لهم كلوا ولا تدخروا، فعصوا وادخروا وما ظلمونا.

٥٣. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي ما لحقنا ضرر بعصيانهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ استحقوا العذاب، وحرموا الثواب.

٥٤. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أنه تعالى أراد من الجميع الاهتداء، وقوله: (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) لكي تهتدوا فيبطل قول الْمُجْبِرَةِ في المخلوق والإرادة.

ب. أنه تعالى أنزل الكتاب، والغرض هداية الخلق به.

ج. تشديد التكليف على بني إسرائيل لما عبدوا العجل بأن أمروا بقتلهم، وقد استدلّ بعضهم

بالآية على أنه يجوز أن يؤمر المكلف بقتل نفسه، وهو غلط؛ لأن قتل المكلف نفسه لا صفة له يجب لأجله، فمتى وجب إنما وجب لكونه لطفًا، ولا لطف له بعد الموت، ولا يجوز أن يكلف المشاق للطف غيره، كما لا يكلف دفع الضرر عن غيره؛ لأن ذلك ليس بوجه وجوب، ولا يجوز كونه لطفًا فيما يقارنه لوجهين: أحدهما: أن بوقوعه تنتفي الحياة، ولا يصح أن يجامعها طاعة، ولأن من حق اللطف أن يتقدم الملطوف فيه، وقد بينا معنى الآية.

د. أن للعبد فعلاً؛ لأنه أضاف عبادة العجل إليهم، وأمرهم بالتوبة وعاقبهم عليها، وكل ذلك لا يصح إلا بعد إثبات الفعل للعبد.

هـ. أن التوبة قد يشترط فيه سوى الندم ما لا تصح التوبة إلا به كما أمروا بالقتل.

و. أن العبد يكون ظالمًا متى عصى اللهَّ وخالف أمره.

ز. أن القوم كانوا شاكين في معرفة اللهَّ وصفاته، إذ طلبوا منه مرة أن يجعل لهم إلهًا، ومرة أن يروه جهرة.

ح. أن موسى سأل الرؤية عن قومه لا عن نفسه، فلذلك أضاف إليهم، وأنزل العقوبة بهم.

ط. أن الرؤية لا تجوز عليه لذلك أنزل عليهم الصاعقة.

ي. أن الصاعقة نزلت، ولم يضطروا إلى المعرفة، وإلا كان لا يحسن إعادتهم وتكليفهم.

ك. أن قول الأمة للرسول بعد إقامة الحجة: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ كفر؛ لأنه رد عليه.

ل. فساد قول الْمُجْبِرَةِ في الإرادة في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والمعنى لكي تشكروا، ولو أراد كفرهم لقال: لتكفروا، عن أبي علي.

م. فساد قول الْمُجْبِرَةِ حيث أضاف ظلمهم إليهم.

ن. أن الانتفاع بالطيب الحلال أولى من التضييق على النفس.

س. أن الغمامة والمن والسلوى كان معجزة لموسى، ونعمة على بني إسرائيل.

ع. أنه تعالى لا يخلي عباده من نعمه وإن خالفوا أمره، كما فعل بهم في التيه، وكما ينعم على الكافر، وكما يجب على الإمام نفقة المحبوس من بيت المال، وكان أمير المؤمنين يتفقد قاتله عبد الرحمن بن ملجم -لعنه اللهَّ-.

٥٥. مسائل نحوية:

أ. ليس في ﴿إِذِ﴾ معنى الجزاء، كما في (إذا)؛ لأن (إذ) لما مضى، و(إذا) لما يستقبل، والجزاء لا يكون بالماضي؛ ولذلك قالوا: معنى إن قمت قمت، إن تقم أقم.

ب. حذفت الياء من ﴿يَا قَوْمِ﴾ وأثبتت في ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ لأن ياء الإضافة تحذف في النداء؛ لأنه موضع حذف يحذف فيه التنوين، ويحذف الاسم للترخيم، فلما كانت ياء الإضافة قد تحذف في غير النداء لزم حذفها في النداء، وأما في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي﴾ ياء الإضافة لم يدركها ما يوجب حذفها كما في الإضافة في النداء، ويجوز فيه ثلاثة أوجه: يا قوم بحذف الياء، وهو إجماع القراء، ويا قومي: بإثبات الياء، ويا قومي بفتح الياء.

ج. وزن يرى: يفعل؛ لأن أصله يَرْأى، قال الشاعر، وجاء به على الأصل:

أُرِي عَيْنَيَّ مَا لَمْ تَرْأَيَاهُ ... كِلاَنا عَالِمٍ بِالتُّرَّهَاتِ

د. جهرة: نصب على الحال.

هـ. ﴿كُلُوا﴾: نصب بمحذوف كأنه قيل: وقلنا لهم كلوا، وموضع السلوى نصب؛ لأنه عطف على المن.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الفرقان: مصدر فرقت بين الشيئين أفرق فرقا وفرقانا، ويسمى كل فارق فرقانا كما سمي كتاب الله فرقانا لفصله بين الحق والباطل، وسمى الله تعالى يوم بدر الفرقان، لأنه فرق في ذلك اليوم بين الحق والباطل وقال ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَّ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: يفرق بينكم وبين ذنوبكم.

ب. البارئ: هو الخالق الصانع، وبرأ الله الخلق يبرؤهم برءا أي: خلقهم، قال أمية بن أبي الصلت:

الخالق البارئ المصور في ال ... ـأرحام ماء حتى يصير دما

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٣٥.

ج. والفرق بين البارئ والخالق: إن البارئ هو المبدئ المحدث، والخالق: هو المقدر الناقل من حال إلى حال، وبرئ من المرض يبرأ برءا فهو بارئ، والبراءة من العيب والمكروه لا يقال منه الا برئ بالكسر، وفاعله برئ، ورجل براء بمعناه، وامرأة براء، ونسوة براء، وأما قوله: أنا براء، فهو جمع برئ، وأصل الباب: انفصال الشيء من الشيء، ومنه برأ الله الخلق أي: فطرهم كأنهم انفصلوا من العدم إلى الوجود، والبرية: فعيلة بمعنى مفعول، ولا تهمز كما لا يهمز ملك، وإن كان أصله الهمزة، وقيل: البرية مشتقة من البري: وهو التراب، فلذلك لم يهمز، وقيل: مأخوذة من بريت العود فلذلك لم يهمز.

د. القتل والذبح والموت نظائر، والفرق بينها: إن القتل نقض بنية الحياة، والذبح فري الأوداج، والموت عند من أثبته عرض يضاد الحياة، والقتل: العدو، وجمعه أقتال، والقتال: النفس، وناقة ذات قتال: إذا كانت وثيقة، وقتلت الشيء علما: إذا أيقنته وتحققته، وفي المثل: (قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضا عالمها) وتقتلت الجارية للفتى حتى عشقها كأنها خضعت له قال: تقتلت لي حتى إذا ما قتلتني... تنسكت ما هذا بفعل النواسك.

هـ. لن نؤمن لك: أي لن نصدقك، يقال: آمن به وآمن له بدلالة قوله تعالى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ وفي موضع آخر: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ .

و. الرؤية: الإدراك بالبصر، ثم يستعمل بمعنى العلم، يقال رأى ببصره رؤية، ورأى من الرأي رأيا، ورأيت رؤيا حسنة، والرواء: المنظر في البهاء والجمال، والمرآة: التي ينظر فيها، وجمعها المرائي، وتراءيت بالمرآة: إذا نظرت فيها، وجاء في الحديث: (لا يتراءى أحدكم بالماء أي: لا ينظر فيه، وتراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا، وتراءى فلان لفلان: إذا تصدى له ليراه، ويحذفون الهمزة من رأيت في كل كلمة تكون راؤها ساكنة، تقول رأيت أرى، والأصل أرأى، وأريته فلانا أريه فأنا مري وهو مري والأصل أرأيته أرإيه، وأثبتوها في موضعين: مرئي وأرأت الناقة والشاة: إذا عرف في لون ضرعها أنها قد أقربت، والرأي: حسن الشارة والهيئة، قال جرير:

وكل قوم لهم رأي، ومختبر ... وليس في تغلب رأي، ولا خبر

ز. الجهر والعلامة والمعاينة نظائر، يقال: جهر بكلامه وبقراءته جهرا: إذا أعلن، ورجل جهير: ذو رواء، وكلام جهير، وصوت جهير أي: عال، والفعل منه جهر جهارة، وجهرني الرجل: أي راعني جماله،

وضد الجهر السر، وأصل الباب الظهور، وحقيقة الجهر: ظهور الشيء معاينة، والفرق بين الجهر والمعاينة: إن المعاينة ترجع إلى حال المدرك، والجهرة ترجع إلى حال المدرك، وقد تكون الرؤية غير جهرة كالرؤية في النوم، والرؤية بالقلب، فإذا قال جهرة لم يكن إلا رؤية العين على التحقيق دون التخييل.

ح. الصاعقة على ثلاثة أوجه:

- أحدها نار تسقط من السماء كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾
- الثاني: الموت في قوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وقوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾
- الثالث العذاب في قوله: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .

ط. البعث: إثارة الشيء من محله، ومنه يقال: بعث فلان راحلته إذا أثارها من مبركها للسير، وبعثت فلانا لحاجتي: إذا أقمته من مكانه الذي هو فيه للتوجيه إليها، ومنه يقال ليوم القيامة: يوم البعث، لأنه يوم يثار الناس فيه من قبورهم لموقف الحساب، وبعثته من نومه فانبعث أي: نبهته فانتبه، والبعث: الجند يبعثون إلى وجه، أو في أمر، وأصل البعث: الإرسال.

ي. الظلة والغمامة والسترة نظائر، يقال: ظللت تظليلا، والظل: ضد الضح، ونقيضه وظل الشجرة: سترها، ولا أزال الله عنا ظل فلان أي: ستره، ويقال لسواد الليل: ظل، لأنه يستر الأشياء، قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾

ك. الغمام: السحاب، والقطعة منها غمامة، وإنما سمي غماما لأنه يغم السماء أي: يسترها، وكل ما يستر شيئا فقد غمه، وقيل: هو ما ابيض من السحاب، والغمة: الغطاء على القلب من الغم، وفلان في غمة من أمره: إذا لم يهتد له.

ل. المن: الإحسان إلى من لا يستثيبه، والاسم المنة، والله تعالى هو المنان علينا، والرحيم بنا، والمن: قطع الخير، ومنه قوله ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، والمنة: قوة القلب، وفلان ضعيف المنة، واصل الباب: الاحسان، فالمن الذي كان يسقط على بني إسرائيل، هو مما من الله به عليهم أي: أحسن به إليهم.

م. السلوى: طائر كالسماني، قال الأخفش: هو للواحد والجمع كقولهم دفلى، وقال الخليل: واحده سلواة قال: (كما انتفض السلواة من بلل القطر، قال الزجاج: غلط خالد بن زهير في قوله:

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ألذ من السلوى إذا ما نشورها

فظن أن السلوى العسل، وإنما هو طائر.

قال أبو علي الفارسي: وقرئ على الزجاج في مصنف أبي عبيد أنه العسل، قال: والذي عندي فيه أن السلوى كأنه ما يسلي عن غيره لفضيلة فيه من فرط طيبه، أو قلة معاناة وعلاج في اقتنائه، فالعسل لا يمتنع أن يسمى سلوى لجمعه الأمرين كما سمي الطائر الذي كان يسقط مع المن به، ويقال: سلا فلان عن فلان يسلو سلوا: إذا تسلى عنه، وفلان في سلوة من العيش: إذا كان في رغد يسليه الهم، والسلوان: ماء من شربه ذهب همه فيما زعموا، قال: (لو أشرب السلوان ما سليت)

٢. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ آتَيْنا﴾ أي أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة.

٣. اختلف في معنى ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾:

أ. أحدها، وهو قول ابن عباس إن المراد به التوراة أيضا، وإنما عطفه عليه لاختلاف اللفظين كقول عنترة: أقوى وأقفر بعد أم الهيثم)، وقال عدي بن زيد:

وقددت الأديم لراهشيه وألفى　　　　قولها كذبا ومينا

والمين الكذب.

ب. ثانيها، أن الكتاب عبارة عن التوراة، والفرقان انفراق البحر الذي أتاه موسى عليه السلام.

ج. ثالثها، أن المراد بالفرقان بين الحلال والحرام، والفرق بين موسى وأصحابه المؤمنين وبين فرعون وأصحابه الكافرين بأشياء كثيرة منها أنه نجى هؤلاء وأغرق هؤلاء.

د. رابعها، أن المراد بالفرقان القرآن، ويكون تقديره: وآتينا موسى التوراة وآتينا محمدا الفرقان) فحذف ما حذف لدلالة ما أبقاه عليه كما حذف الشاعر في قوله:

تراه كان الله يجدع أنفه　　　　وعينيه إن مولاه كان له وفر

يريد ويفقأ عينيه لأن الجدع لا يكون للعينين واكتفي بيجدع عن يفقأ، وقال آخر:

يا ليت بعلك قد غدا　　　　متقلدا سيفا ورمحا

أراد وحاملا رمحا، وهو قول الفراء وقطرب وثعلب، وضعف قوم هذا الوجه لأن فيه حمل القرآن على المجاز من غير ضرورة مع أنه تعالى أخبر أنه آتى موسى الفرقان في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾

٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بها في التوراة من البشارة بمحمد ﷺ وبيان صفته.

٥. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ﴾ الذين عبدوا العجل عند رجوعه إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي أضررتم بأنفسكم ووضعتم العبادة غير موضعها ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ معبودا وظلمهم إياها فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه مما يستحق به العقاب وكذلك كل من فعل فعلا يستحق به العقاب فهو ظالم لنفسه.

٦. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي ارجعوا إلى خالقكم ومنشئكم بالطاعة والتوحيد وجعل توبتهم الندم مع العزم وقتل النفس جميعا وهنا إضمار باختصار كأنه لما قال لهم ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾

٧. اختلف في معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. قيل: أي ليقتل بعضكم بعضا بقتل البريء المجرم عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم وهذا كقوله سبحانه ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي ليسلم بعضكم على بعض.

ب. وقيل: معناه استسلموا للقتل، فجعل استسلامهم للقتل قتلا منهم لأنفسهم على وجه التوسع، عن ابن إسحاق واختاره الجبائي.

٨. اختلفوا في المأمور بالقتل:

أ. قيل: أن موسى أمرهم أن يقوموا صفين فاغتسلوا ولبسوا أكفانهم، وجاء هارون باثني عشر ألفا ممن لم يعبدوا العجل ومعهم الشفار المرهفة، وكانوا يقتلونهم، فلما قتلوا سبعين ألفا تاب الله على الباقين وجعل قتل الماضين شهادة لهم.

ب. وقيل: أن السبعين الذين كانوا مع موسى في الطور هم الذين قتلوا ممن عبد العجل سبعين ألفا.

ج. وقيل: أنهم قاموا صفين فجعل يطعن بعضهم بعضا حتى قتلوا سبعين ألفا.

د. وقيل: غشيتهم ظلمة شديدة فجعل بعضهم يقتل بعضا، ثم انجلت الظلمة فأجلوا عن سبعين ألف قتيل، وروي أن موسى وهارون وقفا يدعوان الله ويتضرعان إليه وهم يقتل بعضهم بعضا حتى نزل الوحي برفع القتل، وقبلت توبة من بقي.

٩. اختلف في السبب في أمرهم بقتل أنفسهم:

أ. قيل: أن السبب في أمرهم بقتل أنفسهم أن الله تعالى علم أن ناسا منهم ممن لم يعبد العجل لم ينكروا عليهم ذلك مخافة القتل مع علمهم بأن العجل باطل، فلذلك ابتلاهم الله بأن يقتل بعضهم بعضا، وإنما امتحنهم الله تعالى بهذه المحنة العظيمة لكفرهم بعد الدلالات والآيات العظام، ذكره ابن جريج.

ب. وقيل: لا بد أن يكون في الأمر بالقتل لطف لهم ولغيرهم كما يكون في استسلام القاتل لطف له ولغيره، قاله الرماني.

١٠. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ إشارة إلى التوبة مع القتل لأنفسهم على ما أمرهم الله به بدلالة قوله ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فقوله ﴿فَتُوبُوا﴾ دال على التوبة فكأنها مذكورة، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا﴾ دال على القتل فكأنه قال: أن التوبة وقتل النفس في مرضاة الله كما أمركم به وإن كان فيه مشقة عظيمة خير لكم عند خالقكم من إيثار الحياة الدنيا لأن الحياة الدنيا لا تبقى بل تفنى وتحصلون بعد الحياة على عذاب شديد، وإذا قتلتم أنفسكم كما أمركم الله به زالت مشقة القتل عن قريب وبقيتم في نعيم دائم لا يزول ولا يبيد وكرر ذكر بارئكم تعظيما لما أتوا به مع كونه خالقا لهم.

١١. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هاهنا إضمار تقديره ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم أو فقتلتم أنفسكم فتاب عليكم أي قبل توبتكم.

١٢. اختلف في معنى ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾:

أ. قيل: أي قابل التوبة عن عباده مرة بعد مرة.

ب. وقيل: معناه قابل التوبة عن الذنوب العظام ﴿الرَّحِيمُ﴾ يرحمكم إذا تبتم ويدخلكم الجنة.

١٣. في هذه الآية دلالة على أنه يجوز أن يشترط في التوبة سوى الندم ما لا يصح التوبة إلا به كما أمروا بالقتل.

١٤. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدقك، يقال آمن به، وآمن له، بدلالة قول تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ وفي موضع آخر: آمنتم له.

١٥. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدقك في قولك: إنك نبي مبعوث ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾:

أ. قيل: أي علانية فيخبرنا بأنك نبي مبعوث.. وهو أقوى.

ب. وقيل: معناه أنا لا نصدقك فيما تخبر به من صفات الله تعالى وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه حتى نرى الله جهرة أي علانية وعيانا فيخبرنا بذلك.

ج. وقيل: أنه لما جاءهم بالألواح وفيها التوراة، قالوا لن نؤمن بأن هذا من عند الله حتى نراه عيانا.

د. وقيل: إن قوله ﴿جَهْرَةً﴾ صفة لخاطبهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوه وتقديره: وإذا قلتم جهرة لن نؤمن لك حتى نرى الله.

١٦. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي الموت ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

أ. قيل: إلى أسباب الموت.

ب. وقيل: إلى النار.

١٧. إنما قرع الله سبحانه اليهود بسؤال أسلافهم الرؤية من حيث أنهم سلكوا طريقتهم في المخالفة للنبي الذي لزمهم اتباعه والتصديق بجميع ما أتى به، فجروا على عادة أسلافهم الذين كانوا يسألون تارة نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، وطورا يقولون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾

١٨. اختلف في معنى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾:

أ. قيل: أي ثم أحييناكم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لاستكمال آجالكم عن الحسن وقتادة.

ب. وقيل: أنهم سألوا بعد الإفاقة أن يبعثوا أنبياء، فبعثهم الله أنبياء عن السدي، فيكون معناه بعثناكم أنبياء.

١٩. أجمع المفسرون إلا شرذمة يسيرة إن الله لم يكن أمات موسى كما أمات قومه ولكن غشي عليه بدلالة قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، والإفاقة إنما تكون من الغشيان.

٢٠. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله على نعمه التي منها رده الحياة إليكم، وفي هذا إثبات لمعجزة نبينا محمد ﷺ، واحتجاج على مشركي العرب الذين كانوا غير مؤمنين بالبعث لأنه كان يذكر لهم من أخبار الذين بعثهم الله في الدنيا فكان يوافقه على ذلك من يخالفه من اليهود والنصارى.

٢١. يجب أن يكون هؤلاء القوم ـ وإن أماتهم الله ثم أحياهم ـ غير مضطرين إلى معرفة الله عند موتهم كما يضطر الواحد منا اليوم إلى معرفته عند الموت بدليل أن الله أعادهم إلى التكليف والمعرفة في دار

التكليف لا تكون ضرورية، بل تكون مكتسبة، ولكن موتهم إنما كان في حكم النوم، فأذهب الله عنهم الروح من غير مشاهدة منهم لأحوال الآخرة.

٢٢. ليس في الإحياء بعد الإماتة ما يوجب الاضطرار إلى المعرفة، لأن العلم بأن الإحياء بعد الإماتة لا يقدر عليه غير الله، طريقه الدليل وليس الإحياء بعد الإماتة إلا قريبا من الانتباه بعد النوم، والإفاقة بعد الإغماء في أن ذلك لا يوجب علم الاضطرار.

٢٣. أُستدل بهذه الآية على جواز الرجعة، وقول من قال إن الرجعة لا تجوز إلا في زمن النبي ﷺ ليكون معجزا له ودلالة على نبوته باطل، لأن عندنا بل عند أكثر الأمة يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة والأولياء، والأدلة على ذلك مذكورة في كتب الأصول.

٢٤. من قال بأنه لا تجوز الرجعة مع الإعلام بها لأن فيها إغراء بالمعاني من جهة الاتكال على التوبة في الكرة الثانية، وجوابه: أن من يقول بالرجعة لا يذهب إلى أن الناس كلهم يرجعون، فيصير إغراء بأن يقع الاتكال على التوبة فيها، بل لا أحد من المكلفين إلا ويجوز أن لا يرجع، وذلك يكفي في باب الزجر.

٢٥. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلنا لكم الغمام ظلة وسترة تقيكم حر الشمس في التيه عن جماعة المفسرين.

٢٦. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ فيه وجوه:

أ. أحدها، أنه المن الذي يعرفه الناس يسقط على الشجر عن ابن عباس.

ب. ثانيها، أنه شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار وطعمه كالشهد والعسل عن مجاهد.

ج. ثالثها، أنه الخبز المرقق عن وهب.

د. رابعها، أنه جميع النعم التي أتتهم مما من الله به عليهم مما لا تعب فيه ولا نصب وروي عن النبي ﷺ أنه قال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين

٢٧. ﴿وَالسَّلْوَى﴾:

أ. قيل: هو السمانى.

ب. وقيل: هو طائر أبيض يشبه السمانى عن ابن عباس.

٢٨. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ معناه:

أ. قيل: كلوا من الشيء اللذيذ.

ب. وقيل: المباح الحلال.

ج. وقيل: المباح الذي يستلذ أكله الذي رزقناكم أي أعطيناكم وجعلناه رزقا لكم.

٢٩. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾:

أ. قيل: أي فكفروا هذه النعمة وما نقصونا بكفرانهم أنعمنا، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي يسمون.

ب. وقيل: معناه وما ضرونا ولكن كانوا أنفسهم يضرون وهذا يدل على أن الله تعالى لا ينفعه طاعة من أطاعه ولا يضره معصية من عصاه، وإنما تعود منفعة الطاعة إلى المطيع ومضرة المعصية إلى العاصي.

٣٠. مسائل نحوية:

٣١. ﴿حَتَّى نَرَى﴾ حتى بمعنى إلى، وهي الجارة للاسم، وانتصب ﴿نَرَى﴾ بعدها بإضمار أن كما ينتصب الفعل بعد اللام بإضمار أن، وأن مع الفعل في تأويل المصدر، وفي موضع جر بحتى، ثم إن الجار والمجرور في موضع نصب بأنه مفعول ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ .

٣٢. جهرة مصدر وضع موضع الحال.

٣٣. موضع ﴿كُلُوا﴾ نصب بمحذوف، كأنه قال: وقلنا لهم كلوا.

٣٤. موضع (السلوى) نصب لأنه معطوف على المن وقوله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ إنما يتصل بما قبله أيضا بتقدير محذوف، كأنه قال فخالفوا ما أمروا به، وكفروا هذه النعمة، وما ظلمونا.

٣٥. (حيث) ظرف مكان مبني على الضم، وذكرنا في بنائه فيما قبل، والجملة بعده في تقدير المضاف إليه، ومما يسأل فيه أن يقال: كيف بني على الضم، وهو مضاف إلى الجملة على التشبيه بما حذف منه الإضافة، وهو قبل وبعد؟ وجوابه: إن حيث مع إضافته إلى الجملة، لا يمتنع أن يكون شبه قبل ونحوه، قائما فيه، لأنه قد منع الإضافة إلى المفرد، وإن كان قد أضيف إلى الجملة، وحق الإضافة أن تقع إلى المفرد، وإذا كان كذلك، فكأن المضاف إليه محذوف منه كقبل وبعد هذا على قول من بناه على الضم، ومن بناه على غير الضم فقال حيث فلا يدخل عليه هذا السؤال، ولا يجوز في القرآن إلا الضم.

٣٦. ﴿حِطَّةٌ﴾ فإنما ارتفع على الحكاية، وقال الزجاج: تقديره مسألتنا حطة أي: حط ذنوبنا عنا، وقيل: تقديره دخولنا الباب سجدا حطة لذنوبنا، ولو جاز قراءته بالنصب لكان وجهه في العربية حط عنا ذنوبنا حطة، كما يقال سمعا وطاعة أي: أسمع سمعا، وأطيع طاعة.

٣٧. معاذ الله أي: نعوذ بالله معاذا.

٣٨. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ مجزوم لأنه جواب الأمر، وإنما انجزم بالشرط، فإن المعنى إن تقولوا نغفر لكم، فحذف الشرط لدلالة الجزاء عليه، ووقوع الأمر في الكلام وطوله به، وحسن حذفه معه، لأنه صار كالمعاقب له من حيث اجتمعا في أنهما غير موجبين وغير خبرين، وهذا كما يحذف المبتدأ لدلالة الخبر عليه، وقد يحذف الجزاء أيضا لدلالة الشرط عليه، في نحو قولهم: أنت ظالم إن فعلت، كما يحذف خبر المبتدأ لدلالة المبتدأ عليه.

٣٩. قال سيبويه: كان أصل خطايا خطائي مثل خطائع فأبدل من الياء همزة، فصار خطائي مثل خطاعع، فتجتمع همزتان، فقلبت الثانية ياء فصار خطائي مثل خطاعي، ثم قلبت الياء والكسرة إلى الألف والفتحة، فقيل: خطاءا مثل خطاعا، كما فعل بمداري فقيل مدارى، ثم استثقل همزة بين ألفين لأن الهمزة مجانسة للألفات، فكان كأنما اجتمعت ثلاث ألفات فأبدلت الهمزة ياء، فقيل: خطايا، وقال الخليل: أصل خطايا فعايل، فقلبت إلى فعالى، ثم قلب بعد على ما تبينت في المذهب الأول وإنما أعل هذا الإعلال لأن الهمزة التي بعد الألف عارضة غير أصلية، وتقول في جمع مرآة مرائي، فلا تعل لأن الهمزة عين الفعل.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، الكتاب: التوراة.

٢. في الفرقان خمسة أقوال:

أ. أحدها: أنه النّصر، قاله ابن عباس وابن زيد.

ب. الثاني: أنه ما في التوراة من الفرق بين الحقّ والباطل، فيكون الفرقان نعتا للتوراة، قاله أبو العالية.

---

(١) زاد المسير: ١/٦٦.

ج. الثالث: أنه الكتاب، فكرّره بغير اللفظ. قال عديّ بن زيد: فألفى قولها كذبا ومينا، وقال عنترة: أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم، هذا قول مجاهد، واختيار الفرّاء والزّجّاج.

د. الرابع: أنه فرق البحر لهم، ذكره الفرّاء والزّجّاج وابن القاسم.

هـ. الخامس: أنه القرآن، ومعنى الكلام: لقد آتينا موسى الكتاب، ومحمّدا الفرقان، ذكره الفرّاء، وهو قول قطرب.

٣. القوم: اسم للرجال والنساء، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾، وقال زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء!؟

وإنما سمّوا قوما، لأنهم يقومون بالأمور.

٤. ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: ليقتل بعضكم بعضا. قاله ابن عباس ومجاهد، واختلفوا فيمن خوطب بهذا على ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه خطاب للكل، قاله السّديّ عن أشياخه.

ب. الثاني: أنه خطاب لمن لم يعبد ليقتل من عبد، قاله مقاتل.

ج. الثالث: أنه خطاب للعابدين فحسب، أمروا أن يقتل بعضهم بعضا، قاله أبو سليمان الدّمشقيّ.

٥. في الإشارة بقوله: ﴿ذَا﴾ في ﴿ذَلِكُمْ﴾ قولان:

أ. أحدها: أنه يعود إلى القتل.

ب. الثاني: أنه يعود إلى التوراة.

٦. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ في القائلين لموسى عليه السلام ذلك قولان:

أ. أحدهما: أنهم السبعون المختارون، قاله ابن مسعود وابن عباس.

ب. الثاني: جميع بني إسرائيل إلا من عصم الله منهم، قاله ابن زيد، قال وذلك أنه أتاهم بكتاب الله، فقالوا: والله لا نأخذ بقولك حتى نرى الله جهرة؛ فيقول: هذا كتابي.

٧. في ﴿جَهْرَةً﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنه صفة لقولهم، أي: جهروا بذلك القول، قاله ابن عباس، وأبو عبيدة.

ب. الثاني: أنها الرؤية البيّنة، أي: أرناه غير مستتر بشيء، يقال: فلان يتجاهر بالمعاصي، أي: لا يستتر من الناس، قاله الزّجّاج.

٨. معنى (الصاعقة): ما يصعقون منه، أي: يموتون، ومن الدليل على أنهم ماتوا، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ هذا قول الأكثرين، وزعم قوم أنهم لم يموتوا، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ وهذا قول ضعيف، لأن الله تعالى فرق بين الموضعين، فقال هناك: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ والإفاقة للمغشيّ عليه، والبعث للميت.

٩. في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أن معناه: ينظر بعضكم إلى بعض كيف يقع ميتا.

ب. الثاني: ينظر بعضكم إلى إحياء بعض.

ج. الثالث: تنظرون العذاب كيف ينزل بكم، وهو قول من قال نزلت نار فأحرقتهم.

١٠. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ . الغمام: السّحاب، سمّي غماما، لأنه يغمّ السماء، أي: يسترها، وكل شيء غطيته فقد غممته، وهذا كان في التّيه.

١١. في ﴿الْمَنَّ﴾ ثمانية أقوال:

أ. أحدها: أنه الذي يقع على الشجر فيأكله الناس، قاله ابن عباس والشّعبيّ والضّحّاك.

ب. الثاني: أنه التّرنجبين، قاله عكرمة.

ج. الثالث: أنه صمغه، قاله مجاهد.

د. الرابع: أنه يشبه الرب الغليظ، قاله عكرمة.

هـ. الخامس: أنه شراب، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس.

و. السادس: أنه خبز الرقاق مثل الذرة، أو مثل النّقي، قاله وهب.

ز. السابع: أنه عسل، قاله ابن زيد.

ح. الثامن: أنه الزّنجبيل، قاله السّدي.

١٢. في (السّلوى) قولان:

أ. أحدهما: أنه طائر، قال بعضهم: يشبه السّماني، وقال بعضهم: هو السّمانيّ.

ب. الثاني: أنه العسل، ذكره ابن الأنباريّ، وأنشد:

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ألذّ من السّلوى إذا ما نشورها

١٣. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، قال ابن عباس: ما نقصونا وضرّونا، بل ضرّوا أنفسهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. المراد من الفرقان يحتمل:

أ. أن يكون هو التوراة، وتقريره أن التوراة لها صفتان كونها كتاباً منزلًا وكونها فرقاناً تفرق بين الحق والباطل، فهو كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ [الأنبياء: ٤٨]

ب. وأن يكون شيئاً داخلًا في التوراة، وتقريره أن يكون المراد من الفرقان ما في التوراة من بيان الدين لأنه إذا أبان ظهر الحق متميزاً من الباطل، فالمراد من الفرقان بعض ما في التوراة وهو بيان أصول الدين وفروعه.

ج. وأن يكون شيئاً خارجاً عن التوراة، وتقريره من وجوه:

• أحدها: أن يكون المراد من الفرقان ما أوتي موسى عليه السلام من اليد والعصا وسائر الآيات وسميت بالفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل.

• ثانيها: أن يكون المراد من الفرقان النصر والفرج الذي آتاه الله بني إسرائيل على قوم فرعون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، والمراد النصر الذي آتاه الله يوم بدر، وذلك لأن قبل ظهور النصر يتوقع كل واحد من الخصمين في أن يكون هو المستولي وصاحبه هو المقهور، فإذا ظهر النصر تميز الراجح من المرجوح وانفرق الطمع الصادق من الطمع الكاذب.

• ثالثها: قال قطرب الفرقان هو انفراق البحر لموسى عليه السلام.. ذلك أن الله تعالى لم يبين في

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٥١٥.

قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أن ذلك كان لأجل موسى عليه السلام، وفي هذه الآية بين ذلك التخصيص على سبيل التنصيص.

٢. سؤال وإشكال: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لا يليق إلا بالكتاب لأن ذلك لا يذكر إلا عقيب الهدى، والجواب:

أ. أن فرق البحر كان من الدلائل فلعل المراد أنا لما آتينا موسى فرقان البحر، استدلوا بذلك على وجود الصانع، وصدق موسى عليه السلام وذلك هو الهداية.

ب. وأيضاً فالهدى قد يراد به الفوز والنجاة كما يراد به الدلالة، فكأنه تعالى بين أنه آتاهم الكتاب نعمة في الدين والفرقان الذي حصل به خلاصهم من الخصم نعمة عاجلة.

٣. من الأخطاء في تفسير الفرقان:

أ. من ظن أن الفرقان هو القرآن، وأنه أنزل على موسى عليه السلام وذلك باطل لأن الفرقان هو الذي يفرق بين الحق والباطل وكل دليل كذلك فلا وجه لتخصيص هذا اللفظ بالقرآن.

ب. من ظن أن المعنى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة وآتينا محمداً ﷺ الفرقان لكي تهتدوا به يا أهل الكتاب، وقد مال إلى هذا القول من علماء النحو الفراء وثعلب وقطرب وهذا تعسف شديد من غير حاجة ألبتة إليه.

٤. استدلت المعتزلة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ على أن الله تعالى أراد الاهتداء من الكل، وذلك يبطل قول من قال أراد الكفر من الكافر، وأيضاً فإذا كان عندهم أنه تعالى: يخلق الاهتداء، فيمن يهتدي والضلال فيمن يضل، فما الفائدة في أن ينزل الكتاب والفرقان ويقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ومعلوم أن الاهتداء إذا كان يخلقه، فلا تأثير لإنزال الكتب فيه لو خلق الاهتداء ولا كتاب لحصل الاهتداء، ولو أنزل بدلًا من الكتاب الواحد ألف كتاب ولم يخلق الاهتداء فيهم لما حصل الاهتداء، فكيف يجوز أن يقول أنزلت الكتاب لكي تهتدوا؟

٥. هذا الإنعام الخامس، ولا يصح ما ذكره بعض المفسرين من أن هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم، وذلك لأنها أمر بالقتل، والقتل لا يكون نعمة، وهذا ضعيف من وجوه:

أ. أحدها: أن الله تعالى نبههم على عظم ذنبهم، ثم نبههم على ما به يتخلصون عن ذلك الذنب

العظيم وذلك من أعظم النعم في الدين، وإذا كان الله تعالى قد عدد عليهم النعم الدنيوية فبأن يعدد عليهم هذه النعمة الدينية أولى، ثم إن هذه النعمة وهي كيفية هذه التوبة لما لم يكن وصفها إلا بمقدمة ذكر المعصية كان ذكرها أيضاً في تمام النعمة، فصار كل ما تضمنته هذه الآية معدوداً في نعم الله فجاز التذكير بها.

ب. ثانيها: أن الله تعالى لما أمرهم بالقتل رفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكلية، فكان ذلك نعمة في حق أولئك الباقين، وفي حق الذين كانوا موجودين في زمان محمد ﷺ، لأنه تعالى لولا أنه رفع القتل عن آبائهم لما وجد أولئك الأبناء فحسن إيراده في معرض الامتنان على الحاضرين في زمان محمد ﷺ.

ج. ثالثها: أنه تعالى لما بين أن توبة أولئك ما تمت إلا بالقتل مع أن محمداً ﷺ كان يقول لهم: لا حاجة بكم الآن في التوبة إلى القتل، بل إن رجعتم عن كفركم وآمنتم قبل الله إيمانكم منكم فكان بيان التشديد في تلك التوبة تنبيهاً على الإنعام العظيم بقبول مثل هذه التوبة السهلة الهينة.

د. رابعها: أن فيه ترغيباً شديداً لأمة محمد ﷺ في التوبة، فإن أمة موسى عليه السلام لما رغبوا في تلك التوبة مع نهاية مشقتها على النفس فلأن يرغب الواحد منا في التوبة التي هي مجرد الندم كان أولى، ومعلوم أن ترغيب الإنسان فيما هو المصلحة المهمة من أعظم النعم.

٦. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكروا إذ قال موسى لقومه بعد ما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد اتخذوا العجل: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، وللمفسرين في الظلم قولان:

أ. أحدهما: أنكم نقصتم أنفسكم الثواب الواجب بالإقامة على عهد موسى عليه السلام.

ب. الثاني: أن الظلم هو الإصرار الذي ليس بمستحق ولا فيه نفع ولا دفع مضرة لا علماً ولا ظناً، فلما عبدوا العجل كانوا قد أضروا بأنفسهم لأن ما يؤدي إلى ضرر الأبد من أعظم الظلم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] لكن هذا الظلم من حقه أن يقيد لئلا يوهم إطلاقه إنه ظلم الغير لأن الأصل في الظلم ما يتعدى، فلذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾

٧. ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ فيه حذف لأنهم لم يظلموا أنفسهم بهذا القدر لأنهم لو اتخذوه ولم يجعلوه إلهاً لم يكن فعلهم ظلماً، فالمراد باتخاذكم العجل إلهاً، لكن لما دلت مقدمة الآية على هذا المحذوف حسن الحذف.

٨. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يقتضي كون التوبة مفسرة

بقتل النفس كما أن قوله ﷺ: لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه فيغسل وجهه ثم يديه) يقتضي أن وضع الطهور مواضعه مفسر بغسل الوجه واليدين، ولكن ذلك باطل لأن التوبة عبارة عن الندم على الفعل القبيح الذي مضى والعزم على أن لا يأتي بمثله بعد ذلك، وذلك مغاير لقتل النفس وغير مستلزم له، والجواب: ليس المراد تفسير التوبة بقتل النفس، بل بيان أن توبتهم لا تتم ولا تحصل إلا بقتل النفس، وإنما كان كذلك لأن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن شرط توبتهم قتل النفس كما أن القاتل عمداً لا تتم توبته إلا بتسليم النفس حتى يرضى أولياء المقتول أو يقتلوه، فلا يمتنع أن يكون من شرع موسى عليه السلام أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل، ذلك أن شرط الشيء قد يطلق عليه اسم ذلك الشيء مجازاً كما يقال للغاصب إذا قصد التوبة أن توبتك ردماً غصبت يعني أن توبتك لا تتم إلا به فكذا هاهنا.

٩. سر قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ مع أن التوبة لا تكون إلا للبارئ، هو النهي عن الرياء في التوبة كأنه قال لهم: لو أظهرتم التوبة لا عن القلب فأنتم ما تبتم إلى الله الذي هو مطلع على ضميركم، وإنما تبتم إلى الناس وذلك مما لا فائدة فيه، فإنكم إذا أذنبتم إلى الله.

١٠. اختص هذا الموضع بذكر البارئ، لأن البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ومتميزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة فكان ذلك تنبيهاً على أن من كان كذلك فهو أحق بالعبادة من البقر الذي يضرب به المثل في الغباوة.

١١. الفرق بين الفاء في قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ والفاء في قوله: ﴿فَاقْتُلُوا﴾ هو أن الفاء الأولى للسبب لأن الظلم سبب التوبة، والثانية للتعقيب لأن القتل من تمام التوبة، فمعنى قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ أي فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم.

١٢. اختلف في معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أهو ما يقتضيه ظاهره من أن يقتل كل واحد نفسه أو المراد غير ذلك:

أ. قيل: لا يجوز أن يكون المراد أمر كل واحد من التائبين بقتل نفسه وهو اختيار القاضي عبد الجبار.

ب. وقيل: أنهم ما قتلوا أنفسهم بأيديهم ولو كانوا مأمورين بذلك لصاروا عصاة بترك ذلك، وهو

الذي عول عليه أهل التفسير، واختلفوا في كيفية ذلك:

أ. قيل: يؤأمر كل واحد من أولئك التائبين بأن يقتل بعضهم بعضاً فقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه ليقتل بعضكم بعضاً وهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ومعناه لا يقتل بعضكم بعضاً وتحقيقه أن المؤمنين كالنفس الواحدة، وقيل: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي إخوانكم من المؤمنين، وفي قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي بأمثالهم من المسلمين، وكقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي ليسلم بعضكم على بعض.

ب. وقيل: أن الله تعالى أمر غير أولئك التائبين بقتل أولئك التائبين فيكون المراد من قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي استسلموا للقتل، وهذا الوجه أقرب لأن في الوجه الأول تزداد المشقة لأن الجماعة إذا اشتركت في الذنب كان بعضهم أشد عطفاً على البعض من غيرهم عليهم فإذا كلفوا بأن يقتل بعضهم بعضاً عظمت المشقة في ذلك.

١٣. اختلفت الروايات في كيفية ذلك:

أ. قيل: أنه أمر من لم يعبد العجل من السبعين المختارين لحضور الميقات أن يقتل من عبد العجل منهم، وكان المقتولون سبعين ألفاً فما تحركوا حتى قتلوا على ثلاثة أيام، وهذا لقول ذكره محمد بن إسحاق.

ب. وقيل: أنه لما أمرهم موسى عليه السلام بالقتل أجابوا فأخذ عليهم المواثيق ليصبروا على القتل فأصبحوا مجتمعين كل قبيلة على حدة وأتاهم هارون بالاثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل ألبتة وبأيديهم السيوف، فقال التائبون: إن هؤلاء إخوانكم قد أتوكم شاهرين السيوف فاتقوا الله واصبروا فلعن الله رجلًا قام من مجلسه أو مد طرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو رجل يقولون أمين، فجعلوا يقتلونهم إلى المساء وقام موسى وهارون عليهما السلام يدعوان الله ويقولان البقية البقية يا إلهنا فأوحى الله تعالى إليهما، قد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي، قال وكان القتلى سبعين ألفاً، هذه رواية الكلبي.

ج. وقيل: أن بني إسرائيل كانوا قسمين: منهم من عبد العجل، ومنهم من لم يعبده ولكن لم ينكر على من عبده، فأمر من لم يشتغل بالإنكار بقتل من اشتغل بالعبادة، وإن الرجل كان يبصر والده وولده وجاره فلم يمكنه المضي لأمر الله فأرسل الله تعالى سحابة سوداء، ثم أمر بالقتل فقتلوا إلى المساء حتى دعا

موسى وهارون عليهما السلام وقالا: يا رب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية فانكشفت السحابة ونزلت التوراة وسقطت الشفار من أيديهم.

١٤. احتج من ذكر أنه لا يجوز أن يكون المراد أمر كل واحد من التائبين بقتل نفسه وهو اختيار القاضي عبد الجبار، بأن القتل هو نقض البنية التي عندها يجب أن يخرج من أن يكون حياً وما عدا ذلك مما يؤدي إلى أن يموت قريباً أو بعيداً إنما سمي قتلًا على طريق المجاز.. ولا يجوز أن يأمر الله تعالى به لأن العبادات الشرعية إنما تحسن لكونها مصالح لذلك المكلف ولا تكون مصلحة إلا في الأمور المستقبلة وليس بعد القتل حال تكليف حتى يكون القتل مصلحة فيه، وهذا بخلاف ما يفعله الله تعالى من الإماتة لأن ذلك من فعل الله فيحسن أن يفعله إذا كان صلاحاً لمكلف آخر، ويعوض ذلك المكلف بالعوض العظيم، وبخلاف أن يأمر الله تعالى بأن يجرح نفسه أو يقطع عضواً من أعضائه ولا يحصل الموت عقبه لأنه لما بقي بعد ذلك الفعل حياً لم يمتنع أن يكون ذلك الفعل صلاحاً في الأفعال المستقبلة.

١٥. ما ذكره القاضي عبد الجبار من أنه لا بد في ورود الأمر به من مصلحة استقبالية:

أ. لا نسلم أنه لا بد فيه من مصلحة، والدليل عليه أنه أمر من يعلم كفره بالإيمان ولا مصلحة في ذلك إذ لا فائدة من ذلك التكليف إلا حصول العقاب.

ب. سلمنا أنه لا بد من مصلحة ولكن لم قلت إنه لا بد من عود تلك المصلحة إليه، ولم لا يجوز أن قتله نفسه مصلحة لغيره فالله تعالى أمره بذلك لينتفع به ذلك الغير، ثم إنه تعالى يوصل العوض العظيم إليه.

ج. سلمنا أنه لا بد من عود المصلحة إليه، لكن لم لا يجوز أن يقال إن علمه بكونه مأموراً بذلك الفعل مصلحة له، مثل أنه لما أمر بأن يقتل نفسه غداً فإن علمه بذلك يصير داعياً له إلى ترك القبائح من ذلك الزمان إلى ورود الغد، وإذا كانت هذه الاحتمالات ممكنة سقط ما قال القاضي.

١٦. استحقوا القتل وهم قد تابوا من الردة والتائب من الردة لا يقتل لأن ذلك مما يختلف بالشرائع فلعل شرع موسى عليه السلام كان يقتضي قتل التائب عن الردة إما عاماً في حق الكل أو كان خاصاً بذلك القوم.

١٧. ما روي أن منهم من لم يقتل ممن قبل الله توبته لا يمتنع لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ

أَنْفُسَكُمْ﴾ خطاب مشافهة فلعله كان مع البعض أو إنه كان عاماً فالعام قد يتطرق إليه التخصيص.

١٨. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ فيه تنبيه على ما لأجله يمكن تحمل هذه المشقة:

أ. وذلك لأن حالتهم كانت دائرة بين ضرر الدنيا وضرر الآخرة، والأول أولى بالتحمل لأنه متناه، وضرر الآخرة غير متناه.

ب. ولأن الموت لا بد واقع فليس في تحمل القتل إلا التقدم والتأخير، وأما الخلاص من العقاب والفوز بالثواب فذاك هو الغرض الأعظم.

١٩. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه محذوف، ثم فيه وجهان:

أ. أحدهما: أن يقدر من قول موسى عليه السلام كأنه قال فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

ب. الآخر: أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم.

٢٠. هو الإنعام السادس، وبيان كونه نعمة من وجوه:

أ. أحدها: كأنه تعالى قال: اذكروا نعمتي حين قلتم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة، ثم أحييتكم لتتوبوا عن بغيكم وتتخلصوا عن العقاب وتفوزوا بالثواب.

ب. ثانيها: أن فيها تحذيراً لمن كان في زمان نبينا محمد ﷺ عن فعل ما يستحق بسببه أن يفعل به ما فعل بأولئك.

ج. ثالثها: تشبيههم في جحودهم معجزات النبي ﷺ بأسلافهم في جحود نبوة موسى عليه السلام مع مشاهدتهم لعظم تلك الآيات الظاهرة وتنبيهاً على أنه تعالى إنما لا يظهر عن النبي ﷺ مثلها لعلمه بأنه لو أظهرها لجحودها ولو جحدوها لاستحقوا العقاب مثل ما استحقه أسلافهم.

د. رابعها: فيه تسلية للنبي ﷺ مما كان يلاقي منهم وتثبيت لقلبه على الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

هـ. خامسها: فيه إزالة شبهة من يقول: إن نبوة محمد ﷺ لو صحت لكان أولى الناس بالإيمان به أهل الكتاب لما أنهم عرفوا خبره، وذلك لأنه تعالى بين أن أسلافهم مع مشاهدتهم تلك الآيات الباهرة على نبوة موسى عليه السلام كانوا يرتدون كل وقت ويتحكمون عليه ويخالفونه فلا يتعجب من مخالفتهم

لمحمد ﷺ وإن وجدوا في كتبهم الأخبار عن نبوته.

و. سادسها: لما أخبر محمد ﷺ عن هذه القصص مع أنه كان أمياً لم يشتغل بالتعلم ألبتة وجب أن يكون ذلك عن الوحي.

٢١. للمفسرين في هذه الواقعة قولان:

أ. الأول: أن هذه الواقعة كانت بعد أن كلف الله عبدة العجل بالقتل، وحكى قول محمد بن إسحاق الذي سبق ذكره.

ب. الثاني: أن هذه الواقعة كانت بعد القتل، وحكى قول السدي الذي سبق ذكره.

وليس في الآية ما يدل على ترجيح أحد القولين على الآخر، وكذلك ليس فيها ما يدل على أن الذين سألوا الرؤية هم الذين عبدوا العجل أو غيرهم.

٢٢. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ معناه لا نصدقك ولا نعترف بنبوتك حتى نرى الله جهرة أي عياناً.. وهي مصدر من قولك: جهرت بالقراءة وبالدعاء كأن الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية والذي يرى بالقلب مخافت بها وانتصار بها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، فنصبت بفعلها كما ينصب القرفصاء بفعل الجلوس أو على الحال بمعنى ذوي جهرة وقرئ جهرة بفتح الهاء وهي إما مصدر كالغلبة وإما جمع جاهر، وقال القفال أصل الجهرة من الظهور يقال جهرت الشيء [إذا] كشفته وجهرت البئر إذا كان ماؤها مغطى بالطين فنقيته حتى ظهر ماؤه ويقال صوت جهير ورجل جهوري الصوت، إذا كان صوته عالياً، ويقال: وجه جهير إذا كان ظاهر الوضاءة، وإنما قالوا: جهرة تأكيداً لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم أو التخيل على نحو ما يراه النائم.

٢٣. استدلت نفاة رؤية الله تعالى بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ على أن رؤية الله ممتنعة:

أ. قال القاضي عبد الجبار: إنها لو كانت جائزة لكانوا قد التمسوا أمراً مجوزاً فوجب أن لا تنزل بهم العقوبة كما لم تنزل بهم العقوبة لما التمسوا النقل من قوت إلى قوت وطعام إلى طعام في قوله تعالى: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]

ب. وقال أبو الحسين في كتاب التصفح: إن الله تعالى ما ذكر سؤال الرؤية إلا استعظمه، وذلك في آيات:

• أحدها: هذه الآية، فإن الرؤية لو كانت جائزة لكان قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ كقول الأمم لأنبيائهم: لن نؤمن إلا بإحياء ميت في أنه لا يستعظم ولا تأخذهم الصاعقة.

• ثانيها: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]، فسمى ذلك ظلماً وعاقبهم في الحال، فلو كانت الرؤية جائزة لجرى سؤالهم لها مجرى من يسأل معجزة زائدة.. فإن قلت أليس إنه سبحانه وتعالى قد أجرى إنزال الكتاب من السماء مجرى الرؤية في كون كل واحد منهما عتوا، فكما أن إنزال الكتاب غير ممتنع في نفسه فكذا سؤال الرؤية. قلت: الظاهر يقتضي كون كل واحد منهما ممتنعاً ترك العمل به في إنزال الكتاب فيبقى معمولًا به في الرؤية.

• ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] فالرؤية لو كانت جائزة وهي عند مجزيها من أعظم المنافع لم يكن التماسها عتواً لأن من سأل الله تعالى نعمة في الدين أو الدنيا لم يكن عاتياً وجرى ذلك مجرى ما يقال: لن نؤمن لك حتى يحيي الله بدعائك هذا الميت.

٢٤. هذه الوجوه التي ذكروها مشتركة في حرف واحد وهو أن الرؤية لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتواً ومنكراً، وذلك ممنوع:

أ. قولهم: إن طلب سائر المنافع من النقل من طعام إلى طعام لما كان ممكناً لم يكن طالبه عاتياً، وكذا القول في طلب سائر المعجزات.. والجواب: لم قلت إنه لما كان طالب ذلك الممكن ليس بعات وجب أن يكون طالب كل ممكن غير عات والاعتماد في مثل هذا الموضع على ضروب الأمثلة لا يليق بأهل العلم وكيف وأن الله تعالى ما ذكر الرؤية إلا وذكر معها شيئاً ممكناً حكمنا بجوازه بالاتفاق وهو إما نزول الكتاب من السماء أو نزول الملائكة، وأثبت صفة العتو على مجموع الأمرين، وذلك كالدلالة القاطعة في أن صفة العتو ما حصلت لأجل كون المطلوب ممتنعاً.

ب. قولهم: الظاهر يقتضي كون الكل ممتنعاً ترك العمل به في البعض فيبقى معمولًا به في الباقي. والجواب: إنك ما أقمت دليلًا على أن الاستعظام لا يتحقق إلا إذا كان المطلوب ممتنعاً وإنما عولت فيه على ضروب الأمثلة، والمثال لا ينفع في هذا الباب، فبطل قولك: الظاهر يقتضي كون الكل ممتنعاً.

٢٥. السبب في استعظام سؤال الرؤية وجوه:

أ. أحدها: أن رؤية الله تعالى لا تحصل إلا في الآخرة، فكان طلبها في الدنيا مستنكراً.

ب. ثانيها: أن حكم الله تعالى أن يزيل التكليف عن العبد حال ما يرى الله فكان طلب الرؤية طلباً لإزالة التكليف وهذا على قول المعتزلة أولى، لأن الرؤية تتضمن العلم الضروري والعلم الضروري ينافي التكليف.

ج. ثالثها: أنه لما تمت الدلائل على صدق المدعي كان طلب الدلائل الزائدة تعنتاً والمتعنت يستوجب التعنيف.

د. رابعها: لا يمتنع أن يعلم الله تعالى أن في منع الخلق عن رؤيته سبحانه في الدنيا ضرباً من المصلحة المهمة، فلذلك استنكر طلب الرؤية في الدنيا كما علم أن في إنزال الكتاب من السماء وإنزال الملائكة من السماء مفسدة عظيمة فلذلك استنكر طلب ذلك.

٢٦. للمفسرين في الصاعقة قولان:

أ. الأول: أنها هي الموت، وهو قول الحسن وقتادة، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهذا ضعيف لوجوه:

- أحدها: قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ولو كانت الصاعقة هي الموت لامتنع كونهم ناظرين إلى الصاعقة.
- ثانيها: أنه تعالى قال في حق موسى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أثبت الصاعقة في حقه مع أنه لم يكن ميتاً لأنه قال ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والإفاقة لا تكون عن الموت بل عن الغشي.
- ثالثها: أن الصاعقة وهي التي تصعق وذلك إشارة إلى سبب الموت.
- رابعها: أن ورودها وهم مشاهدون لها أعظم في باب العقوبة منها إذا وردت بغتة وهم لا يعلمون، ولذلك قال ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ منبهاً على عظم العقوبة.

ب. الثاني: وهو قول المحققين: إن الصاعقة هي سبب الموت، ولذلك قال في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ واختلفوا في أن ذلك السبب أي شيء كان على ثلاثة أوجه:

- أحدها: أنها نار وقعت من السماء فأحرقتهم.

• ثانيها: صيحة جاءت من السماء.

• ثالثها: أرسل الله تعالى جنوداً سمعوا بخسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة.

٢٧. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لأن البعث قد لا يكون إلا بعد الموت، كقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١١، ١٢]، ولم يدخل موسى عليه السلام في هذا الكلام لوجهين:

أ. الأول: أنه خطاب مشافهة، فلا يجب أن يتناول موسى عليه السلام.

ب. الثاني: أنه لو تناول موسى عليه السلام لوجب تخصيصه بقوله تعالى في حق موسى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ مع أن لفظة الإفاقة لا تستعمل في الموت[1].

٢٨. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني أنه تعالى إنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم، أما أنه كلفهم فلقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولفظ الشكر يتناول جميع الطاعات لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]

٢٩. سؤال وإشكال: كيف يجوز أن يكلفهم وقد أماتهم ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذا بعثهم بعد الموت؟ والجواب: الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة ليس هو الإماتة ثم الإحياء، وإنما يمنع من ذلك أنه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته وإلى معرفة ما في الجنة من اللذات وما في النار من الآلام، وبعد العلم الضروري لا تكليف، فإذا كان المانع هو هذا، لم يمتنع في هؤلاء الذين أماتهم الله بالصاعقة أن لا يكون قد اضطرهم، وإذا كان كذلك صح أن يكلفوا من بعد ويكون موتهم ثم الإحياء بمنزلة النوم أو بمنزلة الإغماء.

٣٠. نقل عن الحسن البصري أنه تعالى قطع آجالهم بهذه الإماتة، ثم أعادهم كما أحيا الذي أماته حين مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وأحيا الذين أماتهم بعد ما خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وهذا ضعيف لأنه تعالى ما أماتهم بالصاعقة إلا وقد كتب، وأخبر بذلك فصار ذلك الوقت أجلًا لموتهم الأول، ثم الوقت الآخر أجلًا لحياتهم.

٣١. هذا هو الإنعام السابع الذي ذكره الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى هذه الآية بهذه الألفاظ في

---

(١) قال هنا: وقال ابن قتيبة: إن موسى عليه السلام قد مات وهو خطأ لما بيناه، تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٢١.

سورة الأعراف، وظاهر هذه الآية يدل على أن هذا الإظلال كان بعد أن بعثهم لأنه تعالى قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، بعضه معطوف على بعض وإن كان لا يمتنع خلاف ذلك، لأن الغرض تعريف النعم التي خصهم الله تعالى بها.

٣٢. ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ جعلنا الغمام تظلكم، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس وينزل عليهم المن وهو الترنجبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ويبعث الله إليهم السلوى، وهي السماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه.

٣٣. ﴿كُلُوا﴾ على إرادة القول: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم أو بأن أخذوا أزيد مما أطلق لهم في أخذه أو بأن سألوا غير ذلك الجنس وما ظلمونا فاختصر الكلام بحذفه لدلالة ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ عليه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. الكتاب: التوراة بإجماع من المتأولين، واختلف في الفرقان:

أ. قال الفراء وقطرب: المعنى آتينا موسى التوراة، ومحمدا عليه السلام الفرقان، قال النحاس: هذا خطأ الاعراب والمعنى، أما الاعراب فإن المعطوف على الشيء مثله، وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه، وأما المعنى فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ . قال أبو إسحاق الزجاج: يكون الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمين تأكيدا، وحكي عن الفراء ومنه قول الشاعر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأي

فنسق البعد على النأي والمين على الكذب لاختلاف اللفظين تأكيدا ومنه قول عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

قال النحاس: وهذا إنما يجيء في الشعر.

ب. أحسن ما قيل في هذا قول مجاهد فرقا بين الحق والباطل أي الذي علمه إياه.

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٤٠٠.

ج. وقال ابن زيد: الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبروا.

د. وقيل: الفرقان الفرج من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] أي فرجا ومخرجا.

هـ. وقيل: إنه الحجة والبيان، قاله ابن بحر، وقيل الواو صلة، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان والواو قد تزاد في النعوت كقولهم فلان حسن وطويل وأنشد:

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة، ودليل هذا التأويل قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الانعام: ١٥٤] أي بين الحرام والحلال والكفر والايمان والوعد والوعيد وغير ذلك.

و. وقيل: الفرقان الفرق بينهم وبين قوم فرعون أنجى هؤلاء وأغرق أولئك، ونظيره: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ . فقيل: يعنى به يوم بدر نصر الله فيه محمدا ﷺ وأصحابه وأهلك أبا جهل وأصحابه.

٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا من الضلالة.

٣. القوم: الجماعة الرجال دون النساء قال الله تعالى ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١] ثم قال ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٨٠] أراد الرجال دون النساء، وقد يقع القوم على الرجال والنساء قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] وكذا كل نبي مرسل إلى النساء والرجال جميعا.

٤. ﴿يَا قَوْمِ﴾ منادى مضاف وحذفت الياء في ﴿يَا قَوْمِ﴾ لأنه موضع حذف، والكسرة تدل عليها، وهي بمنزلة التنوين، فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد، ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة، فتقول يا قومي لأنها اسم، وهي في موضع خفض وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء فقلت: يا قوميه، وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف فقلت: يا قوما وإن شئت قلت: يا قوم بمعنى يا أيها القوم، وإن جعلتهم نكرة نصبت ونونت وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ وتقول: قوم وأقوام وأقاوم جمع الجمع، والمراد هنا بالقوم عبدة العجل وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى.

٥. ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أستغنى بالجمع القليل عن الكثير والكثير نفوس وقد يوضع الجمع

الكثير موضع جمع القلة والقليل موضع الكثرة، قال الله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ويقال لكل من فعل فعلا يعود عليه ضرره: إنما أسأت إلى نفسك، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

٦. ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ قال بعض أرباب المعاني عجل كل إنسان نفسه فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه، والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل.

٧. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ لما قال لهم: فتوبوا إلى بارئكم قالوا: كيف؟ قال ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أرباب الخواطر: ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات، والصحيح أنه قل على الحقيقة هنا.. قال سفيان بن عيينة: التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الامة دون غيرها من الأمم وكانت توبة بني إسرائيل القتل.

٨. أجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده:

أ. قال الزهري: لما قيل لهم ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا حتى قيل لهم كفوا فكان ذلك شهادة للمقتول، وتوبة للحي على ما تقدم.

ب. وقال بعض المفسرين أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك.

ج. وقيل: وقف الذين عبدوا العجل صفا ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم.

د. وقيل: قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا إذ لم يعبدوا العجل من عبد العجل، ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم محتبون فقال: ملعون من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو أتقاه بيد أو رجل فما حل أحد منهم حبوته حتى قتل منهم يعنى من قتل وأقبل الرجل يقتل من يليه، ذكره النحاس وغيره.

٩. إنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم على القول الأول لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبدوه، وإنما اعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده، وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغير عوقب الجميع، قال رسول الله ﷺ: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب)

١٠. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ معطوف ﴿يَا مُوسَى﴾ نداء مفرد ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي نصدقك ﴿حَتَّى نَرَى

اللهَّ جَهْرَةً﴾ قيل: هم السبعون الذين اختارهم موسى وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ [البقرة: ٥٥] والايمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ثم دعا موسى ربه فأحياهم، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]

١١. يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقة بقولهم لموسى ﴿أَرِنَا اللهَّ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام، وقد اختلف في جواز رؤية الله تعالى فأكثر المبتدعة على إنكارها في الدنيا والآخرة، وأهل السنة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها في الآخرة فعلى هذا لم يطلبوا من الرؤية محالا وقد سألها موسى عليه السلام.

١٢. قوله تعالى: ﴿جَهْرَةً﴾ مصدر في موضع الحال ومعناه علانية.. وقيل: عيانا قاله ابن عباس، واصل الجهر الظهور، ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها، والمجاهرة بالمعاصي: المظاهرة بها، وفي الجهر وجهان:

أ. أحدهما ـ أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا فيكون في الكلام تقديم وتأخير والتقدير: وإذ قلتم جهرة يا موسى.

ب. الثاني ـ أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعيانا فيكون الكلام عله نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير، وأكد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام.

١٣. سؤال وإشكال: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ كيف يموتون وهم ينظرون؟ والجواب:

أ. أن العرب تقول: دور آل فلان تراءى أي يقابل بعضها بعضا.

ب. وقيل: المعنى ﴿تَنْظُرُونَ﴾ أي إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة.

١٤. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾:

أ. قيل: أي أحييناكم، قال قتادة: ماتوا وذهبت أرواحهم، ثم ردوا لاستيفاء آجالهم، قال النحاس وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا والمعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت، وهو الأصح لان الأصل الحقيقة، وكان موت عقوبة ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهَّ مُوتُوا

ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ على ما يأتي [البقرة: ٢٤٣]

ب. وقيل: ماتوا موت همود يعتبر به الغير ثم أرسلوا.

ج. وقيل: ﴿بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] علمناكم من بعد جهلكم.

١٥. قال الماوردي: اختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين:

أ. أحدهما ـ بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبد.. وهو أصح فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم وذلك مما اضطرهم إلى الايمان وبقاء التكليف ثابت عليهم ومثلهم قوم يونس، ومحال أن يكونوا غير مكلفين.

ب. الثاني: سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار.

١٦. اصل البعث:

أ. قيل: الإرسال.

ب. وقيل: بل أصله إثارة الشيء من محله يقال: بعثت الناقة: أثرتها أي حركتها قال امرؤ القيس: وفتيان صدق قد بعثت بسحرة.

١٧. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلناه عليكم كالظلة، والغمام جمع غمامة كسحابة وسحاب قاله الأخفش سعيد.. قال الفراء: ويجوز غمائم وهي السحاب لأنها تغم السماء أي تسترها وكل مغطى فهو مغموم ومنه المغموم على عقله، وغم الهلال إذا غطاه الغيم والغين مثل الغيم ومنه قوله ﷺ: إنه ليغان على قلبي)، قال صاحب العين: غين عليه: غطى عليه، والغين: شجر ملتف.

١٨. اختلف في المن ما هو وتعيينه على أقوال: فقيل الترنجبين.. وقيل: صمغة حلوة.. وقيل: عسل.. وقيل: شراب حلو.. وقيل: خبز الرقاق عن وهب بن منبه.. وقيل: المن) مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ومنه قول رسول الله ﷺ في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (الكمأة من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين) في رواية (من المن الذي أنزل الله على موسى) رواه مسلم قال علماؤنا: وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل أي مما خلقه الله لهم في التيه. قال أبو عبيد: إنما شبهها بالمن لأنه لا مئونة فيها ببذر ولا سقي ولا علاج فهي منه

أي من جنس من بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف.. روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه فإن ادخر منه شيئا فسد عليه إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم لان يوم السبت يوم عبادة وما كان ينزل عليهم يوم السبت شي.

١٩. لما نص عليه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب: أما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة واما لغير ذلك فمركبة مع غيرها، وذهب أبو هريرة إلى استعمالها بحتا في جميع مرض العين، وهذا كما أستعمل أبو وجزة العسل في جميع الأمراض كلها حتى في الكحل.

٢٠. اختلف في السلوى فقيل هو السماني بعينه قاله الضحاك. قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين وقد غلط الهذلي وقال الجوهري: والسلوى العسل وذكر بيت الهذلي: ألذ من السلوى إذا ما نشورها.. ولم يذكر غلطا، والسلوانة (بالضم): خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا قال:

شربت على سلوانة ماء مزنة فلا وجديد العيش يا مي ما

واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يسقاه الحزين فيسلو والأطباء يسمونه المفرح.. يقال: سليت وسلوت لغتان، وهو في سلوة من العيش أي في رغد عن أبى زيد.

٢١. اختلف في السلوى هل هو جمع أو مفرد:

أ. قال الأخفش: جمع لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر، وهو يشبه أن يكون واحده سلوي مثل جماعته كما قالوا: دفلى... كما انتفض السلواة من بلل القطر

ب. قال الكسائي: السلوى واحدة وجمعه سلاوى.

٢٢. ﴿كُلُوا﴾ فيه حذف تقديره: وقلنا كلوا، فحذف اختصار الدلالة الظاهر عليه، والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ.

٢٣. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يقدر قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذَ ـ اتَيْنَا﴾ هي (إذْ) الساكنة، فتحت بالنقل، ومُدَّت بألف (آتَيْنَا) بعد حذف همزة عند ورش، ﴿مُوسَى﴾ منع الصرف للعَلَميَّة والعُجمة، مركَّب من ماء وشجر، فـ (مو) ماء، و(سى) شجر، أُبدلت الشين سينًا وزاد الألف؛ لأنَّه وُجد بين ماء وشجر في بِركة فرعون من النيل، وقيل: عربيٌّ (مُفْعَلٌ)، وقيل (فُعلى)، من ماسَ يميسُ، أُبدلت الياء واوا، كـ (طوبى) مِن طَابَ يطيب، والألف للتأنيث وهو ضعيف؛ لأنَّ زيادة الميم أوَّلاً أولى من زيادة الألف.

٢. ﴿الكِتَابَ﴾ الصحف، و﴿والفُرْقَانَ﴾ التوراة الفارقة بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام؛ أو الكتاب التوراة، والفرقان المعجزات، كالعصا واليد أو كلاهما التوراة، وعُطِفَ تَنزيلاً لتغَايُر الصفات منزِلةَ تغايُر الذات، أي: آتينا موسى كلاما جامعا بين كونه مكتوبا من الله في الألواح وفي اللوح المحفوظ، وكونه مفرقا بين ذلك.

٣. والفرقان أيضا مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، والفرقان: النصر الفارق بين العدوِّ والوليِّ، كما قيل: سمِّي يومُ بدر (يوم الفرقان) لذلك، وذلك كما تقول: جاء زيد العالِمِ والشجاع والكريم، تريد جاء زيد المتَّصف بالعلم والشجاعة والكرم، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من الضلال بهما، أو به إذا قلنا هما واحدٌ، أي: لتهتدوا، أو عاملناكم معاملة الراجي، أو أرجو الاهتداء، وكذا حيث تكون (لَعَلَّ) من الله ولو لم أذكرْ ذلك.

٥. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ مَن عَبَدَ العجلَ من الرجال والنساء، فإنَّ لفظ (قوم) يستعمل عاما للنساء مع الرجال تبعا على المشهور، ولو كان لا يستعمل فيهنَّ وحدهنَّ؛ لأنَّهم القائمون بهنَّ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقيل: يجوز إطلاق القوم عليهنَّ حقيقة، أو مع الرجال كذلك.

٦. ﴿يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمُ أنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ إلها ﴿فَتُوبُواْ﴾ من عبادة العجل، وتسميتِه إلَها، والدعاء إليه، والرضا بتصويره، مع أنَّه لا يقدر على فعل شيءٍ فضلا عن أن يكون خالقا.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٠٧.

٧. ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ خالِقكم بُرَءَاءَ من التفاوت، كيَدٍ في غاية القصر والرقة وأخرى طويلة غليظةٍ، أو يدٍ سوداء ووجه أبيض، وهو أخصُّ من الخلق، أو مخرجكم من العدم، والخلقُ: النقلُ من حال لأخرى، والتقديرُ [للشيء].

٨. ﴿فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليس هذا من التوبة تفسيرًا لها، بل هي في قوله: ﴿فَتُوبُواْ﴾، وهذا عقاب تصحُّ به توبتهم وتقبل، كمن فعل ذنبا ممَّا بينه وبين الله، فاستقبحه وندم، عزم على عدم العود وأمر بكفَّارة، فالتحقيق أنَّ الكفَّارة ليست من حدِّ التوبة، ولو كانت قد تؤخذ في تعريفها، بخلاف ردِّ المظلمة فمن حدِّها.

٩. ومعنى ﴿فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾: ليقتلْ بعضكم بعضا أنفسكم، أو نزَّلهم منزلة شيء واحدٍ، وذلك أنَّهم لم يؤمر كلُّ واحد أن يقتل نفسه، بلا أمر من لم يعبد العجل ـ وهم اثنا عشر ألفا ـ أن يقتل مَن عَبَدَهُ، والقاتل والمقتول كنفس واحدة نسَبًا ودينًا، والخطاب لمن لم يعبده في (اقتلوا)، أو اقتلوا يا عابدي العجل بعضكم بعضا، أو أسلموا أنفسكم للقتل، فالخطاب للعابدين، قالوا: (نصبر للقتل طاعة لله ليقبَلَ توبتَنا)، وعلى أنَّ القاتلين من لم يعبد العجل، فالعابدون جلسوا مُحْتَبِينَ، وقال لهم موسى: (من حَلَّ حِبْوَتَهُ، أو مدَّ طرفه إلى قاتله، أو اتَّقاه بيد أو رجل، فهو ملعون مردود التوبة)، فأُخرجت الخناجر والسيوف، وأقبلوا عليهم للقتل، فكان الرجلُ يرى أباه وابنه، وأخاه وقرينه، وصديقه وجاره، فيرقُّ له ولا يمكنه أن يقتله؛ فقالوا: (يا موسى كيف نفعل؟)، فأرسل الله عليهم سحابة سوداء تغشى الأرض كالدخان، لئلَّا يعرف القاتلُ المقتولَ، فشرعوا يقتلون من الغداة إلى العشيِّ، حتَّى قتلوا سبعين ألفا، واشتدَّ الكرب، فبكى موسى وهارون، وتضرَّعا إلى الله فانكشفت السحابة، وسقطت الشفار من أيديهم، ونزلت التوبة، فأوحى الله إلى موسى: (أما يرضيك أن أدخل القاتلَ والمقتولَ الجنَّة؟)، فكان من قتل منهم شهيدا، ومن بقي منهم مغفورا له خطيئته من غير قتل، وذلك حكمة من الله تعالى ، وله أن يفعل ما يشاء، أبدل لهم عن الحياة الدنيا حياة سرمديَّة بهيجة، وقيل: القتل إذلال النفوس بالطاعة، وترك المعصية.

١٠. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: القتل، ﴿خَيْرٌ﴾ منفعة، أو اسم تفضيل خارج عنه، وإن لم يخرج فباعتبار لذَّة المعصية في النفوس، أو من باب: العسل أحلى من الخلِّ.

١١. ﴿لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ الخطاب للذين لم يعبدوا العجل والذين عبدوه، أَذْعن العُبَّاد للقتل،

وامتثل غير العابدين قتل العابدين، مع أنَّهم نسبهم، وقرابتهم، وأصدقاؤهم، وأصهارهم، وجيرانهم، وكرَّر لفظ (بارئ)، ولم يقل خير لكم عنده، ليُشعر بأنَّ من هو بارئ حقيق بأن يُمتثل له أمرُه ونهيُه.

١٢. ﴿فَتَابَ﴾ الله، ومقتضى الظاهر: فتُبتُ، ﴿عَلَيْكُم﴾ قبل توبتكم، مَن قَتَلَ ومَن لم يَقتُل لإذعانه للقتل، ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ مقتضى الظاهر: إنِّي أنا، ﴿التَّوَّابُ﴾ على كلِّ من تاب من خلقه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ المنعم على من تاب، أو أنَّه هو الذي عهدتم يا بني إسرائيل قبل ذلك توبته عليكم ورحمته لكم.

١٣. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ نسب القول إليهم لأنَّه لآبائهم، وذلك القول ارتداد منهم، وقيل: المراد: لم يكمل إيماننا بك حتَّى نرى الله تعالى ، كقوله ﷺ: (لا يُؤمن أحدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِه)، أي: لن يكمل إيمانه.

١٤. ﴿يَامُوسَى لَن نُّومِنَ لَكَ﴾ بنبوَّتك مطلقًا، أو لن نذعن لك، أو لن نؤمن لأجل قولك أو بك فيما تقول من أنَّ التوراة من الله، أو من أنَّ لله ألزمنا قتل عابدي العجل كفَّارةً لهم، أو من أنَّ هذا الذي سمعنا كلام الله، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه الذين لم يعبدوا العجل لميقات وقِّت لهم من خيارهم، أمره لله أن يأتي بهم إلى طور سيناء ليعتذروا ويطلبوا العفو عن عُبَّاد العجل، فأتى بهم وأمرهم أن يتطهَّروا ويطهِّروا ثيابهم ويصوموا، وقالوا له: ادع الله أن يُسمعنا كلامه، فأسمعهم: (إنَّني أنا اللهَ لا إله إلَّا أنا، أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ سديدةٍ، فاعبُدوني ولا تعبدوا غيري) سمعوا كلام الله بأن خلق صوتًا في أبدانهم أو في الهواء أو حيث شاء، أو في أبدانهم أو أسماعهم، وقيل: القائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات التوراة، قالوا بعد الرجوع وقتله عبدة العجل وتحريقه، وقيل: عشرة آلاف من قومه، وعلى كلِّ حال لم يقنعوا بذلك وسألوا الرؤية جهارًا كما قال: ﴿حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ عيانًا، أي: رؤيةً جهرةً بحاسَّة العين لا منامًا وقلبًا، أو ذوي جهرة، أو مجاهرين أو مبالغة، أو قولاً ذا جهرة، أو قول جهرة، أو قولاً جاهرًا أو مبالغة.

١٥. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ النار مع صوت شديد من السماء لطلبكم ما لا يجوز، ويُلزِم التشبيه، ولتوقُّفكم عن الإيمان حتَّى شرطتم له، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يرى بعضكم بعضًا كيف يموت، أو ترون أثر الموت في أنفسكم، إذ يُحيَى كلُّ واحد منكم عضوًا عضوًا، أو يُرى بعضُكم يُحيَى من موت، وقيل: الموت هنا غشيان كما قال الله تعالى : ﴿وَيَاتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]، كذا قيل،

ولعلَّه تمثيل، وإلَّا فغشيان أهل النار إراحة لهم لو كان، لكن لا يكون.

١٦. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنم بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بيومين من حيث موتكم، يرى بعضكم بعضًا كيف يحيى لِدعاءِ موسى عليه السلام وتضرُّعه إلى ربِّه أن يحييهم، ويقول: يا ربِّ خرجوا معي أحياء ويقول قومُهم: قتلتُهم أنا، ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الإحياء بعد الموت، ولله أن يميت الإنسان مرَّتين أو ما شاء.

١٧. والآية دليل على كفر مجيز الرؤية دنيًا أو أخرًى، وذلك لأنَّ إجازتها ـ ولو في القلب ـ إجازة لتكييفه، وتكييفه ممتنع؛ لأنَّ فيه تشبيهًا، وإدراكه بالقلب تكييف لا يُتصوَّر بدونه؛ فلا يصحُّ قولهم: بلا كيف، وتكييفه في القلب بلا تقدير أنْ يكيِّفه لغيره هو من نفس المحذور، فبطل قول طوائف من المبتدعة: إنَّ الصاعقة ليست لمجرَّد الطلب بل لعنادهم واشتراطهم؛ وإذا كان المنع للتشبيه لم يضرَّنا أنَّها نزلت لطالبها في الدنيا.

١٨. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي: جعلناه ظُلَّة عليكم من حرِّ الشمس، وهو السحاب الرقيق يسير بسيرهم في التيه، أمرهم الله بقتال الجبَّارين فقالوا: ﴿فَاذْهَبَ اَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلآَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فحبسهم الله في التيه، وكانوا يسيرون ليلاً ونهارًا، وينزل عليهم عمود من نور يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتَّسخ ولا تبلى، وذلك من الله لا كما قيل: لا تبلى لعدم الحرارة ولا تتَّسخ لعدم الدخان.

١٩. والتيه: واد بين الشام ومصر، فيه طرق لا رمل فيها بين جبال من رمل يمشي فيها الركب المصريُّ والمغربيُّ والشاميُّ، عرضه تسعة فراسخ في ثلاثين فرسخًا، وقيل: ستَّة فراسخ في اثني عشر فرسخًا؛ وقيل: خرجوا من التيه فوقعوا في صحراء، واشتكوا الحرَّ فظلَّلهم الله تعالى بالغمام؛ وقيل: من عبد الله منهم ثلاثين سنة ولم يعص فيها أظلَّه الغمام، فكان ذلك لجماعة منهم.

٢٠. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُم﴾ في التيه ﴿الْمَنَّ﴾ الترنجبين بالمثنَّاة الفوقيَّة والراء المهملة والجيم والموحَّدة والمثنَّاة التحتيَّة والنون: لفظ يونانيٌّ تستعمله الأطبَّاء، ويقال: معرَّب (ترتكبين) وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع بعض حموضة كالزنجبيل، ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس لكلِّ إنسان صاع، وينزل على الأشجار قليلا إلى الآن في بوادي (تركستان)، وهو مشهور في بلدة (آمد) وحواليها، شهر فيهم بحلوة القدرة، وقد أُمروا في التيه أن لا يأخذوا أكثر من صاعٍ كلَّ يوم، ولا يدَّخروا الزيادة إلَّا يوم الجمعة

فيأخذون فيه صاعين ليدَّخروا ليوم السبت، فإنَّه لا ينزل يوم السبت.

٢١. ﴿وَالسَّلْوَى﴾ طائر يشبه السُّمَانَى، أو هو السُّمَانَى، وألِفه ليست للتأنيث لورود سُلواة قلبت هذه التاء للوحدة لا للتأنيث، وقيل: هو واحد والجمع سلاوة، وقيل: هو للواحد فصاعدًا، تبعثه عليهم ريح الجنوب فيذبح الرجل ما يكفيه على حدِّ ما مرَّ في المنِّ، ويطير الباقي، وذلك بكرة وعشيًّا أو متى شاءوا، وادَّخروا من المنِّ والسلوى فأصاب النتن ما ادَّخروا، وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: (لَولَا بَنُو إِسرائِيل لَم يَخْنَزِ اللَّحمُ..) الحديث، ويروى أنَّ السلوى تجيئهم مطبوخة أو مشويَّة، قيل: ويناسبه الحديث المذكور؛ لأنَّ التغيير أنسب بالمطبوخ، وهو أعظم معجزة، قلت: كما يخنز المطبوخ يخنز غير المطبوخ، ولا تثبت المعجزة بلا دليل قويٍّ، وقدَّم المنَّ مع أنَّه حلوى على السلوى مع أنَّها غذاء لأنَّ نزوله من السماء خارق للعادة بخلاف الطير.

٢٢. قائلين لكم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ المنُّ والسلوى طيِّبان: طيب لذَّة، وطيب حلال، وطيب مجيء بلا كسب، فكفروا النعمة وادَّخروا، فقطعا عن حالهما، فصارا يدوِّدان ويخنزان ولو بلا ادِّخار، وعاشوا بهما كذلك، ظلموا أنفسهم بذلك، وإذا وضع الطعام بين يديك فقيل: لا تأكل حتَّى يقول حامله إليك: كُلْ، لمناسبة الآية، وقيل: لك الأكل بلا انتظارٍ لقوله: كُلْ، وهو أولى إن اطمأنَّت النفس لذلك.

٢٣. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أشار به إلى أنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمخالفة، وصرَّح به في قوله: ﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تكرَّر الظلم منهم واعتادوه، وكانوا ستَّمائة ألفٍ في التيه، وفيه مات هارون وموسى، وماتوا كلُّهم فيه إلَّا من لم يبلغ العشرين.

٢٤. ذهب موسى وهارون إلى غار فمات هارون فدفنه موسى، فقالوا: قتلتَه لِحُبِّنا إيَّاه، فتضرَّع إلى الله فأوحى إليه أن اسرِ بهم، فناداه: يا هارون، فخرج ينفض رأسه، فقال: أنا قتلتك؟ قال: لا ولكن متُّ، قال: فعدْ كما كنتَ في قبرك، وعاش موسى سنة، ومرَّ في حاجة له بملائكة يحفرون قبرًا لم ير أحسن منه بهجة وخضرة ونضرة، فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبدٍ كريم على ربِّه، فقال: إنَّ هذا العبد من الله بمنزلة! فقالوا: يا صفيَّ الله، أتحبُّ أن يكون لك؟ قال: نعم، قالوا: فانزل فاضطجع فيه وتوجَّه إلى ربِّك، ففعل، وتنفَّس أسهل تنفُّس ومات، وسوَّوا عليه التراب، وقيل: أتاه ملك بتفاحة من الجنَّة فشمَّها فمات، وليس كما قيل: إنَّه مات في جبل أحد، لقوله ﷺ: (لو أنِّي عنده لأريتكم قبره إلى جانب

الطريق عند الكثيب الأحمر) لعدم صحَّة هذا الحديث عنه ﷺ.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الكتاب: التوراة بالإجماع من المفسرين، واختلفوا في الفرقان:

أ. قال الفراء وقطرب: المعنى آتينا موسى التوراة ومحمدا الفرقان، وقد قيل إن هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن وليس كذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾

ب. قال الزجّاج: إن الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيدا، وحكي نحوه عن الفرّاء، ومنه قول عنترة:

حيّيت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

ج. قيل: إن الواو صلة، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزاد في النعوت كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

د. قيل: المعنى: أن ذلك المنزل جامع بين كونه كتابا وفارقا بين الحق والباطل، وهو كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

هـ. وقيل: الفرقان: الفرق بينهم وبين قوم فرعون، أنجى هؤلاء وأغرق هؤلاء.

و. وقال ابن زيد: الفرقان: انفراق البحر.

ز. وقيل: الفرقان: الفرج من الكرب.

ح. وقيل: إنه الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما، وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه كأنه قال آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له.

٢. ﴿يَا قَوْمِ﴾ القوم يطلق تارة على الرجال دون النساء، ومنه قول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١٠١.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾، ثم قال ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾، ومنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أراد الرجال، وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، والمراد هنا بالقوم عبدة العجل.

٣. البارئ: الخالق، وقيل إن البارئ هو المبدع المحدث، والخالق هو المقدّر الناقل من حال إلى حال، وفي ذكر البارئ هنا إشارة إلى عظيم جرمهم: أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

٤. الفاء في قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ للسببية: أي لتسبب التوبة عن الظلم، وفي قوله: ﴿فَاقْتُلُوا﴾ للتعقيب: أي اجعلوا القتل متعقبا للتوبة.

٥. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. قيل: في الكلام حذف؛ أي فقتلتم أنفسكم فتاب عليكم: أي على الباقين منكم.

ب. وقيل: هو جواب شرط محذوف كأنه قال فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

٦. ما قاله صاحب الكشاف من أنه يجوز أن يكون خطابا من الله لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم، فهو بعيد جدا كما لا يخفى.

٧. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ هذه الجملة معطوفة على التي قبلها:

أ. ظاهر السياق أن القائلين هذه المقالة هم قوم موسى.

ب. وقيل: هم السبعون الذين اختارهم، وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة، فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم، ثم دعا موسى ربّه فأحياهم، كما قال تعالى هنا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾

٨. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذي ماتوا عنده.

٩. قيل المراد بالصاعقة الموت، واستدل عليه بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير، لأن المصعوق قد يموت كما في هذه الآية، وقد يغشى عليه ثم يفيق كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ﴾، ومما يوجب بعد ذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كبير معنى، بل قد يقال: إنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل

بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت.

١٠. المراد بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت، وأصل البعث: الإثارة للشيء من محله، يقال: بعثت الناقة: أي أثرتها.

١١. إنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤيته في الدنيا، وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا والآخرة، وذهب من عداهم إلى جوازها في الدنيا والآخرة ووقوعها في الآخرة، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربّهم في الآخرة، وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا: أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغترّ بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب.

١٢. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلناه كالظلة، والغمام: جمع غمامة كسحابة وسحاب، قاله الأخفش، وقال الفرّاء: ويجوز غمائم، وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبّارين.

١٣. المنّ: قيل: هو الترنجبين. قال النحاس: هو بتشديد الراء وإسكان النون، ويقال: الطرنجبين بالطاء، وعلى هذا أكثر المفسرين، وهو طلّ ينزل من السماء على شجر أو حجر، ويحلو وينعقد عسلا، ويجفّ جفاف الصمغ، ذكر معناه في القاموس؛ وقيل: إن المنّ العسل؛ وقيل: شراب حلو؛ وقيل: خبز الرقاق؛ وقيل: إنه مصدر يعمّ جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع؛ ومنه ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد بن زيد عن النبيّ ﷺ: أنّ الكمأة من المنّ الذي أنزل على موسى)، وقد ثبت مثله من حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي، ومن حديث جابر وأبي سعيد وابن عباس عند النسائي.

١٤. السلوى: قيل هو السّمانى، كحبارى طائر يذبحونه فيأكلونه، قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي فقال:

وقاسمها بالله جهدا لأنتما ألذّ من السّلوى إذا ما نشورها

ظنّ أن السلوى العسل، قال القرطبي: ما ادعاه من الإجماع لا يصح، وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلي، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة، وأنشد:

لو شربت السّلوى ما سلوت   ما بي غنى عنك وإن غنيت

١٥. ﴿كُلُوا﴾ أي قلنا لهم كلوا، وفي الكلام حذف، والتقدير: قلنا: كلوا فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر فظلموا أنفسهم وما ظلمونا، فحذف هذا لدلالة: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ عليه، وتقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعني:

أ. الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل، يعني التوراة. كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨] يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياء وذكرا.

ب. أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات.

ج. أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام.

د. وقيل: الفرقان انفراق البحر.

هـ. وقيل: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يريد به يوم بدر.

٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بالعمل فيه من الضلال.

٣. هذه الآية بيان لكيفية وقوع العفو المذكور في الآية قبل، روى أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات ورأى ما صنع قومه بعده من عبادة العجل، غضب ورمى باللوحين من يده، فكسرهما في أسفل الجبل، ثم أحرق العجل الذي صنعوه. ثم قال من كان من حزب الرب فليقبل إليّ، فاجتمع إليه جميع بني لاوي، وقال لهم: هذا ما يقول الرب إله إسرائيل: ليتقلد كل رجل منكم سيفه. فجوزوا في وسط المحلة من باب إلى باب وارجعوا، وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه وقريبه. فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى

---

(١) تفسير القاسمي: ١/٣٠٦.

فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل (وفي رواية نحو ثلاثة آلاف رجل) وفي غد ذلك اليوم كلم موسى الشعب وقال لهم: أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة، وإني الآن أصعد إلى الرب فأتضرع إليه من أجل خطيئتكم. فصعد موسى وتضرع للرب وسأل المغفرة لقومه.

٤. لاوي: ثالث مولود ليعقوب عليه السلام من أولاده الاثني عشر، معناه في العربية ملتصق أو متصل، والأحبار اللاويّون ينسبون إليه، وقد اختارهم تعالى من بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام للخدمة المقدسة، وجعلهم من المقربين لديه، وبما سقناه يعلم أن قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أمر لمن لم يعبد العجل، أعني اللاويين، أن يقتلوا العبدة. لا كما فهمه بعضهم من قتل بعضهم بعضا مطلقا.

٥. أي واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق. إذ سألتم رؤيتي عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم في دار الدنيا، وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن القائلين لموسى ذلك هم السبعون المختارون، ويؤيده آية الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ﴾ [الأعراف: ١٥٥] الآية.

٦. غلط أهل الكتاب في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك، فمنع منه، فكيف يناله هؤلاء السبعون؟ أفاده ابن كثير، وقد رأيت دعواهم المذكورة في الفصل الرابع والعشرين في سفر الخروج.. وهذا من المواضع المحقق تحريفها، ويدل عليه ما في الفصل الثالث والثلاثين من السفر المذكور أنه تعالى قال لموسى: لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش.

٧. جهرة، في الأصل، مصدر قولك جهرت بالقراءة. استعيرت للمعاينة، لما بينهما من الاتحاد. في الوضوح والانكشاف. إلا أن الأول في المسموعات، والثاني في المبصرات، ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال من الفاعل أو المفعول.

٨. دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى في الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر، سبحانه وتعالى، سؤال الرؤية إلا استعظمه، وذلك في آيات. منها هذه، ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] فدلت هذه التهويلات الفظيعة الواردة لطالبيها

في الدنيا على امتناعها فيها.

٩. كما أخبر تعالى بأنه لا يرى في الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة في آيات عديدة، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك، وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها.

١٠. قال ابن جرير: وأصل الصاعقة كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم صوتا كان ذلك أو نارا أو زلزلة أو رجفا.. ومما يدل على أنه قد يكون مصعوقا وهو حيّ غير ميت قول الله عز وجل ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ يعني مغشيا عليه، ومنه قول جرير:

وهل كان الفرزدق غير قرد ... أصابته الصّواعق فاستدارا

فقد علم أن موسى عليه السلام لم يكن، حين غشي عليه وصعق، ميتا، لأن الله، جل وعز، أخبر عنه أنه لما أفاق قال: تبت إليك، ولا شبّه جرير الفرزدق، وهو حيّ، بالقرد ميتا، ولكن معنى ذلك ما وصفناه.

١١. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ قال الراغب الأصبهانيّ في تفسيره: البعث إرسال المبعوث من المكان الذي فيه. لكن فرق بين تفاسيره بحسب اختلاف المعلق به، فقيل: بعثت البعير من مبركه أي أثرته، وبعثته في السير أي هيجته، وبعث الله الميت أحياه، وضرب البعث على الجند إذا أمروا بالارتحال، وكل ذلك واحد في الحقيقة، وإنما اختلف لاختلاف صور المبعوثات.. والموت حمل على المعروف، وحمل أيضا على الأحوال الشاقة الجارية مجرى الموت.

١٢. ليس يقتضي قوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أنهم ماتوا، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ لكن الآية تحتمل الأمرين، وحقيقة ما كان إنما يعتمد فيها على السمع المتعدي عن الاحتمالات.. وقد يؤيد الثاني آية الأعراف المذكورة وهي ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فالرجفة هي المساة بالصاعقة هنا، والتنزيل يفسر بعضه بعضا، والأصل توافق الآي، وقد ذكر ابن إسحاق والسدّي أن الذين أخذتهم الرجفة هم الذين سألوا موسى رؤية الله جهرة.

١٣. لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضا بما أسبغ عليهم من النعم، فمنها تظليل الغمام عليهم، وذلك أنهم كانت تظلهم سحابة إذا ارتحلوا. لئلا تؤذيهم حرارة الشمس، وقد ذكر تفصيل شأنها في توراتهم في الفصل التاسع من سفر العدد، ومنها إنزال المنّ، وقد روي في التوراة أنهم لما ارتحلوا من إيليم وأتوا إلى برّية سين، الت بين إيليم وسيناء، في منتصف الشهر الثاني بعد خروجهم من مصر، تذمروا على موسى وهارون في البرية، وقالوا لهما: ليتنا متنا في أرض مصر إذ كنا نأكل خبزا ولحما. فأخرجتمانا إلى هذه البرية لتهلكا هذا الجمع بالجوع. فأوحى تعالى لموسى عليه السلام إني أمطر عليكم خبزا من السماء، فليخرج الشعب، ويلتقطون حاجة اليوم بيومها طعامهم من أجل أني أمتحنهم، هل يمشون في شريعتي أم لا، وليكونوا في اليوم السادس أنهم يهيئون ضعف ما يلتقطونه يوما فيوما. لأن اليوم السابع يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة ولا لطلبة شيء. فقال لهم موسى: إن الرب تعالى يعطيكم عند المساء لحما تأكلون، وبالغداة تشبعون خبزا. فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة، وبالغداة أيضا وقع الندى حول المحلة، ولما غطى وجه الأرض تباين في البرية شيء رقيق كأنه مدقوق بالمدقة. يشبه الجليد على الأرض. فلما نظر إليه بنو إسرائيل قالوا: ما هذا؟ لأنهم لم يعرفوه. فقال لهم موسى: هذا هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا، وقد أمركم أن يلقط كل واحد على قدر ما في بيته، وقدر مأكله. ففعل بنو إسرائيل كذلك ولقطوا ما بين مكثّر ومقلّل، وقال لهم موسى: لا تبقوا منه شيئا إلى الغد. فلم يطيعوا موسى، واستفضل منه رجال إلى الغد، فضرب فيه الدود ونتن. فغضب عليهم موسى، وكانوا يلقطون غدوة. كل إنسان يلقط على قدر ما يأكل. فإذا أصابه حر الشمس ذاب، وقد أعطوا في اليوم السادس خبز يومين ليجلس كل رجل منهم في مكانه في اليوم السابع. راحة وتقديسا له، وكان إذا خرج بعض الشعب ليلتقط، يوم السابع، لا يجد في الأرض منه شيئا، ودعا آل إسرائيل اسمه المنّ، وكان مثل حب الكزبرة أبيض، وطعمه كرقاق بعسل، وأكل بنو إسرائيل المنّ أربعين سنة حتى أتوا إلى الأرض العامرة ودنوا من تخوم أرض كنعان، وروي في ترجمة التوراة أيضا أن المنّ كان يشبه لون للؤلؤ، وكان يطوف الشعب ويلتقطونه ويطحنونه بالرحى، ويدقونه في الهاون ويطبخونه في القدور، ويعملون منه رغفا طعمها كالخبز المعجون بالدهن، ومتى نزل الندى على المحلّة ليلا كان ينزل المن معه.

١٤. هذا ما كان من أمر المن، وأما السلوى فروي أيضا: أن جماعة ممن صعد مع بني إسرائيل من

مصر تاقت أنفسهم للحم وجلسوا يبكون، ووافقهم بنو إسرائيل على اشتهائه أيضا، وقالوا: من يطعمنا لحما لنأكل؟ قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله بمصر من غير ثمن، والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم، والآن قد يبست نفوسنا ولا تنظر عيوننا إلا المنّ. فلما سمع موسى الشعب يبكون بعشائرهم، وعلم غضب الرب عليهم، لذلك، ابتهل إلى ربه وقال: من أين لي لحم أطعم منه هذا الجمع وهم يبكون عليّ ويقولون أعطنا لحما لنأكل؟ فأوحى إليه ربه أن يجمع سبعين رجلا من شيوخ شعبه وعرفائه، ويقبل بهم إلى خيمة الاجتماع فيكونوا معه.. ثم كلمه ربه ووعده أن يعطيه لحما يأكلون منه شهرا حتى يأنفوا منه. فأخبر موسى الشعب بذلك. ثم انحاز إلى المحلة هو وشيوخ قومه. فخرجت ريح وحملت السلوى من البحر وألقتها على المحلة مسيرة يوم حول المحلة من كل جانب، وكانت تطير بالجوّ ذراعين على الأرض وقام الشعب يومهم ذلك كله، والليل، وفي غد اليوم الثاني. فجمعوا السلوى أقل من جمع عشرة أكرار. سطحوه سطيحا ويبسوه حول المحلة، وقبل أن ينقطع اللحم من عندهم غضب الرب تعالى على الشعب، فضربه ضربة عظيمة جدا، ودعي اسم ذلك الموضع قبول الشهوة. لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا. ثم خرجوا من قبور الشهوة وارتحلوا لغيره.

١٥. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة. معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز، والإشعار بأنه أمر محقق غنيّ عن التصريح به. أي فظلموا بأن أكثروا من التضجر والتذمر على ربهم وشكوى سكناهم في البرية وفراقهم مصر، وما ظلمونا بذلك، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، بالعصيان. إذ لا يتخطاهم ضرره وبذلك حق عليهم العذاب الذي ضربوا به كما ذكرناه.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ثم قفى على هذا بذكر إيتائهم الكتاب وهو المنة الكبرى فقال: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ذكر الفرقان بعد الكتاب معطوفا عليه دليل على أن المراد به ما في الكتاب من الشرائع والاحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام.

---

(١) تفسير المنار: ١/٣١٨.

٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر، ويعدكم بهذه الاحكام والشرائع للاهتداء، ويهيئكم للاسترشاد فلا تقعوا في وثنية أخرى.

٣. من كمال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد ﷺ هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذي تفرقوا عنه، واختلفوا فيه، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون، وجاحده الرؤساء المستكبرون، والمقلدون الذين لا يعقلون.

٤. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر أيها الرسول فيما تلقيه على بني اسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين اتخذوا من حليهم عجلا عبدوه إذ كان يناجى ربه في الميقاتين الزماني والمكانى ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها عبدتموه، والقصة مفصلة في سورتي الأعراف وطه المكيتين لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات، وأما ما هنا فهو تذكير لبنى اسرائيل بما تقدم وجهه في سياق دعوتهم إلى الإسلام.

٥. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي فتوبوا إلى خالقكم الذي لا يجوز أن تعبدوا معه إلها آخر هو أدنى منكم، وهو من خلقكم، أي تقديركم وصنعكم، وذلك:

أ. بأن يقتل بعضكم بعضا، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه.

ب. ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليبخع كل من عبد العجل نفسه انتحارا.

٦. التوبة: هي محو أثر الرغبة في الذنب من لوح القلب، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه وما له من السلطان عليه في الحال، وكون مصيره إليه في المآل، لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الالهي بعد مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية ويحدث في روحه انفعالا مما فعل وندما على صدروه عنه، ويزيد هذا الحال في النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب، وما رتبه الله عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة. هذا أثر التوبة في النفس، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذي تاب منه وتمحو أثره السيء: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

٧. من علامة التوبة النصوح: الإتيان بأعمال تشق على النفس، وما كانت لتأتيها لو لا ذلك الشعور الذي يحدثه الذنب، وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة سواء كان الذنب مع الله تعالى أو مع الناس.. ألا ترى أن أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهى به أن يجيء معترفا بالذنب معتذرا عنه؟ وهذا ذل

يشق على النفس لا محالة.

٨. أمر بنو اسرائيل بأشق الأعمال في تحقيق التوبة من أكبر الذنوب، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم وقد قال: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ لينبههم إلى أن الاله الحقيقي هو الخالق البارئ ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم.. ذلك العمل الذي أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم.

٩. القصة في التوراة التي بين أيديهم إلى اليوم: دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب، فأجابه بنو لاوي، فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضا ففعلوا، وقتل في ذلك اليوم (نحو ثلاثة آلاف)، قال المفسّرون: إن الذين قتلوا سبعون ألفا، والقرآن لم يعين العدد، والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه فنمسك عنه.

١٠. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الذي دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلا لما وعدكم به في الدنيا ولمثوبته في الآخرة.

١١. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ من كلام الله تعالى، لا تتمة لكلام موسى عليه السّلام في الظاهر، وهو معطوف على محذوف تقديره: ففعلتم ما أمركم موسى به فتاب عليكم.

١٢. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم، وإن تعددت قبلها جرائمهم، الرحيم بهم، ولولا رحمته لعجل بإهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولا سيما الشرك به.

١٣. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي واذكروا إذ قلتم لنبيكم يا موسى لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان واتباع حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالإيمان لك.

١٤. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم، والتفصيل في سورة الأعراف، فالقصة هنالك مقصودة بكل ما فيها من فائدة وعبرة، وإنما المراد بها هنا التذكير.

١٥. سؤال بنى اسرائيل رؤية الله تعالى واقعة مستقلة لا تتصل بمسألة عبادة العجل، وهى معروفة عند بنى اسرائيل ومنصوصة في كتابهم وذلك أن طائفة منهم قالوا لماذا اختصّ موسى وهارون بكلام الله

تعالى من دوننا، وانتشر هذا القول في بنى اسرائيل وتجرأ جماعة منهم بعد موت هارون وهاجوا على موسى وبنى هارون وقالوا لهم إن نعمة الله على شعب اسرائيل هي لأجل ابراهيم واسحاق فتشمل جميع الشعب، وقالوا لموسى لست أفضل منا فلا يحق لك أن تترفع وتسود علينا بلا مزية، وأننا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين، وهذه النار هي المعبر عنها هنا بالصاعقة، وهل ثمة من نار غير الاشتعال بالكهرباء وهو ما تحدثه الصاعقة التي تحدث الانشقاق في الأرض أيضا؟ وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرون ينظرون، وهكذا كان بنو اسرائيل يتمردون ويعاندون موسى عليه السّلام وكان سوط عذاب الله يصب عليهم، فرموا بالأمراض والأوبئة وسلطت عليهم الهوام وغيرها حتى أماتت منهم خلقا كثيرا، فمجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ لم تكن بدعا من أعمالهم.

١٦. ذهب محمد عبده إلى أن المراد بالبعث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هو كثرة النسل، أي أنه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها، وظن أن سينقرضون بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها.

١٧. العبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجها إلى الذين كانوا في عصر التنزيل، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر.

١٨. ما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة، واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصحح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة وان لم يواقعها هو ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين.

١٩. بعد هذا ذكر الله تعالى نعمة أخرى، بل نعمتين من النعم التي من بها على بنى اسرائيل فكفروا بها ولكنه لم يذكر ما كان به الكفران، بل طواه وأشار إليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله تعالى بذلك الذنب المطوي وإنما ظلموا أنفسهم، وهذا أسلوب آخر من أساليب البيان في التذكير وضرب من ضروب الإيجاز التي هي أقوى دعائم الإعجاز.

٢٠. أما النعمة الأولى فقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهذه نعمة مستقلة متصلة بما قبلها في سياق الذكرى، منفصلة عنها في الوقوع، فإن التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد، ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظللهم فى التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم، ولا معنى لوصف الغمام بالرقيق، بل السياق يقتضى كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل الذي يفيده حرف التظليل، إلا بسحاب كثيف يمنع حر الشمس ووهجها، وكذلك لا تتم النعمة التي بها المنة إلا بالكثيف وهو المنقول المعروف عند الإسرائيليين أنفسهم.

٢١. أما النعمة الثانية ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ ما منح من الله تعالى يسمى إيجاده إنزالا ومنه ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ على أن المن ينزل كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائعة ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس، ومنها الترنجبين وبه فسر المن، وأما السلوى فقد فسروها بالسمانى وهو الطائر المعروف فمعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا.

٢٢. ظاهر أن قوله تعالى ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ مقدر فيه القول، وفى (سفر الخروج) أن بنى اسرائيل أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرقاق بالعسل؛ وكان لهم بدلا من الخبز وليس المراد أنه لم يكن لهم أكل سواه إلا السلوى فقد كان معهم المواشي ولكنهم كانوا محرومين من النبات والبقول كما يعلم مما يأتى.

٢٣. في قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تقرير لقاعدة مهمة وهى أن كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته، وكل ما ينهاه عنه فإنما يقصد به دفع الضرر عنه، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه، ولن يبلغ أحد ضره فيضره، كما ثبت في الحديث القدسي. فكل عمل ابن آدم له أو عليه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ أي واذكر أيها الرسول الكريم فيما تلقيه على بنى إسرائيل وغيرهم من العظات قول موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجي ربه: يا قوم إنكم باتخاذكم العجل إلها قد أضررتم بأنفسكم وأنقصتم ما لها من الأجر والثواب عند ربكم لو أنكم أقمتم على عهدي واتبعتم شريعتي، وقد فصّلت هذه القصة في سورتي الأعراف وطه.

٢. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي فاعزموا على التوبة إلى من خلقكم وميّز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة، وفي قوله إلى بارئكم إيماء إلى أنهم بلغوا غاية الجهل، إذ تركوا عبادة البارئ وعبدوا أغبى الحيوان وهو البقر، وليقتل البريء منكم المجرم، وإنما جعلهم أنفسهم للإشارة إلى أن المؤمنين إخوة، فأخو الرجل كأنه نفسه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تغتابوا إخوانكم من المسلمين.

٣. وقصة القتل مذكورة في التوراة التي يتدارسونها إلى اليوم، ففيها دعا موسى: من للرّبّ فإليّ، فأجابه بنو لاوي، فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضا ففعلوا، فقتل في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل، والعبرة من القصة لا تتوقف على عدد معين فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرض له.

٤. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ أي ما ذكر من التوبة والقتل أنفع لكم عند الله من العصيان والإصرار على الذنوب لما فيه من العذاب، إذ أن القتل يطهركم من الرجس الذي دنّستم به أنفسكم ويجعلكم أهلا للثواب.

٥. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ففعلتم ما أمركم به موسى فقبل توبتكم وتجاوز عن سيئاتكم.

٦. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إنه هو الذي يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويقبلها منهم، وهو الرّحيم بمن ينيب إليه ويرجع، ولولا ذلك لعجل بإهلاككم على ما اجترحتم من عظيم الآثام.

٧. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾ أي واذكروا قول السبعين من أسلافكم الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور، للاعتذار عن عبادة العجل: لن نصدّقك في قولك إن هذا كتاب الله، وإنك سمعت كلامه، وإن الله أمر بقبوله والعمل به حتى نرى الله عيانا لا ساتر

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٢٠.

بيننا وبينه، فيكون كالجهر في الوضوح (والجهر في المسموعات كالمعاينة في المبصرات)

٨. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي فأخذت الصاعقة من قال ذلك، والباقون ينظرون بأعينهم، وقد فصل ذلك في سورة الأعراف؛ وفي التوراة: إن طائفة منهم قالوا لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا، وشاع ذلك في بنى إسرائيل وقالوا لموسى بعد موت هارون: إن نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم وإسحاق فتعمّ الشعب جميعه، وأنت لست أفضل منه، فلا يحق لك أن تسودنا بلا مزية، وإنا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين.

٩. هكذا كان حال بنى إسرائيل مع موسى يتمردون ويعاندون، وسوط العذاب يصبّ عليهم صبّا، فأصيبوا بالأوبئة وأنواع الأمراض وسلطت عليهم هوامّ الأرض وحشراتها حتى فتكت بالعدد العديد والخلق الكثير، فليس ببدع منهم أن يجحدوا دعوة النبي ﷺ ويعاندوها.

١٠. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

أ. يرى بعض المفسرين أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبية لغيرهم.

ب. ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أي إنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظنّ أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليعدّ الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حلّ بهم العذاب بكفرهم لها.

١١. إنما قص الله علينا هذا القصص ووجهه إلى من كان من اليهود في عصر التنزيل لبيان وحدة الأمة، وأن ما يبلوها به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما هو لمعنى فيها يسوغ أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع منه، ليعلم الناس أن الأمم متكافلة، سعادة الفرد منها مرتبطة بسعادة سائر الأفراد، وشقاؤه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يفعلها هو كما قال ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

١٢. في هذا التكافل رقيّ الأمة وتقدمها في المدنية والحضارة، إذ يحملها على التعاون البأساء والضراء فتحوز قصب السبق بين الأمم.

١٣. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ ذاك أنهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر، وقعوا في صحراء فأصابهم حر شديد، فشكوا إلى موسى فأرسل الله إليهم الغمام يظللهم حتى دخلوا أرض الميعاد.

١٤. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ ما منحه الله لعباده يسمى إيجاده إنزالا كما جاء في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وقد قالوا إن المنّ كان ينزل عليهم نزول الضباب من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وتأتيهم السّمانى فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه إلى الغد.

١٥. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم كلوا من ذلك الرزق الطيب، وفي سفر الخروج ـ أنهم أكلوا المنّ أربعين سنة وأن طعمه كالرّقاق بالعسل، وكان لهم بدل الخبز إذ كانوا محرومين من البقول والخضر.

١٦. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي فكفروا تلك النعم الجزيلة، وما عاد ضرر ذلك إلا عليهم باستيجابهم عذابي وانقطاع ذلك الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مئونة ولا مشقة.

١٧. في هذا إيماء إلى أن كل ما يطلبه الله من عباده فإنما نفعه لهم، وما ينهاهم عنه فإنما ذلك لدفع ضرّ يقع عليهم، وقد جاء في الحديث القدسي: فكل عمل ابن آدم له أو عليه)، وهو بمعنى قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. اقتلوا أنفسكم. ليقتل الطائع منكم العاصي. ليطهره ويطهر نفسه.. هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة.. وإنه لتكليف مرهق شاق، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه، ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة، التي لا تتماسك عن شر، ولا تتناهى عن نكر، ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل، وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيهم!

٢. وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

٣. إسرائيل هي إسرائيل! هي هي كثافة حس، ومادية فكر، واحتجابا عن مسارب الغيب.. فإذا

---

(١) في ظلال القرآن: ٧٢/١.

هم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربه ـ الذي فصلت قصته في السور المكية من قبل ـ ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يروا الله عيانا، والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم، لينكشف تعنتهم القديم الذي يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم، وطلبهم الخوارق منه، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتثبت من صدقه.

٤. إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة.. أم لعله التعنت والمعاجزة.. والآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة.. كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادا عميقا، وليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردا حين يرفع عنها السوط، وتبطرا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين.

٥. ومن ثم يجدفون هذا التجديف، ويتعنتون هذا التعنت: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ .. ومن ثم يأخذهم الله جزاء ذلك التجديف، وهم على الجبل في الميقات المعلوم: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

٦. ومرة أخرى تدركهم رحمة الله، وتوهب لهم فرصة الحياة عسى أن يذكروا ويشكروا، ويذكرهم هنا مواجهة بهذه النعمة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٧. يذكرهم الله تعالى برعايته لهم في الصحراء الجرداء حيث يسر لهم طعاما شهيا لا يجهدون فيه ولا يكدون، ووقاهم هجير الصحراء وحر الشمس المحرق بتدبيره اللطيف.

٨. تذكر الروايات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة، والصحراء بغير مطر ولا سحب، جحيم يفور بالنار، ويقذف بالشواظ، وهي بالمطر والسحاب رخية ندية تصح فيها الأجسام والأرواح.. وتذكر الروايات كذلك أن الله سخر لهم ﴿الْمَنَّ﴾ يجدونه على الأشجار حلوا كالعسل، وسخر لهم ﴿السَّلْوَى﴾ وهو طائر السماني يجدونه بوفرة قريب المنال، وبهذا توافر لهم الطعام الجيد، والمقام المريح،

وأحلت لهم هذه الطيبات.

٩. لكن أتراهم شكروا واهتدوا.. إن التعقيب الأخير في الآية يوحي بأنهم ظلموا وجحدوا، وإن كانت عاقبة ذلك عليهم، فما ظلموا إلّا أنفسهم! ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. في هذه الآيات الكريمات تفصيل لتلك النعم، التي أنعم الله بها على بنى إسرائيل، والتي جاء إجمالها في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .. ومع تتابع هذه النعم السابغة، وتوالى هذه الآلاء الكريمة، فإن القوم لم يلقوا هذا الإحسان إلا بالكفران، واللجاج في العناد، والمحادّة لله ورسوله.

٢. ينجيهم الله من فرعون، وما رهقهم به من محن، وما رماهم به من بلاء، حيث كان يذبّح أبناءهم، ويستحيى نساءهم بما يدخل عليهم من جنده من استخفاف بحرماتهن، وهتك لأستارهن، مما يجرح حياء المرأة، ويغرق وجه الحرة بماء الخجل!.. ويكرم الله نبيهم موسى، فينزله في رحاب ضيافته أربعين ليلة، يناجيه فيها، ويوحى إليه بآياته وكلماته.

٣. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ والكتاب هو التوراة، والفرقان من عطف الصفات، فهو كتاب وهو فرقان، يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وما لله وما لخلق الله! ولكن تأبى طباعهم النكدة أن تعلو إلى مشارف هذا النور، بل هي رابضة على التراب، ترعى مع البهائم، وتهيم في أودية الضلال.

٤. يتخذون من العجل إلها معبودا من دون الله! ويتلقّى هؤلاء المناكيد العقاب الطبيعي من الله، فيأمرهم أن يقتلوا أنفسهم، فتلك نفوس لا حرمة لها، بعد أن نزلت إلى هذا المستوي الحيواني، بل ونزلت عن هذا المستوي، فوضعت جباهها تحت أقدام الحيوان، تعفّر جبينها بالتراب؛ عابدة ساجدة له.

٥. يتسلط القوم بعضهم على بعض، ويضرب بعضهم رؤوس بعض، كما تتناطح الوعول، أو كما تتناهش العقارب والحيات!

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١/ ٨٤.

٦. لا تنفع في القوم هذه المثلات، ولا تقوم لهم منها شواهد العبر والعظات، وإذا الذين رحمهم الله منهم من هذه المحنة ونجاه من القتل؛ لا يزالون في ريبة من ربّهم، وفى شك من معبودهم، فيجيئون إلى موسى بهذا الطلب العجيب: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

٧. وهم بهذا يكشفون عن بلادة حسّهم، وطفولة مداركهم، بحيث لا يتعاملون مع الحياة إلا بما يلامس حواسّهم، ويجبه أبصارهم، أمّا ما يستشفه الوجدان، ويتمثله الحدس والخيال؛ فليس لهم حظ منه، ولا تجاوب معه.. إنهم لم يستطيعوا أن يروا الله في آياته التي تبدو في ظاهر الموجودات وباطنها، أو أن يشهدوه فيما يجريه الله تعالى على يد موسى عليه السلام، من معجزات ناطقة بقدرة الله، وبسلطانه المتمكن في كل ذرة من ذرات الوجود، حتى لقد آمن سحرة فرعون بين يدى موسى من غير دعوة إلى الإيمان، وهم منه في وجه خصومة بادية وعداوة متحدية، بل لقد اضطر فرعون إزاء سطوة المعجزة أن يقول: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ .. ولكن القوم رجال في مساليخ أطفال، لا يكادون يخطون على طريق الهدى خطوة أو بضع خطوات؛ حتى يتعثروا ويسقطوا في التراب والوحل!

٨. وكان من إعناتهم لنبيهم موسى، وإلحاحهم عليه، في ثرثرة كثرثرة الصبيان، ولهفة كلهفة الأطفال ـ أن طلب موسى من ربّه أن يراه حتى يراه معه هؤلاء الأغبياء، كما جاء في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾

٩. وكذلك صعق القوم الّذين كانوا معه، وكانت عدتهم سبعين، وقع عليهم الاختيار، ليكونوا شهودا عند القوم بأنهم رأوا الله جهرة! وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾

١٠. كاد يكون إجماع المفسرين على أن البعث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هو إحياؤهم بعد أن أخذتهم الصاعقة، وأن كلمتي البعث والموت هنا مجازيتان في مقابل اليقظة والنوم، كما في قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ والأولى أن يحمل المعنى على ظاهر اللفظ، فيكون الموت موتا حقيقيا، والبعث بعثا حقيقيا أيضا، أي بعث الآخرة! ويشهد لهذا الوجه:

أ. العطف بثم، في هذه الآية ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾

ب. كما يقوّيه أيضا ما جاء لسان موسى في قوله تعالى مخاطبا ربّه: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾! فلو أنهم عادوا إلى الحياة مرة أخرى، لما كان لموسى أن يسأل ربه ما سأل.

١١. الذي حمل المفسّرين على القول بإحياء القوم بعد أن أخذتهم الرجفة، حتى أعيدوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ـ هو قوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كأنّ استحقاق الشكر لا يكون إلا عن البعث الدنيوي، وكأن البعث الأخروي ليس بالنعمة المستأهلة للحمد والشكر، وهذا غير صحيح، فالحياة على أية حال من الأحوال خير من العدم والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ (٥٢: الإسراء) والمراد بالدعوة هنا الدعوة إلى الحشر، التي يستجيب لها الأموات جميعا بالحمد لله رب العالمين.

١٢. إن مجيء الآيات بعد هذا خطابا عاما لبنى إسرائيل، معدّدة النعم التي أنعم الله بها عليهم، مذكرة بالبعث بين عرض هذا النعم ـ فيه إيقاظ للشعور بيوم الجزاء، والعمل له، وتغليظ للمنكرات التي يقترفها القوم، في مواجهة هذه النعم الجليلة المتتابعة عليهم.

١٣. في هذه الآيات الكريمة عرض لبعض هذه النعم.. ففي التّيه الذي رماهم الله به في الصحراء، وكتبه عليهم أربعين سنة، لم تتخلّ عنهم رحمة الله، فساق إليهم الغمام ليظلّهم من وقدة الشمس، ولفح الهجير، وأرسل عليهم المنّ والسلوى، طعاما لا يتكلفون له عملا، فالمنّ مادة عسلية تفرزها بعض الأشجار، والسلوى طيور طيبة الطعام هي السّماني.

١٤. لكن هذه الألطاف الرحمانية، وهذا الطعام الطيب المسوق بقدرة الله، المحفوف برحمته؛ لم تستسغه هذه النفوس الحيوانية، فعافته وتنكرت له، وطلبت ما يملأ معدة الحيوان.. من بقل وقثاء، وحنطة وعدس وبصل!، فكان أن أجابهم الله إلى ما طلبوا، وساقهم سوق الحيوان إلى المرعى الذي يجدون فيه الطعام الذي اشتهوا!

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

(١) التحرير والتنوير: ١/٤٨٧.

١. هذه نعمة أخرى وهي نعمة نسخ تكليف شديد عليهم كان قد جعل جابرا لما اقترفوه من إثم عبادة الوثن فحصل العفو عنهم بدون ذلك التكليف فتمت المنة وبهذا صح جعل هذه منة مستقلة بعد المنة المتضمنة لها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٥٢] لأن العفو عن المؤاخذة بالذنب في الآخرة قد يحصل مع العقوبة الدنيوية من حد ونحوه وهو حينئذ منة إذ لو شاء الله لجعل للذنب عقابين دنيوي وأخروي كما كان المذنب النفس والبدن، ولكن الله برحمته جعل الحدود جوابر في الإسلام، كما في الحديث الصحيح، فلما عفا الله عن بني إسرائيل على أن يقتلوا أنفسهم، فقد تفضل بإسقاط العقوبة الأخروية التي هي أثر الذنب، ولما نسخ تكليفهم بقتل أنفسهم فقد تفضل بذلك فصارت منتان.

٢. الفاء في قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ فاء التسبب لأن الظلم سبب في الأمر بالتوبة، فالفاء لتفريع الأمر على الخبر، وليست هنا عاطفة عند الزمخشري وابن الحاجب إذ ليس بين الخبر والإنشاء ترتب في الوجود، ومن النحاة من لا يرى الفاء تخرج عن العطف وهو الجاري على عبارات الجمهور مثل صاحب (مغني اللبيب) فيجعل ذلك عطف إنشاء على خبر ولا ضير في ذلك.

٣. قول موسى عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تشريع حكم لا يكون مثله إلا عن وحي لا عن اجتهاد ـ وإن جاز الاجتهاد للأنبياء فإن هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التي قيل قد اتفق عليها شرائع الله ـ فهو يدل على أنه كلفهم بقتل أنفسهم قتلا حقيقة:

أ. إما بأن يقتل كل من عبد العجل نفسه فيكون المراد بالأنفس الأرواح التي في الأجسام فالفاعل والمفعول واحد على هذا، وإنما اختلفا بالاعتبار كقوله ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقول ابن أذينة:

وإذا وجدت لها وساوس سلوة ... شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها

ب. وإما بأن يقتل من لم يعبدوا العجل عابديه.

٤. كلام التوراة في هذا الغرض في غاية الإبهام، وظاهره أن موسى عليه السلام أمره الله أن يأمر اللاويين ـ الذين هم من سبط لاوي الذي منه موسى وهارون ـ أن يقتلوا من عبد العجل بالسيف وأنهم فعلوا وقتلوا ثلاثة آلاف نفس، ثم استشفع لهم موسى فغفر الله لهم أي فيكون حكم قتل أنفسهم منسوخا بعد العمل به، ويكون المعنى فليقتل بعضكم بعضا، فالأنفس مراد بها الأشخاص كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا

دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي فليسلم بعضكم على بعض وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] أي لا يسفك بعضكم دماء بعض، وقوله عقبه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] فالفاعل والمفعول متغايران.

٥. من الناس من حمل الأمر بقتل النفس هنا على معنى القتل المجازي، وهو التذليل والقهر على نحو قول امرئ القيس: في أعشار قلب مقتّل)، وقوله: خمر مقتلة أو مقتولة، أي مذللة سورتها بالماء، وقال بجير بن زهير:

إن التي ناولتني فرددتها   قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

وفيه بعد عن اللفظ، بل مخالفة لغرض الامتنان، لأن تذليل النفس وقهرها شريعة غير منسوخة.

٦. الظلم هنا: الجناية والمعصية على حد قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

٧. الفاء في قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ظاهرة في أن قتلهم أنفسهم بيان للتوبة المشروعة له فتكون الفاء للترتيب الذكري، وهو عطف مفصل على مجمل كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وهو يقتضي أنها تفيد الترتيب لا التعقيب، وجوز صاحب فيه وجهين:

أ. أحدهما تأويل الفعل المعطوف عليه بالعزم على الفعل فيكون ما بعده مرتبا عليه ومعقبا، وهذا لا يتأتى في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا﴾

ب. ثانيهما جعل التوبة المطلوبة شاملة لأقوال وأعمال آخرها قتلهم أنفسهم فتكون ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ الفاء للترتيب والتعقيب أيضا.

والصحيح أنه إذا كانت الجملة الثانية منزلة منزلة البيان من الجملة الأولى، وكانت الأولى معطوفة بالفاء كان الأصل في الثانية أن تقطع عن العطف، فإذا قرنت بالفاء كما في هذه الآية كانت الفاء الثانية مؤكدة للأولى، ولعل ذلك إنما يحسن في كل جملتين تكون أولاهما فعلا غير محسوس وتكون الثانية فعلا محسوسا مبين للفعل الأول فينزل منزلة حاصل عقبه فيقرن بالفاء لأنه لا يحصل تمامه إلا بعد تقرير الفعل الأول في النفس ولذلك قربه صاحب (الكشاف) بتأويل الفعل الأول بالعزم في بعض المواضع.

٨. البارئ هو الخالق الخلق على تناسب وتعديل فهو أخص من الخالق، ولذلك أتبع به الخالق في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وتعبير موسى عليه السلام في كلامه بما يدل على معنى

لفظ البارئ في العربية تحريض على التوبة لأنها رجوع عن المعصية، ففيها معنى الشكر وكون الخلق على مثال متناسب يزيد تحريضا على شكر الخالق.

٩. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ ظاهر في أنه من كلام الله تعالى عند تذكيرهم بالنعمة وهو محل التذكير من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، فالماضي مستعمل في بابه من الإخبار، وقد جاء على طريقة الالتفات لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الغيبة ورجحه هنا سبق معاد ضمير الغيبة في حكاية كلام موسى، وعطفت الفاء على محذوف إيجازا، أي ففعلتم فتاب عليكم أو فعزمتم فتاب عليكم، على حد ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فضرب، وعطف بالفاء إشارة إلى تعقيب جرمهم بتوبته تعالى عليهم وعدم تأخيرها إلى ما بعد استئصال جميع الذين عبدوا العجل بل نسخ ذلك بقرب نزوله بعد العمل به قليلا أو دون العمل به وفي ذلك رحمة عظيمة بهم إذ حصل العفو عن ذنب عظيم بدون تكليفهم توبة شاقة بل اكتفاء بمجرد ندمهم وعزمهم على عدم العود لذلك.

١٠. من البعيد أن يكون ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ من كلام موسى عليه السلام لما فيه من لزوم حذف في الكلام غير واضح القرينة؛ لأنه يلزم تقدير شرط تقديره فإن فعلتم يتب عليكم فيكون مرادا منه الاستقبال والفاء فصيحة، ولأنه يعرى هذه الآية عن محل النعمة المذكر به إلا تضمنا.

١١. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ خبر وثناء على الله، وتأكيده بحرف التوكيد لتنزيلهم منزلة من يشك في حصول التوبة عليهم لأن حالهم في عظم جرمهم حال من يشك في قبول التوبة عليه وإنما جمع التواب مع الرحيم لأن توبته تعالى عليهم كانت بالعفو عن زلّة اتخاذهم العجل وهي زلة عظيمة لا يغفرها إلا الغفار، وبالنسخ لحكم قتلهم وذلك رحمة فكان للرحيم موقع عظيم هنا وليس هو لمجرد الثناء.

١٢. تذكير بنعمة أخرى نشأت بعد عقاب على جفاء طبع فمحل المنة والنعمة هو قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾، وما قبله تمهيد له وتأسيس لبنائه كما تقدم في قوله: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] الآية، والقائلون هم أسلاف المخاطبين، وذلك أنهم قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ .

١٣. الظاهر أن هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل كما هو ظاهر ترتيب الآيات، روى ذلك البغوي عن السدي:

أ. قيل: إن ذلك سألوه عند مناجاته وأن السائلين هم السبعون الذين اختارهم موسى للميقات وهم المعبر عنهم في التوراة بالكهنة وبشيوخ بني إسرائيل.

ب. وقيل: سأل ذلك جمع من عامة بني إسرائيل نحو العشرة الآلاف.

٣. هذان القولان حكاهما في (الكشاف) وليس في التوراة ما هو صريح لترجيح أحد القولين ولا ما هو صريح في وقوع هذا السؤال، لكن ظاهر ما في سفر التثنية منها ما يشير إلى أن هذا الاقتراح قد صدر وأنه وقع بعد كلام الله تعالى الأول لموسى لأنها لما حكت تذكير موسى في مخاطبة بني إسرائيل ذكرت ما يغاير كيفية المناجاة الأولى، إذ قال: فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدم إليّ جميع رؤساء أسباطكم وشيوخكم وقلتم هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار.. إن عندما نسمع صوت الرب إلهنا أيضا نموت.. تقدم أنت واسمع كل ما يقول لك الرب إلهنا وكلمنا بكل ما يكلمك به الرب..) فهذا يؤذن أن هنالك ترقبا كان منهم لرؤية الله تعالى وأنهم أصابهم ما بلغ بهم مبلغ الموت، وبعد فالقرآن حجة على غيره مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه، والظاهر أن ذلك كان في الشهر الثالث بعد خروجهم من مصر.

١٤. معنى ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾:

أ. يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى، أي إنهم يرتدون في المستقبل عن إيمانهم الذي اتصفوا به من قبل.

ب. ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذي دليله المشاهدة أي إن أحد هذين الإيمانين ينتفي إن لم يروا الله جهرة.

لأن لن لنفي المستقبل قال سيبويه: لا لنفي يفعل ولن لنفي سيفعل)، وكما أن قولك سيقوم لا يقتضي أنه الآن غير قائم، فليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا حين قولهم هذا، ولكنها دالة على عجرفتهم وقلة اكتراثهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى، وهذا كقول القائل: إن كان كذا فأنا كافر، وليس في القرآن ولا في غيره ما يدل على أنهم قالوا ذلك عن كفر.

١٥. إنما عدى ﴿نُؤْمِنَ﴾ باللام لتضمينه معنى الإقرار بالله، ولن نقر لك بالصدق والذي دل على

هذا الفعل المحذوف هو اللام وهي طريقة التضمين.

١٦. الجهرة مصدر بوزن فعلة من الجهر وهو الظهور الواضح فيستعمل في ظهور الذوات والأصوات حقيقة على قول الراغب إذ قال: الجهر ظهور الشيء بإفراط إما بحاسة البصر نحو رأيته جهارا ومنه جهر البئر إذا أظهر ماءها، وإما بحاسة السمع نحو: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ [طه: ٧]) وكلام (الكشاف) مؤذن بأن الجهر مجاز في الرؤية بتشبيه الذي يرى بالعين بالجاهر بالصوت والذي يرى بالقلب بالمخافت، وكان الذي حداه على ذلك اشتهار استعمال الجهر في الصوت، وفي هذا كله بعد إذ لا دليل على أن جهرة الصوت هي الحقيقة ولا سبيل إلى دعوى الاشتهار في جهرة الصوت حتى يقول قائل إن الاشتهار من علامات الحقيقة على أن الاشتهار إنما يعرف به المجاز القليل الاستعمال، وأما الأشهرية فليست من علامات الحقيقة، ولأنه لا نكتة في هذه الاستعارة ولا غرض يرجع إلى المشبه من هذا التشبيه فإن ظهور الذوات أوضح من ظهور الأصوات.

١٧. انتصب (جهرة) على المفعول المطلق لبيان نوع فعل ترى لأن من الرؤية ما يكون لمحة أو مع سائر شفاف فلا تكون واضحة.

١٨. وجه العدول عن أن يقول عيانا إلى قوله (جهرة) لأن جهرة أفصح لفظا لخفته، فإنه غير مبدوء بحرف حلق والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام ولسلامته من حرف العلة وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام وخفتها على السمع وللقرآن السهم المعلى في ذلك وهو في غاية الفصاحة.

١٩. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي عقوبة لهم عما بدا منهم من العجرفة وقلة الاكتراث بالمعجزات، وهذه عقوبة دنيوية لا تدل على أن المعاقب عليه حرام أو كفر، لا سيما وقد قدر أن موتهم بالصاعقة لا يدوم إلا قليلا، فلم تكن مثل صاعقة عاد وثمود، وبه تعلم أن ليس في إصابة الصاعقة لهم دلالة على أن رؤية الله تعالى مستحيلة وأن سؤالها والإلحاح فيه كفر كما زعم المعتزلة، وأن لا حاجة إلى الجواب عن ذلك بأن الصاعقة لاعتقادهم أنه تعالى يشبه الأجسام، فكانوا بذلك كافرين، إذ لا دليل في الآية ولا غيرها على أنهم كفروا، كيف وقد سأل الرؤية موسى عليه السلام.

٢٠. الصاعقة نار كهربائية من السحاب تحرق من أصابته، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هواؤها

إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخالط الهواء الذي يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهربائية، وقد قيل: إن الذي أصابهم نار.. وقيل: سمعوا صعقة فماتوا.

٢١. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فائدة التقييد بهذا الحال عند صاحب (الكشاف) الدلالة على أن الصاعقة التي أصابتهم نار الصاعقة لا صوتها الشديد لأن الحال دلت على أن الذي أصابهم مما يرى، وقال القرطبي أي وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض أي مجتمعون.

٢٢. ﴿تَنْظُرُونَ﴾ محذوف وأن (تنظرون) بمعنى تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعا أن يظهر لهم الله من خلاله لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاما يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة إذ طمعوا فيما لم يكن لينال لهم.

٢٣. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ إيجاز بديع، أي فمتم من الصاعقة، ثم بعثناكم من بعد موتكم، وهذا خارق عادة جعل الله معجزة لموسى استجابة لدعائه وشفاعته أو كرامة لهم من بعد تأديبهم إن كان السائلون هم السبعين فإنهم من صالحي بني إسرائيل.

٢٤. هذا عقاب دنيوي، وهو ينال الصالحين ويسمى عند الصوفية بالعتاب، وهو لا ينافي الكرامة، ونظيره أن موسى سأل رؤية ربه فتجلى الله للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك.

٢٥. الموت هو وقوف حركة القلب وتعطيل وظائف الدورة الدموية فإذا حصل عن فساد فيها لم تعقبه حياة إلا في يوم إعادة الخلق، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] وإذا حصل عن حادث قاهر مانع وظائف القلب من عملها كان للجسد حكم الموت في تلك الحالة، لكنه يقبل الرجوع إن عادت إليه أسباب الحياة بزوال الموانع العارضة، وقد صار الأطباء اليوم يعتبرون بعض الأحوال التي تعطل عمل القلب اعتبار الموت، ويعالجون القلب بأعمال جراحية تعيد إليه حركته.

٢٦. الموت بالصاعقة إذا كان عن اختناق أو قوة ضغط الصوت على القلب قد تعقبه الحياة بوصول هواء صاف جديد وقد يطول زمن هذا الموت في العادة ساعات قليلة ولكن هذا الحادث كان

خارق عادة فيمكن أن يكون موتهم قد طال يوما وليلة كما روي في بعض الأخبار ويمكن دون ذلك.

٢٧. عطف ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ على ﴿بَعَثْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، وتعقيب ذكر الوحشة بذكر جائزة شأن الرحيم في تربية عبده، والظاهر أن تظليل الغمام ونزول المن والسلوى كان قبل سؤالهم رؤية الله جهرة لأن التوراة ذكرت نزول المن والسلوى حين دخولهم في برية سين بين إيليم وسينا في اليوم الثاني عشر من الشهر الثاني من خروجهم من مصر حين اشتاقوا أكل الخبز واللحم لأنهم في رحلتهم ما كانوا يطبخون، بل الظاهر أنهم كانوا يقتاتون من ألبان مواشيهم التي أخرجوها معهم ومما تنبته الأرض.

٢٨. أما تظليلهم بالغمام فالظاهر أنه وقع بعد أن سألوا رؤية الله لأن تظليل الغمام وقع بعد أن نصب لهم موسى خيمة الاجتماع محل القرابين ومحل مناجاة موسى وقبلة الداعين من بني إسرائيل في برية سينا، فلما تمت الخيمة سنة اثنتين من خروجهم من مصر غطت سحابة خيمة الشهادة، ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة فذلك إذن لبني إسرائيل بالرحيل، فإذا حلت السحابة حلوا.. كذا تقول كتبهم.. فلما سأل بنو إسرائيل الخبز واللحم كان المن ينزل عليهم في الصباح والسلوى تسقط عليهم في المساء بمقدار ما يكفي جميعهم ليومه أو ليلته إلا يوم الجمعة فينزل عليهم منهما ضعف الكمية لأن في السبت انقطاع النزول.

٢٩. المن: مادة صمغية جوية ينزل على شجر البادية شبه الدقيق المبلول، فيه حلاوة إلى الحموضة ولونه إلى الصفرة ويكثر بوادي تركستان وقد ينزل بقلة غيرها ولم يكن يعرف قبل في برية سينا، وقد وصفته التوراة بأنه دقيق مثل القشور يسقط ندى كالجليد على الأرض وهو مثل بزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل وسمته بنو إسرائيل منا، وقد أمروا أن لا يبقوا منه للصباح لأنه يتولد فيه دود وأن يلتقطوه قبل أن تحمى الشمس لأنها تذيبه فكانوا إذا التقطوه طحنوه بالرحا أو دقوه بالهاون وطبخوه في القدور وعملوه ملات وكان طعمه كطعم قطائف بزيت وأنهم أكلوه أربعين سنة حتى جاؤوا إلى طرف أرض كنعان يريد إلى حبرون.

٣٠. السلوى: اسم جنس جمعي واحدته سلواة وقيل: لا واحد له وقيل: واحده وجمعه سواء، وهو طائر بري لذيذ اللحم سهل الصيد كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضا ويسمى هذا الطائر أيضا السمانى بضم السين وفتح الميم مخففة بعدها ألف فنون مقصور كحبارى، وهو أيضا اسم

يقع للواحد والجمع.. وقيل: هو الجمع وأما الفرد فهو سماناة.

٣١. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ مقول قول محذوف لأن المخاطبين حين نزول القرآن لم يؤمروا بذلك فدل على أنه من بقية الخبر عن أسلافهم.

٣٢. لم يكن الظلم واقعا لنفى مطلقا بأن يقال: وما ظلموا وليس المعنى عليه، وأنه إنما قدر في (الكشاف) الفعل المحذوف مقترنا بالفاء لأن الفاء في عطف الجمل تفيد مع الترتيب والتعقيب معنى السببية غالبا، فتكون الجملة المعطوفة متسببة عن الجملة المعطوف عليها فشبه وقوع ظلمهم حين كفروا النعمة عقب الإحسان بترتب المسبب على السبب في الحصول بلا ريث وبدون مراقبة ذلك الإحسان حتى كأنهم يأتون بالظلم جزاء للنعمة، ورمز إلى لفظ المشبه به برديفه وهو فاء السببية وقرينة ذلك ما يعلمه السامع من أن الظلم لا يصلح لأن يكون مسببا عن الإنعام على حد قولك أحسنت إلى فلان فأساء إليّ وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون فالفاء مجاز لغير الترتب على أسلوب قولك: أنعمت عليه فكفر، ولك أن تقول إن أصل معنى الفاء العاطفة الترتيب والتعقيب لا غير وهو المعنى الملازم لها في جميع مواقع استعمالها فإن الاطراد من علامات الحقيقة، وأما الترتب أي السببية فأمر عارض لها فهو من المجاز أو من مستتبعات التراكيب ألا ترى أنه يوجد تارة ويتخلف أخرى فإنه مفقود في عطف المفردات نحو جاء زيد فعمرو وفي كثير من عطف الجمل نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ [ق: ٢٢] فلذلك كان معنى السببية حيثما استفيد محتاجا إلى القرائن فإن لم تتطلب له علاقة قلت هو من مستتبعات تراكيب بقرينة المقام وإن تطلبت له علاقة ـ وهي لا تعوزك ـ قلت هو مجاز لأن أكثر الأمور الحاصلة عقب غيرها يكون موجب التعقيب فيها هو السببية ولو عرفا ولو ادعاء فليس خروج الفاء عن الترتب هو المجاز بل الأمر بالعكس.

٣٣. مما يدل على أن حقيقة الفاء العاطفة هو الترتيب والتعقيب فقط أن بعض البيانيين جعلوا قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨] اللام فيه مستعارة لمعنى فاء التعقيب أي فكان لهم عدوّا فجعلوا الفاء حقيقة في التعقيب ولو كانت للترتيب لساوت اللام فلم تستقم الاستعارة فيكون الوجه الحامل للزمخشري على تقدير المحذوف مقترنا بالفاء هو أنه رأى عطف الظلم على ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وما بعده بالواو ولا يحسن لعدم الجهة الجامعة بين الامتنان والذم والمناسبة شرط في قبول

الوصل بالواو بخلاف العطف بالفاء، فتعين إما تقدير ظلموا مستأنفا بدون عطف وظاهر أنه ليس هنالك معنى على الاستئناف وإما ربط ظلموا بعاطف سوى الواو وليس يصلح هنا غير الفاء لأن المعطوف حصل عقب المعطوف عليه فكان ذلك التعاقب في الخارج مغنيا عن الجهة الجامعة ولذلك كانت الفاء لا تستدعي قوة مناسبة كمناسبة الواو ولكن مناسبة في الخيال فقط وقد وجدت هنا لأن كون المعطوف حصل في الخارج عقب المعطوف عليه مما يجعله حاضرا في خيال الذي يتكلم عن المعطوف عليه، وأما قبح نحو قولك جاء زيد فصاح الديك فلقلة جدوى هذا الخبر ألا تراه يصير حسنا لو أردت بقولك فصاح الديك معنى التوقيت بالفجر فبهذا ظهر أنه لم يكن طريق لربط الظلم المقدر بالفعلين قبله إلا الفاء.

٣٤. في ذلك الإخبار والربط والتصدي لبيانه - مع غرابة هذا التعقيب - تعريض بمذمتهم إذ قابلوا الإحسان بالكفران وفيه تعريض بغباوتهم إذ صدفوا عن الشكر كأنهم ينكون بالمنعم وهم إنما يوقعون النكاية بأنفسهم، هذا تفصيل ما يقال على تقدير صاحب (الكشاف).

٣٥. الصحيح أنه لا حاجة إلى التقدير وأن جملة ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ عطف على ما قبلها لأنها مثلها في أنها من أحوال بني إسرائيل ومثار ذكر هذه الجملة هو ما تضمنته بعض الجمل التي سبقت من أن ظلما قد حصل منهم من قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] وقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤] وما تضمنه قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] الدال على أن ذلك عذاب جروه إلى أنفسهم فأتى بهذه الجملة كالفذلكة لما تضمنته الجمل السابقة نظير قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩] عقب قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] ونظير قوله: ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩] بعد الكلام السابق وهو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨]

٣٦. غير الأسلوب في هذه الجملة إذ انتقل من خطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة لقصد الاتعاظ بحالهم وتعريضا بأنهم متمادون على غيهم وليسوا مستفيقين من ضلالهم فهم بحيث لا يقرون بأنهم ظلموا أنفسهم، وهذا الظلم الذي قدر في نظم الآية هو ضجرهم من مداومة أكل المن والسلوى الذي سيأتي ذكره بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] الآية فكان قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ تمهيدا له وتعجيلا بتسجيل قلة شكرهم على نعم الله وعنايته بهم إذ كانت

شكيمتهم لم تلينها الزواجر ولا المكارم.

٣٧. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قدم فيه المفعول للقصر وقد حصل القصر أولا بمجرد الجمع بين النفي والإثبات ثم أكد بالتقديم لأن حالهم كحال من ينكي غيره كما قيل: يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن بين الله تعالى أنه سبحانه وتعالى عفا عنهم، مع عظيم ما ارتكبوا، وأنه سبحانه يدعوهم إلى شكره، وأن حالهم حال من يوجب على نفسه الشكر، بعد ذلك ذكر الله تعالى أنهم قد صاروا في منزلة ليست كمنزلة فرعون وقومه، وآله الذين ناصروه، ومالئوه في كفره، ولم يرشدوه أو يوجهوه إلى طريق الهداية؛ لأنهم ببعث موسى عليه السلام إليهم، قد صاروا أهل كتاب، ولذا ذكرهم الله تعالى بنعمة النبوة فيهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾

٢. يذكرهم الله تعالى بنعمه عليه بأن آتاه سبحانه وتعالى الكتاب، وهو التوراة، وفيها أحكام الله تعالى، وأنهم بها يخرجون من حكم الطاغوت الظالم الذي يسيطر عليه هوى فرعون وأوهامه والذى كان لا يرعى في عذابكم عهدا ولا ذمة، ولا خلقا، ولا مراعاة، تخرجون من هذا إلى حكم الله تعالى بكتاب تتقيدون بأحكامه حكاما ومحكومين، فلا يفرط عليكم حالكم ولا يطغى كما كان بشأن في فرعون لعنه الله تعالى.

٣. الفرقان هو الكتاب نفسه، وهو التوراة، فهي كتاب مكتوب لا تخالف أحكامه، ومسجل عليكم، وهو ميثاق الله تعالى، وهو مع هذه الحال فارق بين الحق والباطل وحكم الله تعالى، وحكم فرعون، فالتعبير بالفرقان إشارة إلى أنه قد نزل عليهم ما هو مفرق بينهم، وبين ما كانوا فيه، فإذا كانت المعجزة الباهرة أن الله تعالى فرق لكم البحر فخرجتم، فقد فرق بينكم وبين طغيان فرعون بحكمه السماوي، الذي لا يخالطه باطل ولا ظلم.

٤. هذا الكتاب هو سبيل هدايتكم، ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي رجاء أن تهتدوا

---

(١) زهرة التفاسير: ١/٢٣٢.

بهداية الله تعالى، فالرجاء منهم، أو الرجاء من الله تعالى على معنى أن حالهم فيما أنزل إليهم، وفيما جاءهم من الآيات حال من يرجون الهداية، أو أن ذلك أمر لهم بالهداية، وهم على رجاء منها.

٥. ذكرهم سبحانه وتعالى بعبادتهم في هذا النص الكريم، وهو ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ وإذ هنا دالة على الوقت الماضي، والمعنى: واذكروا ذلك الوقت)، يأمر الحاضرين والماضين لأنهم أمة واحدة في ضلال الفكر، والكفر بالنعمة، اذكروا ذلك العمل الفاجر، وما جرى فيه من نسيان للحق والإيمان، واذكروا كيف كان ضلالكم باستهواء قوم فرعون، واذكروا الوقت الذي ناداكم فيه على أنكم قومه، وأنكم نابذتم الحق، واتبعتم الباطل، واذكروا وقت أن قال موسى لكم ﴿يَا قَوْمِ﴾ لأنهم قومه الذين ناصرهم وأيدهم، وأحبهم ولم يتركهم للظالمين، فالنداء بقوله ﴿يَا قَوْمِ﴾ إشارة إلى ما يربطه بهم من مودة ومناصرة، وتأييد، وإعزاز، وتنزيه لهم عن الباطل، فالقريب نداؤه محبوب ومجاب، ولقد منّ الله تعالى على العرب أن بعث فيهم رسولا منهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوف رَحِيمٌ﴾

٦. ناداهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾، وهذا عتب رقيق لإثم قوي، ومعنى اتخاذ العجل أنهم عبدوه، وعبر سبحانه وتعالى عن عبادة العجل بأنهم اتخذوه تنزها عن أن يقول أنهم عبدوه، لأن ما كان منهم وهم باطل لا يسمى عبادة في الحق، والقول الطيب، ولأنهم لم يعبدوه فقط، بل صنع بأيديهم، أو بأيدي بعضهم، وهو ما لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر فهذا كله يدل عليه كلمة اتخذوه.

٧. أكد موسى نبيّ الله تعالى عليه السلام أنهم إذ اتخذوا العجل ظلموا أنفسهم، باتخاذهم العجل، أكد ذلك ب (إن) الدالة على التوكيد، وظلمهم لأنفسهم بأن أضلوها عن الحق، ونوره ساطع بينهم إذ قد قامت لديهم البراهين على قدرة الله تعالى في ضرب البحر بعصا موسى، وانشقاقه، وفى نجاتهم من الذل، وظلموا أنفسهم بأن أعادوا إليها عهد الذل والضلال باتخاذهم العجل، كما كان يفعل الذين أذلوها، وظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى، وضلوا ضلالا بعيدا.

٨. هذه خطيئة ارتكبوها، ولا يكفرها إلا توبة نصوح يقرمون بها، وقد بيّن لهم موسى الطريق للتوبة النصوح أو حقيقة التوبة النصوح، فقال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، الفاء في قوله

تعالى: ﴿فَتُوبُوا﴾ هي فاء الإفصاح التي تفصح عن شرط مقدر، أي إذا كنتم قد ضللتم هذا الضلال وظلمتم أنفسكم ذلك الظلم، فتوبوا إلى بارئكم أي فارجعوا إلى الله تعالى الذي خلقكم على غير مثال سبق.

٩. معنى (برأ) أبدع وأنشأ وجودكم، والتوبة رجوع إلى الحق، والتعبير ببارئكم يؤكد معنى ظلمهم لأنفسهم، لأنهم تركوا من خلقهم إلى ما خلقوه بأيديهم، وصنعوه تحت نظرهم، ولا يضرهم، ولا ينفعهم.

١٠. الطريق الذي بينه موسى هو قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي فابخعوها، واجعلوها مطية ذلولا للعقل والإرادة، واقطعوا شهواتها، والتعبير عن ذلك بقتل النفس، لأن النفس الفاجرة الضالة إذا فطمت عن الشهوات كأنها قتلت، وحلت محلها النفس الطاهرة اللوامة التي تقهر الشهوات قهرا، والشرور دائما من الأهواء والشهوات، وقد جاء في الأمثال عند أهل المعرفة: من لم يعذب نفسه لم ينفعها، ومن لم يقتلها لم يحفظها) وتعذيب النفس الذي يريده أهل المعرفة هو فطمها عن الشهوات.

١١. أخذت الكثرة من المفسرين بظاهر اللفظ وهو القتل، ورووا في ذلك روايات عن بعض الصحابة لم يصح سندها، وبالأولى لم يصح كلام في نسبته إلى الرسول ﷺ.

١٢. استعمال القتل والبخع بالنسبة للنفوس، وإرادة غير الظاهر كثير في كلام العرب، وفى القرآن كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

١٣. هذا النص الكريم يشير إلى أن التوبة النصوح التي يقبلها الله تعالى، ويغفر بها الذنوب توجب قهر الشهوات والأهواء وقتل منابعها في النفس.

١٤. حثهم كليم الله تعالى على هذه التوبة النصوح، فقال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الإشارة إلى بخع النفوس عن شهواتها وسد منابع الأهواء وقتل نوازع الشيطان الذي يوسوس في الصدور، وأشير بالبعيد لبعد ما بين التوبة ورياضة النفس على ترك الأهواء والضبط بالصبر، وقوة الإرادة المسيطرة القاهرة الطاهرة، وكان الخطاب بصيغة الجمع لأن الإشارة إلى عمل صدر منهم.

١٥. أشار النص إلى قبول التوبة النصوح التي كانت على هذه الشاكلة فقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي رجع سبحانه عليهم وقد طهرت نفوسهم وزكيت قلوبهم بالانخلاع عن الشهوات وقتلها، رجع عليهم

سبحانه وتعالى بالغفران، وعبر سبحانه وتعالى ب (على) للإشارة إلى علوه سبحانه وتعالى عليهم في كفرهم وتوبتهم، وأن ذلك لرحمته بهم، لا لحاجته إلى طاعتهم.

١٦. ذيل الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، والتواب كثير قبول التوبة إذا قيل ذلك عن الله تعالى، أو كثير التوبة إذا قيل عن العبد، وتواب صيغة مبالغة من تائب، وتائب تطلق على التائب من الذنب، وتطلق على من يقبل التوبة، وهو الله سبحانه وتعالى، وهي هنا على هذا المعنى.

١٧. اقترن وصف التواب بوصف الرحيم؛ لأن كليهما وصف لله تعالى، ولأن قبول التوبة من رحمة الله تعالى بعباده، ولقد قال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾

١٨. أكد سبحانه اتصافه بهذين الوصفين اللذين كانا من فضل الله تعالى، ومنته، بصيغة المبالغة، وبالجملة الاسمية، وبالتأكيد بإنّ.

١٩. يذكر الله سبحانه وتعالى النعم التي أنعم بها على بنى إسرائيل، وكفرهم بها، وبالله، ثم يذكر سبحانه تعنتهم في طلب الدليل رغم الآيات التي أراهم الله سبحانه وتعالى إياها، ولكن المتعنت لا يقنعه الدليل مهما يكن باهرا ظاهرا قاهرا.. ولذا طلبوا عنتا وانحرافا وجهلا أن يروا الله تعالى جهرة.

٢٠. ذكر الله تعالى ذلك مبينا تعنتهم، وتدللهم في كفرهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي اذكروا أيها الحاضرون في عهد النبيّ محمد ﷺ ما فعلتموه، وخاطبهم هم بذلك مع أن الذي فعله أسلافهم؛ لأنهم يسيرون سيرهم، ويفترون ويغترون مثلهم.. اذكروا ذلك الوقت الذي قلتم فيه ذلك، وليس غريبا أن تقولوه الآن، قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي لن نؤمن مسلمين لك، مستجيبين لما تدعونا إليه، حتى نرى الله جهرة، أي حتى نرى الله تعالى رأى العين، ولن لتأكيد النفي في المستقبل.

٢١. قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ لتأبيد النفي عند الزمخشري وسائر المعتزلة، ويرون أنها دالة على الاستحالة، أي استحالة استجابتهم حتى يروا الله عيانا، ولقد ضاهى قولهم هذا قول المشركين.

٢٢. لا يرى الله تعالى في الدنيا بإجماع العلماء قط؛ لأن رؤية الدنيا تقتضى مكانا والله سبحانه وتعالى منزه عن المكان، والأمر في الآخرة أمر الله تعالى لا نعلمه إلا منه، وهو عالم الغيب والشهادة.

٢٣. أجابهم موسى عليه السلام إلى ما يريدون فطلب من الله تعالى أن يراه، ويروه، كما ذكر تعالى أن ذلك لا يمكن في سورة الأعراف، فلما تجلى ربهم أصابتهم الصاعقة، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، وقد فصل الله سبحانه وتعالى مسألة الرؤية وطلب موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

٢٤. لما طلب بنو إسرائيل رؤية الله تعالى جهرة أي عيانا، طلب موسى ذلك من الله تعالى ليروا ما رآه، وليعلموا ما علم، وقيل: إن الذين طلبوا ذلك هم السبعون الذين اختارهم موسى ليكونوا معه عندما واعده الله لميقاته الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ فهم الذين حملوا موسى على أن يطلب رؤية ربه فطلبها ﷺ، ومهما يكن الطالبون فإن رؤية الله تعالى مستحيلة في الدنيا.

٢٥. الصاعقة الأمر الشديد الهائل الذي ينزل من السماء نارا، أو الذي يدك الجبال دكا، وقد يترتب عليه أن يصعق الإحساس فيغشى على من يراه.

٢٦. معنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، أي أخذت ألبابهم، ونفوسهم فلم يشعروا وهم ينظرون إليها، وقد أذهلتهم وذهبت بمشاعرهم فصعقوا كما صعق موسى إذ قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، وعلى ذلك يكون معنى أخذتهم الصاعقة أنهم غشى عليهم كما يدل على ذلك ما كان لموسى عليه السلام، ونرى أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويبين بعضه الدلالة الواضحة لبعضه، تعالى كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

٢٧. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي ينظرون إلى الأمر الذي هز مشاعرهم من دك الجبال دكا، وهول ما وقع نتيجة لما طلبوا.

٢٨. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أصل البعث هو الإثارة، جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به، فبعثت البعير أثرته وسيّرته، وقوله تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ يخرجهم ويسيرهم إلى يوم القيامة.

٢٩. موتهم هنا هو ما غشيهم، وفقدوا به إحساسهم، وعبر عنه بالموت، لأنه يشبه الموت من حيث إنهم فقدوا شعورهم وأصبحوا لا يحسون شيئا.

٣٠. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي أثرناهم، وحركناهم، وأوجدنا فيهم الإحساس، والتعبير بـ (ثم) للإشارة إلى البعد بين حالهم، وهم أشباه الموتى بما صعقهم من غاشية، وما آلوا إليه من شعور بالحياة والحركة... وقد فقدوا ذلك، بسوء ما طلبوا، وعدم فهمهم، والله تعالى ولى المؤمنين.

٣١. ذلك يقتضى شكرهم؛ لأنه كان قادرا على تركهم فيما آل إليه أمرهم ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي رجاء أن تشكروا، فالرجاء منهم لا من الله تعالى.

٣٢. بعد أن بعثهم الله تعالى، أو كان ذلك مقارنا لخروجهم من مصر، وهو الظاهر؛ لأن هذه النعم، وما كان منهم من حوادث جاء بعد أن أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وفرق البحر بهم، والواو لا تقتضى ترتيبا، ولا تعقيبا، لقد انتقلوا من الوادي الخصيب إلى صحراء تلفح الوجوه، وليس فيها ظل ولا ظليل، ولكن الله تعالى لم يتركهم في حرور الصحراء وجردائها بل أظلهم بالغمام، وأمدهم بأطيب الطعام، وأبركه.

٣٣. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ أي جعلنا الغمام، وهو السحاب الشديد العتمة، اسم جنس جمعي للغمامة، واسم الجنس الجمعي هو الذي يفرق بينه وبين مفرده بالتاء المربوطة أو ياء النسب، مثل روم ورومي.. تكاثف الغمام في الصحراء، حتى صار كمظلة تظلهم أينما ساروا فلا يحسون بوهج الحر يلفح وجوههم، وقد شكوا من حر الشمس والجوع، فأنزل الله تعالى رزقا طيبا: المن والسلوى.

٣٤. المن: كان بدل الخبز، وقد أصبحوا فوجدوه في الأرض صغيرا كحب الجزرة، وكانوا يتناولونه كالرقاق التي اختلطت بعسل فالتقى فيه خواص الدقيق والعسل معا، وسبحان الرزاق العليم، فكان خبزهم، فالمن على ذلك غذاء جيد ينزل من السماء ويبسط على الأرض فيه خواص الدقيق والعسل معا.

٣٥. السلوى: طير، كان يجيء إليهم يطير على مقدار رمح من الأرض أو يزيد قليلا، فيأخذونه باليد من غير صيد أو أي محاولة، وبذلك اجتمع لديهم كل عناصر الغذاء الكامل، من غير كدّ، ولا لغوب.

٣٦. عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك الرزق الذي رزقهم الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ لأنه ما كان بكسب كسبوه، ولكنه رزق الله تعالى من السماء أنزله إليهم لتطيب إقامتهم في الصحراء، حتى يقضي الله تعالى أمره فيهم، فالإنزال معنوي لأنه بأمر الله تعالى لطفا بهم ورحمة، وليكون ذلك معجزة فوق المعجزات التي توالت عليهم، ومع ذلك جحدوا بآيات ربهم.

٣٧. قرر الله سبحانه وتعالى أنه مكّن لهم ذلك تمكينا، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك الطعام بأنه طيب، والطعام الطيب هو الذي تشتهيه النفس، ويكون مريئا لا يضر ولا يعاف.

٣٨. ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾:

أ. قيل: هي للتبعيض باعتبار أنهم يأكلون منه ما يشتهون وما يطيقون غير مدخرين، لأنهم يجدون ما رزقهم الله تعالى مجددا دائما، ويذكر في بعض الكتب أنهم كانوا يأكلون رزق كل يوم، وقد أمروا بذلك لأنه يفسد في اليوم التالي ويجيء الجديد ليحل محل الفاسد.

ب. ويحتمل أن تكون (من) بيانية، ويكون المعنى كلوا طيبات ما رزقناكم.

٣٩. على التقديرين يتحقق وصف الطيبات، وذكر سبحانه أنه رزق خالص من الله جاءهم من غير جهد ولا نصب، بل هو رزق الله تعالى ساقه إليهم سبحانه وتعالى.

٤٠. إنهم بتوافر هذه النعم التي منحها الله سبحانه وتعالى لهم، إذا هم جحدوا آياته، وأعرضوا عن بيناته.. ما كان سبحانه وتعالى إلا منعما عليهم إذ أنجاهم من ظلم فرعون وإذلاله، وبعد أن كانوا مستضعفين مكن الله لهم في الأرض، ومنّ عليهم، وكلما شكوا أمدهم الله تعالى بعونه، وسهل لهم الحياة العزيزة الكريمة المنيعة.

٤١. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي ما نقصهم سبحانه وتعالى شيئا من أسباب الحياة والقوة والسلطان، ولكنهم جحدوا شكر ما أنعم الله تعالى به عليهم، فكفروه، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وأكد الله سبحانه وتعالى عليهم أنهم هم الظالمون لأنفسهم وذلك بالاستدراك في قوله:

٤٢. ﴿وَلَكِنْ﴾ إذ معنى الاستدراك عن ظلم الله تعالى لهم بيان أن ظلمهم لأنفسهم كان منهم لا

من الله سبحانه وتعالى، وأكده بالتعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ وهى تدل على الاستمرار، وأكده سبحانه وتعالى بتقديم ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن التقديم يدل على الاختصاص، أي أنهم بهذا الجحود يظلمون أنفسهم، ولا يتجاوز ظلمهم أنفسهم إلىّ؛ فهم يظلمون أنفسهم وحدها.

٤٣. ظلمهم أنفسهم، لأن الكفر ظلم للنفس، إذ هو ضلال في ذاته، وأى ظلم للنفس أشد من تدليتها في الضلال!؟ وكفروا بأنعم الله تعالى، وذلك ظلم كبير واقع عليهم.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وهذا الكتاب هو التوراة الجامعة لبيان الحق والباطل، والحلال والحرام، أما عطف الفرقان على الكتاب فهو من باب عطف الصفة على الموصوف، كقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾

٢. اختصارا ان الله جل وعز ذكّر الاسرائيليين في الآيات المتقدمة بأربع نعم: انجائهم من ذبح الأبناء واستحياء النساء، ثم هلاك فرعون، ثم العفو عنهم، ثم إيتاء موسى التوراة.

٣. ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ القتل ظاهر في إزهاق الروح، ولا سبب موجب لصرفه وتأويله بمخالفة الهوى، وتذليل النفس بالاعتراف بالذنب والخطيئة، أو التشديد والمبالغة في طاعة الله ـ كما قيل ـ والمراد بالأنفس هنا بعضها، أي ليقتل بعضكم بعضا، فيتولى البريء منكم الذي لم يرتد عن دينه بعبادة العجل قتل من ارتد عن دينه، تماما كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، أي فليسلّم بعضكم على بعض، وكقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ . أي لا يغتب بعضكم بعضا.

٤. لهذا الحكم نظائره في الشريعة الاسلامية، حيث اعتبرت القتل حدا وعقوبة على جريمة الارتداد.

٥. تمضي الآيات في تعداد مساوئ الاسرائيليين: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ حين جاءهم موسى بالتوراة قال له جماعة منهم: لا نصدقك في ان هذا الكتاب من عند الله، حتى نرى الله عيانا لا حجاب بيننا وبينه، ويخبرنا وجها لوجه انه أرسلك بهذا الكتاب.

---

(١) التفسير الكاشف: ١/١٠٣.

٦. لست أدري ان كان الذين ينكرون وجود الله في هذا العصر، لا لشيء إلا لأنهم لم يشاهدوه جهرة، لست أدري: هل استند هؤلاء في انكارهم الى كفر أولئك الاسرائيليين وعنادهم؟.. قال اليهود لموسى: لن نؤمن حتى نرى الله جهرة.. وقال من قال في هذا العصر: لا وجود إلا لما نراه بالعين، ونلمسه باليد، ونشمه بالأنف، ونأكله بالفم.. وهكذا يكرر التاريخ صورة المكابرة ومعاندة الحق في كل جيل.

٧. وحيث جاء في الآية الكريمة: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ نشير الى النزاع القائم بين أهل المذاهب الاسلامية وفرقها من ان العقل: هل يجيز رؤية الله بالبصر أو يمنعها:

أ. قال الأشاعرة ـ السنة ـ: ان رؤية الله بالبصر جائزة عقلا، لأنه موجود، وكل موجود يمكن رؤيته.

ب. وقال الامامية والمعتزلة: لا تجوز الرؤية البصرية على الله بحال، لا دينا ولا دنيا، لأنه ليس بجسم، ولا حالا في جسم، ولا في جهة.

٨. بعد أن منع الامامية الرؤية عقلا حملوا الآيات الدالة بظاهرها على جواز الرؤية، حملوها على الرؤية بالعقل والبصيرة، لا بالعين والبصر، وبحقائق الإيمان، لا بجوارح الأبدان على حد تعبير الفيلسوف الشهير الكبير محمد بن ابراهيم الشيرازي المعروف بالملا صدرا، وبصدر المتألهين، ومما استدلّ به الملا صدرا على امتناع الرؤية قوله: ان الاحساس بالشيء حالة وضعية للجوهر الحاس، بالقياس الى المحسوس الوضعي، ففرض ما لا وضع له انه محسوس، كفرض ما لا جهة له انه في جهة)، يريد بقوله هذا ان العين لا ترى الشيء إلا بشرطين: الأول أن تكون أهلا للنظر، الثاني أن يكون الشيء أهلا لأن ينظر بالعين.. وهذا شيء بديهي، فإذا فقدت العين أهلية النظر، أو لم يكن الشيء مؤهلا للنظر بالعين انتفت الرؤية قهرا.. والعين أصغر وأحقر من ان ترى الذات القديسة الاحدية، كما انه جل وعلا أعظم من أن يرى بالعين.

٩. ذكر الفيلسوف الانكليزي جون لوك القائل بالواقعية النقدية، ان للشيء صفات أولية ثابتة له واقعا، ولا تنفصل عنه إطلاقا، سواء أوجد من يدركها، أم لم يوجد، كالعناصر المقومة المكونة للشيء.. وأيضا له صفات ثانوية نسبية لا توجد مستقلة عن ذات تحسها وتدركها، كاللون والصوت والطعم، فاللون ليس صفة للشيء كما يتراءى وإنما هو موجات ضوئية خاصة بين الشيء والعين عند العلماء، وأيضا الصوت موجات هوائية، والطعم لا وجود له لولا الفم، ومن هنا يختلف باختلاف الذائق صحة ومرضا..

واختصارا انه لا لون بلا عين، ولا صوت بلا اذن، ولا طعم بلا فم، وليس من شك ان نور الله سبحانه يطغى على الموجات الضوئية وغيرها، وإذا انتفت هذه الموجات انتفت الرؤية.

١٠. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي ان عذابا من السماء أحاط بالذين قالوا لموسى: لن نؤمن حتى نرى الله، وأهلكهم على مرأى من أصحابهم الذين لم يعاندوا، ويسألوا مثل ذلك.

١١. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

أ. قال بعض المفسرين، ومنهم الشيخ محمد عبده: ان الله سبحانه لم يرجعهم الى هذه الحياة ثانية بعد أن أخذتهم الصاعقة، وان المراد ببعثهم كثرة النسل منهم.

ب. وقال آخرون: كلا، ان الآية على ظاهر دلالتها، وان الذين أعيدوا هم الذين أخذتهم الصاعقة بالذات.. وهذا هو الحق، حيث يجب الوقوف عند الظاهر إلا مع السبب الموجب للتأويل، ولا سبب ما دامت الاعادة ممكنة في نظر العقل، وقد وقع نظير ذلك لعزير، كما دلت الآية من سورة البقرة: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وبديهة ان الذي وقع لا يكون مستحيلا.

١٢. تجدر الاشارة إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، وقوله بعثناكم، المراد من كان في عصر موسى عليه السلام الذين قالوا له: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فلا يشمل الخطاب موسى، ولا من لم يقل له ذلك.. وبالأولى أن لا يشمل حقيقة اليهود الذين كانوا في عهد محمد ﷺ وإنما وجه الخطاب اليهم تجوزا وتوسعا في الاستعمال بالنظر الى أنهم من نسل الذين قالوا: حتى نرى الله جهرة.

١٣. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ جرى ذلك حين خرج الاسرائيليون من مصر، وتاهوا في صحراء سيناء، حيث لا بنيان ولا عمران، فشكوا الى موسى حر الشمس، فأنعم الله عليهم بالغمام يظللهم، ويقيهم حر الهاجرة، وأنعم عليهم أيضا بالمنّ والسلوى، يأكلون منهما بالإضافة الى ما تيسر لهم من الأطعمة، ويأتي في تفسير الآية ٦٠ ان الماء تفجّر لهم من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه.

١٤. غريب أمر بعض المفسرين، حيث يفسر من تلقائه ما سكت الله عن بيانه وتفسيره، ويحصي عدد الذين قتلوا أنفسهم للتوبة من عبادة العجل، يحصيهم بسبعين ألف نسمة، كما أحصى عدد الذين أخذتهم الصاعقة بسبعين رجلا، أما المنّ فلكل فرد صاع، وأما السلوى فكانت تنزل من السماء حارّة يتصاعد منها البخار، وما إلى ذلك مما لا نص قطعي ولا ظني يدل عليه، ويبعّد ولا يقرب.. وقد ثبت عن

الرسول الأعظم ﷺ: ان الله سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسيانا، فلا تتكلفوها رحمة من الله لكم، وفي نهج البلاغة: ان الله افترض عليكم الفرائض فلا تضيعوها، وحدّ لكم حدودا فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء، ولم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها.

١٥. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، نفي المظلومية عن الله سبحانه، تماما كنفي الولد والشريك عنه من باب السالبة بانتفاء الموضوع على حد تعبير أهل المنطق، لأن الثبوت محال عقلا.. فهو أشبه بقولك عن الأعزب: انه لا ولد له، وعمن يجهل اللغة العربية لم يؤلف فيها قاموسا.. أما ظلم اليهود لأنفسهم فلسفههم، وجحودهم بأنعم الله الذي لا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى، وإنما منفعة الطاعة تعود الى الطائع، ومضرة المعصية الى العاصي.. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: يا ابن آدم إذا رأيت ربك يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره.

١٦. هذه الآيات تضمنت الاشارة الى عبادة الاسرائيليين للعجل، وتوبتهم بقتل أنفسهم، وطلبهم رؤية الله، وهلاكهم وبعثهم، وتظليل الغمام لهم، وإطعامهم المنّ والسلوى.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ الباريء من الأسماء الحسنى كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقع في ثلاث مواضع من كلامه تعالى: اثنان منها في هذه الآية، ولعله خص بالذكر هاهنا من بين الأسماء الملائمة معناه للمورد لأنه قريب المعنى من الخالق والموجد، من برأ يبرأ براء إذا فصل لأنه يفصل الخلق من العدم أو الإنسان من الأرض، فكأنه تعالى يقول: هذه التوبة وقتلكم أنفسكم وإن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن الله الذي أمركم بهذا الفناء والزوال بالقتل هو الذي برأكم فالذي أحب وجودكم وهو خير لكم هو يحب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم وكيف لا يحب خيركم وقد برأكم، فاختيار لفظ الباريء بإضافته إليهم في قوله: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، وقوله ﴿عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ للإشعار بالاختصاص لإثارة المحبة.

٢. على هذا فقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، إنما يعني به قتل البعض وهم الذين عبدوا العجل

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/١٨٩.

كما يدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ تتمة الحكاية من قول موسى كما هو الظاهر، وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يدل على نزول التوبة وقبولها، وقد وردت الرواية أن التوبة نزلت ولما يقتل جميع المجرمين منهم، من هنا يظهر أن الأمر كان أمرا امتحانيا نظير ما وقع في قصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح إسماعيل ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، فقد ذكر موسى عليه السلام: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، وأمضى الله سبحانه قوله عليه السلام وجعل قتل البعض قتلا للكل وأنزل التوبة بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾

٣. قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ ظاهر الآية وما تقدمها أن هذه الخطابات وما وقع فيها من عد أنواع تعدياتهم ومعاصيهم إنما نسبت إلى الكل مع كونها صادرة عن البعض لكونهم جامعة ذات قومية واحدة يرضى بعضهم بفعل بعض، وينسب فعل بعضهم إلى آخرين لمكان الوحدة الموجودة فيهم، فما كل بني إسرائيل عبدوا العجل، ولا كلهم قتلوا الأنبياء إلى غير ذلك من معاصيهم.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿الْكِتَابِ﴾ التوراة ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ الفرقان بين الحق والباطل، بما أوحى إليه ربه من ذلك مع التوراة وقبلها.

٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي بذلك، ومعنى (لعل) مثله في ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

٣. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ لأنكم تعرضتم بذلك للعذاب الدائم الشديد وصيرتم أنفسكم مستحقين له.

٤. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ الذي خلقكم وجعل صوركم متقنة مختلفة يتميز بعضها من بعض، فأنتم عباده يستحق عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به، ويستحق عليكم أن تتوبوا إليه من الشرك.

٥. ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وسلموها لبارئها تحقيقاً للتوبة بامتثال أمر الله في أنفسكم التي هي أعز الأشياء عليكم، واعترافاً بأن أنفسكم له يحكم فيها ما يريد.. ولعلهم لما كانوا قد أشربوا في قلوبهم العجل كانت توبتهم لا تتم إلاَّ بهذه التوبة أو بتسليم أنفسهم لله تعالى ليذهب رجس العجل وأثر عبادته عن

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١١٦.

قلوبهم.

٦. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ لأن الشهادة والجنة خير من البقاء على الذنب حتى تموتوا، ثم تصيروا إلى النار وقوله عند بارئكم؛ لأنه هو الذي يثيبهم عليه ويرضى عنهم.

٧. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بإسقاط هذا التكليف الشاق، روي أنهم حين عزموا على هذا الأمر اجتمعوا وعصبوا على أعينهم وتضاربوا بالسيوف أو نحو هذا فنزلت توبتهم أي قبول توبتهم، وهي بالتسليم لأمر الله، وعفى عنهم ربهم بإسقاط هذا التكليف الشاق، فكانت تلك شهادة للماضين وتوبة للباقين.

٨. قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] أي رجع لكم بالرحمة والتخفيف عنكم بنسخ ذلك التكليف.

٩. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يرجع على عباده بألطافه، ويرحمهم حين يتعرضون لرحمته، وحين لا يستوجبون التشديد في حكمته، هذا وإسقاط الأمر بالقتل بالنسبة للباقين، فأما الماضين فقد مضوا على الحكم الأول شهداء، والتمنن بالعفو على الباقين، ويظهر: أنهم الأكثر إن لم يكونوا هم الكل ممن تاب، وما يروى من تكثير القتلى، فلعله من رواية اليهود ليفتخروا به.

١٠. ليس في هذه الآية وأمثالها من القرآن ما يدل على وقوع قتل لا كثير ولا قليل، بل الظاهر أنه لم يقع؛ لأنه تمنن عليهم، وله الحمد والشكر، فعم بني إسرائيل، فظهر منه: أن العفو نزل قبل أن يقع قتل بموجب الحكم الأول، ولولا ذلك لما كان العفو عاماً لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ولَمَا مَنَّه على خلائفهم المخاطبين بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ واعتماد القرآن الذي لا ريب فيه أولى من اعتماد الروايات التي يكثر فيها الكذب، وخصوصاً فيما يتعلق بـ (بني إسرائيل)

١١. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً، أرادوا أن يتجلى لهم فيروه بأعينهم، ولعل رغبتهم هذه هي أخت رغبتهم في أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، أي أنهم يريدون إلهاً يشاهدونه كما للمشركين آلهة يشاهدونها بزعمهم، فطلبوا أن يروا الله سبحانه ليكونوا قد حصلوا على ضالتهم المنشودة، ولشدة حرصهم على ذلك أكّدوا هذا الطلب بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ وصيروا ما رأوا من الآيات والنعم كأن لم يكن.

١٢. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ الظاهر: في معنى ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ هنا أنها المهلكة، وأنها رجفة الطور حين اندك، ففي سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [آية: ١٥٥] وفيها: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [آية: ١٤٣] وعلى هذا فمعنى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ تنظرون مكانكم يرتجف بكم، إما الجبل نفسه أو ما حوله عند ارتجافه حين اندك.

١٣. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لا مانع من حمله على الحقيقة كموت الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، والله يحيي ويميت، ويؤكد ذلك السياق.

١٤. ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ جعلناه عليكم ظللاً تظلكم من الشمس، قيل: ذلك في التيه، فسخّر الله لهم السحاب يسير سيرهم.

١٥. ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، قال المرتضى عليه السلام: ﴿الْمَنَّ﴾ فهو شيء كان يقع على الشجر يضرب إلى الخضرة حلو كانوا يأكلونه، والسلوى: فهو طير أصغر من الحمام كانوا ـ أيضاً ـ يأكلونه في أيام تيههم، وذلك أن الله لما أمرهم بدخول القرية فكان من كلامهم ما قد سمعت مما قصّه الله في كتابه، فحرم الله عليهم مصر أربعين سنة، فكانوا يتيهون في مواضع حذاها هو الآن معروف، ولا يهتدون لها، فأنزل الله سبحانه المن والسلوى، وجعله لهم رزقاً يعيشون به إذ الأجساد لا تقوم إلاّ بالغذاء.. وقوله: مما قصه الله في كتابه) يعني في (سورة المائدة) [آيتي: ٢٢ ـ ٢٤]

١٦. قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي بكفرهم للنعم كما وقع منهم من الفسق المذكور في تلك القصة.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يثير الله، في هذه الآية، أمام بني إسرائيل مسألة إنزال الكتاب والفرقان كنعمة عظيمة من النعم الكبيرة التي يمنّ الله بها عليهم، باعتبار أنه سبيل الهداية إلى الحق؛ الأمر الذي يوحي بأن الاهتداء إلى الطريق القويم نعمة عظيمة كبيرة، وأيّ نعمة أعظم من النعمة التي تفتح للإنسان مجالات الحياة السعيدة الرخيّة المرتكزة على قاعدة ثابتة من المبادئ الحقة والقيم الكبيرة، وتسيّره نحو المصير الآمن الذي لا يخاف

---

(١) من وحي القرآن: ٢/٤٢.

فيه شيئا، وتجعله يسير في النور عندما يفكر وعند ما يعمل أو يتعاون مع الآخرين.

٢. الظاهر أن كلمة الفرقان، التي تعبّر عن الفارق بين الحق والباطل، تعتبر تفسيرا لكلمة الكتاب، على سبيل العطف التفسيري الذي يراد به توضيح الصفة العلمية للكتاب.

٣. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ الذي يفصل بين الحق والباطل في مفاهيمه وشرائعه ومناهجه، بحيث يحقق لكم الثقافة الواعية التي تعرف حدود الأشياء في سلبياتها وإيجابياتها.

٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بآياته في إيحاءاتها وأفكارها وخطوطها الواضحة للمسيرة الإنسانية في الحياة.

٥. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وهو يحاورهم حول السلبيات السلوكية الصادرة منهم في انحرافهم العملي، ليثير فيهم الشعور بعقدة الذنب الذي قد يؤدّي بهم إلى القيام بعملية التصحيح والعودة إلى خط الاستقامة في خط الرسالة في الفكر والعمل.

٦. ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وورطتموها في السير بها إلى مواقع الهلاك الأخروي، وذلك بحركة التمرد على الخط التوحيدي في العبادة لله.

٧. ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ معبودا بعد أن بيّنت لكم الأسس العقيدية التي يرتكز عليها التوحيد في الالتزامات العملية المتحركة في دائرة الالتزام الفكري في توحيد الله، وذلك بإخلاص العبادة لله وعدم الإشراك به في هذا المجال.

٨. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي خالقكم الذي يملك كل وجودكم، الذي هو سر النعمة الكبرى في إنسانيتكم، مما يفرض عليكم العودة إليه بعد الرحلة الضالة في الابتعاد عنه، فذلك هو الأمر الطبيعي الذي تفرضه طبيعة الأشياء التي تقتضي عودة الإنسان إلى مبدع وجوده، ليحصل على رحمته ويمتد معه في نعمته، وليعبر بذلك عن شكره وانقياده له، ولا سيما أن الأمر بالتوبة ليس أمرا شخصيا من موسى، بل هو من خلال صفة الرسالة التي تجعل أمره أمرا صادرا من الله، وفي التعبير بكلمة: بارئكم) إشارة إلى عمق الموضوع، للإيحاء بالمعنى الذي يوحي للإنسان بضرورة الانضباط في خط التوبة.

٩. ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كعقوبة حاسمة للواقع الشركي الذي ابتعدتم فيه كثيرا عن الخط التوحيدي المستقيم، فتمردتم على الله ونسيتم نعمه، ورجعتم إلى الوثنية المتخلفة التي انطلق كل الجهاد

ضد فرعون من أجل تحريركم منها، لأن القضية في حركة الرسالات التوحيدية، ليست هي في تحرير الإنسان من الوثنية الخارجية المتمثلة في الحجر أو البشر الذي يعبده الناس من دون الله، بل هي في تحريره من ذهنية الصنمية، بحيث لا يبقى لها جذور في الوعي الفكري للإنسان، فلا يعود إليها عند توفر الظروف الملائمة لها في الواقع الخارجي، وهذا ما جعل العقوبة على هذا الجرم الكبير قاسية متمثلة بالإعدام الجماعي الذي يقتل فيه بعضهم بعضا، بحيث يقتل المذنبون بعضهم البعض أو يقتل الأبرياء المجرمين، فذلك هو السبيل الوحيد في الشريعة آنذاك للتوبة التي تتوخى غفران الله لهم وتوبته عليهم.

١٠. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي القتل، الذي هو وسيلة التوبة، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ لأنه يحقق لكم الحصول على رضاه، من خلال دلالته على صدق التوبة في عمق الإحساس بالندم، ويؤدي بالتالي إلى السعادة الكبرى في النجاة من النار ودخول الجنة.. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بذلك، ﴿إِنَّهُ هُوَالتَّوَّابُ﴾ على المذنبين التائبين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالخاطئين المنيبين.

١١. هناك فرق بين الأمر الصادر لإبراهيم وإسماعيل الذي لم يكن منطلقا من إرادة جدية في تحقيق الفعل، بل كان وسيلة من وسائل إظهار عمق الإسلام الروحي والعملي في موقف إبراهيم وإسماعيل، الأمر الذي لا علاقة له بالفعل، بل بمقدماته؛ وبين الأمر الصادر لهؤلاء الذي كان في أقصى درجات الجدية، ولذلك أريد له أن يتحول إلى واقع امتثالي، غير أن الله سبحانه اكتفى بما حصل من القتل وعفا عن الباقين الذين لم يمتثلوا ذلك، فأسقط التكليف عنهم باعتبار أن المقصود هو التوبة المنطلقة من الإسلام الروحي، المنضمة إلى الفعل، ولا معنى لأن يكون الأمر امتحانيا بالنسبة إلى الباقين الذين لم يقتلوا أنفسهم، لأن الأمر لم يصدر إليهم بخصوصياتهم ليتميز أمرهم عن أمر غيرهم، ولعلنا نستفيد من الآية السابقة: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أن هناك عفوا عن الجريمة.

١٢. لم يترك موسى عليه السلام القصة من دون عقاب، لأن القضية ليست قضية طارئة بسيطة، بل هي من القضايا التي تهدد المسيرة في مجتمعها الذي يمكن أن يتلاعب به أي إنسان منحرف بفعل بعض الأساليب الشيطانية الخادعة، مما يجعل الجبهة مفتوحة أمام كل القوى المضادة في أيّ موقف من مواقف الصراع؛ فأراد أن يثبّت الموقف بتعميق الإحساس بالذنب في نفوسهم، باعتباره ظلما للنفس وإساءة لها بتحويلها من خط الإيمان إلى خط الكفر، وتعريضها للعقوبة في الدنيا والآخرة، وذلك هو أبشع أنواع

الظلم.

١٣. كانت الخطة ـ فيما توحي به الآية ـ أن يدعوهم إلى التوبة ولكن بطريقة جديدة مرعبة، وهي أن يقتلوا أنفسهم، إمّا بأن يقتل كل واحد نفسه، وإما بأن يستسلم بعضهم لبعض، حسب اختلاف فهم المفسرين؛ ويروون في هذا المجال، أن موسى أمرهم بأن يقوموا صفّين ثم أن يغتسلوا ويلبسوا أكفانهم، وجاء هارون باثني عشر ألفا ممن لم يعبدوا العجل ومعهم الشفار المرهفة لتبدأ عملية القتل، فلما قتلوا سبعين ألفا تاب الله على الباقين وجعل قتل الماضين شهادة لهم.

١٤. إذا أردنا أن نأخذ بظاهر الآية، ونحمل القتل على معناه اللغوي، فقد يكون السبب في هذه العقوبة الصعبة أن الموقف يمثل أوّل تمرّد للقوم على النبوّة، في بداية تحرّكها العملي، من أجل الانتقال من دور الدعوة والتبليغ إلى دور التنظيم والتشريع، والاتجاه إلى بناء الفرد والمجتمع على أساس المفاهيم الدينية الجديدة التي أوحى الله بها إلى موسى في صيغة تشريعية متصلة لا تترك أي مجال للفراغ الفكري والعملي، فكان لا بد من موقف يساوي حجم التمرّد، ليكون ضربة قوية للطبيعة المتمردة التي بدأت تحكم مسيرة الدين الجديد في مجتمعة، وليمنع حدوث أيّ تحرك أو تصرف من هذا القبيل، لأن الموقف مرتبط بالتوبة، فلا مجال لها إلا بهذا الأسلوب الصعب، إذ إن هناك فرقا بين خطأ ينطلق من الغفلة والجهل والاندفاع العفوي، وخطأ ينطلق من موقع التمرد والجحود مع وعي الموقف كله وما يترتب عليه، لا سيما مع وجود هارون واحتجاجه عليهم ومواجهته الموقف بكل قوة.

١٥. أثار بعض المتكلمين من المفسرين جدالا كلاميا فلسفيا حول علاقة هذه العقوبة باللطف الإلهي، ومدى انسجامها مع مفهومه الذي يرتبط بالمستقبل لا بالماضي، ونحن لا نريد الخوض كثيرا في هذا الموضوع، ولا نظن وجود مشكلة في أساس القضية، لأن الذي أثاروه يتصل بقضية اللطف في موضوع التكليف الشرعي، الذي يقصد من خلاله دفع المكلف إلى الطاعة وإبعاده عن المعصية، مما يقتضي تسهيل الفعل عليه بالمستوى الذي لا يقع فيه المكلف في مشقة وحرج غير عادي، أمّا القضية هنا فإنها تتصل بالعقوبة على المعصية، وهي حقّ الله يضعه أين يشاء وكيف يشاء، ونحن لا نعقل فرقا بين الأمر للقاتل بالاستسلام لوليّ المقتول ليجري عليه القصاص وبين هذا الأمر الموجود في هذه الآية، كما لا نجد فرقا بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، فلا استبعاد ولا مخالفة لرحمة الله وعدله وحكمته.

١٦. ربما يلوح للبعض أنّ القتل هنا لم يرد بمعناه الحقيقي، وهو إزهاق النفس، بل المراد منه قتل شهواتها المحرّمة وصفاتها الذميمة وأوضاعها السيئة، تماما كما يعبّر بعض المرتاضين الروحيين عنه بإماتة النفس، ويقصد بذلك إماتة كل شهوة أو كلّ اندفاع للشهوة المحرمة فيها، وقد يؤيد ذلك باعتباره أسلوبا من أساليب التوبة التي توحي بالندم على ما مضى والعزم على تصحيح المسيرة في المستقبل، مما يفرض وجود مجال بعد التوبة، وربما يجد هذا البعض في إلحاق صفة الرحيم بالتوّاب ما يوحي بأنّ الموقف يتناسب مع الرحمة الإلهية في مفهوم العاصي، مما لا ينسجم مع الأمر بالقتل، وتعليقنا على ذلك هو أنّ الخط التفسيري الذي نسير عليه، هو العمل بظاهر القرآن فيما توحيه طبيعة الكلمة في معناها الموضوع لها أو في القرائن المحيطة بالكلمة، إلى أن يثبت خلاف ذلك من عقل أو نقل، ونحن لا نجد فيما ذكره هذا البعض دليلا على إرادة خلاف الظاهر، لأن من الممكن أن تكون التوبة بالاستسلام للقتل نظير القصاص، ولا ضرورة لوجود مجال للحياة في المستقبل، لأن الحدود الشرعية في حالة القتل أو الزنى للمحصن أو غير ذلك تعتبر وسيلة للتوبة وللتطهير، أمّا موضوع الرحمة، فقد تكون متصلة بقبوله التوبة وعدم إغلاق وسائلها بوجه الإنسان.

١٧. من خلال هذه الآيات المتقدمة نستطيع استيحاء موقف يرى أن قوم موسى لم ينطلقوا معه من موقع الإيمان برسالته والوعي لمفاهيمها التي تفرض عليهم مسئولية الفكر والحركة، بل كانوا يسيرون معه من موقع الانتماء القومي من جهة، ومن موقع الحاجة إلى التخلص من ظلم فرعون من جهة أخرى، ولم تكن قضية الإيمان إلا وسيلة من وسائل تأكيد هاتين الجهتين بعيدا عن كل اعتبار للحقيقة في الموقف، مما جعلهم ينحرفون عند أيّ منعطف للانحراف، ويبتعدون عن الجو لدى أوّل غياب لموسى عليه السّلام عنهم، لأنهم كانوا خاضعين للتأثير القويّ لشخصيته القوية وإحساسهم بالاعتراف بالجميل؛ وهذا ما يظهر تراجعهم السريع وشعورهم العميق بالذنب عند مواجهتهم لموسى بعد رجوعه من ميقات الله.

١٨. مما نستوحيه أيضا من هذه الآيات درسا جديدا للعاملين في سبيل الله، وخلاصته: إن على العاملين في سبيل الله، سواء أكانوا في موقع الدعوة، أم كانوا في موقع العمل والحركة، أن لا يتأثروا بالمظاهر الانفعالية للإيمان فيمن يتعاونون معهم أو من يتبعونهم، بل عليهم أن يدرسوا بعمق طبيعة العوامل الداخلية والمؤثرات الخلفية التي استطاعت أن تربط هؤلاء بالقيادة أو بالخط العملي، أو بالفكرة الشاملة؛

فقد تكون المؤثرات خاضعة لطبيعة القائد في قوته الفكرية، أو جاذبيته الشخصية، أو انتماءاته العائلية والقومية أو الإقليمية.. وقد تكون الأسباب متصلة ببعض الأجواء العاطفية للقضية، أو ببعض ردود الفعل ضد حركات معينة، أو قيادات خاصة تقف في الموقف المعاكس لهذه الحركة أو هذه القيادة، مما يجعل من الارتباط بها تنفسيا عن عقدة أو تفجيرا لغيظ، وربما تكون العوامل المؤثرة مرتبطة ببعض المواقف السياسية أو الاجتماعية التي تمثلها حركة الدعوة إلى الله في مسيرتها الطويلة، بحيث يعتبر الارتباط بالدعوة الإسلامية مرحليا من أجل الوصول إلى الموقف السياسي أو الاجتماعي المحدّد؛ وقد لا تكون القضية نابعة من ذلك كله، بل هي منطلقة من خط الإيمان الحق بالفكرة والخط والهدف، فلا بد للعاملين من دراسة ذلك كله، لتكون مواقفهم مبنية على معرفة عميقة للأرضية التي يقفون عليها، وللمجتمعات التي يتعاملون معها ويتحركون فيها، لأن ذلك قد يكلّف العمل وجوده، عندما تختلف حسابات الموقف أمام النماذج القلقة التي تتكشف عنها التجارب في صورة غير منتظرة.

١٩. هذا موقف آخر يحدثنا الله فيه عن طبيعة التمرد التي كانت طابع أفراد هذا الشعب، فلم يسكنوا إلى ما أفاضه الله عليهم من النعم، وأراهم من الدلائل والبيّنات، وخلّصهم من المآزق والأزمات، مما يوحي بعظمة الله ورحمته المتمثلة في ذلك كله، بل أعلنوا الموقف المتمرد الذي يهدف إلى التحدي ولا يهدف إلى الإيمان.

٢٠. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾ أي عيانا، تماما كما يشاهد أحدنا الآخر، وهو ما يدل على أنكم لم تنطلقوا من وعي المسألة الإلهية في أبعادها الحقيقية التي لا تلتقي بالتجسيد المادي الذي يجعل الإله خاضعا للحاجات الجسدية، مفتقرا إلى عناصرها المادية، فهو الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] و ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهو الذي تنطلق الفطرة من أعماق الإنسان لتلتقي به، ويتحرك الوجدان في بداهة العقل ليتحسس وجوده، فيرى في كل خلق من خلقه دليلا عليه وشاهدا على عظمته.. وربما كانت مسألتكم فيما تطلبونه من رؤية الله عيانا، أسلوبا من أساليب العناء والتعجيز لموسى، لأنكم تعرفون أنه غير قادر على الاستجابة لطلبكم هذا، لأنه طلب المستحيل، لتبتعدوا بالبسطاء من الناس عن وعي الإيمان في رسالة النبي، من خلال الحالة الساذجة التي تلعبون عليها.

٢١. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ التي أرسلها الله عليكم في برقها ورعدها وزلزالها، للإيحاء لكم بأنكم

إذا لم تملكوا حياتكم في مواجهة هذه الظاهرة التي هي خلق من قدرة الله، فكيف تملكون النظر إليه سبحانه لو كان ذلك ممكنا.

٢٢. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ مدهوشين مذهولين بالمستوى الذي سقطتم فيه صرعى من دون حياة ولا حراك.

٢٣. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لتعرفوا مدى قدرة الله على تحريك الحياة بإرادته، وإنزال الموت بقوته، وإعادة الحياة بقدرته في الدنيا والآخرة.. وربما كان في هذه التجربة ـ في إعادة الحياة بعد الموت في الدنيا ـ ما يرفع الاستبعاد عن فكرة الرجعة من حيث المبدأ.. وقد حاول البعض تفسير الموت بالغيبوبة، ليكون البعث عبارة عن اليقظة، أو تفسير الموت بانقطاع النسل، والبعث كثرته، ونحو ذلك مما لا دليل عليه، مع مخالفته للظاهر القرآني.

٢٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النعمة الجديدة في البعث بعد الموت، مما لم يحدث لغيركم من الناس في التاريخ، وتلك هي النعمة والتي لا تدانيها أية نعمة مادية في الدنيا، بحيث تفرض الشكر الذي لا يدانيه شكر.

٢٥. توحي هذه الآية أنّ بني إسرائيل كانوا يعانون من حرّ الشمس في الصحراء في رحلتهم الطويلة، فأرسل الله إليهم الغمام ليظلّلهم، وأنهم كانوا يشكون من الجوع، فأنزل الله عليهم المنّ، الذي قيل بأنه إما طعام يسقط على الشجر أو جميع النعم التي منّ الله بها عليهم.. والسلوى الذي قيل: إنه طائر أبيض يشبه السماني أو هو السماني، ولكنهم لم يشكروا، بل ظلوا على تمردهم وظلمهم وبغيهم الذي أساؤوا به إلى أنفسهم، لأن ذلك لا يضر الله شيئا، فهو الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضرّه معصية من عصاه.

٢٦. هذا ما أراد أن يثيره القرآن في وعي الناس فيما يكلفهم الله به من تكاليف فيما يفعلون وفيما يتركون، ليعرفوا أن الشأن في ذلك كله هو هداية الإنسان لما يصلحه وإبعاده عما يفسده، مما يجعل من المعصية ظلما للنفس لا ظلما لله.

٢٧. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ في رحلتكم الطويلة في الصحراء اللاهبة التي تشتد فيها حرارة الشمس، فتثقل مسيرة السائرين وتكلفهم جهدا كبيرا وعناء عظيما وآلاما شديدة، فكان الغمام الذي يحجب حرارة الشمس ويخفف من تأثيرها، ويستبدل الجو الحار المحرق بجو ظليل منعش يمنح السائرين

الإحساس بالاسترخاء الجسدي من خلال برودة الهواء ووداعة الظلال.

٢٨. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ مما تتغذون به في هذه المسيرة الطويلة، لئلا تواجهوا الجوع القاتل، والتعبير بالإنزال، هنا، يتضمن الإيحاء بالموقع الأعلى الذي يتمثل في الله على عباده الذين هم في المنزلة الدنيا، وليس بالتالي من الضروري أن يكون تعبيرا عن الإنزال المادي وإن كان محتملا.

٢٩. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فقد هيأ الله لكم طيبات الطعام من كل الأصناف الشهية مما أحله لكم، ودعاكم إلى التمتع بها، لأن الله لا يريد لكم حرمان أنفسكم منها، فليست القيمة في الحياة أن تجرعوا أو تظمأوا أو تلبسوا اللباس الخشن.. في ذاتية الجوع والظمأ والخشونة، بل القيمة هي الإرادة الإنسانية القوية الواعية التي يملك الإنسان فيها نفسه في مواقع السلب أو الإيجاب، بحيث لا يكون عبد الطيبات والملذات، بل يكون سيّدها من حيث هو سيد نفسه في قوة إرادته.

٣٠. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ في انحرافهم عن خط الإيمان والعمل الصالح، بالمعنى الذي توحي به كلمة الظلم من النتائج السيئة التي تصيب المظلوم من تصرفات الظالم، لأن الله هو الغني بذاته الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه أو إيمان من آمن به، ولا تضره معصية من عصاه أو كفر من كفر به.

٣١. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن الكفر والانحراف يمثلان خطين من الخطوط المنحرفة عن القيمة الكبرى التي ترتفع بالإنسان إلى الدرجات العليا في الحياة الدنيا وفي الدار الآخرة، مما يؤدي إلى الهلاك العاجل والآجل معا.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. في هذه الآية تذكير لبني إسرائيل بنعمة سابغة تعد أكبر نعمة بسطها الله لهم وأنعم بها عليهم لما فيها من صلاح الدين والدنيا وقوام أمر الفرد والمجتمع، وهي نعمة إنزال التوراة عليهم لتكون لهم هدى ونورا، تنتظم شمل جماعتهم، ويحتكمون إليها في منازعاتهم، ويستمدون منها الرشد والصلاح فيما يتعلق بالمعاش والمعاد.

٢. حقيق أن تكون التوراة أكبر النعم التي أوتيها بنو إسرائيل، إذ لا يعرف في الكتب السماوية مما

(١) تفسير الخليلي: ٣/٢٦٩.

نزل قبلها أو بعدها ما هو أجمع منها حكما، وأوسع منها علما، وأعم منها نورا، إلا القرآن الذي أنزله الله هدى وذكرا للعالمين، فهيمن على كل ما أنزل قبله.

٣. الامتنان بإنزال الكتاب على موسى لهداية قومه ذكر هنا في معرض تعداد النعم المختلفة التي أسبغها الله عليهم لأنه حلقة من حلقات سلسلتها الطويلة، ولم يختلف المفسرون في كون المقصود بالكتاب التوراة الهادية إلى أمر الله، والتي تعاقب عدد من النبيين على تجديد إبلاغ رسالتها، والحكم بمضمونها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾، وهي التي جعلتها بنو إسرائيل أعظم مفاخرهم التي يتطاولون بها على سائر الشعوب والأمم.

٤. اختلف أهل التفسير في المراد بالفرقان على مذاهب أنهاها أبو حيان في (البحر) إلى اثني عشر مذهبا، منها:

أ. منها أنه نفس التوراة، وإنما أعيد ذكرها باسم آخر اعتبارا لمنشأ التسميتين، فهي كتاب باعتبارها مجموعة مكتوبة، وفرقان باعتبارها فارقة ـ أي مميزة ـ بين الحق والباطل، وهو قول الزجاج، واختاره الزمخشري، وبدأ بذكره ابن عطية، وعليه فالعطف للتغاير الحاصل بين مدلول الاسمين، وإن كان مسماهما واحدا.

ب. ومنها أنه هو النصر لأن الله سمى يوم بدر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، وفي معناه قول من قال إنه الفرج، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ .

ج. ومنها أنه فرق البحر، واعترض بأنه سبق ذكره، فلا داعي لإعادته، ورد هذا الاعتراض بأن ذكره السابق كان في معرض الامتنان على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون وآله، وهو هنا في معرض الحديث عن الآيات التي أوتيها عليه السلام.

د. ومنها أنه الآيات الخارقة التي كانت لموسى من العصى واليد وغيرهما لأنها فرقت بين الحق والباطل.

هـ. ومنها أنه القرآن لأن الله سماه الفرقان، وعليه فإما أن يكون المراد بإيتائه موسى إيتائه ذكر نزوله على محمد ﷺ حتى آمن به، وهو الذي حكاه ابن الأنباري، وإما أن يخرج الكلام على تقدير محذوف أي ومحمدا الفرقان، وهو محكي عن الفراء وقطرب وثعلب، وضعف هذا القول بكلا فرعيه أظهر من أن

يحتاج إلى بيان، فإن من أوتي ذكر شيء لا يعد مؤتى بذلك الشيء بعينه، وإلا لكان كل شقي وسعيد أوتوا الجنة لأنهم قد أوتوا ذكرها فيما أنزله الله من وحيه، وفيما تتناقله الألسن عن النبيين.. وليست في الآية قرينة يفهم منها هذا المعنى على أن لفظ الفرقان غير محصور في القرآن كما تبين، وقد قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾

٥. الظاهر أن المراد بالفرقان ما احتواه الكتاب نفسه من أحكام ومراشد مفرقة بين الحلال والحرام، وبين الحق والباطل، وهذا الذي اعتمده قطب الأئمة في الهيميان، ومحمد عبده في المنار، وجعله القطب من باب أعجبني زيد وحسنه، فإن الحسن مما اشتمل عليه زيد المعطوف عليه، وكذا الكتاب مشتمل على الفرقان المميز ويستأنس لهذا القول بما ذيلت به الآية وهو قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فإن ما في تضاعيف الكتاب من أحكام وحكم، ووعد ووعيد، وحجج وبراهين هو السبب للهداية المشار إليها، ومثل هذا مثل قوله تعالى في القرآن: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، فإن احتواء القرآن على الحجج الناصعة، والأحكام البينة، والمعجزة الباهرة هو باب هدايته للمتقين، وكتب الله جميعا أنزلت لهذا الغرض، فهي ينابيع الهدى ومشارق الأنوار، ومصادر الأحكام، وسفن نجاة الناس من مخاطر تيارات الحياة المضطربة.

٦. القوم هم الجماعة المترابطة المتآزرة، وسموا كذلك لأنهم جميعا يقومون بمصالح بعضهم بعضا، ولما كانت هذه هي مهمة الرجال غالبا كان إطلاقه عليهم وحدهم هو الأغلب، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن﴾، فإن العطف من شأنه التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه.. ويطلق على الجماعة الجامعة للذكور والإناث، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، فإن رسالته ليست خاصة بالذكور، وإنما هي شاملة لهم وللإناث، واختلف فيه هل هو من باب المشترك، أو أن حقيقته في الذكور، وإطلاقه على الذكور والإناث معا تغليب، وهذا هو الأظهر لأن الأصل عدم الاشتراك، وفائدة النص على أن قوله كان لقومه مع ابتداء خطابه بـ ﴿يَا قَوْمِ﴾ التنبيه على أن هذا الخطاب ما كان بواسطة بينه وبينهم، بل كان منه لهم مباشرة.

٧. ابتداء خطابهم بـ ﴿يَا قَوْمِ﴾ مشعر بتلطفه بهم، وحنوه عليهم ليكون ذلك أدعى إلى تعاطفهم معه واستجابتهم لأمره، وقبولهم لنصحه، فإن من شأن الناس أن يكونوا أوثق بأبناء جلدتهم لا سيما في

القضايا المشتركة والمصالح العامة.

٨. ابتدأ عليه السلام نصحه لهم بإيقافهم على فحش خطئهم، وإيقاظهم أنهم لم يظلموا به إلا أنفسهم، فإن مغبة ما ارتكبوا عائدة إليهم، وسوء ما عملوا حائق بهم.

٩. الفاء في قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ سببية لأن وجوب التوبة عليهم مسبب عن هذا الظلم الذي ظلموه أنفسهم باتخاذهم العجل.

١٠. البارئ: الخالق مع شيء من الفارق الدقيق في مفهوم اللفظين:

أ. قيل: ذلك أن البارئ هو المبدع المحدث، والخالق هو المقدر الناقل من حال إلى حال.

ب. وقيل: الخلق دال على مطلق الإيجاد، والبرء هو إيجاد الشيء بريئا ـ أي خالصا ـ من وصمة التفاوت بين أجزائه، كطول إحدى اليدين مع قصر الأخرى، وكبر إحدى العينين مع صغر الثانية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، وأصله الانفصال، كما يقال: برئ من كذا، إذ تخلص منه، ومنه برئ المريض، وذلك أن الخلق فصلوا بهذا الإيجاد من العدم إلى الوجود.

١١. مما هو غني عن الذكر أن الله سبحانه قدير على أن يجمع لهم ـ على هذا الإغراق في الضلالة واللجاجة في الكفر ـ عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، غير أنه تعالى لسعة عفوه وواسع حلمه جعل هذه العقوبة الدنيوية ـ وهي قتل أنفسهم ـ تكفيرا لما ارتكبوه، لأنها كانت علامة صدق توبتهم ومنتهى إذعانهم على أن من فضل الله عليهم أن رفع هذه العقوبة عنهم قبل أن تستأصل شأفتهم، فكان هذا الرفع نعمة دنيوية جديرة بأن تقابل بالشكر من السلف والخلف، ولا يستغرب أن يشار إلى النعمتين بكلمة العفو الدالة على قبول التوبة ورفع عقاب الدنيا مع الوقاية من عقاب الآخرة، فإن ذلك من الإيجاز المعهود في أساليب القرآن.

١٢. ما هذا العقاب الدنيوي إلا ضرب من ضروب التربية النفسية لهم، فإنهم قوم قست قلوبهم، وعتت نفوسهم، لما مردوا عليه من الكفر وألفوه من الضلالة، فكم عاندوا موسى عليه السلام وآذوه وأصروا على هوى أنفسهم واستكبروا استكبارا، وواجهوا المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة بالصدود والتكذيب، فكانوا أحرياء بأن يؤدوا ضريبة دموية تكون تطهيرا لخطاياهم وإصلاحا وتقويما لنفوسهم.

١٣. فاء ﴿فَاقْتُلُوا﴾ للسببية كالتي قبلها، والسبب هو اتخاذ العجل إن قيل بأن القتل نفسه هو

التوبة، وعليه فجملة ﴿فَاقْتُلُوا﴾ بدل من جملة ﴿فَتُوبُوا﴾ أو التوبة إن قيل بأنه شرط من شروط صحتها، ككفارة الحنث، فإنها من شروط توبة الحانث وليست عينها، وهذا هو الأظهر لأن للتوبة أركانا معلومة.

١٤. اختلفوا في حكم هذا القتل:

أ. قيل: بأنه خاص بهذه المعصية في هذه الواقعة بعينها.. وهو الظاهر إذ لم يثبت أنهم أمروا بقتل أنفسهم في غير هذه الواقعة مع كثرة ما صدر عنهم من موجبات الكفر، كقولهم: ﴿إِنَّ اللهَّ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾

ب. وقيل: بأنه تتوقف عليه توبة كل مرتد من بني إسرائيل حسبما شرع لهم، والأول

١٥. هذا الحكم يستحيل صدوره عن موسى عليه السلام من غير أن يستند فيه إلى وحي من الله لأن مما استقرت عليه العقول واتفقت عليه الشرائع وجوب المحافظة على سلامة النفس وبقاء حياتها إلا مع أسباب يستثنيها الشرع، وذلك بأن يكون القتل إما طهارة للنفس أو وقاية للمجتمع.

١٦. تلقى بنو إسرائيل هذا الأمر بالامتثال لأنهم شعروا بفداحة ما ارتكبوه، وضلالة ما فعلوا كما قال سبحانه وتعالى فيهم: ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا)

١٧. اختلف المفسرون في كيفية هذا القتل كما اختلفوا في العدد الذي وقع عليه القتل اختلافا كثيرا:

أ. قيل: أمر عبدة العجل بأن يباشر كل منهم قتل نفسه بيده، وجمهور السلف على خلاف هذا القول حتى أن صاحب المنتخب حكى الإجماع على أنهم لم يؤمروا بقتل أنفسهم بأيديهم، وأنكر عليه أبو حيان في البحر المحيط دعوى الإجماع لوجود من قال بأنهم أمروا بمباشرة قتل أنفسهم من بين المفسرين، ولم ينفرد صاحب المنتخب بحكاية الإجماع في هذه المسألة، بل حكاه القرطبي أيضا.

ب. وقيل: بأن المراد بقتلهم أنفسهم هو قتل بعضهم بعضا، وهو المروي عن السلف، وعليه اقتصر المفسرون بالمأثور، وهو المتبادر، لأن الأمة الواحدة في تماسكها وترابطها كالنفس الواحدة والجسد الواحد في الشعور بالبؤس والنعيم، والعز والهوان، فإذا قتل أحد منها أخاه عد قاتلا لنفسه لأنه يصاب بفداحة الخسران منه كغيره من أبناء تلك الأمة، وكثيرا ما تراعي هذه الوحدة الشعورية الواجبة بين الأمة في الخطابات التشريعية لإثارة الإحساس بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾،

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فإنه مما لا يختلف فيه أن النهي في الآيتين إنما هو عن أكل مال الغير وعن لمز الغير.

١٨. اختلف في كيفية قتل بعضهم بعضا:

أ. قيل: أنهم جميعا أمروا بأن يأخذوا الحراب ويقتل بعضهم بعضا.

ب. وقيل: أن الذين أمروا بالقتل هم السبعون الذين كانوا مع موسى عليه السلام في الميقات ولم يشتركوا معهم في عبادة العجل.

ج. وقيل: أن المأمورين بالقتل هم الذين اعتزلوا مع هارون.

د. وقيل: بأن استسلامهم للقتل هو الذي عبر عنه بقتل أنفسهم، وذلك أن عباد العجل أمروا بأن يحتبوا في أفنية دورهم، وخرج عليهم يوشع بن نون وهم محتبون، فقال: ملعون من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل.

١٩. من الأقوال في هذا أنهم: أمروا بأن يبخعوا أنفسهم، أي يحملوها من هموم الندم والحزن على اقتراف الشرك ما لا تتحمله.. وقيل: بل أمروا بتذليل النفوس وهو المراد بقتلها.

٢٠. اختلف في عدد القتلى:

أ. أكثر المفسرين قالوا بأنهم كانوا سبعين ألفا تعويلا منهم على الروايات المعزوة إلى السلف من الصحابة والتابعين.

ب. رجح بعض مفسري العصر أنهم كانوا ثلاثة آلاف تعويلا على نصوص التوراة.

٢١. كلا القولين ليس له سند واضح.. أما الروايات المعزوة إلى السلف فليست وحدها حجة لعدم وثوق أسانيدها، وأما نصوص التوراة ـ بعدما دخلها التحريف والتبديل ـ فهي أضعف من أن تكون دليلا على شيء مع أنها لم تتفق على تحديد العدد بثلاثة آلاف، فقد جاء في بعض رواياتها أنهم كانوا ثلاثة وعشرون ألفا، ولا داعي إلى التفتيش عما طوى عنا القرآن علمه من هذه الأخبار، ولم يثبت بسند مقبول عن المعصوم ﷺ، فإنه يفضي إلى الدخول في متاهات الأوهام، وحسبنا ذكرا وعظة ما قصه الله لنا من أن توبتهم كانت معقودة على دفع هذا الثمن الباهض لشططهم في الكفر، وغلوهم في التعنت؛ ثم تداركتهم عناية الله ولطفه فقبل توبتهم، وأذن برفع القتل عن بقاياهم، فكان القتل شهادة للمقتولين وتوبة للباقين.

٢٢. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٢٣. هذه حلقة في سلسلة عنادهم المتطاول، وضرب من ضروب إخلادهم إلى الأباطيل في مواجهة الحق المبين، والحقيقة الناصعة، فإنهم لم يكتفوا بما شاهدوه رأى العين من معجزات موسى عليه السلام الباهرة، وحججه القاهرة، التي يطمئن إليها كل ذي لب، ويهتدي بها كل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، حتى جاروا بهذا المطلب الذي لا يصدر إلا ممن لم يقدروا الله حق قدره، ولم يصفوه بما هو له أهل من صفات الجلال والكبرياء وفي طي تذكيرهم بهذه الجريمة النكراء تذكير بنعمة أخرى من نعم الله المتلاحقة عليهم، وهي تداركهم باللطف بعدما حاق بهم العقاب الأليم اللائق بسوء ما ارتكبوه، ومحط هذا الامتنان قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾

٢٤. تعدية نؤمن باللام لتضمنه معنى نقر، والمراد بعدم إيمانهم له عدم إيمانهم بما أنزل عليه من الكتاب، أو بأنه رسول الله، أو بأن الله كلمه تكليما.

٢٥. الجهرة هنا بمعنى العلانية.. وإنما أوثرت كلمة (جهرة) على غيرها مما يؤدي مؤداها لتلاؤمها مع ما سبقها ولحقها في النظم، بجانب ما توحيه من وصف التعنت الذي كانوا عليه، وأصلها بمعنى الظهور، ومنه الجهر بالقراءة.. وانتصابها على المصدرية التأكيدية، فهي تجتث توهم أن تكون الرؤية المطلوبة منامية أو قلبية، وهذا أولى من دعوى أن النصب على الحالية بمعنى جاهرين بالرؤية، أو تقدير محذوف، أي ذوي جهرة.

٢٦. اختلف في أصحاب هذه المقالة؛ فقيل: هم السبعون الذين اختارهم لميقات ربه.. وقيل: كانوا عشرة آلاف من بني إسرائيل، والأول أصح لقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتهم فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي﴾

٢٧. اختلف في هذا الميقات:

أ. قيل: إنه الميقات الذي كان بعد تنجيتهم من فرعون وآله الذي وعد الله موسى أن ينزل عليه الكتاب فيه.

ب. وقيل: هو ميقات آخر واعد الله فيه موسى ليجيئه بسبعين رجلا من بني إسرائيل يعتذرون

إليه مما وقعوا فيه من عبادة العجل.

٢٨. مهما يكن فإن الظاهر أن هؤلاء كانوا من أفضل بني إسرائيل حسب ظاهر حالهم، فلذلك اختلفوا لما اختلفوا له من الشهادة لموسى عليه السلام بإنزال التوراة عليه، أو للوفود على الله للاعتذار إليه، ومع ذلك قالوا ما قالوا من كلمة الكفر إذ علقوا إيمانهم لموسى على ما يستحيل على الله، وحسبكم ذلك دليلا على شر طباعهم وتعفن أفكارهم وبعد ضلالهم، بأن المراد بنظرهم إلى أحوالهم، وما بقى في أجسامهم من أثر ولكن الحق تعالى لم يمهلهم في هذه المرة، بل صب عليهم سوط عذابه، وأذاقهم وبال ما ارتكبوه، إذ أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

٢٩. قال جماعة من أهل التفسير وغيرهم إن الذي أطمعهم في رؤية الله سماعهم كلامه، فقاسوا الرؤية على السماع، وأكثر المفسرين على أن السماع كان خاصا بموسى وحده، وهو الذي يؤذن به قوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، وكأني بأصحاب القول الأول يستدلون لقولهم بما جاء في سفر التثنية من التوراة مما يقتضي ثبوت السماع لهم، وقد علمتم أن نصوص التوراة لم تعد مما يعول عليه إثبات شيء أو نفيه لما خالطها من تحريف المحرفين وأضاليل الدجالينن، فغشيها من اللبس ما غشيها.

٣٠. جملة ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ حالية، وهي دالة على أن الصاعقة نزلت بهم وقد كانوا واعين بهولها محسين بشدتها حتى أهلكتهم، ولا داعي إلى التأويلات البعيدة التي حاولها المفسرون لتبيان مفهوم هذه الجملة:

أ. كقول القرطبي بأن المراد بنظرهم تقابلهم في حال الموت كما تقول العرب دور آل فلان تراءى، أي يقابل بعضها بعضا.

ب. وقول غيره الصعق بعد البعث.

ج. وقول الآخرين بأنهم كانوا ينظر بعضهم إلى بعض عندما بعثهم الله بالإحياء مرة أخرى.

فإن في ذلك من التكلف ما لا يخفى على متأمل.

٣١. في التأويلين الأخيرين خروج بجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ عن الحالية، لأن نظرهم إلى آثار الصاعقة وإلى سريان الحياة في أجسامهم غير مقترن بنزول الصاعقة بهم، كيف وقد قيل إنهم ماتوا يوما

وليلة.. وقيل: يومين؟ وهذا كله مبني على أنها كانت ميتة حقيقية، وهو الذي يؤيده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ .. وعليه فيكون هؤلاء من الذين ماتوا وأحيوا بعد الموت في الدار الدنيا ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وكالذي أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهو ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾، ويدخل ذلك في مقدورات الله الخارجية عن السنن المعهودة.

٣٢. وذكر هذه القصة وارد مورد الامتنان عليهم كسائر هذه القصص المتتابعة مع ما فيها من النداء عليهم بسفاهة الأحلام، وضلال العقول، وفساد الفطرة، ومحط الامتنان قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٣٣. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

٣٤. هذا تذكير بنعمة أخرى أسبغت عليهم في وقت كانوا فيه أشد فقرا إلى مثلها، إذ كان المحكي هنا عندما كانوا في التيه يترددون في حدوده لا يتجاوزونها، كأنما يدورون في حلقة مفرغة، وذلك عندما طالبهم موسى عليه السلام بمقاتلة الجبارين في أرض الشام فعتوا عتوا كبيرا، وقالوا له: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾، فظلوا يتخبطون في سيرهم، يتيهون في الأرض مدة أربعين عاما، لا يدرون المخرج من محبسهم، عقوبة من الله على عتوهم، وبجانب هذا التأديب الإلهي لهم كانت عين العناية ترعاهم، وسيوب الإحسان تغمرهم، ومن ذلك ما حكاه الله هنا من تظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى إليهم، وما حكاه من بعد من تفجير الأنهار لهم من الحجر الصلد؛ وأضاف المفسرون إلى ذلك أنه تعالى سخر لهم عمودا من نور يستضيئون به، وأن ثيابهم كانت لا تبلى، وكانت تنمو بنمو أجسادهم، وهذا مما لم تثبت به حجة، والله على كل شيء قدير، لا يعجزه ذلك، كما لم يعجزه تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى عليهم.

٣٥. ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ معطوف على ﴿بَعَثْنَاكُمْ﴾، وقيل: على ﴿قُلْتُمْ﴾، والصحيح الأول لتناسبهما في كون كل منهما نعمة، واشتراكهم في إسنادهما إلى الله بخلاف ﴿قُلْتُمْ﴾، فإنه يفيد النداء عليهم بالحماقة والجهل ولا يبعد أن يكون ترتب هذه الأحداث في الوقوع بحسب ترتبها في الذكر، وهذا هو الظاهر،

وخالف في ذلك ابن عاشور حيث قال: والظاهر أن تظليل الغمام ونزول المن والسلوى كان قبل سؤالهم رؤية الله جهرة، لأن التوراة ذكرت نزول المن والسلوى حين دخولهم في برية سين بين إيلين وسيناء في اليوم الثاني عشر من الشهر الثاني من خروجهم من مصر حين اشتاقوا أكل الخبز واللحم لأنهم في رحلتهم ما كانوا يطبخون بل الظاهر أنهم كانوا يقتاتون من ألبان مواشيهم التي أخرجوها معهم، ومما تنبته الأرض، وأما تظليلهم بالغمام فالظاهر أنه وقع بعد أن سألوا رؤية الله لأن تظليل الغمام وقع أن نصب لهم موسى خيمة الاجتماع محل القرابين ومحل مناجاة موسى وقبلة الداعين من بني إسرائيل في برية سيناء، فلما تمت الخيمة سنة اثنتين من خروجهم من مصر غطت سحابة خيمة الشهادة، ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة فذلك إذن لبني إسرائيل بالرحيل، فإذا حلت السحابة حلوا.... الخ. كذا تقول كتبهم)، وهذا الكلام لا يخلو من تناقض، فقد ذكر أولا أن تظليل الغمام ونزول المن والسلوى كانا قبل رؤية الله جهرة، ثم أتبعه أن تظليلهم بالغمام وقع بعد أن سألوا رؤية الله، ثم هو مخالف لما عليه المفسرون من أن ذلك حدث في التيه عندما امتنعوا عن مقاتلة الجبارين.

٣٦. الغمام: اسم جنس، واحده غمامة، كسحاب وسحابة، وزنا ومعنى، وقيل: هو السحاب الأبيض، وقيل: ما رق منه وبرد، وهو المروي عن مجاهد، ورده محمد عبده بأن السياق يقتضي كثافة إذ لا يحصل الظل الظليل الذي يفيده حرف التظليل إلا بسحاب كثيف يمنع حر الشمس ووهجها، وكذلك لا تتم النعمة التي بها المنة إلا بالكثيف، وهو المنقول المعروف عند الإسرائيليين أنفسهم.

٣٧. تسميته غماما لأنه يغم السماء أي يسترها عن الأبصار، وزعم بعضهم أنه لم يكن غماما حقيقة، وإنما كان ظلا مشبها للغمام فسمي به، والصحيح خلاف ذلك، إذ لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا مع قرينه تصرف اللفظ عنها إليه.

٣٨. عُد هذا التظليل نعمة لأنه يقيهم لفح الشمس ووهجها، واستظهر بعض المفسرين من ذلك أنه كان بالنهار دون الليل، أما الليل فقد كان الغمام ينجلي فيه ليأنسوا بنور القمر، ولألاء النجوم في الصحو.

٣٩. المن ـ في قول أكثر المفسرين ـ مادة صمغية ذات حلاوة مع شيء من الحموضة لم تكن معهودة في بلاد الشام وما حاذاها، وإنما يكثر نزولها في تركستان، وقد أنعم الله به على بني إسرائيل في التيه فكان

ينزل عليهم كالطل بين انشقاق الفجر وطلوع الشمس فيما عدا يوم السبت، وكان كل منهم يأخذ قدر صاع ليومه وليلته، ولا يدخرون منه إلا ليوم السبت.

٤٠. الأمر في قوله سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ للامتنان، ذلك لأن الموهوب يشعر بجسامة ما أنعم به الواهب إذا صرح له للانتفاع به، واستظهر منه بعض العلماء أنه لا يجوز لمن أحضر له الطعام أن يأكل منه حتى يؤمر بالأكل، والصحيح أن العرف كاف في إباحة الأكل في مثل هذه الحالة، والمسألة ونظائرها مبسوطة في كتب الفقه.

٤١. المراد بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أن عاقبة ظلمهم لم تعد إلا على أنفسهم، فالبعد وإن تطاول على ربه بأنواع المعاصي وصنوف الكفران فإنه لا يضر بذلك إلا نفسه، والله أجل من أن يلحقه ضرر أو يناله مكروه، ويجوز أن تكون هذه الجملة فذلكة لما وصفوا به من صفات الظلم من قبل، كاتخاذهم العجل، وسؤالهم الرؤية.

٤٢. مع ظهور هذه الآيات بجانب المعجزات السابقة لم يبرحوا حالتهم التي ألفوها، لأنهم ألفوا الشقاق، ومردوا عليه، فظلوا في تيههم يتخبطون إلى أن مات هارون ثم موسى ـ صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما ـ وهلك ذلك الجيل العاتي، ونشأ جيل جديد أسلم منه فطرة، وأسس قيادا، وأوفى مروءة، وأرهف حسا، فقاتل به يوشع بن نون خليفة موسى ـ عليهما السلام ـ الجبارين، وفتح به الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فكان لهم التمكن في الأرض كما وعدهم الله حتى بدل أعقابهم وعادوا إلى ما كان عليه سلفهم الأولون من اللؤم والفساد، وقتلوا من قتلوا من النبيين، فأعقبهم الله ذلا وهوانا، وفتنة ودمروا، وهذه هي سنة الله في عباده (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون)

٤٣. بهذا يتبين بعد البون بين حال أمتي محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام، فنبينا محمد ﷺ بعث في أمة بدائية ليس لها عهد بالنبوات منذ أمد بعيد، وقُرن بمعجزة معنوية، وهي القرآن الذي بُعث به ـ لا كمعجزات موسى عليه السلام التي كانت تدرك بالحواس، وتتجلى لجميع الناس، كاليد والعصى، وفرق البحر، ونزول المن والسلوى، ومع ذلك لم تلبث الأمة التي بعث فيها محمد ﷺ أن انقادت لأمره واضطلعت بأمانته، فكان كل فرد منها كأنه رسول بُعث إلى أمة، يجسد بفعله وقوله قيم الدين ومبادئ الحق مع ما كان منها ـ بادي الأمر ـ من مجاهرة أكثرها بعدائه ﷺ، ومناصبته الحرب، ومعاكسته في الأمر،

ولعمري إن هذا التحول السريع في مدة عقدين من السنين قضاهما رسول الله ﷺ بين ظهراني هذه الأمة مبلغا دعوة ربه، ومجاهدا في سبيله، لدليل كاف أن الله سبحانه، أعدها بتزكية فطرتها، وتنوير بصائرها، لحمل أمانة الرسالة الخاتمة الجامعة، ولأن تكون أمة وسطا شهيدة على سائر الأمم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. كلمتا (الكتاب) و(الفرقان) قد تشيران كلاهما إلى التوراة، وقد يكون المقصود من (الكتاب) التوراة و(الفرقان) ما قدمه موسى من معاجز بإذن الله، لأنّ الفرقان يعني في الأصل ما يفرّق بين الحق والباطل.

٢. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

٣. يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

٤. (الباري) هو الخالق، وفي الكلمة إشارة إلى أن هذا الأمر الإلهي بالتوبة الشديدة صادر عمّن خلقكم، وعمّن هو أعرف بما يضرّكم وينفعكم.

٥. لا شك أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة، لأن بني إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيّهم موسى عليه السّلام، ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النّبي انحرفوا تماما عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلهي.

٦. كان لا بدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كي لا تعود إلى الظهور ثانية خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة، ومن هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير في تاريخ الأنبياء، وتقضي هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعي لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

٧. طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل

---

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٢٧.

المذنبون بعضهم بعضا، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به ـ هو نفسه ـ من عذاب القتل.

٨. جاء في الأخبار أن موسى أمر في ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم في البعض الاخر.

٩. السبب في شدّة هذا الحكم يعود إلى عظمة الذنب الذي ارتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، وإلى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة ومستقبلها لأن اصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن اختزالها في التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعني انهيار جميع اللبنات الفوقية والمباني الحضارية للدين، فلو تساهل موسى عليه السّلام مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سنّة في الأجيال القادمة، خاصة وأن بني إسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوما متعنتين لجوجين.. لا بدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعا للأجيال التالية عن السقوط في هاوية الشرك.. ولعل في عبارة قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ إشارة إلى هذا المعنى.

١٠. هاتان الآيتان تذكّران بني إسرائيل بنعمة إلهية أخرى، كما توضحان في الوقت نفسه روح اللجاج والعناد في هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب إلهي، وما شملهم الله به من رحمة بعد ذلك العقاب.

١١. تقول الآية الاولى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا الطلب قد ينم عن جهل بني إسرائيل، لأن إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدّى حواسه، ولذلك يرمي إلى أن يرى الله بعينه.. أو قد يحكي هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التي يتميزون بها دوما.. على أي حال، طلب بنو إسرائيل من نبيهم بصراحة أن يروا الله جهرة، وجعلوا ذلك شرطا لإيمانهم.

١٢. عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهرة هذه لا تطيق رؤية كثير من مخلوقات الله، فما بالك برؤية الله سبحانه نزلت الصاعقة على الجبل وصحبها برق شديد ورعد مهيب وزلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدة الخوف ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

١٣. اغتم موسى عليه السلام لما حدث بشدّة، لأن هلاك سبعين نفرا من كبار بني إسرائيل، قد

يوفّر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضجّة بوجه نبيهم، لذلك تضرّع موسى إلى الله أن يعيدهم إلى الحياة، فقبل طلبه وعادوا إلى الحياة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

١٤. بعد أن نجا بنو إسرائيل من الفرعونيين، تذكر الآيات ٢٣ ـ ٢٩ من سورة المائدة، أن بني إسرائيل أمروا لأن يتجهوا إلى أرض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء عصوا هذا الأمر، وأصروا على عدم الذهاب ما دام فيها قوم جبارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ .. تألم موسى لهذا الموقف ودعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فكتب عليهم التيه أربعين عاما في صحراء سيناء.

١٥. مجموعة من التائهين ندمت على ما فعلته أشد الندم، وتضرعت إلى الله، فشمل الله سبحانه بني إسرائيل ثانية برحمته، وأنزل عليهم نعمه التي تشير الآية إلى بعضها: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾

١٦. الظّل له أهمية الكبرى لمن يطوي الصحراء طيلة النهار وتحت حرارة الشمس اللّافحة، خاصة أن مثل هذا الظّل لا يضيّق الفضاء على الإنسان ولا يمنع عنه هبوب النسيم.

١٧. يبدو أن الغمام الذي تشير إليه الآية الكريمة، ليس من النوع العابر الذي يظهر عادة في سماء الصحراء، ولا يلبث أن يتفرق ويزول، بل هو من نوع خاص تفضل به الله على بني إسرائيل ليستظلوا به بالقدر الكافي.

١٨. إضافة إلى الظل فانّ الله سبحانه وفّر لبني إسرائيل بعد تيههم الطعام الذي كانوا في أمسّ الحاجة إليه خلال أربعين عاما خلت من ضياعهم: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

١٩. اختلف في معنى الغمام:

أ. قيل: الغمام والسحاب بمعنى واحد.

ب. وقيل: الغمام هو السحاب الأبيض، وذكروا في وصفه أنه ابرد وأرق من السحاب، والغمام في الأصل من الغمّ وهو تغطية الشيء، وسمّي الغمام بهذا الاسم لأنه يغطي صفحة السماء، وسمّي الهمّ غما بهذا الاسم لأنه يحجب القلب.

على أي حال، قد يشير تعبير (الغمام) إلى أن بني إسرائيل، كانوا يستفيدون من ظل الغمام إضافة إلى تمتعهم بالنور الكافي لبياض هذه السّحبة.

٢٠. (المنّ) شيء كالطلّ فيه حلاوة يسقط على الشجر أو بعبارة أخرى هو عصارة شجر ذات طعم حلو.. وقيل: طعم حلو ممزوج بالحموضة.. و(السّلوى) يعني التسلّي، وقال بعض اللغويين وجمع من المفسرين إنه (طائر)، وروي عن النّبي ﷺ: إن الكماة من المنّ).

٢١. ذهب البعض إلى أن (المنّ) هو جميع ما أنعم الله تعالى على بني إسرائيل ومنّ عليهم، و(السّلوى) هي جميع المواهب والملكات النفسانية التي توجب لهم التسلية والهدوء النفسي، وهو مع مخالفته لرأي معظم المفسرين، يخالف ظاهر الآية حيث تقول: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وفي هذا التعبير دلالة واضحة على أن المنّ والسلوى نوعان من الطعام.

٢٢. تذكر التوراة أن (المنّ) حبّ يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلا، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزا ذا طعم خاص، وثمة احتمال آخر هو أن الأمطار الغزيرة النافعة التي هطلت بفضل الله على تلك الصحراء أثرت على أشجار تلك المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو إسرائيل.

٢٣. احتمل بعضهم أن يكون (المنّ) نوعا من العسل الطبيعي حصل عليه بنو إسرائيل في الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه، وهذا التّفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراة والإنجيل) حيث جاء: الأراضي المقدسة معروفة بكثرة أنواع الأوراد والأزهار، ومن هنا فإن مجاميع النحل تبني خلاياها في أخاديد الصخور وعلى أغصان الأشجار وثنايا بيوت النّاس، بحيث يستطيع أفقر النّاس أن يتناول العسل)

٢٤. بشأن (السلوى) قال بعض المفسرين إنه العسل، وأجمع الباقون على أنه نوع من الطير، كان يأتي على شكل أسراب كبيرة إلى تلك الأرض، وكان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها، وفي النصوص المسيحية تأييد لهذا الرأي حيث ورد في تفسير على العهدين ما يلي: اعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من افريقيا، فتتجه إلى الشمال، وفي جزيرة كابري وحدها يصطاد من هذا الطائر ١٦ ألفا في الفصل الواحد.. هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، وخليج العقبة والسويس، ويدخل شبه جزيرة سيناء وبعد

دخوله لا يستطيع أن يطير في ارتفاعات شاهقة لشدّة ما لاقاه من تعب وعناء في الطريق، فيطير على ارتفاع منخفض ولذلك يمكن اصطياده بسهولة.. وورد ذكر ذلك في سفر الخروج وسفر الأعداء من التوراة)، ويستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف في تلك الأرض.. شاء الله بفضله ومنّه أن يكثر هذا الطير في صحراء سيناء آنئذ لسدّ حاجة بني إسرائيل من اللحوم، ولم تكن هذه الكثرة من الطير طبيعية في تلك المنطقة.

٢٥. عبرت الآية الكريمة عن نعمة تقديم المن والسلوى بالإنزال، وليس الإنزال دائما إرسال الشيء من مكان عال، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، وواضح أن الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال في مثل هذه المواضع:

أ. إمّا أن يكون (نزولا مقاميا) أي نزولا من مقام أسمى إلى مقام أدنى.

ب. أو أن يكون من (الإنزال) بمعنى الضيافة، يقال أنزلت فلانا: أي أضفته، والنزل (على وزن رسل) ما يعدّ للنازل من الزاد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

٢٦. تعبير (الإنزال) للمنّ والسلوى، قد يشير إلى:

أ. أن بني إسرائيل كانوا ضيوف الله في الأرض، فاستضافهم بالمن والسلوى.

ب. أن يكون الإنزال بمعنى الهبوط من الأعلى لأن النعم المذكورة وخاصة (السلوى) تهبط إلى الأرض من الأعلى.

٢٧. الامّة التي تتحرر بعد عصر من الذّل والاستضعاف والاستعباد، لا تستطيع أن تتخلى تماما عن حالتها النفسية والثقافية الموروثة عن عصر الطاغوت، ولا بدّ من فترة برزخية تمر بها كي تكون قادرة على إقامة حكم الله في الأرض، وفق معايير إلهية بعيدة عن مؤثرات عصر الطاغوت، وسواء امتدت هذه الفترة البرزخية أربعين عاما كما حدث لبني إسرائيل، أو أقل أو أكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية والإصلاح والبناء لأنّ مجازاة الله ليست لها جنبة انتقامية.. ولا بدّ أن يبقى بنو إسرائيل فترة أربعين عاما من (التيه) في الصحراء ليتربّى جيل جديد حامل لصفات توحيدية ثورية، ومؤهل لإقامة الحكم الإلهي في الأرض المقدسة.

٢٢. بنو إسرائيل واختبار القرية

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٦١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قال هي أريحا، وهي قرية الجبارين[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال باب صغير[٢].

٣. روي أنه قال: كان الباب قبل القبلة[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال هو أحد أبواب بيت المقدس، وهو يدعى: باب حطة[٤].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم[٥].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ مغفرة[٦].

---

(١) تفسير الثعلبي: ١/٢٠١.

(٢) ابن جرير: ١/٧١٤.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١١٧.

(٤) ابن جرير: ١/٧١٤.

(٥) ابن جرير: ١/٧١٨.

(٦) ابن جرير: ١/٧١٦.

٧. روي أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ لا إله إلا الله[١].

٨. روي أنّه قال: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من كان منكم محسنا زيد في إحسانه، ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته[٢].

٩. روي أنّه قال: كل شيء في كتاب الله تعالى من الرجز يعني به: العذاب[٣].

١٠. روي أنّه قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: بما تعدوا من أمري[٤].

١١. روي أنّه قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: بما تعدوا من أمري[٥].

١٢. روي أنّه قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: بما تعدوا من أمري[٦].

البراء:

روي عن البراء بن عازب (ت ٧٢ هـ) أنّه قال: في قول الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢]: اليهود، قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال ركعا، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ مغفرة، فدخلوا على أستاههم، وجعلوا يقولون: حنطة: حبة حمراء فيها شعرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾[٧].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: هي الرملة، والأردن، وفلسطين، وتدمر[٨].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) البيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) ابن جرير: ١/٧٢٢.

(٣) ابن جرير: ١/٧٣٠.

(٤) ابن جرير: ١/٤٣٥.

(٥) ابن جرير: ١/٤٣٥.

(٦) ابن جرير: ١/٤٣٥.

(٧) أبو الشيخ الأصبهاني في طبقات المحدثين بأصبهان: ٤/١١.

(٨) تفسير الثعلبي: ١/٢٠١.

١. روي أنّه قال: بيت المقدس[1].

٢. روي أنّه قال: باب حطة من باب إيلياء بيت المقدس[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿رَغَدًا﴾، قال [بلا حساب عليهم؟][3].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، قال بيت المقدس[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، أي: احطط عنا خطايانا[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من كان خاطئا غفرت له خطيئته، ومن كان محسنا زيد في إحسانه[6].

٤. روي أنّه قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بما كانوا يعصون[7].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ معناه ركع[8].

٢. روي أنّه قال: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي مغفرة أي حطّ عنّا الخطايا[9].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ)

---

(١) تفسير الثعلبي: ١/٢٠١.

(٢) تفسير مجاهد: ص٢٠٣.

(٣) تفسير مجاهد: ص٢٠٣.

(٤) عبد الرزاق: ١/٤٦.

(٥) عبدالرزاق: ١/٤٧.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١١٨.

(٧) ابن أبي حاتم: ١/١٢٠.

(٨) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

(٩) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

١. روي أنّه قال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال أما الباب فباب من أبواب بيت المقدس[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿رَغَدًا﴾ الهنيء[2].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ تحط عنكم خطاياكم[3].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، يعني: إيلياء، وهم يومئذ من وراء البحر[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، وذلك أن بني إسرائيل خرجوا مع يوشع بن نون بن اليشامع بن عميهوذ بن غيران بن شونالخ بن إفراييم بن يوسف عليه السلام من أرض التيه إلى العمران حيال أريحا، وكانوا أصابوا خطيئة، فأراد الله تعالى أن يغفر لهم، وكانت الخطيئة أن موسى عليه السلام كان أمرهم أن يدخلوا أرض أريحا التي فيها الجبارون، فلهذا قال لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، يعني: بحطة حط عنا خطايانا[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، يعني: ما شئتم، وإذ شئتم، وحيث شئتم[6].

٤. روي أنّه قال: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين لم يصيبوا خطيئة، فزادهم الله إحسانا إلى إحسانهم[7].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن جرير: ١/٧١٠.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١١٧.

(٣) ابن جرير: ١/٧١٦.

(٤) تفسير مقاتل: ١/١٠٩.

(٥) تفسير مقاتل: ١/١١٠.

(٦) تفسير مقاتل: ١/١٠٩.

(٧) تفسير مقاتل: ١/١١٠.

١. روي أنّه قال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ يحط الله بها عنكم ذنبكم وخطيئاتكم، قال فاستهزأوا به ـ يعني: بموسى ـ، وقالوا: ما يشاء موسى أن يلعب بنا إلا لعب بنا، حطة حطة! أي شيء حطة!؟ وقال بعضهم لبعض: حنطة[(١)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ يحط الله بها عنكم ذنبكم وخطيئتكم[(٢)].

٣. روي أنّه قال: الرجز: العذاب، وكل شيء في القرآن (رجز) فهو: عذاب[(٣)].

العسكري:

روي عن الإمام العسكري (ت ٢٦٠ هـ) أنّه قال: قال الله تعالى: واذكروا، يا بني إسرائيل إِذْ ﴿قُلْنَا﴾ لأسلافكم: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ـ وهي أريحا من بلاد الشام، وذلك حين خرجوا من التيه ـ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من القرية ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعا، بلا تعب ولا نصب ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾، [مثّل الله عز وجل على الباب مثال محمد ﷺ والإمام علي وأمرهم أن يسجدوا تعظيما لذلك المثال، ويجددوا على أنفسهم بيعتهما، وذكر موالاتهما، وليذكروا العهد والميثاق المأخوذين عليهم لهما؟]، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي قولوا: إن سجودنا لله تعالى تعظيما لمثال محمد وعلي، واعتقادنا لولايتهما، حطة لذنوبنا، ومحو لسيئاتنا[(٤)].. إلى آخر الأثر، وهو يحوي الكثير من الغرائب التي لا يمكن اعتبارها خاصة مع عدم اعتبار المصدر.

الناصر:

ذكر الإمام الناصر بن الإمام الهادي (ت ٣٢٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(٥)]:

١. السجود هاهنا هو: الطاعة والخضوع، وذلك معروف في لغة العرب؛ يقول الرجل إذا رأى رجلا يطيع ملكا أو غيره: فلان اليوم يسجد لفلان)، أي: يطيعه.

٢. السجود يتحقق وإن لم يسجد له بوجهه، قال الشاعر:

---

(١) ابن جرير: ٧٢٨/١.

(٢) ابن جرير: ٧١٦/١.

(٣) ابن جرير: ٧٣١/١.

(٤) التفسير المنسوب للإمام العسكري، ص٢٥٩.

(٥) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ٤٢/١.

بجيش تظل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجدا للحوافر

يقول: إن أكام الأرض مطيعة لحوافر الخيل.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. اختلف في تلك القرية:

أ. قيل: إنها بيت المقدس، كقوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، أمروا بالدخول فيها، والمقام هنالك؛ لسعة عيشهم فيها ورزقهم؛ إذ هو الموصوف بالسعة والخصب.

ب. وقيل: إن تلك القرية التي أمروا بالدخول، والمقام هنالك، هي قرية على انقضاء التيه، والخروج منها.

٢. ليس لنا إلى معرفة تلك القرية حاجة، وإنما الحاجة إلى تعرف الخلاف الذي كان منهم، وما يلحقهم بترك الطاعة لله والائتمار.

٣. يحتمل الباب في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾:

أ. حقيقة الباب، وهو باب القرية التي أمروا بالدخول فيها.

ب. القرية نفسها، لا حقيقة الباب؛ كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ذكر القرية ولم يذكر الباب، وذلك في اللغة سائغ، جائز؛ يقال: فلان دخل في باب كذا، لا يعنون حقيقة الباب، ولكن: كونه في أمر هو فيه.

٤. يحتمل السجود في قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾:

أ. حقيقة السجود؛ فيخرج على وجوه:

• على التحية لذلك المكان.

• على الشكر له؛ لما أهلك أعداءهم الذين كانوا فيها، لقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

---

(١) تأويلات أهل السنة: ١/٤٦٩.

• حقيقة السجود؛ لما روى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: إنّ بنى إسرائيل أمروا بالدخول سجدا فدخلوا منحرفين) فما أصابهم إنما أصاب بخلافهم أمر الله.

• الكناية عن الصلاة؛ إذ العرب قد تسمى السجود صلاة؛ كأنهم أمروا بالصلاة بها.

ب. لا حقيقة السجود والصلاة، ولكن: أمر بالخضوع له والطاعة، والشكر على أياديه التي أسدى إليهم وأنزل: من سعة التعيش، والتصرف فيها في كل حال.

٥. قيل في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بوجهين:

أ. قيل: الحطة: هو قول: لا إله إلا الله، سميت حطة؛ لأنها تحط كل خطيئة كانت من الشرك وغيره؛ فكأنهم أمروا بالإيمان والإسلام.

ب. وقيل: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: أي اطلبوا المغفرة والتجاوز عما ارتكبوه من المآثم والخطايا، والندامة على ما كان منهم؛ فكأنهم أمروا أن يأتوا بالسبب الذي به يغفر الذنوب، وهو الاستغفار، والتوبة، والندامة على ذلك، وذلك يحتمل الشرك، والكبائر، وما دونهما.

٦. ذكر ـ عزّ وجل ـ مرة خطايا، ومرة خطيئات، ومرة قال ادخلوا، ومرة قال اسكنوا، ومرة قال فأنزلنا، ومرة قال فأرسلنا ـ والقصة واحدة ـ حتى يعلم: أن ليس في اختلاف الألفاظ والألسن تغيير المعنى والمراد، وأن الأحكام والشرائع التي وضعت لم توضع للأسامي والألفاظ، ولكن للمعاني المدرجة والمودعة فيها.

٧. يحتمل المراد من المحسنين في قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. المسلم الذي كان أسلم قبل ذلك.

ب. الذي أسلم بعد قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، وكان كافرا إلى ذلك الوقت.

٨. الزيادة في قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ تحتمل:

أ. التوفيق بالإحسان من بعد، كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآية [الليل: ٥].

ب. الثواب على ما ذكر من قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [القصص: ٥٤].

٩. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ يحتمل:

أ. إحداث ظلم، بعد أن لم يكن، والخلاف لما أمرهم به عزّ وجل.

ب. نشوؤهم على غير الذي قيل لهم.

١٠. لم يبين الله تعالى ما ذلك القول الذي بدلوا؟ وليس لنا ـ إلى معرفة ذلك القول ـ حاجة؛ إنما الحاجة إلى معرفة ما يلزمهم بالتبديل، وترك العمل بأمره، وإظهار الخلاف له، فقد تولى الله بيان ذلك بفضله.

١١. معنى ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قيل: الرجز هو العذاب المنزل من السماء على أيدى الملائكة؛ لأن من العذاب ما ينزل على أيدى الملائكة كعذاب قوم لوط وغيره، ومنه عذاب ينزل من السماء ـ لا على أيدى أحد ـ نحو: الصاعقة، والصيحة، ونحوهما.

١٢. قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ مرة ذكر (يفسقون)، ومرة ذكر (يظلمون)، وهو واحد.

١٣. في هذه الآيات دلالة على:

أ. رسالة محمد ﷺ وإثبات نبوته، وذلك أن أهل الكتاب كانوا عرفوا هذه الأنباء بكتبهم، وكان رسول الله ﷺ يذكر ذلك بمشهدهم، كما في كتابهم، ولم يكن ظهر منه اختلاف إليهم، ولا درس كتابهم؛ فدل: أنه بالله عرف.

ب. وكان فيها تسكين قلب رسول الله ﷺ والتصبر عليه؛ لظهور الخلاف له من قومه، وترك طاعتهم إياه، وأن ذلك ليس بأول خلاف كان له من قومه، ولا أول تكذيب، بل كان من الأمم السالفة لأنبيائهم ذلك، فصبروا عليه؛ فاصبر أنت كما صبروا؛ كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ولا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه الباب الثامن وهو باب حطة.

ب. الثاني: أنه باب القرية، وقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ خاضعين متواضعين والسجود الانحناء تعظيماً لمن

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٥٦.

سجد له وخضوعاً.

٢. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ حط عنا ذنوبنا وخطايانا وهو شبه الاستغفار والتوبة.

٣. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي نرحمكم بسترها فلا نفضحكم بالعقوبة عليها والخطا العدول عن القسط يقال خطأ الشيء خطأً إذا أصابه ولم يرده وأخطأ يخطئ إذا أراده ولم يصبه.

٤. وأصل المغفرة التغطية ويقال لبيضة الحديد مغفر لأنها تغطي الرأس وتجنّه.

٥. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني أنهم بدلوا ما أمروا به من قول أو فعل فأمروا أن يدخلوا الباب سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم وأن يقولوا حطة فقالوا: حنطة بمعنى شعير مستهزئين بذلك.

٦. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وفي الرجز ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنه العذاب.

ب. الثاني: أنه الغضب والانتقام.

ج. الثالث: الطاعون بعثه الله عليهم فأهلكهم كلهم وبقَّى الأنبياء.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ على ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنها بيت المقدس، وهو قول قتادة، والربيع بن أنس.

ب. الثاني: أنها قرية ببيت المقدس، وهو قول السدي.

ج. الثالث: أنها (أريحا) قرب بيت المقدس، وهو قول ابن زيد.

٢. اختلفوا في الباب في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ على قولين:

أ. أحدهما: أنه باب حطّة وهو الباب الثامن ببيت المقدس، وهذا قول مجاهد، والسّدّيّ.

ب. الثاني: أنه باب القرية، التي أمروا بدخولها.

٣. اختلف في قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾ على تأويلين:

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١٢٦.

أ. أحدهما: يعني: ركّعا، وهذا قول ابن عباس.

ب. الثاني: معناه: خاضعين متواضعين.

٤. أصل السجود الانحناء تعظيما لمن يسجد له، وخضوعا، ومنه قول الشاعر:

بجمع تضلّ البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجّدا للحوافر

وقال أعشى قيس:

يراوح من صلوات المليـ ك طورا سجودا وطورا حوارا

٥. في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أربعة تأويلات:

أ. أحدها: أنه قول: لا إله إلا الله، وهو قول عكرمة.

ب. الثاني: أن (حطّة) المغفرة، فكأنه أمر بالاستغفار، وهو رواية سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

ج. الثالث: هو قولهم: هذا الأمر حق كما قيل لكم، وهو رواية الضحاك، عن ابن عباس.

د. الرابع: معناه: حطّ عنا خطايانا، وهو قول الحسن، وقتادة، وابن زيد، وهو أشبه بظاهر اللفظ.

٦. معنى قوله عزّ وجل: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي نرحمكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها.. والخطأ: العدول عن القصد، يقال خطئ الشيء خطأ، إذا أصابه ولم يرده، وأخطأ يخطئ، إذا أراده ولم يصبه، فالأول خاطئ والثاني مخطئ.

٧. أصل المغفرة: التغطية والستر؛ ولذلك قيل للبيضة من الحديد: مغفر، لأنها تغطّي الرأس وتجنّه، ومنه قول أوس بن حجر:

ولا أعتب ابن العمّ إن كان وأغفر عنه الجهل إن كان جاهلا

٨. قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني أنهم بدّلوا ما أمروا به من قول وفعل، فأمروا أن يدخلوا الباب سجّدا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وأن يقولوا: حطّة، فقالوا: حنطة في شعير، مستهزءين بذلك.

٩. في الرجز ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنه العذاب، وهو قول ابن عباس وقتادة.

ب. الثاني: أنه الغضب، وهو قول أبي العالية.

ج. الثالث: أنه الطاعون، بعثه الله عليهم فأهلكهم، وبقي الأبناء، وهو قول ابن زيد.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. نقيض الدخول: الخروج تقول: دخل يدخل دخولا، وادخله إدخالا.. وأصل الباب: الدخول قال الرماني في حد الدخول: الانتقال الى محيط، وقد يقال: دخل في الامر: كما يقال دخل في الدار تشبيهاً ومجازاً.

٢. ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ إشارة الى بيت المقدس ـ على قول قتادة، والربيع ابن أنس ـ وقال السدي: هي قرية بيت المقدس: وقال ابن زيد: إنها أريحا قريب من بيت المقدس.

٣. القرية والبلدة والمدينة نظائر، قال ابو العباس: أصله الجمع: ومنه المقراة: الحوض الذي تسقى فيه الإبل. سمي مقراة، لجمع الماء فيه، والمقراة: الجفنة التي يعد فيها الطعام للأضياف قال الشاعر: عظام المقاري جارهم لا يفزّع.. ومنه قريت الضيف، ومنه قريت الماء في الحوض، ومنه قريت الشاة تقري وشاة قارية: إذا كانت تجمع الجرة في شدقها، وهو عيب عندهم شديد وكل ما قري فهو مقري: مثل المرقد كل ما رقدت فيه، والقري: المسيل الذي يحمل الماء الى الروضة، وجمعه: قريان: كقضيب وقضبان.. والقرية: اشتقاقها من قرى البعير جرته: أي جمعها، والجمع قرى ـ على غير قياس ـ، وقال قوم من اهل اليمن: قرية: وقال صاحب العين: القرية والقيرية ـ لغتان ـ تقول: ما زلت استقري هذه الأرض قرية قرية، والكسر لغة عانية، ومن هناك اجتمعوا على جمعها على القرى، حيث اختلفوا فحملوها على لغة من قال كِسوة وكُسوة، والنسبة اليها قروي، وام القرى: مكة وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعني بها: الكور والأمصار والمدائن والقرى: الظهر من كل شيء، حتى الآكام وغيرها، والجمع الاقراء، والقرى: الإحسان الى الضيف. تقول: أقرى يقري الضيف قرىً: إذا اضافه ضيافة، وأنزله نزالة، والقرى جيء الماء في الحوض، والمدة تقرى في الجرح: أي تجتمع.

٤. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي الباب الذي أمروا بدخولها:

أ. قال مجاهد والسدي: هو باب حطة من بيت المقدس، وهو الباب الثامن.

---

(١) تفسير الطوسي: ١/٢٦١.

ب. وقيل: باب القبة التي كان يصلي إليها موسى.

ج. وقال قوم: باب القرية التي أمروا بدخولها.

د. قال أبو علي: قول من قال إنه باب القرية، لأنه لم يدخلوا القرية في حياة موسى، لأنه قال ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، والعطف بالفاء يدل على أن هذا التبديل منهم كان في أثر الأمر، فدل ذلك على أنه كان في حياة موسى.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾:

أ. قال ابن عباس: ركعاً، وهو شدة الانحناء، ومنه السجد من النساء: الفاترات الأعين، وقال الأعشى: ولهوي إلى حور المدامع سجد.. وقال الآخر: ترى الأكم منه سجداً للحوافر

ب. وقال غيره: ادخلوا خاضعين متواضعين. قال اعشى قيس:

تراوح من صلوات المليـ ك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾:

أ. قال الحسن، وقتادة واكثر أهل العلم: معناه حُط عنا خطايانا.

ب. روي عن ابن عباس أنه قال: أمروا أن يستغفروا.

ج. وروي عنه ايضاً أنه قال: أمروا أن يقولوا: هذا الأمر حق كما قيل لكم.

د. وقال عكرمة: أمروا أن يقولوا لا إله إلّا الله.

وكل هذه الأقوال محط الذنوب فيترجم لحطة عنها.

٧. حطة: مصدر مثل ردّة وجدّة من رددت وجددت. قال صاحب العين: الحط: وضع الأحمال عن الدواب تقول: حططت عنها أحط حطا، وانحط انحطاطا.. والحط والوضع والخفض نظائر، والحط: الحدر من العلو: كقول امرئ القيس: كجلمود صخرٍ حطه السيل من علِ.. ويقال للنجيبة السريعة: حطت في سيرها وانحطت، وتقول حط الله وزرك الذي انقض ظهرك، وقال الشاعر: واحطط إلهي ـ بفضل منك ـ أو زاري.. وأصل الباب: الحط: وهو الحدر من علو.

٨. ارتفعت ﴿حِطَّةٌ﴾ في الآية ـ على قول الزجاج ـ على تقدير مساءلتنا حطة، وقال غيره: دخولنا الباب سجداً: حطة لذنوبنا كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً﴾ يعني موعظتنا بعذرة إلى ربكم.. ويجوز النصب في العربية على معنى حط عنا ذنوبنا حطة، كقولك: سمعا وطاعة يعني اسمع سمعاً وأطيع طاعة، كقولك: معاذ الله. يعني نعوذ بالله وهو أقوى لأنه دعاء.

٩. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾: الغفران والعفو، والصفح نظائر. يقال: غفر الله غفرانا، واستغفر استغفارا واغتفر اغتفاراً. قال ابو العباس: غفر الله لزيد بمعنى: ستر غطى له على ذنوبه.. والغفران انما هو التغطية. يقال للسحابة فوق السحاب: الغفارة، وثوب ذو غفر: إذا كان له زئير يستر قبحه، ويقال: المغفر، لتغطية العنق، ويقال غفرت الشيء: إذ واريته، والمغفرة والغفيرة بمعنى واحد، والمغفرة: منزل من منازل القمر. يسمى بذلك] لخفائه، وقال الزجاج: الغفر: التغطية، وكل ما تفزع من هذا الباب فهذا معناه، وقولهم: اللهم اغفر لنا. تأويله اللهم غط علينا ذنوبنا والله الغفور والغفار والمغفر ما يغطى به الرأس من الحديد وغيره، وكذلك الغفارة وهي خرقة تلف على سية القوس: أي طرفها، وغفارة: اسم رأس جبل، والمغفورة والمغفارة. صمغ العرفط وقد اغفر الشجر: إذا ظهر ذلك فيه، وفي الحديث: أن النبي ﷺ دخل على عائشة. فقالت: يا رسول الله. أكلت مغافير؟ تعني هذا الصمغ، ومنهم من يقول: مغاثير: كما قيل جدث، وجدف، والغفر: شعر صغار دون الكبار، وريش دون الريش الكبار، لأنه هو الذي يغطي الجلد، والغفر: النكس من المريض. يقال: صلح فلان من مرضه ثم غفر أي نكس، ومنه قول ضرار. ـ وقيل إنه لحميل ـ:

خليلي إن الدار غفر لذي الهوى   كما يغفر المحموم أو صاحب

ويقال: غفرت الأمر تغفرة: إذا أصلحته بما ينبغي ان يصلح به، والمعنى: أصلحته بما غطى على جميع فساده، والغفر: زئير الثوب، وثوب ذو غفر، وغفرت المتاع إذا جعلته في وعاء، وكل شيء غطيته، فقد سترته، ويقال اصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ: أي استر له، وأصل الباب: التغطية وحد المغفرة: ستر الخطيئة برفع العقوبة.

١٠. الخطيئة، والزلة، والمعصية نظائر. يقال: خطأ خطأ، واخطأ إخطاءً.. واستخطأه استخطاء، وخطأه تخطئة، وتخاطى تخاطياً. قال ابن دريد: الخطأ مقصور مهموز. يقال خطأ الشيء خطأ: إذا لم يرده واصابه، واخطأ يخطئ اخطاء: إذا اراده فلم يصبه، والأول خاطئ والثاني مخطئ به، والخطيئة تهمز، قال صاحب العين: الخطأ: ما لم يتعمد، ولكن يخطئ اخطاء وخطاءة وتخطئة، واصل الباب: الخطأ ومثله الزلل،

والخاطئ الذي قد زل عن الشيء في قصدهـ وان اتفق له ان يصيبه من غير أن يقصده، ولذلك لا يكون الخاطئ في الدين إلا عاصياً، لأنه لم يقصد الحق وأما المخطئ فإنما زل عن قصده، ولذلك يكون المخطئ من طريق الاجتهاد مصيباً لأنه قصد الحق واجتهد في اصابته فصار الى غيره، وحد الخطيئة: العدول عن الغرض المجرد، وخطايا وزنها: فعائل، وتقديره خطائي، فقلبت الهمزة الأخيرة ياءً على حركة ما قبلها، فصارت خطايي، ثم فعل بها ما فعل بمداري، حتى قيل مدارى فصارت: خطئي. فاستثقل همز بين ألفين، لأنه بمنزلة ثلاث ألفات، فقلبت الهمزة ياء، وإنما أعلت هذا الاعلال، لأن الهمزة التي بعد الألف عرضت في جميع فعل القياس. تقول: في جمع مرآة مراءى، فلا تعل، والخليل يقول: وزنه فعالي على قلب الهمزة.

١١. ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، الزيادة التي وعدها الله المحسنين، هي تفضل يعطيه الله المحسنين، يستحقونها بوعده إياهم، وهي زيادة على الثواب الذي يستحقونه بطاعته تعالى.

١٢. الفرق بين احسن اليه واحسن في فعله: ان أحسن اليه لا يكون إلا بالنفع له، واحسن في فعله ليس كذلك. ألا ترى انه لا يقال: أحسن الله اليه إلى أهل النار بتعذيبهم، ويقال: أحسن في تعذيبهم بالنار: يعني أحسن في فعله وفي تدبيره.. والإحسان، والانعام، والإفضال نظائر، وضد الإحسان: الاساءة: يقال حسن حسنا: واحسن إحسانا، واستحسن استحسانا، وتحاسنوا تحاسنا، وحسنه تحسينا، وحاسنه محاسنة، والمحسن والجمع محاسن: ـ المواضع الحسنة في البدن.. ويقال: رجل كثير المحاسن، وامرأة كثيرة المحاسن، وامرأة حسناء، ولا تقول: رجل أحسن، وتقول: رجل حسان وامرأة حسانة، وهو المحسن جيدا، والمحاسن في الاعمال: ضد المساوئ. تقول: أحسن فإنك الحسان، والحسنى: الجنة، لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، والحسنى: ضد السوء، والحسن: ضد القبيح والحسان: جمع حسن ألحقوها بضدها، فقالوا: قباح وحسان. كما قالوا: عجاف وسمان، واصل الباب: الحسن، وهو على ضربين: حسن في النظر، وحسن في الفعل وكذلك القبح، وحد الحسن من طريق الحكمة: هو الفعل الذي يدعو اليه العقل، وحد القبح: الذي يزجر عنه العقل، وحد الإحسان: هو النفع الحسن.. وحد الاساءة: هو الضرر القبيح هذا لا يصح الا على قول من يقول: إن الإنسان يكون محسنا الى نفسه ومسيئا اليها، ومن لا يقول فذلك يريد فيه الواصل الى الغير مع قصده الى ذلك والأقوى في حد الحسن أن تقول: هو الفعل الذي إذا فعله العالم به على وجه، لم يستحق الذم فإنه لا ينتقض بشيء.

١٣. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ يعني من هذه القرية، حيث شئتم رغداً أي واسعاً بغير حساب.

١٤. معنى قوله: فبدل الذين ظلموا: غيروا.. وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معناه: الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله.

١٥. ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني بذلك بدلوا قولا غير الذي أمروا أن يقولوه. فقالوا بخلافه. فذلك هو التبديل والتغيير، وكان تبديلهم بالقول: انهم أمروا ان يقولوا: حطة، وان يدخلوا الباب سجداً، وطؤطئ لهم الباب ليدخلوه كذلك فدخلوه يزحفون على أستاههم فقالوا: حنطة في شعيرة مشتهرين.

١٦. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله في تبديلهم بالقول والفعل ﴿رِجْزًا﴾:

أ. الرجز في لغة اهل الحجاز: العذاب، وفي لغة غيرهم: الرجس، لأن الرجس الشر، ومنه قوله ﷺ في الطاعون: إنه رجس عذّب به بعض الأمم، وهو قول ابن عباس، وقتادة، وقال ابو عبيدة: الرجز والرجس لغتان مثل الردع، والسدع والبزاق والبساق.

ب. وقال ابو العالية: هو الغضب.

ج. وقال ابو زيد: هو الطاعون، فقيل انه مات منهم في ساعة واحدة اربعة وعشرون الفاً من كبرائهم وشيوخهم وبقي الأبناء وانتقل العلم والعبادة اليهم.

١٧. قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾:

أ. قيل: يعني ما قضاه الله عليهم من السماء.

ب. وقيل: أراد بذلك المبالغة في علوه بالقهر.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الدخول: نقيض الخروج، ونظيره الاقتحام والولوج، غير أن الاقتحام دخول على صعوبة،

(١) التهذيب في التفسير: ١/٣٩٩.

يقال: دخل دخولاً، وَحَدُّهُ: الانتقال إلى محيط، ثم يستعمل في غيره توسعًا، فيقال: دخل في الأمر.

ب. القرية والبلد والمدينة نظائر، وأصله الجمع، ومنه يقال للحوض: المِقْرَاةُ؛ لأنه يجمع فيه الماء، وفيه لغتان: قَرْية، وَقِرْيَة بفتح القاف وكسرها، والكسرة نابية، وجمعها قُرًى، ومنه قيل لمكة: أم القرى.

ج. الحط: وضع الأثقال عن الدواب، والحط: انحدار من العلو، وكل شيء أنزلته عن ظهر أو غيره فقد حططته، وحِطَّة: مصدر كالردة، والجدة.

د. الغفران: العفو، وأصله من الستر يقال: غفر الله له أي ستر على ذنبه، ومعنى قولهم: اللهم اغفر، يعني حط عنا ذنوبنا، والمغفرة ستر الخطيئة برفع العقوبة.

هـ. الزيادة أن يزيد على مقدار يقال: زاد يزيد زيادة، ومنه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، يعني مزيدهم على ما استحقوا من الثواب بأعمالهم.

و. الإحسان هو النفع الحسن، وأصله من الحسن، الذي هو ضد القبيح، ونظير الإحسان الإنعام والإفضال، ونقيضه الإساءة.

ز. التبديل تغيير الشيء إلى غير حاله، والبدل ما يكون خلفًا من الشيء، والأبدال واحدهم بدل، وهُمْ قَوْم بهم يقيم الله الأرض.

ح. الرِّجز بكسر الراء العذاب، والرُّجز بضم الراء عبادة الأوثان، ويقال: اسم الشرك كله رجز، وقال الكسائي: الرجس النتن، والرجز: العذاب، وقد يجيء الرجس بمعنى العذاب.

٢. ذكرهم الله تعالى نعمًا منه عليهم، وكفرًا لما قابلوا بها نعم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ يعني اذكروا إذ قلنا: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ واختلف في القرية:

أ. قيل: هي بيت المقدس، عن قتادة ومجاهد وأبي علي، وهو الأوجه لقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾

ب. وقيل: أريحا قرية من قرى بيت المقدس، وهي قرية الجبارين، عن ابن عباس.

ج. وقيل: الشام، عن ابن كيسان.

د. وقيل: الرملة وفلسطين، عن الضحاك.

هـ. وقيل: إيليا، عن مقاتل.

٣. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي إن شئتم توسيعًا عليكم، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾:

أ. قيل: باب حطة، من بيت المقدس عن مجاهد.

ب. وقيل: باب القبة الذي كان يصلي إليه موسى وبنو إسرائيل، قال أبو علي: والآية على قول من زعم أنها باب القبة أدل منها على قول من يزعم أنه باب القرية؛ لأنهم لم يدخلوا القرية في حياة موسى، ودل آخر الآية أنهم كانوا يدخلون الباب على غير ما أمروا به في أيام موسى؛ لأنه قال ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ دل أن مخالفتهم كانت في أثر الأمر.

ج. وقيل: بابًا من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب.

٤. اختلف في معنى ﴿سُجَّدًا﴾:

أ. قيل: ركعًا، وهو شدة الانحناء، عن ابن عباس.

ب. وقيل: خاضعين متواضعين.

ج. وقيل: ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فاسجدوا لله شكرًا، عن وهب.

٥. اختلف في معنى ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾:

أ. قيل: معناه حط عنا ذنوبنا، أمروا بالاستغفار، عن الحسن وقتادة.

ب. وقيل: أمروا أن يقولوا: لا إله إلا الله؛ لأنها تحط الذنوب، عن عكرمة.

ج. وقيل: حطة: اسم الباب الذي أمروا بدخوله، أي قولوا، واعرفوا أن هذا الباب هو الباب الذي أمرتم بدخوله.

١٢. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ يعني يصفح ويغفر عن ذنوبكم برفع العقوبة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. قيل: زيادة على الثواب المستحق على الطاعة تفضلاً منه يقع.

ب. وقيل: زيادة على ما سلف من إحسانه إليهم.

٦. بَيَّنَ تعالى عصيانهم فيما أمروا به، قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني غيروا ما أمروا به فقالوا غير ذلك، واختلفوا في ذلك الغير:

أ. قيل: قالوا: حنطة حمراء فيها شعَيْرَةُ.

ب. وقيل: قالوا: حنطة تجاهلاً واستهزاء، عن ابن عباس.

ج. وقيل: أمروا بالطاعة فبدلوها بالمعصية.

د. وقيل: غيروا القول ولم يبين ما قالوا، عن الأصم.

هـ. وقيل: دخلوا مقنعي رؤوسهم على أستاههم، وقد أمروا بالسجود

٧. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: عصوا ربهم بالتبديل، فصاروا ظالمين لأنفسهم بما وجب لهم من العذاب ﴿رِجْزًا﴾:

أ. قيل: عذابًا، عن ابن عباس والحسن وقتادة والأصم وأبي علي وأبي مسلم.

ب. وقيل: بعث الله عليهم الطاعون فهلكوا، وبقي الأبناء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قيل: ﴿مَا﴾ بمعنى المصدر، أي بفسقهم.

ج. وقيل: بكونهم فاسقين، هو خروجهم عن طاعة الله.

٨. تدل الآية الكريمة:

أ. على عظم موضع التوبة والاستغفار، والحث عليها، والترغيب فيها، وبيان أن بها يصل إلى المغفرة.

ب. على أنه تعالى يعطي من فضله المؤمنين زيادة على ما يستحقونه بأعمالهم؛ لأن تقدير الآية: ادخلوا باب المقدس خاضعين تائبين ليغفر لكم، ويزيد المحسنين من عنده فضلاً ونعمة.

ج. على أن جميعهم لم يغيروا، وإنما غير بعضهم، لذلك قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

د. على أن ذلك التبديل منهم كان كبيرة حتى استحقوا الوعيد.

هـ. على أن الفسق يقتضي استحقاق العقاب في شرعهم وشرعنا؛ لأن حكاية ذلك عنهم من غير بيان اختلاف الشريعتين تدل أنهما سواء.

٩. مسائل نحوية:

أ. ارتفع ﴿حِطَّةٌ﴾ على تقدير: مَسْأَلَتُنَا حطة. عن الزجاج وغيره، وقيل: دخولنا الباب سجدًا حطة لذنوبنا، ويجوز النصب في العربية على تقدير حط عنا ذنوبنا حطة، كقولهم: سمعا وطاعة، أي أسمع سمعًا، وأطيع طاعة، كقوله: معاذ اللهَّ، أي نعوذ بِاللهَّ معاذًا، وقيل: تقديره سلوا اللهَّ حطَّ ذنوبكم، عن أبي مسلم.

ب. وزن خطايا فعائل، وتقديره خَطَائِئُ، فقلبت الهمزة الأخيرة على حركة ما قبلها فصار خطَائي،

ثم فعل به ما فعل (بزاوية)، حتى. قيل: زوايا، فصار خَطَاءَا، فاستثقلت الهمزة بين ألفين؛ لأنه بمنزلة ثلاث ألفات، فقلبت الهمزة ياء، فصار خطايا، وقال الخليل: وزنه (فَعَالَى) على قلب الهمزة.

ج. نصب (غير) لأنه نعت للقول، وإن كان مضافًا إلى معرفة، فإنه يكون وصفًا للنكرة؛ لأنه لا يتعرف ما أضيف إليه، إذ لا يبنى إلا وله أغيار كثيرة.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الدخول، والولوج، والاقتحام، نظائر، والفرق بين الدخول والاقتحام: إن الاقتحام دخول على صعوبة، وفي الأمر دخل أي: فساد، ودخل أمره: إذا فسد، وفلان دخيل في بني فلان: إذا كان من غيرهم، وأطلعته على دخلة أمري: إذا بثثته مكتومك، وفلان مدخول: إذا كان في عقله، أو في حسبه دخل.

ب. القرية، والبلدة، والمدينة، نظائر، قال أبو العباس: وأصله الجمع، وقريت الماء في الحوض أقريه قريا، وقريت الضيف أقريه قرى، والمقراة: الجفنة التي يعد فيها الطعام للأضياف، قال: (عظام المقاري جارهم لا يفزع)، وقال الخليل: القرية والقرية لغتان، والكسر لغة يمانية، والقرى: الظهر من كل شيء، وجمعه الإقراء.

ج. السجود: شدة الانحناء، ومنه السجد من النساء، وهن الفاترات الأعين، قال الشاعر: (ولهوي إلى حور المدامع سجد)، وقال الآخر: (ترى الأكم فيها سجدا للحوافر)

د. حطة: مصدر مثل ردة وجدة من رددت وجددت، قال الخليل: الحط وضع الأحمال عن الدواب، والحط والوضع والخفض نظائر، والحط: الحدر من العلو، قال امرؤ القيس: كجلمود صخر حطه السيل من عل وجارية محطوطة المتنين: ممدودة حسنة.

هـ. الغفران والعفو والصفح نظائر، يقال غفر الله له غفرانا أي: ستر الله على ذنوبه، والغفر: التغطية، وثوب ذو غفر: إذا كان له زتبر يستر نسجه، ويقال المغفر لتغطيته العنق، والغفيرة والمغفرة بمعنى، والغفارة: خرقة تلف على سية القوس، والمغفور والمغفار: صمغ العرفط، وأغفر الشجر: إذا ظهر ذلك

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٤٨.

فيه، ومنه الحديث: إنه ﷺ دخل على عائشة، فقالت: يا رسول الله! أكلت مغافير! يعني هذا الصمغ، ومنهم من يقول مغاثير كما قيل جدث وجدف، ويقال جاؤوا الجماء الغفير، وجاؤوا جما غفيرا، وجماء الغفير: أي مجتمعين جمعا يغطي الأرض، والغفر: ولد الأروية، لأنه يأوي الجبال، ويتستر عن الناس، ويقال: اصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ أي: أستر له، وأصل الباب الستر، وحد المغفرة ستر الخطيئة برفع العقوبة.

و. الخطيئة والزلة والمعصية نظائر، يقال: خطأ الشيء خطأ: إذا لم يرده، وأصابه واخطأه أخطاء: إذا أراده فلم يصبه، والأول خاطئ، والثاني مخطئ، والخطيئات: جمع خطيئة، مثل صحيفات جمع صحيفة، وسفينات جمع سفينة، والخطايا أيضا: جمع خطيئة.

ز. المحسن: الفاعل للإحسان، أو الفاعل للحسن، يقال: أحسن إلى غيره، وأحسن في فعله، والفرق بينهما: إن أحسن إليه لا يقال إلا في النفع، فلا يقال أحسن الله إلى أهل النار بتعذيبهم، ويقال أحسن في تعذيبهم بالنار بمعنى أحسن في فعله وتدبيره، ويقال: امرأة حسناء، ولا يقال: رجل أحسن، وحد الحسن من طريق الحكمة: هو الفعل الذي يدعو إليه العقل، وضده القبيح: وهو الفعل الذي يزجر عنه العقل، وحد الإحسان هو النفع الحسن، وحد الإساءة: هو الضرر القبيح، وهذا إنما يصح على مذهب من يقول إن الانسان يكون محسنا إلى نفسه، ومسيئا إليها، ومن لم يذهب إليه يزيد فيه الواصل إلى الغير مع قصده إلى ذلك، والأولى في حد الحسن أن يقال: هو الفعل الذي إذا فعله العالم به على وجه لم يستحق الذم.

٢. أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية هاهنا بيت المقدس، ويؤيده قوله في موضع آخر ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾، وقال ابن زيد أنها أريحا قرية قرب بيت المقدس وكان فيها بقايا من قوم عاد وهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق.

٣. ﴿إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي أين شئتم ﴿رَغَدًا﴾ أي موسعا عليكم مستمتعين بما شئتم من طعام القرية بعد المن والسلوى، وقد قيل أن هذه إباحة لهم منه لغنائمها وتملك أموالها إتماما للنعمة عليهم.

٤. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ يعني الباب الذي أمروا بدخوله:

أ. قيل: هو باب حطة من بيت المقدس، وهو الباب الثامن عن مجاهد.

ب. وقيل: باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل.

ج. وقيل: هو باب القرية التي أمروا بدخولها قال أبو علي الجبائي.

٤. الآية على قول من يزعم أنه باب القبة أدل منها على قول من يزعم أنه باب القرية لأنهم لم يدخلوا القرية في حياة موسى، وآخر الآية يدل على أنهم كانوا يدخلون هذا الباب على غير ما أمروا به في أيام موسى لأنه قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، والعطف بالفاء التي هي للتعقيب من غير تراخ يدل على أن هذا التبديل منهم كان في إثر الأمر، فدل ذلك على أنه كان في حياة موسى عليه السلام.

٥. اختلف في معنى ﴿سُجَّدًا﴾:

أ. قيل: معناه ركعا وهو شدة الانحناء عن ابن عباس.

ب. وقال غيره أن معناه ادخلوا خاضعين متواضعين يدل عليه قول الأعشى:

يراوح من صلوات المليك ... طورا سجودا وطورا جؤارا

ج. وقيل: معناه ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فاسجدوا لله سبحانه شكرا عن وهب

٦. اختلف في معنى ﴿حِطَّةٌ﴾:

أ. قال الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم: معناه حط عنا ذنوبنا وهو أمر بالاستغفار.

ب. وقال ابن عباس: أمروا أن يقولوا هذا الأمر حق.

ج. وقال عكرمة: أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله لأنها تحط الذنوب.

وكل واحد من هذه الأقوال مما يحط الذنوب فيصح أن يترجم عنه بحطة وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: نحن باب حطتكم.

٧. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي نصفح ونعف عن ذنوبكم ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. قيل: وسنزيدهم على ما يستحقونه من الثواب تفضلا كقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾

ب. وقيل: أن المراد به أن يزيدهم الإحسان على ما سلف من الإحسان بإنزال المن والسلوى وتظليل الغمام وغير ذلك.

٨. بيّن سبحانه أنهم قد عصوا فيما أمروا به فقال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾

أي فخالف الذين عصوا، والذين فعلوا ما لم يكن لهم أن يفعلوه، وغيروا ما أمروا به، فقالوا غير ذلك.

٩. اختلف في ذلك الغير:

أ. قيل: أنهم قالوا بالسريانية: هاطا سماقاتا، وقال بعضهم: حطا سماقاتا، ومعناه حنطة حمراء فيها شعيرة، وكان قصدهم في ذلك الاستهزاء، ومخالفة الأمر.

ب. وقيل: أنهم قالوا حنطة تجاهلا واستهزاء، وكانوا قد أمروا أن يدخلوا الباب سجدا وطؤطئ لهم الباب ليدخلوه كذلك فدخلوه زاحفين على أستاههم فخالفوا في الدخول أيضا.

١٠. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي فعلوا ما لم يكن لهم فعله من تديلهم ما أمر الله به بالقول والفعل ﴿رِجْزًا﴾ أي عذابا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ عن ابن عباس وقتادة والحسن ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بكونهم فاسقين أو بفسقهم كقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ أي بعصيانهم، وقال ابن زيد أهلكوا بالطاعون فمات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا من كبرائهم وشيوخهم وبقي الأبناء فانتقل عنهم العلم والعبادة كأنه يشير إلى أنهم عوقبوا بإخراج الأفاضل من بينهم.

١١. ﴿غَيْرَ الَّذِي﴾ انتصب غير بأنه صفة لقول، وأصل غير أن يكون صفة تجري مجرى مثل، وإذا أضيفا إلى المعارف لم يتعرفا لما فيهما من الإبهام، لأن مثل الشيء يكون على وجوه كثيرة، وكذلك غير الشيء يكون أشياء كثيرة غير مختلفة.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. في القائل لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنه موسى بعد مضيّ الأربعين سنة.

ب. الثاني: أنه يوشع بن نون بعد موت موسى.

٢. القرية: مأخوذة من الجمع، ومنه: قريت الماء في الحوض، والمقراة: الحوض يجمع فيه الماء، وفي المراد بهذه القرية قولان:

أ. أحدهما: أنها بيت المقدس، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسّدّيّ والرّبيع، وروي عن

---

(١) زاد المسير: ١/٦٩.

ابن عباس أنها أريحا، قال السّدّيّ: وأريحا: هي أرض بيت المقدس.

ب. الثاني: أنها قرية من أداني قرى الشام، قاله وهب.

٣. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾، قال ابن عباس: وهو أحد أبواب بيت المقدس، وهو يدعى: باب حطّة.

٤. ﴿سُجَّدًا﴾، أي: ركّعا. قال وهب: أمروا بالسجود شكرا لله عزّ وجلّ إذ ردّهم إليها.

٥. اختلف في معنى ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾:

أ. قيل: أن معناه: استغفروا، قاله ابن عباس ووهب. قال ابن قتيبة: وهي كلمة أمروا أن يقولوها في معنى الاستغفار، من: حططت، أي: حطّ عنا ذنوبنا.

ب. وقيل: أن معناها: قولوا: هذا الأمر حقّ كما قيل لكم، ذكره الضّحّاك عن ابن عباس.

ج. وقيل: أن معناها: لا إله إلّا الله، قاله عكرمة. قال ابن جرير الطّبريّ: فيكون المعنى: قولوا الذي يحطّ عنكم خطاياكم، وهو قول (لا إله إلا الله).

٦. اختلف في سبب أمرهم بدخول القرية:

أ. قيل: أن ذلك لذنوب ركبوها فقيل: ﴿ادخلوا القرية﴾ ﴿وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم﴾، قاله وهب.

ب. وقيل: أنهم ملّوا المنّ والسّلوى، فقيل: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، فكان أول ما لقيهم أريحا، فأمروا بدخولها.

٧. أمرهم الله تعالى في دخولهم بفعل وقول، فالفعل السجود، والقول: حطّة، فغيّر القوم الفعل والقول:

أ. فأمّا تغيير الفعل؛ ففيه خمسة أقوال:

- أحدها: أنهم دخلوا متزحّفين على أوراكهم، رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ.
- الثاني: أنهم دخلوا من قبل أستاههم، قاله ابن عباس وعكرمة.
- الثالث: أنهم دخلوا مقنعي رؤوسهم، قاله ابن مسعود.
- الرابع: أنهم دخلوا على حروف عيونهم، قاله مجاهد.
- الخامس: أنهم دخلوا مستلقين، قاله مقاتل.

ب. أما تغيير القول؛ ففيه خمسة أقوال:

• أحدها: أنهم قالوا مكان (حطّة): حبّة في شعرة، رواه أبو هريرة عن النّبيّ ﷺ.

• الثاني: أنهم قالوا: حنطة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، ووهب، وابن يزيد.

• الثالث: أنهم قالوا: حنطة حمراء فيها شعرة، قاله ابن مسعود.

• الرابع: أنهم قالوا: حبّة حنطة مثقوبة فيها شعيرة سوداء، قاله السّدّيّ عن أشياخه.

• الخامس: أنهم قالوا: سنبلاثا، قاله أبو صالح.

٨. الرّجز: هو العذاب، قاله الكسائيّ وأبو عبيدة والزّجّاج، وأنشدوا لرؤبة:

كم رأينا في ذي عديد مبزي حتى وقمنا كيده بالرّجز

٩. في ماهية هذا العذاب ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه ظلمة وموت، فمات منهم في ساعة واحدة، أربعة وعشرون ألفا، وهلك سبعون ألفا عقوبة، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنه أصابهم الطاعون، عذّبوا به أربعين ليلة ثم ماتوا، قاله وهب بن منبه.

ج. الثالث: أنه الثلج، هلك به منهم سبعون ألفا، قاله سعيد بن جبير.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا هو الإنعام الثامن، وهذه الآية معطوفة على النعم المتقدمة لأنه تعالى كما بين نعمه عليهم بأن ظلل لهم من الغمام وأنزل عليهم] من المن والسلوى، وهو من النعم العاجلة أتبعه بنعمه عليهم في باب الدين حيث أمرهم بما يمحو ذنوبهم وبين لهم طريق المخلص مما استوجبوه من العقوبة.

٢. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨] أمر تكليف، ويدل عليه وجهان:

أ. الأول: أنه تعالى أمر بدخول الباب سجداً، وذلك فعل شاق فكان الأمر به تكليفاً ودخول الباب سجداً مشروط بدخول القرية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فثبت أن الأمر بدخول القرية أمر

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٢٣.

تكليف لا أمر إباحة.

ب. الثاني: أن قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] دليل على ما ذكرناه.

٣. ظاهر القرآن لا يدل على عين القرية، وإنما يرجع في ذلك إلى الأخبار، وفيه أقوال:

أ. أحدها: وهو اختيار قتادة والربيع وأبي مسلم الأصفهاني أنها بيت المقدس، واستدلوا عليه بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾، ولا شك أن المراد بالقرية في الآيتين واحد.. وليس في هذه الآية: ادخلوا هذه القرية على لسان موسى أو على لسان يوشع، وإذا حملناه على لسان يوشع زال الإشكال.

ب. ثانيها: أنها نفس مصر.

ج. ثالثها: وهو قول ابن عباس وأبي زيد إنها أريحاء وهي قريبة من بيت المقدس، واحتج هؤلاء على أنه لا يجوز أن تكون تلك القرية بيت المقدس لأن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تقتضي التعقيب فوجب أن يكون ذلك التبديل وقع منهم عقيب هذا الأمر في حياة موسى، لكن موسى مات في أرض التيه ولم يدخل بيت المقدس، فثبت أنه ليس المراد من هذه القرية بيت المقدس.

٣. اختلفوا في الباب على وجهين:

أ. أحدهما: وهو قول ابن عباس والضحاك ومجاهد وقتادة: إنه باب يدعى باب الحطة من بيت المقدس.

ب. ثانيهما: حكى الأصم عن بعضهم أنه عنى بالباب جهة من جهات القرية ومدخلًا إليها.

٤. اختلفوا في المراد بالسجود:

أ. قيل: أراد به نفس السجود الذي هو إلصاق الوجه بالأرض، قاله الحسن، وهذا بعيد لأن الظاهر يقتضي وجوب الدخول حال السجود، فلو حملنا السجود على ظاهره لامتنع ذلك.

ب. وقيل: على غير السجود، وهؤلاء ذكروا وجهين:

• الأول: المراد هو الركوع، لأن الباب كان صغيراً ضيقاً يحتاج الداخل فيه إلى الانحناء، وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذا بعيد لأنه لو كان ضيقاً لكانوا مضطرين إلى دخوله ركعاً فما كان يحتاج

فيه إلى الأمر.

• الثاني: أراد به الخضوع وهو الأقرب، لأنه لما تعذر حمله على حقيقة السجود وجب حمله على التواضع، لأنهم إذا أخذوا في التوبة فالتائب عن الذنب لا بد أن يكون خاضعاً مستكيناً.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ على وجوه:

أ. أحدها: وهو قول القاضي: المعنى أنه تعالى بعد أن أمرهم بدخول الباب على وجه الخضوع أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وذلك لأن التوبة صفة القلب، فلا يطلع الغير عليها، فإذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب، لأن التوبة لا تتم إلا به، إذ الأخرس تصح توبته وإن لم يوجد منه الكلام بل لأجل تعريف الغير عدو له عن الذنب إلى التوبة، ولإزالة التهمة عن نفسه، وكذلك من عرف بمذهب خطأ، ثم تبين له الحق فإنه يلزمه أن يعرف إخوانه الذين عرفوه بالخطإ عدو له عنه، لتزول عنه التهمة في الثبات على الباطل وليعودوا إلى موالاته بعد معاداته، فلهذا السبب ألزم الله تعالى بني إسرائيل مع الخضوع الذي هو صفة القلب أن يذكروا اللفظ الدال على تلك التوبة وهو قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فالحاصل أنه أمر القوم بأن يدخلوا الباب على وجه الخضوع وأن يذكروا بلسانهم التماس حط الذنوب حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب وخضوع الجوارح والاستغفار باللسان، وهذا الوجه أحسن الوجوه وأقربها إلى التحقيق.

ب. ثانيها: قول الأصم: إن هذه اللفظة من ألفاظ أهل الكتاب أي لا يعرف معناها في العربية.

ج. ثالثها: قال صاحب الكشاف: حطة) فعلة من الحط كالجلسة والركبة وهي خبر مبتدأ محذوف أي مسألتنا حطة أو أمرك حطة، والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله: صبر جميل فكلانا مبتلي والأصل صبراً على تقدير اصبر صبراً.

د. رابعها: قول أبي مسلم الأصفهاني: معناه أمرنا حطة أي أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها، وزيف القاضي ذلك بأن قال لو كان المراد ذلك لم يكن غفران خطاياهم متعلقاً به ولكن قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، يدل على أن غفران الخطايا كان لأجل قولهم حطة، ويمكن الجواب عنه بأنهم لما حطوا في تلك القرية حتى يدخلوا سجداً مع التواضع كان الغفران متعلقاً به، وخامسها: قول القفال: معناه اللهم حط عنا ذنوبنا فإنا إنما انحططنا لوجهك وإرادة التذلل لك، فحط عنا

ذنوبنا.

٦. سؤال وإشكال: هل كان التكليف وارداً بذكر هذه اللفظة بعينها أم لا؟ والجواب: روي عن ابن عباس أنهم أمروا بهذه اللفظة بعينها، وهذا محتمل، ولكن الأقرب خلافه لوجهين:

أ. أحدهما: أن هذه اللفظة عربية، وهم ما كانوا يتكلمون بالعربية.

ب. ثانيهما: وهو الأقرب أنهم أمروا بأن يقولوا قولًا دالًا على التوبة والندم والخضوع حتى أنهم لو قالوا مكان قولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك لكان المقصود حاصلًا، لأن المقصود من التوبة، إما القلب وإما اللسان، أما القلب فالندم، وأما اللسان فذكر لفظ يدل على حصول الندم في القلب وذلك لا يتوقف على ذكر لفظة بعينها.

٧. قوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذكره الله تعالى في معرض الامتنان، ولو كان قبول التوبة واجباً عقلًا على ما تقوله المعتزلة لما كان الأمر كذلك، بل كان أداء للواجب وأداء الواجب لا يجوز ذكره في معرض الامتنان.

٨. قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإما أن يكون المراد من المحسن من كان محسناً بالطاعة في هذا التكليف، أو من كان محسناً بطاعات أخرى في سائر التكاليف:

أ. أما على التقدير الأول: فالزيادة الموعودة يمكن أن تكون من منافع الدنيا وأن تكون من منافع الدين.

• أما الاحتمال الأول: وهو أن تكون من منافع الدنيا، فالمعنى أن من كان محسناً بهذه الطاعة فإنا نزيده سعة في الدنيا ونفتح عليه قرى غير هذه القرية.

• وأما الاحتمال الثاني: وهو أن تكون من منافع الآخرة، فالمعنى أن من كان محسناً بهذه الطاعة والتوبة فإنا نغفر له خطاياه ونزيده على غفران الذنوب إعطاء الثواب الجزيل كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، أي نجازيهم بالإحسان إحساناً، وزيادة كما جعل الثواب للحسنة الواحدة عشراً، وأكثر من ذلك.

ب. أما على التقدير الثاني: وهو إن كان المراد من (المحسنين) من كان محسناً بطاعات أخرى بعد هذه التوبة، فيكون المعنى:

• أنا نجعل دخولكم الباب سجداً، وقولكم حطة مؤثراً في غفران الذنوب، ثم إذا أتيتم بعد ذلك بطاعات أخرى أعطيناكم الثواب على تلك الطاعات الزائدة.

• وفي الآية تأويل آخر، وهو أن المعنى من كان خاطئاً غفرنا له ذنبه بهذا الفعل، ومن لم يكن خاطئاً بل كان محسناً زدنا في إحسانه، أي كتبنا تلك الطاعة في حسناته وزدناه زيادة منا فيها فتكون المغفرة للمؤمنين والزيادة للمطيعين.

٩. في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قولان:

أ. الأول: قال أبو مسلم قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ﴾ يدل على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به، لا على أنهم أتوا له ببدل، والدليل عليه أن تبديل القول قد يستعمل في المخالفة، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ [الفتح: ١١] إلى قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] ولم يكن تبديلهم إلا الخلاف في الفعل لا في القول فكذا هاهنا، فيكون المعنى أنهم لما أمروا بالتواضع، وسؤال المغفرة لم يمتثلوا أمر الله ولم يلتفتوا إليه.

ب. الثاني: وهو قول جمهور المفسرين: إن المراد من التبديل أنهم أتوا ببدل له لأن التبديل مشتق من البدل، فلا بد من حصول البدل، وهذا كما يقال: فلان بدل دينه، يفيد أنه انتقل من دين إلى دين آخر، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾

٢. اختلف الذين ذكروا أن المراد من التبديل أنهم أتوا ببدل له في ذلك البدل:

أ. روي عن ابن عباس أنهم دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً زاحفين على أستاههم، قائلين حنطة من شعيرة.

ب. عن مجاهد أنهم دخلوا على أدبارهم، وقالوا: حنطة استهزاء، وقال ابن زيد: استهزاء بموسى، وقالوا: ما شاء موسى أن يلعب بنا إلا لعب بنا حطة حطة أي شيء حطة.

١٠. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وصفهم الله بذلك إما لأنهم سعوا في نقصان خيراتهم في الدنيا والدين، أو لأنهم أضروا بأنفسهم، وذلك ظلم.

١١. في تكرير: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ زيادة في تقبيح أمرهم وإيذاناً بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم.

١٢. الرجز هو العذاب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي العقوبة، وكذا

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وذكر الزجاج أن الرجز والرجس معناهما واحد وهو العذاب.. أما قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال: ١١] فمعناه لطخه وما يدعو إليه من الكفر.

١٣. اختلف في تلك العقوبة أي شيء كانت، والتي لا دلالة في الآية عليها:

أ. قال ابن عباس: مات منهم بالفجأة أربعة وعشرون ألفاً في ساعة واحدة.

ب. وقال ابن زيد: بعث الله عليهم الطاعون حتى مات من الغداة إلى العشي خمس وعشرون ألفاً، ولم يبق منهم أحد.

١٤. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، الفسق من الخروج المضر، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها وفي الشرع عبارة عن الخروج من طاعة الله إلى معصيته، قال أبو مسلم: هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وفائدة التكرار التأكيد، والحق أنه غير مكرر لوجهين:

أ. الأول: أن الظلم قد يكون من الصغائر، وقد يكون من الكبائر، ولذلك وصف الله الأنبياء بالظلم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ولأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولو لم يكن الظلم إلا عظيماً لكان ذكر العظيم تكريراً، والفسق لا بد وأن يكون من الكبائر فلما وصفهم الله بالظلم أولًا: وصفهم بالفسق، ثانياً: ليعرف أن ظلمهم كان من الكبائر لا من الصغائر.

ب. الثاني: يحتمل أنهم استحقوا اسم الظالم بسبب ذلك التبديل، فنزل الرجز عليهم من السماء بسبب ذلك التبديل بل للفسق الذي كانوا فعلوه قبل ذلك التبديل وعلى هذا الوجه يزول التكرار.

١٥. من الخلاف في التعبير بين ما ورد في سورة البقرة، وما ورد في سورة الأعراف وأسبابها:

أ. قال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وقال في الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾: لأن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام، ولأنه ذكر في أول الكلام: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٤٠] ثم أخذ يعدد نعمه] نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة.

ب. قال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ وفي الأعراف: ﴿اسْكُنُوا﴾ لأن الدخول مقدم على

السكون ولا بد منهما، فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة، والسكون في السورة المتأخرة.

ج. قال في سورة البقرة: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وفي الأعراف: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾، لأن الخطايا جمع الكثرة والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة، وفي سورة البقرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة، فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة، وفي الأعراف لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة، فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة وفي الأعراف لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة.

د. ذكر قوله: ﴿رَغَدًا﴾ في سورة البقرة وحذفه في الأعراف لأنه لما أسند الفعل إلى نفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رغداً، وفي الأعراف لما لم يسند الفعل إلى نفسه لم يذكر الإنعام الأعظم فيه.

هـ. ذكر في سورة البقرة: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وفي الأعراف قدم المؤخر، لأن الواو للجمع المطلق، وأيضاً فالمخاطبون بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، يحتمل أن يقال: إن بعضهم كانوا مذنبين والبعض الآخر ما كانوا مذنبين، فالمذنب لا بد أن يكون اشتغاله بحط الذنوب مقدماً على الاشتغال بالعبادة لأن التوبة عن الذنب مقدمة على الاشتغال بالعبادات المستقبلة لا محالة، فلا جرم كان تكليف هؤلاء أن يقولوا أولًا (حطة) ثم يدخلوا الباب سجداً، وأما الذي لا يكون مذنباً فالأولى به أن يشتغل أولًا بالعبادة ثم يذكر التوبة، ثانياً: على سبيل هضم النفس وإزالة العجب في فعل تلك العبادة فهؤلاء يجب أن يدخلوا الباب سجداً أولًا ثم يقولوا حطة ثانياً، فلما احتمل كون أولئك المخاطبين منقسمين إلى هذين القسمين لا جرم ذكر الله تعالى حكم كل واحد منهما في سورة أخرى.

و. قال: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ في سورة البقرة مع الواو وفي الأعراف: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من غير الواو لأن في الأعراف ذكر فيه أمرين: أحدهما: قول الحطة وهو إشارة إلى التوبة، وثانيها: دخول الباب سجداً وهو إشارة إلى العبادة، ثم ذكر جزأين: أحدهما: قوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وهو واقع في مقابلة قول الحطة، والآخر: قوله: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزأين على كل واحد من الشرطين، وأما في سورة البقرة فيفيد كون مجموع

المغفرة والزيادة جزاء واحداً لمجموع الفعلين أعني دخول الباب وقول الحطة.

ز. قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾ وفي الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا﴾ لأن أول القصة هاهنا مبني على التخصيص بلفظ (من) لأنه تعالى قال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم، فلما انتهت القصة قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فذكر لفظة: ﴿مِنْهُمْ﴾ في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم فهناك ذكر أمة عادلة، وهاهنا ذكر أمة جابرة وكلتاهما من قوم موسى، فهذا هو السبب في ذكر هذه الكلمة في سورة الأعراف، وأما في سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق.

ح. قال في سورة البقرة: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ وقال في الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ لأن الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية، وذلك إنما يحدث بالآخرة.

ط. قال في سورة البقرة: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وفي الأعراف: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، لأنه تعالى لما بين في سورة البقرة كون ذلك الظلم فسقاً اكتفى بلفظ الظلم في سورة الأعراف لأجل ما تقدم من البيان في سورة البقرة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي المدينة سميت بذلك لأنها تقرت أي اجتمعت.. واختلف في تعيينها فقال الجمهور: هي بيت المقدس.. وقيل: أريحاء من بيت المقدس.. قال عمر بن شبة: كانت قاعدة ومسكن ملوك.. ابن كيسان: الشام.. الضحاك: الرملة والأردن وفلسطين وتدمر.. وهذه نعمه أخرى وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه.

٢. ﴿فَكُلُوا﴾ إباحة، و ﴿رَغَدًا﴾ كثيرا واسعا وهو نعت لمصدر محذوف أي أكلا رغد، ويجوز أن

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٤١٠.

يكون في موضع الحال، وكانت أرضا مباركة عظيمة الغلة فلذلك قال ﴿رَغَدًا﴾

٣. قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ الباب يجمع أبوابا، وقد قالوا: أبوبه للازدواج قال الشاعر:

هتاك أخبية ولاج أبوبه يخلط بالبر منه الجد واللينا

٤. ولو أفرده لم يجز، ومثله قول ﷺ: مرحبا بالقوم ـ أو بالوفد ـ غير خزايا ولا ندامى)، وتبوبت بوابا اتخذته وأبواب مبوبة كما قالوا أصناف مصنفة، وهذا شي من بابتك أي يصلح لك.

٥. الباب الذي أمروا بدخول هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطه، عن مجاهد وغيره.. وقيل: باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل.

٦. و ﴿سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: منحنين ركوعا، وقيل متواضعين خشوعا لا على هية متعينة.

٧. استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها، فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها لذم الله تعالى من بدل ما أمره بقوله، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. قيل: أي في إحسان من لم يعبد العجل.

ب. وقيل: يغفر خطايا من رفع المن والسلوى للغد وسنزيد في إحسان من لم يرفع للغد.

ج. وقيل: يغفر خطايا من هو عاص وسيزيد في إحسان من هو محسن أي نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدم عندهم.

٩. الإحسان: هو اسم فاعل من أحسن، والمحسن من صحح عقد توحيده وأحسن سياسة نفسه وأقبل على أداء فرائضه وكفى المسلمين شره، وفى حديث جبريل عليه السلام: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت)

١٠. قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾ .. ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع أي فبدل الظالمون منهم قولا غير الذي قيل لهم، وذلك أنه قيل لهم: قولوا حطة، فقالوا حنطة، فزادوا حرفا في الكلام، فلقوا من البلاء ما لقوا، تعريفا أن الزيادة في الدين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر.. هذا في تغيير

كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب، فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل.

١١. ﴿فَبَدَّلَ﴾ أبدلت الشيء بغيره، وبدله الله من الخوف أمنا، وتبديل الشيء أيضا تغييره وإن لم يأت ببدل، واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه، والمبادلة التبادل، والابدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر. قال ابن دريد: الواحد بديل، والبديل: البدل، وبدل الشيء: غيره يقال: بدل وبدل لغتان مثل شبه وشبه ومثل ومثل ونكل ونكل قال أبو عبيد: لم يسمع في فعل وفعل غير هذه الاربعة الأحرف، والبدل: وجع يكون في اليدين والرجلين، وقد بدل (بالكسر) يبدل بدلا.

١٢. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كرر لفظ ﴿ظَلَمُوا﴾ ولم يضمره تعظيما للأمر، والتكرير يكون على ضربين:

أ. أحدهما: استعماله بعد تمام الكلام كما في هذه الآية وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ثم قال بعد ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، ولم يقل مما كتبوا وكرر الويل تغليظا لفعلهم ومنه قول الخنساء:

تعرقني الدهر نهسا وحزا ... وأوجعني الدهر قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها.

ب. الثاني: مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٢ـ١] و ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٢ـ١] كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم: الحاقة ما هي والقارعة ما هي ومثله ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ . كرر ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ تفخيما لما ينيلهم من جزيل الثواب وكرر لفظ ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ لما ينالهم من أليم العذاب، ومن هذا الضرب قول الشاعر:

ليت الغراب غداة ينعب دائبا ... كان الغراب مقطع الأوداج

وقد جمع عدي بن زيد المعنيين فقال:

لا أرى الموت يسبق الموت شي ... نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأول، ومنه قول الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند   وهند أتى من دونها الناي

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها.

١٣. ﴿رِجْزًا﴾: العذاب (بالزاي) و(بالسين): النتن والقذر ومنه قول تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾، [التوبة: ١٢٥] أي نتنا إلى نتنهم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هو من وضع الظاهر موضع المضمر لنكتة كما تقرّر في علم البيان، وهي هنا تعظيم الأمر عليهم وتقبيح فعلهم، ومنه قول عديّ بن زيد:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء   نغّص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرّر الموت في البيت ثلاثا تهويلا لأمره وتعظيما لشأنه.

٢. ﴿رِجْزًا﴾ بكسر الراء في قراءة الجميع إلا ابن محيصن، فإنه قرأ بضم الراء، والرجز: العذاب.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لمن بقي من أهل التيه حيًّا بعد خروجهم ﴿ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ (أَرِيحَا) بفتح الهمزة وكسر الراء وإسكان المثنَّاة التحتيَّة بعدها حاء مهملة، قرية في الغور قريبة من بيت المقدس، في مكان منخفض بين القدس وحوران مسيرة ثلاثة أيَّام في عرض فرسخين، وهي قرية الجبَّارين، فيها قوم من بقيَّة عاد، يقال لهم: العمالقة، ولم تصحَّ قصص (عِوَج) ولا أنَّه رأس هؤلاء الجبَّارين، والقائل بإذن الله هو يوشع بن نون نبَّأه في آخر عمر موسى، وربَّما قال له موسى: بِمَ أوحى الله إليك؟ فيقول: لم أكن أسألك عن ذلك، ويروى أنَّه لَمَّا احتُضر في التيه أخبرهم بأنَّ يوشع بعده نبيء، وأنَّ الله تعالى أمر يوشع بقتل الجبَّارين فقاتلهم وفَتَح أريحا، قيل: يروى عن رسول الله ﷺ أنَّ الله تعالى أرسل ملك الموت إلى موسى فلطمه موسى وفقأ

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١٠٧.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١١٥.

عينه، فقال: يا ربِّ أرسلتني إلى عبد كره الموت، ففقأ عيني، فردَّ الله عليه عينه، وقال: اِرجع إلى عبدي وقل له: إن شئت أحياك الله عدد ما تقع عليه يدك من شعر متن الثور سنين، فقال له موسى: ثمَّ ماذا؟ قال: ثمَّ تموت، قال: (الآن من قريب، ربِّ أدنِني من الأرض المقدَّسة رمية حجر) وقبره في التيه بجانب الطريق عند جبل رمل، ولا يصحُّ عنه ﷺ أنَّ موسى عليه السلام فقأ عين ملك الموت، ولا ضرَّ به لأنَّه ظلم لملك الموت، وسخط لقضاء الله، وردٌّ له، اللهمَّ إلَّا إن جاءه في صورة لصٍّ أو قاطع، ولم يعلمه ملكَ الموتِ، وعينه جسم نورانيٌّ.

٢. وقيل: القرية بيت المقدس على يد يوشع، وقيل: على يد موسى، وإنَّه خرج من التيه بعد أربعين سنة مع قومه، وعلى مقدِّمته يوشع، وفتحها وأقام ما شاء الله ثمَّ مات، وسمِّيت القرية قرية من قَرَى (بالألف) بمعنى جمع، وهي جامعة للناس.

٣. ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ لا منع عليكم منِّي ولا من أحد ولا من قلَّة أو جدب، فهذا مستثنًى من كون الأمم السابقة لا يأكلون الغنيمة، فإنَّ لداخلي القرية المذكورة أكل ما فيها من مال العمالقة وأخذه ونقله إلى حيث شاءوا.

٤. ﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ﴾ باب أريحا، أراد الحقيقة، فإنَّ لها سبعة أبواب أو ثمانية يدخلون من أيِّها شاءوا ﴿سُجَّدًا﴾ منحنين تواضعًا، وقيل: على الأرض، وقيل: القرية قرية بيت المقدس، والباب بابها المَقُول له باب حطَّة، والقائل ادخلوا موسى عليه السلام، قال لهم في التيه: (إذا مضت أربعون سنة وخرجتم من التيه فادخلوا بيت المقدس)، وقيل: خرج موسى من التيه حيًّا بعد الأربعين بمن بقي منهم ففتح أريحا ومات.

٥. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ مسألتنا حطَّة، أو شأنك حطَّة، أي: أن تحطَّ عنَّا ذنوبنا؛ وقيل: لفظ تعبُّدٍ عبرانيٌّ لا يُدرَى ما هو، وقيل: تواضعٌ لله، أي: أمرنا تواضُعٌ لله.

٦. ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ذنوبكم، والأصل: خطائي بياء بعد الألف زائدة هي ياء خطيئة أبدلت همزة فاجتمعت همزتان قلبت الثانية، وهي لام الكلمة ياء، ثمَّ قلبت الياء ألفًا فكانت الهمزة بين ألفين فقلبت ياء، وإنَّما أبدلوا الياء ألفًا لفتح الهمزة قبلها مع تحرُّكها في النصب لفظًا، وفي الجرِّ والرفع حكمًا، وقال الخليل: الهمزة على الياء التي بعد الألف، وفُعِل ما ذُكر.

٧. ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثوابًا لإحسانهم بالطاعة، عطفت الجملة على (قُولُوا حِطَّةٌ) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالقول الذي قيل لهم منهم ﴿قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: جعلوا قولاً مكانه، كقولك: بدَّل بخوفه أمنًا، أو صيَّرُوا القول الذي أمروا به قولاً آخر، وبدَّلوا فعلا إذ لم يدخلوا سجَّدًا بل يزحفون على أَسْتَاههم، وقالوا حبَّة في شعرة، أو في شعيرة أو حنطة في شعيرة، أو حطا سمقاثًا، أي: حنطة حمراء، ولعلَّ بعضًا قال كذا وبعضًا قال كذا، وذلك استهزاء.

٨. ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بتبديل القول والفعل لسبب التبديل، ومقتضى الظاهر: (فأنزلنا عليهم) لكن أعاد ذكر ظلمهم للمبالغة في تقبيح شأنهم، وللتصريح بموجب العقاب.

٩. ﴿رِجْزًا﴾ طاعونًا، أو صاعقة، أو ظلمة، أو ثلجًا، وأوَّل الطاعون في بني إسرائيل ﴿مِّنَ السَّمَآءِ﴾ ولو كان الطاعون من الجنِّ؛ لأنَّ قضاءه من الله، وبأسباب سماويَّة فقال لذلك: ﴿مِنَ السَّمَآءِ﴾ مع أنَّه أرضيٌّ.

١٠. ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ بكونهم ﴿يَفْسُقُونَ﴾ يظلمون الظلم المذكور وهو خروج عن السجود وقول حطَّة، وسمَّاه في (الأعراف) ظلمًا، أو أراد بالفسق مطلق معصيتهم، ومات بهذا الرجز في هذه القرية التي أمروا بدخولها في ساعة سبعون ألفًا أو أربعة وعشرون ألفًا.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا إشارة إلى ما حلّ ببني إسرائيل ـ لما نكلوا عن الجهاد ـ ودخولهم الأرض المقدسة ـ أرض كنعان ـ لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، وإنما أطلق على الأرض المذكورة قرية، لأنّ القرية: كل مكان اتصلت به الأبنية واتّخذ قرارا، وتقع على المدن وغيرها.

٢. ما قصّ ـ هنا ـ ذكر في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُّ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٠]

---

(١) تفسير القاسمي: ٣١٢/١.

٣. قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾:

أ. يحتمل المراد من الباب حقيقة الباب، وهو باب القرية التي أمروا بالدخول فيها.

ب. يحتمل من الباب القرية نفسها، لا حقيقة الباب ـ كقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ذكر القرية ولم يذكر الباب ـ وذلك في اللغة جائز، يقال: فلان دخل في باب كذا، لا يعنون حقيقة الباب، ولكن كونه في أمر هو فيه.

٤. قوله ﴿سُجَّدًا﴾ يحتمل المراد من السجود:

أ. حقيقة السجود، فيخرّج على وجوه:

• على التحية لذلك المكان.

• على الشكر له لما أهلك أعداءهم الجبارين.

• الكناية عن الصلاة ـ إذ العرب قد تسمّي السجود (صلاة) ـ كأنّهم أمروا بالصلاة فيها.

ب. الأمر بالسجود ـ لا على حقيقة السجود والصلاة ـ ولكن أمر بالخضوع له والطاعة والشكر على أياديه.

٥. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ خبر محذوف، أي مسألتنا حطة ـ والأصل النصب ـ بمعنى: حطّ عنّا ذنوبنا حطّة، وإنّما رفعت لتعطي معنى الثبات.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. المراد بالقرية المدينة، وهي في الأصل اسم لمجتمع الناس ومسكن النمل الذي يبنيه، ومادتها تدل على الاجتماع، ومنها قريت الماء في الحوض إذا جمعته وأطلقت على الأمة نفسها، ثم غلب استعمالها في البلاد الصغيرة، ولا يصح هنا، فإن الرغد لا يتيسر للإنسان كما يشاء إلا في المدن الواسعة الحضارة.

٢. ونسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن، فقد أمر بنو اسرائيل بدخول بلاد كثيرة، وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين عظمته وجلاله ونعمه وإفضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا.

---

(١) تفسير المنار: ١/٣٢٤.

٣. صورة السجود من وضع الجباه على الأرض لا يصح أن تكون مرادة لأنها سكون، والدخول حركة وهما لا يجتمعان.

٤. المراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم.

٥. تبديل القول بغيره عبارة عن المخالفة كأن الذي يؤمر بالشيء فيخالف قد أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بخلافه، يقال: بدلت قولا غير الذي قيل، أي جئت بذلك القول مكان القول الأول.. وهذا التعبير أدل على المخالفة والعصيان من كل تعبير خلافا لما يتراءى لغير البليغ من أن الظاهر أن يقال. بدلوا القول بغيره دون أن يقال. غير الذي قيل لهم، فإن مخالف أمر سيده قد يخالفه على سبيل التأويل مع الاعتراف به، فكأنه يقول في الآية إنهم خالفوا الأمر خلافا لا يقبل التأويل، حتى كأنه قيل لهم غير الذي قيل، وليس المعنى أنهم أمروا بحركة يأتونها، وكلمة يقولونها، وتعبدوا بذلك وجعل سببا لغفران الخطايا عنهم فقالوا غيره وخالفوا الأمر، وكانوا من الفاسقين، وأى شيء أسهل على المكلف من الكلام يحرك به لسانه، وقد اخترع أهل الأديان من ذلك ما لم يكلفوا قوله لسهولة القول على ألسنتهم، فكيف يقال أمر هؤلاء بكلمة يقولونها فعصوا بتركها؟ إنما يعصى العاصي إذا كلف ما يثقل على نفسه ويحملها على غير ما اعتادت، وأشق التكاليف حمل العقول على أن تفكر في غير ما عرفت، وحث النفوس على أن تتكيف بغير ما تكيفت.

٦. ترجيح اللفظ على المعنى، والصورة على الروح، وتفسير السجود بالانحناء، وأنهم أمروا بأن يقولوا (حطة) فدخلوا زحفا على أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة: أي أننا نحتاج إلى الأكل.. منشأ هذه الأقوال الروايات الاسرائيلية ولليهود في هذا المقام كلام كثير وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نجيز حشوها في تفسير كلام الله تعالى.

٧. يدل قوله تعالى ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ على أن هذا العصيان لم يكن من كل بنى إسرائيل، وأن هذا الرجز كان خاصا بالظالمين منهم الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه، وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر موضع المضمر فقال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل فأنزلنا عليهم، ولعل وجه الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إبهام كون الرجز كان عاما كما هو الغالب فيه.

٨. ثم أكده بتأكيد آخر وهو قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وفى هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين ما فيه، والقاعدة أن ترتيب الحكم على المشتق يدل على أن مصدرة علة له كقوله: ﴿وَالسَّارِقُ

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فالسرقة علة للقطع، والموصول مع صلته هنا كذلك، والمعنى ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ بسبب ظلمهم، ثم أكد هذا السبب الخاص العارض المعبر عنه بالفعل الماضي ببيان سبب عام يشمله ويشمل غيره هم يفعلونه دائما وهو قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب تكرار الفسوق والعصيان منهم واستمرارهم عليه الذي كان هذا الظلم منه.

٩. الأحسن هو السكوت عن تعيين نوع ذلك الرجز كما هو الشأن في كل ما أبهمه القرآن.. واحتج بعضهم عليه بقوله تعالى ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو كما تراه، والرجز هو العذاب وكل نوع منه رجز، وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بالطاعون غير مرة، وابتلاهم بضروب أخرى من النقم في إثر كل ضرب من ضروب ظلمهم وفسوقهم، ومن أشد ذلك تسليط الأمم عليهم، وحسبنا ما جاء في القرآن عبرة وتبصرة فنعين ما عينه، ونبهم ما أبهمه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ذكر سبحانه بعض ما اجترحوه من السيئات، فقد أمرهم أن يدخلوا قرية من القرى خاشعين لله، فعصى بعضهم وخالف أمر ربه، فأنزل عليهم عذابا من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصي واقترفوه من الآثام.

٢. ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ لم يعين الكتاب الكريم هذه القرية فلا حاجة إلى تعيينها، وهم قد دخلوا بلادا كثيرة، وإن كان المروي عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم أنها بيت المقدس.

٣. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي فكلوا منها أكلا هنيئا ذا سعة في أي مكان شئتم.

٤. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي وادخلوا باب حطة خشّعا ناكسي الرؤوس تواضعا لله، وقد يكون المعنى: إذا دخلتم الباب فاسجدوا لله شكرا على ما أنعم عليكم، إذ أخرجكم من التيه، ونصركم على عدوكم، وأعادكم إلى ما تحبون، وقولوا نسألك ربنا أن تحط عنا ذنوبنا وخطايانا التي من أهمها كفران النعم.

٥. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي إذا فعلتم ما ذكر استجبنا دعاءكم وكفّرنا خطاياكم.

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٢٥.

٦. ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وسنزيد المحسنين ثوابا من فضلنا، وقد أمرهم بشيئين: عمل يسير، وقول صغير، ووعدهم بغفران السيئات، وزيادة الحسنات.

٧. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي فخالفوا الأمر ولم يتبعوه، وجعل المخالفة تبديلا إشارة إلى أن الذي يؤمر بالشيء فيخالفه كأنه أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بغيره، وليس المراد أنهم أمروا بحركة يأتونها وكلمة يقولونها على سبيل التعبد، وجعل ذلك سببا لغفران الذنوب عنهم، فقالوا غيرها وخالفوا الأمر وكانوا من الفاسقين، فما أسهل الكلام على الناس يحركون به ألسنتهم، وإنما يعصى العاصي ربه إذا كلّف ما يثقل عليه، وحمّل غير ما اعتاد، لما في ذلك من ترك النفس ما ألفت، واستيحاشها من غير ما عرفت.

٨. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لم يعين الكتاب هذا الرجز فنتركه مبهما، وإن كان كثير من المفسرين قالوا إنه الطاعون، وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بضروب من النقم عقب كل نوع من أنواع الفسوق والظلم، فأصيبوا بالطاعون كثيرا، وسلّط عليهم أعداؤهم، وقوله بما كانوا يفسقون: أي بسبب تكرار فسقهم وعصيانهم ومخالفتهم أوامر دينهم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. تذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس، التي أمر الله بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها، ويخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنونها، والتي نكص بنو إسرائيل عنها وقالوا: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ .. والتي قالوا بشأنها لنبيهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ .. ومن ثم كتب عليهم ربهم التيه أربعين سنة، حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع بن نون، فتح المدينة ودخلها.. ولكنهم بدلا من أن يدخلوها سجدا كما أمرهم الله، علامة على التواضع والخشوع، ويقولوا: حطة.. أي حط عنا ذنوبنا واغفر لنا.. دخلوها على غير الهيئة التي أمروا بها، وقالوا قولا آخر غير الذي أمروا به.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٧٤.

٢. والسياق يواجههم بهذا الحادث في تاريخهم؛ وقد كان مما وقع بعد الفترة التي يدور عنها الحديث هنا ـ وهي عهد موسى ـ ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة، قديمه كحديثه، ووسطه كطرفيه.. كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف!

٣. وأيّا كان هذا الحادث، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه، ويذكرهم بحادث يعلمونه.. فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة؛ وأمرهم أن يدخلوها في هيئة خشوع وخضوع، وأن يدعو الله ليغفر لهم ويحط عنهم؛ ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. القرية التي دعوا إلى دخولها، ليأكلوا منها حيث شاءت لهم أنفسهم، هي قرية لم يذكر القرآن اسمها، وإنما أشار إليها بقوله: ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ فهي معروفة للقوم، ولعلها بيت المقدس، كما يرى ذلك أكثر المفسرين، ولعل مما يقوّى هذا الرأي أنهم أمروا بدخولها على صفة خاصة، وبمراسيم محددة تؤدّى لها.

٢. ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ﴾.. هكذا ينبغي أن يكون دخولهم هذه القرية.. أن يدخلوا الباب ساجدين، وأن يقولوا عند دخولهم: حطة لذنوبنا، أي مغفرة لها.

٣. مما يقوى الرأي بأن القرية المشار إليها هنا هي بيت المقدس، أن بابها المأمور بدخوله في هذه الآية قد ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾

٤. في هذه الآية الكريمة ما يكشف عما في طبيعة القوم من عناد، وإنه عناد الأطفال.. يأبون إلا ركوب رؤوسهم، والاتجاه إلى غير ما يوجّهون إليه، ولو كان في ذلك تلفهم وهلاكهم.

٥. هذه كلمات علوية سماوية من ربّ العزة، جاءتهم على لسان نبيّ كريم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ .. ومع هذا فقد سوّلت لهم أنفسهم الخبيثة أن يغيّروا ويبدلوا من صور هذه الكلمات، لا لشيء إلا لإرضاء نزعة العناد الصبياني فيهم، وإشباع غريزة التخريب الطّفلي عندهم.. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ إنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أمانة الكلمة، فكيف بأمانة العمل؟ ولهذا كانت الصفة الغالبة عليهم:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٨٩/١.

نقض المواثيق، والتحلل من العهود والعقود.

٦. كان ذلك هو الوصف الملازم لهم في القرآن الكريم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا تذكير بنعمة أخرى مكنوا منها فما أحسنوا قبولها ولا رعوها حق رعايتها، فحرموا منها إلى حين وعوقب الذين كانوا السبب في عدم قبولها، وفي التذكير بهذه النعمة:

أ. امتنان عليهم ببذل النعمة لهم لأن النعمة نعمة، وإن لم يقبلها المنعم عليه.

ب. وإثارة لحسرتهم على ما فات أسلافهم وما لقوه من جراء إعجابهم بآرائهم.

ج. وموعظة لهم أن لا يقعوا فيما وقع فيه الأولون، فقد علموا أنهم كلما صدفوا عن قدر حق النعم نالتهم المصائب، قال ابن عطاء الله: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها.

٢. لعلم المخاطبين بما عنته هذه الآية اختصر فيها الكلام اختصارا ترك كثيرا من المفسرين فيها حيارى، فسلكوا طرائق في انتزاع تفصيل المعنى من مجملها فما أتوا على شيء مقنع، وكنت تجد أقوالهم هنا إذا التأم بعضها بنظم الآية لا يلتئم بعضه الآخر، وربما خالف جميعها ما وقع في أيام أخر.

٣. اختلف في هذه القرية:

أ. الصحيح هو أن هذه الآية أشارت إلى قصة معلومة تضمنتها كتبهم، وهي أن بني إسرائيل لما طوحت بهم الرحلة إلى برية فاران نزلوا بمدينة قادش، فأصبحوا على حدود أرض كنعان التي هي الأرض المقدسة التي وعدها الله بني إسرائيل، وذلك في أثناء السنة الثانية بعد خروجهم من مصر، فأرسل موسى اثني عشر رجلا ليتجسسوا أرض كنعان من كل سبط رجل وفيهم يوشع بن نون وكالب بن يفنة، فصعدوا وأتوا إلى مدينة حبرون، فوجدوا الأرض ذات خيرات وقطعوا من عنبها ورمانها وتينها ورجعوا لقومهم بعد أربعين يوما، وأخبروا موسى وهارون وجميع بني إسرائيل وأروهم ثمر الأرض، وأخبروهم أنها حقا تفيض لبنا وعسلا غير أن أهلها ذوو عزة، ومدنها حصينة جدا، فأمر موسى كالبا فأنصت إسرائيل إلى

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٤٩٦.

موسى، وقال: إننا نصعد ونمتلكها، وكذلك يوشع، أما العشرة الآخرون فأشاعوا في بني إسرائيل مذمة الأرض، وأنها تأكل سكانها، وأن سكانها جبابرة، فخافت بنو إسرائيل من سكان الأرض، وجبنوا عن القتال، فقام فيهم يوشع وكالب قائلين لا تخافوا من العدو فإنهم لقمة لنا والله معنا، فلم يصغ القوم لهم وأوحى الله لموسى أن بني إسرائيل أساؤوا الظن بربهم، وأنه مهلكهم، فاستشفع لهم موسى، فعفا الله عنهم، ولكنه حرمهم من الدخول إلى الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فلا يدخل لها أحد من الحاضرين يومئذ إلا يوشع وكالبا وأرسل الله على الجواسيس العشرة المثبطين وباء أهلكهم، فهذه الآية تنطبق على هذه القصة تمام الانطباق لا سيما إذا ضمت لها آية سورة المائدة: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ فقوله: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الظاهر أنه أراد بها (حبرون) التي كانت قريبة منهم والتي ذهب إليها جواسيسهم وأتوا بثمارها.

ب. وقيل: أراد من القرية الجهة، كلها قاله القرطبي عن عمرو بن شبة، فإن القرية تطلق على المزرعة لكن هذا يبعده قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ وإن كان الباب يطلق على المدخل بين الجبلين وكيفما كان ينتظم ذلك مع قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦]. فهذا هو التفسير الصحيح المنطبق على التاريخ الصريح.

٤. ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي على لسان موسى فبلغه للقوم بواسطة استنصات كالب بن بفنّة، وهذا هو الذي يوافق ما في سورة العقود في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيات، وعلى هذا الوجه فقوله: ﴿ادْخُلُوا﴾ إما أمر بدخول قرية قريبة منهم وهي (حبرون) لتكون مركزا أولا لهم، والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه أعني القتال كما دلت عليه آية المائدة إذ قال: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ فإن الارتداد على الأدبار من الألفاظ المتعارفة في الحروب كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، ولعل في الإشارة بكلمة ﴿هَذِهِ﴾ المفيدة للقرب ما يرجح أن القرية هي حبرون التي طلع إليها جواسيسهم.

٥. القرية ـ بفتح القاف لا غير على الأصح ـ البلدة المشتملة على المساكن المبنية من حجارة وهي مشتقة من القري ـ بفتح فسكون وبالياء ـ وهو الجمع يقال: قرى الشيء يقريه إذا جمعه وهي تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب كما أريد بها هنا بدليل قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ

سُجَّدًا﴾، وجمع القرية قرى بضم القاف على غير قياس لأن قياس فعل أن يكون جمعا لفعلة بكسر الفاء مثل كسوة وكسى وقياس جمع قرية أن يكون على قراء بكسر القاف وبالمد كما قالوا: ركوة وركاء وشكوة وشكاء.

٦. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مراد به باب القرية لأن أل متعينة للعوضية عن المضاف إليه الدال عليه اللفظ المتقدم، ومعنى السجود عند الدخول الانحناء شكرا لله تعالى لا لأن بابها قصير كما قيل، إذ لا جدوى له، والظاهر أن المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفطن لهم أهل القرية، وهذا من أحوال الجوسسة، ولم تتعرض لها التوراة ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين، لا فاتحين وقد جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على أستاههم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة، فأفرطوا في التصنع بحيث يكاد أن يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره.

٧. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ الحطة فعلة من الحط وهو الخفض، وأصل الصيغة أن تدل على الهيئة، ولكنها هنا مراد بها مطلق المصدر:

أ. الظاهر أن هذا القول كان معروفا في ذلك المكان للدلالة على العجز أو هو من أقوال السّؤّال والشحاذين كيلا يحسب لهم أهل القرية حسابا ولا يأخذوا حذرا منهم، فيكون القول الذي أمروا به قولا يخاطبون به أهل القرية.

ب. وقيل: المراد من الحطة سؤال غفران الذنوب أي حط عنا ذنوبنا أي اسألوا الله غفران ذنوبكم إن دخلتم القرية.

ج. وقيل: من الحط بمعنى حط الرحال أي إقامة أي ادخلوا قائلين إنكم ناوون الإقامة بها إذ الحرب ودخول ديار العدو يكون فتحا ويكون صلحا ويكون للغنيمة ثم الإياب.

٨. التأويلان الأخيران بعيدان لأن القراءة بالرفع تنافي القول بأنها طلب المغفرة لأن المصدر المراد به الدعاء لا يرتفع على معنى الإخبار نحو سقيا ورعيا، وإنما يرتفع إذا قصد به المدح أو التعجب لقربهما من الخبر دون الدعاء، ولا يستعمل الخبر في الدعاء إلا بصيغة الفعل نحو رحمه الله ويرحمه الله.. و(حطة) بالرفع على أنه مبتدأ أو خبر نحو سمع وطاعة وصبر جميل.

٩. الخطيئة فعيلة بمعنى مفعولة لأنها مخطوء بها أي مسلوك بها مسلك الخطأ، أشاروا إلى أنها فعل يحق أن لا يقع فيه فاعله إلا خطأ فهي الذنب والمعصية.

١٠. ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالزيادة من خيري الدنيا والآخرة ولذلك حذف مفعول (نزيد)، والواو عاطفة جملة ﴿سَنَزِيدُ﴾ على جملة ﴿قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ أي وقلنا: سنزيد المحسنين؛ لأن جملة ﴿سَنَزِيدُ﴾ حكيت في سورة الأعراف، مستأنفة فعلم أنها تعبر عن نظير لها في الكلام الذي خاطب الله به موسى على معنى الترقي في التفضل فلما حكيت هنا عطفت عطف القول على القول.

١١. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي بدل العشرة القول الذي أمر موسى بإعلانه في القوم، وهو الترغيب في دخول القرية وتهوين العدو عليهم، فقالوا لهم: لا تستطيعون قتالهم وثبطوهم، ولذلك عوقبوا، فأنزل عليهم رجز من السماء وهو الطاعون، وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له سبب أرضي من عدوى أو نحوها، فعلم أنه رمتهم به الملائكة من السماء بأن ألقيت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم، ولأجل هذا خص التبديل بفريق معروف عندهم، فعبر عنه بطريق الموصولية لعلم المخاطبين به وبتلك الصلة فدل على أن التبديل ليس من فعل جميع القوم أو معظمهم لأن الآية تذكير لليهود بما هو معلوم لهم من حوادثهم.

١٢. إنما جاء بالظاهر في موضع المضمر في قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ ولم يقل عليهم لئلا يتوهم أن الرجز عم جميع بني إسرائيل، وبذلك تنطبق الآية على ما ذكرته التوراة تمام الانطباق.

١٣. تبديل القول تبديل جميع ما قاله الله لهم وما حدثهم الناس عن حال القرية، وللإشارة إلى جميع هذا بني فعل ﴿قِيلَ﴾ إلى المجهول إيجازا، فقولا مفعول أو لبدّل، و ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ﴾ مفعول ثان لأن (بدل) يتعدى إلى مفعولين من باب كسى أي مما دل على عكس معنى كسى مثل سلبه ثوبه. قال أبو الشيص:

بدّلت من برد الشباب ملاءة خلقا وبئس مثوبة المقتاض

١٤. فائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدلوه لدفع توهم أنهم بدلوا لفظ حطة خاصة، وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر هينا.

١٥. ورد في الحديث عن أبي هريرة أن القول الذي بدّلوا به أنهم قالوا: حبة في شعرة أو في شعيرة)،

والظاهر أن المراد به أن العشرة استهزؤوا بالكلام الذي أعلنه موسى عليه السلام في الترغيب في فتح الأرض، وكنوا عن ذلك بأن محاولتهم فتح الأرض كمحاولة ربط حبة بشعرة أي في التعذر، أو هو كأكل حبة مع شعرة تخنق آكلها، أو حبّة من برّ مع شعيرة.

١٦. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ اعتنى فيهما بالإظهار في موضع الإضمار ليعلم أن الرجز خص الذين بدّلوا القول، وهم العشرة الذين أشاعوا مذمة الأرض لأنهم كانوا السبب في شقاء أمة كاملة، وفي هذا موعظة وذكرى لكل من ينصب نفسه لإرشاد قوم ليكون على بصيرة بما يأتي ويذر وعلم بعواقب الأمور فمن البر ما يكون عقوقا، وفي المثل (على أهلها تجني براقش) وهي اسم كلبة قوم كانت تحرسهم بالليل فدل نبحها أعداءهم عليهم فاستأصلوهم فضربت مثلا.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. كان بنو إسرائيل يعيشون في صحراء سيناء مع موسى عليه السلام، وقد أنزل الله تعالى عليهم المن والسلوى، فأكلوا منها رزقا طيبا، وما كان يمكن أن يبقى ذلك رزقا دائما، وإن كان ذلك ممكنا سائغا في ذاته، ولكن لأنهم برمون متململون مما يرزقهم الله تعالى رتيبا مستمرا، بل إنهم يطلبون التغيير.

٢. القرية هي المدينة العظيمة الجامعة لعدد كبير من السكان، من قرى بمعنى جمع؛ ولذلك أطلق على مكة أنها قرية وأم القرى، ولم يبين القرآن الكريم ما هي هذه القرية، لم يرد في القرآن ما يبين عين هذه القرية أهى الأرض المقدسة أم هي قرية قريبة أمرهم موسى بالدخول فيها، وإن الذي نفهمه من النص والسياق أنها قرية ليست بعيدة عن صحراء سيناء، وأن ذلك في عهد موسى عليه السلام:

أ. أما أنها قريبة ليست بعيدة فتدل عليه الإشارة، فقد أشير إليها بالإشارة الدالة على القرب، وهى (هذه)، فهي لا بد أن تكون قريبة، والنص يدل على أنهم دخلوها، وقد عصوا أمر ربهم الذي أمر به عند دخولهم.

ب. أما أنها كانت في عهد موسى عليه السلام، ولم يكن قد فارقهم بالموت، فإن ذلك يثبت من سياق القول؛ لأن موسى عليه السلام من قبل الأمر بالدخول كان هو الذي يخاطبهم بأمر الله تعالى، ومن

(١) زهرة التفاسير: ١/٢٤١.

بعد الأمر بالدخول هو الذي كان يخاطبهم ويخاطبونه، فلم يكن من مقتضى ذلك أن يكون الدخول، وقد انقضى عهد موسى عليه السلام، وجاء غيره.

٣. أبهم الله تعالى ذكر هذه القرية، ولا نتعرض لبيان ما أبهمه الله تعالى، ولم يذكره نبيه ﷺ، ولم يثبت قول عن أصحابه الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ علم النبوة ليبلغوه للناس، وإن القول في هذه القرية ما هي داخل في النهى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، لكن قال بعض العلماء إنها أريحا، أو بعض بلاد في الأردن، ورجح الأكثرون، وقالوا إنه القول الصحيح، أنها بيت المقدس التي كتب الله تعالى لهم أن يدخلوا، وقالوا إن ذلك ذكر في القرآن في سورة المائدة.

٤. مع أنه لا يمكن أن نعيّن قرية بعينها، إلا أنها ليست الأرض المقدسة؛ وذلك لأن الإشارة إلى القرية كانت إلى قرية قريبة، ولأن الأرض المقدسة لا تذكر بهذا الإبهام المستغرق، ولأن ما حدث منهم من تبديل القول يدل على قرب عهدهم بالكفر، وأنه لم يكن التيه الذي يقوى شكيمتهم، ولأنه إذا كانت بيت المقدس، فإن دخولهم فيها بعد التيه كان على يد سيدنا يوشع عليه السلام.

٥. ليست في هذه القرية عبرة خاصة توجب معرفتها إذا كانت القرية، إنما يكفى في التعريف بها أنها كانت ذات رزق راغد، وعيش واسع؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي فكلوا أيّ أكل تشاءونه رغدا في هذه القرية، فلا تقتصروا على المن والسلوى، كما أنزل الله تعالى رحمة بكم، وهما أطيب الطعام وأشهاه وأمرؤه، وأهنؤه، كلوا أي أكل شئتم من الحلال رغدا واسعا كثيرا.

٦. أمرهم الله تعالى أن يدخلوا الباب لهذه القرية خاشعين خاضعين شاكرين لنعمة الله تعالى التي أنعم بها عليهم طالبين غفران خطاياهم، فقال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ساجدين شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليكم وأن أخرجكم من الظلمات إلى النور، ومن الذل إلى العزة، ومن الظلم المرهق إلى العدل المنصف، وأن أعطاكم ما تحبون من طيب العيش، وما تشتهون من حلال.

٧. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومعنى نغفر لكم أي نستر ذنوبكم، ثم نرفعها عنكم، ووعد الله تعالى بأنه سيزيد المحسنين خيرا وبركة، والمحسن هو من أتقن وأجاد فعل الخير، والمعنى أن الله تعالى يغفر لهم ما ارتكبوا من آثام كبيرة كانوا قد تعودوها حتى صارت خطايا، يغفرها، سبحانه وتعالى، ثم وعد سبحانه ووعده الحق أنه سيزيد المحسنين، وينعم عليهم بالتوفيق إذا تابوا وآمنوا، ويجزيهم

أحسن الجزاء.

٨. الخطايا جمع خطيئة، وهى الذنوب التي تتكاثر، حتى يفعل الذنب، وكأنه يقع منه من غير قصد إليه لتمرسه به، وقساوة نفسه وقلبه، كما قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

٩. تعود بنو إسرائيل على المعصية وألفوها، غيروا الألفاظ، وبدلوها إلى ألفاظ تدل على نقيض معناها، وكذلك دائما شأن العصاة المذنبين وخصوصا بنى إسرائيل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ لقد قيل لهم قولوا حطة أي حط عنا يا ربنا ذنوبنا، ولا تعذبنا بما فعلنا واعف عنا، بدلوا هذه الكلمة الضارعة الخاشعة إلى كلمة أخرى قريبة اللفظ ولكن فيها معنى مغاير، فقالوا: حنطة) أي أنهم بدل أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالضراعة توجهوا إليه بطلب المادة، والحنطة هي القمح، يتركون الضراعة التي هي نعمة التقوى إلى طلب القوت، وفى ذلك عدول عن إرضاء الله تعالى إلى طلب ما يرضى أهواءهم، ويشبع شهوات بطونهم، وفوق ذلك فيه تلاعب بأمر الله تعالى ونهيه، واستهزاء بأوامر ربهم، وتحريف للقول عن مواضعه، كما فعلوا من بعد موسى عليه السلام، إذ حرفوا القول عن مواضعه، وضلوا ضلالا بعيدا.

١٠. ذكر الله تعالى الموصول، فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فأظهر في موضع الإضمار للإشارة إلى أن الدافع لهم على التغيير والتبديل في أمر الله تعالى أو نهيه هو ظلمهم وإلحادهم في دين الله تعالى.

١١. عاقبهم الله تعالى فأنزل العذاب بهم فقال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الرجز هو العذاب، أو هو الرجس، والرجز قاذورات النفوس وفسادها، وقد أصابهم الله تعالى بالأمرين فسدت نفوسهم إلا أن يتوبوا، وأنزل الله تعالى عذابه بهم إذ جعلهم أذلاء مستضعفين في الأرض إلا أن يتسربلوا سربال التقوى، ويسيروا في طريق العزة، ويهجروا أسباب الذل.

١٢. الرجز قسمه الأصفهاني في مفرداته إلى قسمين:

أ. رجز ينزل بسبب أعمال الإنسان من عصيان للرب، ومخالفة لأمره، وسوء تدبيره، وهذا عذاب الله تعالى.

ب. ورجز ينزل بلاء من الله، واختبارا يصهر نفوسهم. كطاعون ينزل بهم، أو إهلاك للحرث

والنسل، أو ضرب الذلة عليهم.

وقد أصاب الله تعالى بنى إسرائيل بالنوعين من الرجز، فعذبوا في الحياة الدنيا رجاء أن يتوبوا ويهتدوا، وأصيبت نفوسهم بالذلة، التي ضربت عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس، ونزلت بهم الآفات البشرية.

١٣. ذكر سبحانه وتعالى أن السبب في ذلك ظلمهم وفسقهم:

أ. فأما الظلم فبينه سبحانه بالإظهار في موضع الإضمار إذ قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، والتعبير بالموصول يفيد أن الصلة سبب لما أنزل الله تعالى من رجز، وهذا بيان للسبب بالإشارة.

ب. أما فسقهم، فقد بين سبحانه سببيته بصريح اللفظ الكريم، فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب أنهم يفسقون، و ﴿كَانُوا﴾ دالة على الاستمرار، والتعبير بالمضارع يفيد أن فسقهم على دوامه يتجدد وقتا بعد آخر فكلما تاب عليهم فسقوا مرة أخرى.

١٤. الفسق هو الخروج، يقال فسقت الفأرة خرجت من جحرها، وفسق الثمر خرج، فهؤلاء يخرجون عن الحق، ويسيرون وراء الباطل سيرا متجددا مستمرا آنا بعد آن.

١٥. ذكر الله تعالى أن الرجز من السماء إشارة إلى أنه يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يظنون، وأنه من الله العزيز الحكيم، فإن ما يكون من السماء مغيب لا يعلم متى يجيء ولا من أي جهة يجيء.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. للقرية في اللغة معنيان: المكان الذي يجتمع فيه الناس، أي مكان لا يختص في بر ولا بحر، والمعنى الثاني مسكن النمل، وعلى هذا تكون المدينة من معاني القرية حقيقة، ولكن كثر استعمالها في البلد الصغير، فتغلب هذا المعنى على غيره من المعاني، بحيث إذا اطلق لفظ القرية فلا يفهم منه عرفا الا البلد الصغير.

٢. قيل: ان المراد بالقرية هنا بيت المقدس، ومعنى الحط النزول والهبوط، ومعنى السجود وضع

---

(١) التفسير الكاشف: ١/١١١.

الجبهة على الأرض، والمراد به هنا معناه المجازي، وهو الخضوع والتواضع، لأن دخولهم الباب، وجبهتهم على الأرض، متعذر، فتعين الحمل على الخشوع، والرجز بكسر الراء الشيء القذر، والمراد به هنا العذاب.

٣. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ . بعد أن أمرهم الله سبحانه أن يدخلوا بخضوع وخشوع أيضا أمرهم أن يقرنوا الخشوع بقول التضرع والتذلل مثل نستغفر الله، ونسأله التوبة، ليحصل التوافق والتلاؤم بين القول والفعل، تماما كما تقول في ركوعك: سبحان ربي العظيم)، وفي سجودك: سبحان ربي الأعلى).. وليس من الضروري أن يتلفظوا بلفظ (حطة) بالذات وعلى سبيل التعبد، كما قال كثير من المفسرين، ولا أن يكون المراد من حطة العمل الذي يحط الذنوب كما في تفسير المنار نقلا عن محمد عبده، حيث قال ان الله لم يكلّفهم بالتلفظ، إذ لا شيء أيسر على الإنسان منه.. ويلاحظ بأن الله قد كلف عباده بالكلام والتلفظ في الصلاة، وأعمال الحج، وفي الأمر بالمعروف، ورد التحية، وأداء الشهادة، بل وبإخراج الحروف من مخارجها في بعض الموارد.

٤. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي انهم أمروا أن يقولوا ما يستحقون به العفو والصفح والثواب، لكنهم خالفوا، وقالوا ما يستوجبون عليه المؤاخذة والعقاب.

٥. سكت الله سبحانه عن نوع العذاب وحقيقته، ولم يبين لنا: هل هو الطاعون، كما قال البعض، أو الثلج كما ذهب آخرون.. وأيضا سكت عن عدد الذين هلكوا بهذا العذاب: هل هم سبعون ألفا، أو أكثر، أو أقل؟ وعن أمد العذاب ومدته: هل هي ساعة أو يوم؟ لذلك نسكت نحن عما سكت الله عنه، ولا نتكلف بيانه كما تكلفه غيرنا اعتمادا عن قول ضعيف، أو رواية متروكة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ المعروفة عندهم، وقوله: ﴿هَذِهِ﴾ يظهر منه: أنهم كانوا قد قربوا منها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ الذي تدخلون منه ﴿سُجَّدًا﴾ خاضعين لله متذللين بلا عجب ولا كبر، سليمين من سكرة النصر.

٢. عن الحسين بن القاسم عليهما السلام: ومعنى ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا الباب

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١١٩.

خشّعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار، والخشية لله الواحد الجبّار، ولم يرد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه، وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك روينا عن أئمتنا وسلفنا.

٣. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ﴿حِطَّةٌ﴾ بمعنى: حط عنا الذنوب.. قال في (الكشاف): والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطةً، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبوت، كقوله: صبر جميل فكلانا مبتلى، والأصل: صبراً على أصبر صبراً)، لأن أول البيت: [شكى إليّ جملي طول السُّرى].

٤. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ جواب الأمر بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أو الأمرين من قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ وهو عندي أرجح ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً مع غفران الخطايا ونعمة دخول القرية.

٥. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المأمورين بهذا القول، وفي سورة الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [آية: ١٦٢] فظهر أن المبدلين بعضهم.

٦. ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي خالفوا الأمر، وأتوا بدل القول ذلك بقول خلاف المأمور به، ولم يظهر من الآية أنهم فعلوا ذلك استهزاء بالأمر، وليس يجب علينا معرفة ذلك البدل؛ لأن الله أبهمه ولم يبينه، إلاَّ بأنه غير الذي قيل لهم، وذلك محط الفائدة، ولا يبعد أن القول كان كلاماً استدعاه فرحهم بالدخول، وإعجابهم بقوتهم من أغاريد أو غيرها، وما قيل: أنهم قالوا: حنطة) بعيد؛ لأن لغتهم عبرانية، وإنما المذكور من هذه الأوامر ومن قولهم هو ترجمة الواقع، وليس في الحروف موافقاً للكلمات العربية.

٧. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي المبدلين، وفائدة إعادة اللفظ أن لا يتوهم لو قيل عليهم عود الضمير إلى الكل من المأمورين بدخول القرية، ومما ذكر بعده ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً.

٨. قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ يفيد: أنه شيء نزل من السماء، مثل: وباءٌ ينزل في طل أو حر شديد يأتي به حر الشمس، وقد قيل: إنه طاعون ولا يبعد على معنى أنه وبآء نزل.

٩. قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يفيد: أنه عقوبة على جرائمهم كلها، هذه المذكورة وغيرها، ويمكن دخول معصيتهم لموسى حين امتنعوا من دخول القرية، فدعا ربه ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].. يناسب هذا ما ذكره الشرفي في (المصابيح) حيث قال: وفي (البلغة): روي أنّ الآباء هلكوا،

وبقي الأبناء وفيهم الفضل والعبادة).. وحاصل هذا: أن الفاسقين عند دخول القرية هم الفاسقون قبل أربعين سنة.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الظاهر أن المراد بيت المقدس الذي أريد له أن يكون المستقر الذي تتحرك فيه الرسالة من موقع القوة بعد خروج موسى من مصر، باعتبار أن وجود قاعدة الانطلاق في أيّ مشروع رساليّ عام، أمر ضروري في موازين القوى في ساحة الصراع بين الحق والباطل في واقع الحياة العامة، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ من خلال القوة القاهرة التي تملكونها في سيطرتكم على مواقع الجبارين الذين يستضعفون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، لتكون لكم الحرية في الأخذ بما تشاؤون من النعم الموجودة فيها والأكل مما تشتهونه من ثمارها وطيباتها في سعة من العيش الهني.

٢. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾، الظاهر أنه باب البلد، ﴿سُجَّدًا﴾ شكرا لله على نعمته في انتصاركم على الجبارين الظالمين الذين يكفرون به ويصدون عن سبيله كل المؤمنين الصالحين.

٣. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وابتهلوا إلى الله في اعتراف صادق بالتوبة والندم عن كل التاريخ الخاطئ الذي عشتموه في خطاياكم، وقولوا ـ في ابتهالاتكم ـ: اللهم حطّ عنا خطايانا، فإن الله سوف يستجيب لكم ذلك ويغفر لكم خطيئاتكم.

٤. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ لتتحرروا من ثقل الخطيئة وعقدة الإحساس بالذنب؛ ولن يقتصر اللطف الإلهي على غفران الخطايا، بل يمتد إلى الزيادة لكم في أعماركم وأموالكم جزاء لإحسانكم؛ ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا القول والعمل، بالإضافة إلى الإحسان في خط العقيدة والإيمان.

٥. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالانحراف عن الخط المستقيم ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فاستبدلوا الدعاء بالحط عن الخطايا، بإعلان الإصرار على التمرد على الله، والتواضع للحق بالاستكبار عليه، والاحترام للرسول والرسالة وللرساليين بالسخرية والاستهزاء.

٦. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ والظاهر أن المقصود به العذاب، وقيل: إنه

---

(١) من وحي القرآن: ٢/٥٨.

الطاعون بِما كانُوا يَفْسُقُونَ لأن العذاب، دنيويا كان أو أخرويا، لا ينطلق من فراغ، بل ينطلق من السبب الواقعي الذي يتمثل في الفسق العملي في حركة الإنسان على صعيد الانحراف.

٧. في هذا إشارة إلى العلاقة الوثيقة بين العمل الشرير المنحرف عن الحق، وبين النتائج السيئة التي تطال المنحرفين الأشرار من خلال الرابطة العضوية بين السبب والمسبّب، أو المقدمة والنتيجة في نطاق السنن الإلهية التي أودعها الله في حركة الواقع الطبيعي في نظام الكون.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي (ت ١٤٥٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا تذكير بنعمة كفروها فعادت عليهم محنة وبلاء بعدما كانت يسرا وعطاء، وهكذا تنقلب النعمة إذا لم تشكر، وقد أجملت هذه القصة في هاتين الآيتين كما أجملت في آيتي (١٦١، ١٦٢) من سورة الأعراف لأنها كانت معلومة للمخاطبين، فلم يكن داع لشرحها لأن المقصود مجرد تذكيرهم بها، وفي ها الإجمال ما يكفي لأن يكون عبرة للمعتبرين.

٢. لم يتحد التعبير عنها هنا وفي سورة الأعراف، بل تجد تفاوتها في الموضعين في الترتيب، واختلافا في الألفاظ، وذلك لما سأبينه إن شاء الله هناك.

٣. القرية هي الأرض العامرة بالسكان المستقرة بأهلها، مأخوذة من قريت الماء بمعنى جمعته في الحوض، وسميت بذلك لجمعها بيوتا وأسواقا ومعابد ومصانع، وغيرها، من المباني التي تعد من معالم الحضارة، وضروريات المدنية، وفي هذا ما يدل على أن اسم القرية غير خاص بالجامع الصغير للناس، بل يطلق عليها وعلى المدن ذات العمران الواسع.

٤. ما تعورف عليه من التفرقة بين المدينة والقرية بأن الأولى هي المجمع الواسع الذي يضم عددا أكبر من السكان ودورا أوسع في العمران، والثانية ما كان على العكس من ذلك هو اصطلاح ناشئ لا تحمل عليه عبارات القرآن، بل استعمال القرآن يدل على خلاف ذلك، فإن الله سبحانه عندما يذكر أهل القرى يريد بهم أولئك الجبارين الذين استعلوا على الخلق، وأنفروا من الحق، وكذبوا الرسل، وعاثوا في الأرض فسادا، وآذوا الناس بالقهر، وقد وصفهم عموما بأنهم كانت حضارات راقية، وقوى مكينة

---

(١) تفسير الخليلي: ٣/٢٨٩.

واسعة، فاسمعوا إن شئتم إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾؛ وتجدون فيما وصف الله به عادا وثمود وقوم فرعون وغيرهم ما يدلكم على أنهم كانت لهم مدن واسعة مغرية بسعة عمرانها وكثرة سكانها، ومع ذلك فقد سماهم الله أهل القرى في مواضع من كتابه كالذي تجدونه في سورة هود بعد أن قص الله نبأ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وأصحاب مدين وقوم لوط وفرعون وآله حيث قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، وحكى الله عن أبناء يعقوب قولهم: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، مع العلم بأنهم كانوا في بلدة جمعت فيها خزائن الأرض، والتقت فيها القوافل، وتزاحمت بها الأقدام، وهذا ما لا يكون عادة إلا في المدن الكبرى التي اصطلحوا على تسميتها عواصم وحكى عن المشركين قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ومرادهم مكة والطائف، وكلتا البلدتين كانتا من البلدان العربية المتسعة المعمران.

٥. اختلف في هذه القرية:

أ. قيل: هي بيت المقدس، وهو قول قتادة والسدي والربيع أخرجه عنهم ابن جرير، واستدل له بقول الله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وتُعقِّب بأنهم لم يدخلوا الأرض المقدسة في أيام موسى عليه السلام لأن موسى مات في التيه وقد افتتحوها بعدما خرجوا منه بقيادة خليفته يوشع بن نون عليهما السلام، ورد بأن قائل: ﴿ادخلوا القرية﴾ مبهم فلا يلزم أن يكون موسى، ولا مانع أن يكون يوشع، وهذا الرد مردود بما في سورة المائدة، فإن الآية قبل قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ صريحة بأن قائل ذلك موسى عليه السلام، وذلك قوله سبحانه: ﴿إذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾، وكذا المحكي عنهم من جوابهم له وهو قولهم: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، فلا يستقيم تفسير القرية بالأرض المقدسة إلا مع القول بأن موسى هو قائل ذلك لهم، اللهم إلا أن يقال إن القصة المحكية هنا وفي سورة الأعراف غير المحكية في سورة المائدة وذلك أن ما في سورة المائدة كان قبل معاقبتهم بالتيه بل كانت تلك المعاندة منهم هي سبب وقوعهم فيه كما هو واضح

من قوله تعالى ردا على شكوى موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، أما هذه القصة فهي قصة دخولهم الأرض المقدسة بعد مقاتلتهم للجبارين في عهد يوشع عليه السلام، وذلك بعد خروجهم من التيه، وكان هذا الأمر على لسان يوشع، وهذا هو الذي يتعين في الجمع بين شتات هذه المحكيات.

ب. وقيل هي أريحاء وهي قريبة من بيت المقدس، روى ذلك ابن جرير عن ابن زيد، وبه صدر القطب في هيميانه وتيسيره، وذهب بعضهم إلى أن هذا الأمر نفسه كان على لسان موسى، وأنه عين ما ذكر في سورة المائدة وأن مخالفتهم له هي المقصودة بالتبديل.

ج. وقيل: إن المراد بالقرية الشام كله، وهو قول ابن كيسان، قال الضحاك هي الرملة، والأردن، وفلسطين، وتدمر.

د. ذهب ابن عاشور إلى أن القرية هي مدينة حبرون، وأن المأمورين بدخولهم هم اثنا عشر رجلا بعثهم موسى عليه السلام عيونا إلى أرض كنعان ليكتشفوا خبرها.. وذكر أن هذا هو التفسير الصحيح المنطبق على التأريخ الصحيح، وطبّق ابن عاشور نصوص القرآن الواردة في هذه القصة على هذا إلي ذكره منقولا من مصادر أهل الكتاب.

هـ. توقف محمد عبده عن تعيين هذه القرية، وقال: نسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن، فقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة، وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله، خاضعين لأمره مستشعرين عظمته وجلاله، ونعمه وأفضاله)

٦. قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ دال على أن هذه القرية جعلها الله لهم مآبا ومنقلبا، فلذلك أباح لهم الأكل منها حيث شاءوا وإذا ما قارنتم ذلك بقوله تعالى في الأرض المقدسة: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ اتضح لكم أن هذه القرية هي نفس الأرض المقدسة، ولأجل ملاحظة هذا المعنى قال من قال أنها جميع بلاد الشام ذلك لأن بني إسرائيل استخلفهم الله فيها فكانت موطن عزهم وتحت مملكتهم.

٧. اختلف في الباب الذي أمروا بدخوله:

أ. قيل: هو باب القرية.

ب. وقيل: هو باب من أبواب بيت المقدس، روى ذلك عن ابن عباس وغيره.

ج. وقيل: ما يعرف اليوم بباب حطة، وقد تعاقب المفسرون زمنا بعد زمن على نقل ذلك عنه والاعتماد عليه، فكانوا يقولون إنه يعرف اليوم بباب حطة، وممن قال ذلك الألوسي في تفسيره، وهو من علماء القرن الثالث عشر، وهذا من التقليد الأعمى، فإن من شأن الأحوال أن تتحول، فلا بد ـ مع مضي العصور ـ أن تتغير الأبواب وتختلف الأعراف.

د. وقيل: هو باب القبة التي كان يتجه إليها موسى وهارون عليهما السلام في صلاتهما.

هـ. وقيل: ليس المراد بالباب حقيقته المعروفة، وإنما يراد به مدخل إلى القرية، وقد وصفه بعضهم بأنه مدخل بين جبلين.

٨. أمروا أن يدخلوا سجدا تواضعا لله وشكرا له على ما أنعم به من نعمة الاستخلاف في الأرض، واختلف في المراد بالسجود:

أ. قيل: هو طأطأة الرأس وحني الظهر تواضعا لله سبحانه، وسمي سجودا لما فيه من الخضوع للمقام الأعلى، وأصل السجود الانحناء لمن سجد له معظما بذلك، فكل منحنٍ لشيء تعظيما له فهو ساجد.

ب. وقيل: السجود على ظاهره، واعترض بأن السجود سكون، والدخول حركة فيتعذر أن يجتمعا.

ج. قال الزمخشري: أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرا لله وتواضعا؛ واعترضه أبو حيان بأن ما ذكره ليس مدلول الآية لأنهم لم يؤمروا بالسجود، في الآية عند الانتهاء إلى الباب، بل أمروا بالدخول في حال السجود، فالسجود ليس مأمورا به، بل هو قيد في وقوع المأمور به وهو الدخول، والأحوال نسب تقييدية، والأوامر نسب إسنا دية، فتناقضتها إذ يستحيل أن يكون الشيء تقييديا اسناديا لأنه من حيث التقييد لا يكتفي كلاما، ومن حيث الإسناد يكتفي، فطهر التناقض، ورده الشوكاني بأن الأمر بالمقيد أمر بالقيد، فمن قال أخرج مسرعا فهو آمر بالخروج على هذه الهيئة، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفا للأمر، ولا ينافي هذا كون الأحوال نسبا تقييدية، فإن اتصافها بكونها قيودا مأمورا بها هو شيء زائد على مجرد التقييد.

د. لابن عاشور في هذا الأمر بالسجود تفسير يتلاءم مع ما ذكره في تفسير الأمر بدخول القرية، وحاصل ما قاله أن المقصود بالسجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كي لا يفطن لهم أهل

القرية، وهو مما تقتضيه مهمة التجسس التي بُعثوا من أجلها، واستبعد أن يكون السجود المأمور به سجود شكر، لأنهم كانوا عيونا ولم يكونوا فاتحين، واستظهر مما جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على أستاههم أنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفرطوا في التصنع بحيث يكاد أمرهم يفتضح لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره.

٩. الحطة مصدر دال على الهيئة من حط يحط بمعنى أسقط، واختلف في المراد بها:

أ. قيل: إنها بمعنى حط الأوزار، وعليه فيقدر مبتدأ محذوف، أي مسألتنا حطة، وهو تعبير عن طلبهم الله أن يحط أوزارهم، ولما كان هذا المصدر بصيغة فعلة ـ بكسر الفاء ـ الدالة على الهيئة، حُمل على طلب نوع عظيم من الحط، وهو حط كبار الأوزار، ويعني ذلك اعترافهم بارتكابهم الكبائر مع سؤالهم غفرانها.. وهو الأشهر، أخرجه ابن جرير عن الحسن وقتادة، وأخرج معناه عن ابن عباس وابن زيد والربيع وعطاء بألفاظ مختلفة منها أن الحطة عبارة عن الاستغفار باللسان، وجنح إلى هذا الرأي الفخر الرازي، وقال: إنه أحسن الوجوه وأقربها إلى التحقيق، وعليه اعتمد ابن جرير، ولا داعي إلى اعتبار العبارات المختلفة المحكية عن السلف، والمؤثرة في الكتب ـ مع اتفاقها في هذا المعنى ـ آراء متباينة فإن الخلف في ذلك لفظي فحسب.

ب. وقيل: يُقَدر أمرنا حطة، وهو محمول على أنهم مأمورون بأن يعبروا عما هم مأمورون به وواجب عليهم امتثاله من حط الرحال في تلك القرية تعبيرا عن الامتثال.

ج. ذهب ابن إلى أن كلمة حطة إما أن تكون كلمة معروفة في ذلك المكان للدلالة على العجز أو أنها من أقوال المستولين والشحاذين كي لا يحسب لهم أهل القرية حسابا ولا يأخذوا حذرا منهم فيكون القول الذي أمروا به قولا يخاطبون به أهل القرية، وضعف ابن عاشور القولين الأولين لاستبعاده الدعاء بمصدر مرفوع، وهو مع التأمل غير بعيد في بعض الأحوال لورود مثله في الطلب.

١٠. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

١١. بنو إسرائيل لشر منزعهم، وفساد طباعهم، وانحراف فطرهم بدأبهم على التمرد والعصيان أضاعوا هذه الفرصة، وزهدوا فيما وعدوا به، فانقلب الوعد وعيدا، وتحولت النعمة إلى نقمة، ذلك بأنهم

كفروا نعمة ربهم، وهكذا تكون عاقبة الكنود الجحود، فقد بدل أولئك قولا غير الذي قيل لهم، وذلك أنهم دخلوا زاحفين على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة.

١٢. الروايات في كيفية التبديل متعددة، والجمع بينهما محتمل بأن يكونوا قالوا كل ذلك سخرية واستخفافا، وقد أخذ بهذه الروايات جمهور المفسرين، وخالفهم أبو مسلم الأصفهاني من المتقدمين، فحمل التبديل على مطلق المخالفة سواء دخلوا على غير الوجه المطلوب أو لم يدخلوا رأسا، لأن في كل ذلك تبديلا لما أمروا به، فهو تبديل لقول الله واستشهد لتفسيره هذا بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، فإن التبديل المقصود هنا لا يُقصد به وضع كلمة مكان أخرى، وما هو إلا مجرد مخالفتهم لحكم الله، وانتقد الألوسي قول أبي مسلم وقال: ﴿ظاهر الآية والأحاديث تكذبه﴾

١٣. وافق أبا مسلم من مفسري المتأخرين محمد عبده ومحمد رشيد رضا في سورتي البقرة والأعراف، وقد عد محمد عبده الروايات المنقولة من الإسرائيليات التي لا يجوز أن يُحشى بها تفسير كلام الله، ووجه محمد رشيد كلامه بما حاصله أن حديث أبي هريرة، وإن روى في الصحيحين لم يثبت رفعه لاحتمال أن يكون أبو هريرة سمعه من كعب الأخبار لعدم تصريحه بسماعه من النبي ﷺ، وعلى أن رواية عن أبي هريرة همام بن منبه أخو وهب وهما صاحبا الغرائب في الإسرائيليات، وهذا ليس بشيء، فإن أبا هريرة صرح - كما في رواية البخاري في التفسير وأحاديث الأنبياء - بإسناد هذا القول إلى النبي ﷺ، فلم يبق مجال للشك الذي ذكره صاحب المنار.

١٤. الرجز العذاب وبه فسره قتادة أخرجه عنه ابن جرير، وأخرج عن أبي العالية أنه الغضب، وعن ابن زيد أنه الطاعون، ولا تعارض بين هذه الأقوال، فالطاعون من أنواع العذاب إلي يصيب الله به الأمم، وعندما يكون عقوبة على معصية فهو مقرون بغضب الله، وقد ثبت عن أسامة بن زيد، وسعد بن مالك، وخزيمة بن ثابت أن النبي ﷺ قال: إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عُذب به أناس من قبلكم)، ولا ينافي ذلك ما ثبت علميا أنه ينشأ عن تلوث البيئة، فإن الله سبحانه هو أذي يهيئ لكل أمر أسبابه، فإذا أراد عقوبة قوم بما قدمت أيديهم هيأ لها أسبابها عادية كانت أو غير عادية، وتعيين الرجز أنه من السماء إنما هو لما أعتيد عند الناس من جعل السماء مصدرا للنوازل.

١٥. إسناد التبديل إلى الذين ظلموا للإفادة بأنه ظلم، وكذلك قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مع إمكان الاستغناء بالضمير لو قيل فأنزلنا عليهم للإفادة بأن ظلمهم سبب لإنزال الرجز، لأن الحكم على المشتق يؤذن بعليته، والاسم الموصول وصلته في حكم المشتق، وأجاز محمد عبده أن يكون ذكر الذين ظلموا في الموضعين للإفادة بأن التبديل وإنزال الرجز خاصان بطائفة منهم دون سائرهم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. القرية كل مكان يعيش فيه جمع من النّاس، ويشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافا لمعناها الرائج المعاصر، والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

٢. كلمة (حطّة) في اللغة، تأتي بمعنى التناثر والمراد منها في هذه الآية الشريفة، آلهنا نطلب منك أن تحطّ ذنوبنا وأوزارنا.

٣. أمرهم الله سبحانه أن يردّدوا من أعماق قلوبهم عبارة الاستغفار المذكورة، ويدخلوا الباب، ويبدو أنه من أبواب بيت المقدس، وقد يكون هذا سبب تسمية أحد أبواب بيت المقدس (باب الحطة)

٤. الآية تنتهي بعبارة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أن المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافة إلى غفران الخطايا.

٥. يحدثنا القرآن الكريم عن عناد مجموعة من بني إسرائيل حتى في ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة أخرى فيها معنى السخرية والاستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾

٦. كانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب الله حيث يقول: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، و(الرجز) أصله الاضطراب ـ كما يقول الراغب في مفرداته ـ ومنه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.. ويقول الطبرسي: إنّ الرجز يعني العذاب عند أهل الحجاز، ويروي عن الرّسول ﷺ قوله بشأن مرض الطاعون: إنّه رجز عذّب به بعض الأمم قبلكم)، ومن هنا يتضح سبب تفسير (الرجز) في بعض الروايات أنه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بني إسرائيل وأهلك جمعا منهم.

---

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٣٨.

٧. قد يقال: إن الطاعون لا ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير إلى حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون الذي هبّ بأمر الله آنذاك في بيئة بني إسرائيل.. ويلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطرابا في المشي والكلام، وهذا يتناسب مع أصل معنى (الرجز) تماما.

٨. يؤكد القرآن الكريم أن هذا العذاب نزل ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فقط، ولم يشمل جميع بني إسرائيل، ثم يذكر تأكيدا آخر على سبب نزول العذاب على هذه المجموعة من بني إسرائيل بعبارة: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

٩. الآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن الله تعالى، هي أن الذنب حينما يتعمق في المجتمع ويصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهي.

٢٣. موسى والاستسقاء لقومه

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

الخراساني:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) أنّه قال: كان للحجر أربعة وجوه، لكل وجه ثلاثة أعين، لكل سبط عين، كان يضربه موسى اثنتي عشرة ضربة، فيظهر على موضع كل ضربة مثل ثدي المرأة، فيعرق، ثم يتفجر الأنهار، ثم تسيل[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ قال ذلك في التيه؛ ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، في كل ناحية منه ثلاث عيون، لكل سبط عين، ولا يرتحلون منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر منهم بالمكان الذي كان به منهم في المنزل الأول[٢].

٢. روي أنه قال: كان حجرا خفيفا مربعا على قدر رأس الرجل، كان يضعه في مخلاته، فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه[٣].

---

(١) تفسير البغوي: ١/١٠٠.

(٢) ابن جرير: ٢/٦.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٣.

٣. روي أنّه قال: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهارا[١].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لا تسعوا في الأرض[٢].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تسعوا في الأرض فسادا[٣].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: هو الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل، ففر بثوبه، ومر به على ملأ من بني إسرائيل حين رموه بالأدرة، فلما وقف أتاه جبرائيل، فقال: إن الله تعالى يقول: ارفع هذا الحجر، فلي فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فرفعه، ووضعه في مخلاته[٤].

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: ولا تمشوا بالمعاصي[٥].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: انفجر لهم الحجر بضربة موسى اثنتي عشرة عينا، كل ذلك كان في تيههم حين تاهوا[٦].

٢. روي أنّه قال: استسقى موسى لقومه، فقال: [اشربوا، يا حمير؟]، فقال الله تعالى له: لا تسم

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٢١.

(٢) ابن جرير: ٢/١١.

(٣) ابن جرير: ٢/١٠.

(٤) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٣.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/١٢٢.

(٦) ابن جرير: ٢/٧.

عبادي: حميرا[1].

العوفي:

روي عن عطية العوفي (ت ١١٢ هـ) أنّه قال: وجعل لهم حجرا مثل رأس الثور، يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلا وضعوه، فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فاستمسك الماء[2].

منبه:

روي عن وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: كان موسى عليه السلام يقرع لهم أقرب حجر من عرض الحجارة، فيتفجر لهم عيونا، لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطا، ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أمر بسقيهم[3].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الآية، قال كان هذا في البرية حيث خشوا الظمأ، استسقى موسى، فأمر بحجر أن يضربه بعصاه، وكان حجرا طورانيا من الطور يحملونه معهم، حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، قال لكل سبط منهم عين معلومة يستفيد ماءها[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تسيروا في الأرض مفسدين[5].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ معناه لا تفسدوا فيها.. ويقال: عاث في الأرض وعثا إذا أفسد[6].

---

(١) الدرّ المنثور: ابن أبي شيبة.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١٢١.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٣.

(٤) الدرّ المنثور: عبد بن حميد. وابن جرير: ٢/٦.

(٥) عبد الرزاق: ٢/٣١١.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

أبو روق:

روي عن أبي روق عطية بن الحارث الهمداني (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: كان الحجر من الكذان، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة، ينبع من كل حفرة عين ماء عذب فرات فيأخذوه، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه، فيذهب الماء، [وكان يسقي كل يوم ستمائة ألف؟][1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وهم في التيه، قالوا: من أين لنا شراب نشرب؟ فدعا موسى عليه السلام ربه أن يسقيهم، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، وكان الحجر خفيفا مربعا، فضربه، ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ من الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، فرووا بإذن الله تعالى، وكانوا اثني عشر سبطا، لكل سبط من بني إسرائيل عين تجري على حدة، لا يخالطهم غيرهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، يعني: كل سبط مشربهم، يقول الله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ من المن والسلوى، ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من العيون، وهو من رزق الله حلالا طيبا، فذلك قوله سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٨١]... وكان موسى عليه السلام إذا ظعن حمل الحجر معه، وتنصب العيون منه، ثم إنهم قالوا: يا موسى، فأين اللباس؟ فجعلت الثياب تطول مع أولادهم، وتبقى على كبارهم، ولا تمزق، ولا تبلى، ولا تدنس، وكان لهم عمود من نور يضيء لهم بالليل إذا ارتحلوا وغاب القمر[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: لا تعلوا، ولا تسعوا في الأرض ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يقول: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي، فرفعوا من المن والسلوى لغد، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١]، يقول: لا ترفعوا منه لغد[3].

ابن العلاء:

---

(١) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٣.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١١٠.

(٣) تفسير مقاتل: ١/١١١.

روي عن أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) أنّه قال: انبجست: عرقت وانفجرت، أي: سالت[1].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تطغوا في الأرض مفسدين، لا تعث: لا تطغ[2].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ حجر كان مع موسى صلى الله عليه، يحمله بين يديه على حماره، وذلك: أنه لما استسقى الله سبحانه لقومه إذ عطشوا ـ أمره أن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا)

٢. سؤال وإشكال: هل كان حجرا كبيرا راسيا، أم لم يكن بكبير راسي؟ والجواب: لم يكن إلا حجرا صغيرا، وكانت الآية في الصغير المحمول المتحرك المنقول ـ عظيمة جليلة، أعظم أمرا من الحجر الرأسي؛ لأنه لو كان رأسيا ـ لقال فيه القائل: إن الماء ينبع من الأرض في الحجر، فلما أن كان حجرا صغيرا يحمل ـ كانت آيته جليلة عظيمة باهرة، من آيات الله الجليلة؛ أن يكون حجر معلق على ظهر حمار، يضرب فينتج منه اثنتا عشرة عينا، يسقي من الناس خلقا عظيما.. وهذا لا يستنكر من فعل الله سبحانه؛ لأنه ذو العظمة والسلطان، القادر على ما أراد، لا راد لحكمه، وليس انبثاق الماء من الحجر بأعظم من خلق الماء من لا شيء، ولا بأعظم من خلق السماء من الدخان، والأرض من الحراقة، وخلق الخلق من طين، عز وجل ربنا الواحد الكريم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[4]:

---

(١) تفسير البغوي: ١/١٠٠.

(٢) ابن جرير: ٢/١٠.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٤٣.

(٤) تأويلات أهل السنة: ١/٤٧٢.

١. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ يعنى: طلب الماء لقومه عند حاجتهم إليه؛ فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه: أن اضرب بعصاك الحجر.

٢. أراهم الله تعالى من عصاه آيات عجيبة، من نحو الثعبان الذي كان يتلقف ما يأفكون؛ كقوله: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]، وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]، ومن ضربه البحر بها حتى انفلق؛ كقوله: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ومن ضربه الحجر بها، وانفجار العيون منه، وغير ذلك من الآيات مما يكثر، ذكرها عزّ وجل من آيات رسالته، وآيات نبوته.

٣. فيما أرى منها، من عجيب آياته: دلالة حدوث العالم وإبداعه، لا من شيء لأنه ـ عزّ وجل ـ قد أخرج بلطفه، من حجر يصغر في نفسه ـ مما يحمل من مكان إلى مكان ـ من الماء ما يكفى لخلق لا يحصى عددهم إلا الله، وفجر منه أنهارا، لكل فريق نهر على حدة.

٤. لا يحتمل: كون ذلك الماء بكليته فيه، لصغره وخفته، ولا كان ينبغي ذلك من أسفله، فإذا كان هذا كما ذكرنا ظهر أن الله ـ عزّ وجل ـ كان ينشئ ذلك الماء فيه، ويحدث من لا شيء لأن ذلك الحجر لم يكن من جوهر الماء، ولا من أصله، فإذا كان قادرا على هذا فإنه قادر على إنشاء العالم من لا شيء سبق، ولا أصل تقدم.

٥. وكذلك ما أراهم ـ عزّ وجل ـ من العصا: الثعبان والحية، لم يكونا من جوهرها، ولا من أصلها، ولا تولدها منها، بل أنشأ ذلك وأبدع، بلطفه.

٦. ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قيل: كانوا اثنى عشر سبطا؛ لقوله: ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] وهم بنو يعقوب؛ فجعل لكل سبط نهرا على حدة، فانضم كل فريق إلى أبيهم الذي كانوا منه، ولم ينضموا إلى أعمامهم وبنى أعمامهم.

٧. في الآية الكريمة دلالة على:

أ. أن المواريث لا تصرف إلى غير الآباء إلا بعد انقطاع أهل الاتصال بالآباء.

ب. على أن القوم في الصحارى والبوادي ينزلون مجموعين غير متفرقين، ولا متباعدين بعضهم من بعض بحيث يكون بعضهم عونا لبعض وظهيرا؛ لأنهم نزلوا جميعا في موضع واحد، مجموعين ـ مع

كثرتهم وازدحامهم ـ غير متفرقين ولا متباعدين، وإن كان ذلك أنفع لهم، وأهون عليهم، من جهة الرعي والربع وسعة المنازل.. وقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أي موردهم.

ج. على قطع التنازع، ودفع الاختلاف من بينهم؛ لما بين لكل فريق منهم موردا على حدة.. ولو كان مشتركا لخيف وقوع التنازع والاختلاف بينهم، وفي وقوع ذلك بينهم قطع الأنساب والأرحام.

٨. قوله: ﴿كُلُوا﴾ يعني: المنّ والسلوى.

٩. قوله: ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من رزق الله، من الماء الذي أخرج لهم من الحجر، وكلاهما رزق الله، الذي ساقه إليهم، من غير تكلف ولا مشقة.

١٠. قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

أ. قيل: لا تسعوا في الأرض بالفساد.

ب. ويحتمل: لا تعثوا، أي لا تفسدوا؛ لأن العثوّ هو الفساد نفسه، كأنه قال لا تفسدوا في الأرض؛ فتكونوا مفسدين.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الاستسقاء طلب السقي والعرب تقول: سقيته وأسقيته قيل إنهما لغتان ومعناهما واحد وقيل: سقيته أعطيته ماء يشربه وأسقيته دللته عليه.

٢. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الانفجار الانبجاس والانشقاق أضيق منه لأنه يكون انبجاساً ثم يصير انفجاراً والعين متشابهة فالعين من الماء بمنزلة العين من الإنسان لخروج الماء منه كخروج الدمع من العين التي للحيوان فأمر موسى عند استسقائه أن يضرب بعصاه حجراً مربعاً طورياً من جبل الطور فانفجرت اثنتا عشرة عيناً من كل جانب ثلاثة أعين.

٣. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ يعني أن لكل سبط منهم عيناً قد عرفها لا يشربون من غيرها وإذا ارتحلوا انقطع ماؤها وحمل في الغرارة.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٥٧.

٤. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ومنه قول رؤبة: عاث فينا مستخص عابث[1].

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ تقديره: وإذ استسقانا موسى لقومه، والاستسقاء: طلب السّقي، والعرب تقول: سقيته، وأسقيته، فقيل: إنهما لغتان ومعناهما واحد، وقيل بل سقيته من سقي الشّفة، وأسقيته: دللته على الماء.

٢. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ في الكلام محذوف، وتقديره: فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا.. والانفجار: الانشقاق، والانبجاس أضيق منه، لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا.. والعين من الأسماء المشتركة: فالعين من الماء مشبّهة بالعين من الحيوان، لخروج الماء منها، كخروج الدمع من عين الحيوان.

٣. أمر موسى عليه السلام عند استسقائه، أن يضرب بعصاه حجرا مربّعا طوريّا (من الطور)، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، من كل جانب ثلاثة أعين.

٤. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ يعني أن لكلّ سبط منهم عينا، قد عرفها لا يشرب من غيرها، فإذا ارتحلوا انقطع ماؤه، وحمل في الجوالق، وكان بقدر الرأس.

٥. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: معناه لا تطغوا، وهذا قول ابن زيد.

ب. الثاني: معناه لا تسعوا في الأرض مفسدين، وهو قول ابن عباس، وأبي العالية الرياحي.

٦. العيث: شدة الفساد، ومنه قول رؤبة:

وعاث فينا مستحلّ عائث ... مصدّق أو فاجر مناكث

لطوسي:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٥٧.

(٢) تفسير الماوردي: ١/١٢٨.

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت

١.﴿وَإِذَا﴾ متعلق بكلام

٢.المعنى الذي سال موسى إذا

٣.قوم موسى هم بنو إسرائيل

٤.اختلف في الحجر:

أ.روي عن ابن عباس انه قال: ضربه موسى بالعصى فيه ففجر

ب.وقال قوم: بانه امر بان

٥.الانفجار، والانشقاق،

٦.العين من الأسماء المشتركة،

٧.نصب عيناً على التمييز، وعند

٨.من آيات الله العجيبة انفجار

٩.﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ لا ينافي قوله

أ.قيل: لأن الانبجاس: هو

ب.وقيل: إنه لا يمتنع أن يكون

١٠.﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ

١١.﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

١٢.انما قال ﴿لا تَعْثَوْا فِي

الجشمي:

---

(١) تفسير الطوسي: ١/٢٧٠.

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤

١.شرح مختصر للكلمات:

أ.الاستسقاء: طلب السقيا،

ب.العصا: عُود صُلْبٌ، يقال:

ج.الفجر: الشق في الأصل،

د.العين مشترك: عين الإنسان،

هـ.المشرب: موضع الشرب،

و.العَيْثُ: الفساد، عاث يعيث

٢.عَدَّ الله تعالى نعمة أخرى

أ.قيل: في التيه، عن أبي علي

ب.وقيل: لم يكن في التيه، عن

٣.﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ﴾ يعني

أ.قيل: هو عصاه المعروف،

ب.وقيل: كان يقرع حجرًا بعينه

ج.وقيل: كان حجرًا بعينه يدل

د.وقيل: كان حجرًا خفيفًا إذا

هـ.وقيل: كان حجرًا فيه اثنتا

٤.﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ يعني ضرب

أ.قيل: كان يضرب عليه العصا

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/٤٠٧.

ب.وقيل: كان يضع عليه

٥.قيل ههنا: ﴿انفجرت﴾،

أ.قيل: كان ابتداؤه انبجاسًا، ثم

ب.وقيل: كان ينفجر عند

ج.وقيل: كان ينبجس عند

٦.سؤال وإشكال: من أين

٧.﴿مِنْهُ﴾ يعني من الحجر

٨.﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ

٩.﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ وقيل: لأن الفساد أعم من

١٠.تدل الآية الكريمة:

أ.على معجزة عظيمة لموسى

ب.على نعمة عظيمة على بني

ج.على أن الرزق هو الحلال؛

د.على النهي عن الفساد

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨

١.شرح مختصر للكلمات:

أ.الاستسقاء: طلب السقيا،

ب.عصا: يقال: عصا وعصوان

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٥٦.

ج.الانفجار: الانشقاق،

د.العين: من الأسماء المشتركة،

هـ.لا تعثوا أي: ولا تفسدوا ولا

٢.عدّ الله تعالى على بني إسرائيل

٣.قوم موسى هم بنو إسرائيل

٤.اختلف في الحجر:

أ.قيل: كان يقرع لهم حجرا من

ب.وقيل: كان حجرا بعينه

ج.وقيل: كانت حجرة فيها اثنتا

د.وقيل: أنه كان حجرا مربعا،

٥.﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

أ.قيل: لأن الانبجاس هو

ب.وقيل: أنه لا يمتنع أن يكون

ج.وقيل: كان ينبجس عند

د.وقيل: كان ينبجس عند

٦.﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ

٧. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي وقلنا

٨.﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ أي لا تسعوا في

٩.سؤال وإشكال: كيف يجتمع

١٠.مسائل نحوية:

أ.﴿إِذِ﴾: متعلق بكلام محذوف،

ب.قوله: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾

ج.﴿عَيْنًا﴾: منصوب على

د.﴿مُفْسِدِينَ﴾: منصوب على

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت

١.﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى

٢.في (الحجر) قولان:

أ.أحدهما: أنه حجر معروف

• أحدها: أنه كان حجرا مربعا،

• الثاني: كان مثل رأس الثور،

• الثالث: مثل رأس الشاة، قاله

قال سعيد بن جبير: هو الذي

ب.الثاني: أنه أمر بضرب أي

٣.﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ تقدير

٤.لما كان القوم اثني عشر

٥.﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ .العثو: أشدّ

لو لا الحياء وأنّ رأسي قد عثا　　　فيه المشيب لزرت أمّ القاسم

---

(١) زاد المسير: ١/٧١.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا هو الإنعام التاسع من الإنعامات المعدودة على بني إسرائيل، وهو جامع لنعم الدنيا والدين:

أ. أما في الدنيا: فلأنه تعالى أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء، ولولاه لهلكوا في التيه، كما لولا إنزاله المن والسلوى لهلكوا، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، بل الإنعام بالماء في التيه أعظم من الإنعام بالماء المعتاد لأن الإنسان إذا اشتدت حاجته إلى الماء في المفازة وقد انسدت عليه أبواب الرجاء لكونه في مكان لا ماء فيه ولا نبات، فإذا رزقه الله الماء من حجر ضرب بالعصا، فانشق واستقى، منه علم أن هذه النعمة لا يكاد يعدلها شيء من النعم.

ب. أما كونه من نعم الدين: فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه، ومن أصدق الدلائل على صدق موسى عليه السلام.

٢. اختلف في وقت الاستسقاء:

أ. أجمع جمهور المفسرين على أن هذا الاستسقاء كان في التيه، لأن الله تعالى لما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل ثيابهم بحيث لا تبلى ولا تتسخ خافوا العطش فأعطاهم الله الماء من ذلك الحجر، ويدل عليه وجهان:

- أحدهما: أن المعتاد في البلاد الاستغناء عن طلب الماء إلا في النادر.
- الثاني: ما روي أنهم كانوا يحملون الحجر مع أنفسهم لأنه صار معداً لذلك، فكما كان المن والسلوى ينزلان عليهم في كل غداة فكذلك الماء ينفجر لهم في كل وقت، وذلك لا يليق إلا بأيامهم في التيه.

ب. أنكر أبو مسلم حمل هذه المعجزة على أيام مسيرهم إلى التيه، فقال: بل هو كلام مفرد بذاته.

٣. معنى الاستسقاء: طلب السقيا من المطر على عادة الناس إذا أقحطوا، ويكون ما فعله الله من

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٥٢٨/٣.

تفجير الحجر بالماء فوق الإجابة بالسقيا وإنزال الغيث، والحق أنه ليس في الآية ما يدل على أن الحق هذا أو ذاك وإن كان الأقرب أن ذلك وقع في التيه.

٤. اختلفوا في العصا:

أ. قيل: كانت عصا أخذها من بعض الأشجار، قاله الحسن.

ب. وقيل: كانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة.

٥. الذي يدل عليه القرآن أن مقدار العصا كان مقداراً يصح أن يتوكأ عليها وأن تنقلب حية عظيمة ولا تكون كذلك إلا ولها قدر من الطول والغلظ وما زاد على ذلك فلا دلالة عليه.. والسكوت عن أمثال هذه المباحث واجب لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع، ولا يتعلق بها عمل حتى يكتفى فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها.

٦. اللام في ﴿الْحَجَرِ﴾:

أ. إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم:

• روي أنه حجر طوري حمله معه وكان مربعاً له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين تسيل في جدول إلى ذلك السبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلًا.

• وقيل: أهبط مع آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا.

• وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ففر به، فقال له جبريل: يقول الله تعالى: ارفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته.

ب. وإما للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمروه أن يضرب حجراً بعينه، وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة، وروي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة فحمل حجراً في مخلاته فحينما نزلوا ألقاه، وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر ويضربه بها فييبس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحى الله إليه لا تقرع الحجارة، وكلمها تطعك.

٧. اختلفوا في صفة الحجر:

أ. قيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع.

ب. وقيل: مثل رأس الإنسان، والمختار عندنا تفويض علمه إلى الله تعالى.

٨. الفاء في قوله: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ متعلقة بمحذوف أي فضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت.

٩. سؤال وإشكال: هل يجوز أن يأمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر فينفجر من غير ضرب حتى يستغني عن تقدير هذا المحذوف؟ والجواب: لا يمتنع في القدرة أن يأمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر، ومن قبل أن يضرب ينفجر على قدر الحاجة:

أ. لأن ذلك لو قيل إنه أبلغ في الإعجاز لكان أقرب، لكن الصحيح أنه ضرب فانفجرت لأنه تعالى لو أمر رسوله بشيء، ثم إن الرسول لا يفعله لصار الرسول عاصياً.

ب. ولأنه إذا انفجر من غير ضرب صار الأمر بالضرب بالعصا عبثاً، كأنه لا معنى له.

ج. ولأن المروي في الأخبار أن تقديره: فضرب فانفجرت كما في قوله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] من أن المراد فضرب فانفلق.

١٠. ذكر الله تعالى هاهنا: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ وفي الأعراف: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦] وبينهما تناقض، لأن الانفجار خروج الماء بكثرة والانبجاس خروجه قليلًا، والجواب من ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: الفجر الشق في الأصل، والانفجار الانشقاق، ومنه الفاجر لأنه يشق عصا المسلمين بخروجه إلى الفسق، والانبجاس اسم للشق الضيق القليل، فهما مختلفان اختلاف العام والخاص، فلا يتناقضان.

ب. ثانيها: لعله انبجس أولًا، ثم انفجر ثانياً، وكذا العيون: يظهر الماء منها قليلًا ثم يكثر لدوام خروجه.

ج. ثالثها: لا يمتنع أن حاجتهم كانت تشتد إلى الماء فينفجر، أي يخرج الماء كثيراً ثم كانت تقل فكان الماء ينبجس أي يخرج قليلًا.

١١. سؤال وإشكال: كيف يعقل خروج المياه العظيمة من الحجر الصغير؟ والجواب: هذا السائل إما أن يسلم وجود الفاعل المختار أو ينكره:

أ. فإن سلم فقد زال السؤال، لأنه قادر على أن يخلق الجسم كيف شاء كما خلق البحار وغيرها.

ب. وإن نازع فلا فائدة له في البحث عن معنى القرآن، والنظر في تفسيره.

وهذا هو الجواب عن كل ما يستبعدونه من المعجزات التي حكاها الله تعالى في القرآن من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

١٢. لا يمكن للفلاسفة القطع بفساد ذلك، لأن العناصر الأربعة لها هيولى مشتركة عندهم، وقالوا: إنه يصح الكون والفساد عليها، وإنه يصح انقلاب الهواء ماء وبالعكس، وكذلك قالوا: الهواء إذا وضع في الكوز الفضة جمد فإنه يجتمع على أطراف الكوز قطرات الماء، فقالوا: تلك القطرات إنما حصلت لأن الهواء انقلب ماء، فثبت أن ذلك ممكن في الجملة، والحوادث السفلية مطيعة للاتصالات الفلكية، فلم يكن مستبعداً أن يحدث اتصال فلكي يقتضي وقوع هذا الأمر الغريب في هذا العالم، فثبت أن الفلاسفة لا يمكنهم الجزم بفساد ذلك.

١٣. سؤال وإشكال: أتقولون إن ذلك الماء كان مستكناً في الحجر، ثم ظهر أو قلب الله الهواء ماء أو خلق الماء ابتداء؟ والجواب:

أ. أما الأول فباطل لأن الظرف الصغير لا يحوي الجسم العظيم إلا على سبيل التداخل وهو محال.

ب. أما الوجهان الأخيران فكل واحد منهما محتمل:

- فإن كان على الوجه الأول، فقد أزال الله تعالى اليبوسة عن أجزاء الهواء، وخلق الرطوبة فيها.
- وإن كان على الوجه الثاني فقد خلق تلك الأجزاء وخلق الرطوبة فيها.

١٤. الكلام في هذا الباب كالكلام فيما كان من رسول الله ﷺ في بعض الغزوات وقد ضاق بهم الماء، فوضع يده في متوضئه ففار الماء من بين أصابعه حتى استكفوا.

١٥. سؤال وإشكال: معجزة موسى في هذا المعنى أعظم أم معجزة محمد ﷺ؟ الجواب: كل واحدة منهما معجزة باهرة قاهرة، لكن التي لمحمد ﷺ أقوى لأن نبوع الماء من الحجر معهود في الجملة، أما نبوعه من بين الأصابع فغير معتاد ألبتة فكان ذلك أقوى.

١٦. الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً هو أنه كان في قوم موسى كثرة، والكثير من الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء، ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع، وربما أفضى ذلك إلى الفتن العظيمة، فأكمل الله تعالى هذه النعمة بأن عين لكل سبط منهم ماء معيناً لا يختلط بغيره، والعادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين.

١٧. يدل هذا الانفجار على الإعجاز على وجوه من الإعجاز:

أ. أحدها: أن نفس ظهور الماء معجز.

ب. ثانيها: خروج الماء العظيم من الحجر الصغير.

ج. ثالثها: خروج الماء بقدر حاجتهم.

د. رابعها: خروج الماء عند ضرب الحجر بالعصا.

هـ. خامسها: انقطاع الماء عند الاستغناء عنه.

فهذه الوجوه الخمسة لا يمكن تحصيلها إلا بقدرة تامة نافذة في كل الممكنات وعلم نافذ في جميع المعلومات وحكمة عالية على الدهر والزمان، وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى.

١٨. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ إنما علموا ذلك لأنه أمر كل إنسان أن لا يشرب إلا من جدول معين كيلا يختلفوا عند الحاجة إلى الماء، وأما إضافة المشرب إليهم فلأنه تعالى لما أباح لكل سبط من الأسباط ذلك الماء الذي ظهر من ذلك الشق الذي يليه صار ذلك كالملك لهم وجازت إضافته إليهم.

١٩. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ ففيه حذف، والمعنى: فقلنا لهم أو قال لهم موسى: كلوا واشربوا، وإنما قال كلوا لوجهين:

أ. أحدهما: لما تقدم من ذكر المن والسلوى، فكأنه قال كلوا من المن والسلوى الذي رزقكم الله بلا تعب ولا نصب واشربوا من هذا الماء.

ب. الثاني: أن الأغذية لا تكون إلا بالماء، فلما أعطاهم الماء فكأنه تعالى أعطاهم المأكول والمشروب.

٢٠. احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال، لأن أقل درجات قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الإباحة، وهذا يقتضي كون الرزق مباحاً، فلو وجد رزق حرام لكان ذلك الرزق مباحاً وحراماً وإنه غير جائز.

٢١. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: العثي أشد الفساد، فقيل لهم: لا تتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه، والمقصود منه ما جرت العادة بين الناس من التشاجر والتنازع في الماء عند اشتداد الحاجة إليه، فكأنه تعالى قال إن وقع التنازع بسبب ذلك الماء، فلا تبالغوا في التنازع.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ كسرت الذال لالتقاء الساكنين، والسين سين السؤال، مثل: أستعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك أي طلب، وسأل السقي لقومه، والعرب تقول: سقيته وأسقيته لغتان بمعنى، قال:

سقى قومي بني مجد وأسقى ... نميرا والقبائل من هلال

وقيل: سقيته من سقى الشفة وأسقيته دللته على الماء.

٢. الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة مع التوبة النصوح، وقد استسقى نبينا محمد ﷺ فخرج إلى المصلى متواضعا متذللا متخشعا مترسلا متضرعا وحسبك به! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد فأنى نسقي! لكن قد قال ﷺ في حديث ابن عمر: ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا) الحديث.

٣. العصا: معروف وهو اسم مقصور مؤنث والفة منقلبة عن واو، قال سابري مشبرق فجاءت بنسج العنكبوت كأنه والجمع عصي وعصى، وهو فعول وإنما كسرت العين لما بعدها من الكسرة وأعص أيضا مثله مثل زمن وأزمن وفي المثل (العصا من العصية) أي بعض الامر من بعض، وقولهم: ألقى عصاه) أي أقام وترك الاسفار وهو مثل. قال:

فألقت عصاها واستقر بها ... كما قر عينا بالإياب المسافر

وفي التنزيل ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٨ ـ ١٧]، وقد يعبر بالعصا عن الاجتماع والافتراق ومنه يقال في الخوارج: قد شقوا عصا المسلمين أي اجتماعهم وائتلافهم، وانشقت العصا أي وقع الخلاف قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت ... فحسبك والضحاك سيف مهند

أي يكفيك ويكفي الضحاك، وقولهم: لا ترفع عصاك عن أهلك يراد به الأدب.

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٤١٨.

٤. الحجر معروف، وقياس جمعه في أدنى العدد أحجار، وفي الكثير حجار وحجارة والحجارة نادر، وهو كقولنا: جمل وجمالة وذكر وذكارة كذا قال ابن فارس والجوهري، وفي القرآن ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ [البقرة: ٧٤]. ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ [البقرة: ٧٤]. ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً﴾ [الاسراء: ٥٠] ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ﴾ [الفيل: ٤] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الحجر: ٧٤] فكيف يكون نادرا إلا أن يريدا أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال فصيح.

٥. ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ في الكلام حذف تقديره فضرب فانفجرت، وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد.

٦. الانفجار: الانشقاق ومنه انشق الفجر، وانفجر الماء انفجارا انفتح، والفجرة: موضع تفجر الماء والانبجاس أضيق من الانفجار لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا، وقيل: انبجس وتبجس وتفجر وتفتق بمعنى واحد حكاه الهروي وغيره.

٧. العين: من الأسماء المشتركة يقال: عين الماء وعين الإنسان وعين الركبة والعين: الثقب في المزادة، والعين من الماء مشبهة بالعين من الحيوان لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان، قيل: لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه شبهت به عين الماء لأنها أشرف ما في الأرض.

٨. لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا:

أ. قبل: مربعا طوريا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى في كسر جوالق ويرحل به فإذا نزلوا وضع في وسط محلتهم وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الاولى وهذا أعظم في الآية والاعجاز.

ب. وقيل: إنه أطلق له اسم الحجر ليضرب موسى أي حجر شاء وهذا أبلغ في الاعجاز.

ج. وقيل: إن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بينه لموسى عليه السلام، ولذلك ذكر بلفظ التعريف، قال سعيد بن جبير هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل وفر بثوبه حتى برأه الله مما رماه به قومه، قال ابن عطية: ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون.

٩. ما أوتى نبينا محمد ﷺ من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة، فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار، ومعجزة نبينا ﷺ لم تكن لنبي قبل نبينا ﷺ يخرج الماء من بين لحم ودم! روى الأئمة الثقات والفقهاء الإثبات عن عبد الله قال كنا مع النبي ﷺ فلم نجد ماء فأتي بتور فأدخل يده فيه: فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ويقول: حي على الطهور)، قال الأعمش: فحدثني سالم بن أبي الجعد قال: قلت: لجابر كم كنتم يومئذ؟ قال ألفا وخمسمائة. لفظ النسائي.

١٠. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ يعني أن لكل سبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها، والمشرب موضع الشرب، وقيل: المشروب، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب وهم ذرية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها.

١١. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ في الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المن والسلوى وأشربوا الماء المتفجر من الحجر المنفصل.

١٢. ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ أي لا تفسدوا، والعيث: شدة الفساد نهاهم عن ذلك، يقال: عثى يعثى عثيا وعثا يعثو عثوا وعاث يعيث عيثا وعيوثا ومعاثا والأول لغة القرآن، ويقال: عث يعث في المضاعف: أفسد ومنه العثة وهي السوسة التي تلحس الصوف، و ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال وتكرر المعنى تأكيدا لاختلاف اللفظ، وفي هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها والتقدم في المعاصي والنهي عنها.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ طلبَ لهم موسى من الله السقيَ حين عطشوا في التيه، طلبوا الطعام فأُعطوا المنَّ والسلوى والماء، فاستسقى لهم موسى فأعطوه، واشتكوا الحرَّ فأظلَّهم الله بالغمام، ذكر الله تعالى كلَّ واحد على حدة في معرض أمر مستقلٍّ موجب للتذكُّر، استأنف لذلك ذكرًا بعد فصل عن قصَّة التيه مبالغة في بيان أنَّ السقي نعمة عظيمة ولو ذكرها عقب قصَّة التيه، ولو مع (إِذْ) هذه لكان بها يتوهَّم متوهِّم أنَّ الكلَّ نعمة واحدة، وقال أبو مسلم: ليس هذا في التيه.

٢. ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ الذي فرَّ بثوبك لتتبعه من مغسلك عاريًا، ليرى بنو إسرائيل

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١١٨/١.

أنَّك ما بك أُدْرَة، كانوا يغتسلون عراةً، وموسى في خلوة فاتَّهموه بانتفاخ بيضته، وهو ذراع في ذراع له أربعة أوجه، وقيل: كرأس الرجل من رخام، وقيل: خفيف، ومن قال مسدَّس اعتبر ما يلي الأرض وما يلي السماء؛ لأنَّه لا انفجار منهما، أوحى الله إليه مع جبريل أن يحمله إذا احتاجوا ماء ضربه فسال، وإذا اكتفوا ضربه فأمسك، وهذا معجزة أخرى إذ كان فعل واحد وهو الضرب سببًا للماء وكفِّه، وكلَّما ضُرب خلق الله الماء، وكلَّما ضرب آل أو جمع الله المياه الكثيرة في الحجر الصغير، وخلق فيها خفَّة.

٣. ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ فضربه بعصا فانفجرت، وقال وهب: ما هو حجر معيَّن، بل يضرب بها أيَّ حجر أراد فيسيل ماءً، فيضرب أقرب حجر إليه ولو صغيرًا، وقيل: حجر كان عند آدم وصل مع العصا إلى شعيب فأعطاهما موسى، وقيل: حجر خفيف من قعر البحر يشبه رأس الآدميِّ يحمله في مخلاته، ويقال: حجر مربَّع يخرج من كلِّ وجه ثلاثة أعين لكلِّ سبط عين، وكانت العصا من آس الجنَّة طولها عشرة أذرع على طول موسى، لها شعبتان تتَّقدان في الظلمة نورًا حيثما كان، وَأَمَّا هُم في التيه فلهم عمود من نور ليلاً، حملها معه آدم من الجنَّة، وتوارثها الأنبياء إلى شعيب فأعطاها موسى، والانفجار: السيلان بوسع بعد انشقاق، وهو الانبجاس في السورة الأخرى، أو هو الرشح بقليل والانفجار بعده بوسع.

٤. ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقيل: خرج آدم بها وبالحجر من الجنَّة فتوارثهما الأنبياء كذلك إلى موسى، لكلِّ سبط عين، وهم اثنا عشر سبطًا، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدًا، لكلِّ ولد ذرِّيَّة هي سبط.

٥. ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ عرف ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي: قوم هم سبط ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم من الاِثنتي عشرة، لا يشاركون غيرهم، ولا يشاركهم غيرهم، من كلِّ وجه من وجوه الحجر الأربعة ثلاثة أعين، كلُّ واحدة تسيل في جدول، وسعتها اثنا عشر فرسخًا أو ميلاً وهو أولى، وعددهم كما مرَّ ستُّمائة ألف، والجملة نعت (اثْنَتَا عَشْرَةَ)، والرابط محذوف، أي: مشربهم منها أو مستأنفة، أو حال بتقدير الرابط العائد إلى صاحب الحال، أي: منها كما في النعت، والمسوِّغ لمجيء الحال من النكرة تخصيصًا بالتمييز، قلنا لهم: ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللهِ﴾ المنِّ والسلوى وماء العيون، أضيف لله لأنَّه بلا عمل منهم، وقدَّم الأكل لأنَّه العدَّة، وبه قوام الجسد، والاحتياج إلى الماء حاصل عنه، ولأنَّه مركِّب للطعام، والرزق بمعنى المرزوق وهو الطعام يحمله الماء إلى العروق.

٦. ولا دليل للمعتزلة في الآية على أنَّ الحرام غير رزق فإنَّه رزق يؤاخذ عليه متعمِّده، وكذا جاهله

إذا كان مِمَّا يدرك بالعلم، وليس في الآية سوى أنَّه أمرهم بالأكل والشرب من ذلك، واتَّفق أنَّه حلال والله عالم بأنَّه حلال، وإن أريد بالرزق العموم فالحلال قيد من خارج لا من لفظ الرزق.

٧. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ تفسدوا ﴿فِي الاَرْضِ﴾ أرض التيه وغيرها مِمَّا قدروا أن يصلوا إليه، وما يخرجون إليه إذا أخرجهم الله منه ﴿مُفْسِدِينَ﴾ تأكيد في المعنى لـ (تعثوا) باعتبار النهي، أي: نهيتهم نهيًا شديدًا عن الإفساد، وإنْ جعلنا العثيَّ بمعنى الاعتداء المطلق، أو بالشرك والإفساد بالمعاصي فلا تأكيد.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا تذكير لنعمة أخرى كفروها، وروي في توراتهم أنه ارتحلت كل جماعة بني إسرائيل من برية سينا بأمره تعالى، وحلوا في رقادين، ولم يكن هناك ماء ليشربوا، فخاصموا موسى عليه السلام، وقالوا له: أعطنا ماء لنشرب، أخرجتنا من مصر لتقتلنا نحن وأولادنا، ودوابنا بالعطش؟ فابتهل موسى إلى ربه في السقيا، فأوحى إليه أن أمض أمام الشعب، وخذ معك من شيوخ إسرائيل، والعصا التي ضربت بها النهر خذها بيدك، واذهب إلى صخرة حوريب، فاضربها فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى كذلك أمام شيوخ إسرائيل.

٢. ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي عدد أسباط يعقوب الاثني عشر، لكل سبط منهم عين قد عرفوها، قال الراغب: وأنكر ذلك بعض الطبيعيين واستبعده، وهذا المنكر، مع أنه لم يتصور قدرة الله تعالى في تغيير الطبائع والاستحالات الخارجة عن العادات، فقد ترك النظر على طريقته، إذ قد تقرر عندهم أن حجر المغناطيس يجر الحديد، وأن الحجر المنفر للنحل ينفره، والحجر الحلاق يحلق الشعر، وذلك كله عندهم من أسرار الطبيعة، وإذا لم يكن مثل ذلك منكرا عندهم، فغير ممتنع أن يخلق الله حجرا يسخره لجذب الماء من تحت الأرض.

٣. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تمشوا في الأرض بالفساد، وخلاف أمر موسى، وفائدة قوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ والعثوّ ضرب من الإفساد؟

أ. قيل: قد قال بعض النحويين: إن ذلك حال مؤكدة.

---

(١) تفسير القاسمي: ١/٣١٣.

ب. وقيل: إن العثو، وإن اقتضى الفساد، فليس بموضوع له، بل هو كالاعتداء، وقد يوجد في الاعتداء ما ليس بفساد، وهو مقابلة المعتدي بفعله نحو ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وهذا الاعتداء ليس بإفساد، بل هو، بالإضافة إلى ما قوبل به، عدل، ولولا كونه جزاء لكن إفسادا، فبين تعالى أن العثو المنهي عنه، هو المقصود به الإفساد.. فالإفساد مكروه على الإطلاق، ولهذا قال ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقد يكون في صورة العثو والتعدي ما هو صلاح وعدل، كما تقدم، وهذا ظاهر.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا بيان لحال آخر من أحوال بنى إسرائيل في هجرتهم وعناية الله تعالى بهم فيها، أصابهم الظمأ فعادوا على موسى باللائمة أن أخرجهم من أرض مصر الخصبة المتدفقة بالأمواه، وكانوا عند كل ضيق يمنون عليه أن خرجوا معه من مصر ويجهرون بالندم، فاستغاث موسى بربه واستسقاه لقومه كما قصه الله تعالى علينا بقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي طلب السقيا لهم من الله تعالى.

٢. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أمره أن يضرب بعصاه حجرا من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التي ضرب بها البحر فضربه ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد أسباطهم وذلك قوله عز وجل: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾

٣. كون هذا الحجر هو الذي روى أنه تدحرج بثوب موسى يوم كان يغتسل لا دليل عليه، وقصة الثوب ليست في القرآن، فيحمل تعريف الحجر على أنه المعهود في القصة، وإنما يفهم التعريف أن الحجر الذي ضرب فتفجرت منه المياه حجر مخصوص له صفات تميزه عندهم:

أ. ككونه صلبا أو عظيما تتسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن تكون منه موارد لتلك الأمم.

ب. أو كونه يقع تحت أعينهم منفردا عن غيره ليس في محلتهم سواه.

ج. وقد يكون التعريف للدلالة على الجنس ليفيدنا بعد المرغوب عن التناول، وعظمة القدرة الإلهية وأثرها الجليل في تقريبه وتحصيله.

---

(١) تفسير المنار: ١/٣٢٧.

وعبر عنه في سفر الخروج بالصخرة: ولو علم الله تعالى أن لنا فائدة في أكثر مما دل عليه هذا الخطاب من التعيين لما تركه.

٤. أراد الله تعالى أن يصور حال بنى إسرائيل في هذه النعمة واغتباطهم بما منحهم من العيش الرغد في مهاجرهم فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ فعبر عن الحال الماضية بالأمر ليستحضر سامع الخطاب أولئك القوم في ذهنه ويتصور اغتباطهم بما هم فيه حتى كأنهم حاضرون الآن، والخطاب يوجه اليهم، وهذا ضرب من ضروب إيجاز القرآن التي لا تجارى ولا تمارى.

٥. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تنشروا فسادكم في الأرض وتكونوا في الشرور قدوة سيئة للناس. يقال عثا إذا نشر الشر والفساد وأثار الخبث فهو أخص من مطلق الإفساد ولذلك مع كون (مفسدين) حالا من ضمير (تعثوا)

٦. إن كثيرا من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص، ويقولون هنا: إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه، وقبل الأمر بدخول تلك القرية، فذكر هنا بعد تلك الوقائع، والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارا في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن، وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها.. ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير.

٧. الباحثون في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الأسلوب في التقديم والتأخير وقالوا: ستأتي أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين، وما كان لها من النتائج والآثار في حال الحاضرين، وقالوا: إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر في كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ، فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار، بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه ـ فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان.

٨. هذا ما نقوله إذا سلمنا أن الاستسقاء كان قبل التيه لا فيه، ولنا أن نقول إن أرض التيه هي

الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر من بيداء فلسطين مما يلى حدود مصر وفيها كان الاستسقاء بلا خلاف (وفى سفر الخروج أنه كان في رفيديم التي انتقل اليها بنو إسرائيل من (سين) التي بين إيليم وسيناء، ويطلق التيه على ضلال بنى اسرائيل أربعين سنة في الأرض، والعبرة في القصة على ما يظهر من التوراة أن موسى كان يحاول نزع ما في قلوب قومه من الشرك الذي أشربوا عقائده في مصر، وما في نفوسهم من الذل الذي طبعه فيها استبداد المصريين وتعبيدهم إياهم، ليكونوا أعلياء أعزاء بعبادة الله تعالى وحده، وأن يدخل بهم أرض الميعاد وهى بلاد الشام التي وعد الله بها آباءهم، وكانوا لطول الإقامة في مصر قد ألفوا الذل وأنسوا بالشعائر والعادات الوثنية، فكانوا لا يخطون خطوة إلا ويتبعونها بخطيئة، وكلما عرض لهم شيء من مشقات السفر يتبرمون بموسى ويتحسرون على مصر ويتمنون الرجوع اليها، ويستبطئون وعد الله فتارة يطلبون منه أن يجعل لهم إلها غير الله، وتارة يصنعون عجلا ويعبدونه، وتارة يفسقون عن أمر ربهم ويكفرون نعمه، ولما أمرهم بدخول البلاد المقدسة التي وعدهم الله أبوا واعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين لما استحوذ عليهم من الجبن الذي هو حليف الذل، وكان موسى أرسل كالبا ويوشع بن نون رائدين لينظرا حال البلاد في القوة والضعف وأرسل غيرهما عشرة من بقية أسباط بنى إسرائيل فأخبر هؤلاء بأن في تلك الأرض قوما جبارين فقال بنو إسرائيل: إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. فأخبر يوشع وكالب بأن الأرض كما وعد الله وأن دخولها سهل والظفر مضمون بالاعتماد على الله تعالى والتوكل عليه، فلم يسمعوا لهما بل ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة لحكمة بالغة وهى إرادة انقراض أولئك القوم الذين تأشبت في نفوسهم عقائد الوثنية، وزايلتها صفات الرجولية، حتى فسد مزاجها، وتعذر علاجها، وخروج نشء جديد يتربى على العقائد الصحيحة، وأخلاق الشهامة والرجولية، فتاهوا حتى انقرض أولئك المصابون باعتلال الفطرة، وبقى النشء الجديد وبعض الذين كانوا عند الخروج من مصر صغارا لا يقدرون على حمل السلاح، وقضى الله أمرا كان مفعولا.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ذكر سبحانه في هذه الآية نعمة أخرى آتاها بنى إسرائيل فكفروا بها، ذاك أنهم حين خرجوا من

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٢٦.

مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفح الشمس، فاستغاثوا بموسى، فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته.. وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا باللوم على موسى إذا أصابهم الضيق، ويمنّون عليه بالخروج معه من مصر، ويصارحونه بالندم على ما فعلوا، فقد روى أنهم قالوا من لنا بحرّ الشمس؟ فظلّل عليهم الغمام، وقالوا من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ والسّلوى، وقالوا من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر.

٢. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي طلب لهم السّقيا من الله تعالى بأن يسعفهم بماء يكفيهم حاجاتهم في هذه الصحراء المحرقة.

٣. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي فأجبناه إلى ما طلب، وأوحينا إليه أن اضرب الحجر بعصاك، وقد أمره أن يضرب بعصاه التي ضرب بها البحر حجرا من أحجار الصحراء، قال الحسن لم يكن حجرا معينا، بل أيّ حجر ضربه انفجر منه الماء، وهذا أظهر في حجة موسى عليه السلام، وأدلّ على قدرة الله تعالى وقد سماه في سفر الخروج الصخرة.

٤. ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط، فاختصّ كل منهم بعين حتى لا تقع بينهم الشحناء، كما يرشد إلى ذلك قوله.

٥. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أي قد صار لكل سبط منهم مشرب يعرفه، لا يتعداه إلى مشرب غيره.

٦. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي وقلنا لهم كلوا مما رزقناكم من المنّ والسلوى واشربوا مما فجرنا لكم من الماء من الحجر الصّلد، وقد عبر عن الحال الماضية بالأمر ليستحضر السامع صورة أولئك القوم في ذهنه مرة أخرى حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب موجه إليهم.

٧. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تنشروا فسادكم في الأرض وتكونوا قدوة لغيركم فيه، وقد جاء هذا النهى عقب الإنعام عليهم بطيّب المأكل والمشرب خيفة أن ينشأ الفساد بزيادة التبسط فيهما، ولئلا يقابلوا النعم بالكفران.

٨. إن الله تعالى كان قادرا على تفجير الماء وفلق البحر بلا ضرب عصا، ولكنه جلّت قدرته أراد

أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ليسعوا في الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة[1].، إلى أنه تعالى خلق الإنسان محدود الإدراك والحواس، لا يفهم إلا ما كان في متناول يده ويقع تحت إدراكه وحسه، فإن رأى شيئا فوق طاقته اجتهد في رده إلى ما يعرف، فإذا لم يستقم له ذلك وقف حائرا مدهوشا، ولا سيما إذا تكرر ذلك أمامه، فكان من لطف الله بعباده أن تظهر المعجزات على يد الأنبياء على طريق التدرّج حتى لا تصطدم بها عقول معاصريها دفعة واحدة، ومن الأمثلة على ذلك:

أ. حكى القرآن في معجزات عيسى عليه السلام قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كان الله قديرا على أن يخلق الطير من الطين ومن غير الطين سواء كان في شكل الطير أم لم يكن، وكذلك لم يكن هناك من داع للنفخ، لأن طريق القدرة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، لكن شاء الله أن تظهر قدرته بطريق التدرج، لأن الطين إذا كان على شكل الطير يشتبه بالطير الحقيقي ولا يكون بينهما فارق إلا بالحياة، وعملية النفخ تجعل الرائي ينتظر تغييرا في الجسم كما يحدث ذلك في الكرة ونحوها إذا نفخ فيها، فإذا وجدت الروح في هذا الهيكل الطيني تكون حدّة الصدمة قد خفّت، لأن النفس كانت ترقب ما حدث، وجميع المقدمات لا دخل لها مطلقا في وجود الحياة والروح.

ب. كذلك خلق عيسى من نطفة الأم فقط، مع أن الحيوان في عالمنا لا يخلق إلا من نطفتي الأب والأم، ونظام الكائنات يجرى على سنن واحد إلا حيث يريد الله، وقد لطف الله بمريم فأراها ملكا في صورة بشر، وقال لها سأهب لك غلاما زكيا، فأجابته: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فرؤية الملك والأحوال التي أحاطت به أوجدت عندها بعض الشك في أنها ربما حملت بطريق غير عادى، وبهذا تهيأ احتمالها صدمة الحمل عندما حصل.

ج. وكان الله تعالى جعل النفخ يأخذ مكان نطفة الرجل، وكان تمثل الملك بصورة البشر كتمثل الطين بصورة الطير، والنفخ في مريم كالنفخ في الطين، وكل ذلك تقريب لفهم المعجزة، وإلا فعيسى خلق من نطفة مريم، والجزء الآخر بإذن الله وقدرته ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وسنن الله التي أوجدها في الكون وكفل لها

---

(١) قدم لهذا الكلام، وما بعده بقوله: قال النّطاسي البارع المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل في كتابه: الإسلام والطب الحديث) ما خلاصته، تفسير المراغي: ١/١٢٨.

الاستمرار وعدم التبدل والتي قام عليها نظام العالم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهَّ تَبْدِيلًا﴾ قد بدّلت في المعجزات بالقدرة الإلهية التي تضع جميع السنن، وكأنّ المعجزة سنة جديدة.

د. الخلاصة ـ إن المعجزات كلها من صنع الله، وهى سنة جديدة غير ما نشاهد كل يوم، فحركة الشمس وطلوعها من المشرق مع عظمها لا تحدث دهشة لتعوّدنا إياها، ولكن إن طلعت من المغرب دون المشرق كان معجزة وأحدث غرابة ودهشة مع أن الحركتين من صنع الله لا فارق بينهما، ولكى لا تحدث الصدمة حين حصول المعجزة يهيئ الله الظروف لتحمّلها، ويهيئ النبي لقبولها، ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها وقبولها، فأمر الله موسى بإدخال يده في جيبه وإخراجها بيضاء تهيئة لمعجزاته الأخرى، وليس للعقل أن يحكم أن أيّ المعجزات أعظم من الأخرى، لأنه يتكلم عن مجهول هو من صنع الله لا يعرفه، فلا يمكن الإنسان مهما ارتقى عقله أن يصل إلى صنعها، بل هي فوق قدرته.

٩. أما المخترعات فهي مبنية على السنن العلمية، مهما ظهرت مدهشة كالكهرباء والمسرّة (التليفون) وغاية ما هناك أن العلماء سخروها لأغراضهم، فالذي يتكلم في أوربا ويسمع صوته في مصر بوساطة (الراديو) إنما استطاع ذلك، لأنه قد استخدم الهواء الذي يحمل أمواج الصوت إلى العالم كله، وهكذا حال سائر المخترعات، إنما هي كشف لناموس إلهى يتكرر دائما على يد كل إنسان، لكن المعجزات تجرى على طراز آخر، فهي خلق سنة جديدة في الكون، ولا تتكرر إلا بإذن الله، ولا يعرف الإنسان لها قاعدة ولا يدرك طريقا لصنعها.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. كما يسر الله لبني إسرائيل الطعام في الصحراء والظل في الهاجرة، كذلك أفاض عليهم الري بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يدي نبيه موسى عليه السلام والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم في هذا المقام، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام.

٢. طلب موسى عليه السلام لقومه السقيا. طلبها من ربه فاستجاب له، وأمره أن يضرب حجرا معينا بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدة أسباط بني إسرائيل، وكانوا يرجعون إلى اثني عشر سبطا

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٧٤.

بعدة أحفاد يعقوب ـ وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه ـ وأحفاد إسرائيل ـ أو يعقوب ـ هم المعروفون باسم الأسباط، والذين يرد ذكرهم مكررا في القرآن، وهم رؤوس قبائل بني إسرائيل، وكانوا ما يزالون يتبعون النظام القبلي، الذي تنسب فيه القبيلة إلى رأسها الكبي، ومن ثم يقول: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ .. أي العين الخاصة بهم من الاثنتي عشرة عينا.. وقيل: لهم، على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

٣. لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلا وطيرا.. ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء.. لقد أخرجهم الله ـ على يدي نبيهم موسى عليه السلام من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة.. وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن،، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية. حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. تلك آية من آيات الله البينة، ونعمة من نعمه الجليلة، على هؤلاء القوم الشاردين عن موارد الحق والهدى.. تتحرق أكبادهم عطشا في هجير الصحراء، فتطلع عليهم رحمة الله، فيما يتلقى موسى من أمر ربه: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فيتدفق الماء عذبا زلالا، من اثنتي عشرة عينا، بعدد قبائلهم.

٢. وانظر كيف أبت عليهم نفوسهم المتبلدة الضيقة أن تتآلف جماعاتهم في وجه تلك المحن التي يلاقونها في هذا التّيه، فتعيش كل جماعة منهم في محيطها.. اثنتي عشرة جماعة! هكذا قطّعوا أمما وهم في هذا التيه، وهكذا هم يقطّعون أمما في الأرض، ويتيهون في الأمم والشعوب إلى يوم الدين.

٣. في قوله تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ إشارة إلى تدفق الماء بقوة وغزارة أكثر مما في قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ .. فالانبجاس دون الانفجار، قوة وأثرا.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١/٩٠.

٤. هذا الاختلاف في التعبير إنما هو لاختلاف الحال، فحين ضرب موسى الحجر كان الانبجاس أولا، ثم تلاه الانفجار.. فكل من الانبجاس والانفجار وصف لحال من أحوال ضربة العصا، وأثر من آثارها.. وذلك وجه مشرق من وجوه الإعجاز، في التكرار الوارد على الأحداث، في القصص القرآني.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهي الري من العطش، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل بري الظمآن في حصول المطلوب، وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته لأن في ذلك فضلا لهم.

٢. ﴿وَإِذْ﴾ متعلق بـ ﴿اذْكُرُوا﴾ وقد أشارت الآية إلى حادثة معروفة عند اليهود وذلك أنهم لما نزلوا في (رفيديم) قبل الوصول إلى برية سينا وبعد خروجهم من برية سين في حدود الشهر الثالث من الخروج عطشوا ولم يكن بالموضع ماء فتذمروا على موسى، وقالوا: أتصعدنا من مصر لنموت وأولادنا ومواشينا عطشا، فدعا موسى ربه فأمره الله أن يضرب بعصاه صخرة هناك في (حوريب) فضرب فانفجر منها الماء، ولم تذكر التوراة أن العيون اثنتا عشرة عينا، وذلك التقسيم من الرفق بهم، لئلا يتزاحموا مع كثرتهم فيهلكوا فهذا مما بينه الله في القرآن.

٣. ﴿اسْتَسْقَى مُوسَى﴾ صريح في أن طالب السقي هو موسى وحده، سأله من الله تعالى ولم يشاركه قومه في الدعاء لتظهر كرامته وحده، كذلك كان استسقاء النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر لما قال له الأعرابي: هلك الزرع والضرع فادع الله أن يسقينا) والحديث في (الصحيحين).

٤. ﴿لِقَوْمِهِ﴾ مؤذن بأن موسى عليه السلام لم يصبه العطش، وذلك لأنه خرج في تلك الرحلة موقنا أن الله حافظهم ومبلغهم إلى الأرض المقدسة، فلذلك وقاه الله أن يصيبه جوع أو عطش، وكذلك شأن الأنبياء فقد قال النبي ﷺ في حديث وصال الصوم: إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني)، قال ابن عرفة في (تفسيره): أخذ المازري من هذه الآية جواز استسقاء المخصب للمجدب لأن موسى عليه السلام لم ينله ما نالهم من العطش، ورده ابن عرفة بأنه رسولهم وهو معهم)، وهو رد متمكن

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٥٠١.

إذ ليس المراد باستسقاء المخصب للمجدب الأشخاص، وإنما المراد استسقاء أهل بلد لم ينلهم الجدب لأهل بلد مجدبين، والمسألة التي أشار إليها المازري مختلف فيها ـ عنده وعند أصحابه ـ، واختار اللخمي جواز استسقاء المخصب للمجدب لأنه من التعاون على البر، ولأن دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة.

٥. عصا موسى هي التي ألقاها في مجلس فرعون فتلقفت ثعابين السحرة وهي التي كانت في يد موسى حين كلمه الله في برية سينا قبل دخوله مصر، وقد رويت في شأنها أخبار لا يصح منها شيء، فقيل إنها كانت من شجر آس الجنة أهبطها آدم معه، فورثها موسى، ولو كان هذا صحيحا لعده موسى في أوصافها حين قال ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٨] فإنه أكبر أوصافها.

٦. (أل) في (الحجر) لتعريف الجنس أي اضرب أي حجر شئت، أو للعهد مشيرا إلى حجر عرفه موسى بوحي من الله وهو حجر صخر في جبل حوريب الذي كلم الله منه موسى كما ورد في سفر الخروج وقد وردت فيه أخبار ضعيفة.

٧. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ قال العكبري وأبو حيان: إنه استئناف، وهما يريدان الاستئناف البياني ولذلك فصل، كأن سائلا سأل عن سبب انقسام الانفجار إلى اثنتي عشرة عينا فقيل قد علم كل سبط مشربهم، والأظهر عندي أنه حال جردت عن الواو لأنه خطاب لمن يعقلون القصة فلا معنى لتقدير سؤال، والمراد بالأناس كل ناس سبط من الأسباط.

٨. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ مقول قول محذوف، وقد جمع بين الأكل والشرب وإن كان الحديث على السقي لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى.. وقيل: هنالك: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧] فلما شفع ذلك بالماء اجتمع المنتان.

٩. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ من جملة ما قيل لهم ووجه النهي عنه أن النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧].

١٠. ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ وهو أشد الفساد وقيل: هو الفساد مطلقا، وعلى الوجهين يكون ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالا مؤكدة لعاملها، وفي (الكشاف) جعل معنى ﴿لا تَعْثَوْا﴾ لا تتمادوا في فسادكم فجعل المنهي عنه هو الدوام على الفعل وكأنه يأبى صحة الحال المؤكدة للجملة الفعلية فحاول المغايرة بين ﴿لا تَعْثَوْا﴾ وبين

﴿مُفْسِدِينَ﴾ تجنبا للتأكيد، وذلك هو مذهب الجمهور لكن كثيرا من المحققين خالف ذلك، واختار ابن مالك التفصيل فإن كان معنى الحال هو معنى العامل جعلها شبيهة بالمؤكدة لصاحبها كما هنا وخص المؤكدة لمضمون الجملة الواقعة بعد الاسمية نحو زيد أبوك عطوفا وقول سالم بن دارة اليربوعي:

أنا ابن دارة معروفا بها نسبي   وهل بدارة يا للناس من عار

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. كان بنو إسرائيل يعيشون مع موسى عليه السلام في معجزات حسية مستمرة، ولو كانت قوة الدليل وحسيته سببا للإيمان لكان بنو إسرائيل أشد الناس إيمانا وأقواهم يقينا، ولكن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلوب الأتقياء فيدركون الحق، ويذعنون له، ويطمئنون إليه، وقد أرانا الله تعالى آياته في بنى إسرائيل، فكلما أتاهم بدليل وكلما أتتهم آية كفروا بها، فلو كانوا يذعنون للحق لأذعنوا لبعض هذه الآيات، ولكنهم قوم معاندون، مناقضون الحس.

٢. شكوا إلى موسى أنهم لا يجدون الماء الذي يشربونه فاتجه موسى إلى ربه ضارعا يطلب الماء، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، وإذ دالة على الوقت الماضي، والمعنى اذكروا ذلك الوقت الذي استسقى فيه موسى لكم، تذكّروا عطشكم في ذلك الوقت، وكيف استسقى موسى ربه لأجلكم، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يضرب بعصاه الحجر، فضرب، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، هي بقدر عدد الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام، وذريتهم من بعدهم، اذكروا ذلك وتذكروه، فإنه معجزة من الله تعالى. فكان لكل سبط عينه، يشرب منها هو ومن معه من سبطه لكيلا يتزاحم على الماء، فينال الماء القويّ، ويضيع الضعيف.

٣. استسقى: السين والتاء للطلب، أو السؤال، والاستسقاء الضراعة إلى الله تعالى أن ينزل الماء، فهذا الاستسقاء عبادة لأنه دعاء الله تعالى ضارعا إليه أن ينزل عليه الماء، والدعاء المتضرع عبادة في ذاته، ولقد كان النبيّ ﷺ إذا جف المطر، وأجدبت الأرض استسقى.. فقد خرج إلى المصلى متواضعا، متذللا

---

(١) زهرة التفاسير: ١/٢٤٧.

متوسلا متضرعا ودعا ربه أن يسقى المطر، فنزل مدرارا، حتى خشى الناس أن يضرّ، فقال النبيّ ﷺ: اللهم حوالينا، ولا علينا)

٤. لما استسقى موسى عليه السلام لم ينزل عليه مطر، ولكن قال له ربه: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ والعصا هي آية الله تعالى، ومعجزة موسى التي انقلبت حية تسعى، والتي بها ضرب البحر بها فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، ضرب بها الحجر، ولم يكن حجرا معينا له صفات ذاتية، بل إنه للعهد الذهني الذي ينطبق عليه اسم الحجر، كما تقول ادخل السوق، فالمراد أي شيء ينطبق عليه اسم السوق، ضرب موسى عليه السلام الحجر.

٥. ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت: انشقت، وخرجت من الحجر اثنتا عشرة عينا، والعين هي الموضع الذي يخرج منه كعين زمزم، فماء العيون لا يكون من السماء كالمطر، ولكن يكون من الأرض، أو الحجر، كما رأينا ما فعلته عصا موسى عليه السلام.

٦. هنا ثلاث معجزات خارقة للعادة:

أ. الأولى: ضرب الحجر بالعصا، فينبثق منه الماء، وهذه معجزة العصا.

ب. الثانية: أن الضرب في الحجر الذي لا يخرج منه الماء عادة، ولا يعلم أن الماء ينبع من الأحجار، ولكن من الأرض اللينة التي لا تكون حجرا متماسكا، وقد يخرج ماء العيون من الجبال ولكن يكون من شقوق يخرج منها لا من ذات الحجر، أما الذي يخرج من ذات الحجر فإنه خاص بمعجزة موسى عليه السلام.

ج. الثالثة: كون الماء يخرج اثنتي عشرة عينا على قدر عدد الأسباط.

٧. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أي مكان شربهم، أي العين التي خصصت لهم، وقد كان الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه مكعبا له أربعة جوانب ظاهرة على الأرض، فكان في كل جانب قد انبثق فيه ثلاث عيون، فيكون عددها في كل اثنتي عشرة عينا، وعلم كل أناس العين التي يشربون منها، فكان لكل سبط منهم ثلاث عيون.

٨. هذا التوزيع بينهم لا يفرق، ولكنه يجمعهم، فالعدل يجمع ولا يفرق، وفوق ذلك فيه تسهيل للتناول فلا يتزاحمون ولا يتنازعون ولا يضيع الضعيف بينهم.

٩. بين الله تعالى أن الماء مباح لهم، كما أبيح لهم الطعام؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي أنه أبيح لهم الأكل من المن والسلوى، أو أبيح لهم أن يأكلوا من ثمرات هذا الماء الذي يجيء إليهم من هذه العيون التي تفيض في الأرض غير مقطوعة، ولا ممنوعة.

١٠. النعمة إذا كثرت على أمثال بنى إسرائيل كانت مظنة الفساد، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثو، من عثى يعثى بمعنى أفسد، أو بمعنى أضاع كل ما فيه من خير، فاعتدى على حق غيره، فيعثون يشمل كل فعل يؤدى إلى الاضطراب والإفزاع ومنع الخير، ويتقارب من معنى العبث، ويكون قوله تعالى: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ ليس تكرارا للفظ لا تعثوا أو تأكيدا، إنما هو لبيان العثو، وهو القصد إلى الإفساد، فمفسدين معناها قاصدين إلى الإفساد.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ لا تأويل في هذه الآية، فان المراد منها هو نفس المعنى المتبادر الى الفهم من ظاهرها، وقال الرازي: أجمع جمهور المفسرين على ان ذلك كان في التيه) أي صحراء سيناء.. ومهما يكن، فان الله سبحانه بعد أن ظللهم بالغمام، وأطعمهم من المنّ والسلوى سقاهم الماء أيضا، فأجرى لهم اثنتي عشرة عينا بقدر عشائرهم، فاختصت كل عشيرة بعينها حتى لا يقع بينهم التشاجر والتنازع على الماء.

٢. سؤال وإشكال: كيف تدفقت العيون من حجر يحمله الإنسان في يده؟ وهل يكون المحال ممكنا؟ هل يوجد شيء من لا شيء، أو الكثير من القليل؟ يحفر الإنسان آلاف الأمتار في الأرض، ومع ذلك لا يخرج الماء إذا لم يكن موجودا في مكان الحفر، فكيف نبع الماء من حجر لا عين ولا أثر فيه للماء؟ والجواب: لا تفسير من العلم والطبيعة لهذا إطلاقا، لا تفسير الا بالمعجز وخوارق العادات، والا بقوله جلت قدرته: كن فيكون، تماما كانفلاق البحر، ووقوف مائه كالجبال، ونزول المنّ والسلوى من السماء، وجعل النار بردا وسلاما على ابراهيم، وولادة عيسى بلا دنس، واحيائه الموتى، وخلقه الطير من الطين، الى غير ذلك.. فمن آمن بالله وقدره حق قدره اقتنع مكتفيا بهذا، ومن جحد وعاند فلا كلام في الفرع بعد

(١) التفسير الكاشف: ١/١١٢.

أن أنكر الأصل.. والذين يطلبون تفسيرا علميا ودقيقا لكل شيء، ان هؤلاء قد مر في حياتهم العديد من الحوادث التي لا يجدون لها تفسيرا في شيء الا في الغيب وارادة الله.. ولكنهم لا يشعرون.

٣. ذكر الملا صدرا عند تفسير هذه الآية ما نصه: ان مادة العناصر قابلة لأن تكون منها صورة غير متناهية على التعاقب، فيجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجر ماء) وهو يشير بهذا الى التأكيد على نظرية التطور التي اكتشفها هو واهتدى اليها قبل دارون بثلاثة قرون، على ان دارون خصص النظرية بالأعضاء العضوية فقط.. أما صدر المتألهين فقد عممها لجميع الكائنات، حتى الجماد، كما رأيت من جواز استحالة الحجر الى ماء.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قيل هذا في التيه.

٢. قال المرتضى عليه السلام: هو حجر كان مع موسى ـ صلى الله عليه ـ يحمل بين يديه على حماره، وذلك أنه لما استسقى الله سبحانه لقومه إذ عطشوا، أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ولم يكن إلاَّ حجراً صغيراً، وكانت الآية في الصغير المحمول المتحرك المنقول عظيمة جليلة أعظم أمراً من الحجر الراسي، لأنه لو كان راسياً لقال فيه القائل: إن الماء ينبع من الأرض في الحجر، فلما أن كان حجراً صغيراً يحمل كانت آية جليلة عظيمة باهرة من آيات الله الجليلة) انفجار الماء اثنتا عشرة عيناً من الحجر بسبب ضرب موسى إياه بالعصا آية عظيمة، سواء كان راسياً أم منتقلاً، وإنما أراد المرتضى عليه السلام أن الآية عظمت أكبر من ذلك بكون الحجر صغيراً منتقلاً.

٣. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ قيل: كل سبط، وكانوا اثني عشر سبطاً، والمراد: ذرية كل سبط، وهذه نعمة؛ لأنه يقل الاختلاف والمزاحمة والمسابقة على الماء، وهذا تشعر به الآية في (سورة الأعراف): ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾

٤. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِّ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أمر إباحة وتعبير عن الإنعام

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١٢١.

عليهم بذلك، ونهي عن الفساد في الأرض؛ لأن الواجب شكر النعمة لا مقابلتها بالفساد في الأرض الذي هو كفر قد يؤدي إلى سلب النعمة وتعجيل النقمة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، والعثيّ الفساد أو أشد الفساد، ومفسدين حال مؤكدة، وصح ذلك لاختلاف اللفظ.

٥. إذا قابلت بين هاتين الآيتين وبين آيتي (سورة الأعراف) وجدت في كل منهما فائدة خاصة، فهنا قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فأفاد: أن الذي جرّأهم على التبديل هو ظلمهم من قبل، وهنا ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فأعاد اللفظ ليفيد: أن العذاب عليهم خاص، ولكن ليس في هذه تصريح بأن المبدلين بعضهم، فأفاده في (سورة الأعراف) بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ ولم يقل: ﴿رَغَدًا﴾ وقال في (آية البقرة): ﴿رَغَدًا﴾ فأفاد سعة المأكول في كل موضع شاءوا.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. طلب موسى عليه السلام الماء لقومه، ولم يكن هناك أثر للماء، وضاق بهم العطش، وتعرضوا للهلاك، فدعا ربّه أن يسقيهم، واستجاب الله لطلبه بمعجزة، وأمره أن يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، بعدد أسباط بني إسرائيل، حتى لا يختلفوا أو يزدحموا على الماء، فاتّجه كل سبط إلى العين المخصصة له.. وقيل: لهم: لا تسعوا في الأرض فسادا، فإن ذلك هو الشكر العملي للنعمة التي أفاضها الله عليكم، ولكنهم لا يشكرون.

٢. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ في مسيرة التيه، وأرادوا منه أن يسقيهم الماء في الوقت الذي لم تكن هناك أية بوادر توحي بوجود الماء في المناطق المحيطة بهم، لأنهم شاهدوا في تجربتهم معه أنه يملك الموقع المميّز عند الله بالدرجة التي يستطيع أن يطلب فيها من ربه الحصول على ما يريده في مهمته الرسالية العامة بطريقة غيبية على أساس المعجزة، كما حدث في عبورهم البحر ونحوه، وهكذا أرادوا له أن يحقق لهم ما يريدونه بمعجزة، واستجاب الله نداءه ودعاءه.

٣. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي حجر كان، فليس المراد به حجرا معينا، وهذا ما يؤكد المعجزة، باعتبار أن القضية ليست تحديد مكان معين يوجد فيه الماء دون مكان آخر، بل هي خلق الماء من

---

(١) من وحي القرآن: ٢/٦٠.

العدم.

٤. ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل جماعة منهم عين معينة في عملية توزيع عادلة تمنع النزاع والاختلاف، وكانوا ـ كما يقال ـ اثني عشر سبطا وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر.

٥. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ من خلال التحديد الذي حدده لهم موسى في قضية توزيع الحصص فيما بينهم.

٦. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ مما رزقكم الله من غير جهد وعناء، واشكروا الله على ذلك في إصلاح أمركم في الإيمان والقول والفعل، لتوظفوا نعم الله الكثيرة في هذا وفي غيره فيما يرضاه الله من إصلاح البلاد والعباد.

٧. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، لأن الله لا يريد للإنسان أن يحرك طاقاته في الفساد والإفساد في كل مجالات الحياة.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي (ت ١٤٥٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. لا تزال الآيات متساوقة في مساق تعداد النعم التي لقيها بنو إسرائيل وهم في أمس الحاجة إليها، فتفجير الماء من حجر صلد، بضربة من موسى بعصاه، وجريانه متوزعا في جداول بعدد الأسباط يُعد أكثر من نعمة، فتيسير الماء بغير عناء نعمة لا يقدر قدرها لأنه من الأشياء التي تشتد إليها ضرورة النفس وتوقف عليها سلامة الحياة، والنعمة يزداد قدرها بمسيس الحاجة إليها وما أحوجهم في الصحراء التي كانوا فيها إلى الماء، وكونه بطريقة خارقة للعادة تطمئن بها النفس ويقوى بها الإيمان نعمة ثانية، وانقسامه إلى جداول بعدد الأسباط حتى لا يزدحموا عليه فيتنازعون نعمة ثالثة.

٢. أكثر المفسرين على أن هذا الاستسقاء كان في التيه، وعليه فالمذكور في هذه الآية التي قبلها، فترتبا ذكرا بحسب ترتيبها زمنا، وذهب بعضهم إلى خلافه، وهم الذين يطبقون ما سرده القرآن من أحداث أهل الكتاب على التواريخ المتداولة بين أهل الكتاب أنفسهم، وذلك أنهم حملوا القصة المشار إليها في الآية على ما يتداوله اليهود من أنهم نزلوا في رفيد يم، بعدما خرجوا من برية سين، وقبل وصولهم إلى

---

(١) تفسير الخليلي: ٣/٣٠٠.

برية سيناء في الشهر الثالث من خروجهم عطشوا ولم يكن بالموضع ماء، فتذمروا على موسى، وقالوا أصعدنا من مصر لنموت وأولادنا ومواشينا عطشا، فأمره الله أن يضرب بعصاه صخرة هناك في حوريب، فضرب فانفجرت منها الماء.. وفي بعض نصوص التوراة ما يدل على أن هذه الحادثة كانت بعد خروجهم من برية سيناء، وحلولهم في رقادين.. وهذا الاضطراب يبعدنا عن الثقة بنقولهم والاستناد إلى تواريخهم.

٣. ذكر الله تعالى أن هذا الاستسقاء من موسى لأجلهم مع أنه كان بينهم يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من السقيا تنبيها على أنه لم يستسق إلا لطلبهم وإلحاحهم، وإلا مضى في السبيل الذي أمره الله بسلوكه غير لآو على شيء من حاجات الدنيا توكلا على الله وثقة بأنه سبحانه سيهيئ له ما يحتاج إليه من ضروريات الحياة ما دام مقبلا عليه ومتبعا لسبيله، وهذه هي ثقة النبيين، وهذا إيمان المرسلين، فإنهم لا يهمهم إلا امتثال أمر الله وإتباع مراشده.

٤. الذي أمره الله أن يضربه بعصاه؛ قيل: هو ما شاء من الأحجار، وقيل: هو الحجر الذي مشى بثوبه ـ حسبما قيل ـ وقيل: هو حجر آخر خاص حجمه كرأس الشاة يحملونه معهم إذا ارتحلوا، ويضعونه بينهم إذا نزلوا، فإذا احتاجوا إلى السقي ضربه موسى بعصاه، فتفجرت منه العيون، وإذا رووا واكتفوا ضربه كذلك فانقطع منه الجري، وقد تقدم أنه جاء في التوراة بأنه صخرة في حوريب ـ وهي بقعة بطور سيناء ـ؛ وعلى الأول فالتعريف للجنس، يرجحه أن الجنس أسبق من غيره في التعارض، وهو كذلك أدخل في الإعجاز، فإن ضرب أي حجر كان أدل على القدرة وأدعى إلى الاستغراب من ضرب حجر بعينه وعلى الثاني فالتعريف للعهد وهو ذهني لعدم سبق ذكر للمعهود.

٥. الانفجار هو الانصداع ويُعبر عنه بالانبجاس كما في سورة الأعراف، وفرق بعضهم بينهما بأن الانبجاس أول خروج الماء والانفجار اتساعه وكثرته، وعلى التفريق فلا تضاد بين العبارتين لوقوع الأمرين في القصة.

٦. العين: هي منبع الماء وتُجمع على عيون قياساً وعلى أعين سماعاً، وأنكر بعض الطبعيين صحة هذه القصة لمخالفتها ما استقرت عليه عادة الأشياء بحسب طبائعها المألوفة، وهو جهل عظيم بقدرة الخالق الذي طبع الكون بحسب نواميسه المألوفة وهو القادر على خرق تلك النواميس وإحالة تلك الطبائع إذا ما أراد ذلك، على أن أفراد الجنس الواحد تكون لها طبائع شتى مختلفة باختلاف ما جعل الله فيها من

الخاصية فطبائع الأحجار ليست واحدة فمن الأحجار ما هو حالق للشعر لا يكاد يدنو منه حتى يحلقه، ومنها ما هو مغناطيسي إذا قُرب من الحديد جذبه إليه فما المانع عقلا من أن يودع الله هذا الحجر خاصية اجتذاب الماء من جوف الأرض حتى يتفجر منه عيونا أو ارتشاق الهواء الندي من الكرة الأثيرية وتكييفه حتى يخرج منه سلسبيلا عذبا.

٧. تعدد العيون إلى اثني عشر عينا لحكمة وهي أن بني إسرائيل كانوا اثني عشر سبطا، فلو جرت لهم عين واحدة فحسب أدى ذلك إلى التسابق إليها والتقاتل عليها حرصا من كل طائفة أن تكون هي السابقة في الورد، أما وقد تعددت العيون بعدد الأسباط وعرف كل سبط ـ وعُبِّر عنه بأناس ـ مشربه فلا داعي إلى الشقاق لعدم الاحتكاك بين الأسباط واتساع الموارد واختصاص كل سبط بمورده، والتلاحم الأخوي بين أفراد السبط الواحد يرفع عنهم الخلاف والنزاع في الورد.

٨. الأمر بالأكل والشرب للإباحة المصحوبة بالامتنان، ورزق الله مما أنزله عليهم من المن والسلوى، فجَّره لهم من الماء؛ وأضيف الرزق إلى اسم الجلالة، ولم يضف إلي الضمير ليوافق (قلنا) للتنبيه بأن هذا أخطاب وجه إليهم بلسان موسى عليه السلام.

٩. الأرض المقصودة هنا هي أرض التيه، لأن شكر النعمة ينعكس أثره الإجابي على الأرض التي يحلها الشاكر لما يصدر عنه من خير وصلاح، وكذلك كفرها ينعكس أثره السلبي على موضع حلول الكافر لما يقع منه من شر وفساد، ويجوز أن يراد بالأرض الكرة الأرضية بجميع أجزائها لأن تمادي الناس على الضلالة، وتواطؤهم على الفساد يسكبان الشر الوبيل عليها جميعا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، وهو معهود عندما تنتشر المعصية ولا تجد مقاومة من أحد.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. انفجار العيون في الصّحراء تذكير آخر بنعمة أخرى من نعم الله على بني إسرائيل، وهذا التذكير تشير إليه كلمة (إذ) المقصود منها (واذكروا إذ)، وهذه النعمة أغدقها الله عليهم، حين كان بنو إسرائيل في أمسّ الحاجة إلى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى عليه السّلام من الله عزّ وجلّ الماء: ﴿وَإِذِ

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٤١.

اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، فتقبل الله طلبه، وأمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد قبائل بني إسرائيل، وكل عين جرت نحو قبيلة بحيث أن كل قبيلة كانت تعرف العين التي تخصّها ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾

٢. كثرت الأقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون، وكيفية ضربه بالعصا، والقرآن لا يزيد على ذكر ما سبق.. قال بعض المفسرين: إن هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطلة على الصحراء.

٣. تدل جملة ﴿انبجست﴾ الواردة في سورة الأعراف على أن المياه جرت قليلة أولا، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بني إسرائيل مع مواشيهم ودوابهم.

٤. ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية، لكن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز كما هو واضح.

٥. ثمة أقوال تذكر أن ذلك الحجر كان من نوع خاص حمله بنو إسرائيل معهم، ومتى احتاجوا إلى الماء ضربه موسى بعصاه فيجري من الماء، وليس في القرآن ما يثبت ذلك، وإن أشارت إليه بعض الروايات.

٦. في الفصل السابع عشر من (سفر الخروج) تذكر التوراة: فقال الرب لموسى سر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل)

٧. في الآية الكريمة ورد الفعل (انفجر) ليعبّر عن تدفق الماء من الحجر، بينما ورد الفعل (انبجس) في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف ليشير إلى نفس الحقيقة مع فارق هو أن الأول يفصح عن شدة تدفّق الماء، والثاني عن سيلانه بشكل هادئ.. لعل آية سورة الأعراف تتحدث عن المرحلة الأولى من ظهور الماء، وجريانه بشكل هادئ لا يثير فزع القوم، ولا يمنعهم من السيطرة عليه، بينما تشير الآية التي نحن في صددها إلى المرحلة النهائية حيث اشتد جريان الماء، والراغب في مفرداته يفسر الانبجاس والإنفجار بشكل يتناسب مع ما أشرنا إليه إذ يقول: بجس الماء وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والإنفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع.

٨. منّ الله على بني إسرائيل بإنزال المنّ والسلوى، وفي هذه المرّة يمنّ عليهم بالماء الذي يعزّ في تلك

الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِّ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وفي هذه العبارة حث لهم على ترك العناد وإيذاء الأنبياء، وأن يكون هذا أقل شكرهم لله على هذه النعم.

٩. نهى الله سبحانه بني إسرائيل عن الفساد بفعل ﴿لا تَعْثَوْا﴾، من العثّي وهو شدة الفساد، وتشبه في معناها (العيث)، إلّا أنّ العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسا، والعثيّ فيما يدرك حكما، وبهذا يكون معنى ﴿لا تَعْثَوْا﴾ هو معنى (المفسدين) ولكنه مع تأكيد أشد.. وتشير عبارة النهي بأجمعها إلى حقيقة بدء الفساد من نقطة صغيرة، واتساعها واشتدادها بعد ذلك. أي تبدأ بالفساد وتنتهي بالعثيّ الأرض، وهو شدة الفساد واتساعه.

١٠. المعجزة ليست أمرا محالا، وليست استثناء في قانون العليّة، بل إنها خرق لما ألفناه واعتدنا عليه، أو بعبارة أخرى، خرق لما ألفناه في حياتنا اليوميّة من ارتباط بين العلة والمعلول.. وطبيعي أن تغيير مسير العلل والمعلولات ليس بعسير على الله سبحانه، ولو خلق الله هذه العلل والمعلولات منذ البدء بشكل آخر غير ما هي عليه اليوم، لكان هذا الذي نألفه اليوم خارقا للعادة.. باختصار، خالق عالم الوجود ونظام العليّة حاكم على ما خلق لا محكوم له، وفي حياتنا اليومية صور كثيرة للاستثناءات في النظام القائم للعلل والمعلولات، ومسألة الإعجاز لا تشكل أية مشكلة عقلية أو علمية.

٢٤. بنو إسرائيل والملل والتعنت

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾، قال الحنطة، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت أحيحة بن الجلاح وهو يقول[١]:

قد كنت أغنى الناس شخصا ... ورد المدينة عن زراعة فوم

٢ . روي أنّه قال: ﴿وَفُومِهَا﴾ الحنطة والخبز، وفي لفظ: البر، وفي لفظ: الحنطة، بلسان بني هاشم[٢].

٣ . روي أنّه قال: الفوم: الثوم[٣].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ كان طعامهم السلوى، وشرابهم

---

(١) الطبراني في الكبير: ١٠٥٩٧. وابن جرير: ٢/١٨.

(٢) ابن جرير: ٢/١٧.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٢٣.

المن، فسألوا ما ذكر، فقيل لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ يعني به: مصر فرعون[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الفاقة[3].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ المن والسلوى استبدلوا به البقل وما ذكر معه[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ مصرا من الأمصار، زعموا أنهم لم يرجعوا إلى مصر[5].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: فبطروا ذلك، ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا يعيشون فيه، وكانوا قوما أهل أعداس وبصل وبقول وفوم، فذكروا عيشهم من ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[6].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ملوا طعامهم في البرية، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل ذلك، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الآية[7].

---

(١) ابن جرير: ٢/١٢.

(٢) ابن جرير: ٢/٢٣.

(٣) ابن جرير: ٢/٢٧.

(٤) ابن جرير: ٢/١٣.

(٥) ابن جرير: ٢/٢٢.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١٢٣.

(٧) عبد الرزاق: ١/٤٧.

٢. روي أنّه قال: إنهم لما قدموا الشام فقدوا أطعمتهم التي كانوا يأكلونها، فقالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[1].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ فالفوم الحنطة.. وواحدها فومة، ويقال: الفوم: هو الثّوم[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ فالذّلة: الصّغار وإعطاء الجزية والمسكنة: الفقر[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي احتملوه.. وباءوا به: معناه أقرّوا به[4].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أعطوا في التيه ما أعطوا، فأجموا ذلك، وقالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ فلما خرجوا من التيه رفع المن والسلوى، وأكلوا البقول[6].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر[7].

مقاتل:

---

(١) ابن جرير: ٢/١٣.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

(٤) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

(٥) ابن جرير: ٢/١٣.

(٦) ابن جرير: ٢/٢٢.

(٧) ابن جرير: ٢/٢٨.

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: فلما طال عليهم المن والسلوى سألوا موسى نبات الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ في التيه: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ يعني: المن والسلوى[1].

٢. روي أنّه قال: فلما طال عليهم المن والسلوى سألوا موسى نبات الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ في التيه: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ يعني: المن والسلوى؛ ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾ يعني: الثوم، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، فغضب موسى عليه السلام[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ يقول: الذي هو دون المن والسلوى من نبات الأرض ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ يعني: المن والسلوى!؟ فقال موسى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ﴾ الذل والمسكنة الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ في أديانهم[5].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدا، وشرابهم واحدا، كان شرابهم عسلا ينزل لهم من السماء يقال له: المن، وطعامهم طير يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكونوا يعرفون خبزا ولا غيره، فقالوا: يا موسى، إنا لن نصبر على طعام واحد، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾[6].

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١١١.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١١١.

(٣) تفسير مقاتل: ١/١١١.

(٤) تفسير مقاتل: ١/١١١.

(٥) تفسير مقاتل: ١/١١١.

(٦) ابن جرير: ٢/١٤.

٢. روي أنّه قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ مصرا من الأمصار ـ و(مصر) لا تجرى في الكلام ـ، فقالوا: أي مصر؟ قال الأرض المقدسة، وقرأ قول الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١][١].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ قد قيل: إن الفوم هو: هذا البقول، وهو الباقلاء.

٢. والعدس هو: هذا المعروف الذي يسمى البلسن، ويسمى العدس.

٣. قد يروى أن بعض العرب: كانوا يسمون الفوم البر، ومن ذلك ما يقول أبو طالب:

قد كنت أحسبني ذا غنى واحد　　　سكن المدينة عن زراعة فوم

فيقال: إنه البر، ولا أدري ما صحة ذلك.

٤. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، هي: مصر المعروفة باسمها، وقد تسمى المدن أمصارا، وقد قيل: إن هذا المصر الذي ذكر مصر من أمصار الشام؛ إذ قيل: مصرا[٣].

٥. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ معنى الذلة هو: قلة الانتصار، والضعف والوهن والاحتقار، من بعد الارتفاع والقدر والإكرام.

٦. والمسكنة هي: الفقر والقلة؛ وذلك بما كسبت أيديهم، واجتلبوه من المعاقبة والخذلان لأنفسهم، وما ربك بظلام للعبيد.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[٤]:

١. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ قيل فيه بوجوه:

---

(١) ابن جرير: ٢/٢٣.

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٤٤.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٤٤.

(٤) تأويلات أهل السنة: ١/٤٨١.

أ. قيل: أول ما أنزل المن، فعند ذلك قالوا: لن نصبر على طعام واحد، ثم أنزل السلوى.

ب. وقيل: كانوا يتخذون من المن القرص، فيأكلون مع السلوى، فهو طعام واحد؛ فقالوا: لن نصبر عليه.

ج. ويحتمل: أن يكون طعامهم في اليوم مرة؛ فطلبوا الأطعمة المختلفة.

٢. معنى إضافة خصوصية الأشياء إلى الله ـ عزّ وجل ـ يخرج مخرج التعظيم لذلك الشيء المخصوص، من ذلك: بيت الله، ورسول الله، وناقة الله، هذا كله يخرج مخرج التعظيم لهذه الأشياء، وإضافة كلية الأشياء إلى الله تعالى يخرج مخرج تعظيم الرب وإجلاله، نحو ما قال ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، و ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الأنعام: ١٠٢، الزمر: ٦٢، غافر: ٦٢]، و ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦، الأنبياء: ٥٦]، و ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١، الأعراف: ٥٤، يونس: ٣] ونحوه. هذا كله وصف تعظيم الرب وإجلاله.

٣. اختلف في (الفوم):

أ. قيل: الفوم هو الثوم، وكذلك روى في قراءة عبد الله أنه قرأه: وثومها.

ب. وقيل: الفوم البر.

٤. ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، قيل في (أدنى) بوجوه:

أ. قيل: أدنى في القيمة.

ب. وقيل: أدنى في الخطر والرغبة.

ج. وقيل: أدنى في المنافع.

د. وقيل: أدنى؛ لما لا يصل هذا إليهم إلا بالمؤنة والمشقة، وذلك لهم بلا مئونة ولا مشقة؛ فهو خير. وكل يرجع إلى واحد، ويحتمل أدنى، أي أدون وأقل، ولا شك أن ما طلبوا، وسألوا دون الذي كان لهم.

٥. يحتمل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾: قد أعطوا، ولو كان ذلك أصلح لهم في الدين، لم يكن موسى ليلومهم عليه، ثبت أنه لم يكن، ثم أعطوا ذلك، ثبت أن الله تعالى قد يجوز له ـ في الحكمة ـ فعل ما كان غيره أصلح لهم في الدين.

٦. اختلف في معنى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾:

أ. قيل: المصر المعروف.

ب. وقيل: مصر من الأمصار؛ لأن ما طلبوا لا يوجد إلا في الأمصار، وبالله التوفيق.

﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ من الأطعمة المختلفة إن كان المراد منه المراد، وإن كان الأطعمة المختلفة فهو كما قال.

٧. في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ وجوه:

أ. قيل: الذلة: ذلة احتمال المؤنة والشدائد؛ لما سألوا من الأطعمة المختلفة.

ب. وقيل: الذلة: ذلة الجزية والصغار؛ بعصيانهم ربّهم.

ج. وقيل: ذلة الكسب والعمل؛ لأن الأول كان يأتيهم من غير كسب ولا مئونة.

٨. اختلف في معنى قوله: ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾:

أ. قيل: هي الفقر والحاجة.

ب. وقيل: قطع رجائهم من الآخرة،؛ لما عصوا ربهم.

٩. اختلف في معنى قوله: ﴿وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ وكله يرجع إلى واحد ﴿انْقَلَبُوا﴾:

أ. قيل: باؤوا: رجعوا.

ب. وقيل: استوجبوا.

ج. وقيل: أقروا.

١٠. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

أ. يحتمل: أن يكون هذا في غيرهم؛ لأنه لم يكن في زمن موسى نبيّ سوى هارون، وهم لم يقتلوه، إلا أن يقال: إن ذلك كان من أولادهم بعد موسى.

ب. أو كان ذلك من غيرهم سوى هؤلاء وأولادهم، على أن قتل الأنبياء في بنى إسرائيل كان ظاهرا، حتى قيل: قتل في يوم كذا كذا نبيّا.

١١. لم يذكر الله تعالى قتل رسول من الرسل، وذلك:

أ. لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ولقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]

أخبر أنه ينصرهم، وأنهم منصورون ومن كان الله ناصره فهو المنصور أبدا.

ب. ولأن الرسل هم الذين أوتوا الآيات المعجزة؛ فلم يكن لهم استقبال الرسل بذلك للآيات التي كانت معهم.

ج. وأما الأنبياء، فلم يكن معهم تلك الآيات المعجزة، وإنما كانوا يدعون الخلق إلى دين الله بالآيات التي كانت للرسل، والحجج التي كانت معهم؛ لذلك كان ما ذكر.

١٢. قال قوم: لم يقتل أحد من الرسل، وإنما قتل الأنبياء، أو رسل الرسل:

أ. فإن كان كذلك فعلى ذلك يخرج ما ذكرنا من الآيات.

ب. وإن لم يكن فالنصر كان بالحجج والآيات؛ فكانت تلك للكل.

١٣. بناء على هذا: لا دلالة في كون الآيات مع الأنبياء، وغير كونها، فإن لم يكن لهم ابتداء شرع، ولا نسخ، بل على الدعاء إلى ما سبق من الشرائع وكانت آياتهم كآيات الرسل، أو دلالات العصمة، مع ما كان بهم حفظ الكتب السماوية بلا تبديل.. والله أعلم بالحق في ذلك، ونعتصم بالله عن بسط اللسان في ذلك، بالتدبير، دون شيء ظهر على ألسن الرسل، أو القول فيهم بشيء إن كانت آية لكل، أو لا، لكن الله تعالى قد أقام حجته لكلّ على قدر الكفاية والتمام.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَفُومِهَا﴾ في الفوم ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: البر ويستشهد عليه قال أحيحة:

قد كننا عنا الناس شخصاً ورد المدينة عن زراعة فوم

ب. الثاني: أنه الخبز يقال: فوموا لنا الطعام أي اخبزوه.

ج. الثالث: أنه الثوم بالثاء والعرب تبدل من الثاء الفاء فتقول: جدف، في معنى جدث ومفل في معنى مثل.

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٥٧.

٢. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قرئ بالتنوين وبترك التنوين:

أ. فمن ترك التنوين، فقد أراد مصر المعروف.

ب. ومن نون فقد أراد به مصراً من الأمصار.

٣. في اشتقاق مصر قولان:

أ. أحدهما: أنه مشتق من القطع لانقطاعه بالعمر.

ب. الثاني: أنه مشتق من الفصل بين الشيئين قال علي بن زيد:

وجاعل الشمس مصرا ... بين النهار وبين الليل قد فصلا

وقيل: إن البيت لأمية بن أبي الصلت لا خفاء به.

٤. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي الذل والصغار وقيل: فرض الجزية عليهم.

٥. ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر والفاقة.

٦. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

أ. أي نزلوا منزلة غضب الله، وروي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ برجل فقال: هذا قاتل أخي فهو بواء به أي إنه مقتول به فينزل منزلته ومنه قول الشاعر:

أبأنا به قتلا وما في دمائهم ... وفاء وهن الساقيات الحوائم

ب. وقيل: معناه التسوية أي استواء في العقاب.

٧. الغضب من الله سبحانه الانتقام.

٨. قوله تعالى: ﴿وباؤوا﴾:

أ. روى عبادة بن الصامت قال: ختل الله الأنفال إلى نبيه ﷺ فيقسمها بينهم على بواء، أي استواء.

ب. وقيل: باءوا رجعوا إما بخير وإما بشر.

٩. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ إنما جاز أن يخلي الله سبحانه وتعالى بين الكفار وبين الأنبياء لينال الأنبياء الدرجات الرفيعة والمنازل العلية بالقتل ما لا ينالون بغيره وليس ذلك بخذلان لهم كما يفعل بالمؤمنين من أهل طاعته، وقد قيل إنه ما أمر نبي بالحرب إلا ونصر ولم يقتلوا، وإنما يخلي بين الكفار وبين من لا يؤمر بالقتال من الأنبياء.

١٠. الأنبياء جمع نبي، وقد قيل النبأ، قال العباس بن مرداس في النبي ﷺ:

يا خير من أنباءَ إنك مرسل ... بالخير خير هدى الإله هداكا

١١. في اشتقاق النبي ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها أنه مأخوذ من النبأ وهو الخبر لأنه نبأ عن الله عز وجل ومنه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾

ب. الثاني: أن أصل النبأ الطريق قال القطامي:

لما وردت نبياً واستبنت نبا ... مستحقراً كخطوط الرمل

سمي رسول الله ﷺ نبياً لأنه الطريق إليه.

ج. الثالث: أنه من النبوة وهي الرفعة لأن منازل الأنبياء أرفع وأشرف.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في ﴿وَفُومِهَا﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: أنه الحنطة، وهو قول ابن عباس، وقتادة، والسدي، وأنشد ابن عباس من سأله عن الفوم، وأنه الحنطة قول أحيحة بن الجلاح:

قد كنت أغنى النّاس شخصا ... ورد المدينة عن زراعة فوم

ب. الثاني: أنّه الخبز، وهو قول مجاهد، وابن زيد، وعطاء.

قد كنت أحسبني كأغنى واحد ... نزل المدينة

ج. الثالث: أنه الثوم بالثاء، وذلك صريح في قراءة ابن مسعود، وهو قول الربيع بن أنس والكسائي.

٢. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ وفي المصر الذي عناه قولان:

أ. أحدهما: أنه أراد أيّ مصر، أرادوا من غير تعيين؛ لأنّ ما سألوا من البقل والقثّاء والفوم، لا

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١٢٩.

يكون إلا في الأمصار، وهذا قول قتادة، والسدي ومجاهد، وابن زيد.

ب. والثاني: أنه أراد مصر فرعون، الذي خرجوا منه، وهذا قول الحسن، وأبي العالية والربيع.

٣. اختلف في اشتقاق المصر، فمنهم من قال إنه مشتق من القطع، لانقطاعه بالعمارة، ومنهم من قال إنه مشتق من الفصل بينه وبين غيره، قال عدي بن زيد:

وجاعل الشّمس مصرا لا خفاء   بين النّهار وبين اللّيل قد فصلا

٤. في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أنّه من الذّلّة والصغار.

ب. الثاني: أنّه فرض الجزية عليهم، وهذا قول الحسن وقتادة.

٥. في (المسكنة) تأويلان:

أ. أحدهما: أنها الفاقة، وهو قول أبي العالية.

ب. الثاني: أنه الفقر، وهو قول السدي.

٦. في قوله تعالى: ﴿وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: وهو قول أبي العباس المبرّد: أن أصل ذلك: المنزلة، ومعناه أنهم نزلوا بمنزلة غضب الله، وروي: أن رجلا جاء برجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: هذا قاتل أخي، قال: فهو بواء به) أي أنه مقتول، فيصير في منزلته، وتقول ليلى الأخيليّة:

فإن يكن القتلى بواء فإنّكم   فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر

ب. الثاني: وهو قول أبي إسحاق الزجّاج: أن أصل ذلك التسوية، ومعناه: أنهم تساووا بغضب من الله، ومنه ما يروى عن عبادة بن الصامت قال: جعل الله الأنفال إلى نبيّه ﷺ، فقسمها بينهم على بواء)، أي على سواء بينهم في القسم.

ج. الثالث: وهو قول الكسائي، أن معناه أنهم رجعوا بغضب من الله، قال البواء: الرجوع، إلا أنه لا يكون رجوعا إلا بشيء: إمّا بشرّ، وإمّا بخير.

٧. في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أن الله عزّ وجل؛ إنما جاز أن يخلّي بين الكفّار وقتل الأنبياء، لينالوا من رفيع المنازل ما

لا ينالونه بغيره، وليس ذلك بخذلان لهم، كما يفعل بالمؤمنين من أهل طاعته.

ب. الثاني: وهو قول الحسن، أن الله عزّ وجل، ما أمر نبيًا بالحرب إلا نصره فلم يقتل، وإنما خلّى بين الكفار وبين قتل من لم يؤمر بالقتال من الأنبياء.

٨. ﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾ جمع (نبيّ)، وقد جاء في جمع (نبيّ): نبّاء)، قال العباس ابن مرداس السّلمي، يمدح النبيّ ﷺ:

يا خاتم النّباء إنّك مرسل ... بالحقّ حيث هدى الإله هداكا

وفيما أخذ منه اسم النبيّ، ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنه مأخوذ من النبأ، وهو الخبر، لأنه ينبئ عن الله، أي يخبر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [النجم: ٣٦].

ب. الثاني: أن أصل النبيّ هو الطريق، قال القطامي:

لّما وردنا نبيّا واستتبّ لنا ... مستحفر بخطوط النّسج

فسمّي رسول الله ﷺ نبيّا، لأنه الطريق إليه.

ج. الثالث: أنه مأخوذ من النّبوّة؛ لأن منزلة الأنبياء رفيعة.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. كأنه قال: واذكروا إذ قلتم: يا معشر بني إسرائيل، لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد، وذلك الطعام هو ما اخبر الله عز وجل إذ أطعمهم في تيههم وهو السلوى في قول اهل التفسير، وفي قول ابن منبه: الخبز النقي مع اللحم.

٢. قيل: ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض: من البقل، والقثاء، وما سماه الله مع ذلك وذكر انه سألوه لموسى وكان سبب مسألتهم ذلك ما رواه قتادة، قال: كان القوم في البرية، وقد ظلل عليهم الغمام، وانزل عليهم المن والسلوى. فملوا ذلك وذكروا عينا كانت لهم بمصر فسألوا ذلك موسى، فقال

---

(١) تفسير الطوسي: ١/٢٧٥.

الله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾

٣. إنما قال: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، لان (من) تدخل للتبعيض، ولو لم تدخل هاهنا لكانت المسألة تدخل على جميع ما تنبته الأرض، فاتوا ب (من) التي نابت مناب البعض حيث قامت مقامه، وفي الناس من قال إن من ها هنا زائدة وانها تجري مجرى قولهم: ما جاءني من احد والصحيح: الاول، لان من لا تزاد في الإيجاب، وإنما تزاد في النفي، ولان من المعلوم انهم ما أرادوا جميع ما تنبته الأرض وجرى ذلك مجرى قول القائل: أصبت اليوم من الطعام عند فلان. يريد أصبت شيئاً منه.

٤. البقل، والقثاء: معروفان، وفي القثاء لغتان: ضم القاف، وكسرها، والكسر أجود، وهي لغة القرآن، وإنما ذكر الله تعالى هذه الألفاظ وان لم تكن لائقة بفصاحة القرآن على وجه الحكاية عنهم.

٥. اختلف في معنى الفوم:

أ. قال ابن عباس وابو جعفر الباقر عليه السلام وقتادة والسدي: انه الحنطة، وانشد ابن عباس: قول أحيحة ابن الحلاج:

قد كنت اغنى الناس شخصاً ورد المدينة عن زراعة قوم

ب. قال الزجاج، وهذا بعيد، لأنه لا يعرف الثوم بمعنى القوم، لان القوم لا يجوز ان يطلبوا الثوم ولا يطلبون الخبز الذي هو الأصل، وايضا:

قد كنت أحسبني كأغنى واحد نزل المدينة عن زراعة قوم

كانت لهم جنة إذ ذاك ظاهرة فيها الفراديس والفومان

فلا خلاف أن الفوم: هو الطعام، وان كان كل حب يخبز منه يقال: له فوم.

٦. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما ـ الذي هو ادنى الطعامين بدلا من أجودهما.

ب. الثاني ـ الذي تتبدلون في زراعته وصناعته بما أعطاكم الله عفوا من المن والسلوى.

٧. أَدْنى: معناه: القرب، وليس هذا موضعه، ولكنه موضع الخساسة، ولو كان ما سألوه أقرب اليهم، لما سألوه، ولا التمسوه، ويجوز أن يجعل ادنى واقرب بمعنى: أدون: كما تقول هذا شيء مقارب اى دون، وحكى الأزهري عن أبي زيد (الداني) بلا همز: الخسيس، والدنيء بالهمز: ـ الماجن.

٨. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ تقديره: فدعا موسى فاستجبنا له، فقلنا لهم: اهبطوا مصرا، وقد تم الكلام، لأن الله أجابهم بقوله: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ﴾، ثم استأنف حكم الذين اعتدوا في السبت، ومن قتل الأنبياء فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾

٩. اختلف في معنى ﴿مِصْرًا﴾

أ. قال قتادة، والسدي، ومجاهد، وابن زيد: أنه أراد مصراً من غير تعيين لان ما سألوه من البقل والقثاء لا يكون إلا في الأمصار.

ب. قال الحسن وابو العالية، والربيع: إنه أراد مصر فرعون الذي خرجوا منه.

ج. قال ابو مسلم محمد بن بحر: أراد بيت المقدس لقوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وروي ذلك عن ابن زيد.

١٠. اختلف في اشتقاق مصر:

أ. قال بعضهم: هو من القطع لانقطاعه بالعمارة.

ب. منهم من قال: هو مشتق من الفصل بينه وبين غيره. قال عدي ابن زيد:

وجاعل الشمس مصراً لا خفاء   بين النهار وبين الليل قد فصلا

١١. من نون أراد مصراً من الأمصار غير معين، ويجوز أيضاً أن يريد مصراً بعينه الذي خرجوا منه، وإنما نون اتباعاً للمصحف، لأن في المصحف ألف: كما قرأ: ﴿قَوارِيرَا قَوارِيرَا﴾ منوناً اتباعاً لخط المصحف، ومن لم ينون أراد مصر بعينها لا غير، وكل ذلك محتمل.

١٢. ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ استئناف كلام. بما فعل الله بهم، يعني بالذين اعتدوا في السبت، وقتلوا الأنبياء.

١٣. اختلف في معنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾:

أ. قيل: أي فرضت ووضعت عليهم الذلة، والزموها من قول القائل: ضرب الامام الجزية على اهل الذمة، وضرب فلان على عبده الخراج، وضرب الأمير على الجيش البعث. يريد بجميع ذلك ألزم ذلك، وبه قال الحسن، وقتادة.

ب. وقيل: أي حلوا بمنزلة الذل والمسكنة. مأخوذ من (ضرب القباب). قال الفرزدق في جرير:

ضربت عليك العنكبوت   وقضى عليك به الكتاب المنزل

١٤. (الذلة): فقال الحسن وقتادة، وغيره: يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.. وهي مشتقة من قولهم: ذل فلان يذل ذلا وذلة.

١٥. المسكنة: مصدر التسكين، يقال: ما فيهم أسكن من فلان، وما كان سكيناً، ولكن تمسكن تمسكناً، ومنهم من يقول: تسكن تسكنا، والمسكنة ها هنا:

أ. قيل: مسكنة الفاقة والحاجة: وهي خشوعها وذلها، تقول: ما في بني فلان اسكن من فلان: أي أفقر منه، وهو قول أبي العالية والسدي.

ب. وقال ابن زيد: المعني يهود بني إسرائيل. أبدلهم الله (تعالى بالعز ذلًا، وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضبا، جزاء منه بما كفروا بآياته، وقتلهم أنبياءه ورسله اعتداء وظلماً.

١٦. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

أ. قيل: أي انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باء إلا موصولا: إما بخير واما بشر، واكثر ما يستعمل في الشر، كذا. قال الكسائي، ويقال: باء بدينه يبوء به بوء، ومنه قوله تعالى: ﴿أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يعني ترجع. بما قد صار عليك دوني، فمعنى الكلام: ارجعوا منصرفين متحملين غضب الله، وروي أن رجلا جاء برجل الى النبي ﷺ، فقال: هذا قاتل أخي، وهو بواء به: أي مقتوله به، ومنه قول ليلى الأخيلية:

فان تكن القتلى بواء فإنكم   فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر

ب. وقال الزجاج: أصل ذلك التسوية، ومعنى ذلك أنهم تساووا بغضب من الله ومنه ما روي عن عبادة بن الصامت قال جعل الله تعالى الأنفال الى نبيه، فقسمها بينهم على بواء أي: على سواء بينهم في القسم، ومنه قول الشاعر:

فيقتل خيراً بامرئ لم يكن به   بواء ولكن لا نكايل بالدم

والأصل: الرجوع. على ما ذكرناه.

ج. وقال قوم: هو الاعتراف، ومعناه: انهم اعترفوا بما يوجب عليهم غضب الله، ومنه قول الشاعر:

إني أبوء بعثرتي وخطيئتي   ربي وهل إلا إليك المهرب

١٧. أما الغضب:

أ. قال قوم: ما حل بهم من البلاء والنقمة في دار الدنيا بدلا من الرخاء والنعمة.

ب. قال آخرون: هو ما بينا لهم في الآخرة من العقاب على معاصيهم.

١٨. اختلفوا في اشتقاق النبيين:

أ. قال بعضهم: من انبائك الامر: كأنه انبأ عن الله وأخبر عنه. فترك الهمز ذلك لكثرة ما يجزي.

ب. وقال الكسائي: النبي: الطريق يراد به أنه علم وطريق الى الحق، وأصله من النبوة والنجوة: المكان المرتفع.

١٩. من قال هو مشتق من الانباء، قال جاء فعيل بمعنى مفعل: كما قال سميع بمعنى مسمع، كذلك قالوا: نبيء بمعنى منبأ، وبصير بمعنى مبصر، وأبدل مكان الهمزة من النبيء الياء، فقالوا: نبيّ هذا ويجمع النبي أنبياء، وإنما جمعوه كذلك، لأنهم ألحقوا النبي بابدال الهمزة منه ياء. فالنعوت التي تأتي على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو وذلك كقولهم: ولي واولياء، ووصي وأوصياء، ودعي وادعياء، ولو جمعوه على أصله، والواحد بني ليعتل اليها، لأن فعيلا تجمع فعلاء: كقولهم: سفيه وسفهاء وفقيه وفقهاء، وشريك وشركاء، وقد سمع من العرب: النبآء، وذلك في لغة من همز النبي، ومن قول العباس بن مرداس السلمي في وصف النبي ﷺ ومدحه:

يا خاتم النبآء انك مرسل   بالخير كل هدى السبيل هداكا

فجمع على أن واحدهم نبيء ـ مهموز ـ

٢٠. قد قال بعضهم: النبي والنبوة غير مهموزين، لأنهما مأخوذان من النبوة، وهي مثل النجاة، وهما مأخوذان من المكان المرتفع، وكل يقول: إن اصل النبي: الطريق قال القطامي:

لما وردن نبيا واستتب بها   مسحنفر كخطوط السيح

قالوا: وسمي الطريق نبياً، لأنه ظاهر مبين من النبوة قال ابو علي الفارسي: قال ابو زيد: نبأت من ارض الى أرض، وانا انبأ نباء ونبوء: إذا خرجت منها الى أخرى، وليس اشتقاق النبي من هذا ـ وان كان من لفظه ولكنه من النبأ الذي هو الخبر. كأنه المخبر عن الله. فان قلت: لم لا يكون من النباوة ومما أنشده ابو عثمان، قال انشدني ابن كيسان:

محض الضريبة في البيت الذي فيه النباوة حلواً غير ممذوق

او يجوز فيه الأمرين؟ فتقول: إنه يجوز أن يكون من النباوة ومن النبأ كما أجيز في عضة أن يكون من الواو: كقوله وعضوات، ومن الهاء كقوله: لها بعضاه الأرض تهرير

قال وليس ذلك كالعضة، لأن سيبويه زعم أنهم يقولون في تحقير النبوة: كان مسيلمة بنبوءته نبيئة سوء، وكلهم يقولون: تنبأ مسيلمة، ولو كان يحتمل الامرين جميعاً، لما اجتمعوا على أنبياء ولا على النبيئة. فان قيل: فلم لا لا يستدل بقولهم: أنبياء؟ قيل: ما ذكرته لا يدل على تجويز الأمرين، لأن (أنبياء) انما جاز، لأن البدل لما الزم في نبيء، صار في لزوم البدل له: كقولهم: عيد وأعياد. فكما أن عيد لا يدل على أنه من الياء لكونه من عود الشيء. كذلك لا يدل أنبياء على انه من النباوة، ولكن لما لزم البدل، جعل بمنزلة تقي وأتقياء، وصفي وأصفياء. فلما لزم، صار كالبرية، والخلية، ونحو ذلك، مما لزم الهمزة فيه حرف اللين بدلا من الهمزة، لما دل على أنه من الهمزة، وأنه لا يعترض عليه شيء وصار قول من حقق الهمزة في الشيء، كرد الشيء إلى الأصل المرفوع استعماله: نحو وذر وودع. فمن ثم كان التخفيف فيه الأكثر.

٢١. ما روي في الحديث: من أن بعضهم قال يا نبي الله، فقال: لست بنبيء الله ولكني نبي الله، قال ابو علي: أظن أن من اهل النقل من ضعف اسناده، ومما يقوي تضعيفه أن من مدح النبي ﷺ فقال: يا خانم النبآء لم يؤثر فيه انكار عليه، ولو كان في واحدة نكير، لكان في الجميع مثله، ثم بينا فيما مضى: أن الصبر كف النفس، وحبسها عن الشيء.

٢٢. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارة الى ما تقدم ذكره من ضرب الذلة والمسكنة، وإحلال غضبه بهم، لأنه يشتمل على جميع ذلك ومعنى ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي لأجل أنهم كانوا يكفرون بآيات الله، فعلنا بهم ما فعلنا من انواع العذاب.

٢٣. ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لا يدل على أنه قد يصح أن يقتلوهم بحق، لأن هذا خرج مخرج الصفة لقتلهم، وانه لا يكون إلا ظلماً بغير حق: كما قال ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وكما قال ﴿رَبِّ احْكُمْ﴾ ﴿بِالْحَقِّ﴾، وكما قال الشاعر: على لا حب لا يهتدي بمناره.. ومعناه ليس هناك منار يهتدى به، ومثله كثير.

٢٤. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾:

أ. قيل: إشارة الى ما انزل الله من الذلة والمسكنة بما عصوا من قتلهم الأنبياء وعدوهم في السبت وغير ذلك.

ب. وقيل: معناه: نقض العهد.

٢٥. كانوا يعتقدون في قتل الأنبياء، روي انهم كانوا إذا قتلوا النبي في أول النهار قامت سوق بقتلهم في آخره.

٢٦. إنما خلى الله بين الكافرين، وقتل الأنبياء، لينالوا من رفيع المنازل ما لم ينالوه بغيره وليس ذلك بخذلان لهم كما فعل بالمؤمن من أهل طاعته، وقال الحسن: ان الله تعالى ما امر نبياً بالحرب الا نصره، فلم يقتل: وإنما خلى بينه وبين قتل من لم يؤمر بالقتال من الأنبياء.

٢٧. الصحيح أن النبي ان كان لم يؤد الشرع، لا يجوز أن يمكن الله من قتله، لأنه لو مكن فقتل لأدى الى ان تزاح علل المكلفين فيما لهم من الالطاف، والمصالح فإذا أدوا الشرع، جاز حينئذ أن يخلي بينهم، وبين من قتلهم، لأنه لا يجب المنع منه.

٢٨. الاعتداء تجاوز الحد الذي حده الله لعباده الى غيره وكل متجاوز حد شيء الى غيره فقد تعداه الى ما تجاوز اليه فمعنى الكلام فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا امري وتجاوزوا حده الى ما نهيتهم عنه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الصبر: أصله الحبس، ونقيضه الجزع، وهو حبس النفس عن الشيء، صبر صبرًا، وحده: حبس النفس عما تنازع إليه، قال الشاعر:

فَإِنْ تَصْبِرَا فَالصَّبْرُ خَيْرُ مَغِبَّةٍ وَإِنْ تَجْزَعَا فالْأَمْرُ مَا تَرَيَانِ

ب. الطعام: ما يتغذى به، والطعم بضم الطاء: الأكل، والطَّعْم: عرض يدرك بحاسة الذوق،

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/٤٠٧.

والطعام جوهر يتغذى به.

ج. الواحد: الفرد، والواحد: أول عدد الحساب، وَحَدُّه ما لا يتجزأ، واللهّ واحد لتفرده بصفاته الحسنى.

د. الدعاء: قيل: أصله النداء عن ابن السراج، فكأن من يدعو ربه يناديه، وحقيقة الدعاء: قول القائل لمن فوقه: افعل، والفرق بينه وبين الأمر يظهر بالرتبة.

هـ. الإنبات: إخراج النبات، ومنه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ﴾ وأصله من الظهور فكأنه ظهر إذا نبت.

و. البقل: العشب، وما ينبته الربيع، يقال: بقلت الأرض، وأبقلت، لغتان فصيحتان، إذ النبت البقل، والبقل كل نبات ليس له ساق.

ز. الفوم: الحنطة، وأزد شنوءة يسمون السنبل فومًا.

ح. العدس واحده عدسة، وهو حب معروف.

ط. المصر: أصله القطع، يقال: مصرت الشيء إذا قطعت بعضه من بعض، وسمي البلد مصرًا؛ لأنه منقطع بالعمارة عما سواه.

ي. الذلة: الذل، رجل ذليل، ونقيضه العزة.

ك. المسكنة الفقر، والمسكين الفقير، ثم يستعمل في غيره، فيقال: مسكين ترحمًا.

ل. البَوْءُ: الرجوع، وباء: رجع، يقال: بَوَّأْتُهُ منزلاً، أي أنزلته، وأصله قيل: المنزلة، عن ابن عباس، وقيل: التهيئة، عن الزجاج، ومعنى (باؤوا بغضب) كأنه استوى عليهم غضب اللهّ.

م. الاعتداء: تجاوز الحد.

٢. لما عدّ الله تعالى نعمه عليهم بين ما قابلوا به تلك النعم من قلة الشكر، واختيار السوء فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ يعني قال أسلافكم من بني إسرائيل، ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ يعني المن والسلوى.

٣. سؤال وإشكال: كيف قال ﴿طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ولهم المن والسلوى؟ والجواب:

أ. قيل: لما كان غذاؤهم في كل يوم لا يتغير قيل: طعام واحد، كما يقال: لمن داوم على الصوم والصلاة أمره أمر واحد.

ب. وقيل: العرب تعبر عن الاثنين بالواحد، وعن الواحد بالاثنين، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من المَلِح.

٤. سؤال وإشكال: لم قالوا: لن نصبر على المن والسلوى مع فضلهما؟ والجواب:

أ. قيل: كانوا أهل بصل وعدس، قد ألفوه، فاشتاقت طباعهم إلى ما جرت به عاداتهم، فسألوا ذلك، عن الحسن.

ب. وقيل: تبرموا بالمفاوز، واحتشموا أن يظهروا ذلك، فعرضوا بهذا القول: ﴿فَادْعُ لَنَا﴾ أي ادع الله لأجلنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ كل نبت لا ساق له ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ نوع من الخيار.

٥. سؤال وإشكال: سؤالهم هل كان معصية؟ والجواب:

أ. قيل: لا؛ لأن الأول كان مباحًا، فسألوا مباحًا آخر.

ب. وقيل: كان معصية؛ لأنهم لم يرضوا بما اختاره الله لهم، فلذلك ذمهم على ذلك، وهو الأوجه.

٦. اختلف في معنى ﴿وَفُومِهَا﴾:

أ. قيل: هو الخبز، عن ابن عباس.

ب. وقيل: هو الحبوب كلها، عن القتبي.

ج. وقيل: هو الثوم، عن الكلبي والنضر بن شميل، والثاء تبدل من الفاء، يقال: جدث، وجدف، وهو قول الكسائي وأبي عبيدة.

د. وقيل: إنه في مصحف عبد الله، وثومها.

هـ. وقيل: هو الحنطة، عن الحسن وقتادة وعطاء ومجاهد، واختيار المبرد.

٧. ﴿قَالَ﴾ يعني موسى، وقيل: الله قال لهم ذلك: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾:

أ. قيل: أتتركون من الطعام ما هو خير، وتطلبون ما هو شر.

ب. وقيل: أتتركون ما اختار الله لكم، وتريدون ما تختارون لأنفسكم، وهو استفهام، والمراد النهي، أي لا تختاروا ما لا يختاره الله لكم.

٨. على هذين المعنيين (أَدْنَى) من:

أ. قيل: من الدون الذي هو الدوني.

ب. وقيل: هو من الدنو أي تتركون ما هو أقرب مأخذًا، وتختارون ما هو أبعد.

ج. وقيل: بدلوا الأخبث بالألذ.

٩. مصر لا ينصرف، والصرف يجوز فيها من وجهين:

أ. أحدهما: أن يكون اسمًا للمكان، فيصرف على أنه مذكر، سمي به مذكر، فإذا جعل للبقعة لم يصرف، كما يفعل ذلك في أسماء الحي والقبيلة.

ب. والثاني: أن كل اسم مؤنث كان وسطه ساكنًا على ثلاثة أحرف، فإنه يجوز صرفه كهند ودعد وَجُمْل.

١٠. ﴿اهْبِطُوا﴾ انزلوا ﴿مِصْرًا﴾:

أ. قيل: مصرا من الأمصار، عن قتادة والسدي ومجاهد وأبي علي، قال أبو علي: لا يجوز أن يريد المصر المعروفة، لأنهم أمروا بدخول بيت المقدس، قال أبو مسلم: الأمر بذلك لا يقتضي دخول مصر.

ب. وقيل: يعني مصر فرعون، عن الحسن وأبي العالية والربيع والأعمش.

ج. وقيل: بيت المقدس.

١١. اختلف في معنى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾:

أ. قيل: ألزموا الذلة، وهو الذل والهوان.

ب. وقيل: الجزية، لقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ عن الحسن وقتادة.

ج. وقيل: هو الصغار، عن أبي عبيدة.

د. وقيل: هو زي اليهودية.

١٢. اختلف في ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾:

أ. قيل: يعني زي الفقر، فلا ترى يهوديًّا إلا وكأنه فقير، وإن كان من المياسير.

ب. وقيل: هو فقير القلب.

١٣. اختلف في معنى ﴿وَبَاؤُوا﴾:

أ. قيل: رجعوا، عن الكسائي.

ب. وقيل: استحقوا، عن أبي روق.

ج. وقيل: احتملوا، عن أبي عبيدة.

د. وقيل: حل ذلك بهم عن استحقاق، عن أبي مسلم، والمعنى بعد ما كانوا على حالة جميلة صاروا في غضب الله.

١٤. اختلف في معنى ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

أ. قيل: غضبه ذمه إياهم ولعنه لهم.

ب. وقيل: إرادته أن يعاقبهم على ما استحقوه.

ج. وقيل: غضبه عقوبته

١٥. اختلف في معنى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾:

أ. قيل: يعني يجحدون آيات الله وحججه وبيناته.

ب. وقيل: الإنجيل والقرآن، ولذلك قال ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ قيل:

- الأول لكفرهم بعيسى والإنجيل.
- والثاني لكفرهم بمحمد والقرآن؛ وقيل: لترادف المعاصي منهم.

ج. وقيل: آيات الله: صفة محمد ﷺ.

١٦. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بغير جرم كزكريا ويحيى وغيرهما ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي يتجاوزون الحد في أوامره، ويرتكبون محارمه.

١٧. سؤال وإشكال: هم في وقت موسى لم يكفروا، ولا قتلوا نبيًّا؟ والجواب:

أ. قيل: كفروا مرارًا في وقت موسى بعبادة العجل، وبقولهم: اجعل لنا إلهًا وبقولهم: اذهب أنت وربك.

ب. وقيل: إنه أراد بيان ما فعلته فرق اليهود من وقت موسى إلى وقت نبينا.

١٨. سؤال وإشكال: كيف يجوز التخلية بينهم وبين قتل النبي؟ والجواب: الذي يجب أن يعصمه حتى يبلغ رسالته؟ كيلا تفوت المصالح، فإذا بَلَّغَ جاز التخلية، كما يجوز أن يميته.

١٩. سؤال وإشكال: لم قال ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقتل النبي لا يكون قط بحق؟ والجواب:

أ. قيل: تأكيدًا.

ب. وقيل: أراد قتلوهم ظلمًا، وسواء قوله قتلته بغير حق، أو قتلته ظلمًا، عن أبي مسلم.

٢٠. تدل الآيات الكريمة على:

أ. سوء اختيار العبد، وأن اختيار اللهّ له خير من اختياره لنفسه.

ب. سوء بصيرة أولئك القوم.

ج. معجزة نبينا حيث أخبرهم بسرائر أخبارهم من غير أن قرأ كتابًا، ولا سمع حديثًا.

د. أنه تعالى لا يخلي عباده من نعمه وإن عصوا.

هـ. أنه يجوز أن تختلف المصالح والتكليف عند المسألة كما اختلف في حق أولئك عند سؤالهم.

٢١. مسائل نحوية:

أ. قيل: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ولم يذكروا له مطلوبًا لأن في الكلام حذف، وقيل: تقديره ادع لنا ربك، فَقُلْ: أخرج لنا مما تنبت الأرض، يُخْرِجْ ذلك، وقيل: فيه تقدير ثالث، هو أن يكون يخرج في موضع ليخرج جزمًا، فلما حذفت اللام حصل كالجواب، قال الزجاج: وهو وجه ضعيف؛ لأن ما جاء على تقدير ذلك مرفوع، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾ ثم قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِّ﴾ .

ب. مصر لا ينصرف، والصرف يجوز فيها من وجهين:

• أحدهما: أن يكون اسمًا للمكان، فيصرف على أنه مذكر، سمي به مذكر، فإذا جعل للبقعة لم يصرف، كما يفعل ذلك في أسماء الحي والقبيلة.

• والثاني: أن كل اسم مؤنث كان وسطه ساكنًا على ثلاثة أحرف، فإنه يجوز صرفه كهند ودعد وَجُمْل.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

٢. الطعام: ما يتغذى به، والطعم بضم الطاء: الأكل، والطعم: عرض يدرك بحاسة الذوق، والطعام: من قبيل الأجسام، والواحد أول عدد الحساب، وحده ما لا يتجزى، والله تعالى واحد: لتفرده

---

(١) تفسير الطبرسي: ٢٥٦/١.

بصفاته الحسنى.

٣. الدعاء: أصله النداء، عن ابن السراج، وكل من يدعو ربه فهو يناديه، وحقيقة الدعاء: قول القائل لمن فوقه: افعل، والفرق بينه وبين الأمر يظهر بالرتبة.

٤. الانبات: اخراج النبات، وأصله من الظهور، فكأنه ظهر إذا نبت.

٥. البقل ما ينبته الربيع، يقال: بقلت الأرض، وأبقلت، لغتان فصيحتان: إذا أنبتت البقل، فالبقل: كل نبات ليس له ساق.

٦. في القثاء لغتان ضم القاف وكسرها، والكسر أجود، وهي لغة القرآن، وقد روي عن عيسى الثقفي في الشواذ بالضم.

٧. الفوم هو الحنطة، عن ابن عباس وقتادة والسدي، وهو المروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وأنشد ابن عباس قول أحيحة بن الجلاح: قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا... ورد المدينة عن زراعة فوم وقال الفراء، والأزهري: هو الحنطة والخبز، تقول العرب: فوموا لنا أي: اختبزوا، وقال قوم: هو الحبوب التي تخبز، وقال الكسائي: هو الثوم، أبدل من الثاء فاء، كما قالوا جدث وجدف، قال الفراء: وهذا أشبه بما ذكره بعده من البصل، قال الزجاج: وهذا بعيد لأنه لا يعرف الثوم بمعنى الفوم، لأن القوم لا يجوز أن يطلبوا الثوم، ولا يطلبون الخبز الذي هو الأصل، وهذا ضعيف لأنه قد روي في الشواذ عن ابن مسعود، وابن عباس: (وثومها) بالثاء.

٨. العدس: حب معروف.

٩. أدنى أي: أقرب وأدون، كما تقول هذا شيء مقارب أو دون، ويجوز أن يكون أدنى من الدناءة: وهي الخسة، يقال دنأ دناءة فهو دني، وهو أدنى منه، فتركت همزتها وهو اختيار الفراء، وحكى الأزهري عن ابن زيد: الدني، بلا همز: الخسيس، والدنيء بالهمزة: الماجن.

١٠. اشتقاق مصر: قال بعضهم هو من القطع لانقطاعه بالعمارة عما سواه، ومنهم من قال: هو مشتق من الفصل بينه وبين غيره، وقال عدي بن زيد:

وجاعل الشمس مصرا لا خفاء   بين النهار، وبين الليل قد فصلا

١١. ضربت عليهم الذلة أي: فرضت ووضعت عليهم الذلة وألزموها من قولهم: ضرب الإمام

الجزية على أهل الذمة، وضرب الأمير على عبيده الخراج، وقيل: ضربت عليهم الذلة أي: حلوا بمنزلة الذل والمسكنة، مأخوذ من ضرب القباب، قال الفرزدق:

ضربت عليك العنكبوت وقضى عليك به الكتاب المنزل

١٢. الذلة: مشتقة من قولهم ذل فلان يذل ذلا وذلة.

١٣. المسكنة: مصدر المسكين، يقال: ما فيهم أسكن من فلان، وما كان مسكينا، ولقد تمسكن تمسكنا، ومنهم من يقول: تسكن تسكنا، والمسكنة هاهنا: مسكنة الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها.

١٤. باؤوا بغضب أي: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باء إلا موصولا إما بخير، وإما بشر، وأكثر ما يستعمل في الشر، ويقال: باء بذنبه يبوء به، قال المبرد: وأصله المنزلة أي: نزلوا منزلة غضب الله، وروي أن رجلا جاء برجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا قاتل أخي، وهو بواء به أي: مقتول به، ومنه قول ليلى الأخيلية:

فإن تكن القتلى بواء فإنكم فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر

قال الزجاج: أصل ذلك التسوية، ومنه ما روي عن عبادة بن الصامت قال: جعل الله تعالى الأنفال إلى نبيه، فقسمها بينهم على بواء أي: على سواء بينهم في القسم، ومنه قول الشاعر:

فيقتل جبرا بامرئ لم يكن له بواء، ولكن لا تكايل بالدم

وقال قوم: هو الاعتراف، ومعناه أنهم اعترفوا بما يوجب غضب الله، ومنه قول الشاعر:

إني أبوء بعثرتي، وخطيئتي ربي، وهل إلا إليك المهرب

١٥. الغضب: إرادة إيصال الضرر إلى من غضب عليه، فإذا أضيف إلى الله تعالى، فالمراد به أنه يريد إنزال العقوبة بالمغضوب عليه، نعوذ بالله من غضبه.

١٦. النبي: اشتقاقه من النبأ الذي هو الخبر، لأنه المخبر عن الله سبحانه، فإن قلت: لم لا يكون من النباوة، ومما أنشده أبو عثمان قال: أنشدني كيسان:

محض الضريبة في البيت الذي فيه النباوة حلوا غير ممذوق

فالقول فيه: إنه لا يجوز أن يكون منها، لأن سيبويه زعم أنهم يقولون في تحقير النبوة كان مسيلمة

نبيئة سوء، وكلهم يقول: تنبأ مسيلمة، فلو كان يحتمل الأمرين لما اجتمعوا على ذلك، قال أبو علي: ومما يقوي أنه من النبأ الذي هو الخبر أن النباوة الرفعة، وكأنه قال في البيت الذي وضعت فيه الرفعة، وليس كل رفعة نبوة، وقد يكون في البيت رفعة ليست بنبوة، والمخبر عن الله تعالى المبلغ عنه نبي ورسول، فهذا الاسم أخص به وأشد مطابقة للمعنى المقصود إذا أخذ من النبأ، والاعتداء: تجاوز الحد الذي حده الله لعباده إلى غيره، وكل مجاوز حد شيء إلى غيره، فقد تعداه إلى ما تجاوز إليه.

١٧. لما عدد سبحانه فيما قبل ما أسداه إليهم من النعم والإحسان ذكر ما قابلوا به تلك النعم من الكفران وسوء الاختيار لنفوسهم بالعصيان.

١٨. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ أي قال أسلافكم من بني إسرائيل ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد وإنما قال ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وإن كان طعامهم المن والسلوى، وهما شيئان:

أ. قيل: لأنه أراد به أن طعامهم في كل يوم واحد أي يأكلون في اليوم ما كانوا يأكلونه في الأمس، كما يقال أن طعام فلان في كل يوم واحد، وإن كان يأكل ألوانا إذا حبس نفسه على ألوان من الطعام لا يعدوها إلى غيرها.

ب. وقيل: أنه كان ينزل عليهم المن وحده فملوه، فقالوا ذلك فأنزل عليهم السلوى من بعد ذلك.

١٩. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي فاسأل ربك وادعه لأجلنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي مما تنبته الأرض من البقل والقثاء ومما سماه الله مع ذلك، وكان سبب مسألتهم ذلك ما رواه قتادة قال كان القوم في البرية قد ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى فملوا ذلك، وذكروا عيشا كان لهم بمصر فسألوا موسى.

٢٠. البقل: ما ينبته الربيع، يقال بقلت الأرض وأبقلت لغتان فصيحتان، إذا أنبتت البقل، فالبقل كل نبات ليس له ساق، وفي القثاء لغتان ضم القاف وكسرها والكسر أجود وهي لغة القرآن وقد روي عن عيسى الثقفي في الشواذ بالضم.

٢١. اختلف في معنى الفوم:

أ. قيل: هو الحنطة عن ابن عباس وقتادة والسدي وهو المروي عن أبي جعفر الباقر، وأنشد ابن

عباس قول أحيحة بن الجلاح:

قد كنت أغنى الناس شخصا ورد المدينة عن زراعة فوم

ب. وقال الفراء والأزهري: هو الحنطة والخبز تقول العرب: فوموا لنا أي اختبزوا.

ج. وقال قوم: هو الحبوب التي تخبز.

د. وقال الكسائي: هو الثوم أبدل من الثاء فاء كما قالوا جدث وجدف.. قال الفراء: وهذا أشبه بما ذكره بعده من البصل، قال الزجاج: وهذا بعيد لأنه لا يعرف الثوم بمعنى الفوم لأن القوم لا يجوز أن يطلبوا الثوم ولا يطلبون الخبز الذي هو الأصل، وهذا ضعيف لأنه قد روي في الشواذ عن ابن مسعود وابن عباس وثومها بالثاء.

٢٢. اختلف في سؤالهم هذا هل كان معصية:

أ. قيل: لم يكن معصية لأن الأول كان مباحا فسألوا مباحا آخر.

ب. وقيل: بل كان معصية لأنهم لم يرضوا بما اختاره الله لهم، ولذلك ذمهم على ذلك وهو أوجه.

٢٣. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ تقديره: فدعا موسى فاستجبنا له فقلنا لهم اهبطوا مصرا.

٢٤. قيل: إنهم قالوا لا نصبر على الغنى بأن يكون جميعنا أغنياء، فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض، فلذلك قالوا يخرج لنا مما تنبت الأرض ليحتاجوا فيه إلى أعوان فيكون الفقير عونا للغني.

٢٥. اختلف في ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾:

أ. قيل: معناه قال لهم موسى.

ب. وقيل: بل قال الله لهم أتتركون ما اختار الله لكم وتؤثرون ما هو أدون وأردى على ذلك.

ج. وقيل: إنه أراد أتستبدلون ما تتبذلون في زراعته وصناعته بما أعطاه الله إياكم عفوا من المن والسلوى.

د. وقيل: المراد تختارون الذي هو أقرب أي أقل قيمة على الذي هو أكثر قيمة وألذ

٢٦. اختلف في ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾:

أ. قال الحسن والربيع: أراد مصر فرعون الذي خرجوا منه.

ب. وقال أبو مسلم: أراد بيت المقدس، وروي ذلك عن ابن زيد.

ج. وقال قتادة والسدي ومجاهد: أراد مصرا من الأمصار يعني أن ما تسألونه إنما يكون في الأمصار ولا يكون في المفاوز أي إذا نزلتم مدينة ذات طول وعرض ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فيها ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ من نبات الأرض.

٢٧. اختلف في معنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾:

أ. قيل: أي فرضت ووضعت عليهم الذلة وألزموها من قولهم ضرب الإمام الجزية على أهل الذمة وضرب الأمير على عبيدة الخراج.

ب. وقيل: ضربت عليهم الذلة، أي حلوا بمنزل الذل والمسكنة مأخوذ من ضرب القباب، قال الفرزدق:

ضربت عليك العنكبوت وقضى عليك به الكتاب المنزل

٢٨. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ أي انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باء إلا موصولا إما بخير وإما بشر، وأكثر ما يستعمل في الشر، ويقال: باء بذنبه يبوء به، قال المبرد وأصله المنزلة أي نزلوا منزلة غضب الله.

٢٩. الغضب: إرادة إيصال الضرر إلى من غضب عليه فإذا أضيف إلى الله تعالى: فالمراد به أنه يريد إنزال العقوبة بالمغضوب عليه، نعوذ بالله من غضبه.

٣٠. اختلف في معنى ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

أ. قيل: أي رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد وجب عليهم من الله الغضب وحل بهم منه السخط.

ب. وقيل: الغضب هو ما حل بهم في الدنيا من البلاء والنقمة بدلا من الرخاء والنعمة.

ج. وقيل: هو ما ينالهم في الآخرة من العقاب على معاصيهم.

٣١. تم الكلام هاهنا ثم استأنف حكم الذين اعتدوا في السبت ومن قتل الأنبياء فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾:

أ. قيل: أي ألزموا الذلة إلزاما لا يبرح عنهم كما يضرب المسمار على الشيء فيلزمه.

ب. وقيل: المراد بالذلة الجزية لقوله ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ عن الحسن وقتادة.

ج. وقيل: هو الكستيج وزي اليهود عن عطا.

٣٢. قال قوم هذه الآية تدل على فضل الغنى لأنه ذمهم على الفقر، وليس ذلك بالوجه لأن المراد به فقر القلب لأنه قد يكون في اليهود مياسير ولا يوجد يهودي غني النفس، وقال النبي ﷺ: الغنى غنى النفس)، وقال ابن زيد: أبدل الله اليهود بالعز ذلا وبالنعمة بؤسا وبالرضا عنهم غضبا جزاء لهم بما كفروا بآياته وقتلوا أنبياءه ورسله اعتداء وظلما)

٣٣. ثم أشار إلى ما تقدم ذكره فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الغضب وضرب الذلة والمسكنة حل بهم لأجل (أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِّ﴾:

أ. قيل: أي يجحدون حجج الله وبيناته.

ب. وقيل: أراد بآيات الله الإنجيل والقرآن ولذلك قال ﴿فباؤوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ الأول لكفرهم بعيسى والإنجيل والثاني لكفرهم بمحمد والقرآن.

ج. وقيل: آيات الله صفة محمد ﷺ.

٣٤. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بغير جرم كزكريا ويحيى وغيرهما وقوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لا يدل على أنه قد يصح أن يقتل النبيون بحق لأن هذا خرج مخرج الصفة لقتلهم وأنه لا يكون إلا ظلما بغير حق كقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، ومعناه أن ذلك لا يمكن أن يكون عليه برهان وكقول الشاعر: على لأحب لا يهتدى بمنارة) ومعناه ليس هناك منار يهتدى به وفي أمثاله كثرة.

٣٥. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

أ. قيل: ذلك إشارة إلى ما تقدم أيضا بعصيانهم في قتل الأنبياء وعدوهم السبت.

ب. وقيل: بنقضهم العهد واعتدائهم في قتل الأنبياء والمراد إني فعلت بهم ما فعلت من ذلك بعصيانهم أمري وتجاوزهم حدي إلى ما نهيتهم عنه.

٣٦. سؤال وإشكال: كيف يجوز التخلية بين الكفار وقتل الأنبياء؟ والجواب: إنما جاز ذلك لتنال أنبياء الله سبحانه من رفع المنازل والدرجات ما لا ينالونه بغير القتل، وليس ذلك بخذلان لهم كما أن التخلية بين المؤمنين والأولياء والمطيعين وبين قاتليهم ليست بخذلان لهم، وقال الحسن: أن الله تعالى لم يأمر نبيا بالقتال فقتل فيه وإنما قتل من الأنبياء من قتل في غير قتال، والصحيح أن النبي إن كان لم يؤد

الشرع الذي أمر بتأديته لم يجز أن يمكن الله سبحانه من قتله لأنه لو مكن من ذلك لأدى إلى أن يكون المكلفون غير مزاحي العلة في التكليف وفيما لهم من الألطاف والمصالح، فأما إذا أدى الشرع فحينئذ يجوز أن يخلي الله بينه وبين قاتليه ولم يجب عليه المنع من قتله وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال اختلفت بنو إسرائيل بعد موسى بخمسمائة سنة حتى كثر فيهم أولاد السبايا واختلفوا بعد عيسى بمائتي سنة.

٣٧. مسائل نحوية:

٣٨. ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ مجزوم، لأنه جواب أمر محذوف، لأن تقديره أدع لنا ربك، وقل له أخرج لنا يخرج لنا، وقد ذكرنا فيما قبل، أن الأصل فيه أنه مجزوم بالشرط، وحذف الشرط لأن الكلام يدل عليه، وقيل: إن تقديره أن يكون ﴿يَخْرُجُ﴾ مجزوما بإضمار اللام أي: ليخرج لنا نحو قوله: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ليقيموا، فحذف اللام وأنشد أبو زيد: فيضحي صريعا ما يقوم لحاجة... ولا يسمع الداعي، ويسمعك من دعا وأنشد غيره: فقل: أدعي وأدع، فإن أندى... لصوت أن ينادي داعيان أي: ولأدع، وقال آخر:

محمد تفد نفسك كل نفس ... إذا ما خفت من أمر تبالا

أي: لتفد، قال المبرد: حدثني المازني قال: جلست في حلقة الفراء، فسمعته يقول لأصحابه: لا يجوز حذف لام الأمر إلا في الشعر، ثم أنشد: منح كان لا يزعم أني شاعر... فيدن مني ينهه الزواجر فقلت له: لم جاز في الشعر، ولم يجز في الكلام؟ قال: لأن الشعر يضطر فيه الشاعر فيحذف، قال فقلت: فما اضطره هاهنا وهو يمكنه أن يقول فليدن مني؟ قال: فسأل عني فقيل المازني، فأوسع لي.

٣٩. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من هنا للتبعيض، لأن المراد يخرج لنا بعض ما تنبته الأرض، وقال بعضهم: إن ﴿مِنَ﴾ هنا زائدة نحو قولهم: ما جاءني من أحد، والصحيح الأول، لأن ﴿مِنَ﴾ لا تزاد في الإيجاب، وإنما تزاد في النفي، ولأن من المعلوم أنهم لم يريدوا جميع ما تنبته الأرض.

٤٠. نون جميع القراء ﴿مِصْرًا﴾ لأنه أراد مصرا من الأمصار بغير تعيين، لأنهم كانوا في تيه، ويجوز أن يكون المراد مصر بعينها البلدة المعروفة، وصرفه لأنه مذكر، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ بغير ألف، ويجوز أن يكون المراد مصر هذه بعينها، كما قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وإنما لم يصرفه، لأنه اسم المدينة، فهو مذكر سمي به مؤنث، ويمكن أن يكون إنما نونه من نونه اتباعا للمصحف، لأنه مكتوب

في المصحف بألف.

٤١. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ قال الزجاج معناه، والله أعلم: الغضب حل بهم بكفرهم، وأقول في بيانه: إن ذلك إشارة إلى الغضب في قوله (وباؤوا بغضب) فهو في موضع الرفع بالابتداء، وأن مع صلته من الاسم والخبر في موضع جر بالباء، والجار يتعلق بخبر المبتدأ، وهي جملة من الفعل والفاعل، حذفت لدلالة ما يتصل بها عليها، وكذلك قوله ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ فإن ما مع صلته في تأويل المصدر.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، هذا قولهم في التّيه، وعنوا بالطعام الواحد: المنّ والسّلوى. قال محمّد بن القاسم: كان المنّ يؤكل بالسّلوى؛ والسّلوى بالمنّ، فلذلك كانا طعاما واحدا.

٢. البقل هاهنا: اسم جنس، وعنوا به: البقول، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغويّ قال تذهب العامة إلى أن البقل: ما يأكله الناس خاصة دون البهائم من النبات الناجم الذي لا يحتاج في أكله إلى طبخ، وليس كذلك؛ إنما البقل: العشب، وما ينبت الربيع مما يأكله الناس والبهائم، يقال: بقلت الأرض، وأبقلت، لغتان فصيحتان: إذا أنبت البقل، وابتقلت الإبل وتبقّلت: إذا رعت. قال أبو النّجم يصف الإبل:

تبقّلت في أوّل التّبقّل ... بين رماحي مالك ونهشل

٣. في (القثاء) لغتان: كسر القاف، وضمّها، والكسر أجود، وبه قرأ الجمهور، وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وقتادة وطلحة بن مصرّف، والأعمش بضم القاف. قال الفرّاء: الكسر لغة أهل الحجاز، والضم لغة تيم، وبعض بني أسد.

٤. في (الفوم) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه الحنطة، قاله ابن عباس، والسّدّيّ عن أشياخه، والحسن وأبو مالك، قال الفرّاء: هي لغة قديمة، يقول أهلها: فوّموا لنا، أي: اختبزوا لنا.

---

(١) زاد المسير: ١/٧١.

ب. الثاني: أنه الثوم، وهو قراءة عبد الله وأبيّ: وثومها) واختاره الفرّاء، وعلّل بأنه ذكر مع ما يشاكله، والفاء تبدل من الثاء، كما تقول العرب: الجدث، والجدف: للقبر، والأثافي والأفافي: للحجارة التي توضع تحت القدر، والمغاثير والمغافير: لضرب من الصّمغ، وهذا قول مجاهد، والرّبيع بن أنس، ومقاتل، والكسائيّ، والنّضر بن شميل وابن قتيبة.

ج. الثالث: أنه الحبوب، وذكره ابن قتيبة والزّجّاج.

٥. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾، أي: أردأ ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، أي: أعلى، يريد: أن المنّ والسّلوى أعلى ما طلبتم.

٦. في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنه اسم لمصر من الأمصار غير معيّن، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وإنما أمروا بالمصر، الذي طلبوه في الأمصار.

ب. الثاني: أنه أراد البلد المسمّى بمصر، وفي قراءة عبد الله والحسن وطلحة بن مصرّف والأعمش (مصر) بغير تنوين، قال أبو صالح عن ابن عباس: أراد مصر فرعون، وهذا قول أبي العالية والضّحّاك، واختاره الفرّاء، واحتجّ بقراءة عبد الله، قال: واسأل عنها الأعمش، فقال: هي مصر التي عليها صالح بن عليّ، وقال مفضّل الضّبّيّ: سمّيت مصرا، لأنها آخر حدود المشرق، وأوّل حدود المغرب، فهي حدّ بينهما، والمصر: الحدّ، وأهل هجر يكتبون في عهدهم: اشترى فلان الدار بمصورها، أي: بحدودها، وقال عديّ:

وجاعل الشمس مصرا لا خفاء   بين النهار وبين اللّيل قد فصلا

وحكى ابن فارس أن قوما قالوا: سمّيت بذلك لقصد الناس إياها، كقولهم: مصرت الشاة، إذا حلبتها، فالناس يقصدونها، ولا يكادون يرغبون عنها إذا نزلوها.

٧. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾، أي: ألزموها، قال الفرّاء: الذّلة والذّل: بمعنى واحد، وقال الحسن: هي الجزية.

٨. في المسكنة قولان:

أ. أحدهما: أنها الفقر والفاقة، قاله أبو العالية، والسّدّيّ، وأبو عبيدة، وروي عن السّدّيّ قال هي فقر النفس.

ب. الثاني: أنها الخضوع، قاله الزّجّاج.

٩. قوله تعالى: ﴿وباؤوا﴾، أي: رجعوا.

١٠. اختلف في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾:

أ. قيل: إشارة إلى الغضب.

ب. وقيل: إلى جميع ما ألزموه من الذّلة والمسكنة وغيرهما.

١١. اشتقاق النبيّ من: نبأ، وأنبأ، أي: أخبر، ويجوز أن يكون من: نبا ينبو: إذا ارتفع، فيكون بغير همز: فعيلا، من الرّفعة. قال عبد الله بن مسعود: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبيّ، ثم تقوم سوق بقلهم في آخر النهار.

١٢. في معنى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أن معناه: بغير جرم، قاله ابن الأنباريّ.

ب. الثاني: أنه توكيد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

ج. الثالث: أنه خارج مخرج الصّفة لقتلهم أنه ظلم، فهو كقوله: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾، فوصف حكمه بالحق، ولم يدلّ على أنه يحكم بغير الحق.

١٣. اختلف في معنى ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

أ. قيل: العدوان: أشدّ الظلم.

ب. وقال الزّجّاج: الاعتداء: مجاوزة القدر في كل شيء.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أكثر الظاهريين من المفسرين زعموا أن ذلك السؤال كان معصية، وليس الأمر كذلك، والدليل عليه أن قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من قبل هذه الآية عند إنزال المن والسلوى ليس بإيجاب بل هو إباحة، وإذا كان كذلك لم يكن قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ معصية لأن من أبيح له ضرب من الطعام يحسن منه أن يسأل غير ذلك إما بنفسه أو على لسان الرسول، فلما كان عندهم أنهم إذا

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٣٢.

سألوا موسى أن يسأل ذلك من ربه كان الدعاء أقرب إلى الإجابة جاز لهم ذلك ولم يكن فيه معصية.

٢. سؤال النوع الآخر من الطعام يحتمل أن يكون لأغراض:

أ. الأول: أنهم لما تناولوا ذلك النوع الواحد أربعين سنة ملوه فاشتهوا غيره.

ب. الثاني: لعلهم في أصل الخلقة ما تعودوا ذلك النوع وإنما تعودوا سائر الأنواع ورغبة الإنسان فيما اعتاده في أصل التربية وإن كان خسيساً فوق رغبته فيما لم يعتده وإن كان شريفاً.

ج. الثالث: لعلهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد، وغرضهم الوصول إلى البلاد لا نفس تلك الأطعمة.

د. الرابع: أن المواظبة على الطعام الواحد سبب لنقصان الشهوة وضعف الهضم وقلة الرغبة والاستكثار من الأنواع يعين على تقوية الشهوة وكثرة الالتذاذ، فثبت أن تبديل النوع بالنوع يصلح أن يكون مقصود العقلاء.

٣. ليس في القرآن ما يدل على أنهم كانوا ممنوعين عنه، فثبت أن هذا القدر لا يجوز أن يكون معصية، ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ كالإجابة لما طلبوا، ولو كانوا عاصين في ذلك السؤال لكانت الإجابة إليه معصية وهي غير جائزة على الأنبياء، لا يقال: إنهم لما أبوا شيئاً اختاره الله لهم أعطاهم عاجل ما سألوه كما قال: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠] لأنا نقول هذا خلاف الظاهر.

٤. من ذكروا أن ذلك السؤال كان معصية احتجوا له بوجوه:

أ. الأول: أن قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ دلالة على أنهم كرهوا إنزال المن والسلوى، وتلك الكراهة معصية.

ب. الثاني: أن قول موسى عليه السلام: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، وذلك يدل على كونه معصية.

ج. الثالث: أن موسى عليه السلام وصف ما سألوه بأنه أدنى وما كانوا عليه بأنه خير وذلك يدل على ما قلناه.

٥. من ذكروا أن ذلك السؤال لم يكن معصية أجابوا عن هذه الوجوه بما يلي:

أ. عن الأول: أنه ليس تحت قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ دلالة على أنهم ما كانوا راضين به فقط، بل اشتهوا شيئاً آخر، ولأن قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾ إشارة إلى المستقبل لأن كلمة لن للنفي في المستقبل فلا يدل على أنهم سخطوا الواقع.

ب. عن الثاني: أن الاستفهام على سبيل الإنكار قد يكون لما فيه من تفويت الأنفع في الدنيا وقد يكون لما فيه من تفويت الأنفع في الآخرة.

ج. عن الثالث: بقريب من ذلك، فإن الشيء قد يوصف بأنه خير من حيث كان الانتفاع به حاضراً متيقناً ومن حيث إنه يحصل عفواً بلا كد كما يقال ذلك في الحاضر، فقد يقال في الغائب المشكوك فيه: إنه أدنى من حيث لا يتيقن ومن حيث لا يوصل إليه إلا بالكد، فلا يمتنع أن يكون مراده: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ هذا المعنى أو بعضه.

٦. من ذكروا أن ذلك السؤال لم يكن معصية ذكروا أن قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وباؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾، لا يجوز أن يكون لما تقدم، بل لما ذكره الله تعالى بعد ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فبين أنه إنما ضرب الذلة والمسكنة عليهم وجعلهم محل الغضب والعقاب من حيث كانوا يكفرون لا لأنهم سألوا ذلك.

٦. ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ليس المراد أنه واحد في النوع بل أنه واحد في لنهج وهو كما يقال: إن طعام فلان على مائدته طعام واحد إذا كان لا يتغير عن نهجه.

٧. اختلفوا في الفوم:

أ. عن ابن عباس أنه الحنطة، وعنه أيضاً أن الفوم هو الخبز وهو أيضاً المروي عن مجاهد وعطاء وابن زيد وحكي عن بعض العرب: فوموا لنا أي اخبزوا لنا.

ب. وقيل: هو الثوم وهو مروي أيضاً عن ابن عباس ومجاهد واختيار الكسائي واحتجوا عليه بوجوه:

- الأول: أنه في حرف عبد الله بن مسعود وثومها.
- الثاني: أن المراد لو كان هو الحنطة لما جاز أن يقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ لأن الحنطة أشرف الأطعمة.

• الثالث: أن الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة.

٨. اختلفوا في المراد بالأدنى، وضبط القول فيه أن المراد إما أن يكون أدنى في المصلحة في الدين أو في المنفعة في الدنيا:

أ. والأول غير مراد لأن الذي كانوا عليه لو كان أنفع في باب الدين من الذي طلبوه لما جاز أن يجيبهم إليه، لكنه قد أجابهم إليه بقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾

ب. فبقى أن يكون المراد منه المنفعة في الدنيا:، ثم لا يجوز أن يكون المراد أن هذا النوع الذي أنتم عليه أفضل من الذي تطلبونه لأن الطعام الذي يكون ألذ الأطعمة عند قوم قد يكون أخسها عند آخرين، بل المراد:

• أن المن والسلوى متيقن الحصول وما يطلبونه مشكوك الحصول، والمتيقن خير من المشكوك.

• أو لأن هذا يحصل من غير كد ولا تعب، وذلك لا يحصل إلا مع الكد والتعب، فيكون الأول أولى.

٩. سؤال وإشكال: كان لهم أن يقولوا هذا الذي يحصل عفواً صفواً لّما كرهناه بطباعنا كان تناوله أشق من الذي لا يحصل إلا مع الكد إذا اشتهته طباعنا والجواب: هب أنه وقع التعارض من هذه الجهة لكنه وقع الترجيح بها أن الحاضر المتيقن راجع على الغائب المشكوك.

١٠. اختلف المفسرون في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾:

أ. روي عن ابن مسعود وأبي بن كعب ترك التنوين، وقال الحسن: الألف في مصراً زيادة من الكاتب فحينئذ تكون معرفة فيجب أن تحمل على ما هو المختص بهذا الاسم، وهو البلد الذي كان فيه فرعون، وهو مروي عن أبي العالية والربيع.

ب. أما الذين قرؤوا بالتنوين وهي القراءة المشهورة فقد اختلفوا:

• فمنهم من قال: المراد البلد الذي كان فيه فرعون، ودخول التنوين فيه كدخوله في نوح ولوط.

• وقال آخرون: المراد الأمر بدخول أي بلد كان، كأنه قيل لهم ادخلوا بلداً أي بلد كان لتجدوا في هذه الأشياء.

١١. استدلّ الذي ذكروا أنه لا يجوز أن يكون المصر هو البلد الذي كانوا فيه مع فرعون بقوله

تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] والاستدلال بهذه الآية من ثلاثة أوجه:

أ. الأول: أن قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ إيجاب لدخول تلك الأرض، وذلك يقتضي المنع من دخول أرض أخرى.

ب. الثاني: أن قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ يقتضي دوام كونهم فيه.

ج. الثالث: أن قوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ صريح في المنع من الرجوع عن بيت المقدس.

د. الرابع: أنه تعالى بعد أن أمر بدخول الأرض المقدسة قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، فإذا تقدم هذا الأمر، ثم بين تعالى أنهم ممنوعون من دخولها هذه المدة، فعند زوال العذر وجب أن يلزمهم دخولها، وإذا كان كذلك لم يجز أن يكون المراد من مصر سواها.

١٢. رد الذي ذكروا أنه اسم لمصر من الأمصار غير معيّن على هذه الوجوه بما يلي:

أ. أما الأول: فلأن قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أمر، والأمر للندب، فلعلهم ندبوا إلى دخول الأرض المقدسة مع أنهم ما منعوا من دخول مصر.

ب. أما الثاني: فهو كقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فذلك يدل على دوام تلك الندبية.

ج. أما الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ فلا نسلم أن معناه ولا ترجعوا إلى مصر، بل فيه وجهان آخران:

• الأول: المراد لا تعصوا فيما أمرتم به إذ العرب تقول لمن عصى فيما يؤمر به: ارتد على عقبه، والمراد من هذا العصيان أن ينكر أن يكون دخول الأرض المقدسة أولى.

• الثاني: أن يخصص ذلك النهي بوقت معين فقط.

١٣. أجاب الذي ذكروا أنه اسم لمصر المعروفة على هذه الردود بما يلي:

أ. أما قولهم إن الأمر للندب:

• فثبت في أصول الفقه أن ظاهر الأمر للوجوب، فيتم دليلنا بناء على هذا الأصل.

• وهب أنه للندب ولكن الإذن في تركه يكون إذناً في ترك المندوب، وذلك لا يليق بالأنبياء

ب. أما قولهم: لا نسلم أن المراد من قوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ لا ترجعوا، فالدليل عليه أنه لما أمر

بدخول الأرض المقدسة، ثم قال بعده: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ تبادر إلى الفهم أن هذا النهي يرجع إلى ما تعلق به ذلك الأمر.

ج. أما قولهم: أن يخصص ذلك النهي بوقت معين، فالتخصيص خلاف الظاهر.

١٤. جوّز أبو مسلم الأصفهاني أن يكون المراد مصر فرعون، واحتج عليه بوجهين:

أ. الوجه الأول:

• أنا إن قرأنا: اهبطوا مصر بغير تنوين كان لا محالة علماً لبلد معين، وليس في العالم بلدة ملقبة بهذا اللقب سوى هذه البلدة المعينة، فوجب حمل اللفظ عليه، ولأن اللفظ إذا دار بين كونه علماً وبين كونه صفة فحمله على العلم أولى من حمله على الصفة، مثل ظالم وحادث، فإنهما لما جاءا علمين كان حملهما على العلمية أولى.

• أما إن قرأناه بالتنوين، فإما أن نجعله مع ذلك اسم علم ونقول: إنه إنما دخل فيه التنوين لسكون وسطه كما في نوح ولوط فيكون التقرير أيضاً ما تقدم بعينه، وأما إن جعلناه اسم جنس فقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ يقتضي التخيير، كما إذا قال: أعتق رقبة، فإنه يقتضي التخيير بين جميع رقاب الدنيا.

ب. الوجه الثاني: أن الله تعالى ورث بني إسرائيل أرض مصر، وإذا كانت موروثة لهم امتنع أن يحرم عليهم دخولها بيان أنها موروثة لهم، قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]، ولما ثبت أنها موروثة لهم وجب أن لا يكونوا ممنوعين من دخولها لأن الإرث يفيد الملك والملك مطلق للتصرف.

١٥. أجاب الذي ذكروا أنه اسم لمصر من الأمصار غير معيّن عن هاتين الحجتين اللتين ذكرهما أبو مسلم بما يلي:

أ. أما الوجه الأول: فالجواب عنه أنا نتمسك بالقراءة المشهورة وهي التي فيها التنوين، فهذه القراءة وإن كانت تقتضي التخيير، إلا أننا نخصص العموم في حق هذه البلدة المعينة بما ذكرناه من الدليل.

ب. أما الوجه الثاني: فالجواب عنه:

• أنا لا ننازع في أن الملك مطلق للتصرف ولكن قد يترك هذا الأصل لعارض كالمرهون والمستأجر، فنحن تركنا هذا الأصل لما قدمناه من الدلالة.

• أن الرجل قد يكون مالكاً للدار وإن كان ممنوعاً عن دخولها بوجه آخر، كحال من أوجب على نفسه اعتكاف أيام في المسجد، فإن داره وإن كانت مملوكة له لكنه يحرم عليه دخولها، فلم لا يجوز أن يقال: إن الله ورثهم مصر بمعنى الولاية والتصرف فيها، ثم إنه تعالى حرم عليهم دخولها من حيث أوجب عليهم أن يسكنوا الأرض المقدسة بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾

١٦. معنى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ جعلت الذلة محيطة بهم حتى مشتملة عليهم فهم فيها كمن يكون في القبة المضروبة، أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازم كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه.

١٧. الأقرب في الذلة أن يكون المراد منها ما يجري مجرى الاستحقاق كقوله تعالى فيمن يحارب ويفسد: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾، فأما من يقول المراد به الجزية خاصة على ما قال: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فقوله بعيد لأن الجزية ما كانت مضروبة عليهم من أول الأمر.

١٨. معنى ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر والفاقة وتشديد المحنة، فهذا الجنس يجوز أن يكون كالعقوبة، ومن العلماء من عد هذا من باب المعجزات لأنه عليه السلام أخبر عن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ووقع الأمر كذلك فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً.

١٩. في قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا﴾ وجوه:

أ. أحدها: البوء الرجوع، فقوله: ﴿وَبَاءُوا﴾ أي رجعوا وانصرفوا بذلك ولا يقال باء إلا بشر.

ب. ثانيها: البوء التسوية. فقوله: ﴿وَبَاءُوا﴾ أي استوى عليهم غضب الله، قاله الزجاج.

ج. ثالثها: باؤوا أي استحقوا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] أي تستحق الإثمين جميعاً، وأما غضب الله فهو إرادة الانتقام.

٢٠. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ علة لما تقدم ذكره من ضرب الذلة والمسكنة عليهم وإلحاق الغضب بهم، قالت المعتزلة: لو كان الكفر حصل فيهم بخلق الله تعالى كما حصلت الذلة والمسكنة فيهم بخلقه لما كان جعل أحدهما جزاء الثاني أولى من العكس، وجوابه المعارضة بالعلم والداعي.

٢١. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ المعنى أنهم يستحقون ما تقدم لأجل هذه الأفعال أيضاً.

٢٢. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ دخل تحته قتل الأنبياء فلم أعاد ذكره مرة أخرى؟ والجواب: المذكور هاهنا الكفر بآيات الله، وذلك هو الجهل والجحد بآياته فلا يدخل تحته قتل الأنبياء.

٢٣. قال ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وقتل الأنبياء لا يكون إلا على هذا الوجه لما يلي:

أ. الأول: أن الإتيان بالباطل قد يكون حقاً لأن الآتي به اعتقده حقاً لشبهة وقعت في قلبه وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلًا، ولا شك أن الثاني أقبح فقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي أنهم قتلوهم من غير أن كان ذلك القتل حقاً في اعتقادهم وخيالهم بل كانوا عالمين بقبحه ومع ذلك فقد فعلوه.

ب. ثانيها: أن هذا التكرير لأجل التأكيد كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ويستحيل أن يكون لمدعي الإله الثاني برهان.

ج. وثالثها: أن الله تعالى لو ذمهم على مجرد القتل لقالوا: أليس أن الله يقتلهم، ولكنه تعالى قال القتل الصادر من الله قتل بحق ومن غير الله قتل بغير حق.

٢٤. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول، وهو بمنزلة أن يقول الرجل لعبده وقد احتمل منه ذنوباً سلفت منه فعاقبه عند آخرها: هذا بما عصيتني وخالفت أمري، هذا بما تجرأت علي واغتررت بحلمي، هذا بكذا فيعد عليه ذنوبه بألفاظ مختلفة تبكيتاً.

٢٥. لما ذكر الله تعالى إنزال العقوبة بهم بين علة ذلك:

أ. فبدأ أولًا بما فعلوه في حق الله تعالى، وهو جهلهم به وجحدهم لنعمه.

ب. ثم ثناه بما يتلوه في العظم وهو قتل الأنبياء.

ج. ثم ثلثه بما يكون منهم من المعاصي التي تخصهم.

د. ثم ربع بما يكون منهم من المعاصي المتعدية إلى الغير مثل الاعتداء والظلم.

هـ. وذلك في نهاية حسن الترتيب.

٢٦. سؤال وإشكال: قال هاهنا: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ذكر الحق بالألف واللام معرفة، وقال في آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١ نكرة، وكذلك في هذه السورة: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٢، ١١٣] فما الفرق؟ والجواب:

أ. الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل، قال ﷺ: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى معان ثلاث، كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل نفس بغير حق)، فالحق المذكور بحرف التعريف إشارة

إلى هذا.

ب. وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم أي لم يكن هناك حق لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره ألبتة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ كان هذا القول منهم في التيه حين ملوا المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر، قال الحسن: كانوا نتانى أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾

٢. كنوا عن المن والسلوى بطعام واحد، وهما اثنان:

أ. قيل: لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، فلذلك قالوا: طعام واحد.

ب. وقيل: لتكرارهما في كل يوم غذاء، كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة هو على أمر واحد لملازمته لذلك.

ج. وقيل: المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء، فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض لاستغناء كل واحد منا بنفسه، وكذلك كانوا فهم أول من اتخذ العبيد والخدم.

٣. ﴿عَلَى طَعَامٍ﴾ الطعام يطلق على ما يطعم ويشرب، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣]، أي ما شربوه من الخمر، وإن كان السلوى العسل ـ كما حكى المؤرج ـ فهو مشروب أيضا، وربما خص بالطعام البر والتمر كما في حديث أبي سعيد الخدري، قال: كنا نخرج صدقة الفطر على عهد رسول الله ﷺ صاعا من طعام أو صاعا من شعير، الحديث، والعرف جار بأن القائل: ذهبت إلى سوق الطعام، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يشرب.

٤. الطعم (بالفتح) هو ما يؤديه الذوق يقال طعمه مر، والطعم أيضا: ما يشتهى منه يقال ليس له طعم وما فلان بذي طعم إذا كان غثا، والطعم (بالضم): الطعام قال أبو خراش: أرد شجاع البطن لو ذا

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٤٢٣.

طعم.. أراد بالأول الطعام وبالثاني ما يشتهى منه، وقد طعم يطعم فهو طاعم إذا أكل وذاق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي من لم يذقه، وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣ [أي أكلتم، وقال رسول الله ﷺ في زمزم: إنها طعام طعم وشفاء سقم)

٥. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ قيل: هو على معنى الدعاء على تقدير حذف اللام وضعفه الزجاج، ومن في قوله ﴿مِمَّا﴾ زائدة في قول الأخفش وغير زائدة في قول سيبويه، لان الكلام موجب، قال النحاس وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لـ ﴿يُخْرِجُ﴾ فأراد أن يجعل (ما) مفعولا والاولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سائر الكلام التقدير: يخرج لنا مما تنبت الأرض مأكولا. فـ(من) الاولى على هذا للتبعيض والثانية للتخصيص، و ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ بدل من (ما) بإعادة الحرف، والبقل ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ عطف عليه وكذا ما بعده.

٦. ﴿وَفُومِهَا﴾ اختلف في الفوم:

أ. قيل: هو الثوم، لأنه المشاكل للبصل، رواه جويبر عن الضحاك، والثاء تبدل من الفاء كما قالوا مغافير ومغاثير، وجدث وجدف للقبر، وروي ذلك عن ابن عباس.

ب. وقيل: الفوم الحنطة، روى عن ابن عباس أيضا وأكثر المفسرين، واختاره النحاس، قال وهو أولى ومن قال به أعلى وأسانيده صحاح وليس جويبر بنظير لروايته وإن كان الكسائي والفراء قد اختارا القول الأول لإبدال العرب الفاء من الثاء والابدال لا يقاس عليه وليس ذلك بكثير في كلام العرب، وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة قول أحيحة بن الجلاح:

قد كنت أغنى الناس شخصا ... ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال أبو إسحاق الزجاج وكيف يطلب القوم طعاما لا بر فيه والبر أصل الغذاء! وقال الجوهري أبو نصر الفوم الحنطة وأنشد الأخفش:

قد كنت أحسبني كأغنى واجد ... نزل المدينة عن زراعة فوم

وقال ابن دريد: الفومة السنبلة وأنشد:

وقال ربيئهم لما أتانا ... بكفه فومة أو فومتان

٧. ﴿وَعَدَسِهَا﴾ العدس معروف، والعدسة: بثرة تخرج بالإنسان، وربما قتلت، وعدس: زجر

للبغال، قال عدس ما لعباد عليك إمارة... نجوت وهذا تحملين طليق، ويوما بعدس. قال الحليمي: والعدس والزيت طعام الصالحين، ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام في مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية، وهو مما يخفف البدن فيخف للعبادة، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم، والحنطة من جملة الحبوب وهي الفوم على الصحيح، والشعير قريب منها وكان طعام أهل المدينة، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام، فصار لكل واحد من الحبتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة، وقد روي أن النبي ﷺ لم يشبع هو واهلة من خبز بر ثلاثة أيام متتابعة منذ قدم المدينة إلى أن توفاه الله عز وجل.

٨. الاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر، ومنه البدل.

٩. اختلف في ﴿أَدْنَى﴾:

أ. قيل: مأخوذ من الدنو أي القرب في القيمة، من قولهم: ثوب مقارب، أي قليل الثمن، عند الزجاج.

ب. وقيل: هو مهموز من الدنيء البين الدناءة بمعنى الأخس، إلا أنه خفف همزته، قاله علي بن سليمان.

ج. وقيل: هو مأخوذ من الدون أي الأحط، فأصله أدون، أفعل، قلب فجاء أفلع، وحولت الواو ألفا لتطرفها.

١٠. معنى الآية: أتستبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل الذي هو أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير.

١١. اختلف في الوجوه التي توجب فضل المن والسلوى على الشيء الذي طلبوه وهى خمسة:

أ. الأول ـ أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المن والسلوى كانا أفضل، قاله الزجاج.

ب. الثاني ـ لما كان المن والسلوى طعاما من الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة، والذي طلبوه عار من هذه الخصائل كان أدنى في هذا الوجه.

ج. الثالث ـ لما كان ما من الله به عليهم أطيب وألذ من الذي سألوه، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة.

د. الرابع ـ لما كان ما أعطوا لا كلفة فيه ولا تعب، والذي طلبوه لا يجئ إلا بالحرث والزراعة والتعب كان أدنى.

هـ. الخامس ـ لما كان ما ينزل عليهم لا مرية في حله وخلوصه لنزوله من عند الله، الحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب وتدخلها الشبه، كانت أدنى من هذا الوجه.

١٢. في هذه الآية دليل على جواز أكل الطيبات والمطاعم المستلذات، وكان النبي ﷺ يحب الحلوى والعسل، ويشرب الماء البارد العذب.

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾:

أ. قيل: هذا أمر معناه التعجيز، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الاسراء: ٥٠]، لأنهم كانوا في التيه وهذا عقوبة لهم.

ب. وقيل: إنهم أعطوا ما طلبوه.

١٤. ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي ألزموهما وقضى عليهم بهما، مأخوذ من ضرب القباب، قال الفرزدق في جرير:

ضربت عليك العنكبوت وقضى عليك به الكتاب المنزل

وضرب الحاكم على اليد، أي حمل وألزم.

١٥. اختلف في معنى ﴿الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾:

أ. قيل: الذلة: الذل والصغار، والمسكنة: الفقر، فلا يوجد يهودي وإن كان غنيا خاليا من زي الفقر وخضوعه ومهانته.

ب. وقيل: الذلة فرض الجزية، عن الحسن وقتادة، والمسكنة الخضوع، وهى مأخوذة من السكون، أي قلل الفقر حركته، قاله الزجاج.

ج. وقال أبو عبيدة: الذلة الصغار، والمسكنة مصدر المسكين.

١٦. ﴿ذَلِكَ﴾ تعليل ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي يكذبون ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾) أي بكتابه ومعجزات أنبيائه، كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على ﴿يَكْفُرُونَ﴾

١٧. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تعظيم للشنعة والذنب الذي أتوه، وليس في هذا دليلا على أنه قد يصح أن

يقتلوا بالحق، فمعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به.. وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق، فكان هذا تعظيما للشنعة عليهم، ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق، ولكن يقتل على الحق، فصرح قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عن شنعة الذنب ووضوحه، ولم يأت نبي قط بشيء يوجب قتله.

١٨. سؤال وإشكال: كيف جاز أن يخلى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ والجواب: ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم، قال ابن عباس والحسن: لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نصر.

١٩. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ رد على الأول وتأكيد للإشارة إليه، والباء في ﴿بِمَا﴾ باء السبب، قال الأخفش: أي بعصيانهم، والعصيان: خلاف الطاعة، واعتصت النواة إذا اشتدت، والاعتداء: تجاوز الحد في كل شي، وعرف في الظلم والمعاصي.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. اختلف في قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾:

أ. قيل: تضجّر منهم بما صاروا فيه من النعمة والرزق الطيب والعيش المستلذ، ونزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش:

إنّ الشقيّ بالشّقاء مولع لا يملك الرّدّ له إذا أتى

ب. ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقا إلى ما كانوا فيه، ونظرا لما صاروا إليه من العيشة الرافهة، بل هو باب من تعنتهم، وشعبة من شعب تعجرفهم كما هو دأبهم، وهجّيراهم في غالب ما قصّ علينا من أخبارهم، وقال الحسن البصري: إنهم كانوا أهل كرّات وأبصال وأعداس، فنزعوا إلى عكرهم: أي أصلهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾

٢. المراد بالطعام الواحد هو: المنّ والسلوى، وهما وإن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاما واحدا.. وقيل: لتكررهما في كل يوم وعدم وجود غيرهما معهما ولا تبدلة بهما.

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١٠٨.

٣. ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ﴾ تخرج.. قال الأخفش: زائدة، وخالفه سيبويه لكونها لا تزاد في الكلام الموجب. قال النحاس: وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا ليخرج فأراد أن يجعل ما مفعولا؛ والأولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سياق الكلام، أي: تخرج لنا مأكولا.

٤. ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ بدل من ما بإعادة الحرف، والبقل: كل نبات ليس له ساق، والشجر: ما له ساق، قال في الكشاف: البقل ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكرّاث وأشباهها.

٥. الفوم: قيل هو الثوم، وقد قرأه ابن مسعود بالثاء، وروي نحو ذلك عن ابن عباس.. وقيل: الفوم: الحنطة، وإليه ذهب أكثر المفسرين، كما قال القرطبي، وقد رجّح هذا ابن النحاس، وقال الجوهري: الفوم الحنطة، وممن قال بهذا الزجاج والأخفش.. وقيل: الفوم: السنبلة.. وقيل: الحمص.. وقيل: الفوم كل حبّ يخبز.

٦. ﴿أَدْنَى﴾ قال الزجاج: إنه مأخوذ من الدنوّ: أي القرب والمراد: أتضعون هذه الأشياء التي هي دون موضع المنّ والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه، والحلّ الذي لا تطرقه الشبهة وعدم الكلفة بالسعي له والتعب في تحصيله.

٧. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ أي انزلوا، وظاهر هذا أن الله أذن لهم بدخول مصر؛ وقيل: إن الأمر للتعجيز لأنهم كانوا في التيه، فهو مثل قوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾

٨. صرف مصر هنا مع اجتمع العلمية والتأنيث لأنه ثلاثي ساكن في الوسط، وهو يجوز صرفه مع حصول السببين، وبه قال الأخفش والكسائي، وقال الخليل وسيبويه: إن ذلك لا يجوز، وقالا: إنه لا علمية هنا لأنه أراد مصرا من الأمصار، ولم يرد المدينة المعروفة؛ وهو خلاف الظاهر.[1].

٩. معنى ضرب الذلة والمسكنة إلزامهم بذلك، والقضاء به عليهم قضاء مستمرا لا يفارقهم ولا ينفصل عنهم، مع دلالته على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا:

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١٠٩.

ضربت عليك العنكبوت وقضى عليك به الكتاب المنزل

وهو ضرب من الهجاء بليغ، كما أنه إذا استعمل في المديح كان في منزلة رفيعة، ومنه قول الشاعر:

إنّ المروءة والشّجاعة والنّدى في قبّة ضربت على ابن الحشرج

١٠. هذا الخبر الذي أخبرنا الله به هو معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أقمأهم الله أذلّ الفرق وأشدّهم مسكنة وأكثرهم تصاغرا، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤوسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصيّ في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسّك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أيّ مبلغ، فهو متظاهر بالفقر متردّ بأثواب المسكنة، ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجري على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه.

١١. الإشارة بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من حديث الذلة وما بعده بسبب كفرهم بالله وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال: إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم وتعظيمه، وأنه ظلم بحت في نفس الأمر، ويمكن أن يقال: أنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم في مال ولا جاه، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين والدنيا، كما كان من شعيا وزكريا ويحيى، فإنهم قتلوهم وهم يعملون ويعتقدون أنهم ظالمون.

١٢. تكرير الإشارة:

أ. قيل: لقصد التأكيد وتعظيم الأمر عليهم وتهويله، ومجموع ما بعد الإشارة الأولى والإشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة وما بعده.

ب. وقيل: يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر والقتل، فيكون ما بعدها سببا للسبب وهو بعيد جدا، والاعتداء: تجاوز الحدّ في كل شيء.

أَطَّفّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ في التيه ﴿يَامُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ المنِّ والسلوى، سمَّاهما واحدًا باعتبار أنَّهما طعام لكلِّ يوم لا ينقص أحدهما ولا يزاد عليهما ولا يبدَّلان، هما أو أحدهما، أو باعتبار أنَّهما جَمَعَهُمَا الاستلذاذُ الشديد.

٢. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الاَرْضُ﴾ ما نأكله فإنَّا سئمنا المنَّ والسلوى، أي: بعض ما تنبته الأرض، وبيَّنه بقوله: ﴿مِن بَقْلِهَا﴾ إلى آخره، أي: هي بقلها أو بعض بقلها، وهو ما تنبته الأرض ولا ساق له، والمراد: ما يؤكل منه، يكون حارًّا وباردًا، ورطبًا ويابسًا ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ ما يؤكل بطِّيخًا إذا أيْنع، أو الخيار، كلاهما بارد رطب، ﴿وَفُومِهَا﴾ بُرِّها، بل كلُّ ما يُخبز فوم، أو ثومها، وهو حارٌّ يابس، وعليه فهو لغة، أو أبدلت الثاء المثلَّثة فاء كجدفٍ في جَدَثٍ، وفُمَّ في ثُمَّ، وهو مسموع لا مقيس، ﴿وَعَدَسِهَا﴾ بارد يابس، ﴿وَبَصَلِهَا﴾ وهو حارٌّ رطب، وإن طُبخ كان باردًا رطبًا.

٣. ﴿قَالَ﴾ موسى، أو اللهُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ إنكار لأن يليق ذلك شرعًا أو عقلاً أو توبيخ ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أقرب وجودًا وتحصيلا لقلَّة قيمته، أو (أدنأ) بالهمزة كما قرئ بها قلبت ألفًا من الدناءة وهو الخسَّة، أو أدون، أي: دون كذا في الرتبة، أُخِّرت الواو وقلبت ألفًا، والأدنى على الأوجُه البقل والقثَّاء والفوم والعدس والبصل، وأُفرِدن هنا بالذكر باعتبار أنَّهنَّ كواحد إذ هنَّ نوع خالف المنَّ والسلوى، وبدل منهما ﴿بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أفضل، وهو المنُّ والسلوى أفردهما لِما مرَّ، والذي يظهر لي أنَّه تعالى ما عاب عليهم هذا الاستدلال، إلَّا لأنَّه خلق فيهم عدَم سآمتهم للمنِّ والسلوى، وإلَّا فقد خلق الله تعالى في الطباع سآمة الإنسان ما دام عليه من طعام مثلاً، ولا سيما أنَّه لا يخلط به غيره، ولا سيما مع طول المدَّة، فما ذكر عنهم من السآمة غير ثابت عنهم، أو ادَّعوها مع عدمها، واستمرُّوا على طلب البدل، فقال اللهُ ٢ على لسان موسى عليه السلام بعد دعائه الله فيما سألوا:

٤. ﴿اِهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ إن قدرتم على الخروج من التيه، وليسوا بقادرين، والأمر للتعجيز، كقوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً﴾ [الإسراء: ٥٠]، أو للإطلاق بعد الحصر، على أن يكون ذلك عند قرب موت موسى عليه السلام وقرب الخروج من التيه، أو على أنَّ موسى لم يمت فيه بل خرج معهم، ويبعد أن يكون

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٢١.

قائل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الله على لسان يوشع حين نُبِّئ في التيه عند حضور الخروج.

٥. والمراد مصرٌ مَّا من الأمصار، أو القاهرة أو أعمالها، وعلى الأخيرين، نُوِّن مع أنَّه عَلَم على القاهرة أو أعمالها؛ لأنَّه ثلاثيٌّ ساكن الوسط كهِند، أو بتأويل البلد أو المحلِّ، ويدلُّ لهما قراءة عدم التنوين، ومعنى هبوط مصر نزوله، والهبوط دناءة الرتبة فإنَّ طعام التيه أفضل من طعام مصر، أو حسِّيٌّ بأن تكون أرض المصر الذي يخرجون إليه أسفل من أرض التيه.

٦. ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ في المصر ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من البقل وما بعده، إلَّا أنَّه إذا فسَّرنا الفوم بالثوم كان الكلُّ بقلاً وجنسه، وكلامهم إنَّما هو على الطعام، فالمناسب أنَّه البُرُّ وما يخبز طعامًا لكنَّ أفضله البرُّ، وذكر أوَّلاً ما يؤكل بلا علاج نار، وذكر بعده ما يعالج بها، مع تقديم الأشرف فالأشرف.

٧. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ جُعلت على فروعهم، لفعلهم مثل أفعال آبائهم ورضاهم عنهم، ولا سيما بعد ذهابهم إلى قتل عيسى عليه السلام، جُعلا شبيهًا بنقش الدراهم في لزوم الأثر واستمراره، ففي (ضُرِبَ) استعارة تحقيقيَّة تبعيَّة.

٨. ﴿الذِّلَّةُ﴾ ضعف القلب، أو الخوف ممَّا لا يُخاف منه، ولا سيما ما يخاف منه، أو هي الجزية، أخبر الله ٢ أنَّها ستكون عليهم إذا بعث محمَّد ﷺ فهذه معجزة، وإن لم يقل: هذا ممَّا لم يوح به قبل القرآن فواضح أيضًا، أي: قضيت عليهم أنَّها ستكون.

٩. ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أثر الفقر الظاهر على البدن ولو كانوا أغنياء، ولا يوجد يهوديٌّ غنيُّ النفس.

١٠. ﴿وَبَآءُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ رجعوا، أو احتملوا، أو استحقُّوا، أو أقرُّوا أو لازموا حال كونهم ملازمين لغضب الله، وهو قضاؤه الأزليُّ عليهم بالشقوة وتوابعها، أو هو ذمُّه إيَّاهم في الدنيا وعقابه في الآخرة.

١١. ﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من الغضب وضرب الذلَّة والمسكنة، وصيغةُ البُعد لبعد ما قبل البوء بغضب، أو لبعد ذلك عن منصب من أكرمه الله بنعم الدين والدنيا وأنزل عليه كتابًا، لِفَظاعتها أو لبعدهم عنها.

١٢. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: سبب ذلك أنَّهم ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ يؤوَّل المصدر من كان، أي: بكونهم يكفرون، وكثير يأتون به من خبرها، مثل أن يقال هنا: بكفرهم، وكأنَّهم يقولون: لا تدلُّ [(كان)] على

الحدث، والتحقيق أنَّها تدلُّ عليه.

١٣. ﴿بِئَايَاتِ اللهِ﴾ التي أنزلت في التوراة ممَّا يكرهونه، والتي في الإنجيل مطلقًا لكفرهم بعيسى عليه السلام، أو بما خالف منه التوراة، وبما أنزل من صفات رسول الله ﷺ وكتابه، وذلك قبل أهل عصره ﷺ، كراهة لأن تخرج النبوءة من ولد هارون عليه السلام، وقد أنكروا الرجم أيضًا قبله ﷺ.

١٤. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ مجموع ذلك لمن بعد موسى، وَأَمَّا من في زمانه فلا إلَّا الذلَّة، روي أنَّهم قتلوا بعده سبعين نبيًا أوَّل النهار، ولم يشغلهم ذلك حتَّى إنَّه قام سوق البقل آخر النهار، وقتلوا زكرياء وأشعياء، وعملوا في قتل عيسى، وَأَمَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١] فإنَّما هو بالحجَّة وبأخذ الثأر بعدُ، فذلك لا يتخلَّف، كما روي عن ابن عبَّاس : (إنَّ الله تعالى قدَر بأن يقتل بكلِّ نبيء سبعين ألفًا، كما كان بعد قتل يحيى، وبكلِّ خليفة خمسة وثلاثين ألفًا)؛ والمراد بـ (النبيئين) ما شمل الرسل لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الآية [البقرة: ٨٧].

١٥. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عندهم، فإنَّهم يقتلونهم تشهِّيًا وحبًّا للدنيا، ولا يعتقدون أنَّ قتلهم حقٌّ، فليس المراد أنَّه قد يكون قتل الأنبياء حقًّا إذ لا يفعلون موجب قتل، ولا يبيح الله ذمَّهم بلا موجب، ووجه آخر أنَّ المراد بيان الواقع كالصفة الكاشفة تأكيدًا لذمِّهم وفضيحة، أو يعتبر أنَّه لو شاء الله لأباحه كما أباح لملك الموت، وكما أمر إبراهيم بذبح إسماعيل، وقيل: قتلوا في بيت المقدس في يوم واحد ثلاثمائة نبيء!.

١٦. ﴿ذَالِكَ﴾ المذكور البعيد من الغضب وضرب الذلَّة والمسكنة، كرِّر للتأكيد، أو ذلك المذكور من الكفر وقتل الأنبياء، ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ﴾ بعصيانهم وكونهم ﴿يَعْتَدُونَ﴾ ينهمكون في المعاصي، ولا تنس أنَّ المعصية توجب العقاب بالإيقاع في معصية أعظم منها، وذلك بعصيان منهم في قتلهم لا باعتقاد حلٍّ.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. سؤال وإشكال[٢]: كيف قال ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وكان لهم المن والسلوى،

(١) تفسير القاسمي: ١/٣١٥.

(٢) هو من قول الراغب.

والجواب: إن ذلك إشارة إلى مساواته في الأزمنة المختلفة، كقولك: فلان يفعل فعلا واحدا في كل يوم، وإن كثرت أفعاله، إذا تحرى طريقة واحدة وداوم عليها، وهذا المعنى في إنكار الطعام أبلغ، لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ﴾، حتى أكدوا بقولهم ﴿وَاحِدٌ﴾ أو أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل.

٢. ﴿وَفُومِهَا﴾ هو الثوم لقراءة ابن مسعود (وثومها) وللتصريح به في التوراة في هذه القصة، وقد ذكر ابن جرير شواهد لإبدال الثاء فاء لتقارب مخرجيهما كقولهم للأثافي (أثاثي)، وقولهم وقعوا في عاثور شر وعافور شر، وللمغافير (مغاثير)

٣. ﴿الَّذِي هُوَأَدْنى﴾ أي أدون قدرا، وأصل الدنوّ القرب في المكان، فاستعير للخسة، كما استعير البعد للشرف والرفعة، فقيل: بعيد الهمة. ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي بمقابلة ما هو خير، أي أرفع وأجل، وهو المنّ الذي فيه الحلاوة التي تألفها أغلب الطباع البشرية، والسلوى من أطيب لحوم الطير، وفي مجموعهما غذاء تقوم به البنية، وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة ولا تغذية.

٤. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو منوّن مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور، بالصرف، قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك، لإجماع المصحف على ذلك، أي من الأمصار، أي انحدروا إليه.

٥. ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فيها ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ أي فإن الذي سألتم يكون في الأمصار لا في القفار، والمعنى أن هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير، في أي بلد دخلتموها وجدتموه. فليس يساوي مع دناءته، وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه.

٦. لما حكى الله تعالى إنكار موسى عليه السلام على اليهود استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، بعد تعداد النعم، جاء بحكاية سوء صنيعهم بالأنبياء، وكفرهم، واعتدائهم، وضرب الذلة عليهم لذلك، استطرادا فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ فمن هنا إلى قوله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معترض في خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، يدل على هذا قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ فإن قتل الأنبياء إنما كان من فروعهم وذريتهم.

٧. الذلة: بالكسر الصغار والهوان والحقارة، والذل بالضم ضد العز.. والمسكنة مفعلة من السكون، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض، لما به من الفقر، والمسكين مفعيل منه ـ كذا في السمين ـ

٨. في الذلة استعارة بالكناية حيث شبهت بالقبة في الشمول والإحاطة، أو شبهت الذلة بهم بلصوق الطين بالحائط في عدم الانفكاك.

٩. هذا الخبر الذي أخبر الله تعالى به هو معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أذل الفرق، وأشدهم مسكنة، وأكثرهم تصاغرا، لم ينتظم لهم جمع، ولا خفقت على رؤوسهم راية، ولا ثبتت له ولاية، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال، وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ، فهو مرتد بأثواب المسكنة.

١٠. ﴿وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي رجعوا به، أي صار عليهم، أو صاروا أحقاء به من قولهم. باء فلان بفلان، أي صار حقيقا أن يقتل بمقابلته. فالباء على التقديرين صلة باؤوا، لا للملابسة، وإلا لاحتيج اعتبار المرجوع إليه، ولا دلالة في الكلام عليه.

١١. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الباهرة التي ظهرت على يدي عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

١٢. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، وقتل الأنبياء في بني إسرائيل كان ظاهرا، ولم يذكر قتل رسول من الرسل، وذلك ـ والله أعلم ـ لقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] وقال قوم: لم يقتل أحد من الرسل، وإنما قتل الأنبياء، أو رسل الرسل.

١٣. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لم يخرج مخرج التقييد، حتى يقال إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال، لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم، وتعظيمه، وأنه ظلم بحت في نفس الأمر، حملهم عليه اتباع الهوى وحب الدنيا، والغلوّ في العصيان، والاعتداء، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي جرّهم العصيان والتمادي في العدوان إلى ما ذكر من الكفر، وقتل الأنبياء عليهم السلام.

١٤. كررت الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم، كما أنه بسبب الكفر والقتل، فهو بسبب ارتكابهم المعاصي، واعتدائهم حدود الله تعالى، وعليه فيكون ذكر علل إنزال العقوبة بهم في نهاية حسن الترتيب:

أ. إذ بدئ أولا بما فعلوه في حق الله تعالى وهو كفرهم بآياته.

ب. ثم ثنّي بما يتلوه في العظم، وهو قتل الأنبياء.

ج. ثم بما يكون منهم من المعاصي التي تخصهم.

د. ثم بما يكون منهم من المعاصي المتعدية إلى الغير، مثل الاعتداء، وهذا من لطائف أسلوب التنزيل.

١٥. باب التوبة مفتوح على الوجه العامّ لليهود وغيرهم، وأن من ارتكب كبائر الذنوب التي تستوجب الغضب الإلهيّ، وضرب الذلة والمسكنة، كما حل باليهود، إذا آمن وتاب فله في الدنيا والآخرة ما للمؤمنين، وعادة التنزيل جارية بأنه متى ذكر وعد أو وعيد، عقب بضده ليكون الكلام تاما فقيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ الآية.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا ضرب آخر مما ذكر الله تعالى به بنى اسرائيل في سياق دعوتهم إلى الاسلام قال صاحب الكشاف: كانوا قوما فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء).. فلاحة بتشديد اللام جمع فلاح بمعنى الزراع، وعكرهم بكسر العين أصلهم، وأجم الطعام من باب ضرب وعلم كرهه من المداومة عليه، وهو بيان لما بعثهم على أن يسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم تلك الأشياء التي طلبوها والسبب في جهرهم بذلك وثورتهم عليه كأنه يقول: إن الحامل لهم على ذلك هو تمكن العادة من نفوسهم فلما خرجوا منها وجاءهم ما لم يكونوا يألفون نزعوا إلى ما كانوا قد عودوه من قبل.

٢. لو كان الأمر كما قال صاحب الكشاف لكان في ذلك التماس عذر لهم، ولما عد الله هذا القول في خطاياهم، بل إن السآمة من تناول طعام واحد قد يكون من لوازم الطباع البشرية إلا ما شذ منها لعادة أو ضرورة، ولا يعد ما هو من منازع الطباع جرما إذا لم يسقط ذلك في محظور، وسياق الآيات قبلها وما

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٣٣٠.

يلحق بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ كل ذلك يدل على أن ما عدد من أفاعيلهم مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كله من خطاياهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ ويؤكد ذلك إيراد تلك العقوبة الشديدة من ضرب الذلة والمسكنة واستحقاق غضب الله تعالى عقب مقالهم هذا.

٣. الصحيح في فهم الآية الكريمة أن النزق قد استولى على طباعهم وملك البطر أهواءهم حتى كانوا يستخفون بذلك الأمر العظيم الذي هيأهم الله له من التمكن في الأرض الموعودة والخروج من الخسف الذي كانوا فيه، ومع كثرة ما شاهدوا من آيات الله القائمة على صدق وعده لهم لم تستيقنه أنفسهم، بل كانوا على ريب منه، وكانوا يظنون أن موسى عليه السّلام خدعهم بإخراجهم من مصر وجاء بهم في البرية ليهلكهم، فلذلك دأبوا على اعناته والاكثار من الطلب فيما يستطاع ومالا يستطاع حتى ييأس منهم فيرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة ولهم مطمع في العيش وأمل في الخلاص من الهلكة، فما ذكره الله عنهم في هذه الآية على حد قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، ويرشد إلى ما فيه من الاعنات قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، فقد عبر عن مسألتهم بما فيه حرف النفي الذي يأتي لسلب الفعل في مستقبل الزمان مع تأكيده فكأنهم قالوا: اعلم أنه لم يبق لك أمل في بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد، فان كانت لك منزلة عند الله كما تزعم، فادعه يخرج لنا ما يمكن معه أن نبقى معك إلى أن يتم الوعد الذي وعدك ووعدتنا ـ وهم يعلمون أنهم كانوا في برية غير منبتة، وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أجم من وحدة الطعام، ولكنه نزق وبطر كما بينا وطلب للخلاص مما يخشون على أنفسهم، ويؤيد ذلك ما هو معروف في أخبارهم.

٤. وصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان ـ المن والسلوى ـ لأنهما طعام كل يوم، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير: إنه يأكل من طعام واحد.. كأنهم ينظرون إلى أن مجموع الألوان هي غذاؤه الذي لا يتغير فهي غذاء واحد، فاذا تغيرت الألوان تغير نوع الغذاء فكان طعاما متعددا.

٥. البقل: من النبات ما ليس بشجر دقّ ولا جل كما ذكره ابن سيده، وقال أبو حنيفة ما ينبت في بزرة ولا ينبت في أرومة ثابتة، وفرق ما بين البقل ودق الشجر أن البقل إذا رعى لم يبق له ساق، والشجر

تبقى له سوق وإن دقت.. وأرادوا من البقل ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما مما يغرى بالقضم، ويعين على الهضم.

٦. القثاء: هي أخت الخيار تسميها العامة (القتة) والعدس والبصل معروفان، والفوم هو الحنطة، وقال الكسائي وجماعة: هو الثوم أبدلت الثاء فاء كما في جدث وجدف، وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذي يصنع منها.

٧. (قال) موسى عليه السّلام تقريعا لهم على أشرهم وإنكارا لتبرمهم ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى؟ والمن فيه الحلاوة التي تألفها أغلب الطباع البشرية والسلوى من أطيب لحوم الطير وفى مجموعها غذاء تقوم به البنية وليس فيهما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية.

٨. الأدنى في اللغة: الأقرب، واستعير للأخس والأدون كما استعير البعد للرفعة، والاستبدال طلب شيء بدلا من آخر، والباء تدخل المبدل منه المراد تركه.

٩. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أي فإنكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم، أما هذه الأرض التي قضى الله أن تقيموا فيها إلى أجل محدود فليس من شأنها أن تنبت هذه البقول وإن الله جل شأنه لم يقض عليكم بالتيه في هذه البرية إلا لجبنكم وضعف عزائمكم عن مغالبة من دونكم من أهل الأمصار، فلو صح ما تزعمون من كراهتكم للطعام الواحد فأنتم الذين قضيتم به على أنفسكم بما فرط منكم، فان أردتم الخلاص مما كرهتم فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة، فان الله كافل لكم النصر عليهم، وعند ذلك تجدون طلبتكم فالتمسوا الخير في أنفسكم وفى أفعالكم فان الله لا يضيع أجر العاملين.

١٠. الذلة: والذل خلق خبيث من أخلاق نفس الإنسان يضاد الإباء والعزة، وأصل المادة فيه معنى اللين، فالذل بالكسر اللين وبالضم والكسر ضد الصعوبة، وإذا تتبعت المادة وجدتها لا تخلو من هذا المعني، صاحب هذا الخلق لين ينفعل لكل فاعل، ولا يأبى ضيم ضائم.. غير أن هذا الخلق الذي يهون على النفس قبول كل شيء لا يظهر أثره غالبا على البدن، وفى القول إلا عند الاستدلال والقهر، وكثيرا ما ترى الأذلاء تحسبهم أعزاء، يختالون في مشيتهم من الكبرياء، ويباهون بما لهم من سلف وآباء، وربما فاخروا من

لا يخشون سطوته من الكبراء.

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ولكن متى شعر الذليل بنية من نفس القاهر أو طاف بذهنه خيال يد تمتد إليه استخذى واستكان، وظهر السكون على بدنه، واشتمل الخشوع على قوله وفعله، وهذا الأثر الذي يسطع من النفس على البدن هو الذي يسمى المسكنة.

١١. إنما سمي الفقر مسكنة لأن العائل المحتاج تضعف حركته، ويذهب نشاطه، فهو بعدم ما يسد عوزه كأنه يقرب من عالم الجماد، فلا تظهر فيه حاجة الاحياء فيسكن والمشاهدة ترشدنا إلى تحقيق ما عليه أهل المسكنة في أوضاع أعضائهم، وما يبدوا على وجوههم، وما طبع في أقوالهم وأعمالهم.

١٢. ضرب الذلة والمسكنة على اليهود هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها، أو الصاقهما بطباعهم كما تطبع الطغرى على السكة.

١٣. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا به كما يقال رجع أو عاد بصفقة المغبون ـ إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه.

١٤. كذلك كان آخر أطوار اليهود في بغيهم أيام ملكهم، والمراد به فقد الملك وما يتبعه.. استحقوا غضبه ومن استحقه فقد أصابه، فقد غضب الله عليهم، وتنكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه.

١٥. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الإلهي بسبب ما جروا عليه من الكفر بآيات الله، فإنهم بإخراجهم لموسى عليه السّلام وإعناتهم له في المطالب، مع كثرة ما شاهدوا من العجائب، وما أظهر الله لهم من الغرائب، قد دلوا على أن لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم بها كافرون في الحقيقة، ونسيان الآيات وعدها كأن لم تكن يعده الكتاب العزيز كفرا.

١٦. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عنهم إلا بحقه المبين فيه، كل ذلك ذل فيهم على طباع بعيدة عن الكرم، وقلوب غلف دون الفهم، ومن كان هذا شأنه فالأجدر به أن يكون ذليلا مقهورا، ثم هو مهبط غضب الله ومحط نقمه، لأنه أشد الناس كفرا لنعمه.

١٧. وقوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أن قتل النبيين لا يكون إلا كذلك يزيد في شناعة حالهم، ويصرح

بأنهم لم يكونوا مخطئين في الفهم، ولا متأولين للحكم، بل ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين، وهم يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع الله تعالى لهم في كتاب دينهم.

١٨. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ذلك الذل وتلك الخلافة بالغضب إنما لزماهم لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام، ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التي حدها الله لهم في شرائع أنبيائهم، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هي الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم في الأرض الموعودة لأنها كانت الكافلة بنظامهم، الحافظة لبناء جماعتهم، فاذا أهملوها فسدت ألفتهم، وانهدم بناؤهم، وأسرعت إليهم الذلة التي لم تكن فارقتهم، إلا منهزمة من يدى سلطان الشريعة، ولم يكن يصدها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع للمطبوع.

١٩. المتبادر أن ترجع الإشارة في ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الثاني أي الكفر بآيات الله وقتل النبيين.. أي إن كفرهم وجراءتهم على النبيين بالقتل إنما منشؤهما عصيانهم واعتداؤهم حدود دينهم، لأن الذي يدين بدين أو شريعة أيا كانت يتهيب لأول الأمر مخالفتها، فاذا خالفها لأول مرة تركت المخالفة أثرا في نفسه، وضعفت هيبة الشريعة في نظره، فاذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على إرادته، ولا يزال كذلك حتى تصير المخالفة طبعا ورينا، وينسى ما قام على الشريعة من دليل وما كان لها من سيطرة، ويضرى بالعدوان، كما يضرى الحيوان بالافتراس وكل عمل يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه خصوصا ما اتبع فيه الهوى.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ذكر هنا جرما آخر من جرائم أسلافهم التي تدل على كفرانهم بأنعم الله، وترشد إلى أنهم دأبوا على إعنات موسى، وأنهم أكثروا من الطلب فيما يستطاع وما لا يستطاع حتى ييأس منهم ويرتدّ بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة، ومع صادق وعده لهم بأن يمكّن لهم الدخول في الأرض الموعودة، ويرفع عنهم الخسف الذي كانوا فيه، ومع كثرة ما شاهدوا من الآيات الدالة على صدقه، كانوا في ريب من تحقيق ما قال لهم، ويظنون أنه خدعهم حين أخرجهم من مصر وجاء بهم إلى البريّة، وقد بلغ من إعناتهم له أن قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وأن قالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهم يريدون بذلك أنه لا

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٣١.

أمل لك في بقائنا معك على هذه الحال من التزام طعام واحد، وربما لم يكن صدر منهم هذا القول عن سأم وكراهية لوحدة الطعام، بل صدر عن بطر وطلب للخلاص مما يخشون.

٢. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي وإذ قال أسلافكم من قبل إعناتا لموسى وبطرا بما هم فيه، لن نصبر على أن يكون طعامنا الذي لا يتغير أبدا هو المنّ والسلوى.

٣. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي سل ربك لأجلنا بدعائك إياه أن يخرج لنا كذا وكذا، وإنما سألوه أن يدعو لهم، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم، وقالوا ربك ولم يقولوا ربنا لأنه اختصه بما لم يعط مثله لهم، من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة، فكأنهم قالوا ادع لنا من أحسن إليك بما لم يحسن به إلينا، فكما أحسن إليك من قبل، نرجو أن يحسن إليك بإجابة هذا الدعاء.

٤. ﴿قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي قال لهم موسى على سبيل التوبيخ والاستهجان: أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المنّ الذي فيه حلاوة تألفها الطباع، والسلوى الذي هو أطيب لحوم الطير، وهما غذاء كامل لذيذ وليس فيما طلبوا ما يساويهما؟

٥. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أمرهم موسى أن ينزلوا من التيه ويسكنوا مصرا من الأمصار إن كانوا يريدون ما سألوه، لأن هذه الأرض التي كتب الله عليهم أن يقيموا فيها إلى أجل محدود ليس من شأنها أن تنبت هذه البقول، والله تعالى لم يقض عليهم بالبقاء فيها إلا لضعف عزائمهم وخور هممهم عن أن يغالبوا من سواهم من أهل الأمصار، فهم الذين قضوا على أنفسهم بأكل هذا الطعام الواحد، ولا سبيل للخلاص مما كرهوا إلا بالإقدام على محاربة من يليهم من سكان الأرض الموعودة، والله كفيل بنصرهم، فليطلبوا ما فيه الفوز والفلاح لهم.

٦. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي إن الله عاقبهم على كفران تلك النعم بالذل الذي يهوّن على النفس قبول الضيم والاستكانة والخضوع في القول والعمل، وتظهر آثار ذلك في البدن، فالذليل يستخذى ويسكن إذا طاف بخياله يد تمتد إليه، أو قوة قاهرة تريد أن تستذلّه وتقهره، وترى الذل والصغار يبدو في أوضاع أعضائه وعلى ظاهر وجهه.

٧. ﴿وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي واستحقوا غضب الله بما حلّ بهم من البلاء والنقم في الدنيا،

والعذاب الأليم في الآخرة.

٨. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي إن ما حلّ بهم من ضروب الذلة والمسكنة واستحقاق الغضب الإلهي كان بسبب ما استمرأته نفوسهم من الكفر بآيات الله التي آتاها موسى وهى معجزاته الباهرة التي شاهدوها، فإن إعناتهم له، وإحراجهم إياه دليل على أنه لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم لها جاحدون منكرون.

٩. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فهم قتلوا أشعيا وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق: أي بغير شبهة عندهم تسوّغ هذا القتل، فإن من يأتي الباطل قد يعتقد أنه حق لشبهة تعنّ له، وكتابهم يحرّم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عن الأنبياء إلا بحق يوجب ذلك.. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أن قتل النبيين لا يكون إلا كذلك، مزيد تشنيع بهم، وتصريح بأنهم ما كانوا مخطئين في الفهم ولا متأولين للحكم، بل هم ارتكبوه عامدين مخالفين لما شرع الله لهم في دينهم.

١٠. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي إن كفرهم بآيات الله وجرأتهم على النبيين بالقتل، إنما كانا بسبب عصيانهم وتعديهم حدود دينهم، فإن للدين هيبة في النفس تجعل المتديّن به يحذر مخالفة أمره، حتى إذا تعدى حدوده مرّة ضعف ذلك السلطان الديني في نفسه، وكلما عاد إلى المخالفة كان ضعفه أشد، إلى أن تصير المخالفة طبعا وعادة وكأنه ينسى حدود الدين ورسومه، ولا يصبح للدين ذلك الأثر العميق الذي كان متغلغلا في قرارة نفسه.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. الآية الكريمة معطوفة على الجمل قبلها بأسلوب واحد، وإسناد القول إلى ضمير المخاطبين جار على ما تقدم في نظائره وما تضمنته الجمل قبلها هو من تعداد النعم عليهم محضة أو مخلوطة بسوء شكرهم وبترتب النعمة على ذلك الصنيع بالعفو ونحوه.. فالظاهر أن يكون مضمون هذه الجملة نعمة أيضا.

٢. للمفسرين حيرة في الإشارة إليها:

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٥٠٤.

أ. فيؤخذ من كلام الفخر أن قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ هو كالإجابة لما طلبوه يعني والإجابة إنعام ولو كان معلقا على دخول قرية من القرى، ولا يخفى أنه بعيد جدا لأن إعطاءهم ما سألوه لم يثبت وقوعه.

ب. ويؤخذ من كلام المفسرين الذي صدر الفخر بنقله ووجهه عبد الحكيم أن سؤالهم تعويض المن والسلوى بالبقل ونحوه معصية لما فيه من كراهة النعمة التي أنعم الله بها عليهم إذ عبروا عن تناولها بالصبر ـ والصبر هو حمل النفس على الأمر المكروه ـ ويدل لذلك أنه أنكر عليهم بقوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ فيكون محل النعمة هو الصفح عن هذا الذنب والتنازع معهم إلى الإجابة بقوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ ولا يخفى أن هذا بعيد إذ ليس في قوله ﴿اهْبِطُوا﴾ إنعام عليهم ولا في سؤالهم ما يدل على أنهم عصوا لأن طلب الانتقال من نعمة لغيرها لغرض معروف لا يعد معصية كما بينه الفخر.

٣. الصحيح في تفسير الآية أنها انتقال من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوى اختيارهم في شهواتهم، والاختيار دليل عقل اللبيب، وإن كان يختار مباحا، مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع المنعم إذ قالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾: فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية.. وأتوا بما دل عليه (لن) في حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن فإن (لن) تدل على استغراق النفي لأزمنة فعل ﴿نَصْبِرَ﴾ من أولها إلى آخرها وهو معنى التأبيد، وفي ذلك إلجاء لموسى أن يبادر بالسؤال، يظنون أنهم أيأسوه من قبول المن والسلوى بعد ذلك الحين.

٤. كان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكلهم إلى نفوسهم ولم يرهم ما عودهم من إنزال الطعام وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل الغمام بل قال لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ فأمرهم بالسعي لأنفسهم وكفى بذلك تأديبا وتوبيخا.. قال ابن عطاء الله: من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان في هذا إساءة لعوقبت فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد)

٥. المقصد من هذا أن ينتقل من تعداد النعم إلى بيان تلقيهم لها بالاستخفاف لينتقل من ذلك إلى ذكر انقلاب أحوالهم وأسباب خذلانهم وليس شيء من ذلك بمقتضى كون السؤال معصية فإن العقوبات الدنيوية وحرمان الفضائل ليست من آثار خطاب التكليف ولكنها من أشباه خطاب الوضع ترجع إلى

ترتب المسببات على أسبابها وذلك من نواميس نظام العالم وإنما الذي يدل على كون المجزي عليه معصية هو العقاب الأخروي وبهذا زالت الحيرة واندفع كل إشكال وانتظم سلك الكلام.

٦. أشارت الآية إلى قصة ذكرتها التوراة مجملة منتثرة وهي أنهم لما ارتحلوا من برية سينا من (حوريب) ونزلوا في برية (فاران) في آخر الشهر الثاني من السنة الثانية من الخروج سائرين إلى جهات (حبرون) فقالوا: تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانا (أي يصطادونه بأنفسهم) والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم وقد يبست نفوسنا فلا ترى إلا هذا المن فبكوا، فغضب الله عليهم، وسأله موسى العفو فعفا عنهم وأرسل عليهم السلوى فادخروا منها طعام شهر كامل.

٧. التعبير بلن المفيدة لتأبيد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده، فإن التأبيد يفيد استغراق النفي في جميع أجزاء الأبد أولها وآخرها فلن في نفي الأفعال مثل لا التبرئة في نفي النكرات.

٨. وصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين المن والسلوى لأن المراد أنه متكرر كل يوم.

٩. جملة ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ إلى آخرها هي مضمون ما طلبوا منه أن يدعو به فهي في معنى مقول قول محذوف، كأنه قيل: قل لربك يخرج لنا، ومقتضى الظاهر أن يقال أن يخرج لنا، فعدل عن ذلك إلى الإتيان بفعل مجزوم في صورة جواب طلبهم إيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه حتى كأنّ إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه، وهذا أسلوب تكرر في القرآن مثل قوله: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، و﴿قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] وهو كثير فهو بمنزلة شرط وجزاء، كأن قيل: إن تدع ربك بأن يخرج لنا يخرج لنا، وهذا بتنزيل سبب السبب منزلة السبب، فجزم الفعل المطلوب في جواب الأمر بطلبه لله للدلالة على تحقق وقوعه لثقتهم بإجابة الله تعالى دعوة موسى، وفيه تحريض على إيجاد ما علق عليه الجواب كأنه أمر في مكنته فإذا لم يفعل فقد شح عليهم بما فيه نفعهم.

١٠. الإخراج: الإبراز من الأرض، و(من) الأولى تبعيضية والثانية بيانية أو الثانية أيضا تبعيضية لأنهم لا يطلبون جميع البقل بل بعضه، وفيه تسهيل على المسئول ويكون قوله: ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ حالا من (ما) أو هو بدل من (ما تنبت) بإعادة حرف الجر.

١١. اختلف في الفوم فقيل: هو الثوم بالمثلثة وإبدال الثاء فاء شائع في كلام العرب كما قالوا: جدث وجدف وثلغ وفلغ، وهذا هو الأظهر والموافق لما عد معه ولما في التوراة.. وقيل: الفوم الحنطة.. وقيل: الفوم الحمّص بلغة أهل الشام.

١٢. قوله: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾:

أ. قيل: هو من كلام موسى.

ب. وقيل: من كلام الله وهو توبيخ شديد لأنه جرده عن المقنعات وعن الزجر، واقتصر على الاستفهام المقصود منه التعجب فالتوبيخ، وفي الاستبدال للخير بالأدنى النداء بنهاية حماقتهم وسوء اختيارهم.

١٣. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ السين والتاء فيه لتأكيد الحدث وليس للطلب فهو كقوله: ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ [التغابن: ٦]، وقولهم استجاب بمعنى أجاب، واستكبر بمعنى تكبر، ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ في سورة الإنسان [٧]

١٤. فعل استبدل مشتق من البدل بالتحريك مثل شبه، ويقال بكسر الباء وسكون الدال مثل شبه ويقال بديل مثل شبيه وقد سمع في مشتقاته استبدل وأبدل وبدّل وتبدّل وكلها أفعال مزيدة ولم يسمع منه فعل مجرد وكأنهم استغنوا بهذه المزيدة عن المجرد، وظاهر كلام صاحب (الكشاف) في سورة النساء [٢] عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أن استبدل هو أصلها وأكثرها وأن تبدل محمول عليه (لقوله والتفعل بمعنى الاستفعال غزير ومنه التعجل بمعنى الاستعجال والتأخر بمعنى الاستئخار)، وجميع أفعال مادة البدل تدل على جعل شيء مكان شيء آخر من الذوات أو الصفات أو عن تعويض شيء بشيء آخر من الذوات أو الصفات.

١٥. لما كان هذا معنى الحدث المصوغ منه الفعل اقتضت هذه الأفعال تعدية إلى متعلقين إما على وجه المفعولية فيهما معا مثل تعلق فعل الجعل، وإما على وجه المفعولية في أحدهما والجر للآخر مثل متعلقي أفعال التعويض كاشترى وهذا هو الاستعمال الكثير، فإذا تعدى الفعل إلى مفعولين نحو ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] كان المفعول الأول هو المزال والثاني هو الذي يخلفه نحو قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، وقولهم أبدلت

الحلقة خاتما، وإذ تعدت إلى مفعول واحد وتعدت إلى الآخر بالباء، وهو الأكثر فالمنصوب هو المأخوذ والمجرور هو المبذول نحو قوله هنا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وقوله ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقوله في سورة النساء ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾، وقد يجر المعمول الثاني بمن التي هي بمعنى باء البدلية كقول أبي الشيص:

بدّلت من مرد الشباب ملاءة   خلقا وبئس مثوبة المقتاض

وقد يعدل عن تعدية الفعل إلى الشيء المعوض، ويعدى إلى آخذ العوض، فيصير من باب أعطى فينصب مفعولين وينبه على المتروك بما يدل على ذلك من نحو من كذا، وبعد كذا، كقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] التقدير ليبدلن خوفهم أمنا هذا تحرير طريق استعمال هذه الأفعال.

١٦. الأمر في قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾:

أ. قيل: للإباحة المشوبة بالتوبيخ أي إن كان هذا همكم فاهبطوا بقرينة قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فالمعنى اهبطوا مصرا من الأمصار يعني وفيه إعراض عن طلبهم إذ ليس حولهم يومئذ بلد قريب يستطيعون وصوله.

ب. وقيل: أراد اهبطوا مصر أي بلد مصر بلد القبط أي ارجعوا إلى مصر التي خرجتم منها والأمر لمجرد التوبيخ إذ لا يمكنهم الرجوع إلى مصر.

١٧. مصر على هذا المعنى:

أ. يجوز منعه من الصرف على تأويله بالبقعة، فيكون فيه العلمية والتأنيث.

ب. ويجوز صرفه على تأويله بالمكان، أو لأنه مؤنث ثلاثي ساكن الوسط، مثل هند فهو في قراءة ابن مسعود بدون تنوين، وأنه في مصحف أبيّ بن كعب بدون ألف، وأنه ثبت بدون ألف في بعض مصاحف عثمان قاله ابن عطية، وذكر أن أشهب قال قال لي مالك: هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون.

١٨. قد يكون قول موسى لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ أمرا قصد منه التهديد على تذكّرهم أيام ذلهم وعنائهم وتمنيهم الرجوع لتلك المعيشة، كأنه يقول لهم ارجعوا إلى ما كنتم فيه إذ لم تقدروا قدر الفضائل النفسية ونعمة الحرية والاستقلال، وربما كان قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ دون لنهبط مؤذنا بذلك لأنه لا يريد إدخال نفسه في هذا الأمر وهذا يذكر بقول أبي الطيب:

فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى حمص في القابل

١٩. ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ الظاهر أن الفاء للتعقيب عطفت جملة ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ على جملة ﴿اهْبِطُوا﴾ للدلالة على حصول سؤلهم بمجرد هبوطهم مصر، أو ليست مفيدة للتعليل إذ ليس الأمر بالهبوط بمحتاج إلى التعليل بمثل مضمون هذه الجملة لظهور المقصود من قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ ولأنه ليس بمقام ترغيب في هذا الهبوط حتى يشجع المأمور بتعليل الأمر، والظاهر أن عدم إرادة التعليل هو الداعي إلى ذكر فاء التعقيب لأنه لو أريد التعليل لكانت إن مغنية غناء الفاء.

٢٠. جعل أبو حيان في (البحر المحيط) جملة ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ جوابا للأمر زعم أن الأمر كما يجاب بالفعل يجاب بالجملة الاسمية، ولا يخفى أن كلا المعنيين ضعيف هاهنا لعدم قصد الترغيب في هذا الهبوط حتى يعلل أو يعلق، وإنما هو كلام غضب كما تقدم، واقتران الجملة بأنّ المؤكدة لتنزيلهم منزلة من يشك لبعد عهدهم بما سألوه حتى يشكون هل يجدونه من شدة شوقهم، والمحب بسوء الظن مغرى.

٢١. ﴿وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ عطف على الجمل المتقدمة بالواو وبدون إعادة إذ، فأما عطفه فلأن هاته الجملة لها مزيد الارتباط بالجمل قبلها إذ كانت في معنى النتيجة والأثر لمدلول الجمل قبلها من قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] فإن مضمون تلك الجمل ذكر ما منّ الله تعالى به عليهم من نعمة تحريرهم من استعباد القبط إياهم وسوقهم إلى الأرض التي وعدهم فتضمن ذلك نعمتي التحرير والتمكين في الأرض وهو جعل الشجاعة طوع يدهم لو فعلوا فلم يقدروا قدر ذلك وتمنوا العود إلى المعيشة في مصر إذ قالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ مما حكته التوراة، وتقاعسوا عن دخول القرية وجبنوا عن لقاء العدو كما أشارت له الآية الماضية وفصلته آية المائدة فلا جرم إذ لم يشكروا النعمة ولم يقدروها أن تنتزع منهم ويسلبوها ويعوضوا عنها بضدها وهو الذلة المقابلة للشجاعة إذ لم يثقوا بنصر الله إياهم والمسكنة وهي العبودية فتكون الآية مسوقة مساق المجازاة للكلام السابق فهذا وجه العطف.

٢٢. أما كونه بالواو دون الفاء فليكون خبرا مقصودا بذاته وليس متفرعا على قول موسى لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ لأنهم لم يشكروا النعمة فإن شكر النعمة هو إظهار آثارها

المقصودة منها كإظهار النصر للحق بنعمة الشجاعة وإغاثة الملهوفين بنعمة الكرم وتثقيف الأذهان بنعمة العلم فكل من لم يشكر النعمة فهو جدير بأن تسلب عنه ويعوض بضدها قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ [سبأ: ١٦] الآية، ولو عطف بغير الواو لكان ذكره تبعا لذكر سببه فلم يكن له من الاستقلال ما ينبه البال.

٢٣. الضمير في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ .. ﴿وباؤوا﴾.. عائدة إلى جميع بني إسرائيل لا إلى خصوص الذين أبوا دخول القرية والذين قالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ بدليل قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فإن الذين قتلوا النبيئين هم أبناء الذين أبوا دخول القرية وقالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾ فالإتيان بضمير الغيبة هنا جار على مقتضى الظاهر لأنهم غير المخاطبين فليس هو من الالتفات إذ ليس قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ من بقية جواب موسى إياهم لما علمت من شموله للمتحدث عنهم الآبين دخول القرية ولغيرهم ممن أتى بعدهم فقد جاء ضمير الغيبة على أصله، أما شموله للمخاطبين فإنما هو بطريقة التعريض وهو لزوم توارث الأبناء أخلاق الآباء وشمائلهم.. ويؤيده التعليل الآتي بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ المشعر بأن كل من اتصف بذلك فهو جدير بأن يثبت له من الحكم مثل ما ثبت للآخر.

٢٤. الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة، يقال ضرب بعصا وبيده وبالسيف وضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق، فمنه ضرب في الأرض: سار طويلا، وضرب قبة وبيتا في موضع كذا بمعنى شدها ووثقها من الأرض، قال عبدة بن الطبيب: إن التي ضربت بيتا مهاجرة) وقال زياد الأعجم: في قبة ضربت على ابن الحشرج)، وضرب الطين على الحائط ألصقه.

٢٥. قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها، وذكر الضرب تخييل لأنه ليس له شبيه في علائق المشبه، ويجوز أن يكون ضربت استعارة تبعية وليس ثمة مكنية بأن شبه لزوم الذلة لهم ولصوقها بلصوق الطين بالحائط، ومعنى التبعية أن المنظور إليه في التشبيه هو الحدث والوصف لا الذات بمعنى أن جريان الاستعارة في الفعل ليس بعنوان كونه تابعا لفاعل كما في التخييلية بل بعنوان كونه حدثا، وهو معنى

قولهم أجريت في الفعل تبعا لجريانها في المصدر وبه يظهر الفرق بين جعل ضربت تخييلا وجعله تبعية وهي طريقة في الآية سلكها الطيبي في شرح الكشاف وخالفه التفتازانيّ وجعل الضرب استعارة تبعية بمعنى الإحاطة والشمول سواء كان المشبه به القبة أو الطين، وهما احتمالان مقصودان في هذا المقام يشعر بهما البلغاء.

٢٦. الذلة الصغار وهي بكسر الذال لا غير وهي ضد العزة، ولذلك قابل بينهما السموأل أو الحارثي في قوله:

وما ضرّنا أنا قليل وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل

٢٧. المسكنة: الفقر مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه، وتطلق على الضعف ومنه المسكين للفقير.

٢٨. معنى لزوم الذلة والمسكنة لليهود: أنهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ما أنعم الله عليهم فإنهم لما سئموها صارت لديهم كالعدم ولذلك صار الحرص لهم سجية باقية في أعقابهم.

٢٩. البوء الرجوع وهو هنا مستعار لانقلاب الحالة مما يرضى الله إلى غضبه.

٣٠. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ استئناف بياني أثاره ما شنع به حالهم من لزوم الذلة والمسكنة لهم والإشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ وباؤوا بِغَضَبٍ﴾، وأفرد اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالمذكور، وهو أولى بجواز الإفراد من إفراد الضمير في قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنّه في الجلد توليع البهق

وإنما كان ما في الآية أولى بالإفراد لأن الذلة والمسكنة والغضب مما لا يشاهد فلا يشار إلى ذاتها ولكن يشار إلى مضمون الكلام وهو شيء واحد أي مذكور ومقول ومن هذا قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] أي ذلك القصص السابق، ومنه قوله تعالى: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]

٣١. الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ سببية أي إن كفرهم وما معه كان سببا لعقابهم في الدنيا

بالذلة والمسكنة وفي الآخرة بغضب الله وفيه تحذير من الوقوع في مثل ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما وقعوا فيه.

٣٢. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ خاص بأجيال اليهود الذين اجترموا هذه الجريمة العظيمة سواء في ذلك من باشر القتل وأمر به ومن سكت عنه ولم ينصر الأنبياء.. وقد قتل اليهود من الأنبياء:

أ. أشعياء بن أموص الذي كان حيا في منتصف القرن الثامن قبل المسيح، قتله الملك منسى ملك اليهود سنة ٧٠٠ قبل المسيح نشر نشرا على جذع شجرة.

ب. وأرمياء النبي الذي كان حيا في أواسط القرن السابع قبل المسيح، وذلك لأنه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود فرجموه بالحجارة حتى قتلوه وفي ذلك خلاف.

ج. وزكرياء الأخير أبا يحيى قتله هيرودس العبراني ملك اليهود من قبل الرومان، لأن زكرياء حاول تخليص ابنه يحيى من القتل، وذلك في مدة نبوءة عيسى.

د. يحيى بن زكرياء قتله هيرودس لغضب ابنة أخت هيرودس على يحيى.

٣٣. قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بدون وجه معتبر في شريعتهم فإن فيها: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] فهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمتهم، وإلا فإن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال، وإنما قال ﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾ لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال، ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه.

٣٤. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يحتمل:

أ. أن تكون الإشارة فيه إلى نفس المشار إليه بذلك الأولى فيكون تكريرا للإشارة لزيادة تمييز المشار إليه حرصا على معرفته، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة ولغضب الله تعالى عليهم، والآية حينئذ من قبيل التكرير وهو مغن عن العطف مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ب. ويجوز أن يكون المشار إليه بذلك الثاني هو الكفر بآيات الله وقتلهم النبيئين فيكون (ذلك) إشارة إلى سبب ضرب الذلة إلخ فما بعد كلمة (ذلك) هو سبب السبب تنبيها على أن إدمان العاصي يفضي

إلى التغلغل فيها والتنقل من أصغرها إلى أكبرها.

٣٥. الباء على الوجهين سببية على أصل معناها، ولا حاجة إلى جعل إحدى الباءين بمعنى مع على تقدير جعل اسم الإشارة الثاني تكريرا للأول أخذا من كلام (الكشاف) الذي احتفل به الطيبي فأطال في تقريره وتفنين توجيهه فإن فيه من التكلف ما ينبو عنه نظم القرآن، وكان الذي دعا إلى فرض هذا الوجه هو خلو الكلام عن عاطف يعطف ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ على ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ إذا كانت الإشارة لمجرد التكرير، ولقد نبهناك آنفا إلى دفع هذا بأن التكرير يغني غناء العطف.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. إن بنى إسرائيل شأنهم دائما ألا يستقروا، بل هم في تململ مستمر، ولا يهمهم إلا الطعام والشراب؛ ولذا قالوا لموسى عليه السلام الذي ابتلى بهم: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ .. كان اليهود (لعنهم الله) لا يهمهم إلا ما يطعمون، فسألوا الأكل أولا ثم سألوا الماء ثانيا، ثم سألوا تلوّن الأطعمة، ولم يفكروا في أمر معنوي لم يفكروا في العزة بعد الذلة، ولا في النجاة بعد القتل، ولا في المعاني الروحية التي جاء بها موسى عليه السلام، ولا في الإيمان بعد الكفر، ولا في الرفعة بعد الحطة.. لم يفكروا في شيء من هذا إنما فكروا في الطعام وألوانه، لم يطلبوا الهداية، ولكن طلبوا ألوان الطعام.

٢. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ المعنى: اذكروا معشر الحاضرين ما قلتم أنتم وأسلافكم، ولا تفكير لكم في جهاد تجاهدونه، ولكن في طعام تأكلونه، نادوا موسى وهو لهم كالأم الرؤوم: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهو المن والسلوى، وقالوا: على طعام واحد، لأنه لون واحد متكرر مستمر، لا يتغير، فهو يعرض بطريقة واحدة، والشيء المتكرر يكون شيئا واحدا، ولو تجدد وتكرر، ولو كان أكثر من واحد، ولو كان طيبا، وإن الرجل المادي يسأم ما يقدم له كل يوم، ولو كان أشهى، وقالوا يائسين من أن يرضوا: لن نصبر على طعام، فأكدوا النفي ب (لن)، ودلوا على تململهم بقولهم: لن نصبر)، أي لن نستطيع أن نضبط أنفسنا فنحملها على الرضا بطعام واحد.

٣. رتبوا على نفيهم الصبر نفيا مؤكدا قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾،

---

(١) زهرة التفاسير: ٢٤٨/١.

الفاء فاء الإفصاح التي تفصح عن شرط مقدر دل عليه قولهم لن نصبر تقديره؛ فإذا كنا لا نصبر، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ومعناه اضرع إلى ربك الذي خلقك وربك لا إلى أن يهدينا بل إلى أن يخرج لنا مما تنبت الأرض، وقوله ﴿يُخْرِجْ﴾ في معنى جواب الأمر، أي إن تدع ربك فإنه يخرج لنا، فهم لتلهفهم على ما يأكلون افترضوا أن الدعاء قد وقع، وافترضوا أن إجابة الدعاء قد تمت، فقالوا هذا الكلام الدال على رغبتهم في الإجابة السريعة.

٤. البقل معروف، وهو كل نبات لا ساق له غالبا كاللوبيا والفاصوليا ونحوهما كالفول، وفومها وهو الثوم، وقيل: القمح واللغة لا تساعد ذلك، وعدسها وبصلها وهما معروفان.

٥. لم يسارع موسى عليه السلام بالدعوة التي طلبوها، ولم تكن الإجابة التي رغبوها لإشباع نهمتهم، بل ذاكرهم فيما يطلبون، وبين لهم أنهم يطلبون غير الحسن ويتركون الحسن، فقال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، أي أتتركون الخير، وتطلبون بدلا منه الذي هو أدنى منه وإن كان من نعمة الله تعالى.

٦. عبر عن الذي طلبوه بأنه هو الذي أدنى في الرتبة والمنزلة الغذائية وأنه خلق كذلك، وإن كان نعمة في ذاته ولكن رتبته دون ما أنتم فيه، وعبر بقوله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَأَدْنى﴾ أي أنه في ذاته دان في رتبته ولا يعلو عنها ولا يصل إلى الذي هو خير في ذاته، وثابت على الخيرية؛ لا يزيل صفة الخيرية ما تطلبون.

٧. الأدنى معناه القريب، ولما كان القريب سهل التناول، والبعيد صعب التناول أطلق الأدنى على كل أمر يسهل الحصول عليه وفي العادة لا يكون ذا منزلة.

٨. السؤال استفهامي تقريري لإنكار الواقع، أي فيه معنى التوبيخ، لأنهم في نعمة بالطعام الطيب الذي يجيء من غير كد ولا لغوب، وهو المن والسلوى، ولأنهم في مكان من العزة والنعمة يحمدون الله تعالى عليهما، ولا يفكرون في شهوة البطن مع هذه العزة إن كانوا أعزة كراما.

٩. قال موسى كما أخبر ربه: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ ويفيد ذلك ضمنا بأن موسى لم يدع ربه كما طلبوا، ولكن بين لهم المكان الذي يرون فيه ذلك، وعبر بقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾؛ لأن فيه إشارة إلى أنهم ينزلون من منزلة مرتفعة العزة والرفعة إلى مكان دون ذلك؛ لأن الهبوط نزول من مرتفع إلى منخفض، وهم ينزلون من العزة، وضيافة الله تعالى إلى حيث يشبعون بطونهم ويرضون أهواءهم، وبذلك

استبدلوا الخبيث بالطيب.

١٠. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ بالتنكير يجعلنا نفكر، أهي مصر التي اضطهدوا فيها، وذبحت أبناءهم، واستحيت نساءهم، أم مصر فيه ريف وأرض طيبة زارعة منتجة ما يريدون من فوم وقثاء وعدس وبصل.. إن التنكير يفيد أي مصر فيها زرع وثمار، ولكن الكثيرين من المفسرين يذكرون أنها مصر التي أخرجوا منها والتي أرهقوا في حياتهم فيها، ومع ذلك لم يذكر أنهم عادوا إلى أرض مصر، وموسى بينهم؛ ولذا نرجح أن موسى عليه السلام طلب إليهم أن ينزلوا من علياء الضيافة الربانية والعزة الإلهية وأن يشبعوا شهواتهم في أي مصر فيه الريف وما تنبت الأرض من زروع وعيون بدل عزة الصحراء.

١١. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي أحاطت بهم المذلة لا يخرجون من دائرتها، بل يتنقلون في دائرتها؛ ينتقلون فيها من جانب إلى جانب، ولا يخرجون منها، فصارت حالهم في ذلتهم، كحال من ضربت عليهم قبة لا يخرجون منها، ولذلك عبّر بضربت عليهم.

١٢. المسكنة: هي الخضوع والاستسلام للوهن والضعف، وهي لازمة للذلة، فحيث كانت الذلة كانت المسكنة، والخضوع للظالم، ولا يرضون إلا بالذل، ولا يقبلون غيره، فإن النفس إذا ألفت الذل، واستمرأته، ترضى بكل من يذلها وتسكن خاضعة له.

١٣. المسكنة: مصدر ميمي على وزن مفعلة معناه الخضوع المطلق والرضا بالظلم، أو الظهور بمظهر قبوله، وهو السكون ممن لا يجابهون أهل الباطل بقولهم الحق يصك آذانهم صكا.

١٤. هذه الأخلاق هي نتيجة لسيطرة الأهواء والشهوات، وهي الداء الذي يصحب من يعيشون في خصيب الأرض ولين العيش، ويفكهون في ملاذ الدنيا، ويستمرئون البقاء فيها.

١٥. قرر الله تعالى عقوبة قاسية لذوى الضمائر الفاسدة، وهي أنهم يرجعون بغضب الله تعالى، فهم مطرودون من رحمة الله تعالى، فمعنى ﴿وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي أنهم رجعوا مصاحبين غضب الله تعالى ملازما لهم لا ينفكون عن الغضب، بل إنه يلازمهم في كل أدوار حياتهم.

١٦. ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك الغضب الذي لازمهم بعد أن طردهم من رحمته، وأنهم لا يستحقونها، ذكر سبحانه وتعالى السبب في ذلك فقال تعالت كلماته: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ والإشارة إلى ما أنزله الله تعالى عليهم من الذلة والمسكنة وأنهم أبعدوا عن

رحمة الله مصحوبين بغضبه وقد لبسهم غضب الله تعالى، ومعه الخزي والعار.

١٧. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ آيات الله تعالى المعجزات الدالة على رسالة موسى، وهى في ذاتها نفع لهم، أنجاهم من فرعون الذي كان يقتل أبناءهم، ويستحيى نساءهم، إذ ضرب البحر بعصاه عليه السلام ففرقت البحر ونجا بنو إسرائيل وأغرق الله تعالى فرعون، وأنه أنزل عليهم المن والسلوى إلى آخر آيات الله التي كانت نعما عليهم ومعجزات دالة على نبوة موسى عليه السلام.

١٨. التعبير منه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بيان لاستمرار كفرهم، وتكرره بتكرر آياته، فإن (كانوا) دالة على الاستمرار، والتعبير بالمضارع للدلالة على تكرر الكفر بتكرار الآيات، فما جاءتهم آية إلا كفروا بها، وهى باهرة تتضمن نعمة أنعم بها سبحانه وتعالى عليهم، فاجتمع فيهم كفر الإيمان بالكفر بدلائله، وكفر النعمة بعدم شكرها، وشكر المنعم واجب بحكم العقل والشرع، وما جرى عليه الناس، ويجرون عليه إلى يوم القيامة.

١٩. ذكر سبحانه وتعالى جريمة ثانية إيجابية فالجرائم السابقة كلها سلبية، الكفر سلب، وعدم شكر الله تعالى حيث يجب الشكر جريمة سلبية أيضا، أما الجريمة الإيجابية فهي قتلهم الأنبياء بغير حق، فهم لا يكتفون بعصيان الله تعالى وكفرهم بآياته، بل يزيدون على ذلك لإمعانهم في الضلال بقتلهم النبيين الصديقين الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لهدايتهم ودعوتهم إلى الحق كما قتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام.

٢٠. يظهر أنهم لم يقتلوا واحدا، بل كانوا يقتلون النبيين كلما خالفوهم لا يرعون مقامهم من الله تعالى، ولذلك كان التعبير بالمضارع الدال على التكرار، وكأن قتل النبيين كان عادة لهم وشأنا من شئونهم لتغلغل الكفر والعصيان في نفوسهم، واستمرائهم الباطل والعصيان؛ ولذلك علل تعالى تكرار كفرهم للآيات، وقتلهم للأنبياء بقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

٢١. قوله تعالى في وصف قتلهم للأنبياء بأنه بغير الحق، وصف لإفادة عتوهم وكفرهم لا لبيان أن القتل للنبيين قد يكون بحق، بل لبيان أن فعلهم إثم وليس له مبرر، وأن كونه بغير الحق للتشنيع على فعلهم، وقبح تصرفاتهم.

٢٢. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ أي ذلك الجرم الذي ارتكبوه سببه أنهم عصوا؛ أي أن نفوسهم تمردت

واستمرأت العصيان، وأنها أظلمت بتراكم المعاصي حتى استمرأتها، وهل يصدر من النفوس المظلمة إلا ما يكون فسادا وشرا!؟ ويصلون إلى أقبح أنواع الشرور، وهو قتل الهداة أحباب الله تعالى وهم الأنبياء.

٢٣. أشار سبحانه وتعالى إلى أن ذلك كان لمجرد الاعتداء، فهم في طبيعتهم العدوان؛ لأن المعصية إذا استمرت ولجوا في العصيان، وسيطرت الأثرة عليها يكون من آثارها لا محالة الاعتداء، الاعتداء في طلب الأشياء، والاعتداء بسيطرة الأهواء والشهوات، والاعتداء بقتل الأنبياء، فالاعتداء والعصيان من شئونهم، وهكذا هم بلاء هذا الوجود.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ . أي قاله أسلافكم لموسى، وهم في التيه، حيث سئموا من المواظبة على أكل المنّ والسلوى، وتشوّقوا إلى عيشهم الأول في مصر.

٢. ليس في هذا الطلب معصية، فان كل انسان يطلب التنوع في الطعام، لأنه يفتح الشهوة، والرغبة في الاستكثار، والله سبحانه قد أحلّ الطيبات من الرزق لعباده.. وعلى هذا فان الآية لم تسق للذم، بل للتعجب من تركهم العيش الحاصل عفوا صفوا، وطلبهم العيش الذي لا يحصل إلا بالكد والجد.

٣. ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾. الباء في هذا المورد تدخل على الأفضل، تقول: لا تبدل النحاس بالذهب، ولا يجوز أن تقول: لا تبدل الذهب بالنحاس، والدليل هذه الآية الكريمة.. ولكن الناس يعكسون، وعلى أية حال فان المهم معرفة المراد، ووضوح القصد.

٤. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ . أي قال موسى لهم ذلك.. والظاهر ان المراد مصر من الأمصار يحقق لهم هذه الأمنية، لأن سبحانه لم يبين ويعين مصرا خاصا، وتفسير القرآن الكريم غير التعليلات النحوية التي يصحح بها كلام سيبويه ونفطويه.

٥. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ . كانوا أعزاء مستقلين يأتيهم رزقهم رغدا، فأبوا إلا الزراعة والصناعة والتجارة، وكل ذلك يستدعي التنافس والحروب، وهي تستدعي الفشل وذهاب الريح.

---

(١) التفسير الكاشف: ١/١١٦.

٦. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وبديهة ان قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق، وكأنّ الله سبحانه أراد بذكر القيد التشنيع بهم، وان القتل منهم لم يكن عن خطأ واشتباه، بل عن إصرار وتعمد للباطل والضلال. فلا بدع إذا أساء يهود المدينة الى محمد ﷺ.. لأنهم امتداد لذاك الأصل والعرق.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ طعام واحد ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ واعتبروه واحداً من حيث أن غداءهم وعشاءهم كل يوم منه لا يخلفه طعام آخر، فاعتبروا المجموع من المن والسلوى طعاماً واحداً نظراً إلى الثاني الذي يريدون أن يخلفه.

٢. لعل سبب ذلك: أن طعامهم قبل التيه كان مما تنبت الأرض من هذه الأشياء، فلما طالت مدتهم في التيه ولا طعام لهم مما كانوا ألفوه في نشأتهم وتربيتهم إنما طعامهم خلافه، وهو المن والسلوى، والمن والسلوى وإن كان خيراً من تلك الأشياء، فإن استمرارهم عليه كان سبباً لقلة رغبتهم، واشتياقهم إلى ما كانوا يأكلونه من الأشياء المختلفة من ألوان النبات، كما قالت ميسون شعراً:

لبيت تخفق الأرواح فيه … أحب إلي من قصر منيف

٣. ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ الظاهر منه يخرج لنا من الأرض، أي ينبت لنا.

٤. البقل: الفُجْل وما أشبهه مما لا ساق له، ويستنبت أو ينبُت بالبذر، ولا يبقى أصله في الأرض كما يبقى أصل الحشيش، هذا الذي يظهر من التفاسير المختلفة أنه يجمعها، أما موضع الخلاف فالله أعلم بالحقيقة.

٥. القثاء: الخيار، أو شيء مثل الخيار، وفومها، قيل: هو البر، وهو الأقرب، وقيل: هو الثوم، ولو قرن بالبصل لكان الظاهر، ولكنه قرن بالعدس، وهو من الحبوب وهو البلسن، والبصل معروف يجعل في الطبائخ وغيرها، وهو نافع من الوباء ومن ضرر اختلاف الماء على المسافر، وفيه منافع كثيرة مذكورة في الطب.

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١٢٣.

٦. في إضافتهم هذه الأشياء إلى ضمير الأرض تنبيه على أنهم يريدون طعاماً من نبات الأرض من حيث هو من الأرض خلاف ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ .

٧. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فإن من الغلط أن يكون طلب الإنسان تبعاً لمجرد الرغبة وإن فوت الذي هو خير له.

٨. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ إن هبطتم مصراً، ولعل هذا كان قبل معصيتهم وامتناعهم عن دخول الأرض التي كتب الله لهم، وقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦] فكأن موسى عليه السلام يقول لهم: إن طعامكم واحد ما دمتم في التيه، لا يدعكم الخوف أن تفتحوا لأنفسكم مصراً من أمصار الجبارين الذين تشردتم في التيه من خوفهم، فإن شئتم المطعومات التي طلبتم، فاهبطوا مصراً من تلك الأمصار ليكون لكم وطن وقرار وتزرعوا ما تحبون.

٩. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ فلم يزالوا في التيه إلى تمام أربعين سنة ﴿وَبَاءُوا﴾ بعد ذلك ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا حين تمكنوا في الأرض كما قال تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]

١٠. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لأنه سبب الغضب كونه قتلاً ظلماً وعدواناً على النبيين، والنبيون ـ صلوات الله عليهم ـ لا يقتلون إلاَّ وقتلهم بغير الحق، ولكن من حسن البيان التصريح بما هو محط الفائدة، ولعل فيه ـ أيضاً ـ فائدة أخرى، وهي: أنهم عباد من عباد الله، فلو أنهم استحقوا القتل ما غضب الله له.

١١. ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي وقع منهم الكفر وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم أو معاصيهم وعدوانهم المتكرر منهم، فالمعاصي والعدوان جرتهم إلى ما هو أكبر وجرأتهم على ما هو أخطر، فمن أجل ذلك ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾

١٢. الذلة: خلاف العزة وذلك يفيد: أنهم صاروا في حال يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم، والمسكنة: الضعف والخضوع، ولعلها سميت مسكنة من السكون؛ لأن صاحبها لا يتحرك للدفاع، بل يلتزم السكون لضعفه، والاعتداء ظلم الغير، مثل اعتدائهم في السبت بصيد الحوت وهو محرم عليهم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بدأ الملل يتسرب إليهم، فلم يستريحوا إلى هذه الألطاف التي أغدقها الله عليهم فيما يأكلون ويشربون، فاشتاقوا إلى طعامهم المفضل الذي كانوا يأكلونه في مصر، وفقدوا الصبر على هذه الحياة الهنيئة الرخيّة، واعترض عليهم موسى بأن الحياة التي يعيشونها أفضل من الحياة التي فقدوها، لأنها الحياة التي ترتاح في الأجواء الروحية الخالصة، فكيف يستبدلون الذي هو أقل بالذي هو أفضل!؟

٢. واستجيب لهم طلبهم، وقيل: لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ فيها من طعام وشراب، وفقدوا القاعدة التي ترتكز عليها الحياة العزيزة الكريمة، وهي الإيمان بالله والسير على هداه، وفضلوا الأشياء المادية الصغيرة على ذلك كله، واستسلموا لشهواتهم والملذات، وقادهم ذلك إلى الخضوع للقوى التي تملك سبيل الشهوات والملذات، فباعوا أنفسهم وحياتهم للطغاة والمستبدين، فأذلوهم وقهروهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، وذلك هو سبيل كل المجتمعات التي تعيش لشهواتها وأطماعها، فتستسلم لكل القوى التي تؤمّن لها ذلك، ولو على حساب كرامتها وعزتها ومبادئها، ويمتد بها هذا السلوك، حتى تنحرف عن خط الله المستقيم، فترجع بغضب الله وسخطه، لأن ذلك يؤدي بها إلى الكفر بآيات الله عنادا وضلالا، وإلى الوقوف ضد رسالاته ورسله، كما فعل بنو إسرائيل الذين كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويعصون ربهم ويعتدون على الناس بغير حق.. وتلك هي النهاية الطبيعية لكل شعب يفقد إيمانه ووعيه للقيم الروحية الكبيرة التي تغمر حياته بالقوة وروحه بالسكينة وتعمر كيانه بالقوة والحياة.

٣. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ويقال: إنه المن والسلوى، باعتبار أنه الطعام الذي لا يتغير ولا يتبدل، مما يعطيه معنى الوحدة حتى مع تعدده، فنحن نريد التنوّع أو العودة إلى طعامنا الذي اعتدنا عليه بالإضافة إلى ما رزقنا الله من الطعام.

٤. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ وهو كل ما اخضرّت به الأرض من البقول والخضروات، وقِثَّائِها وهو الخيار، وفُومِها وهو الثوم، وعَدَسِها وبَصَلِها وهما معروفان.

٥. ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أقلّ مرتبة في الخصائص والعناصر الشهية مما تطلبونه

---

(١) من وحي القرآن: ٢/٦١.

﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المنّ والسلوى، فلا ترتفعون في مزاجكم الغذائي إلى المستوى الأفضل؟ الأمر الذي قد يوحي بالجمود الذاتي في عاداتكم وتقاليدكم الذي يمتد إلى أفكاركم، فلا تتحرك نحو التطوّر في اكتشاف الجديد في خصائصه، أو الجديد لدى الشعوب الأخرى، الذي قد يتميز عن القديم المألوف للناس، حتى لو كان الجديد طيبا والقديم خبيثا، بحيث يتعقّد الإنسان من الطيب ويرفضه لمصلحة الخبيث الذي يطلبه، ولكن المسألة مهما كانت طبيعتها فيما تطلبون، فإن هناك فرصة للحصول على ذلك في البلد الذي تتوفر فيه هذه المآكل، لأن الصحراء التي تتيهون فيها لا توفر لكم ذلك.

٦. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ من مشتهياتكم، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ من خلال خضوعهم للأطماع الذاتية، التي تبتعد بهم عن القضايا الكبيرة في مواقع التحدي والتمرد على الذات، الأمر الذي يجعلهم مشدودين إلى الضعف النفسي والسقوط الروحي أمام الآخرين الذين يملكون حاجاتهم ويفرضون عليهم سيطرتهم، من خلال نقاط الضعف المتحكمة فيهم الكامنة في داخل شخصياتهم، وباؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ أي عادوا بحصيلتهم العملية بغضب الله عليهم لعصيانهم له وتمردهم على رسوله ورسالاته.

٧. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ بعد قيام الحجّة عليهم وإدراكهم للحقّ الصادر من الله، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ من خلال العقدة المتأصّلة في نفوسهم ضد الحق وأهله، من الرسل الذين جاؤوا ليحرروا الإنسان المستعبد من عبوديته والشخص المستضعف من استضعافه، وليربطوه بالله الذي خلقه وأراد له أن يكون عزيزا حرّا، وبالقيم الروحية التي أراد الله للإنسان أن ينطلق بها في كل خطواته في الحياة ليرتفع إلى الدرجات العليا في الروح والفكر والحركة والحياة.

٨. لكن هؤلاء الناس الذين تعودوا على الخضوع للاستعباد وأهله، لا يريدون الانفتاح على الرسالة الجديدة الحرّة، ولا يحترمون الرسل الذين يحملونها، ولا يملكون في الوقت نفسه مواجهتهم بالحجّة، فيعمدون إلى اضطهادهم وقتلهم لئلا يكونوا شهودا على الواقع الشرير الذي يتقلبون فيه ويتحركون من خلاله.

٩. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ ربهم وخالفوا أو امره ونواهيه في اتباع الصراط المستقيم، ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي يتجاوزون الحدّ في الظلم والبغي والفساد.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي (ت ١٤٥٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. الآية تضع أمامنا صورة من صور التعنت الإسرائيلي، وضربا من ضروب الانحراف الفكري والسلوكي عند اليهود، فبعد أن أطلقهم الله من قيود الذل وأغلال الهوان الذي كابدوه ردحا من الزمن في ظل الحكم الفرعوني الرهيب، ونقلهم إلى فسيح الحرية ومشارف العز اشتاقت نفوسهم المأفونة إلى حيث كانوا، مؤثرين التمرغ في أوحال الهوان والانغماس في حمأة الذل مرة أخرى على ما هم فيه من بحبوحة الخير، ورفعة القدر، ونعمة الحرية، وفي هذا يقول الزمخشري: كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرمهم، فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء)

٢. من أمعن في ألفاظ الآية وما توحيه من ملابسات هذا القول الصادر منهم يدرك أنه ناشئ عن تنعتهم في الكفر، وإمعانهم في الصدود، وإغماضهم أبصارهم عن آيات الله الداعية إلى الإيمان، فاستخفافهم بالنعمة جَلِيٌّ في قولتهم هذه، وكفى بذلك معصية؛ كيف وقد يسرها الله تعالى لهم بطريقة غير عادية هي أدعى إلى الإيمان والشكر؟ ولا نسلم أن ما عوقبوا به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم لا يتعدى أن يكون من الأمور العادية المترتبة على مخالفة نظام الحياة فحسب بدليل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وما إنزال المن والسلوى عليهم وهم في التيه إلا من تلك الآيات التي كفروا بها إذ لم يقدروها حق قدرها، فلم يعتبروا بها، بل بقوا في عماهم يترددون وفي ضلالتهم يعمهون، وفي شكهم يغدون ويروحون، وليس أدل على شكهم من هذا الطلب ونحوه، وكفى به إثما مبينا.

٣. لم أجد دليلا على ما قاله ابن عاشور بأن الله لم يرهم ما عودهم من إنزال الطعام وتفجير العيون بعد أن كان منهم هذا السؤال، وما ذكره من القصة المشار إليه بالآية في التوراة دال على استمرار إرسال السلوى عليهم.

٤. الطعام بمعنى المطعوم كالعطاء بمعنى المعطي، وقد أرادوا بوحدته عدم تبدله بين يوم وآخر، وهو معهود في التعبير العربي، فإن العرب تقول فيمن لا تتبدل أجناس طعامه الذي يطعمه في كل يوم (فلان يأكل من طعام واحد)، ولو كانت أجناسا متعددة وألوانا مختلفة، فلا إشكال في قولهم هذا مع كونهم

---

(١) تفسير الخليلي: ٣/٣٠٥.

يتغذون بجنسين من الطعام هما المنُّ والسَّلوى، وقد أرادوا أن يستبدلوا بهما ما كان مألوفهم من قبل من نباتات الأرض، وبينوه بقولهم: من بقلها..)

٥. الأصل في الاستبدال أن تأخذ شيئا مكان شيء تعطيه، ومن المعتاد أن لا يكون ذلك إلا ونفس المستبدل فيما تأخذ أرغب وفيما تعطي أزهد، ثم أُطلق في مُطلق التلبس بشيء وترك غيره كاستبدال التائب التقوى بالفجور والطاعة بالعصيان، ومثله أن يأخذ المقاتل سلاحا ويدع غيره، ولا يصاغ فعل من مادته إلا مزيدا، كأبدل، وبدّل، واستبدل، فكأنه أميت فعله المجرد، والتبدل والاستبدال مترادفان كالتكبر والاستكبار.

٦. ﴿أَدْنَى﴾ أَفْعَلُ تفضيل:

أ. قيل: من الدنوِّ وهو القرب، ويراد به قلة القيمة أو عدمها، لأن ما لا قيمة له مبتذل عادة، يمكن لأي يد أن تتناوله، بخلاف ما ارتفعت قيمته، فإنه يحفظ بعيدا عن تناول الأيدي ورؤية الأبصار، ومن ثم استُعمل الدنو والبعد في ضعة القدر وعلوه، وحقارة الهمة وعظمتها.

ب. وقيل: من الدناءة بمعنى الرداءة والحقارة؛ وعليه فأصله أدنأ بالهمزة فخفف بإبدال الهمزة ألفا وعُضد بقراءة زهير الفرقبي (أدنأ) بالهمز، وهي من شواذ القراءات، وتوهم بعض أنها قراءة للكسائي، ومنشأ هذا الوهم أن زهير المذكور يقال له زهير الكسائي، فأثبت ذلك البعض واوا بين اسمه ونسبه ظانا أنها قراءته وقراءة الكسائي القارئ المشهور. أفاد ذلك أبو حيان.

ج. وقيل: أصله أدون من الدون بمعنى القرب فقدمت النون وأخرت عنها الواو وأبدلت ألفا لتطرفها؛ وفي هذا القول والذي قبله تكلف واضح وخروج عن الجادة لغير داع.

٧. مهما قيل في أصل كلمة أدنى، فإن المراد ﴿بالذي هو أدنى﴾ ما طلبوه، والمراد ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ ما كانوا أوتوه.. ولفظ ﴿خَيْرٌ﴾ للتفضيل.

٨. الخيرية المقصودة:

أ. إما أن تكون باعتبار قيمة المن والسلوى، فإن البقول التي طلبوها لا تسوى شيئا بجانبهما.

ب. وإما لكونهما ساقهما إليهم نعمة خالصة، ففي أكلها استدامة لشكر الله بجانب كونه امتثالا لأمره، وبهذا يحصل لهم من الأجر والثواب بسببهما ما لا يحصل بغيرهما.

ج. وإما لخلوصهما من العناء والتعب، بخلاف ما طلبوه فإنه يستدعي الحرث والسقي والإصلاح والحصاد، وما كان خاليا من العناء فهو خير مما توقف عليه.

د. وإما لأن الطبع أميل إلى ما كان ألذ وأطيب من المطاعم وغيرها، والبون شاسع في ذلك بين ما أوتوه وما سألوه.

هـ. وإما لخلوص المن والسلوى من شوائب الحُرَم والشُّبَه، بخلاف تلك البقول لضرورة زرعها، والزرع يتوقف على البذر والأرض، وهما مما تدخله الحُرَمِ والشُّبَه، لإمكان غصبهما أو سرق البذر أو مرورهما بعقود غير جائزة شرعا، ولا يخفى فضل ما تيقنت حليته على ما احتمل الشبهة والحرام.

و. وإما لأن المن والسلوى أعظم نفعا وأجدى غذاء للأبدان.

وقد عد أبو حيان في بحره هذه الاعتبارات أقوالا، وأرى كونها وجوها أقرب لعدم تعارضها، وإن أوردها المفسّرون متفرقة، وأراها جميعا مقصودة بالخيرية.

٩. في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قولان:

أ. أكثر أهل التفسير على أن المراد بمصر هنا أي مصر من الأمصار، واستدلوا له بصرفه، ولو أريد به القطر المعروف لمنع الصرف كما مُنع في قوله تعالى: ﴿تبوءا لقومكما بمصر بيوتا﴾، وقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وعليه فالمراد من أمرهم بهبوط مصر أن ما طلبوه لا يحتاج إلى دعاء فإن الله يسره لعباده في الأمصار، وما عليهم إن ابتغوا إلا أن ينزلوا مصرا من هذه الأمصار فيجدوا فيه طلبتهم.

ب. وقيل: هو القطر المعروف، وهو الذي حكاه أشهب عن مالك، وعُضد أن في قراءة ابن مسعود بدون تنوين وأنه في مصحف أبيٍّ بدون ألف، وأصحاب هذا القول يحملون قراءة الجمهور على تنكير اللفظ وتعريف المعنى، كما يقول القائل: إئتني برجل، ومراده رجل بعينه.

١٠. اضطربت هنا الأفهام:

أ. فأرباب القول الأول رأوا أنه لا يمكن أن يكون المراد القطر المصري لعدم ثبوت عودة بني إسرائيل إلى مصر من التيه.

ب. والآخرون عارضهم بما في القرآن من توريث بني إسرائيل أموال فرعون وآله.

ج. وأدى هذا الاضطراب بالبعض إلى القول بأن المراد بمصر القرية المقدسة التي أمروا بدخولها،

ومؤداه أنكم إن كنتم لا تبصرون على ما ترزقونه في هذا التيه فإنكم أنتم الذين أوقعتم أنفسكم فيه بالتلكؤ عن الجهاد، والتعنت على أمر الله، فما عليكم وأنتم تريدون الخلاص منه إلا أن تأتوا الأمر من طريقه، فتهبطوا إلى مصر الذي أمرتم فيه بمقاومة الجبارين فتكونوا أهلا لما وعدكم الله به من الاستخلاف، وتجدوا هناك كل ما سألتم.

١١. منشأ هذا كله جعل الأمر بالهبوط أمرا شرعيا، أي أمر إباحة وهو يتعارض مع ما سبقه من الإنكار عليهم أن يستبدلوا الأدنى بالذي هو خير، ومن العجب العجيب أن يستدل مستدل بها في القرآن من توريث بني إسرائيل أموال فرعون وآله على خروجهم من التيه إلى مصر غافلا عما يكتنف هذا الأمر بالهبوط قبله وبعده من الإنكار والوعيد.

١٢. الصحيح أن الأمر بالهبوط هنا ليس أمرا تشريعيا وإنما هو أمر تعجيزي على حد قوله عز وجل: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾، وقد أريد به تبكيتهم على نزوعهم إلى مضارب هوانهم ومواطن ذلهم، حيث كانوا يتململون تحت نير القهر، ووطأة العذاب من فرعون وآله.

١٣. بناء على هذا، مصر هو البلد المعروف ولا إشكال في صرفه لجواز صرف الأعلام الثلاثية المسكنة الوسط لخفتها في النطق، وإن استحقت منع الصرف لوجود سببيه، كنوح ولوط، ودعد وهند، ومجيؤه في القرآن غير مصروف تارة لا يمنع صرفه تارة أخرى لأنه من باب التفنن، أما ما قاله أبو حيان من أن لمصر حكما آخر غير حكم نوح ولوط، ودعد وهند، لأن فيها سببين من أسباب منع الصرف، وفيه ثلاثة أسباب وهي التأنيث والعلمية والعجمية؛فهو مردود من وجهين:

أ. أولهما: أن جواز صرف تلك الأسماء مع وجود السببين المانعين منه إنما هو لمجرد الخفة في النطق التي يشاركها فيها مصر لأنها ناشئة عن تسكين الوسط.

ب. ثانيهما: أن عجمة مصر التي ادعاها غير مسلَّمة وقد سبق بيان اشتقاقه من الألفاظ العربية وهذا الاشتقاق أورده أبو حيان نفسه.

١٤. ليس قوله: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ تعليلا للأمر، ولا جوابا له لاستلزام ذلك الترغيب فيه مع اقتضاء المقام خلافه كما هو واضح من كون الأمر تعجيزيا.

١٥. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

١٦. لا التفات في قوله: ﴿وضربت عليهم الذلة والسكينة﴾ على الصحيح وإن خرج الكلام من الخطاب إلى الغيبة لأن المقصودين في الحديث الخطابي الذين تمردوا على أوامر الله ورسوله وموسى، فحبسوا في التيه لامتناعهم عن مقاتلة الجبارين ودُؤوبهم على العنت، وقد مُثِّلوا في ذريتهم الذين كانوا بالمدينة عند نزول الوحي، فخوطبوا من خلالهم والمقصودين بالحديث المسوق مساق الغيبة جميع فئاتهم العاتين عن أمر الله والمناوئين لأنبيائهم في جميع العصور، ويندرج فيهم الذين كانوا في عصره ﷺ.

١٧. العطف في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ﴾ هو من باب عطف القصة على القصة، لك لأن الله حكى قصتهم مع موسى مبتدئا بتنجيتهم من فرعون وآله ومقررا ما حصل منهم من كفر وجدل واستخفاف وعصيان، ثم أتبع لك تبيان عاقبة أمرهم ونتيجة فعلهم، وهو ما لزمهم من الذلة والمسكنة وما انقلبوا إليه من غضب الله سبحانه وتعالى، وهو لا ينافي الاستدلال بهذا المعطوف على عدم إقرارهم على ما سألوه من إبدال عيشهم بما كانوا آلفيه من قبل لأن ذلك السؤال هو الحلقة الأخيرة في سلسلة الأسباب المذكورة التي أدت بهم إلى هذه العاقبة الوخيمة والنتيجة السيئة، ولأن قرن الأخبار بهذه العاقبة مع جواب موسى لهم موح بأن لسؤالهم أثر في حصول هذه العاقبة لهم.

١٨. اليهود من أشد الناس مسكنة وذلة، وقد سلط الله عليهم الأمم، وكتب عليهم الهوان، بعدما أنعم عليهم بالملك والنبوة، فبدلوا نعمة الله كفرا، وجاهروا بمعصية، ولم يتناهوا عن منكر فعلوه، فقد أغارت عليهم المجوس مرتين ذاقوا فيهما مُرَّ العذاب، فقد قُتِّل رجالهم، وسبيت نساؤهم، واسترقت ذريتهم، ثم وقعوا بعد ذلك تحت نير الحكم الروماني الذي لا يرحم فصُب عليهم العذاب صبا، واستمروا يرزحون تحت وطأة الذل في كل العهود الغابرة حتى جاء العهد النازي القاسي فملأ بهم الأفران، وجعل جثثهم مختبرا لكل تجربة في العذاب، وإنما ابتلى الله بهم عباده المسلمين لتفريطهم في دينهم، واستوائهم معهم في معصية الله، والإعراض عما أنزل من الهدى، وهكذا يسلط الله من يشاء على من يشاء تأديبا لتكون في ذلك ذكرى لأولي الألباب.

١٩. حمل كثير من المفسرين ـ أو أكثرهم ـ الذلة على الجزية التي فرضها الله عليهم في الإسلام، وهو تفسير بعيد لتنوع بلائهم وتلون ذلهم في جميع العصور المتعاقبة منذ أن بدأ عقاب الله يحيق بهم، ولم تكون

الجزية مضروبة عليهم في جميع الأزمان.

٢٠. قتلهم النبيين كان بسبب أمرهم إياهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وهو ما ثبت في كتبهم، فقد قتلوا أشعيا بن أموص بنشره على جذع شجرة في عهد الملك منسي سنة قبل الميلاد، وأرمياء الذي رموه بالحجارة حتى مات لأنه وبخهم على منكراتهم، وكان ذلك في أوساط القرن السابع قبل الميلاد، وفي عهد المسيح عليه السلام قتلوا زكريا ويحيى سلام الله عليهما إرضاء لشهواتهم، وهموا بقتل المسيح نفسه لولا أن الله سبحانه حفظه، كما هموا بقتل نبينا محمد ﷺ.

٢١. أشكل على بعض المفسرين تمكنهم من قتل النبيين مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾، وأجاب بعضهم عن هذا الإشكال بأن الآية نصت على نصر المرسلين، ولم تنص على نصر النبيين، فكانوا لا يُمكَّنون من قتل من كان نبيا رسولا لوعد الله للرسل بالنصر، وإنما يتمكنون أحيانا من قتل من كان نبيا ولم يكن رسولا، وهذا الجواب مردود لأمرين:

أ. أولهما: ثبوت النص على قتلهم الرسل في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

ب. وثانيهما: أنهم قتلوا من قتلوا من النبيين بسبب دعوتهم إلى الحق وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفيما يدل على أنهم كانوا متحملين برسالة ومؤدين لها على أن الله عز وجل ذكر زكريا ويحيى في ضمن جماعة من الأنبياء، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، وقال في يحيى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وقال فيه: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وفي هذا ما يدل على أنهما كانا نبيين مرسلين.

٢٢. إنما يدفع ما ذكروه من الإشكال حمل النصر الذي وعد الله به المرسلين على نصر دعوتهم بالحجة والبرهان، وكون العاقبة لها، أو أن هذا وعد خاص بالمرسلين الذين فرض عليهم القتال فإنهم ينصرون لا محالة.

٢٣. ترجع الإشارة الثانية عند أكثر المفسرين إلى ما رجعت إليه الأولى، وإنما أعيدت للتأكيد، ومعنى ذلك أن ضرب الذلة والمسكنة عليهم بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين بغير الحق، وبسبب معصيتهم واعتدائهم، والصحيح أن لها مرجعا غير مرجع سابقتها، فالأولى تشير إلى ضرب الذلة والمسكنة

عليهم، والثانية تشير إلى الكفر بآيات الله وقتل النبيين بغير الحق، فإن ذلك ناشئ عن معصيتهم لله واعتدائهم حدوده، وهذا كما يقال: المعاصي بريد الكفر)، فإن من شأن المعصية إذا استخف بها صاحبها وأصر عليها أن تجر إليه نظائرها، فإن النفس إذا انفلتت من حبال التقوى، وخرجت من حظيرة خوف الله لم تكد تقف عند حد من حدود العصيان فتستخف بما كانت تستعظمه، وتستصغر ما كانت تستكبره، وذلك ما يعنيه قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فإن النبي ﷺ ذكر المعصية وأثرها في القلب، وأن من تاب منها صقل قلبه، ومن استمر عليها ازداد أثرها حتى يغطي على القلب، ثم قال: فذلكم الران)، وتلا الآية، وكفى بهذا داعيا إلى مراقبة القلب ومحاسبة النفس في جميع الأوقات، وفي كل الأحوال، فرب معصية لا يرفع لها العبد شأنا ولا يحسب لها حسابا تهوي به إلى الضلال البعيد، وتردي به في العذاب الأليم والعياذ بالله، ولذلك كان ذوو البصائر لا يفتؤون يراقبون النفس ويحاسبونها حتى على المباح فضلا عن السيئات.

٢٤. تعميم صفة القتل عليهم لأنهم بين قاتل ومقر ومو ال للقتلة.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. سؤال وإشكال: التنوع هو ـ دون شك ـ من متطلبات البشر، وحبّ التنويع خصلة طبيعية في البشر، والإنسان ـ إن استمرّ على تناول طعام معين لمدّة طويلة ـ يمل ذلك الطعام، فلم إذن توجّه اللوم والتقريع إلى بني إسرائيل حين طلبوا الخضروات والخيار والثوم والعدس والبصل ليتخلصوا من الطعام الواحد!؟ والجواب: يتضح لو علمنا أنّ الحياة الإنسانية تقوم على أساس حقائق هامّة لا يمكن التخلّي عنها، هي الإيمان والطهر والتقوى والتحرّر، وقد تمرّ الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام والشراب واللذائذ الأخرى، وهنا تصبح الجماعة أمام خيارين:

أ. إمّا أن تنغمس في اللذات وتترك قيمها وشرفها.

ب. أو تضحي بلذّاتها من أجل إنسانيتها وكرامتها.

وبنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

---

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٤٥.

٢. لا بدّ من الإشارة إلى أن حقيقة حبّ التنويع استغلها الطامعون والمستعمرون دوما، ليدفعوا الشعوب إلى هاوية حياة استهلاكية شهوانية هابطة، يعيش الأفراد فيها بين المعلف والمضجع، ناسين شخصيتهم الإنسانية، وغافلين عن النير الذي يطوق أعناقهم.

٣. (الفوم الذي طلبه بنو إسرائيل فسّر بالحنطة مرة وبالثوم مرة أخرى، ولكلّ من المادتين قيمتها الغذائية، ويرى بعض أن تفسير الفوم بالقمح أصحّ لاستبعاد أن يطلب القوم طعاما خاليا من القمح.

٤. حين طلب بنو إسرائيل أطعمة متنوعة جاءهم التقريع بالقول: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾!؟ أي أتختارون الأدنى وتتركون الأفضل!؟ ويبدو أن المقصود بالأفضل هنا هو ما لديهم من طعام متمثل بالمن والسلوى، غير أن التفضيل الذي يطرحه القرآن هنا يعود إلى الحياة بكل أبعادها، والتقريع يتجه إلى بني إسرائيل لرغبتهم في التنويع مع ما قد يكشف هذا التنويع من ذلّ وهوان.

٥. على صعيد القيمة الغذائية، فإن الأطعمة النباتية التي طلبها بنو إسرائيل لها قيمتها الغذائية طبعا، غير أن مقدار الموارد الغذائية النافعة الموجودة في (المن) ـ وهو العسل أو مادة سكرية مقوّية ـ وكذلك في لحوم السلوى يفوق ما في الأطعمة النباتية المذكورة، كما أن المن والسلوى أسهل هضما من الحبوب المذكورة.

٦. من المفسرين من قال إن المقصود من كلمة (مصر) في الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة، وقوله سبحانه: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، أي إنكم الآن تعيشون في هذه الصحراء ضمن إطار منهج للاختبار وبناء الذات، وليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، اذهبوا إلى المدن حيث التنوع في المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور، ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن بني إسرائيل لم يطلبوا العودة إلى (مصر) موطنهم السابق ولم يعودوا إليه إطلاقا.. وهذا هو الأنسب.

٧. هناك رأي آخر للمفسرين هو أن المقصود من (مصر) البلد المعروف، ويكون المعنى عندئذ: إنكم في هذه الصحراء الخالية من الأطعمة المتنوعة تملكون الإيمان والحرية والاستقلال، وإن أبيتم إلّا أن تكون لكم أطعمة متنوعة، فارجعوا إلى مصر حيث الذل والاستعباد، لتأكلوا من فتات موائد الفراعنة. إن مشتهيات بطونكم أنستكم ما كنتم تعانون منه من ذل واستعباد، وما حصلتم اليوم عليه من حرية ورفعة وافتخار، وما تتحملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحريتكم.

٨. تفيد الآية الكريمة أن بني إسرائيل ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ لعاملين:

أ. الأوّل ـ لكفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خط التوحيد.

ب. الثاني ـ لقتلهم الأنبياء بغير حق.

٩. ظاهرة الانحراف عن خط التوحيد وظاهرة القسوة والفظاظة، لا زالتا مشهودتين حتى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، ولا زالتا سببا لشقاوتهم وطيشهم وتعاستهم.

٢٥. حكم الله بين أهل الأديان

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي، وكان من أهل جنديسابور، من أشرافهم، وما بعد هذه الآية نازلة في اليهود[1].

٢. روي أنّه قال: نحن أعلم الناس من أين تسمت اليهود باليهودية، والنصارى بالنصرانية، إنما تسمت اليهود باليهودية بكلمة قالها موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، فلما مات قالوا: هذه الكلمة كانت تعجبه، فتسموا باليهود[2].

٣. روي أنّه قال: نحن أعلم الناس من حيث تسمت اليهود باليهودية، بكلمة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، ولم تسمت النصارى بالنصرانية، من كلمة عيسى عليه السلام: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللهِّ﴾[3].

٤. روي أنّه قال: إنما تسمت النصارى بالنصرانية لكلمة قالها عيسى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِّ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِّ﴾، فتسموا بالنصرانية[4].

علي:

---

(١) الواحدي في أسباب النزول: ص٢٥ ـ ٢٦.

(٢) الدرّ المنثور: أبي الشيخ.

(٣) ابن أبي حاتم: ٥/١٥٧٧.

(٤) الدرّ المنثور: أبي الشيخ.

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) أنّه قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[(١)].

ابن عباس:

ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. أنّه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية: فأنزل الله بعد هذا: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥][(٢)].

٢. روي أنّه قال: إنما سميت النصارى: نصارى؛ لأن قرية عيسى كانت تسمى: ناصرة[(٣)].

٣. سئل عن الصابئين، فقال: هم قوم بين اليهود والنصارى والمجوس، لا تحل ذبائحهم، ولا مناكحتهم[(٤)].

٤. روي أنّه قال: الصابئون ليس لهم كتاب[(٥)].

٥. روي أنّه قال: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ يعني: من وحد الله، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: من آمن باليوم الآخر، يقول: آمن بما أنزل الله[(٦)].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: الصابئون: فرقة من أهل الكتاب، يقرؤون الزبور[(٧)].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن جرير: ١٠/٤٨٢.

(٢) ابن جرير: ٢/٤٥ ـ ٤٦.

(٣) ابن سعد في طبقاته: ١/٥٣.

(٤) عبد الرزاق في مصنفه: ١٠٢٠٨.

(٥) ابن مردويه كما في الفتح/ ـ:.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١٢٨ ـ ١٢٩.

(٧) ابن جرير: ٢/٣٧.

١. روي أنّه قال: الصابئون: منزلة بين النصرانية والمجوسية[١].

٢. روي أنّه قال: ذهبت الصابئون إلى اليهود، فقالوا: ما أمركم؟ قالوا: نبينا موسى جاءنا بكذا وكذا، ونهانا عن كذا وكذا، وهذه التوراة، فمن تابعنا دخل الجنة، ثم أتوا النصارى، فقالوا في عيسى ما قالت اليهود في موسى، وقالوا: هذا الإنجيل، فمن تابعنا دخل الجنة، فقالت الصابئون: هؤلاء يقولون: نحن ومن اتبعنا في الجنة، واليهود يقولون: نحن ومن اتبعنا في الجنة، فمن به ندين!؟ فسماهم الله: الصابئين[٢].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لما قص سلمان على رسول الله ﷺ قصة أصحابه؛ قال: هم في النار)، قال سلمان: فأظلمت علي الأرض، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ إلى قوله: ﴿يَحْزَنُونَ﴾، قال فكأنما كشف عني جبل[٣].

٢. روي أنّه قال: سأل سلمان الفارسي النبي ﷺ عن أولئك النصارى، وما رأى أعمالهم، فقال: لم يموتوا على الإسلام)، قال سلمان: فأظلمت علي الأرض، وذكرت اجتهادهم؛ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، فدعا سلمان، فقال: نزلت هذه الآية في أصحابك)، ثم قال: من مات على دين عيسى قبل أن يسمع بي فهو على خير، ومن سمع بي ولم يؤمن بي فقد هلك[٤].

٣. روي أنّه قال: الصابئون: قوم بين اليهود والمجوس، ليس لهم دين[٥].

٤. روي أنّه قال: الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى، هم قوم من المشركين لا كتاب لهم[٦].

ابن منبّه:

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٢٧.

(٢) الدرّ المنثور: عبد بن حميد.

(٣) الواحدي في أسباب النزول: ص٢٤.

(٤) ابن جرير: ٢/٤٥ مرسلًا.

(٥) تفسير مجاهد: ص٢٠٤ من طريق ابن أبي نجيح: وعبد الرزاق في تفسيره: ١/٤٧.

(٦) الدرّ المنثور: ابن المنذر.

روي عن وهب بن منبّه (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: الصابئ: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفرا[١].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إنما سموا نصارى بقرية يقال لها: ناصرة، ينزلها عيسى ابن مريم، فهو اسم تسموا به، ولم يؤمروا به[٢].

٢. روي أنّه قال: الصابئون قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور[٣].

٣. روي أنّه قال: قوم يقرؤون الزبور، ويعبدون الملائكة، ويصلون إلى الكعبة، ويقرون بالله تعالى، أخذوا من كل دين شيئا[٤].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أجر كبير لحسناتهم، وهي الجنة[٥].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ معنى هادوا: تابوا.. وهدنا إليك: تبنا إليك[٦].

٢. روي أنّه قال: الصّابئون: قوم من اليهود والنّصارى[٧].

الزهري:

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٢٨.

(٢) ابن جرير: ٢/٣٤.

(٣) عبد الرزاق في مصنفه: ١٠٢٠٦.

(٤) تفسير البغوي: ١/١٠٢.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/١٢٩.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ٨٣.

روي عن ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) أنّه قال: سموا نصارى لأن الحواريين قالوا: نحن أنصار الله[١].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه، حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمدا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا[٢].

٢. روي أنّه قال: الصابئون طائفة من أهل الكتاب[٣].

أبو الزناد:

أبو الزناد (ت ١٣٠ هـ) أنّه قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات[٤].

ابن أبي نجيح:

روي عن ابن أبي نجيح (ت ١٣١ هـ) أنّه قال: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ بين اليهود والمجوس، لا دين لهم[٥].

مقاتل:

مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وهم قوم يصلون للقبلة، يقرؤون الزبور، ويعبدون الملائكة[٦].

٢. روي أنّه قال: وذلك أن سلمان الفارسي كان من جنديسابور، فأتى النبي ﷺ فأسلم، وذكر

---

(١) تفسير الثعلبي: ٢٠٨/١.

(٢) ابن أبي حاتم: ١٢٧/١.

(٣) ابن جرير: ٣٧/٢.

(٤) عبد الله بن وهب في الجامع ـ تفسير القرآن: ٦٣/١ :. ٦٤.

(٥) ابن جرير: ٣٥/٢.

(٦) تفسير مقاتل: ١١٢/١.

سلمان أمر الراهب وأصحابه، وأنهم مجتهدون في دينهم يصلون ويصومون، فقال النبي ﷺ: هم في النار)، فأنزل الله تعالى فيمن صدق منهم بمحمد ﷺ وبما جاء به: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا، يعني: أقروا، وليسوا بمنافقين، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾ يعني: اليهود والنصارى[2].

٤. روي أنّه قال: لأنهم نزلوا قرية يقال لها: ناصرة، فنسبوا إليها[3].

٥. روي أنّه قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نزول العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت[4].

ابن العلاء:

روي عن أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) أنّه قال: لأنهم يتهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السماوات والأرض تحركت حين آتى الله موسى التوراة[5].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الصابئون: أهل دين من الأديان، كانوا بالجزيرة؛ جزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، إلا قول: لا إله إلا الله: ولم يؤمنوا برسول الله، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم[6].

المرتضى:

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٨.

(٤) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٥) تفسير الثعلبي: ١/٢٠٨.

(٦) ابن جرير: ٢/٣٦.

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾، الذين آمنوا هم: الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، والإيمان يخرج على وجهين في اللغة:

أ. فوجه هو: الإقرار بالله والإيمان به.

ب. ووجه آخر: وهو التصديق بالخبر، من ذلك قول إخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، يقولون: ما أنت بمصدق لنا.

٢. المؤمن: الذي أمن نفسه من عذاب الله سبحانه، بما كان من طاعته له.

٣. الذين هادوا: هم اليهود، وهو اسم لهم؛ ألا تسمع كيف يخبر الله عز وجل عن قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ .

٤. النصارى: هم النصارى الذين تعرف، وإنما سموا النصارى؛ لأنهم ادعوا النصرة، فسموا النصارى.

٥. الصابئين: هم فرقة أخرى من النصارى، يدعون بالصابئين، وإنما اشتق اسم الصابئ من الصبو، يقال: صبا فلان، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

صبوت إلى اللهو بعد المشيب ... وقد كنت للهو قدما تروكا

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[٢]:

١. اختلف في الصابئين:

أ. قيل: الصابئون: قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور.

ب. وقيل: إنهم قوم يعبدون الكواكب.

ج. وقيل: هم قوم بين المجوس والنصارى.

د. وقيل: هم قوم بين اليهود والمجوس.

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٤٥.

(٢) تأويلات أهل السنة: ١/ ٤٨٥.

هـ. وقيل: هم قوم يذهبون مذهب الزنادقة؛ يقولون باثنين لا كتاب لهم، ولا علم لنا بهم.

٢. لا يصح اعتبار اليهود والنصارى وهؤلاء جائز أن يكون لهم تعلق بظاهر هذه الآية؛ لأنهم كانوا يقولون: إنا آمنا بالله، وآمنا باليوم الآخر، فليس علينا خوف ولا حزن، لوجوه:

أ. أحدها: أنّ الله تعالى ذكر المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وإيمانهم ما ذكر في آية أخرى وهو قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهم قد فرقوا بين الرسل، بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وفرقوا بين الكتب أيضا: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض.. فهؤلاء الذين ذكرهم ـ عزّ وجل ـ في هذه الآية، هم الذين آمنوا بجميع الرسل، وآمنوا بجميع الكتب أيضا، فإذا كان هذا إيمانهم لم يكن عليهم خوف ولا حزن.

ب. الثاني: ذكر الله تعالى الإيمان بالله، والإيمان بالله هو الإيمان بجميع الرسل، وبجميع الكتب، ولكنهم لا يؤمنون بالله، ولا يعرفونه في الحقيقة.. أو أن يقال: ذكر عمل الصالحات، والكفر ببعض الرسل ليس من عمل الصالحات؛ لذلك بطل تعلقهم بهذا.

٣. قيل: ذلك على التقديم والتأخير؛ كأنه قال إن الذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر، والذين آمنوا.. الآية.

٤. للمعتزلة تعلق بظاهر قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وصاحب الكبيرة عليه خوف وحزن، فلو كان مؤمنا لكان لا خوف عليه ولا حزن؛ لأنه أخبر أن المؤمن لا خوف عليه ولا حزن؛ فدل: أنه يخرج من إيمانه إذا ارتكب كبيرة، فيقال لهم: لم ينف عنهم الخوف، والحزن في كل الوقت، فيحتمل: أن يكون عليه خوف في وقت، ولا يكون عليه خوف في وقت آخر؛ لأن لكل مؤمن خوف البعث وفزعه حتى الرسل، بقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ١٠٩]؛ لشدة فزعهم من هول ذلك اليوم، فإذا دخلوا الجنّة، ونزلوا منازلهم، ذهب ذلك الخوف والفزع عنهم.. فعلى ذلك المؤمن: يكون له خوف في وقت، ولا يكون عليه خوف في وقت آخر.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني صدقوا بمحمد ﷺ.

٢. ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾:

أ. قيل إن هذه الآية محكمة وذلك أنها نزلت في سلمان الفارسي رحمه الله وأصحابه الذين تنصر على دينهم وهم يبشرونه بمبعث رسول الله ﷺ وأنهم إن لحقوه آمنوا به.

ب. وقيل: إنها منسوخة بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]

٣. قال: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ على التوحيد ثم قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ على الجمع لأن لفظة (من) تحتمل الواحد والجمع فجاز لذلك، قال الشاعر:

ألما بسلمى عنكما إذ عرضتما ... وقولا لها عوجا على من يخلفوا

٤. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود واشتقاق الكلمة:

أ. قيل: هاد يهود هوداً وهيادة أنابوا ورجعوا قال زهير:

سوى مربع لم يأت فيه صحافه ... ولا رهقاً من عابد متهود

أي تابت فسميت يهود لتهودهم من عبادة العجل.

ب. وقيل: إنهم سموا بقولهم: إنا هدنا إليك.

٥. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ في تسميتهم بذلك ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنهم سموا بذلك لقرية تسمى ناصرة كان ينزلها عيسى فنسب إليها، وقيل: عيسى الناصري ثم نسب أصحابه إليها فقيل الناصري.

ب. الثاني سموا بذلك لنصرة بعضهم لبعض قال الشاعر:

لما رأيت نمطاً أنصارا ... شمرت عن ركبتي الإزارا

كنت لهم من النصار جارا

ج. الثالث: أنهم سموا بذلك لقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٥٩.

٦. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ جمع واحده صابي وقد يهمز ولا يهمز واشتقاقه على ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنه مأخوذ من الطلوع صبا ناب البعير إذا طلع.

ب. الثاني: الصابي الخارج من الشيء إلى الشيء كأنه خارج من اليهودية والنصرانية.

ج. الثالث: أنه مأخوذ من صبا إلى الشيء يصبو إليه إذا مال إليه، والصابئون قيل إنهم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب حال منتصف النهار يزعمون أنهم على دين نوح.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بمحمد ﷺ.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود، وفي تسميتهم بذلك ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: نسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب، فقلبت العرب الذال دالا، لأن الأعجمية إذا عرّبت،، غيرت من لفظها.

ب. الثاني: أنه مأخوذ من قولهم: هاد القوم يهودون هودة وهيادة، إذا تابوا، قال زهير:

سوى مربع لم تأت فيه مخافة ... ولا رهقا من عابد متهوّد

يعني من عابد تائب، فسموا يهودا لتوبتهم من عبادة العجل.

ج. الثالث: أنهم سمّوا يهودا، من أجل قولهم: إنّا هدنا إليك، وهذا قول ابن جريج.

٣. ﴿وَالنَّصَارَى﴾، جمع وواحده (نصرانيّ)، وقيل: نصران) بإسقاط الياء، وهذا قول سيبويه، وقال الخليل بن أحمد: واحده نصري، والأول هو المستعمل، وفي تسميتهم بذلك، ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنهم سمّوا بذلك، لقرية تسمّى (ناصرة)، كان ينزلها عيسى عليه السّلام، فنسب إليها، فقيل: عيسى الناصري، ثم نسب أصحابه إليه فقيل: النصارى، وهذا قول ابن عباس، وقتادة.

ب. الثاني: أنهم سمّوا بذلك، لنصرة بعضهم لبعض، قال الشاعر:

لمّا رأيت نبطا أنصارا ... شمّرت عن ركبتي الإزارا

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١٣٤.

كنت لهم من النّصارى جارا

ج. الثالث: أنهم سمّوا بذلك، لقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ .

٤. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾، جمع، واحده: صابئ، واختلف في همزه، فهمزه الجمهور إلا نافعا، واختلف في المأخوذ منه هذا الاسم، على ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنه مأخوذ من الطّلوع والظّهور، من قولهم: صبأ ناب البعير، إذا طلع، وهذا قول الخليل.

ب. الثاني: أن الصابئ: الخارج من شيء إلى شيء، فسمّي الصابئون بهذا الاسم، لخروجهم من اليهودية والنصرانية، وهذا قول ابن زيد.

ج. الثالث: أنه مأخوذ من قولهم: صبا يصبو، إذا مال إلى الشيء وأحبه، وهذا قول نافع؛ ولذلك لم يهمز.

٥. اختلف في الصابئة:

أ. قال مجاهد، والحسن، وابن أبي نجيح: الصابئون بين اليهود والمجوس.

ب. قال قتادة: الصابئون قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى القبلة، ويقرؤون الزبور ويصلون الخميس.

ج. قال السدي: هم طائفة من أهل الكتاب.

د. قال الخليل: هم قوم شبيه دينهم بدين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب حيال منتصف النهار، يزعمون أنهم على دين نوح.

٦. في قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنها نزلت في سلمان الفارسيّ وأصحابه النصارى الذين كان قد تنصّر على أيديهم، قبل مبعث رسول الله ﷺ، وكانوا قد أخبروه بأنه سيبعث، وأنهم مؤمنون به إن أدركوه، وهذا قول السدي.

ب. الثاني: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهو قول ابن عباس.

٧. قال ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ على التوحيد، ثم قال ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ على الجمع لأن اللفظ

(من) لفظ الواحد، ومعناه الجمع، فمرة يجمع على اللفظ، ومرة يجمع على المعنى، قال الشاعر:

ألّما بسلمى عنكما إن عرضتما   وقولا: لها عوجي على من

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى هادوا: تابوا، يقال: هاد القوم يهودون هودا، وهيادة وقال ابن جريج: إنما سميت اليهود يهودا، لقولهم: أنا هدنا اليك. قال أعرابي يؤخذ بقوله: على ما قال ابو عبيدة: فاني من مدحه هائد أي تائب، وقيل: انما سموا يهودا، لأنهم نسبوا الى يهوذا أكبر أولاد يعقوب فعرّبت الذال دالا، وقال زهير: في معنى الرجوع:

سوى مرجع لم يأت فيه مخافة   ولا رهقا من عابد متهود

٢. النصارى: جمع نصران كقولهم سكران وسكارى، ونشوان ونشاوى، هذا قول سيبويه: قال الشاعر:

تراه اذا كان العشي محنفا   يضحي لديه وهو نصران

وقد سمع في الأنثى نصرانة، قال الشاعر:

وكلتاهما خرت واسجد رأسها   كما سجدت نصرانة لم تحنف

وقد سمع في جمعهم أنصار بمعنى النصارى قال الشاعر:

لما رأيت نبطاً أنصارا   شمرت عن ركبتي الازارا

كنت لهم من النصارى جارا

والمشهور أن واحد النصارى نصري: مثل بعير مهري ومهارى، وإنما سموا نصارى:

أ. قيل: لنصرة بعضهم بعضا. دليله الآيات التي ذكرناها.

ب. وقيل: انما سموا بذلك لأنهم نزلوا ارضاً يقال لها: ناصرة، وكان ينزلها عيسى فنسب اليها، فقيل عيسى الناصري، ثم نسب أصحابه اليه فقيل النصارى، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، وابن جريج.

---

(١) تفسير الطوسي: ١/٢٨٤.

ج. وقيل: إنهم سموا بذلك، لقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾

٣. الصابئون: جمع صابئ، وهو من انتقل من دينه الى دين آخر كالمرتد من اهل الإسلام، وكل خارج من دين كان عليه الى آخر يسمى صابئا قال ابو زيد: صبا فلان في دينه يصبأ صبوا إذ كان صابئا وصبأ تاب الصبي يصبوا صبوا: إذا كان طلع، وقال الزجاج: صبأت النجوم: إذا ظهرت، وقال ابو زيد: صبوت اليهم تصبأ صبأ وصبوءا: إذا طلعت عليهم.

٤. معنى الصابئ:

أ. قيل: التارك دينه الذي شرع له الى دين غيره: كما قال: ان الصابئ على القوم تارك لأرضه ومنتقل الى سواها.. فالدين الذي فارقوه هو تركهم التوحيد الى عبادة لنجوم، أو تغطيتها، وقال نافع هو مأخوذ من قولهم: صبا يصبوا إذا مال الى الشيء، وأحبه ولذلك لم يهمز قال الشاعر: صبوت اياديب وانت كبير

ب. قال ابو علي الفارسي: هذا ليس بجيد، لأنه قد يصبو الإنسان الى دين فلا يكون منه مدين به مع صبوه اليه فإذا كان هذا هكذا، وكان الصابئون منتقلين من دينهم الذي أخذ عليهم الى سواه، وجب ان يكون مأخوذاً من صبأت الذي هو الانتقال، ويكون الصابئون على قلب الهمزة، وقلب الهمزة على هذا الحد، لا يجيزه سيبويه إلا في الشعر ويجيزه غيره فهو على قول من أجاز ذلك، وممن أجاز ذلك ابو زيد، وحكي عنه انه قال لسيبويه: سمعت قربت وأخطيت قال فكيف تقول في المضارع قلت: اقرأ فقال حسبك أو نحو هذا. قال ابو علي يريد سيبويه ان قريت مع اقرأ لا ينبغي، لأن قريت اقرأ على الهمز وقريت على القلب، فلا يجوز ان تغير بعض الأمثلة دون بعض، فدل على ان القائل لذلك غير فصيح، فإنه غلط في لغته.

ج. وقال قتادة والبلخي: الصابئون قوم معرفون لهم مذهب ينفردون به، من عبادة النجوم، وهم مقروّن بالصانع وبالمعاد وببعض الأنبياء.

د. وقال مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: الصابئون بين اليهود والمجوس لا دين لهم.

هـ. وقال السدي: هم طائفة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور.

و. وقال الخليل: هم قوم دينهم شبيه بدين النصارى إلا ان قبلتهم نحو مهب الجنوب، خيال منصف النهار، ويزعمون انهم على دين نوح.

ز. وقال ابن زيد: الصابئون هم اهل دين من الأديان كانوا بالجزيرة: جزيرة الموصل، يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فمن اجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون: يشبهونهم بهم.

ح. وقال آخرون: هم طائفة من اهل الكتاب، والفقهاء بأجمعهم يجيزون أخذ الجزية منهم، وعندنا لا يجوز ذلك، لأنهم ليسوا اهل الكتاب.

٥. معنى الآية الكريمة: من صدق بالله وأقر بالبعث بعد المات يوم القيامة وعمل صالحاً وأطاع الله فلهم أجرهم عند ربهم: يعني ثواب عملهم الصالح.

٦. تمام قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ جملة قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأن معناه: من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه.. ومعنى الكلام: ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن منهم بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم.

٧. قال السدي: نزلت في سلمان الفارسي، وأصحابه النصارى الذين كان قد تنصر على أيديهم قبل مبعث رسول الله ﷺ، وكانوا قد أخبروه بأنه سيبعث، وانهم يؤمنون به إن أدركوه.

٨. اختلف في نسخها:

أ. روي عن ابن عباس: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وهذا بعيد، لأن النسخ لا يجوز أن يدخل في الخبر الذي يتضمن الوعيد، وإنما يجوز دخوله فيما طريقه الأحكام الشرعية التي يجوز تغييرها.

ب. وقال قوم: إن حكمها ثابت، والمراد بها: ان الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم من المنافقين هم واليهود، والنصارى، والصابئين إذا آمنوا بعد النفاق، واسلموا عند العناد، كان لهم أجرهم عند ربهم: كمن آمن في أول الإسلام من غير نفاق، ولا عناد، لأن قوماً من المسلمين قالوا: إن من أسلم بعد نفاقه، وعناده كان أجره اقل وثوابه انقص، وأخبر الله بهذه الآية أنهم سواء في الأجر والثواب.

٩. أولى الأقاويل ما قدمنا ذكره، وهو المحكي عن مجاهد والسدي: ان الذين آمنوا من هذه الأمة، والذين هادوا، والنصارى، والصابئين من آمن من اليهود، والنصارى، والصابئين بالله واليوم الآخر، فلهم

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأن هذا أشبه بعموم اللفظ، والتخصيص ليس عليه دليل.

١٠. استدلت المرجئة بهذه الآية على أن العمل الصالح، ليس من الايمان، لأن الله تعالى أخبرهم عنهم بأنهم آمنوا، ثم عطف على كونهم مؤمنين أنهم إذا عملوا الصالحات، ومن حمل ذلك على التأكيد أو الفضل، فقد ترك الظاهر، والجواب على ما ذكروه هو أن العمل لا يطلق الا على أفعال الجوارح، لأنهم لا يقولون: عملت بقلبي، وإنما يقولون: عملت بيدي أو برجلي.

١١. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: يعني لا خوف عليهم مما قدموا عليه من اهوال القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا عند معاينتهم ما أعد لهم من الثواب، والنعيم المقيم عنده وقيل: انه لا يحزنون من الموت.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما تقدم كفر أهل الكتاب، وما أعد لهم من عذابه بَيَّنَ صفة المؤمنين، وما أعد لهم من ثوابه، تنبيهًا على أن استحقاق الثواب بالإيمان والعمل فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني صدقوا الله ورسوله، واختلفوا من هم:

أ. قيل: قوم آمنوا بعيسى، وانتظروا خروج محمد.

ب. وقيل: هم طلاب الدين كَقُسٍّ وورقة وسلمان.

ج. وقيل: هم مؤمنو الأمم الماضية.

د. وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة.

هـ. وقيل: المراد المنافقون آمنوا ظاهرًا.

و. وقيل: هم من آمن بالكتب المتقدمة.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني اليهود، عن ابن عباس وجماعة من أهل العلم ﴿وَالنَّصَارَى﴾ من ادعى أنه على دين عيسى.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٤١٢/١.

٣. الهَوْدُ: التوبة، ومنه: ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا، وأصله الطمأنينة، فكأن التائب اطمأن إلى الإقلاع عن الذنب، وسمي اليهود يهودًا:

أ. قيل: لأنهم هادوا، أي: تابوا من عبادة العجل، وقالوا: إنا هدنا إليك، عن ابن جريج.

ب. وقيل: تَهَوَّدَ تَفَعَّلَ من هاد، وبينهما هوادة من ذلك، عن قطرب.

ج. وقيل: نسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب، والأعجمية إذا أعربت غيرت عن لفظها، فحولت الذال دالاً.

د. وقيل: لأنهم هادوا أي مالوا عن الإسلام وعن دين موسى، يقال: هاد: مال.

هـ. وقيل: لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السماوات والأرض تحركت حين آتى الله موسى التوراة.

٤. اختلف في سبب تسميتهم بالنصارى:

أ. قيل: سموا بذلك من (ناصرة)، قرية كان ينزلها عيسى ابن مريم، عن ابن جريج وقتادة.

ب. وقيل: من تناصرهم.

ج. وقيل: لقولهم: نحن أنصار الله، عن الزهري.

٥. اختلف في واحد النصارى:

أ. قيل: نَصْرَان ونَصَارَى كنشوان ونشاوى وسكران وسكارى، عن سيبويه.

ب. وقيل: واحدها نَصْرِيّ، عن الخليل، كقولهم: بعير مهري، وإبل مهارى، والمستعمل في واحد النصارى نصراني.

٦. اختلف في معنى الصابئ:

أ. قيل: الخارج من دين مشهور إلى دين غير مشهور، وأصله الخروج، ومنه حديث عمر لما قالوا: أَلاَ إنَّ ابن الخطاب قد صبا، فقال: ما صبأت، ولكن أسلمت.

ب. وقيل: والصابئون: قوم يعبدون النجوم، ويزعمون أنهم على دين شِيثٍ ونوح.. ومنهم من يقول بنبوة إدريس وإبراهيم، وقد اشتهر بهذا المذهب الحرانية.

ج. وقيل: طائفة من أهل الكتاب، ذبائحهم كذبائح أهل الكتاب، عن السدي وأبي العالية.

د. وقيل: لا دين لهم وليسوا من أهل الكتاب، عن ابن عباس.

هـ. وقيل: يقرون بِالله ويعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويُصَلُّون، أخذوا من كل دين شيئًا، عن قتادة ومقاتل.

و. وقيل: قوم بين اليهود والنصارى، عن الكلبي.

ز. وقيل: قوم بادوا، عن عبد العزيز بن يحيى.

٧. إنما اشتبه مذهب الصابئة لأنهم يدينون بالكتمان.

٨. ﴿مَنْ آمَنَ﴾:

أ. يحتمل أن يرجع إلى اليهود والنصارى والصابين.

ب. ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم.

٩. اختلفوا في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ مع قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾:

أ. قيل: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أي ثبت على إيمانه في مستقبل عمره، كما آمن في الماضي؛ لأن الثواب يحصل بمجموع الأمرين.

ب. وقيل: آمنوا بموسى وعيسى، ثم آمنوا بمحمد.

ج. وقيل: آمنوا بسائر الكتب، ثم آمنوا بالقرآن.

د. وقيل: آمن في الباطن كما آمن في الظاهر.

هـ. وقيل: فيه إضمار، أي من آمن معك إلى يوم القيامة.

١٠. ﴿بِاللَّهِ﴾ أي بتوحيده، وصفاته وعدله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني يوم القيامة والبعث، سمي آخرًا لتأخره عن الدنيا ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يعني عمل ما أمره الله به من الطاعات، واجتناب المعاصي؛ وإنما لم يذكر ترك المعاصي، لأن تركها من الأعمال الصالحة.

١١. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي جزاؤهم وثوابهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي معدة عنده ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما قدموا عليه من عذاب يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ولا يحزنون على ما خلفوا يوم القيامة.

١٢. سؤال وإشكال: إذا كان العمل الصالح يدخل تحت الإيمان فما الفائدة في ذكره؟ والجواب:

أ. قيل: لأنه ذكر إيمانا مقيدًا، فصح ضم العمل الصالح إليه، بل لا بد من ذلك؛ لأنه عند التقييد

يجري على طريقة اللغة.

ب. وقيل: ذكر ذلك تأكيدًا، وعطفه عليه لا يوجب خروجه منه، كقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وكقوله: ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾

١٣. لا يصح ما يروى عن ابن عباس أنه منسوخ بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ لأن هذا وعد من الله للمحسنين بالثواب، ولا يجوز نسخه، ولأنه لا تنافي بين الاثنين، ويبعد أن يصح ذلك عن ابن عباس، فيحمل على أنه غلط عليه غير صحيح عنه.

١٤. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن عذاب الكفر يزول بالإيمان والعمل الصالح، وفيه إجماع.

ب. أن استحقاق الثواب والجنة بالإيمان والعمل الصالح، خلاف ما تقوله المرجئة. ولا يقال: لِمَ لم تذكر التوبة؛ لأن ذلك داخل في الإيمان والعمل الصالح.

ج. أن المؤمن لا يناله خوف ولا حزن يوم القيامة خلاف ما يقوله قوم.

١٥. مسائل نحوية:

أ. رفع ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ونصب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لتكرير (لا) وهو قياس مطرد في الرفع، إذا كررت، قال الشاعر:

وَمَا صَرَمْتُكِ حَتَّى قُلْتِ مُعْلِنَةً ... لاَ نَاقَةَ لِي فِي هَذَا ولاَ جَمَلُ

كأنه جواب (أناقة لك في هذا أم جمل؟)، فأما الإفراد فهو جواب (هل من ريب فيه)؟، فجوابه: لا ريب، فيه بالنصب.

ب. خبر (إنَّ) الجملة، وهي ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ إلى آخر الآية، والعائد إلى اسمها محذوف، كأنه قال: من آمن منهم بِاللهِ.

ج. قال: ﴿عَمِلَ صَالِحًا﴾ على لفظ التوحيد، ثم قال: ﴿فَلَهُمْ﴾ لأن لفظة (مَنْ) لفظ الواحد، ومعناه معنى الجمع، فمرة يحمل على اللفظ، ومرة على المعنى.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اختلف في هؤلاء المؤمنين من هم:

أ. قيل: هم الذين آمنوا بعيسى، ثم لم يتهودوا ولم ينتصروا ولم يصباوا وانتظروا خروج محمد ﷺ.

ب. وقيل: هم طلاب الدين منهم حبيب النجار وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل والبراء الشني وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي وبحير الراهب ووفد النجاشي آمنوا بالنبي ﷺ قبل مبعثه فمنهم من أدركه وتابعه ومنهم من لم يدركه.

ج. وقيل: هم مؤمنو الأمم الماضية.

د. وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة، وقال السدي: هو سلمان الفارسي وأصحابه النصارى الذين كان قد تنصر على أيديهم قبل مبعث رسول الله وكانوا قد أخبروه بأنه سيبعث وأنهم يؤمنون به أن أدركوه.

٢. هادوا: أي صاروا يهودا، ودانوا باليهودية، وهاد يهود هودا أي تاب، واختلف في اشتقاق اسم اليهود:

أ. قيل: هو من الهود أي التوبة ومنه قوله ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ عن ابن جريج، وسموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل وقال زهير:

سوى مربع لم يأت فيه مخافة   ولا رهقا من عابد متهود

أي تائب.

ب. وقيل: إنما سموا يهودا لأنهم نسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب فعربت الذال دالا.

ج. وقيل: إنما سموا يهودا لأنهم هادوا أي مالوا عن الإسلام وعن دين موسى.

د. وقيل: سموا بذلك لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون أن السماوات والأرض تحركت حين آتى الله موسى عليه السلام التوراة.

٣. النصارى: جمع نصران كقولهم سكران وسكارى وندمان وندامى، هذا قول سيبويه قال الشاعر:

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٦١.

تراه إذا كان العشي محنفا   يضحى لديه وهو نصران

وهو الممتلئ نصرا كما أن الغضبان هو الممتلئ غضبا، واختلفوا في اشتقاق هذا الاسم:

أ. قال ابن عباس: هو من ناصرة قرية كان يسكنها عيسى عليه السلام فنسبوا إليها.

ب. وقيل: سموا بذلك لتناصرهم أي نصرة بعضهم بعضا.

ج. وقيل: إنما سموا بذلك لقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾

٤. الصابئون: جمع صابئ وهو:

أ. قيل: من انتقل إلى دين آخر وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره سمي في اللغة صابئا، قال أبو علي: قال أبو زيد: صبا الرجل في دينه يصبا صبوبا إذا كان صابئا وصبا ناب الصبي يصبا صبا إذا طلع وصبأت عليهم تصبأ صبا وصبوءا إذا طلعت عليهم وطرأت مثله فكان معنى الصابئ التارك دينه الذي شرع له إلى دين غيره، كما أن الصابئ على القوم تارك لأرضه، ومنتقل إلى سواها، والدين الذي فارقوه هو تركهم التوحيد إلى عبادة النجوم أو تعظيمها.

ب. قال قتادة: وهم قوم معروفون، ولهم مذهب يتفردون به ومن دينهم عبادة النجوم، وهم يقرون بالصانع وبالمعاد وببعض الأنبياء.

ج. قال مجاهد والحسن: الصابئون بين اليهود والمجوس لا دين لهم.

د. قال السدي: هم طائفة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور.

هـ. قال الخليل: هم قوم دينهم شبيه بدين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب حيال منتصف النهار يزعمون أنهم على دين نوح.

و. قال ابن زيد: هم أهل دين من الأديان كانوا بالجزيرة جزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ ولأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم.

ز. قال آخرون: هم طائفة من أهل الكتاب والفقهاء بأجمعهم يجيزون أخذ الجزية منهم، وعندنا لا يجوز ذلك لأنهم ليسوا بأهل كتاب.

٥. اختلفوا في قوله ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾:

أ. قيل: هو خبر عن الذين هادوا والنصارى والصابئين، والضمير يرجع إليهم لأن الذين آمنوا قد كانوا مؤمنين، فلا معنى أن يشرط فيهم استئناف الإيمان، فكأنه قال: أن الذين آمنوا ومن آمن من اليهود والنصارى والصابئين بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم)

ب. وقيل: من آمن منهم، الضمير راجع إلى الكل، ويكون رجوعه إلى الذين آمنوا بمعنى الثبات منهم إيمانهم والاستقامة وترك التبديل، وإلى الذين هادوا والنصارى والصابئين بمعنى استئناف الإيمان بالنبي ﷺ، وما جاء به.

ج. وقيل: أراد من آمن بمحمد ﷺ بعد الإيمان بالله وبالكتب المتقدمة، لأنه لا يتم أحدهما إلا بالآخر، ونظيره قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾

د. روي عن ابن عباس أنه قال أنها منسوخة بقوله ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ وهذا بعيد، لأن النسخ لا يجوز أن يدخل الخبر الذي هو متضمن للوعد، وإنما يجوز دخوله في الأحكام الشرعية، التي يجوز تغيرها وتبدلها بتغير المصلحة فالأولى أن يحمل على أنه لم يصح هذا القول عن ابن عباس.

هـ. هناك من ذهب إلى أن حكمها ثابت، والمراد بها أن الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم من المنافقين واليهود والنصارى والصابئين إذا آمنوا بعد النفاق، وأسلموا بعد العناد، كان لهم أجرهم عند ربهم كمن آمن في أول استدعائه إلى الإيمان من غير نفاق ولا عناد، لأن قوما من المسلمين قالوا أن من أسلم بعد نفاقه وعناده كان ثوابه أنقص وأجره أقل، فأخبر الله بهذه الآية أنهم سواء في الأجر والثواب.

٦. ﴿بِاللَّهِ﴾ أي بتوحيد الله وصفاته وعدله، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني يوم القيامة والبعث والنشور والجنة والنار ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي عمل ما أمره الله به من الطاعات وإنما لم يذكر ترك المعاصي لأن تركها من الأعمال الصالحة.

٧. في هذه الآية دلالة على أن الإيمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب لأنه تعالى قال ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، ثم عطف عليه بقوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، ومن حمل ذلك على التأكيد أو الفضل، فقد ترك الظاهر، وكل شيء يذكرونه مما عطف على الأول بعد دخوله فيه مثل قوله ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾، فإن جميع ذلك على سبيل المجاز والاتساع، ولو خلينا

والظاهر لقلنا أنه ليس بداخل في الأول.

٨. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي جزاؤهم وثوابهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي معد لهم عنده ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

أ. قيل: معناه لا خوف عليهم فيما قدموا ولا هم يحزنون على ما خلفوا.

ب. وقيل: لا خوف عليهم في العقبي ولا يحزنون على الدنيا.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيهم خمسة أقوال:

أ. أحدها: أنهم قوم كانوا مؤمنين بعيسى قبل أن يبعث محمد ﷺ، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنهم الذين آمنوا بموسى، وعملوا بشريعته إلى أن جاء عيسى، فآمنوا به وعملوا بشريعته إلى أن جاء محمد، وهذا قول السّدّيّ عن أشياخه.

ج. الثالث: أنهم المنافقون، قاله سفيان الثّوريّ.

د. الرابع: أنهم الذين كانوا يطلبون الإسلام، كقس بن ساعدة، وبحيرا، وورقة بن نوفل، وسلمان.

هـ. الخامس: أنهم المؤمنون من هذه الأمّة.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، قال الزّجّاج: أصل هادوا في اللغة: تابوا، وروي عن ابن مسعود أن اليهود سمّوا بذلك لقول موسى: ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، والنصارى لقول عيسى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾ .. وقيل: سمّوا النصارى لقرية نزلها المسيح، اسمها: ناصرة.. وقيل: لتناصرهم.

٣. في الصابئين سبعة أقوال:

أ. أحدها: أنه صنف من النصارى ألين قولا منهم، وهم السّائحون المحلّقة أوساط رؤوسهم، روي عن ابن عباس.

ب. الثاني: أنهم قوم بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين، قاله مجاهد.

ج. الثالث: أنهم قوم بين اليهود والنصارى، قاله سعيد بن جبير.

---

(١) زاد المسير: ١/٧٣.

د. الرابع: قوم كالمجوس، قاله الحسن والحكم.

هـ. الخامس: فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزّبور، قاله أبو العالية.

و. السادس: قوم يصلّون إلى القبلة، ويعبدون الملائكة، ويقرؤون الزّبور، قاله قتادة.

ز. السابع: قوم يقولون: لا إله إلّا الله، فقط، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبيّ، قاله ابن زيد.

٤. في إعادة ذكر الإيمان في قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه لما ذكر مع المؤمنين طوائف من الكفار رجع قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ إليهم.

ب. الثاني: أن المعنى من أقام على إيمانه.

ج. الثالث: أن الإيمان الأول نطق المنافقين بالإسلام، والثاني: اعتقاد القلوب.

٥. اختلف هل هذه الآية محكمة أم منسوخة:

أ. قيل: أنها محكمة، قاله مجاهد والضّحّاك في آخرين، وقدروا فيها: إن الذين آمنوا، ومن آمن من الذين هادوا.

ب. وقيل: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، ذكره جماعة من المفسّرين.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. عادة الله إذا ذكر وعداً أو وعيداً عقبه بما يضاده ليكون الكلام تاماً، فههنا لما ذكر حكم الكفرة من أهل الكتاب وما حل بهم من العقوبة أخبر بما للمؤمنين من الأجر العظيم والثواب الكريم دالًا على أنه سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساؤوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]

٢. اختلفوا في اشتقاق ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ على وجوه:

أ. أحدها: إنما سموا به حين تابوا من عبادة العجل، وقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تبنا ورجعنا، وهو عن ابن عباس.

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٣٦.

ب. وثانيها: سموا به لأنهم نسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب، وإنما قالت العرب بالدال للتعريب، فإن العرب إذا نقلوا أسماء من العجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها.

ج. ثالثها: قال أبو عمرو بن العلاء: سموا بذلك لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة.

٣. اختلفوا في اشتقاق النصارى على وجوه:

أ. أحدها: أن القرية التي كان ينزلها عيسى عليه السلام تسمى ناصرة فنسبوا إليها، وهو قول ابن عباس وقتادة وابن جريج.

ب. ثانيها: لتناصرهم فيما بينهم أي لنصرة بعضهم بعضاً.

ج. ثالثها: لأن عيسى عليه السلام قال للحواريين من أنصاري إلى الله، قال صاحب الكشاف: النصارى جمع نصران يقال رجل نصران، وامرأة نصرانة والياء في نصراني للمبالغة كالتي في أحمري لأنهم نصروا المسيح.

٤. اختلف في تفسير ﴿الصَّابِئِينَ﴾ على أقوال:

أ. أحدها: قال مجاهد والحسن: هم طائفة من المجوس واليهود لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

ب. ثانيها: قال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى الشمس كل يوم خمس صلوات، وقال أيضاً: الأديان خمسة منها للشيطان أربعة وواحد للرحمن: الصابئون وهم يعبدون الملائكة، والمجوس وهم يعبدون النار، والذين أشركوا يعبدون الأوثان، واليهود والنصارى.

ج. ثالثها: وهو الأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب، ثم لهم قولان:

• الأول: أن خالق العالم هو الله سبحانه، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم.

• الثاني: أن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب، ثم إن الكواكب هي المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض، والخالقة لها فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ثم إنها تعبد الله سبحانه، وهذا المذهب هو القول المنسوب إلى الكلدانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام راداً عليهم ومبطلًا لقولهم.

٥. اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وسبب هذا الاختلاف قوله تعالى في آخر الآية: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فإن ذلك يقتضي أن يكون المراد من الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غير المراد منه في قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ونظيره في الإشكال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] فلأجل هذا الإشكال ذكروا وجوهاً:

أ. أحدها: وهو قول ابن عباس: المراد الذين آمنوا قبل مبعث محمد بعيسى عليهما السلام مع البراءة عن أباطيل اليهود والنصارى مثل قس بن ساعدة، وبحيرى الراهب وحبيب النجار وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري ووفد النجاشي، فكأنه تعالى قال: إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود والذين كانوا على الدين الباطل الذي للنصارى كل من آمن منهم بعد مبعث محمد ﷺ بالله واليوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند ربهم)

ب. ثانيها: أنه تعالى ذكر في أول هذه السورة طريقة المنافقين، ثم طريقة اليهود، فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم الذين يؤمنون باللسان دون القلب وهم المنافقون، فذكر المنافقين ثم اليهود والنصارى والصابئين، فكأنه تعالى قال هؤلاء المبطلون كل من أتى منهم بالإيمان الحقيقي صار من المؤمنين عند الله وهو قول سفيان الثوري.

ج. ثالثها: المراد من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم المؤمنون بمحمد ﷺ في الحقيقة وهو عائد إلى الماضي، ثم قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ يقتضي المستقبل، فالمراد الذين آمنوا في الماضي وثبتوا على ذلك واستمروا عليه في المستقبل، وهو قول المتكلمين.

٦. بين الله تعالى في هذه الفرق الأربعة أنهم إذا آمنوا بالله فلهم الثواب في الآخرة ليعرف أن جميع أرباب الضلال إذا رجعوا عن ضلالهم، وآمنوا بالدين الحق، فإن الله سبحانه وتعالى يقبل إيمانهم وطاعتهم ولا يردهم عن حضرته ألبتة.

٧. الإيمان بالله: يدخل فيه الإيمان بما أوجبه، أعني الإيمان برسله ويدخل في الإيمان باليوم الآخر: جميع أحكام الآخرة، فهذان القولان قد جمعا كل ما يتصل بالأديان في حال التكليف وفي حال الآخرة من ثواب وعقاب.

٨. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ليس المراد العندية المكانية، فإن ذلك محال في حق الله تعالى ولا الحفظ كالودائع

بل المراد أن أجرهم متيقن جار مجرى الحاصل عند ربهم.

٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

أ. قيل: أراد زوال الخوف والحزن عنهم في الدنيا.

ب. وقيل: في الآخرة في حال الثواب، وهذا أصح لأن قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عام في النفي، وكذلك: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذه الصفة لا تحصل في الدنيا وخصوصاً في المكلفين لأنهم في كل وقت لا ينفكون من خوف وحزن، إما في أسباب الدنيا وإما في أمور الآخرة، فكأنه سبحانه وعدهم في الآخرة بالأجر، ثم بين أن من صفة ذلك الأجر أن يكون خالياً عن الخوف والحزن، وذلك يوجب أن يكون نعيمهم دائماً لأنهم لو جوزوا كونه منقطعاً لاعتراهم الحزن العظيم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا بمحمد ﷺ، وقال سفيان: المراد المنافقون. كأنه قال الذين آمنوا في ظاهر أمرهم، فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ معناه صاروا يهودا:

أ. قيل: نسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام، فقلبت العرب الذال دالا، لان الاعجمية إذا عربت غيرت عن لفظها.

ب. وقيل: سموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل، هاد: تاب، والهائد: التائب، قال الشاعر: إني امرؤ من حبه هائد.. أي تائب، وفي التنزيل: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تبنا، وهاد القوم يهودون هودا وهيادة إذا تابوا، وقال ابن عرفة: ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي سكنا إلى أمرك، والهوادة السكون والموادعة. قال ومنه قول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾

٣. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع واحده نصراني، وقيل: نصران بإسقاط الياء، وهذا قول سيبويه، والأنثى نصرانة، كندمان وندمانة، وهو نكرة يعرف بالألف واللام، قال الشاعر:

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٤٣٦.

صدت كما صد عما لا يحل له ساقي نصارى قبيل الفصح

فوصفه بالنكرة. وقال الخليل: واحد النصارى نصري، كمهري ومهارى، وأنشد سيبويه شاهدا على قوله:

تراه إذا دار العشا متحنفا ويضحي لديه وهو نصران

وأنشد:

فكلتاهما خرت وأسجد رأسها كما أسجدت نصرانة لم تحنف

يقال: أسجد إذا مال، ولكن لا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياء النسب، لأنهم قالوا: رجل نصراني وامرأة نصرانية، ونصره: جعله نصرانيا، وفى الحديث: فأبواه يهودانه أو ينصرانه)، وقال ﷺ: لا يسمع بي أحد من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)، وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل وأحدها، وقياسه النصرانيون.

٤. اختلف في سبب تسميتهم بالنصارى:

أ. قيل: سموا بذلك لقرية تسمى (ناصرة) كان ينزلها عيسى عليه السلام فنسب إليها فقيل: عيسى الناصري، فلما نسب أصحابه إليه قيل النصارى، قاله ابن عباس وقتادة، وقال الجوهري: ونصران قرية بالشام ينسب إليها النصارى، ويقال ناصرة.

ب. وقيل: سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا، قال الشاعر:

لما رأيت نبطا أنصارا شمرت عن ركبتي الإزار

كنت لهم من النصارى جارا

ج. وقيل: سموا بذلك لقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]. الرباعة.

٥. قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ جمع صابئ.. وقيل: صاب، ولذلك اختلفوا في همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا، فمن همزه جعله من صبأت النجوم إذا طلعت، وصابت ثنية الغلام إذا خرجت، ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال.. فالصابئ في اللغة: من خرج ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ. فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب.

٦. لا خلاف في أن اليهود والنصارى أهل كتاب، واختلف في الصابئين:

أ. قال السدي: هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن راهويه، قال ابن المنذر وقال إسحاق: لا بأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب، وقال أبو حنيفة: لا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم.

ب. قال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام.

ج. قال مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية، لا تؤكل ذبائحهم.

د. قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم.

هـ. قال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرؤون الزبور ويصلون الخمس، رآهم زياد ابن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة.

٧. الذي تحصل من مذهبهم ـ فيما ذكره بعض علمائنا ـ أنهم موحدون معتقدون تأثير النجوم، وأنها فعالة، ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري القادر بالله بكفرهم حين سأله عنهم.

٨. اختلف هل هذه الآية محكمة أم منسوخة:

أ. روى عن ابن عباس أن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [الحج: ١٧] الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية.

ب. قال غيره: ليست بمنسوخة، وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي عليه السلام.

٩. ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أي صدق، و(من) في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ في موضع نصب بدل من ﴿الَّذِينَ﴾، والفاء في قوله ﴿فَلَهُمْ﴾ داخلة بسبب الإبهام الذي في ﴿مِنَ﴾، و ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ابتداء وخبر في موضع خبر إن، ويحسن أن يكون ﴿مِنَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، و ﴿أَمَّنْ﴾ في موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب، و ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر ﴿مِنَ﴾، والجملة كلها خبر ﴿إِنَّ﴾، والعائد على ﴿الَّذِينَ﴾ محذوف، تقديره من آمن منهم بالله، وفي الايمان بالله واليوم الآخر اندارج الايمان بالرسل والكتب والبعث.

١٠. سؤال وإشكال: جمع الضمير في قول تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ و ﴿أَمَّنْ﴾ لفظ مفرد ليس بجمع، وإنما كان يستقيم لو قال له أجره، والجواب: أن ﴿مِنَ﴾ يقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يرجع الضمير مفردا ومثنى ومجموعا، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] على المعنى، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ على اللفظ، وقال الشاعر:

ألمّا بسلمى عنكما إن عرضتما وقولا لها عوجي على من تخلفوا

وقال الفرزدق:

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فحمل على المعنى، ولو حمل على اللفظ لقال: يصطحب وتخلف، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ فحمل على اللفظ، ثم قال ﴿خَالِدِينَ﴾ فحمل على المعنى، ولو راعى اللفظ لقال: خالدا فيها، وإذا جرى ما بعد (من) على اللفظ فجائز أن يخالف به بعد على المعنى كما في هذه الآية، وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعد على اللفظ لان الإلباس يدخل في الكلام.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قبل بعثة سيِّدنا محمَّد ﷺ من لدن آدم أو بعدها بالأنبياء والوحي والكتب، كتُبَّع، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقسِّ بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وقيل: المنافقون بإضمار الشرك، وقيل: مؤمنو هذه الأمَّة، فمعنى ﴿مَنَ ـ امَنَ﴾ على هذا القول والأوَّل: من آمن من اليهود والنصارى والصابئين، وَأَمَّا على غيرهما فالمعنى: من تاب من نفاقه، ويهوديَّته، ونصرانيَّته، وصابئيَّته، وآمن بمحمَّد ﷺ.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هَادُواْ﴾ دخلوا في اليهوديَّة، واليهوديَّة مِن هاد، بمعنى: تاب من عبادة العجل، أو سكن، ومنه الهوادة؛ أو معرَّب (يهوذا) ـ بذال معجمة بعدها ألف ـ عُرِّب بإهمال الذال وإسقاط الألف، سُمُّوا باسم ولد يعقوب (يهوذا) وهو أكبر ولده، ولا يلزم أن يكون هذا الاسم قبل موسى، مع أنَّهم في زمانه وما بعده فقط، ولا أن يكونوا كلُّهم عبدوا العجل؛ لأنَّ التسمية تحدث ولو بعد زمان مَن سمُّوا به،

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٢٥.

ولأنَّ وجه التسمية في بعض الأفراد كاف.

٣. ﴿والنَّصَارَى﴾ جمع نَصرانٍ، كالندامى، والياء في (نصراني) للمبالغة، كقوله: (والدهر بالإنسان دوَّاريٌّ)، أي: دوَّار، ورجل أحمريٌّ، أي: أحمر، وقيل: للوحدة، كزنجيٍّ من زنج، ورومىٍّ من روم؛ وقيل: جمع نصري كمهريٍّ ومهارى حذفت إحدى ياءيه، وفتحت الراء، وقلبت الياء الباقية ألفًا، سمُّوا لأنَّهم نصروا المسيح، أو لأنَّهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران عند الجوهريِّ، أو نصرانة أو نصرانيا، أو نصرى أو ناصرة، كان عيسى ينزلها سمُّوا باسمها، أو باسم مؤسِّسها كما سمِّيت قسطنطينة المغرب والعظمى باسم من بناها.

٤. ﴿وَالصَّابِينَ﴾ طائفة من اليهود أو من النصارى، عبدوا الملائكة أو الكواكب، أو بين اليهود والمجوس؛ أو تعبد الكواكب في الباطن، وتنتسب إلى النصارى في الظاهر؛ أو لفَّقوا دينا من التوراة والإنجيل، وَلَمَّا جاء القرآن أخذوا منه بعضًا كالصلاة إلى الكعبة والوضوء؛ أقوال، ويدَّعون أنَّهم على دين صابئ بن شيت بن آدم؛ وقيل: منهم من يعبدون الكواكب الثوابت وهم صابئة هند، ومنهم من يعبدون السيَّارة وهم صابئة الروم، ومنهم من يفزع إلى الجمادات، ومنهم من يصلِّي إلى الجنوب، ومنهم من يعبد الملائكة، مِن صبا يصبو بلا همز، أو صبأ يصبأ بالهمزة قلبت ياء وحذفت، كما حذفت في الأوَّل الياء التي هي عن واو.

٥. ﴿مَنَ ـ امَنَ﴾ من اليهود والنصارى والصابئين، وترَك الإشراك بالله، ﴿بِالله﴾ ورسله وأنبيائه وكتبه، ولم ينكر نبيئًا أو كتابًا، ﴿وَالْيَوْمِ الَاخِرِ﴾ يوم البعث والجزاء، ولم يذكر المجوس لأنَّه ليس منهم من لو تبع كتابًا لنجا، إذ كتابهم أضاعوه سرعة، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ولم يفرِّق بين أحد من رسله قبل بعثة نبيئنا ﷺ، أو بعدها فآمن به واتَّبع القرآن.

٦. ومن لم يؤمن به وبالقرآن لم ينتفع بعمله فهو مشرك في النار، وهو غير متَّبع للتوراة والإنجيل بل كافر بهما أيضًا؛ لأنَّ فيهما الأمر باتِّباعه ﷺ؛ وكذا من كفر من اليهود والنصارى قبل سيِّدنا محمَّد ﷺ لا يدخلون في الآية، كمن قال: عيسى إله، ومريم إله، أو عيسى ابن الله.

٧. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أجرة عملهم للطاعات وتركهم للمعاصي والمكروهات، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حفظه الله لهم لا يَضيع، كما يحفظ الشيء بحضرة الملك في خزانته.

٨. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب لانتفائه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على تضييع العمر، وفوت الأجر والفضل، لعدم تضييعهم وعدم الفوت، والمراد: نفي الخوف والحزن في الآخرة قبل الجنَّة، وَأَمَّا في الدنيا فَيَقَعانِ للجهل بالخاتمة، ويكونان أيضًا في الآخرة لعظم الهول حتَّى ينسوا؛ أو المراد الخوف والحزن الدائمان، فإنَّ الشقيَّ في الآخرة لا يزول خوفه وحزنه حتَّى يدخل النار، بل يخاف فيها أيضًا؛ لأنَّه يخاف في كلِّ عقاب عقابًا بعده، ويحزن لذلك.

٩. ويدخل في الآية أهل الفترة الذين آمنوا وأدركوا البعثة كأبي ذرٍّ وسلمان ، أو لم يدركها كقسِّ بن ساعدة، قيل: وورقة بن نوفل وبحيرى الراهب، روي أنَّ سلمان قال لرسول الله ﷺ: ما تقول في أهل دين كنتُ معهم؟ ـ وذكر صلاتهم وعبادتهم ـ فقال: (هم في النار)، فأظلمت عليَّ الأرض، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، فكأنَّما كشف عنِّي جبل.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي تهودوا، يقال: هاد يهود، وتهوّد، إذا دخل في اليهودية. هو هائد، والجمع هود، وهم أمة موسى عليه السلام، وإنما لزمهم هذا الاسم، لأن الإسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة، ومن سبي بابل إلى وطنهم القديم، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب (بالذال المعجمة ـ فقلبتها العرب دالا مهملة).

٢. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع نصران، كندامى جمع ندمان، يقال: رجل نصران، وامرأة نصرانة، والياء في نصرانيّ للمبالغة، كما في أحمريّ، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ـ كذا في الكشاف ـ أو هو جمع نصرانيّ، مغيّر عن ناصريّ، نسبة إلى ناصرة ـ القرية المعروفة ـ وقد نسب إليها المسيح عليه السلام، لأنه ربّي بها، وجاء في الإنجيل (يسوع الناصريّ)

٣. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ جمع صابئ، ويقال لهم الصابئة. قال ابن جرير: الصابئ هو المستحدث، سوى دينه، دينا، كالمرتدّ من أهل الإسلام عن دينه، وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب (صابئا) يقال منه: صبا فلان يصبو صباء، ويقال: صبأت النجوم إذا طلعت.

---

(١) تفسير القاسمي: ١/٣١٧.

٤. اختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم، من أهل الملل:

أ. قال بعضهم: يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين، وقالوا: الذي عنى الله بهذا الاسم قوما لا دين لهم. فعن مجاهد: الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى، ولا دين لهم.

ب. وعن ابن زيد: الصابئون دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبيّ، وعن قتادة: أنهم قوم يعبدون الملائكة.

ج. قال الشهرستانيّ، في الكلام عن الصابئة ما مثاله: والصبوة في مقابلة الحنيفية، وفي اللغة: صبا الرجل إذا مال وزاغ. فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم: الصابئة، وهم يقولون: الصبوة هو الانحلال عن قيد الرجال، وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين، والصابئة تدعي أن مذهبها هو الاكتساب، الحنفاء تدعي أن مذهبها هو الفطرة.. فدعوة الصابئة إلى الاكتساب، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة، فالصابئة قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية، ولا يقولون بالشريعة والإسلام.. فيقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد، والصابئة الأولى الذين قالوا بعاذيمون وهرمس، وهما شيت وإدريس، ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء، وهم أصحاب الروحانيات. فيعتقدون أن للعالم صانعا حكيما مقدّسا عن سمات الحدثان[١]..

٥. أي إن الذين آمنوا بما دعا إليه محمد ﷺ، وصاروا من جملة أتباعه، قال في فتح البيان: كأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل، يرجع إلى شيء واحد، وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا استحق ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كله، والأجر دقه وجله، والمراد بالإيمان هاهنا هو ما بينه رسول الله ﷺ من قوله، لما سأله جبريل عليه السّلام عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره)، ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية. فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن، فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلما مؤمنا، ولم يبق يهوديّا ولا نصرانيّا ولا مجوسيّا)

٦. الإيمان يستعمل على وجهين[٢]:

---

(١) هناك تفاصيل أخرى مرتبطة بهذا ذكرناها في الكتب المرتبطة بالتفسير الموضوعي من هذه السلسلة.

(٢) نقله عن الراغب، تفسير القاسمي: ١/٣١٨.

أ. أحدهما الإقرار بالشهادتين، الذي يؤمن نفس الإنسان، وماله عن الإباحة إلا بحق، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالإسلام.

ب. الثاني تحري اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه.

٧. ظاهر هذه الآية، مع تفسير ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بالمتحري للاعتقاد اليقينيّ، مما قد يستدل به العنبريّ لمذهبه، فقد نقل الأصوليون في باب الاجتهاد والتقليد أن العنبريّ ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب، حتى في الأصول، ووافقه الجاحظ، قال الغزاليّ في المستصفى: ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية، إن كان معاندا على خلاف اعتقاده، فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر، فهو أيضا معذور، وإنما الآثم المعذب، المعاند فقط، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى، إذ استد عليهم طريق المعرفة)

٨. ردّ الغزاليّ على هذا بأدلة سمعية ضرورية، وذلك مثل معرفتنا ضرورة أمره ﷺ اليهود والنصارى بالإيمان به، وذمهم على إصرارهم على عقائدهم، وذلك لا ينحصر في الكتاب والسنة.. ثم قال الغزاليّ: وأما قوله ـ أي الجاحظ ـ: كيف يكلفهم ما لا يطيقون؟ قلنا: نعلم ضرورة أنه كلفهم، أما أنهم يطيقون أو لا يطيقون، فلننظر فيه، بل نبه الله تعالى على أنه أقدرهم عليه بما رزقهم من العقل، ونصب من الأدلة، وبعث من الرسل المؤيدين بالمعجزات، الذين نبّهوا العقول، وحركوا دواعي النظر، حتى لم يبق على الله لأحد حجة بعد الرسل.

٩. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عنى به المتدين بدين محمد ﷺ، وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ عنى به المتحري للاعتقاد اليقينيّ، فهو غير الأول، ولما كانت مشاهير الأديان هذه الأربع، بيّن تعالى أن كل من تعاطى دينا من هذه الأديان في وقت شرعه، وقبل أن ينسخ، فتحرى في ذلك الاعتقاد اليقينيّ، وأتبع اعتقاده بالأعمال الصالحة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

١٠. قول ابن عباس: إن هذا منسوخ بقوله ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، يعني أن هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام، وأن الله عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبيّ عليه السلام.. فأمّا في وقته، فالأديان كلها منسوخة بدينه، فليس مراد ابن عباس، ومن وافقه،

أنه تعالى كان وعد من عمل صالحا من اليهود، ومن ذكر معهم، على عمله، في الآخرة الجنّة، ثم نسخه بآية ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ بل مراده ما ذكر الراغب، وهذا ما لا شبهة فيه، ولذا قال ابن جرير: ظاهر التنزيل يدل على أنه تعالى لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان، بعض خلقه دون بعض منهم، والخبر بقوله ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عن جميع ما ذكر في أول الآية.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى ﴿مَنْ آمَنَ﴾:

أ. قيل: من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ، مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملا بمقتضى شرعه، وذلك كأهل الكتابين أو كان من الصابئة الموحدين.

ب. وقيل: من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصا بما ذكر، لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام، وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه، فلا ملابسة له بالمقام، والصابئون ليس لهم دين يجوز رعايته في وقت من الأوقات.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: الذي وعدوه على تلك الأعمال المشروطة بالإيمان، وهو في الأصل جعل العامل على عمله، وفي قوله ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت، مأمون من الفوات، وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي حين يخاف الكفار العقاب ويحزنون على تفويت الثواب.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضرا ولا غائبا فألزم الذل باطنهم، وكسا بالمسكنة ظاهرهم، وبوأهم منازل غضبه، وجعل أرواحهم مساقط نقمه، فذلك الله الذي يقول ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات الله، وانصراف عن العبرة، واستعصاء على الموعظة وخروج عن حدود الشريعة واعتداء على أحكامها. اقترف ذلك سلفهم، وتبعهم عليه خلفهم، فحقت عليهم كلمة ربك، فلو قرّ الخطاب عندها، ولم يتلها من رحمته ما بعدها، لحقّ على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس، وأن لا يبقى عنده للأمل في عفو الله متنفس؛ بل كان ذلك القنوط لازما لكل عاص،

---

(١) تفسير المنار: ١/٣٣٤.

قابضا على نفس كل معتد، لا فرق بين اليهود وغيرهم، فان سبب ما نزل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع الله لهم، وسنن الله في خلقه لا تتغير وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل.

٢. لهذا جاء قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة، وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمنا لجميع من تمسك بهدى نبيّ سابق، وانتسب إلى شريعة سماوية ماضية، ليدل على أن الجزاء السابق ـ وإن حكى على أنه من خطأ اليهود خاصة، ـ لم يصبهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة وهى الفسوق عن أوامر الله وانتهاك حرماته، فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم، وعلى أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم على أنهم من شعب إسرائيل أو من ملة يهود بل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وأما أنساب الشعوب وما تدين به من دين وما تتخذه من ملة فكل ذلك لا أثر له في رضاء الله ولا غضبه، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيرى الدنيا والآخرة إنما هو صدق الإيمان بالله تعالى بأن يكون التصديق به سطوعا على النفس من مشرق البرهان، أو جيشانا في القلب من عين الوجدان؛ فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خاليا من شوب التشبيه والتمثيل، واليقين في نسبة الأفعال إليه خالصا من وساوس الوهم والتخييل ويكون المؤمن قد ارتقى بإيمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الإلهي فاذا رفع بصره إلى الجناب الأرفع أغضى هيبة وأطرق إلى أرض العبودية خشوعا، وإذا أطلق نظره فيما بين يديه، مما سلطه الله عليه، شعر في نفسه عزة بالله، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه. لا يعدو حدا ضرب له، ولا يقف دون غاية قدر له أن يصل إليها، فيكون عبد الله وحده، سيدا لكل شيء بعده.

٣. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مراد به المسلمون الذين اتبعوا محمدا ﷺ والذين سيتبعونه إلى يوم القيامة، وكانوا يسمون المؤمنين والذين آمنوا، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ يراد به هذه الفرق من الناس التي عرفت بهذه الأسماء أو الألقاب من الذين اتبعوا الأنبياء السابقين، وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا، وعلى بعضهم لفظ النصارى، وعلى بعضهم لفظ الصابئين ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هذا بدل مما قبله أي من آمن منهم بالله إيمانا صحيحا.. وآمن باليوم الآخر كذلك، وعمل عملا صالحا تصلح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه، وما العمل الصالح بمجهول في عرف هؤلاء الأقوام، وقد بينته كتبهم أتم بيان، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي إن

حكم الله العادل سواء وهو يعاملهم بسنة واحدة لا يحابى فيها فريقا ويظلم فريقا، وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسولهم ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم ولا هم يحزنون على شيء فاتهم.

٤. الآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ فظهر بذلك أنه لا إشكال في حمل من آمن بالله واليوم الآخر على قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولا إشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي ﷺ، لأن الكلام في معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحى بخصوصها؛ الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلا، فالله يقول إن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية وإنما يكون بايمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس، ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسب أماني المسلمين أو أماني أهل الكتاب، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن أنحى الله تعالى باللائمة على اليهود في الآيات السالفة، وبيّن ما حاق بهم من الذل والمسكنة، وما نالهم من غضب الله جزاء ما اجترحوه من السيئات من كفر بآيات الله، وقتل للنبيين، وعصيان لأوامر الدين، وترك لحدوده، ومخالفة لشرائعه، ذكر هنا حال المستمسكين بحبل الدين المتين من كل أمة وكل شعب ممن اهتدى بهدى نبيّ سابق، وانتسب إلى شريعة من الشرائع الماضية، وصدق في الإيمان بالله واليوم الآخر، وسطع على قلبه نور اليقين، وأرشد إلى أنهم الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة.

٢. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي إن المصدقين رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من الحق من عند الله.

٣. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي والذين دخلوا في اليهودية، يقال هاد القوم يهودون هودا وهادة: صاروا يهودا.

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٣٤.

٤. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ واحدهم نصران، وسموا بذلك من أجل أن مريم نزلت بعيسى في قرية يقال لها الناصرة.

٥. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء.

٦. ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي من تحلى منهم بالإيمان الخالص بالله والبعث والنشور وعمل صالح الأعمال.

٧. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم ولا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا وزينتها إذا عاينوا ما أعد الله لهم من نعيم مقيم عنده.

٨. إن المؤمن إذا ثبت على إيمانه ولم يبدله، واليهودي والنصراني والصابئي إذا آمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به وباليوم الآخر وعملوا صالحا ولم يغيروا حتى ماتوا على ذلك، فلهم ثواب عملهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا يعتريهم حزن، فمدار الفلاح هو الإيمان الصحيح الذي له سلطان على النفوس والعمل الصالح الذي به تتم سعادتها ويكتب لها به الفوز في الدنيا والآخرة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. الذين آمنوا يعني بهم المسلمين، والذين هادوا هم اليهود ـ إما بمعنى عادوا إلى الله، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا ـ والنصارى هم أتباع عيسى عليه السلام.

٢. الصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى، ملة إبراهيم، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم. فقال عنهم المشركون: إنهم صبئوا ـ أي مالوا عن دين آبائهم ـ كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا الصابئة، وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير.

٣. هنا يكذّب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية، التي تتخلل

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٧٥.

القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه. يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيمانا ينبثق منه العمل الصالح، وأن فضل الله ليس حجرا محجورا على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، في كل زمان وفي كل مكان، كل بحسب دينه الذي كان عليه، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه.

٤. الآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعا وعمل صالحا، فإن لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. فالعبرة بحقيقة العقيدة، لا بعصبية جنس أو قوم.. وذلك طبعا قبل البعثة المحمدية. أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. في تعداد هذه النعم التي تفضل الله بها على بنى إسرائيل ما يوحى بأن فضل الله مقصور على جماعة بعينها من خلقه، بل ربما أثار ذلك في بنى إسرائيل شعورا بالتعالي على الناس، كما سوّلت لهم بذلك أنفسهم، وانطبع به سلوكهم في الحياة!.. وتلك ضلالة وافتراء عظيم على الله، فالخلق جميعا خلق الله، والناس كلهم عباده، خلقهم جميعا من نفس واحدة، فكيف يكون بينهم تفاضل عنده، بغير ما يستوجب الفضل، ولا فضل إلا بالعمل الذي تختلف به موازين الناس، وتتباين به منازلهم عند الله؟

٢. الذين آمنوا، أي الذين سبقوا بالإيمان ليس لهم أن يستأثروا برحمة الله، وأن يحجبوها عن عباده الذين لم يؤمنوا بعد ـ بل رحمة الله واسعة، وسعت كل شيء، وباب القبول للدخول في رحابه مفتوح لكل قاصد!.

٣. أي إنسان ـ على أية ملّة، وعلى أي دين ـ هو مدعوّ إلى رحاب الله، فإن استجاب، وآمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحا، فله أجره عند الله، يوفّاه كاملا، كما يوفّاه المؤمنون جميعا، من كل أمة، ومن كل جنس!

٤. هؤلاء المؤمنون جميعا ـ سابقهم ولاحقهم ـ لا خوف عليهم مما ينتظرهم من جزاء في الآخرة، ولا حزن لما فاتهم من طاعات حين لم يسبقوا إلى الإيمان، فالإيمان يجبّ ما قبله!، وفى هذا ما فيه من رحمة

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١/٩٣.

واسعة من الله على عباده، واستنقاذ لمن قصّروا وفرطوا، ثم أرادوا أن يلحقوا أو يسبقوا.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. توسطت هاته الآية بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران وقلة الاكتراث، فجاءت معترضة بينها لمناسبة يدركها كل بليغ، وهي أن ما تقدم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى قد جرت عليهم ضرب الذلة والمسكنة، ورجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم، ولما كان الإنحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم إلى طلب الخلاص من غضب الله تعالى لم يترك الله تعالى عادته مع خلقه من الرحمة بهم وإرادته صلاح حالهم، فبين لهم في هاته الآية أن باب الله مفتوح لهم، وأن اللجأ إليه أمر هين عليهم، وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

٢. من بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذكر بقية من الأمم ليكون ذلك تأنيسا لوحشة اليهود من القوارع السابقة في الآيات الماضية وإنصافا للصالحين منهم، واعترافا بفضلهم، وتبشيرا لصالحي الأمم من اليهود وغيرهم الذين مضوا مثل الذين مثل كانوا قبل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم، ومثل الحواريين، والموجودين في زمن نزول الآية مثل عبد الله بن سلام وصهيب، فقد وفّت الآية حق الفريقين من الترغيب والبشارة، وراعت المناسبتين للآيات المتقدمة مناسبة اقتران الترغيب بالترهيب، ومناسبة ذكر الضد بعد الكلام على ضده.

٣. مجيء (إنّ) هنا لمجرد الاهتمام بالخبر وتحقيقه لدفع توهم أن ما سبق من المذمات شامل لجميع اليهود، فإن كثيرا من الناس يتوهم أن سلف الأمم التي ضلّت كانوا مثلهم في الضلال[٢]..

٤. ابتدئ بذكر المؤمنين للاهتمام بشأنهم ليكونوا في مقدمة ذكر الفاضلين فلا يذكر أهل الخير إلا ويذكرون معهم، ومن مراعاة هذا المقصد قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ ـ أي الذين هادوا ـ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، ولأنهم القدوة لغيرهم كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٥١٥.

(٢) قال في هذا المحل: ولقد عجب بعض الأصحاب لما ذكرت لهم أني حين حللت في روما تبركت بزيارة قبر القديس بطرس توهما منهم بكون قبره في كنيسة رومة فبيّنت لهم أنه أحد الحواريين أصحاب المسيح عيسى عليه السلام، التحرير والتنوير: ١/٥١٥.

آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧]، فالمراد من الذين آمنوا في هذه الآية هم المسلمون الذين صدقوا بالنبيء محمد ﷺ، وهذا لقب للأمة الإسلامية في عرف القرآن.

٥. ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ هم بنو إسرائيل، وإنما نذكر هنا وجه وصفهم بالذين هادوا، ومعنى (هادوا) كانوا يهودا أو دانوا بدين اليهود، وأصل اسم يهود منقول في العربية من العبرانية وهو في العبرانية بذال معجمة في آخره وهو علم أحد أسباط إسرائيل، وهذا الاسم أطلق على بني إسرائيل بعد موت سليمان عليه السلام سنة ٩٧٥ قبل المسيح فإن مملكة إسرائيل انقسمت بعد موته إلى مملكتين مملكة رحبعام بن سليمان ولم يتبعه إلا سبط يهوذا وسبط بنيامين وتلقب بمملكة يهوذا لأن معظم أتباعه من سبط يهوذا وجعل مقر مملكته هو مقر أبيه (أورشليم)، ومملكة ملكها يوربعام بن نباط غلام سليمان وكان شجاعا نجيبا فملّكته بقية الأسباط العشرة عليهم وجعل مقر مملكته السامرة وتلقب بملك إسرائيل إلا أنه وقومه أفسدوا الديانة الموسوية وعبدوا الأوثان فلأجل ذلك انفصلوا عن الجامعة الإسرائيلية ولم يدم ملكهم في السامرة إلا مائتين ونيفا وخمسين سنة ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين فاستأصلوا الإسرائيليين الذين بالسامرة وخربوها ونقلوا بني إسرائيل إلى بلاد آشور عبيدا لهم وأسكنوا بلاد السامرة فريقا من الآشوريين فمن يومئذ لم يبق لبني إسرائيل ملك إلا ملك يهوذا بأورشليم يتداوله أبناء سليمان عليه السلام فمنذ ذلك غلب على بني إسرائيل اسم يهود أي يهوذا ودام ملكهم هذا إلى حد سنة ١٢٠ قبل المسيح مسيحية في زمن الامبراطور أدريان الروماني الذي أجلى اليهود الجلاء الأخير فتفرقوا في الأقطار باسم اليهود هم ومن التحق بهم من فلول بقية الأسباط، ولعل هذا وجه اختيار لفظ ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ في الآية دون اليهود للإشارة إلى أنهم الذين انتسبوا إلى اليهود ولو لم يكونوا من سبط يهوذا، ثم صار اسم اليهود مطلقا على المتدينين بدين التوراة قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] الآية ويقال تهوّد إذا اتبع شريعة التوراة وفي الحديث: يولد الولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه)، ويقال هاد إذا دان باليهودية قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وأما ما في سورة الأعراف [١٥٦] من قول موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ فذلك بمعنى المتاب.

٦. النصارى: هو اسم جمع نصرى (فتح فسكون) أو ناصري نسبة إلى الناصرة وهي قرية نشأت

منها مريم أم المسيح عليهما السلام وقد خرجت مريم من الناصرة قاصدة بيت المقدس فولدت المسيح في بيت لحم ولذلك كان بنو إسرائيل يدعونه يشوع الناصري أو النّصرى فهذا وجه تسمية أتباعه بالنصارى.

٧. الصابئون: لعله جمع صابئ وصابئ لعله اسم فاعل صبأ مهموزا أي ظهر وطلع، يقال صبأ النجم أي طلع وليس هو من صبا يصبو إذا مال لأن قراءة الهمز تدل على أن ترك تخفيف الهمز في غيرها تخفيف لأن الأصل توافق القراءات في المعنى، وزعم بعض علماء الأفرنج أنهم سموا صابئة لأن دينهم أتى به قوم من سبأ، وأما على قراءة نافع فجعلوها جمع صاب مثل رام على أنه اسم فاعل من صبا يصبو إذا مال قالوا: لأن أهل هذا الدين مالوا عن كل دين إلى دين عبادة النجوم (ولو قيل لأنهم مالوا عن أديان كثيرة إذ اتخذوا منها دينهم كما ستعرفه لكان أحسن).. وقيل: إنما خفّف نافع همزة (الصابين) فجعلها ياء مثل قراءته ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١]، ومثل هذا التخفيف سماعي لأنه لا موجب لتخفيف الهمز المتحرك بعد حرف متحرك.

٨. الأظهر أن أصل كلمة الصابي أو الصابئة أو ما تفرع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق وفي (دائرة المعارف الإسلامية) أن اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو (ص ب ع) أي غطس عرفت به طائفة (المنديا) وهي طائفة يهودية نصرانية في العراق يقومون بالتعميد كالنصارى.

٩. يقال الصابئون بصيغة جمع صابئ والصابئة على أنه وصف لمقدر أي الأمة الصابئة وهم المتدينون بدين الصابئة ولا يعرف لهذا الدّين إلا اسم الصابئة على تقدير مضاف أي دين الصابئة إضافة إلى وصف أتباعه ويقال دين الصابئة، وهذا الدين دين قديم ظهر في بلاد الكلدان في العراق، وانتشر معظم أتباعه فيما بين الخابور ودجلة وفيما بين الخابور والفرات فكانوا في البطائح وكسكر في سواد واسط وفي حرّان من بلاد الجزيرة.

١٠. كان أهل هذا الدين نبطا في بلاد العراق فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعوهم من عبادة الأصنام فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم، وكذلك منع الروم أهل الشام والجزيرة من الصابئين فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر فبطلت عبادة الأوثان منهم من ذلك الوقت وتظاهروا بالنصرانية فلما ظهر الإسلام على بلادهم اعتبروا في جملة النصارى وقد كانت

صابئة بلاد كسكر والبطائح معتبرين صنفا من النصارى ينتمون إلى النبي يحيى بن زكرياء ومع ذلك لهم كتب يزعمون أن الله أنزلها على شيث بن آدم ويسمونه (أغاثاديمون)، والنصارى يسمونهم يوحنّاسية (نسبة إلى يوحنا وهو يحيى).

١١. جامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم مقدس عن سمات الحوادث غير أنهم قالوا: إن البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه وهي الأرواح المجردات الطاهرة المقدسة وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة في الكواكب وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية وتتصل بها بمقدار ما تقترب نفوس البشر من طبيعة الروحانيات فعبدوا الكواكب بقصد التجاه إلى روحانياتها ولأجل نزول تلك الروحانيات على النفوس البشرية يتعين تزكية النفس بتطهيرها من آثار القوى الشهوانية والغضبية بقدر الإمكان والإقبال على العبادة بالتضرع إلى الأرواح وبتطهير الجسم والصيام والصدقة والطيب وألزموا أنفسهم فضائل النفس الأربع الأصلية (وهي العفة والعدالة والحكمة والشجاعة) والأخذ بالفضائل الجزئية (المتشعبة عن الفضائل الأربع وهي الأعمال الصالحة) وتجنب الرذائل الجزئية (وهي أضداد الفضائل وهي الأعمال السيئة).

١٢. من العلماء من يقول إنهم يقولون بعدم الحاجة إلى بعثة الرسل وأنهم يعللون ذلك بأن مدعي الرسالة من البشر فلا يمكن لهم أن يكونوا واسطة بين الناس والخالق، ومن العلماء من ينقل عنهم أنهم يدعون أنهم على دين نوح، وهم يقولون إن المعلّمين الأولين لدين الصابئة هما أغاثاديمون وهرمس وهما شيث بن آدم وإدريس، وهم يأخذون من كلام الحكماء ما فيه عون على الكمال فلذلك يكثر في كلامهم المماثلة لأقوال حكماء اليونان وخاصة سولون وأفلاطون وأرسطوطاليس، ولا يبعد عندي أن يكون أولئك الحكماء اقتبسوا بعض الآراء من قدماء الصابئة في العراق فإن ثمة تشابها بينهم في عبادة الكواكب وجعلها آلهة وفي إثبات إله الآلهة[1]..

١٣. ووجه الاقتصار في الآية على ذكر هذه الأديان الثلاثة مع الإسلام دون غيرها من نحو المجوسية والدهريين والزنادقة أن هذا مقام دعوتهم للدخول في الإسلام والمتاب عن أديانهم التي أبطلت

---

(١) هناك تفاصيل أخرى مرتبطة بهذا ذكرناها في الكتب المرتبطة بالتفسير الموضوعي من هذه السلسلة.

لأنهم أرجى لقبول الإسلام من المجوس والدهريين لأنهم يثبتون الإله المتفرد بخلق العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك، فلذلك اقتصر عليهم تقريبا لهم من الدخول في الإسلام. ألا ترى أنه ذكر المجوس معهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧] لأن ذلك مقام تثبيت للنبي ﷺ والمسلمين.

١٤. ﴿مَنْ آمَنَ﴾ يجوز أن تكون (من) شرطا في موضع المبتدأ، ويكون فلهم أجرهم جواب الشرط، والشرط مع الجواب خبر ﴿إِنَّ﴾، فيكون المعنى إن الذين آمنوا من يؤمن بالله منهم فله أجره، وحذف الرابط بين الجملة وبين اسم (إن) لأن (من) الشرطية عامة فكان الرابط العموم الذي شمل المبتدأ أعني اسم (إن) ويكون معنى الكلام على الاستقبال لوقوع الفعل الماضي في حيز الشرط أي من يؤمن منهم بالله ويعمل صالحا فله أجره.

١٥. المقصود من الآية الكريمة ـ بهذا الاعتبار ـ فتح باب الإنابة لهم بعد أن قرّعوا بالقوارع السالفة، وذكر معهم من الأمم من لم يذكر عنهم كفر لمناسبة ما اقتضته العلة في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وتذكيرا لليهود بأنهم لا مزية لهم على غيرهم من الأمم حتى لا يتكلوا على الأوهام أنهم أحباء الله وأن ذنوبهم مغفورة، وفي ذلك أيضا إشارة إلى أن المؤمنين الخالصين من اليهود وغيرهم ممن سلف مثل النقباء الذين كانوا في المناجاة مع موسى ومثل يوشع بن نون كالب بن يفنة لهم هذا الحكم وهو أن لهم أجرا عند ربهم لأن إناطة الجزاء بالشرط المشتق مؤذن بالتعليل بل السابقون بفعل ذلك قبل التقييد بهذا الشرط أولى بالحكم فقد قضت الآية حق الفريقين.

١٦. يجوز أن تكون (من) موصولة بدلا من اسم (إن)، والفعل الماضي حينئذ باق على المضي لأنه ليس ثمة ما يخلصه للاستقبال ودخلت الفاء في ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ إما على أنها تدخل في الخبر، نحو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: ١٠] عند غير سيبويه، وإما على أن الموصول عومل معاملة الشرط للإيذان بالتعليل فأدخلت الفاء قرينة على ذلك.

١٧. المقصود من الآية الكريمة ـ بهذا الاعتبار ـ استثناء صالحي بني إسرائيل من الحكم، بضرب الذلة والمسكنة والغضب من الله ويكون ذكر بقية صالحي الأمم معهم على هذا إشارة إلى أن هذه سنة الله في معاملته خلقه ومجازاته كلا على فعله.

١٨. استشكل ذكر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في عداد هؤلاء، وإجراء قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ عليهم مع أنهم مؤمنون فذكرهم تحصيل للحاصل:

أ. قيل: أريد به خصوص المؤمنين بألسنتهم فقط وهم المنافقون.

ب. وقيل: أراد به الجميع وأراد بمن آمن من دام بالنسبة للمخلصين ومن أخلص بالنسبة للمنافقين، وهما جوابان في غاية البعد.

ج. وقيل: يرجع قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لخصوص الذين هادوا والنصارى والصابين دون المؤمنين بقرينة المقام لأنهم وصفوا بالذين آمنوا وهو حسن.

١٩. الصحيح أنه لا حاجة إلى شيء من ذلك، لأن الشرط والصلة تركبت من شيئين الإيمان والعمل الصالح.. والمخلصون وإن كان إيمانهم حاصلا فقد بقي عليهم العمل الصالح، فلما تركب الشرط أو الصلة من أمرين فقد علم كل أناس مشربهم وترجع كل صفة لمن يفتقر إليها كلا أو بعضا.

٢٠. معنى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ . الإيمان الكامل وهو الإيمان برسالة محمد ﷺ بقرينة المقام وقرينة قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ إذ شرط قبول الأعمال الإيمان الشرعي لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، وقد عد عدم الإيمان برسالة محمد ﷺ بمنزلة عدم الإيمان بالله لأن مكابرة المعجزات، القائمة مقام تصديق الله تعالى للرسول المتحدي بها يؤول إلى تكذيب الله تعالى في ذلك التصديق فذلك المكابر غير مؤمن بالله الإيمان الحق.

٢١. لا استقامة في دعوى نسخ الخبر إلا أن يقال إن الله أخبر به عن مؤمني أهل الكتاب والصابئين الذين آمنوا بما جاءت به رسل الله دون تحريف ولا تبديل ولا عصيان وماتوا على ذلك قبل بعثة محمد ﷺ، فيكون معنى الآية كمعنى قوله ﷺ فيما ذكر من يؤتى أجره مرتين: ورجل من أهل الكتاب آمن برسوله ثم آمن بي فله أجران)

٢٢. القائلون بأنها منسوخة، تأويلها عندهم أن الله أمهلهم في أول تلقي دعوة رسول الله ﷺ، إلى أن ينظروا فلما عاندوا نسخها بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لئلا يفضي قولهم إلى دعوى نسخ الخبر.

٢٣. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أطلق الأجر على الثواب مجازا لأنه في مقابلة العمل الصالح،

والمراد به نعيم الآخرة، وليس أجرا دنيويّا بقرينة المقام.

٢٤. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ عندية مجازية مستعملة في تحقيق الوعد كما تستعمل في تحقيق الإقرار في قولهم لك عندي كذا، ووجه دلالة (عند) في نحو هذا على التحقق أن عند دالة على المكان فإذا أطلقت في غير ما من شأنه أن يحل في مكان كانت مستعملة في لازم المكان، وهو وجود ما من شأنه أن يكون في مكان على أن إضافة عند لاسم الرب تعالى مما يزيد الأجر تحققا لأن المضاف إليه أكرم الكرماء فلا يفوت الأجر الكائن عنده.

٢٥. إنما جمع الضمير في قوله: ﴿أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مراعاة لما صدق (من)، وأفرد شرطها أوصلتها مراعاة للفظها، ومما حسّن ذلك هنا وجعله في الموقع الأعلى من البلاغة أن هذين الوجهين الجائزين عربية في معاد الموصولات وأسماء الشروط قد جمع بينهما على وجه أنبأ على قصد العموم في الموصول أو الشرط فلذلك أتى بالضمير الذي في صلته أو فعله مناسبا للفظه لقصد العموم ثم لما جيء بالضمير مع الخبر أو الجواب جمع

أبقيت للعبسي فضلا ونعمة	ومحمدة من باقيات المحامد
حباء شقيق فوق أحجار قبره	وما كان يحبي قبله قبر وافد
أتى أهله منه حباء ونعمة	ورب امرئ يسعى لآخر قاعد

ليكون عودا على بدء فيرتبط باسم (إنّ) الذي جيء بالموصول أو الشرط بدلا منه أو خبرا عنه حتى يعلم أن هذا الحكم العام مراد منه ذلك الخاص أوّلا، كأنه قيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كل ﴿من آمن بالله وعمل﴾ فلأولئك الذين آمنوا أجرهم فعلم أنهم مما شمله العموم على نحو ما يذكره المناطقة في طي بعض المقدمات للعلم به، فهو من العام الوارد على سبب خاص.

٢٦. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بالرفع لأن المنفي خوف مخصوص وهو خوف الآخرة، والتعبير في نفي الخوف بالخبر الاسمي وهو ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لإفادة نفي جنس الخوف نفيا قارا، لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات، والتعبير في نفي خوف بالخبر الفعلي وهو ﴿يَحْزَنُونَ﴾ لإفادة تخصيصهم بنفي الحزن في الآخرة أي بخلاف غير المؤمنين، ولما كان الخوف والحزن متلازمين كانت خصوصية كل منهما سارية في الآخر.

٢٧. قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ مقابل لقوله: ﴿وباؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [البقرة: ٦١] ولذلك قرن بعند الدالة على العناية والرضى، وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مقابل ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ [البقرة: ٦١] لأن الذلة ضد العزة فالذليل خائف لأنه يخشى العدوان والقتل والغزو، وأما العزيز فهو شجاع لأنه لا يخشى ضرا ويعلم أن ما قدره له فهو كائن قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مقابل قوله: ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ لأن المسكنة تقضي على صاحبها بالحزن وتمني حسن العيش قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] فالخوف المنفي هو الخوف الناشئ عن الذلة والحزن المنفي هو الناشئ عن المسكنة.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي(١):

١. اختص الله سبحانه وتعالى الآيات السابقة ببنى إسرائيل وكفرهم بالآيات المتتالية آية بعد آية، وبتكرار وتوالى ذلك الكفر ليبين سبحانه وتعالى انصرافهم عن الحق مع كثرة الآيات، وكفرهم بالنعم مع تواليها، وكأن القارئ للقرآن الكريم يحسب أن العبر تنزل لمن يكفر بها، والآيات المعجزة تتوالى على من ينكرها، ولذلك بيّن الله تعالى أن الغاية من هذه النعم هي الإيمان، وأنهم إن كفروا بها، فباب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم، وأن الله تعالى خلق الخلق ليتفكر الناس فيؤمنوا وليجدوا فيها البرهان فيؤمنوا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

٢. قضى الله تعالى أن الإيمان مقبول من كل الطوائف والملل، وقد جعل سبحانه وتعالى ذلك الحكم الخالد الأبدي معترضا في أخبار بنى إسرائيل ليفتح باب الإيمان لهم، ولغيرهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾

٣. هذا هو الإيمان، فمن آمن من أتباع محمد ﷺ ذلك الإيمان، وأردف إيمانه بالعمل الصالح الذي يكون طاعة لله تعالى وفيه صلاح الناس؛ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٤. كذلك من آمن من اليهود بالله والملائكة الأطهار والرسل الأمجاد، ومنهم محمد بن عبد الله رسوله الأمين، علم أن الله منزه عن مشابهة المخلوقين، وأنه ليس كمثله شيء وعمل صالحا ﴿وَلَا خَوْفٌ

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٢٥٤.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٥. كذلك النصارى إذا آمنوا بالله ورسله وأنه ليس بوالد ولا ولد ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . هذا هو الإيمان بالله حق الإيمان.

٦. كذلك الصابئون من توافر فيهم ذلك الإيمان الموحد بالله تعالى في الخلق والتكوين والعبادة وآمن بالغيب، وملائكته وكتبه ورسله عامة ورسوله محمد ﷺ خاصة، والصابئون هم الذين ظهروا في الإسلام وقبله هم أكتم الناس لعبادة الأوثان، ويعلمون صبيانهم كتمانها، وقد قال عنهم أبو بكر الرازي في كتابه أحكام القرآن: وأصل اعتقادهم تعظيم الكواكب السبعة أو عبادتها واتخاذها آلهة، وهم عبدة أوثان في الأصل إلا أنهم منذ ظهر الفرس على إقليم العراق، وأزالوا مملكة الصابئين لم يجسروا على عبادة الأوثان ظاهرا، لأنهم منعوهم من ذلك، وكذلك الروم وأهل الشام والجزيرة كانوا صابئين، فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على الدخول في النصرانية، فبطلت عبادة الأوثان من ذلك الوقت، ودخلوا في غمار النصارى في الظاهر، وبقى كثير منهم على تلك النحلة مستخفين بعبادة الأوثان، فلما ظهر الإسلام دخلوا في غمار النصارى، ولم يميز المسلمون بينهم وبين النصارى، إذ كانوا مستخفين بعبادة الأوثان، كاتمين لأصل اعتقادهم، وهم أكتم الناس لاعتقادهم، فالصابئة يعبدون الكواكب والأوثان، ويظهرون بالنصرانية، هذا ما يجب بيانه هنا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا تاريخ الجدل)

٧. بعض النصارى ـ ومال ميلهم من في دينه لين ـ قال إن القرآن الكريم يعترف بأن النصارى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ونقول: إنه اشترط للاعتراف للنصارى بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ـ الإيمان بالله تعالى، وأنه الواحد الأحد، وأنه ليس بوالد ولا ولد، وليس له كفوا أحد، فهل يؤمن النصارى في عصرنا ذلك الإيمان وهم يقولون إن الله ثالث ثلاثة، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة] ويقولون بألوهية المسيح كما قرروا ذلك في مجمع نيقية بإجماع القساوسة وإجماعهم إلى اليوم، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾

٨. الإيمان المقصود:

أ. هو الإيمان بالله باعتقاد وحدانيته في الخلق والتكوين بألا يعتقدوا أن أحدا شارك الله تعالى في إنشائه الخلق، وأنه وحده خالق كل من في الوجود وأنه لا تخرج حركة عن حركة في الوجود، وإنما ذلك

قيوميته وإرادته، وأنه ليس بوالد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد، وأنه جلت صفاته، فليس كمثله أحد، وهو السميع البصير.

ب. وأن يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب، وثواب وعقاب، وأن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله.

٩. هؤلاء إذا آمنوا ذلك الإيمان، وأخلصوا لله ذلك الإخلاص وقوّوا إيمانهم بالعمل الصالح الذي يكون فيه الطاعة لله ولرسله والاستجابة لكل ما أمر به ـ من كانوا كذلك فلا خوف عليهم من عقاب ينزل بهم، ولا يحزنون على ما فاتهم في ماضيهم من شر، لأن الإيمان يجبّ ما قبله كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال] فلا يأسون على ما فاتهم ويفرحون بما أتاهم.

١٠. نقبس قبسة من صورة الإيمان كما علم جبريل أمة محمد ﷺ: عن عمر قال كنا جلوسا عند النبيّ ﷺ فجاء رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد شعر الرأس، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبيّ ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع يديه على فخذيه، ثم قال: يا محمد، ما الإسلام؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. قال صدقت، فعجبنا منه يسأله ويصدقه، ثم قال يا محمد، ما الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، قال صدقت، فعجبنا منه يسأله ويصدقه، ثم قال يا محمد، ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك، قال فمتى الساعة؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال فما أمارتها؟ قال أن تلد الأمة ربّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشّاء يتطاولون في البنيان)، هذا هو الإيمان الذي يزيل الفوارق التي تكون بين الأمم والجماعات والأديان.

١١. الفاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هي في جواب الشرط أي أن الإيمان والعمل الصالح هو الشرط لأن ينالوا الجزاء من أمن الخوف، وألا ينالهم حزن على الماضي الأمر.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. في معنى هذه الآية أقوال أنهاها بعض المفسرين الى ثمانية، وأصحها قولان:

---

(١) التفسير الكاشف: ١/١١٨.

أ. الأول: ان الغرض من الآية أن يبين سبحانه انه لا يهتم بالأسماء إطلاقا، سواء أكانت من نوع مسلم، أو مؤمن، أو يهودي، أو صابئي، أو نصراني، لأن الألفاظ بما هي لا تضر ولا تنفع، ولا تضع ولا ترفع، وإنما المهم عند الله العقيدة الصحيحة، والعمل الصالح، فمفاد الآية ما جاء في الأخبار من ان الله لا ينظر الى الصور، وإنما ينظر الى الأعمال.. وليس من شك ان هذا المعنى صحيح في نفسه، ولكن اللفظ لا يعطيه صراحة.. وقد دأب البعض أن يتملق الى أهل الأديان الأخرى مستدلا بهذه الآية على انه لا فرق بين المسلمين وغيرهم عند الله، وهو يعلم علم اليقين بأنهم ينكرون نبوة محمد ﷺ، بل ويفترون عليه الأكاذيب، وينسبون اليه ما يهتز منه العرش.

ب. الثاني: ان أفرادا لم يدركوا محمدا ﷺ، ومع ذلك قد اهتدوا بصفاء فطرتهم الى الايمان بالله، وتركوا المحرمات، كالكذب وشرب الخمر والزنا، ومن هؤلاء قس بن ساعدة، وزيد بن عمرو، وورقة بن نوفل، وغيرهم، ويسمون الحنيفيين، وكأنّ سائلا يسأل عن حكم هؤلاء عند الله، فأجابت الآية بأن هؤلاء لا بأس عليهم، وكذلك اليهود والصابئة والنصارى الذين لم يدركوا محمدا ﷺ، كي يأخذوا عنه التفاصيل، انهم جميعا لا خوف عليهم، ما داموا على الإيمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح.. ونحن نميل الى هذا المعنى.

٢. الصابئون: قوم يقرون بالله وبالمعاد وببعض الأنبياء، ولكنهم يعتقدون بتأثير بعض النجوم في الخير والشر، والصحة والمرض، ومنهم طائفة تقيم في العراق الآن، والصابئة مأخوذ من صبأت النجوم، أي طلعت، وأول من عبد الكواكب قوم النمرود الذين أرسل اليهم ابراهيم الخليل عليه السلام.. فهم أقدم الأديان في التاريخ.

٣. سؤال وإشكال: المعنى الظاهر من هذه الآية أشبه بتحصيل الحاصل، لأن قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بعد قوله: ان الذين آمنوا، يجعل الكلام هكذا: ان الذين آمنوا من آمن منهم، وهذا تماما كقول القائل: ان المسلمين من أسلم منهم، والقائمين من قام منهم.. فما هو الجواب؟ والجواب: إن هذا التساؤل انما يتجه إذا أعربنا من من قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .. إذا أعربناها مبتدأ. أما إذا جعلناها بدلا من الأصناف الثلاثة فقط، أعني اليهود والصابئة والنصارى فيسقط التساؤل من أساسه، حيث يكون المعنى على هذا: ان الذين آمنوا بالله من غير اليهود والصابئة والنصارى لا خوف

عليهم، وكذلك من آمن من هذه الأصناف الثلاثة لا خوف عليهم، فحكم الجميع واحد.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. تكرار الإيمان ثانيا، وهو الاتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أن المراد بالذين آمنوا في صدر الآية هم المتصفون بالإيمان ظاهرا المتسمون بهذا الاسم، فيكون محصل المعنى: أن الأسماء والتسمي بها مثل المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين لا يوجب عند الله تعالى أجرا ولا أمنا من العذاب، كقولهم: لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، وإنما ملاك الأمر وسبب الكرامة والسعادة حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، ولذلك لم يقل من آمن منهم بإرجاع الضمير إلى الموصول اللازم في الصلة لئلا يكون تقريرا للفائدة في التسمي على ما يعطيه النظم كما لا يخفى.

٢. هذا مما تكررت فيه آيات القرآن أن السعادة والكرامة تدور مدار العبودية، فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسميه شيئا، ولا وصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه وينجيه إلا مع لزوم العبودية، الأنبياء ومن دونهم فيه سواء:

أ. فقد قال تعالى في أنبيائه بعد ما وصفهم بكل وصف جميل: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ب. وقال تعالى في أصحاب نبيه ومن آمن معه مع ما ذكر من عظم شأنهم وعلو قدرهم: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: الفتح ـ ٢٩، فأتى بكلمة منهم.

ج. وقال في غيرهم ممن أوتي آيات الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الناصة على أن الكرامة بالحقيقة دون الظاهر.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين آمنوا هم الذين آمنوا بالله

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/١٩٣.

(٢) التيسير في التفسير: ١/١٢٥.

ورسوله محمد ﷺ وما يجب الإيمان به، والإيمان تصديق وقبول وإذعان يدعو إلى الطاعة باللسان والجنان والأركان؛ لأنه يسبب الخوف من العقاب والرغبة في الثواب، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وغيرها.

٢. الذين هادوا هم اليهود، والنصارى هم المنتسبون إلى دين عيسى عليه السلام.. وأما الصابين، فعن المرتضى عليه السلام أنه قال: والصابين، فهم فرقة أخرى من النصارى يدعون بالصابين، وإنما اشتق اسم الصابين من الصبو، يقال: صبا فلان، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

صبوت إلى اللهو بعد المشيب ... وقد كنت للهو قدماً تروكا

وقول الله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] وعبارة (لسان العرب): الصّبوة: جَهْلَةُ الفُتُوّة واللهو من الغزَل، وقال: وصبا يصبو صَبْوَةً وصُبُوّاً: أي مال إلى الجهل والفتوّة)، فلعل تسمية (الصابين) بهذا الاسم كانت ذمّاً لهم بميلهم إلى الباطل على التشبيه بمن يصبو، وهذا التفسير على (قراءة نافع) بغير همز.. فأما على قراءة ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ بالهمز - فقد فسره بعض أهل اللغة: بالخروج من دين إلى دين، وقالوا: الصابئون: قوم يزعمون أنهم على دين نوح، قال في (لسان العرب) وفي (الصحاح): جنس من أهل الكتاب)، وهذا أقرب لتتفق القراءتان على معنى واحد، والأولى: أنهم فرقة أصل دينهم النصرانية، ولكنهم غيروا فيه حتى خرجوا عن النصرانية وصار لهم اسم خاص.

٣. ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من آمن أي من كل الملل المذكورة، ولا مانع من شمول الذين آمنوا؛ لأنهم مأمورون بالإيمان فيما بقي من أعمارهم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]

٤. بقية أهل الملل، المعنى في حقهم: دخلوا في الإسلام واتقوا الله؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح يستلزم ذلك كما قدمناه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

٥. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة؛ لأن توبتهم تمحو ذنوبهم السابقة، فالآية وعد وتبشير لأهل الملل كلهم إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً، ودعوة

لهم إلى الإيمان.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم المسلمون الذين اصطلح القرآن الكريم على إطلاق هذه الكلمة عليهم عند التعريف بهم والحديث عنهم وعمن يقابلهم من الفئات الأخرى.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود الذين انتسبوا إلى موسى عليه السّلام وإلى التوراة.

٣. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الذين انتسبوا إلى السيد المسيح عليه السّلام.

٤. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين هم فئة مميزة قد يلتقون باليهود أو النصارى وقد يختلفون عنهم، وقد أطلق اسم الصابئة على فرقتين متميزتين تماما:

أ. الأولى: المنديا، أو الصبوة، وهي فرقة يهودية نصرانية تمارس شعائر التعميد في العراق (نصارى يوحنا المعمدان)

ب. الثانية: فرقة صابئة حرّان، وهي فرقة وثنية بقيت أمدا طويلا في ظل الإسلام، ولها أهميتها بحكم مبادئها، ولها أيضا شأنها لما خرج من بين صفوفها من علماء.

٥. من الواضح أن الصابئة الذين ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدّون من المنديا، ولا شك في أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبري (ص ب أ) أي غطس ثم أسقطت الغين، وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين، أولئك الذين يمارسون شعائر التعميد أو الغطاس، وربما كان الصابئون الوثنيون الذين لم يعرفوا هذه الشعائر على الإطلاق، قد اصطنعوا هذا الاسم من قبيل الحيطة مبتغين أن ينعموا بالسماحة التي أظهرها القرآن لليهود والنصارى.

٦. ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من موقع الالتزام العقيدي بالإيمان بالله وباليوم الآخر بكل مستلزماته الفكرية والعقيدية، من حيث المبدأ والتفاصيل الرئيسة المنطلقة منه، ومن قاعدة العمل الصالح الذي يتحول فيه الالتزام الفكري إلى التزام بالخط العملي المنفتح على أوامر الله ونواهيه.

٧. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في لقائهم بالله وموقفهم في الدار

---

(١) من وحي القرآن: ٢/٧٤.

الآخرة، فهم الآمنون من كل خوف من تهاويل العذاب، وهم المسرورون بما أعدّه الله لهم من رضوانه ونعيمه، فابتعدوا بذلك عن أيّة حالة نفسية مضادة تجلب لهم الحزن الروحي. فليست المسألة مسألة أسماء وعناوين تمثّل الانتماءات الدينية، بل هي مسألة العمق العقيدي الذي يعيشه الإنسان في وجدانه الفكري وانفتاحه الروحي، والاستقامة العملية على خط التوحيد في كل التزاماته في الواقع العملي للإنسان.

٨. المعنى في هذه الآية واضح، فهي تؤكد أن النجاح في الآخرة تناله كل هذه الفئات الدينية المختلفة في تفكيرها وتصورها الديني للعقيدة والحياة، بشرط واحد وهو التقاؤها على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح.

٩. سؤال وإشكال: هل هذا المذكور في الآية يعني التنازل عن الإسلام، وهو الرسالة التي جاء بها النبي محمد ﷺ، بالمعنى المصطلح، كشرط للنجاة في الآخرة وللحصول على رضى الله، لأنها تؤكّد بقاء الصفة المميزة لكل فريق كمنطلق للعمل ما دام الشرط حاصلا؟.. وهل الآية منسوخة؟ والجواب:

أ. حاول بعض المفسرين الإجابة عن ذلك باعتبار أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران: ٨٥]، لكنا نتحفّظ على هذا الجواب، لأن مدلول هذه الآية لا يتنافى مع مدلول تلك حتى نفرض نسخ الثانية للأولى، لأن الظاهر إرادة الإسلام بمعناه العام الشامل للرسالات السماوية في الآية الثانية، لا الإسلام بمعناه المصطلح كما يلوح ذلك من صدرها ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، بقرينة الآيات المتعددة التي اعتبرت الإسلام دين إبراهيم، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١ ـ ١٣٢]، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

ب. الآية واردة في مجال تأكيد العناصر الأساسية التي تلتقي عليها الأديان واعتبارها أساسا للحصول على ثواب الله ورضاه في النطاق الفكري والعملي للدين، بحيث ترجع كل مفرداته إليها، وذلك كردّ على الأجواء الاستعراضية التي يحاول كل فريق أن يعتبر نفسه في خط النجاة في الآخرة بعيدا عن الالتزام الفكري والعملي بالعقيدة، حتى كأنّ القضية قضية أسماء وواجهات، لا قضية عقيدة وعمل، فهي في جوّها الداخلي، واردة مورد الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ

بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] إنما هي واردة لمعالجة جانب واحد من القضية، وليست لمعالجة كل الجوانب ليؤخذ بإطلاقها اللفظيّ، وعلى هذا الأساس، لا مانع من أن تكون الآيات الكثيرة المتنوعة في القرآن مكمّلة لمدلول هذه الآية، باعتبار أن الإيمان بالرسول هو من شؤون الإيمان بالله بعد وضوح البيّنات والدلائل الظاهرة، لأن الكفر به يكشف عن فقدان الأسس القوية للإيمان؛ وهذا هو الوجه الذي يمكن أن تنسجم فيه الآية مع الآيات الأخرى التي تندد بالفئات الأخرى وتعتبرهم منحرفين في جانب العقيدة والعمل، كما نلاحظه في الآيات التي تتحدث عن اليهود والنصارى وعن انحرافهم عن الخط المستقيم في الفكر والعمل.

ج. ربما يخطر في البال أن الإيمان بالرسول يختلف عن الإيمان بالله في مدلوله الإيماني وفي طبيعة موقعه من العقيدة، فإن الإيمان بالله غاية في نفسه باعتبار أن معرفته وعبادته من أسس العقيدة في ذاتها، أمّا الإيمان بالرسول، فقد لوحظ من حيث هو طريق للارتباط بالرسالة والعمل الصالح، ولذلك لم يؤكده القرآن في كل دعوات الإيمان إلا في هذا النطاق، وعلى ضوء ذلك، فقد يكون إغفاله في مجال الحديث عن الأساس في نجاة الإنسان في الآخرة، من جهة الاكتفاء عنه بكلمة الإيمان بالله والعمل الصالح، الذي هو كناية عن السير في خط الله بالعبودية له والخضوع لشرائعه وأحكامه الثابتة برسالات الأنبياء.

د. قد تتضح الفكرة بشكل أعمق إذا لاحظنا أن الإسلام لم يعتبر وجود اختلاف بين الرسالات إلا من خلال بعض الجوانب التفصيلية، ممّا يجعل القضايا الأساسية واحدة في الجميع، ويكون الانسجام مع واحدة منها انسجاما مع الكل، كما يكون الانحراف عن الخط في إحداهما انحرافا عن الخط في الباقي، وبذلك تعتبر النبوّات منطلقة من قاعدة واحدة كما يوحي به قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهَّ الْإِسْلَامُ﴾ وهذا ما يجعل كل صفة طارئة تسقط وتتضاءل أمام القاعدة الصلبة التي تتحرك من خلالها الرسالات.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي (ت ١٤٥٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. إطلاق لقب الذين آمنوا على هذه الأمة من باب العلمية الغالية، وذلك لجمعها في الإيمان بين الرسالات جميع المرسلين: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه المؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

---

(١) تفسير الخليلي: ٣/٣٣٩.

لا نفرق بين أحد من رسله﴾، وإلا فهو وصف يصدق عليها وعلى كل الذين آمنوا بما أنزل الله من قبل من الأمم السابقة، وإنما مثل ذلك وصف الإسلام الذي يصدق على كل من أسلم لله تعالى، وهو بهذا الاعتبار يصدق على جميع أتباع المرسلين، ولذلك وصف الله به النبيين الذين يحكمون بالتوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾، وحكى عن الحواريين قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِّ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وحكى مثله عن أهل الكتاب المتمسكين به وذلك قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾، وقال في قرية لوط: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، ومع ذلك فلفظ المسلمين مع إطلاقه يسبق إلى الذهن أنه ما أريد به إلا أمة محمد ﷺ لأن الإسلام جاءها على أكمل وجهه، وأنتم نوره، وأوسع أحكامه.

٢. تصدير الذين آمنوا في الذكر لهذه الحكمة؛ وبهذا ينجلي ما تصوره أكثر المفسرين من الإشكال في المراد بالذين آمنوا حتى اختلفوا في المراد بهم على أقوال:

أ. منها أنهم المنافقون لأنهم آمنوا بألسنتهم وإن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وهو مروي عن سفيان الثوري، واقتصر عليه صاحب الكشاف وأبو السعود وعضده بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة، وذكر أن التعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عُبِّر عنها بالإيمان لا تجديهم نفعا أصلا، ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعا.. وهو قول مرفوض إذ لم يُعهد وصف المنافقين في القرآن بالإيمان بل نفى الله عنهم الإيمان بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَاللهُّ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

ب. ومنها أنهم الحنيفيون ـ وهم الذين فارقوا قومهم لما رأوهم عليه من الضلال وآمنوا بالحنيفية الحقة كزيد بن عمرو، وورقة بن نوفل، وقيس بن ساعده، وبه صدر القطب في التيسير وحكى غيره بصيغة قيل، وفي ذلك دليل على أنه مختارة.. وهو مورود بأن الحنيفيين منهم من مات قبل بعثته ﷺ، وهو على الإيمان الذي هداه الله إليه، ومنهم من أدرك بداية نبوته ﷺ فآمن من قبل أن يرسل، وهو ورقة بن نوفل، ولم يبق منهم أحد، ولم يبق داع إلى مسلكهم في الإيمان، بعدما أنزل الله القرآن بالبينات والهدى، واتضحت للناس الحجة وانفتحت لهم أبواب الرشد مع أن ذكر الذين آمنوا في صدر الآية للتنويه بشأنهم والدعوة إلى منهجهم.

ج. ومنها أنهم هم الذين نطقوا بالشهادتين لأن ذلك يسمى إيمانا في الظاهر مع غض النظر عن

إقرار مضمونها في القلب وتصديها بالعمل، واقتصر عليه القطب في الهيميان، وهو كسابقه لأن الإيمان اللساني وحده لا اعتداد به عند الله حتى يطلق على أصحابه وصف الذين آمنوا.

٣. الذين هادوا هم أمة موسى عليه السلام، وتسميتهم بذلك:

أ. مأخوذة من قوله سلام الله عليه: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، واعتذارا إلى الله من عبادة قومه للعجل، وعليه فإن هاد بمعنى تاب، ووصفوا بذلك لتوبتهم من عبادتهم العجل.

ب. وقيل: من هاد بمعنى مال لأنهم كانوا يتهادون أي يتمايلون عند تلاوتهم التوراة وهو ضعيف.

ج. وقيل: سُمَّوا بذلك لدينونتهم باليهودية، ويهود تعريب ليهوذا، وهم اسم لأكبر ولد يعقوب عليه السلام فيما قيل، وسمي به السبط الذي ينحدر من سلالته.

٤. ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٥. وعد من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هؤلاء بالأجر عند ربهم وعدم الخوف والحزن، وفي المراد بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ قولان:

أ. قيل: أُريد به من التزم بالعقيدة الصحيحة التي بعث بها النبي المُرسلُ إلى أمته والتزم بما تقتضيه من العمل، وعليه فإن هؤلاء هم الذين درجوا على نهج الرسل السابقين قبل نسخ شرائعهم.

ب. وقيل: أُريد به من آمن بالنبي الخاتم ﷺ عندما بُعث بالملة الخاتمة والشريعة الجامعة، مصدقاً لما أنزل قبله على النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وعليه فالآية نزلت داعية إلى الإيمان به ﷺ وترك التشبت بشيء من الملل والشرائع السابقة بعدما نسخت بما جاء به ﷺ.

٢. إنما خُصَّ اليهود والنصارى والصابئين بالذكر من بين سائر أصحاب الملل والديانات لأنهم أجدر بالسبق إلى الإيمان لمعرفتهم بالنبوات وما بقي عندهم من علم الكتاب الذي ينطوي على بشائر جَليّية ببزوغ شمس الرسالة المحمدية الطاوية لظلام الجهل والشك، وذِكرُ الين آمنوا قبلهم للحكمة التي أومأت إليها من قبل، وهذا القول الأخير أرجح في نفسي مما قبله.

٦. الإيمان بالله يَصْدُق على الإيمان بذاته وصفاته وأفعاله، ومن أفعاله التي يجب بها الإيمان: بعثُهُ الرُّسل، وإنزاله الكتب، فيستنتج من هذا دخول أركان الإيمان الستة التي ورد بها حديث جبريل عليه

السلام في مدلول الإيمان بالله.

٧. إنما ثُني بذكر الإيمان باليوم الآخر مع أنه من بين هذه الأركان لأهميته، فإنه أقوى العوامل في تقويم المنحرفين وردَّ الشاردين، وذلك أنَّ الإنسان بإيمانه بالخالق العظيم تنبعث في نفسه بواعث على طاعة هذا الخالق الذي أحسن صنعه وصنع كل شيء، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولكن مؤثرات شَتَّى - منها نفسيٌّ ومنها أجنبي - كثيراً ما تقف بهذه البواعث وتصرف النفس عن الشكر إلى الكفران، وعن الطاعة إلى العصيان، وعن الذكر إلى الغفلة، وعن الهدى إلى الضلالة، فتيار الشهوات العارمة قد يقتضي على كل أثرٍ للضمير في النفس، وعواطف الغرائز الهوجاء قد تطفئ كل جذوة من العقل، إلا أنه إذا آمن مع ذلك بالمعاد الذي يحاسب فيه على ما تقدم وأخر، وأسرّ وأعلن قوي في نفسه جانب عقله وضميره وأمكنته مقاومة شهواته وغرائزه وتذليلها حتى يقتادها في النهج السويّ، فتكون منا شيء للرحمة والخير والإحسان، ومن هنا كان المؤمن بالله واليوم الآخر آخذاً من حبل الإيمان بطرفيه، وهذه حكمة اقترانهما وتكررهما في القرآن والسنة خصوصاً في معرض الأمر والنهي، وفي مقام الدعوة أو التحذير.

٨. العمل الصالح أثر من الآثار الإيمان لا يمكن انفكاكه عنه كما لا ينفكُّ الظلُّ عن الجسم لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضيان الانقياد لله ي حكمه والإذعان له في أمره، كيف والآمر والناهي هو الله الخالق الكريم الذي منه المبدأ وإليه الرُّجعى، والذي يجزي كل واحدٍ بما عمل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

٩. العمل الصالح ما وافق أمر الله ونهيه فيدخل فيه اجتناب المنهيات لأن الخير لا يجتمع مع ضده، والاكتفاء بإجماله في الآية لمعرفة الفئات المذكورة فيها بتفاصيله بما عندهم من علم الكتاب، وإن من الأعمال الصالحة ما لم يختلف فيه الكتب المنزلة، كإفراد الله بالعبادة، واجتناب كل ما أدى إلى الإشراك به أو أدنى منه، وعون الضعفاء وإغاثة الملهوفين ونصرة المظلومين، ومعاملة الناس بالحسنى.

١٠. الأجر: الجزاء، وسُمِّيَ جزاؤهم أجراً لأنهم أُمروا فامتثلوا وحُمِّلوا فتحمَّلوا، فكانت أعمالهم كأعمال الأجير إلي يطمع في صاحب العمل أن يُوفِّيه أجره، وكونه (عند ربهم) مما يضاعف طمأنينتهم فإنه في مستودع آمن، وقرارٍ مكين، إذ لا يصل إليه مختلس ولا غادر وإنما يوفِّيهم إياه ربُّهم كما وعدهم به.

١١. للمفسرين في بيان ما يراد بالآية رأيان:

أ. منهم من ذهب إلى أنها نزلت تبشيرا للصالحين من هذه الأمة وتبيانا لأحوال أسلاف الأمم السابقة المتقدمين برسالات الله تعالى الذين لم يشب إيمانهم كفران، ولم يلحق عملهم انحراف، فقد جمعوا بين رسوخ الإيمان وصلاح العمل، فهم معدودون في السعداء الفائزين ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن كان تابعا لرسالة من هذه الرسالات، معتصما بحبلها، متقيدا بحكمها، فهو على هدى من الله حتى تنسخ برسالة غيرها، فإذا مات على ذلك فهو من المبشرين بالفوز والسعادة في هذه الآية وأمثالها، وأما من كان من أتباع إحدى هذه الرسالات ثم أدركته رسالة ناسخة لها لم يكن له أن يتردد في إتباع الناسخة، وأن يتشبث بالمنسوخة، لأن أحكام المنسوخة أحكام وقتية محدودة انتهى أمدها بما أتى بعدها، فمن كان من أتباع موسى مثلا وأدركته رسالة عيسى عليه السلام لم يكن له عذر في ترك أتباع عيسى وعدم الإيمان به، بل يُعد ذلك كفرا بموسى نفسه وبما جاء به لتبشيره، بالمسيح عليه السلام وكذلك من كان من أتباع عيسى وأدركته رسالة محمد ﷺ، وجب عليه أن يستجيب لندائها، وأن يستظل بلوائها، وأن يترك ما كان عليه، وإلا كان كافرا بالرسالتين جميعا وبالرسالات السابقة كلها من التبشير به ﷺ ولأخذ الله مواثيق الأمم على ألسنة أنبيائهم بأن يؤمنوا به ﷺ، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، فالمذكور مع الذين آمنوا في الآية على هذا القول ـ هم الذين كانوا متعبدين بالرسالات السابقة قبل إشراق شمس الرسالة المحمدية على صاحبها؛ أفضل الصلاة والسلام.

ب. ذهب آخرون إلى أن الآية تبشر الذين يعقلون عن غيهم من أصحاب الديانات المنحرفة، ويتبعون الهدى الذي بُعث به محمد ﷺ بعدما اتضحت لهم حجته وأضاء لهم نوره، وتجلى لهم إعجازه، ولا يفرطون فيما فرض الله عليهم من الإيمان والعمل، فهم حقيقون بما وعدهم الله به من الجزاء، وعليه فذكر الذين آمنوا للتنويه بالسابقين إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ الذين كونوا من أنفسهم ـ مع قلة عددهم وضعف حالهم ـ أمة مستقلة في عقيدتها وعبادتها وأخلاقها، وللتحريض على اللحاق بهم، والاستبصار بنورهم.

١٢. مناسبة الآية قبلها بناء على القولين:

أ. على القول الأول: المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه ربما ظن وفكر مفكر ـ بعدما سمع مما سبق

من الآيات من قوارع الوعيد لبني إسرائيل وما سجل عليهم فيها من سفة أحلامهم وضلال سعيهم ـ أنهم جميعا تشملهم تلك الأوصاف، ويحيق بهم ذلك الوعيد، فلا مفر لأحد منهم من قبضة العذاب، فأراد الله أن يدرأ هذا الوهم وأن يبين عدله فيهم وفي غيرهم، فهم لم يُمقتوا لعنصرهم وإنما مُقت من مقت منهم لضلال متعقده وسوء صنيعه، وأن شأن الله معهم كشأنه مع هذه الأمة وسائر الأمم، فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، ولا يصل الناس به ويقربهم إليه إلا الإيمان الخالص والعمل الصالح، فمن جمع بينهما فاز برضوانه وثوابه، ومن فرّط فيهما خسر الدنيا والآخرة، على أن ممن مضى من بني إسرائيل أمة قدرت الله حق قدره فأحسنت عبادته وأقامت دينه خلد الله ثناءها في قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

ب. على القول الثاني: المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أن الوعيد الشديد الذي صب فيما قبلها على اليهود صبا قد يلقي بهم في مضايق اليأس من روح الله، والقنوط من رحمته وعفوه لو لم يتبع بما ذُكر هنا من تبشير من آمن منهم عمل صالحا، وفي هذا دعوة لهم إلى الإقبال على ما أدبروا عنه من الحق، وتربية لنفوسهم العاتية بالترهيب تارة وبالترغيب أخرى، وفي ذكر الذين آمنوا وغيرهم ممن ذُكر معهم إيناس لوحشتهم وتسكين لروعهم وتحقيق لما ذكرته من قبل من عدل الله بين عباده.

١٣. الآية الكريمة تشير إلى أن شموس رسالات الله كانت تطلع على الأرض بالهدى ودين الحق، فيستنير بها السالكون الموفقون، وكانت جميع هذه الرسالات متفقة في أصولها، متحدة في أهدافها، فقد كانت تدعو إلى عقيدة واحدة، وهي عقيدة التوحيد، وعدم إشراك أحد مع الله، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، كما كانت تغرس في النفوس روح الفضيلة والتقوى، وإنما كانت تختلف فيها كيفيات العبادات كما تختلف شرائعها وأحكامها بحسب ما يرى الله من مصلحة للعباد.

١٤. ذكر جماعة من أهل التفسير لنزول الآية سبباً، وهو أن سلمان الفارسي رضي الله عنه حدث رسول الله ﷺ بخبر أصحابه فقال: كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار)، فشق ذلك على سلمان فنزلت الآية، وهذا لا يصح عن النبي ﷺ لمعارضته ما ثبت عنه بالنصوص القاطعة أنه لا ينطق عن الهوى ولم يكن

ليقول على الله ما لا يعلم، إذ هو مبلغ في أخباره عن الله، فلا يمكن أن يقول عن أحد هو من أهل النار، وليس كذلك، والرواية محكية من طريق السُّديّ وهو معروف بنقل الغرائب التي لا يصح عقلا ولا نقلا، هذا بجانب سقوط أكثر من راوٍ في سندها، ولئن صحَّ كون سؤال سليمان سببا لنزولها فقد نزلت قبل أن يجيب النبي ﷺ بشيء، وهذا الذي تفيده رواية ابن أبي حاتم عن سليمان ونحوه عن مجاهد عند الواحدي.

١٥. روى أبو داوود في الناسخ والمنسوخ وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ ما يدل على أنه يرى الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿منْ يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه﴾، ولئن صح لك عنه، فهو محمول على نسخ التعبد بشرائع الأنبياء السابقين بالشريعة المحمدية الخاتمة، ولا ينافي ذلك ما دلت عليه هذه الآية على أي واحدٍ من التفسيرين السابقين لأنها خبر ولا نسخ في الأخبار.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد عرض لمقاطع من تاريخ بني إسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاما في التقييم وفق المعايير الإلهية، وهذا المبدأ ينص على أن الإيمان والعمل الصالح هما أساس تقييم الأفراد، وليس للتظاهر والتصنّع قيمة في ميزان الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

٢. هذه الآية تكررت مع اختلاف يسير في سورة المائدة، الآية ٧٢ وفي سورة الحج الآية ١٧.. وسياق الآية في سورة المائدة يشير إلى أن اليهود والنصارى فخروا بدينهم، واعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين، وادّعوا بأن الجنّة خاصة بهم دون غيرهم، ولعل مثل هذا التفاخر صدر عن بعض المسلمين أيضا، ولذلك نزلت هذه الآية الكريمة لتؤكد أن الإيمان الظاهري لا قيمة له في الميزان الإلهي، سواء في ذلك المسلمون واليهود والنصارى وأتباع الأديان الأخرى، ولتقول الآية أيضا: إن الأجر عند الله يقوم على أساس الإيمان الحقيقي بالله واليوم الآخر إضافة إلى العمل الصالح، وهذا الأساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقة والابتعاد عن كل خوف وحزن.

٣. اختلف المفسّرون وأصحاب الملل والنحل في تشخيص هوية الصابئين، ووجه تسميتهم:

---

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٥٠.

أ. الشّهرستاني يقول: الصابئة من صبأ أي انحرف عن طريق الأنبياء، وهؤلاء قوم انحرفوا عن طريق الحق ودين الأنبياء فهم (صابئة)

ب. (الفيومي يقول في (المصباح المنير) إن (صبأ) تعني الخروج من الدين إلى دين آخر.

ج. في معجم (دهخدا) الفارسي: الصابئون جمع صابئ وهي كلمة مشتقة من (ص ـ بـ ع) العبرية التي تعني الغوص في الماء (أو التعميد)، وسقطت العين في التعريب، وتسمى هذه الطائفة التي تسكن خوزستان باسم (المغتسلة) لذلك[١]..

٤. بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التي نحن بصددها وسيلة لبثّ شبهة مفادها أن العمل بأي دين من الأديان الإلهية له أجر عند الله، وليس من اللازم أن يعتنق اليهودي أو النصراني الإسلام، بل يكفي أن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا، وهؤلاء غاب عنهم أن القرآن يفسّر بعضه بعضا، والكتاب العزيز يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ .. كما أن القرآن مليء بالآيات التي تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، وتلك الشبهة تتعارض مع هذه الآيات.

٥. من أوضح وأنسب ما ذكره المفسّرون لهذه الآية الكريمة:

أ. لو عمل اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان السماوية بما جاء في كتبهم، لآمنوا حتما بالنّبي ﷺ، لأن بشارات الظهور وعلائم النّبي وصفاته مذكورة في هذه الكتب السماوية.

ب. هذه الآية تجيب على سؤال عرض لكثير من المسلمين في بداية ظهور الإسلام، يدور حول مصير آبائهم وأجدادهم الذين لم يدركوا عصر الإسلام، ترى، هل سيؤاخذون على عدم إسلامهم وإيمانهم!؟ الآية المذكورة نزلت لتقول إن كل أمّة عملت في عصرها بما جاء به نبيّها من تعاليم السماء وعملت صالحا؛ فإنها ناجية، ولا خوف على أفراد تلك الامّة ولا هم يحزنون.. فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، والمسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبي الإسلام.. وهذا المعنى مستفاد من سبب نزول هذه الآية.

---

(١) هناك تفاصيل أخرى مرتبطة بهذا ذكرناها في الكتب المرتبطة بالتفسير الموضوعي من هذه السلسلة.

٢٦. بنو إسرائيل والميثاق والطور

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: الطور: ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور[١].

٢. روي أنّه قال: الطور: الجبل الذي أنزلت عليه التوراة، وكان بنو إسرائيل أسفل منه[٢].

٣. روي أنّه قال: إنما سمي الجبل الذي كان عليه موسى طور سيناء، لأنه جبل كان عليه شجر الزيتون، وكل جبل يكون عليه ما ينتفع به من النبات والأشجار سمي طور سيناء وطور سينين، وما لم يكن عليه ما ينتفع به من النبات أو الأشجار من الجبال سمي طور، ولا يقال له: طور سيناء وطور سينين[٣].

٤. روي أنّه قال: أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله، حتى قام على رؤوسهم، وذلك لأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، فأمر موسى قومه أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها، فأبوا أن يقبلوها للآصار والأثقال التي هي فيها، وكانت شريعة ثقيلة، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقلع جبلا على قدر عسكرهم، وكان فرسخا في فرسخ، فرفعه فوق رؤوسهم مقدار قامة الرجل كالظلة،

---

(١) ابن جرير: ٢/٥١.

(٢) ابن جرير: ٢/٥٠.

(٣) تفسير القمّي: ١/٤٨.

وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم[1].

٥. روي أنه قال: رفع الله فوق رؤوسهم الطور، وبعث نارا من قبل وجوههم، وأتاهم البحر المالح من خلفهم[2].

٦. روي أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بجد[3].

٧. روي أنّه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلكم تنزعون عما أنتم عليه[4].

٨. روي أنّه قال: ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ خسروا الدنيا والآخرة[5].

٩. روي أنّه قال: ﴿فَضْلِ اللَّهِ﴾ الدين[6].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له، ولا يعبدوا غيره[7].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ رفع فوقهم الجبل، يخوفهم به[8].

٣. روي أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بطاعة[9].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ اقرؤوا ما في التوراة، واعملوا به[10].

٥. روي أنّه قال: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ﴿فَضْلِ اللَّهِ﴾ الإسلام[11].

---

(١) تفسير الثعلبي: ١/٢١١.

(٢) تفسير الثعلبي: ١/٢١١.

(٣) ابن جرير: ٢/٥٢.

(٤) ابن جرير: ٢/٥٤.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/١٣٢.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١٣١.

(٧) ابن أبي حاتم: ١/١٢٩.

(٨) ابن جرير: ٢/٤٩.

(٩) ابن جرير: ٢/٥٢.

(١٠) ابن جرير: ٢/٥٤.

(١١) ابن جرير: ٢/٥٨.

٦. روي أنّه قال: ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ القرآن[1].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، يعني: ورحمته[2].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: النبط يسمون الجبل: الطور[3].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: الطور: الجبل، بالسريانية[4].

٢. روي أنّه قال: أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سجدا، ويقولوا: حطة، وطؤطئ لهم الباب ليسجدوا، فلم يسجدوا، ودخلوا على أدبارهم، وقالوا: حنطة، فنتق فوقهم الجبل ـ يقول: أخرج أصل الجبل من الأرض، فرفعه فوقهم كالظلة، والطور بالسريانية: الجبل ـ تخويفا، فدخلوا سجدا على خوف ـ أو على حرف ـ وأعينهم إلى الجبل، وهو الجبل الذي تجلى له ربه[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بعمل بما فيه[6].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، يعني: التوراة[7].

قتادة:

---

(١) ابن جرير: ٢/٥٨.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١٣١.

(٣) الدرّ المنثور: ابن أبي حاتم.

(٤) تفسير مجاهد: ص٢٠٤.

(٥) ابن جرير: ٢/٤٨.

(٦) تفسير مجاهد: ص٢٠٥.

(٧) ابن أبي حاتم: ١/١٣٠.

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: الطور: جبل نزلوا بأصله[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ جبل نزلوا بأصله، فرفع فوقهم، فقال: لتأخذن أمري، أو لأرمينكم[٢].

٣. روي أنّه قال: الطور: الجبل، اقتلعه الله فرفعه فوقهم، فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ ـ والقوة: الجد ـ وإلا قذفته عليكم، قال فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد ما آتاهم[٤].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ جبل.. يجمع طورة وأطوارا.. رفعته الملائكة[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ معناه بجدّ[٦].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بطاعة[٧].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال لي عطاء بن أبي رباح: رفع الجبل على بني إسرائيل، فقال: لتؤمنن به أو ليقعن

---

(١) ابن جرير: ٢/٤٩.

(٢) ابن جرير: ٢/٤٩.

(٣) عبد الرزاق: ١/٤٧.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/١٣١.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

(٧) ابن جرير: ٢/٥٢.

عليكم، فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١][1].

٢. روي أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ كتابكم، لتأخذنه أو ليقعن عليكم الطور، قالوا: نأخذه، وأقروا، ثم نقضوا الميثاق بعد ذلك[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ في التوراة، وأن تعملوا بما فيها، فلما قرؤوا التوراة وفيها الحدود والأحكام كرهوا أن يقروا بما فيها؛ رفع الله تعالى عليهم الجبل ليرضخ به رؤوسهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، يعني: الجبل، فلما رأوا ذلك أقروا بما فيها، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣][3].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، يعني: الجبل[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ ما أعطيناكم من التوراة بالجد والمواظبة عليه[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ يقول: احفظوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من أمره ونهيه، ولا تضيعوه[6].

٥. روي أنّه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصي[7].

٦. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يقول: أعرضتم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عن الحق من بعد الجبل[8].

٧. روي أنّه قال: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ يعني: نعمته؛ لعاقبكم، و ﴿لَكُنْتُمْ﴾ في

---

(١) ابن جرير: ٢/٥٠.

(٢) ابن جرير: ٢/٥٣.

(٣) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٤) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٥) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٦) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٧) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

(٨) تفسير مقاتل: ١/١١٢.

الآخرة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في العقوبة[1].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال موسى لقومه بني إسرائيل: خذوا كتاب الله، قالوا: لا، فبعث ملائكته، فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعم، هذا الطور، قال خذوا الكتاب، وإلا طرحناه عليكم، قال فأخذوه بالميثاق، وقرأ قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَّ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، حتى بلغ: ﴿وَمَا اللهُّ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]: ولو كانوا أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ اعملوا بما فيه بطاعة الله تعالى وصدق.. وقال: اذكروا ما فيه، لا تنسوه ولا تغفلوه[3].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[4]:

١. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، الطور هو: الجبل المعروف، وذلك: أن بني إسرائيل لما عتوا عن أمر الله سبحانه، وخالفوا نبيه، وأبانوا الكفر، وقلة الشكر ـ نتق الله الطور، فرفعه فوقهم، والنتق هو: القلع له من موضعه، فرأوا أمرا عظيما جليلا، هالهم وأرعب قلوبهم، وأكل ألسنتهم، لما رأوا من إظلال الجبل لهم؛ فأيقنوا بالهلكة، واستيقظوا من الغفلة، فلما أن قبلوا من موسى ما جاء به، وتابوا ـ رده الله إلى موضعه.

٢. معنى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ هو: خذوا ما جاءكم من الوحي والأمر والنهي بقوة، يقول: خذوه بحزم وعزم، وجد ونية؛ وكلما أخذ بذلك سمي قوة.

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١١٣.

(٢) ابن جرير: ٢/٤٧.

(٣) ابن جرير: ٢/٥٤.

(٤) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٤٥.

٣. سؤال وإشكال: هل كان جبرا من الله؟ والجواب: ليس يقال فيما تعبد الله عز وجل به: إنه جبر عليه أحدا؛ لأنه لو جبرهم عليه، ما حمدهم فيه، ولا أثابهم، ولكن كان ارتفاع الجبل عليهم حجة وتأكيدا، وإثباتا لما جاء به موسى ـ صلى الله عليه ـ، وتصديقا وتذكرة وتنبيها.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ ميثاق الله، وعهده على وجهين: عهد خلقة وفطرة، وعهد رسالة ونبوة.

٢. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾:

أ. يحتمل: في التوراة أن يعملوا بما فيها، فنقضوا ذلك العهد لما رأوا فيها الحدود، والأحكام، والشرائع كرهوا؛ فرفع الله الجبل فوقهم، فقبلوا ذلك.

ب. ويحتمل ما ذكرنا من عهد خلقة وفطرة فنقضوا ذلك.

٣. اختلف في معنى ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾:

أ. قيل: خذوا التوراة بالجد والمواظبة.

ب. وقيل: يعنى: بالطاعة له والخضوع.

٤. احتج بعض المعتزلة بهذه الآية على تقدم القدرة الفعل؛ لأنه أمرهم ـ عزّ وجل ـ بالقبول له، والأخذ والعمل بما فيها، فلو لم يعطهم قوة الأخذ والقبول له قبل الأخذ له والفعل، لكان لا يأمرهم بذلك؛ لأنهم يقولون: لا قوة لنا على ذلك؛ فدل أنه قد أعطاهم قبل ذلك، وهذا غلط:

أ. لأنه لو كان أعطاهم القوة قبل الفعل، ووقت الأمر به، ثم تذهب عنهم تلك القوة وقت الفعل ـ لكان الفعل بلا قوة؛ إذ من قولهم: أن القوة لا تبقى وقتين؛ فدل: أنها تحدث بحدوث الفعل، لا يتقدم ولا يتأخر، ولكن يكونان معا.

ب. ولأنها سميت: قدرة الفعل، فلو كانت تتقدم الفعل، لم يكن لإضافة الفعل إليها معنى.

٥. الأصل في ذلك: أن الله ـ تعالى ـ قال ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ ومعلوم أن المراد من ذلك الأخذ

---

(١) تأويلات أهل السنة: ١/٤٨٦.

بقوة الآخذ، ثم فيه وجهان:

أ. أحدهما: أن للأخذ قوة غير التي للترك.

ب. الثاني: أنه ذكر الأخذ بقوة، فإذا لم تكن معه لم يكن بها أن يرى أن الوقت إذا تباعد لم يحتمل بها تقدم من القوة أوقاتا؛ فمثله وقت واحد.

٦. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يحتمل وجوها:

أ. يحتمل: اذكروا، واحفظوا ما فيه من أمره ونهيه، ولا تضيعوه؛ لعلكم تتقون المعاصي والمآثم.

ب. ويحتمل: اذكروا ما فيه من التوحيد والإيمان؛ لعلكم تتقون الشرك والكفر.

ج. ويحتمل: اذكروا ما فيه من الأحكام والشرائع.

د. ويحتمل: الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، وكله واحد.

٧. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعنى: من بعد القبول، دل هذا على: أنهم كانوا قبلوا ذلك مرة، قبل أن يأتيهم موسى ﷺ بها؛ فلما أتاهم ـ ورأوا التشديد، والمشقة ـ أبوا قبولها، وتركوا العمل بما فيها من الأحكام والشرائع؛ فخوّفوا برفع الجبل فوقهم؛ فقبلوا ذلك.

٨. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، يحتمل وجوها:

أ. قيل: فضل الله عليكم الإسلام ورحمته: القرآن.

ب. وقيل: فضل الله عليكم بمحمد ﷺ، بعث إليكم رسولا؛ ليجمعكم، ويؤلف بينكم، ويدعوكم إلى دين الله الحق، بعد ما كنتم في فترة من الرسل، وانقطاع من الدين والعمل.

ج. وقيل: فضل الله عليكم؛ لما أنجى آباءكم من العذاب، ولم يرسل عليهم الجبل، وإلا ما توالدتم أنتم.

د. وقيل: فضل الله عليكم؛ لما أعطاهم التوراة، ووفقهم على قبولها، وإلا كنتم من الخاسرين، وبعضه قريب من بعض.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٦١.

١. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾:

أ. أي بجد واجتهاد.

ب. الثاني بطاعة الله.

ج. ويحتمل وجهاً ثالثاً أي العمل بما فيه.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في الطور ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنه اسم الجبل، الذي كلم الله عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة دون غيره، وهذه رواية ابن جريج عن ابن عباس.

ب. الثاني: أن الطور ما أنبت من الجبال خاصة، دون ما لم ينبت، وهذه رواية الضحاك عن ابن عباس.

ج. الثالث: أن الطور اسم لكل جبل، وهو قول مجاهد، وقتادة، إلا أن مجاهدا قال هو اسم كل جبل بالسريانية، وقال قتادة: بل هو اسم عربي، قال العجاج:

داني جناحيه من الطور فمر   تقضّي البازي إذا البازيّ كر

٢. في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: أن القوة الجدّ والاجتهاد، وهو قول ابن عباس، وقتادة والسدي.

ب. الثاني: يعني بطاعة الله تعالى، وهو قول أبي العالية، والربيع بن أنس.

ج. الثالث: أنه العمل بما فيه، وهو قول مجاهد.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. الميثاق: المفعال من الوثيقة: اما بيمين، واما بعهد وغير ذلك من الوثائق، والميثاق الذي اخذه

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١٣٥.

(٢) تفسير الطوسي: ١/٢٨٧.

الله هو:

أ. الذي ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَّ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ في الآيات التي ذكر بعدها.

ب. ويحتمل ان يكون أراد الميثاق الذي أخذ الله على الرسل في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهَّ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾

٢. أخذ العهد هو ما نصب لهم من الحجج الواضحة، والبراهين الصحيحة الدالة على توحيده، وعدله، وصدق أنبيائه ورسله، وفاسد ما يقوله اهل الحشو: من استخراج الذرية من ظهر آدم، وأخذ العهد عليهم.

٣. اختلف في معنى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾:

أ. قيل: الطور هو الجبل، وكذلك هو في اللغة، قاله مجاهد، وقال العجاج:

دانى جناحيه من الطور فمر تقضي البازي إذا البازي كسر

ب. وقيل: إنه اسم جبل بعينه. ناجى الله عليه موسى بن عمران. ذهب اليه ابن عباس وابن جريج.

ج. وقيل: انه من الجبال التي تنبت دون ما لا تنبت، رواه الضحاك عن ابن عباس.

د. وقيل: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الطور الجبل اقتلعه فرفعه فوقهم، فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ قاله قتادة.

هـ. قال مجاهد: الطور اسم جبل بالسريانية، وقال قتادة: بالعربية.

٤. قال قوم من النحويين: معنى ﴿خُذُوا﴾ تقديره: ورفعنا فوقكم الطور وقلنا لكم خذوا ما اتيناكم يعني التوراة بقوة، اي بجد ويقين، لا شك فيه والا قذفناه عليكم) كما تقول: أوجبت عليه قم اي أوجبت عليه فقلت قم، وقال الفراء: أخذ الميثاق: قول بلا حاجة بالكلام الى إضمار قول، فيكون من كلامين، غير انه ينبغي لكل ما خالف القول من الكلام الذي هو بمعنى القول، أن تكون معه أن كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ قال ويجوز حذف أن.

٥. معنى ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أي أعطيناكم، لأن الإيتاء هو الإعطاء، يعني ما أمرناكم به في التوراة.

٦. اختلف في معنى ﴿بِقُوَّةٍ﴾:

أ. قال ابن عباس وقتادة، والسدي: أي بجد ويقين.

ب. وقال ابو العالية والربيع بن انس: بطاعة الله.

ج. وقال مجاهد: إنه العمل بما فيه.

د. وحكي عن ابن الجران معناه: القبول.

هـ. وقال: ابو علي: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ معناه: بالقدرة التي جعلنا فيكم، وذلك دلالة على ان القدرة قبل الفعل.

٧. اختلف في معنى ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾:

أ. قال قوم: احفظوه، لا تنسوه.

ب. قال آخرون: اعملوا بما فيه ولا تتركوه.

والمعنى في ذلك: ان ما اتيناكم فيه من وعد ووعيد، وترغيب وترهيب اعتبروا به، واقبلوه وتدبروه، كي إذا فعلتم ذلك تتقوني وتخافوا عذابي بالإصرار على ضلالتكم فتنتهوا الى طاعتي فتنزعوا عما أنتم عليه من المعصية.

٨. توليتم: أعرضتم ووزنه: تفعلتم من قولهم ولاني فلان دبره: إذا استدبر عنه وجعله خلف ظهره، ثم يستعمل ذلك في كل تارك طاعة آمر ومعرض بوجهه. يقال: فلان تولى عن طاعة فلان، ويتولى عن مواصلته وصداقته، ومنه قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني خالفوا ما وعد الله من قوله: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ونبذوا ذلك وراء ظهورهم فصار معنى الآية انكم نبذتم العهد الذي أخذناه عليكم بعد اعطائكم المواثيق، وكنى بذلك عن جميع ما تقدم ذكره في الآية.

٩. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني فلولا ان فضل الله عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الذي وواثقتموه إذ رفع فوقكم الطور فاجتهدتم في طاعته، وأداء فرائضه، وأنعم عليكم بالإسلام، وبرحمته التي رحمكم بها، فتجاوز عن خطيئتكم بمراجعتكم طاعة ربكم لكنتم من الخاسرين.

١٠. اختلف في المخاطب بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. قيل: هذا وان كان خطابا لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ فإنما هو خبر عن أسلافهم، فاخرج الخبر مخرج الخبر عنهم، على نحو ما مضى ذكره، وهو أقوى.

ب. وقيل: الخطاب في هذه الآية انما اخرج بإضافة الفعل الى المخاطبين، والفعل لغيرهم لأن المخاطبين انما كانوا يتولون من كان فعل ذلك من أوائل بني إسرائيل، فصيرهم الله منهم، من اجل ولايتهم لهم.

ج. وقيل: انما قال لهم ذلك، لأن سامعيه كانوا عالمين، وان الخطاب خرج مخرج الخطاب للاحياء من بني إسرائيل، واهل الكتاب ـ وان كان المعنى في ذلك انما هو خبر عما مضى من أسلافهم ـ ومثل ذلك قول الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ... ولم تجدي من ان تقري به بدا

فقال: إذا ما انتسبنا، وإذا تقتضي من الفعل مستقبلا، ثم قال لم تلدني فأخبر عن ماض، لأن الولادة قد مضت لأن السامع فهم معناه ـ

١١. قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لا يدل على ان الذين خسروا، لم يكن عليهم فضل الله لأن فضل الله شامل لجميع الخلائق، لأن ذلك دليل خطاب، وليس ذلك بصحيح عند الأكثر، والذي يكشف عن ذلك، ان الواحد منا قد يعطي أولاده وعبيده ويتفضل على جميعهم، ثم يبذره بعضهم ويبقى فقيراً، ويحفظه آخر فيصير غنيا، ويحسن ان يقول للغني منهم لولا فضلي عليك لكنت فقيراً، ولا يدل على انه لم يتفضل على الذي هو فقير، وإذا كان كذلك كان تأويل الآية: انه لولا اقداري لكم على الايمان وازاحة علتكم فيه حتى فعلتم ايمانكم، لكنتم من الخاسرين، وإنما جعل الايمان فضلا فيؤتيه الذين به ينجون ولم يكونوا خاسرين من حيث كان هو الداعي اليه والمقدر عليه، والمرغب اليه.

١٢. يحتمل ان يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

أ. ولولا فضل الله عليكم بإمهاله إياكم بعد توليكم عن طاعته حتى تاب عليكم برجوع بعضكم عن ذلك وتوبته لكنتم من الخاسرين.

ب. ويحتمل ان يكون أراد بهذا الفضل في وقت رفع الجبل فوقهم باللطف والتوفيق الذي تابوا عنده حتى زال عنهم العذاب وسقوط الجبل، ولولا فضل الله: لسقط الجبل.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الميثاق والعهد والعقد من النظائر، وأصله أحكام العقد، وحده: العهد المؤكد باليمين أو غيره.

ب. الطور: الجبل، ومن قال: إنه بالسريانية فقد أخطأ؛ لأنه ليس في القرآن لغة إلا لغة العرب، فإن وجد ذلك اللفظ في لغة أخرى فلموافقة اللغتين، ولأن العرب أخذته فعربته، وقد وجد الطور في شعر جرير والعجاج، قال العجاج:

دَانَى جَنَاحَيْهِ من الطور فَمَرْ... تَقَضّيَ الْبَازي إِذَا البازِي كَسَرْ

ج. القوة: القدرة، وهي عرض يصير به الحي قادرًا، وكل جسم قادر بقدرة، لا يصح منه فعل دونها.

د. الأخذ ضد الإعطاء، وأصله أُؤْخُذْ، نحو: كُلْ، فإن أصله أُؤْكُلْ، واُؤْمُرْ، وقد جاء أمر على الأصل فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾، وإنما حذف لكثرة الاستعمال تخفيفًا.

هـ. تولى: أعرض، والفضل: هو الزيادة من الإنعام والإحسان.

و. الخسران: ذهاب رأس المال، خسر خسرانًا.

٢. عاد إلى خطاب بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ يعني اذكروا إذ أخذنا ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ أي عهدكم، والمراد عهد أسلافكم، والخطاب لليهود.

٣. اختلف في معنى عهد الله تعالى:

أ. قيل: ما فطر عليه الخلق، فجعله دليلاً على خالقه.

ب. وقيل: ما أمرهم على ألسن رسله فأخبر أنهم أوثقوا على أنفسهم بالسمع والطاعة فيما تعبدهم، وأخبر أنه عاهدهم عند رفع الطور.

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/٤١٥.

ج. وقيل: هو الميثاق الذي أخذه منهم عند رفع الطور بأنهم تابوا، وعهدوا ألا يعودوا إلى ذنوبهم كعبادة العجل وغيره، وأن يعملوا بما في التوراة، عن أبي علي.

د. وقيل: هو أخذ التوراة عن موسى.

هـ. وقيل: في طاعة الله واتباع رسله.

٤. اختلف في معنى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾:

أ. قيل: الطور جبل أي جبل كان، عن مجاهد وقتادة.

ب. وقيل: الطور من الجبال ما أنبت خاصة، وما لم يُنْبت فليس بطور، عن ابن عباس.

ج. وقيل: هو الجبل الذي ناجى عليه موسى، عن ابن عباس أيضًا.

٥. سبب رفع الطور كما قال أهل التفسير: لما رجع موسى بالألواح، قال إن فيها كتاب الله وأمره ونهيه، فقالوا: ومن يأخذه بقولك، فأمر الله الملائكة، فنتقت الجبل فوقهم، وقيل لهم: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم فأخذوا، وكان الجبل فرسخًا في فرسخ على مقدار العسكر.

٦. سؤال وإشكال: أَوَلَيْسَ رفع الجبل يوجب الإلجاء؟ والجواب: لا، لأنه:

أ. قيل: ليس كل تخويف إلجاء، كما يخوف الكافر بالسيف.

ب. وقيل: لما استقر وقوف الجبل مدة ولم يسقط ترددوا بين الخوف والرجاء، كوقوف السحاب.

ج. وقيل: إنهم رأوا آيات كثيرة قبل ذلك، فلم يخافوا خوف إلجاء.

٧. ﴿خُذُوا﴾ أي وقلنا لهم: خذوا ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أي أعطيناكم، وهو التوراة، عن أبي العالية وغيره.

٨. اختلف في معنى ﴿بِقُوَّةٍ﴾:

أ. قيل: بجد واجتهاد، عن ابن عباس والحسن وقتادة.

ب. وقيل: تقديره، عن أبي علي والأصم، وتقديره: خذوا وأنتم قادرون على أخذه.

ج. وقيل: بعزيمة وجد، وأخذه بقوة هو العمل بما فيه

٩. اختلف في معنى ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾:

أ. قيل: تعرضوا لذكر ما فيه، وعلى هذا الذكر ضد النسيان.

ب. وقيل: أراد ادرسوا ما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتصيروا أتقياء.

ج. وقيل: لتنجوا من العذاب، عن أبي مسلم.

١٠. سؤال وإشكال: هل قبلوا التوراة؟ والجواب: نعم دليله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾

١١. بَيَّنَ تعالى ما فعلوه بعد أخذ الميثاق فقال تعالى: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم:

أ. قيل: عن أمر الله وطاعته.

ب. وقيل: عن العمل بما في التوراة.

١٢. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾:

أ. قيل: من بعد أخذ الميثاق ورفع الجبل، عن أبي علي وغيره.

ب. وقيل: بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم التي عدها عليكم.

١٣. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. قيل: بإمهاله إياكم للتوبة.

ب. وقيل: بأن هداكم للتوبة ووفقكم لها.

ج. وقيل: بقبول توبتكم.

د. وقيل: بتأخير العذاب ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الهالكين بما نالهم من العقاب، وفاتهم من الثواب.

١٤. الوقت الذي قيل فيه: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾:

أ. قيل: بعد توليهم.

ب. وقيل: في حال رفع الطور، كلاهما عن أبي علي.

١٥. تدل الآية الكريمة:

أ. على أن القدرة قبل الفعل؛ لأنه لا يجوز أن يقول: خذوا بقدرة، ولا قدرة فيهم، كما لا يجوز أن يقول: امش برجلك، وابطش بيدك، ولا يد ولا رجل، عن أبي علي، ولأنه لا يقال: خذوا والأخذ واقع.

ب. على أن رفع الطور فوقهم لم يوجب الإلجاء؛ لأن التكليف باق عليهم.

ج. على أن رفع الطور فوقهم كان لطفًا لهم فيكونون أقرب إلى القبول، فهو بمنزلة مقاتلة الكفار.

د. على معجزة عظيمة لموسى مضمومة إلى سائر معجزاته.

هـ. على أنهم ارتكبوا كبائر بعد رفع الطور، وأنه تعالى أمهلهم، وقبل توبتهم.

و. على بقاء التكليف عليهم بعد رفع الجبل، فيبطل قول من يقول: إن رفع الجبل أوجب الإلجاء.

١٦. مسائل نحوية:

أ. الواو في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا﴾:

• قيل: واو الحال تقديره: أخذنا ميثاقكم في حال رفع الطور، عن أبي مسلم وجماعة.

• وقيل: بل هو واو العطف، وتقديره: رفعنا فوقكم الطور في حال أخذ الميثاق، فساغ ذلك؛ لأن الواو لا يوجب ترتيبًا، وهذا أولى من الأول؛ لأن الماضي لا يكون حالا إلا بذكر (قد)

ب. موضع (خُذُوا) من الإعراب: النصب على تقدير (وقلنا) عند البصريين، وقد يحذف القول في كثير من الكلام، قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي ويقولون: سلام، وقال بعض الكوفيين: لا حاجة إلى إضمار القول مع أن أخذ الميثاق قول، ولكن يتصل ب (أنْ) كقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ ويجوز حذف أن.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الميثاق: هو مفعال من الوثيقة إما بيمين، وإما بعهد، أو غير ذلك من الوثائق.

ب. الطور: الجبل في اللغة، قال العجاج: داني جناحيه من الطور فمر... تقضي البازي إذ البازي كسر وقيل: إنه اسم جبل بعينه، ناجى الله عليه موسى عليه السلام، عن ابن عباس.

ج. القوة: القدرة، وهي عرض يصير به الحي قادرا، وكل جسم قادر بقدرة لا يصح منه فعل الجسم.

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٦٣.

د. الأخذ: ضد الإعطاء، وأصل خذ أوخذ، وكذا كل أصله أؤكل، وإنما لزم الحذف فيها تخفيفا لكثرة الاستعمال، وكذلك مر وقد جاء فيه أؤمر على الأصل.

هـ. توليتم: أعرضتم، وهو مطاوع قولهم ولاه فلان دبره إذا استدبر عنه، وجعله خلف ظهره، ثم يستعمل ذلك في كل تارك طاعة آمر، ومعرض بوجهه عنه، فيقال: تولى فلان عن طاعة فلان، وتولى عن صداقته، ومنه قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾ أي: خالفوا ما وعدوا الله من قولهم: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

و. الخاسر: هو الذي ذهب رأس ماله، ورأس مال الانسان نفسه، وما سواها مما يحصل له من المنافع، فهو كله ربح.

٢. عاد إلى خطاب بني إسرائيل فقال ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ﴾:

أ. قيل: أي عهدكم، والعهد هو الذي فطر الله الخلق عليه من التوحيد والعدل ونصب لهم من الحجج الواضحة والبراهين الساطعة الدالة على ذلك وعلى صدق الأنبياء والرسل.

ب. وقيل: إنه أراد به الميثاق الذي أخذه الله على الرسل في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ﴾ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ﴾ الآية.

ج. وقيل: هو أخذ التوراة عن موسى.

٣. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ قال أبو زيد: هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالألواح فقال لقومه: جئتكم بالألواح، وفيها التوراة والحلال والحرام، فاعملوا بها قالوا: ومن يقبل قولك، فأرسل الله عز وجل الملائكة حتى نتقوا الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به وإلا أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة، وسجدوا لله تعالى ملاحظين إلى الجبل، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شقي وجوههم، قيل وهذا هو معنى أخذ الميثاق، وكان في حال رفع الجبل فوقهم لأن في هذه الحال قيل لهم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ يعني التوراة.

٤. ﴿بِقُوَّةٍ﴾:

أ. قيل: أي بجد ويقين لا شك فيه وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي، وقريب منه ما روى العياشي أنه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أبقوة بالأبدان أم

بقوة بالقلوب فقال بهما جميعا.

ب. وقيل: أخذه بقوة هو العمل بما فيه بعزيمة وجد.

ج. وقيل: بقدرة وأنتم قادرون على أخذه عن أبي علي والأصم

٥. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾:

أ. قيل: يعود الضمير من فيه إلى ما من قوله ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ وهو التوراة يعني احفظوا ما في التوراة من الحلال والحرام ولا تنسوه.

ب. وقيل: معناه اذكروا ما في تركه من العقوبة وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وقيل: معناه اعملوا بما فيه ولا تتركوه.

د. وقيل: المعنى في ذلك أن ما آتيناكم فيه من وعد ووعيد وترغيب وترهيب تدبروه واعتبروا به واقبلوه.

٦. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي كي تتقوني إذا فعلتم ذلك، وتخافوا عقابي، وتنتهوا إلى طاعتي، وتنزعوا عما أنتم عليه من المعصية.

٧. معنى الآية ثم نبذتم العهد الذي أخذناه عليكم بعد إعطائكم المواثيق وراء ظهوركم وأعرضتم عنه، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الذي واثقتموه إذ رفع فوقكم الطور وأنعم عليكم بالإسلام ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ التي رحمكم بها فتجاوز منكم خطيئتكم بمراجعتكم طاعة ربكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

٨. قال أبو العالية: فضل الله الإيمان ورحمته القرآن)، فيكون معناه لولا إقداري لكم على الإيمان وإزاحة علتكم فيه حتى فعلتم الإيمان لكنتم من الخاسرين، وإنما جعل الإيمان فضلا وتوبته التي بها نجوا ولم يكونوا بها خاسرين فضلا منه من حيث كان هو الداعي إليه والمقدر عليه والمرغب فيه ويحتمل أن يكون المعنى فلولا فضل الله عليكم بإمهاله إياكم بعد توليكم عن طاعته حتى تاب عليكم برجوع بعضكم عن ذلك وتوبته لكنتم من الخاسرين، ويحتمل أن يريد فلولا فضلي عليكم في رفع الجبل فوقكم للتوفيق واللطف الذي تبتم عنده حتى زال العذاب عنكم وسقوط الجبل لكنتم من الخاسرين.

٩. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾: محله نصب على تقدير وقلنا لكم خذوا كما تقول أوجبت عليه قم أي:

أوجبت عليه فقلت قم، قال الفراء: أخذ الميثاق قول، ولا حاجة بالكلام إلى إضمار القول فيه، غير أنه ينبغي لكل ما خالف القول من الكلام الذي هو بمعنى القول أن يكون معه ﴿إِنَّ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ قال: ويجوز حذف ﴿إِنَّ﴾ وموضع ﴿مَا﴾ هاهنا نصب.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ . الخطاب بهذه الآية لليهود.

٢. الميثاق: مفعال من التوثّق بيمين أو عهد أو نحو ذلك من الأمور التي تؤكّد القول، وفي هذا الميثاق ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة، فكرهوا الإقرار بما فيها، فرفع عليهم الجبل، قاله مقاتل، قال أبو سليمان الدّمشقيّ: أعطوا الله عهدا ليعملنّ بما في التوراة، فلما جاء بها موسى فرأوا ما فيها من التثقيل، امتنعوا من أخذها، فرفع الطور عليهم.

ب. الثاني: أنه ما أخذه الله تعالى على الرّسل وتابعيهم من الإيمان بمحمد ﷺ، ذكره الزّجّاج.

ج. الثالث: ذكره الزّجّاج أيضا، فقال: يجوز أن يكون الميثاق يوم أخذ الذّرّية من ظهر آدم.

٣. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، قال أبو عبيدة: الطور في كلام العرب: الجبل، وقال ابن قتيبة: الطور: الجبل بالسريانية، وقال ابن عباس: ما أنبت من الجبال فهو طور، وما لم ينبت فليس بطور.

٤. اختلف في الطور وأي الجبال هو:

أ. قيل: جبل من جبال فلسطين، قاله ابن عباس.

ب. وقيل: جبل نزلوا بأصله، قاله قتادة.

ج. وقيل: الجبل الذي تجلّى له ربّه، قاله مجاهد.

٥. اختلف في سبب رفع الجبل عليهم:

أ. جمهور العلماء على أنه إنما رفع الجبل عليهم لإبائهم التوراة.

ب. قال السّدّيّ: لإبائهم دخول الأرض المقدّسة.

---

(١) زاد المسير: ١/٧٤.

٦. في المراد (بقوّة) أربعة أقوال:

أ. أحدها: الجدّ والاجتهاد، قاله ابن عبّاس وقتادة والسّدّيّ.

ب. الثاني: الطاعة، قاله أبو العالية.

ج. الثالث: العمل بما فيه، قاله مجاهد.

د. الرابع: الصّدق، قاله ابن زيد.

٧. في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، قولان:

أ. أحدهما: اذكروا ما تضمّنه من الثواب والعقاب، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: معناه: ادرسوا ما فيه، قاله الزّجّاج.

٨. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، قال ابن عباس: تتّقون العقوبة.

٩. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: أعرضتم عن العمل بما فيه من بعد إعطاء المواثيق ليأخذنّه بجدّ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين بالعقوبة.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا هو الإنعام العاشر، وذلك لأنه تعالى إنما أخذ ميثاقهم لمصلحتهم، فصار ذلك من إنعامه عليهم.

٢. الميثاق إنما يكون بفعل الأمور التي توجب الانقياد والطاعة، والمفسرون ذكروا في تفسير الميثاق وجوهاً:

أ. أحدها: ما أودع الله العقول من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته والدلائل الدالة على صدق أنبيائه ورسله، وهذا النوع من المواثيق أقوى المواثيق والعهود لأنها لا تحتمل الخلف والتبديل بوجه ألبتة وهو قول الأصم.

ب. ثانيها: ما روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام لما رجع من عند ربه بالألواح قال لهم: إن فيها كتاب الله فقالوا: لن نأخذ بقولك حتى نرى الله جهرة فيقول: هذا كتابي فخذوه

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٣٨.

فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم، ثم قال لهم بعد ذلك: خذوا كتاب الله فأبوا فرفع فوقهم الطور وقيل لهم: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، فأخذوه فرفع الطور هو الميثاق، وذلك لأن رفع الطور آية باهرة عجيبة تبهر العقول وترد المكذب إلى التصديق والشاك إلى اليقين، فلما رأوا ذلك وعرفوا أنه من قبله تعالى علماً لموسى عليه السلام علماً مضافاً إلى سائر الآيات أقروا له بالصدق فيما جاء به وأظهروا التوبة وأعطوا العهد والميثاق أن لا يعودوا إلى ما كان منهم من عبادة العجل وأن يقوموا بالتوراة فكان هذا عهداً موثقاً جعلوه لله على أنفسهم، وهذا هو اختيار أبي مسلم.

ج. ثالثها: أن لله ميثاقين:

• فالأول: حين أخرجهم من صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم.

• الثاني: أنه ألزم الناس متابعة الأنبياء والمراد هاهنا هو هذا العهد. هذا قول ابن عباس وهو ضعيف.

٣. قال: ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ ولم يقل مواثيقكم لوجهين:

أ. أحدهما: أراد به الدلالة على أن كل واحد منهم قد أخذ ذلك كما قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي كل واحد منكم.

ب. الثاني: أنه كان شيئاً واحداً أخذ من كل واحد منهم كما أخذ على غيره، فلا جرم كان كله ميثاقاً واحداً، ولو قيل مواثيقكم لأشبه أن يكون هناك مواثيق أخذت عليهم لا ميثاق واحد.

٤. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]

٥. الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا﴾:

أ. واو عطف على تفسير ابن عباس، والمعنى أن أخذ الميثاق كان متقدماً، فلما نقضوه بالامتناع عن قبول الكتاب رفع عليهم الجبل.

ب. وأما على تفسير أبي مسلم، فليست واو عطف، ولكنها واو الحال، كما يقال: فعلت ذلك والزمان زمان فكأنه قال: وإذ أخذنا ميثاقكم عند رفعنا الطور فوقكم.

٦. اختلف في معنى الطور:

أ. قيل: كل جبل قال العجاج:

داني جناحيه من الطور فمر   تقضي البازي إذا البازي كسر

ب. وقيل: إن الطور اسم جبل معلوم، وهذا هو الأقرب، لأن لام التعريف فيه تقتضي حمله على جبل معهود عرف كونه مسمى بهذا الاسم.

٧. الجبل المعهود هو الجبل الذي وقعت المناجاة عليه، وقد يجوز أن ينقله الله تعالى إلى حيث هم، فيجعله فوقهم وإن كان بعيداً منهم لأن القادر أن يسكن الجبل في الهواء قادر أيضاً على أن يقلعه وينقله إليهم من المكان البعيد، وقال ابن عباس: أمر تعالى جبلًا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام فوقهم كالظلة، وكان المعسكر فرسخاً في فرسخ فأوحى الله إليهم أن اقبلوا التوراة وإلا رميت الجبل عليكم، فلما رأوا أن لا مهرب قبلوا التوراة بما فيها وسجدوا للفزع سجوداً يلاحظون الجبل، فلذلك سجدت اليهود على أنصاف وجوههم.

٨. من الملاحدة من أنكر إمكان وقوف الثقيل في الهواء بلا عماد، وأما الأرض فقالوا: إنما وقفت لأنها بطبعها طالبة للمركز، فلا جرم وقفت في المركز، ودليلنا على فساد قولهم أنه سبحانه قادر على كل الممكنات، ووقوف الثقيل في الهواء من الممكنات، فوجب أن يكون الله قادراً عليه، وتمام تقرير هاتين المقدمتين معلوم في كتب الأصول.

٩. سؤال وإشكال: إظلال الجبل غير جائز لأن ذلك لو وقع لكان يجري مجرى الإلجاء إلى الإيمان وهو ينافي التكليف، والجواب: لا يلجئ لأن أكثر ما فيه خوف السقوط عليهم، فإذا استمر في مكانه مدة وقد شاهدوا السموات مرفوعة فوقهم بلا عماد جاز هاهنا أن يزول عنهم الخوف فيزول الإلجاء ويبقى التكليف.

١٠. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد وعزيمة كاملة وعدول عن التغافل والتكاسل، واختلف في الترتيب بين الاستطاعة قبل الفعل:

أ. قيل: هذا يدل على أن الاستطاعة قبل الفعل لأنه لا يجوز أن يقال: خذ هذا بقوة ولا قوة حاصلة كما لا يقال: اكتب بالقلم ولا قلم.

ب. وقيل: خذوا ما آتيناكم بجد وعزيمة، والعزيمة قد تكون متقدمة على الفعل.

١١. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي احفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه.

١٢. سؤال وإشكال: هلا حملتموه على نفس الذكر؟ والجواب: لأن الذكر الذي هو ضد النسيان من فعل الله تعالى فكيف يجوز الأمر به، فأما إذا حملناه على المدارسة فلا إشكال.

١٣. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتقوا، واحتج الجبائي بذلك على أنه تعالى أراد فعل الطاعة من الكل.

١٤. المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أنهم فعلوا ذلك وإلا لم يكن ذلك أخذاً للميثاق ولا صح قوله من بعد: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فدل ذلك منهم على القبول والالتزام.

١٥. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به، قال القفال: قد يعلم في الجملة أنهم بعد قبول التوراة ورفع الطور تولوا عن التوراة بأمور كثيرة، فحرفوا التوراة وتركوا العمل بها وقتلوا الأنبياء وكفروا بهم وعصوا أمرهم ولعل فيها ما اختص به بعضهم دون بعض، ومنها ما عمله أوائلهم ومنها ما فعله متأخروهم، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلًا ونهاراً يخالفون موسى ويعترضون عليه ويلقونه بكل أذى ويجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك حتى لقد خسف ببعضهم وأحرقت النار بعضهم وعوقبوا بالطاعون، وكل هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرون بها، ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح وهموا بقتله، والقرآن وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة، فالجملة معروفة وذلك إخبار من الله تعالى عن عناد أسلافهم فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد صلع من الكتاب وجحودهم لحقه وحالهم في كتابهم ونبيهم ما ذكر والله أعلم.

١٦. في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وجهان:

أ. الأول: لولا ما تفضل الله به عليكم من إمهالكم وتأخير العذاب عنكم لكنتم من الخاسرين أي من الهالكين الذين باعوا أنفسهم نار جهنم، فدل هذا القول على أنهم إنما خرجوا عن هذا الخسران لأن الله تعالى تفضل عليهم بالإمهال حتى تابوا.

ب. الثاني: أن يكون الخبر قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، ثم قيل: ﴿فَلَوْلَا

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ رجوعاً بالكلام إلى أوله، أي لولا لطف الله بكم برفع الجبل فوقكم لدمتم لي ردكم الكتاب ولكنه تفضل عليكم ورحمكم فلطف بكم بذلك حتى تبتم.

١٧. سؤال وإشكال: كلمة ﴿فَلَوْلَا﴾ تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، وهذا يقتضي أن انتفاء الخسران من لوازم حصول فضل الله تعالى فحيث حصل الخسران وجب أن لا يحصل هناك لطف الله تعالى، وهذا يقتضي أن الله تعالى لم يفعل بالكافر شيئاً من الألطاف الدينية وذلك خلاف قول المعتزلة، والجواب: أجاب الكعبي بأنه (تعالى سوى بين الكل في الفضل لكن انتفع بعضهم دون بعض، فصح أن يقال ذلك كما يقول القائل لرجل وقد سوى بين أولاده في العطية فانتفع بعضهم: لولا أن أباك فضلك لكنت فقيراً)، وهذا الجواب ضعيف لأن أهل اللغة نصوا على أن: لولا) تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره وبعد ثبوت هذه المقدمة فكلام الكعبي ساقط جداً.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ تولى تفعل، وأصله الاعراض والأدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الاعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا.

٢. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد البرهان، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل.

٣. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فضل: مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره، لان العرب استغنت عن إظهاره، إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاؤوا بأن، فإذا جاؤوا بها لم يحذفوا الخبر، والتقدير فلولا فضل الله تدارككم. ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عطف على ﴿فَضْلِ﴾ أي لطفه وإمهاله ﴿لَكُنْتُمْ﴾ جواب ﴿فَلَوْلَا﴾ ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم.

٤. الخسران: النقصان، وقيل: فضله قبول التوبة، و ﴿رَحْمَتِهِ﴾ العفو، والفضل: الزيادة على ما وجب، والإفضال: فعل ما لم يجب، قال ابن فارس في المجمل: الفضل الزيادة والخير، والإفضال: الإحسان.

الشوكاني:



(١) تفسير القرطبي: ١/٤٣٩.

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ هو في محل نصب بعامل مقدر هو اذكروا، والمراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق، بأن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة وبما هو أعمّ من ذلك أو أخصّ.

٢. الطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة فيه؛ وقيل: هو اسم لكل جبل بالسريانية.

٣. قال ابن جرير عن بعض العلماء: لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق، قال ابن عطية: والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان، لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة.. وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه إليها كغيره، وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا أو أشد منه، والصحيح: أكرههم الله على الإيمان فآمنوا مكرهين، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عن من تكلّم بكلمة الإسلام والسيف مصلت قد هزّه حامله على رأسه، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذرا عن قتله بأنه قالها تقية ولم تكن عن قصد صحيح: أأنت فتشت عن قلبه؟)، وقال: لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس)

٤. ﴿خُذُوا﴾ أي وقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ والقوّة: الجدّ والاجتهاد، والمراد: بذكر ما فيه: من أن يكون محفوظا عندهم ليعملوا به.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أصل التولي الإدبار عن الشيء والإعراض بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا، والمراد هنا: إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد البرهان لهم، والترهيب بأشد ما يكون وأعظم ما تجوزه العقول وتقدره الأفهام، وهو رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن تداركم بلطفه ورحمته حتى أظهرتم التوبة لخسرتم، والفضل: الزيادة. قال ابن فارس في المجمل: الفضل: الزيادة والخير، والإفضال: الإحسان، والخسران: النقصان.

أَطَّفِّيش:

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١١٣.

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وُثوقكم، كالميعاد بمعنى الوعد، وأفرد الميثاق لأنَّ ما أخذ على كلِّ واحد أخذ على غيره، فكان ميثاقًا واحدًا، والمراد عهدهم بالإيمان بالتوراة كلِّها، والعمل بما فيها، أعطيتم الميثاق على ذلك ثمَّ أبيتم، وقيل: أخذ الميثاق قبل نزولها على أن يعملوا بما ينزل عليهم من الكتاب، وَلَمَّا نزلت التوراة نقضوا لِمَا فيها من المشاق.

٢. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُم﴾ حين نقضتم ﴿الطُّورَ﴾ الجبل، وكلُّ جبلٍ طورٌ، وقيل: إن كان فيه نبات، وهو عربيٌّ، أو سريانيٌّ معرَّب، وقيل: المراد جبل المناجاة، حمل إليهم، اقتلعه جبريل من أصله وحمله في الهواء، بينهم وبينه قدر قامة أحدهم، وهو فرسخ في فرسخ على قدر عسكرهم، قيل: والنار قدَّامهم والبحر المالح خلفهم، فقيل لهم: إن لم تقبلوا رضختكم به، فسجدوا للقبول على أنصاف وجوههم، ناظرين بالعين اليمنى إليه خوفًا، فكان أفضل سجود اليهود بعد ذلك ما كان على الشقِّ الأيسر والنظر باليمنى إلى جهة السماء، قائلين: ﴿خُذُواْ﴾ اِقْبَلُوا.

٣. ﴿مَآ ءَاتَيْنَاكُم﴾ وهو التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ باجتهاد، وقيل: لا يقدَّر القول هنا؛ لأنَّ الميثاق قول، ولا دليل في الآية لمن قال: الاستطاعة قبل الفعل، إذ لا يقال: خذ هذا بقوَّة إلَّا والقوَّة فيه؛ لأنَّ الاستطاعة بهذا المعنى لا تنكر صحَّة تقدُّمها على الفعل.

٤. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ تعاهدوه بالمطالعة والدرس، والتفهُّم لمعانيه والعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله أو المعاصي، وتقدَّمت أوجه (لعلَّ) في كلام الله، وقِسْ عليها في جميع القرآن.

٥. وليس رفع الجبل فوقهم إجبارًا على الدين، فلا يقال: كيف تقبل الطاعة؟ لأنَّ الإجبار ما فيه سلب الاختيار، بل الآية كمحاربة العدوِّ، إن أسلم رفع عنه السيف، وإن أخذوا زال الجبل، وَأَمَّا الإكراه في الدين ففي مخلوق لآخر، أن يحبسه حتَّى يؤمن، أو يمنع عنه الطعام حتَّى يؤمن، أو نحو ذلك لا يجوز، ولو فسِّر ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بالنهي عن القتال حتَّى يؤمر به، وَأَمَّا الله فله فعل ما شاء، قيل: ولا يقال: الإيمان بالإجبار يجزي في الأمم السابقة أو بعضها فتكون منه هذه القصَّة؛ لأنَّ هذا مِمَّا لا تختلف الشرائع فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ـ امَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ﴾ الآية [يونس: ٩٨ ـ

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٢٧.

١٠٩]، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ الآية [غافر: ٨٥]؛ قلت: الآيتان غير ما في هذه الآية؛ لأنَّ هذه الآية جاءت في القهر على الفعل، والآيتان فيمن أَغلَقَ عنه اللهُ بابَ الفعل بتوجيه الموت إليه، ووجهٌ آخر: لا يقبلُ ما عن إجبار إذا استمرَّت الكراهة، أمَّا إذا كان بعده الفعل بالاختيار فيقبل كلّ ما باختيار.

٦. فأخذوه بقوَّة ثمَّ تركوه كما قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم بعدم القبول، وأصله: الإعراض بالجسد، ﴿مِّن بَعْدِ ذَالِكَ﴾ العهدِ الذي أعطيتم وعملتم به مدَّة، أو من بعد ذلك العمل المعلوم من المقام، أو من بعد الأخذ بقوَّة، إذ لو لم يمتثلوا بل استمرُّوا على العصيان، لم يقل: ثمَّ تولَّيتم؛ وقيل: بعد رفع الطور فوقكم وإيتاء التوراة، فطوى عن ذكر امتثالهم.

٧. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ﴾ بتوفيقكم للتوبة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب باعتبار الآباء، ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالتوبة أو بقبولها، قيل: أو الخطاب للأبناء، فالفضل والرحمة بإرسال الرسول ﷺ، و(لو) لنفي تاليها، وإذا زيدت (لا) النافية ثبت ما نفي، هذا قول الكوفيِّين بتركيب (لولا) من (لَوْ) و(لَا)، والبصريُّون على أنَّها بسيطة.

٨. ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كمن ذهب رأس ماله أو بعضه، هذا عندي يعيِّن الخطاب للآباء؛ لأنَّ يهود عصر رسول الله ﷺ خاسرون، إلَّا ما شذَّ، بخلاف من تقدَّم ففيهم الخاسر والرابح.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ثم رجع إلى قصصهم على أحسن وجه فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

٢. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ تذكيرا لجناية أخرى لأسلافهم، أي واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ ترهيبا لكم لتقبلوا الميثاق، وذلك أن الطور اقتلع من أصله، ورفع وظلل فوقهم، والطور هو الجبل، وقيل لهم وهو مطلّ فوقهم.

٣. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد واجتهاد، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما

---

(١) تفسير القاسمي: ١/٣٢٢.

في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه.

٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو رجاء منكم أن تنتظموا في سلك المتقين، أو طلبا لذلك.

٥. هذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

٦. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي لكم بتوفيقكم للتوبة، أو تأخير العذاب، ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الهالكين بالعقوبة.

٧. قال الراغب: إن قيل إن هذا يكون إلجاء ولا يستحق به الثواب، قيل: لم يستحقوا الثواب بالالتزام وإنما استحقوه بالعمل بها من بعد، فأما في التزامها فمضطرون، وقال بعض الناس: عنى بالطور تشديد الأمر عليهم، وجعل ذلك مثلا، وذلك بعيد، ومثله قول القاشانيّ: طور الدماغ للتمكن من فهم المعاني وقبولها، فإنه بعيد يأباه ظاهر الآية الأخرى، وإن كان الإطلاق في اللغة لا ينحصر في الحقيقة.

٨. قال الراغب: الخاسر المطلق، في القرآن، هو الذي خسر أعظم ما يقتني، وذلك نعيم الأبد، وهو المذكور في قوله ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥]

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. أطمع الله تعالى بالآية السابقة بنى اسرائيل في رحمته بعد ما قرعهم بالنذر التي تكاد توقع اليأس في قلوبهم، وبين لهم ولسائر الناس أن المنفذ إلى هذا الطمع بل الباب الذي يؤدى إلى هذا الرجاء هو الجمع بين الأمرين اللذين بعث لتقريرهما الأنبياء عليهم السّلام وهما الإيمان الصحيح اليقيني والعمل الصالح، وإشراك غير بنى اسرائيل في هذا الحكم لا يقضى بانتهاء السياق، بل لا يزال الكلام في بنى اسرائيل، ولذلك عقب الاطماع بالتذكير ببعض الوقائع التي استحقوا فيها العقوبة فحالت دون وقوعها الرحمة فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الذي أخذه عليهم.

---

(١) تفسير المنار: ١/٣٤٠.

٢. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ ذكر المفسرون فيه قصة وهي: أن الله ـ تعالى ـ ظلل بني إسرائيل بالطور، وهو الجبل المعروف وخوفهم برفعه فوقهم؛ ليذعنوا ويؤمنوا، ثم اعترض عليه بعضهم بأنه إكراه على الإيمان وإلجاء إليه، وذلك ينافي التكليف، وأجيب بأجوبة:

أ. منها: أن ما يفعل بالإكراه يعود اختياريا بعد زوال ما به الإكراه.

ب. ومنها: أن مثل هذا الإلجاء والإكراه كان جائزا في الأمم السابقة، ويزيد من قال هذا: أن نفي الإكراه في الدين الخاص بالإسلام لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

٣. لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح، فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات، وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان، وإنما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم، فقد قال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والنتق: الزعزعة والهز والجذب والنفض، ونتق الشيء ينتقه وينتقه ـ من بابي ضرب ونصر ـ نتقا، جذبه واقتلعه، وقد يكون ذلك في الآية بضرب من الزلزال، كما يدل عليه التعبير بالنتق وهو في الأصل بمعنى الزعزعة، والنفض.

٤. المفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسى عليه، فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم، من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق، كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد؛ لأن رؤية الآيات تقوي الإيمان، وتحرك الشعور والوجدان؛ ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط، لا يلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وهن ولا وهم.

٥. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي بالمحافظة على العمل به؛ فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا في النفس مستقرا عندها، ويؤثر عن أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: يهتف العلم بالعمل. فإن أجابه وإلا ارتحل. وذلك أن العلم إنما يحضر في النفس مجملا غير سالم من إبهام وغموض، فإذا برز للوجود بالعمل صار تفصيليا جليا، ثم ينقلب النظري منه بالتكرار والمواظبة بديهيا ضروريا، وبذلك يثبت فلا

ينسى، وأما النسيان فإنه حليف الكفر، وإنه ليصل بالإنسان إلى حد يساوي فيه من لم تسبق له معرفة بالشيء قط؛ لأنه لا أثر له في النفس ولا في الظاهر. ولا فرق بين من بلغته دعوة الهداية فسلم بها وقبلها ثم ترك العمل بها حتى نسيها، وبين من لم تبلغه ألبتة، ومن بلغته على وجه غير مقنع، فلم يؤمن إلا بها تكون الحجة به على الأول أظهر، وكونه بالمؤاخذة أجدر، والثاني معذور عند الجماهير، وكذلك الثالث إذا استمر على النظر من غير تقصير، فعلى هذا تكون منزلة الناسي هي التي تلي منزلة الجاحد المعاند، وهو خليق بأن يحشر يوم القيامة أعمى عن طريق النجاة والسعادة، حتى إذا لقي ربه ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾

٦. في هذا الحجة على قراء القرآن، الذين ليس لهم منه إلا التغني بألفاظه وأفئدتهم هواء لا أثر فيها للقرآن، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به القرآن، وهذا شر نوعي النسيان، وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثل: عبيد أقطعهم سيدهم بستانا وكلفهم إصلاحه وعمارته، وكتب لهم كتابا يبين لهم فيه كيف يسيرون في هذا الإصلاح، وكيف تكون حياتهم فيه، ووعدهم على الإحسان بمكافأة وأجر فوق ما يستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته، وتوعدهم على الإساءة في العمل بالعقوبة الشديدة وراء ما يفوتهم من خيرات البستان، وما يذوقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم، فكان حظهم من الكتاب تعظيم رقه وورقه، والتغني بلفظه، وتكرار تلاوته، بدون مبالاة بالأمر والنهي ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين فأهلكوا الحرث والنسل، فهل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم، وقاطع لألسنة العذر منهم!؟ أمرهم بالذكر الذي يثبت بالعمل، ووصله بذكر فائدته وهي إعداده النفس لتقوى الله ـ عز وجل ـ، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فإن المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب تطبع في النفس ملكة مراقبة الله ـ تعالى ـ فتكون بها نقية تقية، راضية مرضية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ذكر سبحانه في هاتين الآيتين جناية أخرى حدثت من أسلاف المخاطبين وقت التنزيل، ذاك أنه بعد أن أخذ الله عليهم المواثيق التي ذكرها بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ

(١) تفسير المراغي: ١/١٣٦.

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فقبلوها وأراهم من الآيات ما فيه مقنع لهم، رفع الجبل فوقهم كالظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم، وطلب إليهم التمسك بالكتاب والعمل بما فيه بالجدّ والنشاط، كي يعدّوا أنفسهم لتقوى الله ورضوانه، ثم كان منهم أن أعرضوا عن ذلك وانصرفوا عن طاعته، ولولا لطف الله بهم لاستحقوا العقاب في الدنيا وخسروا سعادة الآخرة وهي خير ثوابا وخير أملا، لكن وفّقهم الله بعد ذلك فتابوا ورحمهم فقبل توبتهم.

٢. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل رفت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما في التوراة وقبولهم ذلك.

٣. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ وكانت هذه الآية بعد أخذ الميثاق لكي يأخذوا ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد، لأن رؤية ذلك مما يقوّى الإيمان ويحرّك الشعور والوجدان ثمّ بين الميثاق فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي وقلنا لهم خذوا الكتاب وهو التوراة بجدّ وعزيمة، ومواظبة على العمل بما فيه.

٤. الطور: هو الجبل المعروف الذي ناجى فيه الله موسى عليه السلام، ورفعه قد فسره في سورة الأعراف فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ والنتق: الهزّ والزعزعة والجذب، فالنتق: في الجبل كان بما يشبه الزلزال فيه، والخسران: ذهاب رأس المال أو نقصه.

٥. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي وادّارسوه ولا تنسوا تدبر معانيه واعملوا بما فيه من الأحكام فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا في النفس مستقرا عندها، كما أثر عن على أنه قال يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل، فحال التارك للشريعة المضيع لأحكامها أشبه بحال الجاحد المعاند لها، وهو جدير بأن يحشره الله يوم القيامة أعمى عن طريق الفلاح والسعادة حتى إذا لقى ربه ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ فالجاحد للشريعة والناسي لها المضيع لأحكامها، لا يكون لها أثر في نفوسهما لا ظاهرا ولا باطنا.

٦. هذا يدل على أن الحجة قائمة على من ليس لهم حظ من القرآن إلا التغنّى بألفاظه وأفئدتهم هواء من عظاته، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به، فما المقصد من الكتب الإلهية إلا العمل بما فيها لا تلاوتها باللسان وترتيلها بالأنغام، فإن ذلك نبذلها، قال الغزالي: وما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتابا إلى أحد أمرائه، وأمره أن يبنى له قصرا في ناحية من مملكته، فلم يكن حظ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن

يبنى القصر، أفلا يستحق هذا الأمير بعدئذ العقاب من الملك الذي أرسل به إليه؟.

٧. ثم ذكر لهم فائدة ذكره فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي ليعدّ نفوسكم لتقوى الله عزّ وجل: ذاك أن المواظبة على العمل تطبع في النفس سجيّة المراقبة لله، وبها تصير تقية نقية من أدران الرذائل راضية مرضية عند ربها ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ .

٨. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة بعد أن أخذ عليكم الميثاق وأراكم من الآيات ما فيه عبرة لمن ادّكر.

٩. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي فلولا لطف الله بكم وإمهاله إياكم إذ لم يعاملكم بما تستحقون، لكنتم من الهالكين بالانهماك في المعاصي.

١٠. الخلاصة ـ إنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن فضل الله عليكم ورحمته أبعده عنكم، ولولا ذلك لخسرتم سعادتي الدنيا والآخرة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. يمضي السياق يستعرض مواقف بني إسرائيل في مواجهة يهود المدينة بمسمع من المسلمين.. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

٢. تفصيل هذا الميثاق وارد في سور أخرى، وبعضه ورد في هذه السورة فيما بعد، والمهم هنا هو استحضار المشهد، والتناسق النفسي والتعبيري بين قوة رفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة، وأن يعزموا فيه عزيمة.

٣. أمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة.. إنه عهد الله مع المؤمنين.. وهو جد وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق.. وله تكاليف شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعته. إنه أمر عظيم، أعظم من كل ما في هذا الوجود، فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف، ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر

(١) في ظلال القرآن: ١/٧٧.

أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله ﷺ وقد نودي للتكليف: مضى عهد النوم يا خديجة).. وكما قال له ربه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ .. وكما قال لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾

٤. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لا بد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم.. لا بد مع هذا من تذكر ما فيه، واستشعار حقيقته، والتكيف بهذه الحقيقة، كيلا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية وقوة، فعهد الله منهج حياة، منهج يستقر في القلب تصورا وشعورا، ويستقر في الحياة وضعا ونظاما، ويستقر في السلوك أدبا وخلقا، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. نعم ما أعظمها، وما أولاها بالتلقي بالشكر والولاء للمنعم.. ولكن أنّى للعمى أن يبصروا، وللصمّ أن يسمعوا؟ طلبوا إلى موسى آية يرون الله فيها، فجاءتهم الآية منذرة مفزعة.. رأوا الجبل الذي بين أيديهم يتحول إلى سقف مرفوع فوق رؤوسهم، لا يمسكه شيء وظنوا أنه واقع عليهم، ففزعوا إلى موسى يطلبون الخلاص والرجوع إلى الله، وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾

٢. في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ دعوة مجدّدة، بعد هذه الآية المجدّدة، إلى أن يقبلوا على الله، وأن يشدّوا قلوبهم إلى الكتاب الذي أنزل إليهم، وأن يذكروا ما فيه، فلعلّ ذلك يحيد بهم عن طريق الضلال الهائمين فيه، ويقيمهم على طريق الهدى الذي طالت غربتهم عنه.

٣. (لعل) هنا الدالة على الترجّي، إنما يتوجه بها إلى المخاطبين، وإلى ما عندهم من استعداد لهذا الخطاب، فهم على رجاء من القبول، أو التوقف، أو النكوص على الأعقاب.. وهكذا كل صيغة رجاء واردة في القرآن الكريم، إنما هي للمخاطبين ولموقفهم من فحوى ما خوطبوا به؛ وليس لهذا الترجّي متوجّه إلى الله، الذي يرجى ولا يرجو.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١/٩٤.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تذكير بقصة أخرى أرى الله تعالى أسلافهم فيها بطشه ورحمته فلم يرتدعوا ولم يشكروا وهي أن أخذ الميثاق عليهم بواسطة موسى عليه السلام أن يعملوا بالشريعة وذلك حينما تجلى الله لموسى عليه السلام في الطور تجليا خاصا للجبل فتزعزع الجبل وتزلزل وارتجف وأحاط به دخان وضباب ورعود وبرق كما ورد في صفة ذلك في الفصل التاسع عشر من سفر الخروج وفي الفصل الخامس من سفر التثنية فلعل الجبل من شدة الزلازل وما ظهر حوله من الأسحبة والدخان والرعود صار يلوح كأنه سحابة، ولذلك وصف في آية الأعراف [١٧١] بقوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ (نتقه: زعزعه ونقضه) حتى يخيل إليهم أنه يهتز وهذا نظير قولهم استطاره إذا أزعجه فاضطرب فأعطوا العهد وامتثلوا لجميع ما أمرهم الله تعالى وقالوا: كل ما تكلم الله به نفعله فقال الله لموسى فليؤمنوا بك إلى الأبد)، ليس في كتب بني إسرائيل ولا في الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن الله قلع الطور من موضعه ورفعه فوقهم، وإنما ورد ذلك في أخبار ضعاف فلذلك لم نعتمده في التفسير.

٢. الميثاق في هاته الآية كالعهد في الآيات المتقدمة مراد به الشريعة، ووعدهم بالعمل بها وقد سمته كتبهم عهدا، وهو إلى الآن كذلك في كتبهم، وهذه معجزة علمية لرسولنا ﷺ.

٣. الطّور علم على جبل ببرية سينا، ويقال إن الطور اسم جنس للجبال في لغة الكنعانيين نقل إلى العربية وأنشدوا قول العجاج:

دانى جناحيه من الطور فمر   تقضّي البازي إذا البازي كسر

فإذا صح ذلك فإطلاقه على هذا الجبل علم بالغلبة في العبرية لأنهم وجدوا الكنعانيين يذكرونه فيقولون الطور يعنون الجبل كلمة لم يسبق لهم أن عرفوها فحسبوها علما له فسموه الطور.

٤. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ مقول قول، محذوف تقديره قائلين لهم خذوا، وذلك هو الذي أخذ الميثاق عليه، والأخذ مجاز عن التلقي والتفهم، والقوة مجاز في الإيعاء وإتقان التلقي والعزيمة على العمل

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٥٢٥.

به كقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]

٥. يجوز أن يكون الذكر مجازا عن الامتثال أي اذكروه عند عزمكم على الأعمال حتى تكون أعمالكم جارية على وفق ما فيه، أو المراد بالذكر التفهم بدليل حرف (في) المؤذن بالظرفية المجازية أي استنباط الفروع من الأصول.

٦. المراد بما آتاهم ما أوحاه إلى موسى وهو الكلمات العشر التي هي قواعد شريعة التوراة.

٧. جملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ علة للأمر بقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ ولذلك فصلت بدون عطف.

٨. الرجاء الذي يقتضيه حرف (لعل) مستعمل في معنى تقريب سبب التقوى بحضهم على الأخذ بقوة، وتعهد التذكر لما فيه، فذلك التقريب والتبيين شبيه برجاء الراجي، ويجوز أن يكون (لعل) قرينة استعارة تمثيل شأن الله حين هيأ لهم أسباب الهداية بحال الراجي تقواهم وعلى هذا محمل موارد كلمة (لعل) في الكلام المسند إلى الله تعالى.

٩. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى عبادتهم العجل في مدة مناجاة موسى وأن الله تاب عليهم بفضله ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين الهالكين في الدنيا أو فيها وفي الآخرة.

١٠. لا حاجة إلى الخوض في مسألة التكليف الإلجائي ومنافاة الإلجاء للتكليف وهي مسألة تكليف الملجأ، المذكورة في الأصول لأنها بنيت هنا على أطلال الأخبار المروية في قلع الطور ورفعه فوقهم، وقول موسى لهم: إما أن تؤمنوا أو يقع عليكم الطور، على أنه لو صحت تلك الأخبار لما كان من الإلجاء في شيء إذ ليس نصب الآيات والمعجزات والتخويف من الإلجاء، وإنما هو دلالة وبرهان على صدق الرسول وصحة ما جاء به والممتنع في التكليف هو التكليف في حالة الإلجاء لا التخويف لإتمام التكليف، فلا تغفلوا.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي(١):

١. عاد القول إلى بنى إسرائيل بعد أن ذكر اليهود والنصارى والصابئين، لبيان أنه لا يصح أن

---

(١) زهرة التفاسير: ١/٢٥٨.

ييأسوا من رحمة الله تعالى بعد ما كان منهم في ماضيهم، وما يكون منهم في حاضرهم إن آمنوا بالله حق إيمانه، وبالآخرة إيمان إذعان ورجاء إن أطاعوا، وخوف العقاب إن عصوا.

٢. بين الله تعالى حال اليهود في ماضيهم ويتحمله الذين حضروا النبيّ ﷺ، لأنهم أقروهم عليه فكان الخطاب بما حصل من أسلافهم موجها أيضا لأخلافهم.

٣. الطور هو الجبل الذي هو في سيناء، فهو جبل معين ذكره الله تعالى في عدة آيات، وهو منسوب إلى سيناء كما قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾

٤. أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل، والميثاق مفعال من الوثوق أي وثّقنا القول والأوامر التي أمر الله بها ونهى فيها، وبين لهم عظمة قدرته وقوة عظمته، وترهيبا لأمره بعد ترغيبهم فيه، وفى هذا الرفع آية حسية تدل على رسالة موسى عليه السلام، وأنه يتلقى أوامره من ربه، إذ كانوا قد طلبوا رؤية ربهم فخروا صعقين، فهذا ربهم يخاطبهم بآية، ورفع الجبل هذا هو ما قاله الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾

٥. ذكر سبحانه وتعالى مضمون الميثاق إجمالا، فقال خذوا ما آتيناكم بقوة، أي بجد وإتقان، وتعرف، وعناية، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي اجعلوه في ذاكرتكم دائما لا تغفلون عنه، ولا تهملونه، واجعلوه حاضرا دائما في قلوبكم لتعملوا به، ويكون في وعيكم دائما، ولقد ذكر بعض ما في هذا الميثاق بالتفصيل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَّ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

٦. هذا هو بعض التفصيل لهذا الميثاق المحكم الذي واثقه الله عليهم مؤكدا ذلك التوثيق برفع الجبل فوقهم كأنه ظلة يظلهم، وطالبهم بأن يأخذوا ما آتاهم الله تعالى من تكليفات، بقوة، أي بيقين وجزم وتصديق وإذعان، وأن يقرن ذلك بالعمل، فلا تأخذونه بيد، وتردونه باليد الأخرى، واذكروا ما فيه، أي اجعلوه دائما في وعيكم وذاكرتكم وقلوبكم، ولا تنسوه.

٧. ذكر الشريعة وأحكامها هو أساس تنفيذها، وإن المسلمين اليوم قد عراهم ما أصاب في ماضيهم، يحفظون القرآن ولا يعونه، ويرددون حروفه، ولا يتدبرونه، ولقد روى مالك في موطئه عن ابن مسعود أنه قال: سيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع

حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطى يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة يبدّون فيه أهواءهم قبل أعمالهم)، أي يتبعون أهواءهم ويتركون ما افترض عليهم.

٨. كانت هذه الأوامر التي واثقهم الله تعالى عليها، وأمرهم أن يذكروها دائما لأجل أن يتقوا الله تعالى أي يجعلونها وقاية لهم من ذنوبهم، أو رجاء أن تمتلئ بتقوى الله تعالى قلوبهم، وتغلب عليهم مخافة ربهم فلا يعصوه، ويبادروا إلى طاعته، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي ترجون التقوى والخوف منه.

٩. كان هذا الميثاق الذي وثقه تعالى بأمر حسى، لأنهم لا يعتبرون إلا بالمحسوسات مؤديا إلى أن يتقوه سبحانه، بل إنهم تلقوا أمرا موثقا ذلك التوثيق، مؤكدا ذلك التوكيد.

١٠. لكنهم كعادتهم في استهانتهم بأمر الله ونهيه نسوه وتولوا عنه معرضين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التولي هو الإعراض، وأصله الإدبار، وأن يجعل جسمه موليا وجه من يطالبه بقول أو عمل، والمعنى أنهم أعرضوا إعراضا شديدا واضحا، كمن يعرض عن القول بتولية جسمه، واتجاهه في اتجاه غير اتجاه من يواجهه بالقول، ومعنى ذلك أنهم جعلوا الله وميثاقه وراءهم، ودبر آذانهم.

١١. التعبير هنا بـ (ثم) التي تدل على التراخي للإشارة إلى البعد عن الميثاق وموجبه، وعملهم المناقض لأمر الله تعالى، والإشارة فيها بالبعيد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ لبيان بعد عملهم، عن الميثاق الذي أمرهم سبحانه وتعالى أن يأخذوه بقوة، وأن يذكروه دائما وأن يكون في وعيهم في كل أحوالهم.

١٢. ذلك التولي كان بالإعراض عما جاء في التوراة أو الألواح العشرة التي أخذوها بقوة، وطولبوا بذكرها دائما ليمكنهم أن يعملوا بها، وقد قال القفال الشاسي بعض ما تولوا به عن التوراة فقال: وإنهم بعد قبول التوراة، ورفع الطور تولوا عن التوراة بأمور كثيرة فحرفوا كلمها عن مواضعه، وتركوا العمل بها، وقتلوا الأنبياء، بعد أن كفروا بهم، وعصوا أمرهم، ومنه ما عمله أوائلهم، ومنه ما فعله متأخروهم، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم لأعاجيب البلاء يخالفون موسى ويعترضون عليه، ويلقونه بكل أذى، ويجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك، حتى لقد خسف ببعضهم وأحرقت النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون، ثم نقل متأخروهم ما لا خفاء فيه، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح وهموا

بقتله.

١٣. هذه كلمات صورت توليهم عن الحق، واستدباره في عامة أمورهم، وكان منهم في عهد موسى وهو يكلمهم عن الله، ويتولى تربيتهم وبث روح الإيمان في قلوبهم التي قست وكانوا صورة واضحة للناس الذين تغلب عليهم شقوتهم.

١٤. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الفاء فاء الإفصاح التي تفصح عن شرط مقدر أي إذا كان ذلك كله منكم بعد ذلك التوثيق لأمر الله تعالى ونهيه، وأمركم أن تأخذوه فإنه كان ينزل بكم الخسران المبين والعذاب المهين، ولكن لولا فضل الله عليكم ورحمته.

١٥. ﴿لَوْلَا﴾ هنا هي التي يقال فيها أنها حرف امتناع وجود أي حرف امتناع الجواب لوجود الشرط، والمعنى أنكم كنتم تستحقون بذلك عذاب الهون، ولولا فضل الله أي إرادته أن يزيد خيره عليكم تمكينا لكم من فعل الخير بإمهالكم لكنتم من الخاسرين، ولقد قال الراغب في تفسيره: الخاسر المطلق هو الذي خسر أعظم ما يقتنى، وهو نعيم الأبد.

١٦. الخاسرون: هم الذين خسروا أنفسهم، بأن أوقعوها في الهلكة والعذاب.

١٧. النص القرآني يفيد أن الله بفضله ورحمته أعطاهم مهلة ليتداركوا أمرهم، ولم يكتبهم من الخاسرين.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ . أي أخذنا الميثاق من أسلافكم أن يعملوا بالتوراة، ولما نقضوه رفع الله الجبل فوقهم، وقال: اعملوا بما فيها، وإلا أسقطت هذا الجبل عليكم، فأذعنوا وتابوا، فاستقر الجبل في مكانه، ولكنهم عادوا الى التمرد والعصيان.

٢. إذا كان هذا شأن اليهود في عهد الكليم عليه السلام، وقد شاهدوا عيانا ما شاهدوا من الخوارق، ولا حجة أقوى وأبلغ من العيان، فلا عجب ـ اذن ـ من يهود المدينة إذا أنكروا نبوة محمد ﷺ، ونقضوا العهد والميثاق المبرم بينه وبينهم.

---

(١) التفسير الكاشف: ١/١٢٠.

٣. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي لولا لطف الله وتفضله بإمهاله لكم لحل بكم العذاب في الدنيا قبل الآخرة، قال الملا صدرا: ان هذه الآية من أرجا الآيات، وأقواها دلالة على رحمته وتجاوزه عن سيئات عباده العاصين، لأن قوله: فلولا فضل الله عليكم بعد ان عدد قبائحهم من عبادة العجل، وكفران النعيم، وجحود الأنبياء وقتلهم، ونقض الميثاق المؤكد، وغير ذلك يدل على كمال رأفته وعفوه)

٤. بعد أن رفع الله تعالى عنهم عذاب الجبل حرفوا التوراة، وجاهروا بالمعاصي، وخالفوا موسى، ولقي منهم كل أذى، وكان الله سبحانه يجازيهم في الدنيا، ليعتبروا، حتى انه خسف الأرض ببعضهم، وأحرق بالنار آخرين، وعوقبوا بالطاعون.. كل هذا، وغير هذا منصوص عليه في توراتهم التي يقرون بها، والتي هي الآن في متناول كل طالب وراغب.. ثم فعل الخلف ما فعل السلف من الجرائم، فكفروا السيد المسيح عليه السلام، وصمموا على قتله.. فغير عجيب انكارهم ما جاء به محمد ﷺ، وجحودهم لحقه.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، الطور هو الجبل كما بدله منه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، والنتق هو الجذب والاقتلاع، وسياق الآية حيث ذكر أخذ الميثاق أولا، والأمر بأخذ ما أوتوا، وذكر ما فيه أخيرا، ووضع رفع الطور فوقهم بين الأمرين مع السكوت عن سبب الرفع وغايتها يدل على أنه كان لإرهابهم بعظمة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما أوتوه وإلا لم يكن لأخذ الميثاق وجه.

٢. سؤال وإشكال: ربما ربما يقال: إن رفع الجبل فوقهم لو كان على ظاهره كان آية معجزة وأوجب إجبارهم وإكراههم على العمل، والجواب: قد قال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، والآية لا تدل على أزيد من الإخافة والإرهاب ولو كان مجرد رفع الجبل فوق بني إسرائيل إكراها لهم على الإيمان أو العمل، لكان أغلب معجزات موسى موجبة للإكراه.

٣. القول بأن بني إسرائيل كانوا في أصل الجبل فزلزل وزعزع حتى أظل رأسه عليهم، فظنوا أنه واقع بهم فعبر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم، مبني على أصل إنكار المعجزات وخوارق العادات، ولو

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/١٩٨.

جاز أمثال هذه التأويلات لم يبق للكلام ظهور، ولا لبلاغة الكلام وفصاحته أصل تتكي عليه وتقوم به.

٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . لعل كلمة ترج، واللازم في الترجي صحته في الكلام سواء كان قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بالمقام، كأن يكون المقام مقام رجاء وإن لم يكن للمتكلم والمخاطب رجاء فيه وهو لا يخلو عن شوب جهل بعاقبة الأمر، فالرجاء في كلامه تعالى إما بملاحظة المخاطب أو بملاحظة المقام، وأما هو تعالى فيستحيل نسبة الرجاء إليه لعلمه بعواقب الأمور، كما نبه عليه الراغب في مفرداته.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على أخذ التوراة وما آتاهم الله على لسان موسى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي الجبل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] وذلك ليمتثلوا أمر الله تعالى بقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بعزم صادق قوي وصبر.

٢. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الوعد والوعيد والهدى لمن اهتدى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ربكم وتتقون عذابه الذي لا بد منه إن خالفتم ونكثتم.

٣. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الميثاق والآية العظمى والنعمة الكبرى بالتعريض على الهدى.

٤. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بهدايته لكم إلى التوبة والرجوع إلى العمل بالميثاق ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أهل النار الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[2]:

١. في هذه الآيات، عودة إلى بني إسرائيل ليذكّرهم الله بالوضع القلق الذي كانوا يعيشونه تجاه التزامات العقيدة الإيمانية والعملية، فقد أخذ الله ميثاقهم بعد إنزال التوراة، وطلب منهم أن يتحملوا مسئولية الوحي الذي أنزل عليهم، وأن يأخذوه بقوة في الالتزام به وفي الدعوة إليه، وأن يتذكروا ما فيه فلا ينسوه مهما كانت الأوضاع، لأن ذلك هو السبيل للحصول على ملكة التقوى التي تتيح لهم الانضباط

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١٢٧.

(٢) من وحي القرآن: ٢/٧٧.

أمام الله فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه، ولكنهم أعرضوا بعد ذلك، فلم يلتزموا بالميثاق.

٢. ربما كان هذا الخط المنحرف معرّضا للامتداد في حياتهم فيؤدي بهم إلى الخسران في الدنيا والآخرة، ولكنّ فضل الله عليهم ورحمته بهم، أنقذاهم في آخر لحظة، فرجعوا وتابوا إلى الله.

٣. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ في توحيد الله والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، واجتناب سفك الدماء، والانفتاح على الأنبياء جميعا، واتباعهم، والالتزام بكتبهم وبرسالاتهم، والابتعاد عن تشريد الناس من ديارهم والعمل في سبيل الله.. وغير ذلك من الأمور التي جاءت بها التوراة في خط العقيدة والشريعة، وانطلقت بها كتب الله في الماضي والحاضر والمستقبل.

٤. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي الجبل الذي انتصب فوقكم، حتى خيّل إليكم أنه سوف يقع فوق رؤوسكم تخويفا وإرهابا، لتبتعدوا عن التمرد الذي تحركتم فيه في أجواء العناد، بعد قيام الحجة عليكم، مما جعل الموقف بحاجة إلى معجزة خارقة تقف بكم في خط الاستقامة لتؤمنوا بالتوراة وتلتزموا بها، ولا تنقضوا الميثاق بعد أن كنتم سائرين في هذا الاتجاه.

٥. المسألة لم تكن إكراها على العقيدة ـ كما أثاره البعض ـ لتكون قضية الإيمان بعيدة عن دائرة الحرية الفكرية والاختيار الإرادي مما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وفي قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، والوجه في ذلك، أن العقيدة كانت ثابتة بأدلتها وبراهينها التي قدمها لهم موسى عليه السّلام منذ بداية صراعه مع فرعون إلى نهاية تلك المرحلة وبداية مرحلة الدخول في تفاصيل الشريعة والميثاق الذي يمثل الجانب العملي للإيمان، وكانت الحاجة ماسّة إلى صدمة قوية تدفعهم بعيدا عن حالة التمرّد التي كانت تمثل التحدّي العدواني، والسلوك الطفولي في مواجهة موسى عليه السّلام، ليشعروا بأن هناك خطرا يتهددهم بالمستوى الذي لا يملكون فيه مواجهته، وهذا هو إيحاء هذه الفقرة من هذه الآية ومن الآية الواردة في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]

٦. روى العياشي في تفسيره أنه سئل الإمام جعفر الصادق عليه السّلام عن قول الله عز وجل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أبقوّة الأبدان أم بقوة القلوب؟ فقال: بهما جميعا.. أمّا طبيعة هذه القوة فهي

العزيمة والجد واليقين الذي لا شك فيه. أمّا الطّور، فهو الجبل الذي رفعه الله فوقهم لإرهابهم بعظمة القدرة، كما ورد في الميزان.

٧. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ من خلال مسئوليتكم الرسالية التي حمّلكم الله أمانتها التي لا بد من أن تؤدّوها للناس بقوة في دعوتكم إياهم للإيمان بها والسير عليها، وللجيل الذي يأتي من بعدكم في تقوية الموقع الفكري والعملي الذي يتحول إلى قاعدة فكرية وعملية يرتكز عليها المستقبل الإنساني في حركته في الحياة، وهذا يفرض عليكم تحريك قوتكم الذاتية، وتنمية عناصرها، وتقويتها، وتطويرها في هذا الاتجاه، ولا سيما أن الرسالة لا بد من أن تدخل ساحة الصراع مع التيارات الأخرى المضادة؛ الأمر الذي قد يحتاج إلى المزيد من الطاقات المتحركة في ساحة المواجهة.

٨. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من المفاهيم العقيدية والأخلاقية والشرائع العملية، واحفظوه ولا تنسوه، وتدبروا معانيه، ليكون ذلك كله حضورا لكم في وعيكم وفي الواقع ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لأنه يرسم لكم الخط المستقيم الذي يفتح لكم أبواب التقوى في الالتزام التوحيدي الذي يتحرك بكم في خط الاستقامة في جميع المجالات.

٩. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، ونبذتم العهد وراء ظهوركم، وأعرضتم عن كل التزاماته ومعطياته.

١٠. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بالتوفيق للتوبة من خلال تهيئة الظروف الملائمة للوعي الروحي الذي جعلكم تواجهون الموضوع بالمزيد من الإحساس بالمسؤولية من خلال ما ينتظركم من النتائج، فرجعتم إليه وسلكتم خط الاستقامة، فتاب عليكم وعفا عنكم، ولولا ذلك ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي (ت ١٤٥٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. كانت الآية السابقة فيضا من أنس اللطف الإلهي يغشى بالطمأنينة نفوسا زعزعها ما تقدم من قوارع الإنكار والوعيد، وتبيانا لسببي النجاة من الهلكة، والعصمة من العذاب وهما الإيمان الراسخ في

(١) تفسير الخليلي: ٣/٣٥٣.

النفس، وما يترجمه من العمل الصالح وليس في ذلك انقطاع عن الحديث الخاص ببني إسرائيل وتأنيبهم على ما اختاروه من الضلال وكفران النعم التي عُدِّدت في هذا السياق؛ وإن ذكر معهم من ذُكر من أصحاب الديانات الأخرى؛ ومن هنا أخذت الآيات تواصل عرض مساوئهم جامعة بين تهديدهم والامتنان عليهم بالأنعم التي كفروها فانقلبت عليهم نقمة ووبالا.

٢. في هاتين الآيتين إيماء إلى قصة ذكرت في سورة الأعراف بعبارة أوضح وبيان أوسع وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، كما أُشير إليها مرة أخرى في هذه السورة في الآية ٩٣، وفيها ما يدل على أنهم وصلوا في التعنت وقسوة القلوب وانطماس البصائر إلى حد لا يكاد يُرجى معه انثناؤهم إلى الهدى.

٣. عُني المفسرون بشرح هذه القصة وبيان أسبابها، وهم متفقون ـ إلا من شذ من المتأخرين ـ أن الله اقتلع الطور من الأرض ورفعه فوق رؤوس بني إسرائيل تهديدا لهم حتى يذعنوا لما طُلب منهم، واختلفوا في سبب هذه الحادثة.. ولم أجد أحدا من القدامى ينكر اقتلاع الجبل ورفعه أعلى الرؤوس كالسحاب، وهو بهذا آية كونية خارقة للمألوف عند الناس من أحوال الكون، ووافقهم على ذلك محمد عبده مع ما عهد منه من تفسير الآيات الكونية بما يقرب من المألوف.

٤. ذكر السيد رشيد رضا أن هذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق إلا أنه جوز أن يكون المراد بالرفع علو الجبل مع رسوخه في الأرض، لأن كل عال يوصف بأنه مرفوع ومرتفع ولو كان متصلا بالأرض، نحو ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾، ﴿سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾، وذكر أن النتق المذكور في سورة الأعراف ليس نصا في كونه رُفع في الهواء، لأنه لغة الزعزعة والزلزلة، ثم قال: وإذ صح هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذبا للقرآن)

٥. يؤيد قول الجمهور تشبيه الجبل بالظلة، وهي السحابة سميت بذلك لإظلالها من تحتها، فإن هذا التشبيه لا يتفق مع بقاء الجبل مكانه مستقرا في الأرض كما يؤيده أن الرفع لو أُريد به ما ذكر من علو الجبل لم تكن فائدة من ذكره في هذا السياق، فإن الجبل بحالته الطبيعية ليس مرفوعا في هذه الحالة فحسب ولا على بني إسرائيل فقط، بل ارتفاعه منذ خلق وفوق كل من يأتي تحته، وما ذكر من ظنهم وقوعه بهم بنفي كل لبس في المعنى ويجتث كل شبهة في التأويل لأن الوقوع لغة هو السقوط، والسقوط المخشي إنما

هو سقوط ما كان بالجهة العلوية لا بالجهة المحاذية، ومن ناحية أخرى فإن الجبل مع بقائه على حاله متمكن في الأرض بقراره فيها فلا معنى لظنهم - مع ذلك - أنه واقع بهم.. والنتق يطلق على الرفع بالجذب الشديد الذي تكون معه زعزعة كنتق الغرب.

٦. أخذ الميثاق هو تكليفهم بمضمون التوراة، وقيل: هو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ والآية التي بعدها والصحيح الأول بدلالة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ عليه.

٧. كثير من أهل العلم تصوروا إشكالا في القصة حاصله أن فيها ذكر إكراها على قبول التكليف، والأصل في التكليف أن يكون المكلف على حالة يتمكن فيها من القبول والرفض، فإن قبل سعد، وإن رفض شقي، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، واختلفوا في الإجابة على هذا الإشكال الذي تصوروه:

أ. منهم من قال إن الله خلق في نفوس بني إسرائيل - والجبل مظل فوقهم - الاختيار فاختاروا القبول.

ب. ومنهم من قال إن هذه الحالة لا تعد إكراها إذ لو ظل الجبل كذلك لألفوه كما ألفنا نحن وغيرنا من الناس الأجرام السماوية فوقنا من غير أن نخشى تساقطها علينا.

ج. ومنهم من قال بأن عدم الإكراه في التكليف خاص بهذه الأمة.

٨. هذه إجابات عارية عن الدليل، وعد ابن عطية الجواب الأول قاطعا حيث اعتبره لا يصح سواه وتعقبه الشوكاني بقوله: وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه إليها كغيره - قال - وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا أو أشد منه، ونحن نقول أكرمهم الله على الإيمان فآمنوا مكرهين، ورفع السيف عن العذاب بهذا الإيمان، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عن من تكلم بكلمة الإسلام والسيف مصلت قد هزه حامله على رأسه، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لمن قتل من تلكم بكلمة الإسلام معتذرا عن قتله لأنه قالها تقية ولم تكن عن قصد صحيح: أأنت فتشت عن قلبه)، وقال: لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس)، وبهذا الذي قاله الشوكاني ينجلي غيم الإشكال.

٩. الأخذ مجاز في التلقي والقبول؛ وما أوتوه هو التوراة أو الشريعة التي تضمنتها، والمؤدى واحد؛

والقوة عبارة عن الإدراك والفهم، والجد والعزم، والتطبيق والعمل، وإلى ذلك يرجع ما قاله المفسرون، كقول ابن أبي نجيح ومجاهد بأنها العمل، وقول أبي العالية إنها الطاعة، وقول قتادة بأنها الجد، والسدى بأنها الجد والاجتهاد، وابن زيد بأنها الصدق والحق، ولا يُعد مثل هذا خلافا كما سبق في المقدمة.

١٠. أكثر المفسرين قالوا بأن جملة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ معمولة لمحذوف تقديره قائلين، ولم ير ذلك بعضهم لأن الميثاق نفسه قول.

١١. طولبوا بأن يذكروا ما فيه ليرسخ في نفوسهم حتى يتحول إلى عقيدة في قلوبهم، وشعور في وجدانهم، ونور في بصائرهم، ومنهج لحياتهم، ذلك لأن الذكر منشأ الطاعة والامتثال، والغفلة سبب المعصية والاستخفاف.

١٢. الذكر أعم من أن يكون باللسان وحده أو بالقلب وحده، فإن الذكر باللسان سبب لاستقرار المذكور في القلب، والذكر بالقلب هو الذي يترتب عليه ما ذكرته من العزيمة والفهم والتطبيق.

١٣. هذا التلقي لما أنزل الله واجب على كل أمة في كل ما أنزل إليها، وأجدر به من كل الأمم أمة محمد ﷺ التي خصها الله بأكرم رسول، وأعظم كتاب، وأجمع شريعة، فهي جديرة بأن تترجم ما أنزل الله عليها من الهدى والفرقان ترجمة صادقة شاملة بدقة التطبيق وأبلغ المحافظة، وهذا هو الإيمان الحق بما أنزل الله والقيام التام بحق الكتاب المنزل، أما ما عنى به الناس من تلاوة الكتاب بأسجى الأنغام مع المحافظة على تجويد الحروف وإحكام مخارجها، وإتقان صفاتها فلا يعد ذلك توقيرا للكتاب مع إهمال أحكامه ونسيان أوامره ونواهيه، ولو كان توقير الكتاب ووفاء حقه بهذا الذي عنوا به فحسب لما كانت قيمته تتجاوز الأغاني والأناشيد التي يحرص أصحابها أن تصل إلى مسامع السامعين وأذواقهم بأشجى الألحان وأحسن الإيقاع، وكتاب الله أجل من ذلك وعن كل ما يتصورون، وقد أُنزل للتطبيق والعمل لا للتسلي واللهو.

١٤. الأصل في التولي أن يكون بالأجسام، وذلك بأن يعرض أحد عمن كان مقبلا عليه فيوليه ظهره، واستعمل مجازا في عصيان الأوامر والنواهي بعد بروز حجتها، كما استُعمل في ترك العمل بعد ممارسته، والآية كاشفه لخبيث النفوس اليهودية وانطماس بصائرها، فقد كان منهم هذا التولي بعد أن رأوا الآيات الواضحات، والمعجزات الباهرات، وما اختُصوا به من النعم السابغة والآلاء المتلاحقة، فقد بدلوا

نعمة الله كفرا، ولم يطيعوا له أمر، فقتلوا النبيين بغير حق، وشوهوا وجه الكتاب الذي أتوه بالتحريفات الباطلة، والتأويلات الفاسدة، فكثيرا ما أضافوا إليه ما لم يكن منه، وانتزعوا منه ما علموا حقه وصدقه، لا لداع إلا إتباع الهوى، والحرص على حطام الدنيا، وإيثار الحماقة والجهل، وهذا من ضروب التولي المقصود بالآية.

١٥. اختلف في معنى فضل الله:

أ. قيل: فتحه لهم باب التوبة ورحمته توفيقية للتائبين وقبول توبتهم.

ب. وقيل: الفضل هو الإسلام، والرحمة هي القرآن، وهو المروي عن أبي العالية، وعليه فالخطاب لمعاصري رسول الله ﷺ نصا وروحا.

ج. وقيل: الفضل هو الهوى الذي انطوى عليه القرآن، والرحمة محمد ﷺ، فقد أرسله الله رحمة للعالمين، وبنو إسرائيل من العالمين الذين أُرسل إليهم، وقد فُتح لهم باب الإيمان به وعرفوا صدقه مما بقى عندهم من كتابهم غير مبدل، وعدم إيمانهم به إنما كان مت تلقاء أنفسهم وإلا فقد وضحت لهم حجته وأشرقت عليهم معجزته، وقد آمن به من أنعم الله عليه بالتوفيق منهم، كعبيد الله بن سلام، والخسران هو خسران الدنيا باستئصال شأفهم، وخسران الآخرة بسوء العذاب وفوات ما أعده الله للمتقين في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. هاتان الآيتان تطرحان مسألة أخذ ميثاق بني إسرائيل بشأن العمل بالتوراة، ثمّ نقضهم للميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ .. وقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، واجعلوا التوراة دوما نصب أعينكم: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

٢. المقصود من الميثاق في الآية الكريمة هو نفس ما جاء في الآية ٤٠ من هذه السّورة وما سيأتي في الآيتين ٨٣ و٨٤ أيضا. مواد هذا الميثاق عبارة عن: توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء.

---

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٥٩.

٣. هذه المواد وردت في التّوراة كذلك من الآية ١٢ لسورة المائدة يتضح أيضا أن الله أخذ ميثاق بني إسرائيل أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويساندوهم، وأن ينفقوا في سبيل الله، وفي هذه الآية ضمان للقوم بدخول الجنّة إن عملوا بهذا الميثاق.

٤. مضمون هذه الآية ورد مع تفاوت بسيط في الآية ٩٣ من سورة البقرة و١٥٤ النساء، و١١٧ الأعراف، والطبرسي وجمع من المفسرين ـ يذهبون إلى أن جبل الطور رفع فوق رؤوس بني إسرائيل بأمر الله لا يجاد الظل عليهم، وهناك من يقول إن زلزالا شديدا ضرب الجبل، بحيث كان يرى بنو إسرائيل ظل قمة الجبل على رؤوسهم من شدة الاهتزاز، وترقبوا أن يسقط الجبل عليهم، لكن الزلزال هدأ بفضل الله واستقرّ الجبل.. ويحتمل أيضا أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بأمر الله على أثر زلزال شديد أو صاعقة، ومرّت فوق رؤوسهم في لحظات، فرأوها وتصوروا أنها ستسقط عليهم.

٥. رفع الجبل فوق بني إسرائيل لتهديدهم عند أخذ الميثاق تثير سؤالا بشأن إمكان تحقيق الالتزام عن طريق التخويف والإرهاب، وهناك من قال إن رفع الجبل فوقهم لا ينطوي على إرهاب وتخويف أو إكراه، لأن أخذ الميثاق بالإكراه لا قيمة له، والأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندين المتمردين على الرضوخ للحق بالقوّة، وهذا الإرغام مؤقت هدفه كسر أنفتهم وعنادهم وغرورهم، ومن ثم دفعهم للفكر الصحيح، كي يؤدوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة واختيار على أي حال، وهذا الميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الاعتقادي، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالإكراه.

٦. اختلف المفسرون في المقصود من جبل (الطّور)، منهم من قال إنه نفس الجبل الذي أوحي فيه إلى موسى، وقال آخرون: إنه اسم جنس بمعنى مطلق (الجبل) لا جبل بعينه، وجاء تعبير (الجبل) بدل كلمة الطور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾

٧. خاطب الله سبحانه بني إسرائيل فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ وعن هذه الآية سئل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام عن المقصود من القوّة في هذه الآية: أبقوّة بالأبدان أم بقوّة في القلوب)؟ قال: بهما جميعا)

٨. هذا الأمر الإلهي يتجه إلى كل أتباع الأديان الإلهية في كل زمان ومكان، ويطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية والقوى المعنوية معا، لصيانة خط التوحيد وإقامة حاكمية الله في الأرض.

٢٧. أصحاب السبت وعقوبتهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥ ـ ٦٦]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

عطاء الخراساني:

روي عن روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) أنّه قال: نودي أهل القرية الذين اعتدوا في السبت من السماء: يا أهل القرية، فانتبهت جماعة منهم، ثم نودوا الثالثة: يا أهل القرية، فانتبه الرجال والنساء والصبيان، فقيل لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم، وهذا تحذير لهم من المعصية، يقول: احذروا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت إذ عصوني، ﴿اعْتَدَوْا﴾ يقول: اجترؤوا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بصيد السمك، ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فمسخهم الله قردة بمعصيتهم[٢].

٢. روي أنّه قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقا، ثم هلكوا، ما كان للمسخ نسل[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿خَاسِئِينَ﴾ صاغرين[٤].

---

(١) ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات ـ موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا: ٤/٤٩١.

(٢) ابن جرير: ٢/٥٩.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٣٢.

(٤) الدرّ المنثور: ابن المنذر.

٤. روي أنّه قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يقول لهؤلاء الذين صادوا السمك، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذن لم يحيوا في الأرض إلا ثلاثة أيام، ولم تأكل، ولم تشرب، ولم تنسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكر الله في كتابه، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن شاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء[(١)].

٥. روي أنّه قال: القردة والخنازير من نسل الذين مسخوا[(٢)].

٦. روي أنه قال: فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعموا أن شباب القوم صاروا قردة، والمشيخة صاروا خنازير[(٣)].

٧. روي أنّه قال: ﴿نَكَالًا﴾ عقوبة[(٤)].

٨. روي أنّه قال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من القرى، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى[(٥)].

٩. روي أنّه قال: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يقول: ليحذر من بعدهم عقوبتي، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يقول: الذين كانوا بقوا معهم[(٦)].

١٠. روي أنّه قال: ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ تذكرة، وعبرة[(٧)].

١١. روي أنّه قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ للمؤمنين الذين يتقون الشرك، ويعملون بطاعتي[(٨)].

١٢. روي أنّه قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة[(٩)].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن جرير: ٢/٦١.

(٢) الدرّ المنثور: ابن المنذر :.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٣٣.

(٤) ابن جرير: ٢/٦٩.

(٥) ابن جرير: ٢/٧٠.

(٦) ابن جرير: ٢/٥٤.

(٧) ابن جرير: ٢/٧٣.

(٨) ابن جرير: ٢/٧٤.

(٩) ابن جرير: ٢/٧٤.

١. روي أنّه قال: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يعني: أذلة صاغرين[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: عقوبة لما خلا من ذنوبهم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: عبرة لمن بقي بعدهم من الناس[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ موعظة للمتقين خاصة[3].

السجاد:

روي عن الإمام السجاد (ت ٩٤ هـ) أنّه قال: كان هؤلاء قوم يسكنون على شاطئ البحر، نهاهم الله وأنبياؤه عن اصطياد السمك في يوم السبت، فتوصلوا إلى حيلة ليحلوا بها إلى أنفسهم ما حرم الله، فخدوا أخاديد، وعملوا طرقا تؤدي إلى حياض، يتهيأ للحيتان الدخول فيها من تلك الطرق، ولا يتهيأ لها الخروج إذا همت بالرجوع منها إلى اللجج، فجاءت الحيتان يوم السبت جارية على أمان الله لها، فدخلت الأخاديد وحصلت في الحياض والغدران، فلما كانت عشية اليوم همت بالرجوع منها إلى اللجج لتأمن من صائدها، فرامت الرجوع فلم تقدر، وبقيت ليلها في مكان يتهيأ أخذها بلا اصطياد لاسترسالها فيه، وعجزها عن الامتناع لمنع المكان لها، فكانوا يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: ما اصطدنا يوم السبت، وإنما اصطدنا في الأحد، وكذب أعداء الله، بل كانوا آخذين لها بأخاديدهم التي عملوها يوم السبت حتى كثر من ذلك ما لهم وثراؤهم، وتنعموا بالنساء وغيرها لا تساع أيديهم، وكانوا في المدينة نيفا وثمانين ألفا، فعل هذا منهم سبعون ألفا، وأنكر عليهم الباقون، كما قص الله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية، وذلك أن طائفة منهم وعظوهم وزجروهم، ومن عذاب الله خوفوهم، ومن انتقامه وشديد بأسه حذروهم، فأجابوهم عن وعظهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ بذنوبهم هلاك الاصطلام: ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أجابوا القائلين هذا لهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ إذ كلفنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنحن ننهى عن المنكر ليعلم ربنا مخالفتنا لهم، وكراهتنا لفعلهم، قالوا: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ونعظهم أيضا لعله تنجع فيهم المواعظ، فيتقون هذه الموبقة، ويحذرون عقوبتها، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٣٣.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١٣٤.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٣٥.

حادوا وأعرضوا وتكبروا عن قبولهم الزجر ﴿عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مبعدين عن الخير، مقصين، فلما نظر العشرة آلاف والنيف أن السبعين ألفا لا يقبلون مواعظهم، ولا يحفلون بتخويفهم إياهم وتحذيرهم لهم، اعتزلوهم إلى قرية أخرى قريبة من قريتهم، وقالوا: نكره أن ينزل بهم عذاب الله، ونحن في خلالهم فأمسوا ليلة، فمسخهم الله تعالى كلهم قردة، وبقي باب المدينة مغلقا لا يخرج منه أحد، ولا يدخل أحد، وتسامع بذلك أهل القرى فقصدوهم، وتسنموا حيطان البلد، فاطلعوا عليهم، فإذا كلهم رجالهم ونساؤهم قردة، يموج بعضهم في بعض، يعرف هؤلاء الناظرون معارفهم وقراباتهم وخلطاءهم، يقول المطلع لبعضهم: أنت فلان، أنت فلانة؟ فتدمع عينه، ويومئ برأسه أن نعم، فما زالوا كذلك ثلاثة أيام، ثم بعث الله عز وجل عليهم مطرا وريحا فجرفهم إلى البحر، وما بقي مسخ بعد ثلاثة أيام، وإنما الذين ترون من هذه المصورات بصورها فإنما هي أشباهها، لا هي بأعيانها، ولا من نسلها.

ثم قال: إن الله تعالى مسخ هؤلاء لاصطياد السمك، فكيف ترى عند الله عز وجل يكون حال من قتل أولاد رسول الله ﷺ وهتك حريمه!؟ إن الله تعالى وإن لم يمسخهم في الدنيا، فإن المعد لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب هذا المسخ.

فقيل: يا ابن رسول الله، فإنا قد سمعنا مثل هذا الحديث، فقال لنا بعض النصاب: فإن كان قتل الحسين باطلا، فهو أعظم من صيد السمك في السبت، أفما كان يغضب الله على قاتليه كما غضب على صيادي السمك!؟.. فقال: قل لهؤلاء النصاب: فإن كان إبليس معاصيه أعظم من معاصي من كفر بإغوائه، فأهلك الله من شاء منهم كقوم نوح وقوم فرعون، فلم لم يهلك إبليس لعنه الله، وهو أولى بالهلاك؟ فما باله أهلك هؤلاء الذين قصروا عن إبليس لعنه الله في عمل الموبقات، وأمهل إبليس مع إيثاره لكشف المخزيات؟ ألا كان ربنا عز وجل حكيما وتدبيره حكمة فيمن أهلك وفيمن استبقى، وكذلك هؤلاء الصائدون في السبت، وهؤلاء القاتلون للحسين، يفعل في الفريقين ما يعلم أنه أولى بالصواب والحكمة، ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْئَلُون﴾[1].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مسخت قلوبهم، ولم

(١) كتاب الاحتجاج: ص ١٦٠.

يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم؛ مثل الحمار يحمل أسفارا[1].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: انقطع ذلك النسل[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ بعدهم؛ فيتقوا نقمة الله ويحذروها[3].

العوفي:

عطية العوفي (ت ١١٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما كان من بعدهم من بني إسرائيل، لا يعملوا فيها بمثل أعمالهم[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما كان من بعدهم من بني إسرائيل، لا يعملوا فيها بمثل أعمالهم[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما كان من بعدهم من بني إسرائيل، لا يعملوا فيها بمثل أعمالهم[6].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: إن أناسا تكلموا في هذا القرآن بغير علم، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، إن الله

---

(١) تفسير مجاهد: ص٢٠٥ بنحوه، وابن جرير: ٦٥/٢.

(٢) الدرّ المنثور: ابن المنذر.

(٣) ابن أبي حاتم: ١٣٥/١.

(٤) علّق ابن أبي حاتم: ١٣٤/١.

(٥) علّق ابن أبي حاتم: ١٣٤/١.

(٦) علّق ابن أبي حاتم: ١٣٤/١.

عز وجل بعث نوحا إلى قومه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]، ثم دعاهم إلى الله عز وجل وحده، وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ثم بعث الأنبياء ﷺ م على ذلك إلى أن بلغوا محمدا ﷺ فدعاهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] فبعث الأنبياء إلى قومهم بشهادة أن لا إله إلا الله، الإقرار بما جاء به من عند الله، فمن آمن مخلصا ومات على ذلك أدخله الله الجنة بذلك وذلك أن الله ليس بظلام للعبيد، وذلك أن الله لم يكن يعذب عبدا حتى يغلظ عليه في القتل والمعاصي التي أوجب الله عليه بها النار لمن عمل بها فلما استجاب لكل نبي من استجاب له من قومه من المؤمنين، جعل لكل نبي منهم شرعة ومنهاجا، والشرعة والمنهاج سبيل وسنة، وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وأمر كل نبي بالأخذ بالسبيل والسنة، وكان من السبيل والسنة التي أمر الله عز وجل بها موسى عليه السلام أن جعل عليهم السبت وكان من أعظم السبت ولم يستحل أن يفعل ذلك من خشية الله أدخله الله الجنة، ومن استخف بحقه واستحل ما حرم الله عليه من العمل الذي نهاه الله عنه فيه، أدخله الله عز وجل النار، وذلك حيث استحلوا الحيتان، واحتبسوها وأكلوها يوم السبت، غضب الله عليهم من غير أن يكونوا أشركوا بالرحمن، ولا شكوا، في شيء مما جاء به موسى عليه السلام قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، ثم بعث الله عيسى عليه السلام بشهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وجعل لهم شرعة ومنهاجا فهدمت السبت الذي امروا به أن يعظموه قبل ذلك، وعامة ما كانوا عليه من السبيل والسنة التي جاء بها موسى، فمن لم يتبع سبيل عيسى أدخله الله النار، وإن كان الذي جاء به النبيون جميعا أن لا يشركوا بالله شيئا[1].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أحلت لهم الحيتان، وحرمت عليهم يوم السبت؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه،

---

(١) الكافي: ٢/٣٩٩.

فكان القوم فيهم ثلاثة أصناف؛ فأما صنف فأمسك ونهى عن المعصية، وأما صنف فأمسك عن حرمة الله، وأما صنف فانتهك الحرمة، ومرن على المعصية، فلما أبوا إلا عتوا عما نهاهم الله عنه قلنا لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وصار القوم قردة تعاوى، لها أذناب بعد ما كانوا رجالا ونساء[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فصار القوم قرودا تعاوى، لها أذناب، بعد ما كانوا رجالا ونساء[2].

٣. روي أنّه قال: صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام، ولم يتوالدوا[3].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ معناه كونوا قردة باعدين من الخير.. ويقال: قد خسأته عني أي قد باعدته عني وصغّرته[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ معنى لما بين يديها: هو السّور.. التي عملوا فيها المعاصي في صيدهم السّمك.. ومعنى ما خلفها لمن كان بعدهم من بني إسرائيل أن لا يعملوا فيها بمثل أعمال صيادي السّمك.. والموعظة للمتقين: لأمة محمد ﷺ أن لا يلحدوا في حرم الله تعالى[5].

السّدّيّ:

إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾،

---

(١) ابن جرير: ٢/٦٣.
(٢) ابن أبي حاتم: ١/١٣٣.
(٣) تفسير البغوي: ١/١٠٣.
(٤) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.
(٥) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

قال فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر[5].

السّدّيّ الكبير:

إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر[7].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن جرير: ٢/٦٣.

(٢) ابن جرير: ٢/٦٣.

(٣) ابن جرير: ٢/٦٣.

(٤) ابن جرير: ٢/٦٣.

(٥) ابن جرير: ٢/٦٣.

(٦) ابن جرير: ٢/٦٣.

(٧) ابن جرير: ٢/٦٣.

١. روي أنّه قال: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، أي: أذلة صاغرين[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما خلا لهم من الذنوب، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: عبرة لمن بقي من الناس[٢].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ نهوا عن صيد الحيتان في يوم السبت، فكانت تشرع إليهم يوم السبت، بلوا بذلك، فاصطادوها، فجعلهم الله قردة خاسئين[٣].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: لمن بعدهم[٤].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يعني: اليهود ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ فصادوا فيه السمك، وكان محرما عليهم صيد السمك يوم السبت، فأمهلهم الله سبحانه بعد صيد السمك سنين، ثم مسخهم الله قردة، فذلك قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ بوحي: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿خَاسِئِينَ﴾ يعني: صاغرين[٦].

٣. روي أنّه قال: ثم حذر هذه الأمة، فقال سبحانه: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، يعني: تعظهم يا محمد أن يركبوا ما ركبت بنو إسرائيل من المعاصي؛ فيستحلوا محرما، أو صيدا في حرم الله، أو تستحلوا أنتم

---

(١) ابن جرير: ٢/٦٧.

(٢) ابن جرير: ٢/٧٠.

(٣) عبد الرزاق: ١/٤٧.

(٤) ابن جرير: ٢/٧٥.

(٥) تفسير مقاتل: ١/١١٣.

(٦) تفسير مقاتل: ١/١١٣.

حراما لا ينبغي؛ فينزل بكم من العقوبة مثل ما نزل بالذين استحلوا صيد السمك يوم السبت[1].

٤. روي أنّه قال: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يقول: أخذناهم بمعاصيهم قبل صيد الحيتان، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ما استنوا من سنة سيئة فاقتدى بها من بعدهم، فالنكال هي العقوبة، ثم مسخهم الله تعالى في زمان داوود عليه السلام قردة[2].

الثوري:

روي عن سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأمة محمد ﷺ[3].

ابن سلام:

روي عن يحيى بن سلام (ت ٢٠٠ هـ) أنّه قال: اعتداؤهم: أخذهم الصيد في يوم السبت[4].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[5]:

١. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، هي القرية التي كانت حاضرة البحر، إذ يعدون في السبت، فقال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، وإنما أراد: أهلها، فأقامها مقام أهلها، فمسخهم الله عند أخذهم للحيتان قردة وخنازير، وجعلهم نكالا لما بين أيديهم وما خلفهم:

أ. والذين خلفهم فهم: الذين خلفوهم من أهل عصرهم.

ب. والذين بين أيديهم فهم: من سيكون من الأمم بعدهم، يجعلونهم عبرة، ويزدجرون بهم عن المعصية.

٢. معنى ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ هي: عبرة للمتقين؛ إذ هي آية عظيمة يتعظ بها المؤمنون، ويتفكر فيها الصالحون؛ لما نزل بأهل القرية من المسخ والنكال، والذل والهوان.

٣. الدليل على ما قلنا به: قول الله سبحانه إذ يخبر عن الملائكة حين يقول: ﴿وما نتنزل إلا بأمر

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١١٣.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١١٣.

(٣) تفسير سفيان الثوري: ص٤٦.

(٤) تفسير ابن أبي زمنين: ١/١٤٨.

(٥) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٤٦.

ربك له بين أيدينا وما خلفنا﴾؛ فجعلوا:

أ. ما بين أيديهم في هذه الآية خاصة: ما سيكون من القيامة، والحساب والعقاب، والفوز والثواب.

ب. وما خلفهم: فما خلفوه وراء ظهورهم، عند قبض أرواحهم، وفناء مدتهم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ فيه دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ؛ كأنه قال ولقد علمتم أن محمدا ﷺ لم يكن يعلم الذين اعتدوا منكم في السبت، ولا كان علم ما فعل بهم، ثم علم ذلك؛ فإنما علم بالله ـ عزّ وجل ـ لأنه لم يكن قرأ كتابكم، ولا كان يختلف إلى أحد ممن يعرف ذلك؛ فبالله ـ عزّ وجل ـ عرف ذلك، وبه علم؛ فدل: أنه رسول الله إليكم.

٢. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يحتمل:

أ. أي علمتم ما أصاب أولئك باعتدائهم يوم السبت بالاصطياد، وكنتم تقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. يعنى: أبناء رسل الله وأحباؤه، فلو كان كما تقولون، لم يكن ليجعلهم قردة ـ وهى أقبح خلق الله، وأوخشه ـ إذ مثل ذلك لا يفعل بالأحبّاء ولا بالأبناء.

ب. التحذير لهؤلاء؛ لئلا يكذّبوا محمدا ﷺ ولا يعصوه في أمره، فيصيبكم ما أصاب أولئك؛ بتكذيبهم موسى، وعصيانهم أمره.

٣. سبب تحريم الاصطياد في السبت كان لما قيل: إنّ موسى ﷺ أراد أن يجعل يوما لله، خالصا للطاعة له، والعبادة فيه ـ وهو يوم الجمعة ـ فخالفوا هم أمره ونهيه، وقالوا: نجعل ذلك اليوم السبت؛ لأنه لم يخلق لعمل. فحرم الاصطياد في ذلك اليوم لذلك وحولوا قردة؛ عقوبة لهم لما نهوا عن الاصطياد في ذلك اليوم فاصطادوا، وعلى ذلك تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤] يعنى: يوم الجمعة، وقيل: ﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، يعنى: في الله.

٤. اختلف في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾:

أ. قيل: قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ من الأصل؛ على ذهاب الإنسانية منهم.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤٨٨/١.

ب. وقيل: حوّل جوهرهم إلى جوهر القردة، على إبقاء الإنسانية فيهم؛ من الفهم والعقل؛ لأنه قيل: إن الذين كانوا ينهونهم عن الاصطياد في ذلك اليوم دخلوا عليهم، فيقولون لهم: ألم ننهكم عن ذلك، ونزجركم!؟ فأومئوا: أي نعم، ودموعهم تفيض على خدودهم، فلو كان التحويل على ذهاب جميع الإنسانية منهم لكانوا لا يفهمون ذلك، ولا حزنوا على ما أصابهم؛ لأن كلّ ذي جوهر راض بجوهره الذي خلقه الله سبحانه يسرّ به، ولأن تحويله إياهم قردة عقوبة لتمردهم في التكذيب، وجرأتهم على الله؛ ليعلموا ذلك، ويروا أنفسهم أقبح خلق الله وأوحشه.

٥. في هذه الآية الكريمة نقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: ليس في خلق الله قبيح، فلو لم يكن في خلق الله قبيح لم يكن لتحويل صورتهم من صورة الإنسان إلى أقبح صورة معنى؛ ليروا قبح أنفسهم؛ عقوبة لهم بما عصوا أمر الله، ودخلوا في نهيه.

٦. اختلف في ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾:

أ. قيل: الهاء راجعة إلى القرية التي كانوا فيها، ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من أهل القرية، ﴿وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ حواليها.

ب. وقيل: أراد بالهاء: القرية، ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من القرى، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى.

ج. وقيل: أراد بالهاء: العقوبة والنكال، ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يعنى: لما مضى من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يعنى: ما بقى.

٧. اختلف في معنى ﴿خَاسِئِينَ﴾:

أ. قيل: الخاسئ: الصاغر.

ب. وقيل: الخاسئ: الذليل.

ج. وقيل: البعيد، وكله يرجع إلى واحد.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أي فجعلنا القرية تحذيراً وتنكيلاً لمن حولهم وغيرهم من الناس العاصين، ليتنكلوا إذا علموا

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٤.

بما نزل بهم.

٢. ويكونون أيضاً تحذيراً ونكالاً لمن بعدهم وخلفهم من أشكالهم وأمثالهم.

الديلمي:

الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في اعتدائهم في السبت قولان:

أ. أحدهما: أنه لما حرم عليهم اصطياد الحيتان يوم السبت كانوا يصطادونها فيه.

ب. الثاني: كانوا يحبسونها يوم السبت ويصطادونها يوم الأحد، فهذا اعتداؤهم.

٢. اختلف في معنى السبت:

أ. قيل: القطع، وإنما سمي اليوم به لأن اليهود يقطعون أعمالهم فيه وقيل سمي سبتاً لأنه قطع فيه خلق كل شيء.

ب. وقيل: إن السبت الهدوء والسكون في راحة ودعة، وقيل للنائم مسبوت لأن اليهود يستريحون فيه قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾

٣. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فمسخوا قردة لأجل اعتدائهم في السبت ولم يعش من مسخ فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب.

٤. اختلف في ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾:

أ. يجوز أن تكون الهاء راجعة إلى العقوبة.

ب. وفيه وجه ثان وهو أن ترجع إلى القرية وهي إيلة.

ج. ويجوز وجه ثالث وهو أن تعود إلى الممسوخين.

٥. في النكال ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: العقوبة.

ب. الثاني: هو الفعل الذي إذا رآه غيره نكل أن يفعل مثله.

ج. الثالث: أن النكال الاشتهار بالفضيحة.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٦١.

٦. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى، ويحتمل أن يكون من القوم الذين لم يمسخوا فتكون لهم عبرة بها يعتبرون.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. في اعتدائهم في السبت قولان:

أ. أحدهما: أنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال، وهذا قول الحسن.

ب. الثاني: أنهم حبسوها في يوم السبت وأخذوها يوم الأحد.

٢. السبت هو اليوم المعروف، وفي تسميته بذلك أربعة أقاويل:

أ. أحدها: أن السبت هو اسم للقطعة من الدهر، فسمي ذلك اليوم به، وهذا قول الزجاج.

ب. الثاني: أنه سمّي بذلك لأنه سبت خلق كل شيء، أي قطع وفرغ منه، وهذا قول أبي عبيدة.

ج. الثالث: أنه سمّي بذلك، لأن اليهود يسبتون فيه، أي يقطعون فيه الأعمال.

د. الرابع: أن أصل السبت، الهدوء والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم مسبوت لاستراحته وسكون جسده، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ . فسمّي به اليوم لاستراحة اليهود فيه.

٣. في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: مسخوا قردة، فصاروا ـ لأجل اعتدائهم في السبت ـ في صورة القردة المخلوقين من قبل، في الأيام الستة، قال ابن عباس: لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب.

ب. الثاني: وهو قول مجاهد: أنهم لم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]

٤. في قوله تعالى: ﴿خَاسِئِينَ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أن الخاسئ المبعد المطرود، ومنه قولهم خسأت الكلب، إذا باعدته وطردته.

ب. الثاني: أن معناه أذلاء صاغرون، وهذا قول مجاهد، وروي عن ابن عباس: خاسئا أي ذليلا.

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١٣٥.

٥. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ وفي المجعول نكالا، ستة أقاويل:

أ. أحدها: أنها العقوبة.

ب. الثاني: أنها الحيتان.

ج. الثالث: أنها القرية التي اعتدى أهلها.

د. الرابع: أنهم الأمة الذين اعتدوا، وهم أهل أيلة.

هـ. الخامس: أنهم الممسوخون قردة.

و. السادس: أنهم القردة الممسوخ على صورهم.

٦. في قوله تعالى: ﴿نَكَالًا﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: عقوبة، وهو قول ابن عباس.

ب. الثاني: عبرة ينكل بها من رآها.

ج. الثالث: أن النكال الاشتهار بالفضيحة.

٧. في قوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ خمسة تأويلات:

أ. أحدها: ما بين يديها وما خلفها من القرى، وهذه رواية عكرمة عن ابن عباس.

ب. الثاني: ما بين يديها يعني من بعدهم من الأمم، وما خلفها، الذين كانوا معهم باقين، وهذه رواية الضحاك عن ابن عباس.

ج. الثالث: ما بين يديها، يعني من دونها، وما خلفها، يعني لمن يأتي بعدهم من الأمم، وهذا قول السدي.

د. الرابع: لما بين يديها من ذنوب القوم، وما خلفها للحيتان التي أصابوها، وهذا قول قتادة.

هـ. الخامس: ما بين يديها ما مضى من خطاياهم، وما خلفها: خطاياهم التي أهلكوا بها، وهذا قول مجاهد.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير الطوسي: ١/٢٩٢.

١. في هذه الآيات احتجاج من الله تعالى بنعمه المترادفة واخباراً للرسول عن عناد أسلافهم وكفرهم مرة بعد أخرى مع ظهور الآيات والعلامات، تعزية له ﷺ وتسلية له عندما رأى من جحودهم، وكفرهم وليكون وقوفه على ما وقف عليه من اخبارهم حجة عليهم وتنبيهاً لهم وتحذيراً ان يحل بهم مما حل بمن تقدمهم من آبائهم وأسلافهم.

٢. علمتم: أي عرفتم ها هنا. فقوله: علمت أخاك ولم أكن اعلمه: أي عرفته ولم أكن أعرفه كقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾، يعني لا تعرفونهم الله يعرفهم.

٣. اعتدوا: أي ظلموا وجاوزوا ما حد لهم:

أ. قيل: كانوا أمروا ألا يعدوا في السبت، وكانت الحيتان تجتمع، لا منها في السبت فحبسوها في السبت وأخذوها في الأحد، واعتدوا في السبت، لان صيدها هو حبسها.

ب. وقيل: بل اعتدوا فصادوا يوم السبت.

٤. سمي السبت سبتاً:

أ. قيل: لان السبت هو القطعة من الدهر فسمي بذلك اليوم، هذا قول الزجاج.

ب. وقيل: سمي بذلك: لأنه سبت خلق فيه كل شيء: اي قطع وقوع.

ج. وقيل: سمي بذلك، لأن اليهود يسبتون فيه: اي يقطعون الاعمال.

د. وقيل: سميّ بذلك، لما لهم فيه من الراحة، لان اصل السبت هو السكون والراحة، ومن ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، وقيل للنائم مسبوت لاستراحته وسكون جسده فسمي به اليوم، لاستراحة اليهود فيه.

٥. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ اخبار عن سرعة فعله ومسخه إياهم، لا أن هناك امراً كما قال للسموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، ولم يكن هناك قول، وإنما اخبر عن تسهل الفعل عليه وتكوينه له بلا مشقة، بلفظ الامر.

٦. اختلف في معنى الآية:

أ. على ما قاله اكثر المفسرين: انه مسخهم قردة في صورة القردة سواء، وحكي عن ابن عباس: انه قال لم يعش مسخ قط اكثر من ثلاثة ايام، ولم يأكل ولم يشرب.

ب. وقال مجاهد: إن ذلك مثل ضربه الله، كما قال ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، ولم يمسخهم قردة.

ج. وحكي عنه ايضاً: انه قال مسخت قلوبهم فجعلت كقلوب القردة لا تقبل وعظاً ولا تقي زجراً.

٧. هذان القولان لمجاهد منافيان لظاهر التأويل، لما عليه اكثر المفسرين من غير ضرورة داعية اليه.

٨. ﴿خَاسِئِينَ﴾: اي مبعدون، لان الخاسئ هو المبعد المطرود كما يخسأ الكلب.. تقول: منه خسأه اخسؤه خسء وخسياً هو يخسو خسواً. يقال: خسأته فخسأ وانخسأ. قال الراجز: كالكلب ان قلت له اخسأ انخسا.. اي إن طردته، انطرد، وقال مجاهد معناه، أذلاء صاغرين، والمعنى قريب.

٩. الضمير في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يحتمل:

أ. أن يكون راجعاً الى العقوبة أو القردة، فكأنه قال: جعلنا القردة، اي ما حل بها من التشويه وتغيير الخلقة، دلالة على ان من تقدمهم أو تأخر عنهم. فمن فعل مثل فعلهم يستحق من العقاب مثل الذي نزل بهم نكالًا لهم جميعاً وموعظة للمتقين: اي تحذيراً وتنبيهاً، لكيلا يواقعوا من المعاصي ما واقع أولئك فيستحقوا ما استحقوا ـ نعوذ بالله من سخطه ـ

ب. أن تكون (الهاء) راجعة الى الحيتان.

ج. أن تكون راجعة الى القرية التي اعتدوا أهلها فيها.

د. أن تكون (الهاء) راجعة الى الامة الذين اعتدوا وهم اهل ايلة: قرية على شاطئ البحر، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام.

١٠. اختلف في معنى ﴿نَكَالًا﴾:

أ. قال ابن عباس: عقوبة.

ب. وقال غيره: ينكل بها من يراها.

ج. وقيل: انها شهرة، لان النكال: الاشتهار بالفضيحة، ذكر ذلك الجبائي، وليس بمعروف.

١١. النكال الإرهاب للغير وأصله المنع، لأنه مأخوذ من النكل وهو القيد، وهو ايضاً اللجام وكلاهما مانع، واصل النكال العقوبة تقول: نكل فلان بفلان ينكل تنكلا ونكالا قال عدي بن زيد:

لا يسخط المليك ما يصنع العب   د ولا في نكاله تنكير

وأقوى التأويلات ما رواه الضحاك عن ابن عباس: من انها كناية عن العقوبة والمسخة التي مسخها القوم، لان في ذلك اشارة الى العقوبة التي حلت بالقوم ـ وان كانت باقي الأقوال ايضاً جائزة.

١٢. اختلف في معنى ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾:

أ. روي عن عكرمة عن ابن عباس: انه أراد ما بين يديها وما خلفها من القرى.

ب. وروي عن الضحاك عن ابن عباس انه: أراد ما بين يديها يعني: من بعدهم من الأمم، وما خلفها الذين كانوا معهم باقين.

ج. وقال السدي: ﴿ما بين يديها﴾: من ذنوبها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يعني: عبرة لمن يأتي بعدهم من الأمم.

د. وقال قتادة: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ ذنوبها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: عبرة لمن يأتي خلفهم: بعدهم من الأمم.

هـ. وقال قتادة: لما بين يديها ذنوب القوم، وما خلفها الحيتان التي أصابوها.

و. وقال مجاهد: ما بين يديها ما مضى من خطاياهم، وما خلفها من خطاياهم التي اهلكوا بها.

١٣. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ . خص المتقين بها ـ وان كانت موعظة لغيرهم ـ لانتفاع المتقين بها دون الكافرين، كقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الاعتداء: تجاوز الحد.

ب. السبت: يوم من أيام الأسبوع كان عيدًا لليهود، وأصل السبت القطع، وهو أصل الباب، وإنما سمي سبتًا؛ لأنه سبت فيه خلق كل شيء وعمله، أي انقطع، وفرغ منه، واليهود يسبتون يوم السبت أي يقطعون الأعمال، عن أبي عبيدة.

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/٤١٧.

ج. القرد: جمعه قردة، وقرود، والأنثى قردة.

د. خَسَأْتَ الكلب إذا زجرته، فقلت: اخْسَأْ، والخاسِئ الكلب المباعد الذي لا يترك أن يدنو من الناس، وَخُسِئ الكلبُ إذا طرد فتباعد، وأصله من الإبعاد.

هـ. النكال: العقوبة التي تزجر عن العصيان، وأصله من المنع، أخذ من النكلِ، وهو القيد، وقيل: أخذ من النِّكْلِ، وهو اللجام، وسمي العقاب نكالاً؛ لأنه يمنع عن ارتكاب مثل ما ارتكبه مَنْ نزلت به العقوبة.

و. اليد: أصله الجارحة، ثم يستعمل في غيره توسعًا، فيقال للنعمة: يد، وللقدرة: يد، وقد تكون اليد صلة، فيقال: هذه الضيعة في يد فلان، أي في ملكه وتصرفه، مشابهًا بالشيء في يده.

ز. الوعظ والزجر بمعنى، وأصل الوعظ التخويف، يقال: وعظت فلانًا موعظة وعظة، والوعظ بيان لسوء عاقبة الأمر.

٢. خاطب الله تعالى بني إسرائيل بخبر أسلافهم وما نالهم ليجتنبوا طرائقهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ خطاب لليهود الَّذِينَ كانوا في زمن النبي ﷺ ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ أي: جاوزوا الحد، وتركوا العمل بالتوراة وما فرض عليهم في السبت، والمراد أسلافهم ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من أسلافكم ﴿فِي السَّبْتِ﴾

٣. كان اعتداؤهم في السبت:

أ. قيل: أنهم نهوا عن أخذ الحيتان يوم السبت فاصطادوا.

ب. وقيل: أخذوها على وجه الاستحلال فكفروا فمسخوا قردة، عن الحسن.

ج. وقيل: حبسوها في الحظائر يوم السبت، وسدوها بلوح ثم أخذوها يوم الأحد، ويقولون: نحن لا نتعرض للسمك يوم السبت، فعاقبهم الله تعالى على ذلك، وهو على هذا فسق.

د. وقيل: كانوا يلقون الشخوص يوم الجمعة، ويخرجونها يوم الأحد، وكان هذا زمن داوود، بِأَيْلَةَ، فتفرق الناس ثلاث فرق، فرقة أمسكوا ونهوا، وفرقة أمسكوا ولم ينهوا، وفرقة هتكوا الحرمة، فمسخ الله الفريقين، ونجا الفرقة الناهية

٤. اختلف في معنى ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾:

أ. قيل: يعني جعلناهم قردة، كقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

ب. وقيل: مسخوا قردة تعاوي بعد ما كانوا رجالاً ونساء، عن ابن عباس وقتادة وأكثر أهل العلم.

ج. وقيل: هذا مثل ضربه الله لهم، كما قيل: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

٥. الأول الوجه؛ لأنه الظاهر، وعليه أكثر أهل العلم.

٦. لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب، ولم ينسل، عن ابن عباس وغيره، قال أبو علي: لم يبقوا إلا أيامًا قليلة وماتوا.. وقيل: أرسل عليهم ريحًا فرمتهم في البحر، فهلكوا والقردة التي تشاهد جِنْس من الحيوان كالذباب وغيره.

٧. سؤال وإشكال: هل صاروا قردة على الحقيقة؟ والجواب: غير الصورة إلى صورة القردة في الظاهر، فهم عاقلون عالمون بما أصابهم من العقوبة، وبنية البشرية في الباطن على ما هو عليه.

٨. سؤال وإشكال: من نظر إليهم أي شيء يعتقد فيهم؟ والجواب: من علمهم بعيبهم اعتقد فيهم المسخ، ومن لم يعلم يخطر الله ذلك ببالهم.. وروي أن الناهين خرجوا بُكْرَةً، فإذا المجرمون لم يفتحوا أبوابهم، فدخلوا عليهم فإذا هم قد مسخوا، وكانوا يبكون وتجري أدمعهم على خدودهم.

٩. اختلف في معنى ﴿خَاسِئِينَ﴾:

أ. قيل: مبعدين عن الخير.

ب. وقيل: أذلاء صاغرين مطرودين، عن مجاهدة وقتادة والربيع.

ج. وقيل: خرسا لا يتكلمون، عن أبي رَوْقٍ.

١٠. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي المسخة أو الأمة ﴿نَكَالًا﴾:

أ. قيل: عقوبة.

ب. وقيل: اشتهارًا وفضيحة، عن أبي علي.

١١. اختلف في معنى ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾:

أ. قيل: لما بين يديها لما خلا من الذنوب، عن الربيع ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ عبرة لمن بقي من الناس بعدها، عن الفراء.

ب. وقيل: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما خلا من الذنوب عن الربيع، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى، عن ابن

عباس وأبي علي.

ج. وقيل: لما بين يديها من ذنوبها، وما خلفها من المعاصي الحيتان التي أصابوا، عن الحسن وقتادة.

د. وقيل: لما بين يديها لما مضى من خطاياهم، وما خلفها خطاياهم التي أهلكوا بها، عن مجاهد.

هـ. وقيل: ما عملوا قبل الحيتان وبعد الحيتان، عن ابن عباس.

و. وقيل: ما بين يديها من يشاهدها، وما خلفها: من يسمع بها.

ز. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: فجعلناها وما خلفها، أي تلك العقوبة وما خلفها: ما أعد الله لهم من عذاب الآخرة نكالاً وعقوبة وزجرًا، وقيل: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي لما تقدم من الكفر والعصيان، عن أبي مسلم.

١٢. اختلف في معنى ﴿وَمَوْعِظَةً﴾:

أ. قيل: عبرة وتذكرة، عن ابن عباس.

ب. وقيل: ردعًا وزجرًا.

١٣. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي من يتقي عذاب الله باتقاء معاصيه، وإنما خص المتقين لوجهين:

أ. أحدهما أنهم انتفعوا به، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ عن أبي علي وأبي مسلم.

ب. الثاني: أن المتقين يعظ بها بعضهم بعضًا، ويتعظون بخلاف الفجار، عن أبي علي.

١٤. اختلف في الهاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ إلى ماذا ترجع:

أ. قيل: إلى العقوبة، تقديره: جعلنا تلك العقوبة وهو المسخ، عن ابن عباس واختيار أبي مسلم.

ب. وقيل: على القرية التي اعتدى أهلها.

ج. وقيل: يعود إلى القردة.

د. وقيل: إلى الأمة التي اعتدوا في السبت، وهم أهل أَيْلَة، عن الأصم وأبي علي.

١٥. سؤال وإشكال: هل كان تقبل توبتهم بعد المسخ؟ والجواب: لا؛ لأنهم اضطروا إلى المعرفة.

١٦. سؤال وإشكال: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مسخوا كيف يحشرون؟ والجواب:

أ. قيل: على صورة القردة؛ لأنه أبلغ في الفضيحة.

ب. وقيل: يجوز أن يحشروا على صورهم.

١٧. تدل الآية الكريمة:

أ. على الزجر عن ارتكاب المعاصي، والتحذير مما نزل ببني إسرائيل من المسخ، فيكون إخباره لُطْفًا لنا؛ لنفارق عادة أولئك.

ب. على معجزة عظيمة في الإخبار عنه.

ج. على أنه تعالى مسخ أولئك عبرة لغيرهم، وعقوبة لهم.

د. على الزجر عن المعاصي في الإخبار بما نزل بهم، وهو لطف للسامع متى تفكر فيه.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. علمتم أي: عرفتم، هنا تقول علمت أخاك ولم أكن أعلمه أي: عرفته، ولم أكن أعرفه، كقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا تعرفونهم، الله يعرفهم و ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾: في موضع نصب، لأنه مفعول به، والفرق بينه وبين ما يتعدى إلى مفعولين أن المعرفة تنصرف إلى ذات المسمى، والعلم ينصرف إلى أحواله، فإذا قلت، علمت زيدا، فالمراد عرفت شخصه وإذا قلت: علمت زيدا كريما أو لئيما، فالعلم يتعلق بأحواله من فضل ونقص.

ب. اعتدوا أي: ظلموا وجاوزوا ما حد لهم.

ج. السبت: من أيام الأسبوع، قال الزجاج: السبت قطعة من الدهر، فسمي بذلك اليوم وقال أبو عبيدة: سمي بذلك لأنه يوم سبت فيه خلق كل شيء أي: قطع وفرغ.. وقال قوم: إنما سمي بذلك، لأن اليهود يسبتون فيه أي: يقطعون فيه الأعمال، وقال آخرون: سمي بذلك لما لهم فيه من الراحة، لأن أصل السبت هو السكون والراحة، ومنه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، ويقال للنائم: مسبوت، لاستراحته وسكون جسده.

د. الخاسئ: المبعد المطرود، يقال: خسأت الكلب أخسأه خسأ، وخسئ الكلب يخسأ خسأ، تقول: خسأته وخسئ وانخسأ، قال الراجز: (كالكلب إن قلت له: اخسأ انخسأ) أي: إن طردته انطرد.

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٦٤.

هـ. النكال: الإرهاب للغير، وأصله المنع، لأنه مأخوذ من النكل: وهو القيد، وهو أيضا اللجام، وسميت العقوبة نكالا: لأنها تمنع عن ارتكاب مثله ما ارتكبه من نزلت به، ونكل فلان بفلان تنكيلا ونكالا.

و. الموعظة: الوعظ، وأصله التخويف، يقال: وعظت فلانا موعظة وعظة.

٢. خاطب الله تعالى اليهود فقال ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ أي عرفتم ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي:

أ. الذين جاوزوا ما أمروا به من ترك الصيد يوم السبت، وكان الحيتان تجتمع في يوم السبت لأمنها، فحبسوها في السبت، وأخذوها في الأحد، فاعتدوا في السبت أي ظلموا وتجاوزوا ما حد لهم لأن صيدها هو حبسها.

ب. وروي عن الحسن أنهم اصطادوا يوم السبت مستحلين بعد ما نهوا عنه

٣. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ وهذا إخبار عن سرعة فعله ومسخه إياهم لا أن هناك أمرا ومعناه وجعلناهم قردة كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ولم يكن هناك قول، وإنما أخبر عن تسهل الفعل عليه، وتكوينه بلا مشقة.

٤. اختلف في معنى الآية:

أ. قال ابن عباس: مسخهم الله تعالى عقوبة لهم، وكانوا يتعاوون وبقوا ثلاثة أيام لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا، ثم أهلكهم الله تعالى، وجاءت ريح فهبت بهم، وألقتهم في الماء، وما مسخ الله أمة إلا أهلكها.. وهذه القردة والخنازير ليست من نسل أولئك، ولكن مسخ أولئك على صورة هؤلاء، يدل عليه إجماع المسلمين على أنه ليس في القردة والخنازير من هو من أولاد آدم، ولو كانت من أولاد الممسوخين لكانت من بني آدم.

ب. قال مجاهد: لم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله كما قال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

ج. وحكي عنه أيضا أنه مسخت قلوبهم فجعلت كقلوب القردة لا تقبل وعظا، ولا تتقي زجرا.

٥. هذان القولان يخالفان الظاهر الذي أكثر المفسرين عليه من غير ضرورة تدعو إليه.

٦. قوله ﴿خَاسِئِينَ﴾:

أ. قيل: أي مبعدين عن الخير.

ب. وقيل: أذلاء صاغرين مطرودين عن مجاهد.

٧. في هذه الآيات احتجاجات من الله تعالى على اليهود بنعمه المترادفة على آبائهم وإخبار الرسول ﷺ عن عناد أسلافهم مرة بعد أخرى، وكفرانهم وعصيانهم ثانية بعد أولى، مع ظهور الآيات اللائحة والمعجزات الواضحة تعزية له ﷺ وتثبيتا لفؤاده وتسليته إياه عما يقاسيه من مخالفة اليهود وكيدهم وبراءة من جحودهم وكفرهم وعنادهم، وليكون وقوفه على ما وقف عليه من أخبار سلفهم تنبيها لهم وحجة عليهم في إخلادهم إلى الهوى وإلحادهم وتحذيرا لهم من أن يحل بهم ما حل بآبائهم وأجدادهم.

٨. اختلف في الهاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ إلى ماذا ترجع:

أ. قيل: يعود إلى الأمة التي مسخت، وهم أهل إيلة قرية على شاطئ البحر، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

ب. وقيل: إلى المسخة عن الزجاج.

ج. وقيل: إلى العقوبة أي جعلنا تلك العقوبة عن ابن عباس.

د. وقيل: إلى القرية التي اعتدى أهلها فيها.

٩. اختلف في معنى ﴿نَكَالًا﴾:

أ. قيل: أي عقوبة.

ب. وقيل: اشتهار أو فضيحة.

ج. وقيل: تذكرة وعبرة.

١٠. في ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ وجوه:

أ. أحدها، ما روي عن ابن عباس، رواه الضحاك عنه ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ للأمم التي تراها و﴿ما خَلْفَها﴾ ما يكون بعدها: وهو يقارب المأثور المروي عن الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي لما معها ينظر إليها من القرى و﴿ما خَلْفَها﴾ نحن ولنا فيها موعظة، فعلى هذا يكون ﴿مَا﴾ بمعنى من أي نكالا للخلق الذين كانوا معهم، ولجميع من يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، لئلا يفعلوا مثل فعلهم.

ب. ثانيها، أن يكون معناه جعلناها عقوبة للذنوب التي تقدمت على الاصطياد، والذنوب التي تأخرت عنه، وهذا يقتضي أن يكون الله تعالى لم يعاجلهم بالعقوبة عقيب الاصطياد، عن ابن عباس أيضا فيكون اللام بمعنى السبب، أي بسبب ذلك.

ج. ثالثها، أن يكون المراد لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى عن عكرمة عن ابن عباس.

د. رابعها، أن يكون المراد ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ ما مضى من خطاياهم وبـ ﴿ما خَلْفَهَا﴾ خطاياهم التي أهلكوا بها.

١١. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ معناه أنه إنما يتعظ بها المتقون، فكأنها موعظة لهم دون غيرهم، وهذا كقوله سبحانه: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾

١٢. في هذه الآية دلالة على أن من فعل مثل أفعال هؤلاء ممن تقدمهم أو تأخر عنهم، يستحق من العقاب مثل ما حل بهم من التشويه، وتغيير الخلقة إذ كان نكالا لهم جميعا وتحذيرا وتنبيها للمتقين لكي لا يواقعوا من المعاصي ما واقع أولئك فيستحقوا ما استحقوه نعوذ بالله من سخطه.

١٣. مسائل نحوية:

أ. قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ في موضع نصب حالا من ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ أي: المعتدين كائنين منكم.

ب. قوله: ﴿فِي السَّبْتِ﴾ متعلق بـ ﴿اعْتَدَوْا﴾ وأصل السبت مصدر، يقال: يسبت سبتا: إذا قطع، ثم سمي اليوم سبتا، وقد يقال: يوم السبت، فيخرج مصدرا على أصله، وقد قالوا: اليوم السبت، فجعلوا اليوم خبرا عن السبت، كما يقال: اليوم القتال، فعلى ما ذكرنا يكون في الكلام حذف تقديره: في يوم السبت.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. اختلف في سبب تسمية السبت:

أ. قيل: من القطع، يقال: قد سبت رأسه: إذا حلقه وقطع الشعر منه، ويقال: نعل سبتيّة: إذا كانت مدبوغة بالقرظ محلوقة الشعر، فسمّي السبت سبتا، لأن الله عزّ وجلّ ابتدأ الخلق فيه، وقطع فيه بعض خلق الأرض، أو: لأن الله تعالى أمر بني إسرائيل بقطع الأعمال وتركها.

---

(١) زاد المسير: ١/٧٥.

ب. وقيل: سمّي سبتا، لأن الله تعالى أمرهم بالاستراحة فيه من الأعمال، وهذا خطأ، لأنه لا يعرف في كلام العرب: سبت بمعنى: استراح.

٢. في صفة اعتدائهم في السّبت قولان:

أ. أحدهما: أنهم أخذوا الحيتان يوم السّبت، قاله الحسن ومقاتل.

ب. الثاني: أنهم حبسوها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وذلك أن الرجل كان يحفر الحفرة؛ ويجعل لها نهرا إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر، وقد حرّم الله عليه العمل يوم السبت، فيقبل الموج بالحيتان حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت الخروج فلا يطيق، فيأخذها يوم الأحد، قاله السّدّيّ.

٣. روى عثمان بن عطاء عن أبيه قال نودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات: نودوا: يا أهل القرية، فانتبهت طائفة [ثم نودوا: يا أهل القرية فانتبهت طائفة] أكثر من الأولى، ثم نودوا: يا أهل القرية، فانتبه الرجال والنساء والصبيان، فقال الله لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: بلى. قال قتادة: فصار القوم قردة تعاوى، لها أذناب بعد ما كانوا رجالا ونساء، وفي رواية عن قتادة: صار الشّبان قردة، والشيوخ خنازير، وما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم، وقال غيره: كانوا نحوا من سبعين ألفا، وعلى هذا القول العلماء، غير ما روي عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم تمسخ أبدانهم، وهو قول بعيد، قال ابن عباس: لم يحيوا على الأرض إلا ثلاثة أيّام، ولم يحيي مسخ في الأرض فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام، وماتوا في اليوم الثامن، وهذا كان في زمان داوود عليه السلام.

٤. ﴿خَاسِئِينَ﴾: الخاسئ في اللغة: المبعد، يقال للكلب: اخسأ، أي: تباعد.

٥. في المكنيّ عنها في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أربعة أقوال:

أ. أحدها: أنها الخطيئة، رواه عطية عن ابن عباس.

ب. الثاني: العقوبة، رواه الضّحّاك عن ابن عباس، وقال الفرّاء: الهاء كناية عن المسخة التي مسخوها.

ج. الثالث: أنها القرية، والمراد أهلها، قاله قتادة وابن قتيبة.

د. الرابع: أنها الأمّة التي مسخت، قاله الكسائيّ، والزّجّاج.

٦. في النّكال قولان:

أ. أحدهما: أنه العقوبة، قاله مقاتل.

ب. والثاني: العبرة، قاله ابن قتيبة والزّجّاج.

٧. في قوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: لما بين يديها من القرى وما خلفها، رواه عكرمة عن ابن عباس.

ب. الثاني: لما بين يديها من الذنوب، وما خلفها: ما عملوا بعدها، رواه عطية عن ابن عباس.

ج. الثالث: لما بين يديها من السنين التي عملوا فيها بالمعاصي، وما خلفها: ما كان بعدهم في بني إسرائيل لئلا يعملوا بمثل أعمالهم، قاله عطية.

٨. في المتّقين قولان:

أ. أحدهما: أنه عامّ في كل متّق إلى يوم القيامة، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أن المراد بهم أمّة محمد ﷺ، قاله السّدّيّ عن أشياخه، وذكره عطية وسفيان.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما عدد الله تعالى وجوه إنعامه عليهم أولًا ختم ذلك بشرح بعض ما وجه إليهم من التشديدات، وهذا هو النوع الأول منها.

٢. المقصود من ذكر هذه القصة أمران:

أ. الأول: إظهار معجزة محمد ﷺ، فإن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد ﷺ، فلما أخبرهم محمد ﷺ عن هذه الواقعة مع أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفه من الوحي.

ب. الثاني: أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت، فكأنه يقول لهم أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٤١.

[النساء: ٤٧]

٣. الكلام فيه حذف كأنه قال: ولقد علمتم اعتداء من اعتدى منكم في السبت) لكي يكون المذكور من العقوبة جزاء لذلك.

٤. لفظ الاعتداء يدل على أن الذي فعلوه في السبت كان محرماً عليهم، وتفصيل ذلك غير مذكور في هذه الآية لكنه مذكور في قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ ثم يحتمل:

أ. أن يقال: إنهم إنما تعدوا في ذلك الاصطياد فقط.

ب. وأن يقال: إنما تعدوا لأنهم اصطادوا مع أنهم استحلوا ذلك الاصطياد.

٥. سؤال وإشكال: لما كان الله نهاهم عن الاصطياد يوم السبت، فما الحكمة في أن أكثر الحيتان يوم السبت دون سائر الأيام كما قال: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وهل هذا إلا إثارة الفتنة وإرادة الإضلال، والجواب:

أ. على مذهب أهل السنة، ومن وافقهم: إرادة الإضلال جائزة من الله تعالى.

ب. على مذهب المعتزلة، ومن وافقهم: التشديد في التكاليف حسن لغرض ازدياد الثواب.

٦. ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خبر: أي كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرد.

٧. اختلف في الأمر في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾:

أ. قيل: ليس بأمر لأنهم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم على صورة القردة، بل المراد منه سرعة التكوين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، والمعنى أنه تعالى لم يعجزه ما أراد إنزاله من العقوبة بهؤلاء، بل لما قال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ صاروا كذلك أي لما أراد ذلك بهم صاروا كما أراد، وهو كقوله: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]

ب. وقيل: لا يمتنع أن يتكلم الله بذلك عند هذا التكوين إلا أن المؤثر في هذا التكوين هو القدرة والإرادة.

٨. سؤال وإشكال: لما لم يكن لهذا القول أثر في التكوين فأي فائدة فيه؟ والجواب:

أ. على مذهب أهل السنة، ومن وافقهم: أحكام الله تعالى وأفعاله لا تتوقف على رعاية المصالح

ألبتة.

ب. على مذهب المعتزلة، ومن وافقهم: لعل هذا القول يكون لفظاً لبعض الملائكة أو لغيرهم.

٩. المروي عن مجاهد أنه سبحانه وتعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم، وهو مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذي لا ينجح في تعليمه: كن حماراً، واحتج على امتناعه بأمرين:

أ. الأول: أن الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد، والبنية المحسوسة، فإذا أبطلها وخلق في تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداماً للإنسان، وإيجاداً للقر، د فيرجع حاصل المسخ على هذا القول إلى أنه تعالى أعدم الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام إنساناً، وخلق فيها الأعراض التي باعتبارها كانت قرداً، فهذا يكون إعداماً وإيجاداً لا أنه يكون مسخاً.. وأجيب عن هذا بأن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل، وذلك لأن هذا الإنسان قد يصير سميناً بعد أن كان هزيلًا، وبالعكس، فالأجزاء متبدلة والإنسان المعين هو الذي كان موجوداً، والباقي غير الزائل، فالإنسان أمر وراء هذا الهيكل المحسوس، وذلك الأمر إما أن يكون جسماً سارياً في البدن أو جزءاً في بعض جوانب البدن كقلب أو دماغ أو موجوداً مجرداً على ما يقوله الفلاسفة، وعلى جميع التقديرات، فلا امتناع في بقاء ذلك الشيء مع تطرق التغير إلى هذا الهيكل، وهذا هو المسخ.

ب. الثاني: إن جوزنا ذلك لما آمنا في كل ما نراه قرداً وكلباً أنه كان إنساناً عاقلًا، وذلك يفضي إلى الشك في المشاهدات.. وأجيب عن هذا بأن الأمان يحصل بإجماع الأمة.

١٠. ما دام المسخ جائزا، فإنه يمكن إجراء الآية على ظاهرها، وليس هناك حاجة إلى التأويل الذي ذكره مجاهد، وإن كان ما ذكره غير مستبعد جداً، لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البينات، فقد يقال في العرف الظاهر إنه حمار وقرد، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة لم يكن في المصير إليه محذور ألبتة.

١١. سؤال وإشكال: بعد أن يصير الممسوخ قرداً لا يبقى له فهم ولا عقل ولا علم، فلا يعلم ما نزل به من العذاب، ومجرد القردية غير مؤلم، بدليل أن القرود حال سلامتها غير متألمة، فمن أين يحصل العذاب بسببه؟ والجواب: لم لا يجوز أن يقال إن الأمر الذي به يكون الإنسان إنساناً عاقلًا فاهماً كان باقياً

إلا أنه لما تغيرت الخلقة والصورة لا جرم أنها ما كانت تقدر على النطق والأفعال الإنسانية إلا أنها كانت تعرف ما نالها من تغير الخلقة بسبب شؤم المعصية، وكانت في نهاية الخوف والخجالة، فربما كانت متألمة بسبب تغير تلك الأعضاء ولا يلزم من عدم تألم القرود الأصلية بتلك الصورة عدم تألم الإنسان بتلك الصورة الغريبة العرضية.

١٢. سؤال وإشكال: أولئك القردة بقوا أو أفناهم الله، وإن قلنا إنهم بقوا فهذه القردة التي في زماننا هل يجوز أن يقال إنها من نسل أولئك الممسوخين أم لا؟ والجواب: الكل جائز عقلًا إلا أن الرواية عن ابن عباس أنهم ما مكثوا إلا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

١٣. الخاسئ الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له اخسأ، أي تباعد وانطرد صاغراً، فليس هذا الموضع من مواضعك، قال الله تعالى: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ يحتمل صاغراً ذليلًا ممنوعاً عن معاودة النظر لأنه تعالى قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]، فكأنه قال ردد البصر في السماء ترديد من يطلب فطوراً فإنك وإن أكثرت من ذلك لم تجد فطوراً، فيرتد إليك طرفك ذليلًا كما يرتد الخائب بعد طول سعيه في طلب شيء ولا يظفر به فإنه يرجع خائباً صاغراً مطروداً من حيث كان يقصده من أن يعاوده.

١٤. اختلفوا في الضمير في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ إلى أي شيء يعود على وجوه:

أ. أحدها: قال الفراء: (جعلناها) يعني المسخة التي مسخوها.

ب. ثانيها: قال الأخفش: أي جعلنا القردة نكالًا.

ج. ثالثها: جعلنا قرية أصحاب السبت نكالًا.

د. رابعها: جعلنا هذه الأمة نكالًا لأن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ يدل على الأمة والجماعة أو نحوها.

٢. الأقرب هو الوجهان الأولان، لأنه إذا أمكن رد الكناية إلى مذكور متقدم، فلا وجه لردها إلى غيره، فليس في الآية المتقدمة إلا ذكرهم وذكر عقوبتهم.

١٥. النكال: العقوبة الغليظة الرادعة للناس عن الإقدام على مثل تلك المعصية، وأصله من المنع والحبس، ومنه النكول عن اليمين، وهو الامتناع منها، ويقال للقيد النكل، وللجام الثقيل أيضاً نكل لما

فيهما من المنع والحبس، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]

١٦. معنى الآية الكريمة: أنا جعلنا ما جرى على هؤلاء القوم عقوبة رادعة لغيرهم أي لم نقصد بذلك ما يقصده الآدميون من التشفي، لأن ذلك إنما يكون ممن تضره المعاصي وتنقص من ملكه، وتؤثر فيه، وأما نحن فإنما نعاقب لمصالح العباد، فعقابنا زجر وموعظة.

١٧. اليسير من الذم لا يوصف بأنه نكال[1]. حتى إذ عظم وكثر واشتهر، يوصف به وعلى هذا الوجه أوجب الله تعالى في السارق المصر القطع جزاء ونكالًا وأراد به أن يفعل على وجه الإهانة والاستخفاف فهو بمنزلة الخزي الذي لا يكاد يستعمل إلا في الذم العظيم، فكأنه تعالى لما بين ما أنزله بهؤلاء القوم الذين اعتدوا في السبت، واستحلوا من اصطياد الحيتان وغيره ما حرمه عليهم ابتغاء الدنيا ونقضوا ما كان منهم من المواثيق، فبين أنه تعالى أنزل بهم عقوبة لا على وجه المصلحة لأنه كان لا يمتنع أن يقلل مقدار مسخهم ويغير صورهم بمنزلة ما ينزل بالمكلف من الأمراض المغيرة للصورة، ويكون محنة لا عقوبة، فبين تعالى بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أنه تعالى فعلها عقوبة على ما كان منهم.

١٨. في قوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ وجوه:

أ. أحدها: لما قبلها وما معها وما بعدها من الأمم والقرون لأن مسخهم ذكر في كتب الأولين، فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغ إليه خبر هذه الواقعة من الآخرين.

ب. ثانيها: أريد بما بين يديها ما يحضرها من القرون والأمم.

ج. ثالثها: المراد أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من هذا الفعل وما بعده وهو قول الحسن.

١٩. في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أن من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به، ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم، وإن لم ينزل عاجلًا فلا بد من أن يخاف من العقاب الآجل الذي هو أعظم وأدوم، وأما تخصيصه المتقين بالذكر، فكمثل قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم إذا اختصموا بالاتعاظ والانزجار والانتفاع بذلك صلح أن يخصوا به، لأنه ليس بمنفعة لغيرهم.

---

(١) نسبه للقاضي تفسير الفخر الرازي: ٥٤٣/٣.

ب. الثاني: أن يكون معنى قوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أن يعظ المتقون بعضهم بعضاً أي جعلناها نكالًا وليعظ به بعض المتقين بعضاً فتكون الموعظة مضافة إلى المتقين على معنى أنهم يتعظون بها، وهذا خاص لهم دون غير المتقين.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. اختلف العلماء في الممسوخ هل ينسل على قولين:

أ. قال الزجاج: قال قوم يجوز أن تكون هذه القردة منهم، واختاره القاضي أبو بكر بن العربي، واستدل له:

• بقوله ﷺ: فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته)، رواه أبو هريرة أخرجه مسلم

• بحديث الضب رواه مسلم أيضا عن أبي سعيد وجابر، قال جابر: أتى النبي ﷺ بضب فأبى أن يأكل منه، وقال: لا أدري لعله من القرون التي مسخت)

• بما رواه البخاري عن عمرو بن ميمونٍ أنه قال: رأيت في الجاهلية قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم، ثبت في بعض نسخ البخاري وسقط في بعضها، وثبت في نص الحديث (قد زنت) وسقط هذا اللفظ عند بعضهم، قال ابن العربي: فإن قيل: وكان البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خلفا عن سلف إلى زمان عمرو؟ قلنا: نعم كذلك كان، لان اليهود غيروا الرجم فأراد الله أن يقيمه في مسوخهم، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويحصى ما يبدلون وما يغيرون، ويقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون وينصر نبيه ﷺ وهم لا ينصرون)

ب. قال الجمهور: الممسوخ لا ينسل، وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك، والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل، لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام، قال ابن عباس: لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، قال ابن عطية: وروي عن النبي ﷺ وثبت أن الممسوخ لا ينسل، ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٤٤٠.

٢. الصحيح أن الممسوخ لا ينسل، وأما ما احتج به ابن العربي وغيره، فلا حجة في شي منه:

أ. أما ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدي في جمع الصحيحين: حكى أبو مسعود الدمشقي أن لعمرو بن ميمونٍ الأودي في الصحيحين حكاية من رواية حصين عنه قال: رأيت في الجاهلية قردة أجتمع عليها قردة فرجموها فرجمتها معهم:

• كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر في أي موضع أخرجه البخاري من كتابه، فبحثنا عن ذلك فوجدناه في بعض النسخ لا في كلها، فذكر في كتاب أيام الجاهلية، وليس في رواية النعيمي عن الفربري أصلا شي من هذا الخبر في القردة، ولعلها من المقحمات في كتاب البخاري، والذي قال البخاري في التاريخ الكبير: قال لي نعيم بن حماد أخبرنا هشيم عن أبي بلج وحصين عن عمرو بن ميمونٍ قال: رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم، وليس فيه (قد زنت)، فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخاري دلالة على أن عمرو بن ميمونٍ الأوديّ قد أدرك الجاهلية ولم يبال بظنه الذي ظنه في الجاهلية.

• أما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حطان، وليسا ممن يحتج بهما، وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلف، وإقامة الحدود في البهائم، ولو صح لكانوا من الجن، لان العبادات في الانس والجن دون غيرهما.

ب. أما قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: ولا أراها إلا الفأر) وفى الضب: لا أدري لعله من القرون التي مسخت) وما كان مثله، فإنما كان ظنا وخوفا لان يكون الضب والفأر وغيرهما مما مسخ، وكان هذا حدسا منه ﷺ قبل أن يوحى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلا، فلما أوحى إليه بذلك زال عنه ذلك التخوف[1].، وعلم أن الضب والفأر ليسا مما مسخ، وعند ذلك أخبرنا بقوله ﷺ لمن سأله عن القردة والخنازير: هي مما مسخ؟ فقال: إن الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك)، وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم في كتاب القدر، وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر، فدل على صحة ما ذكرنا.

﴿خَاسِئِينَ﴾ نعت، وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان، أو حالا من الضمير في ﴿كُونُوا﴾، ومعناه

(١) نرى في هذا جرأة على مقام النبوة، ومؤثر في القول بعصمتها، والجواب الصحيح هو عدم صحة الحديث.

مبعدين، يقال: خسأته فخسأ وخسئ، وانخسأ أي أبعدته فبعد، وقوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ [الملك: ٤] أي مبعدا، وقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي تباعدوا.

٣. في المجعول نكالا أقاويل:

أ. قيل: العقوبة.

ب. وقيل: القرية، إذ معنى الكلام يقتضيها.

ج. وقيل: الامة التي مسخت.

د. وقيل: الحيتان، وفية بعد.

٤. النكل والأنكال: القيود النكل والأنكال: القيود.. وسميت القيود أنكالا لأنها ينكل بها، أي يمنع، ويقال للجام الثقيل: نكل ونكل، لأن الدابة تمنع به، ونكل عن الأمر ينكل، ونكل ينكل إذا امتنع، والتنكيل: إصابة الأعداء بعقوبة تنكل من وراءهم، أي تجبنهم، وقال الأزهري: النكال العقوبة، ابن دريد: والمنكل: الشيء الذي ينكل بالإنسان، قال: فارم على أقفائهم بمنكل.

٥. اختلف في معنى ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾:

أ. قال ابن عباس والسدي: لما بين يدي المسخة ما قبلها من ذنوب القوم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل مثل تلك الذنوب، قال الفراء: جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب، ولما يعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم، وقال ابن عطية: وهذا قول جيد، والضميران للعقوبة.

ب. وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس: لمن حضر معهم ولمن يأتي بعدهم، واختاره النحاس، قال وهو أشبه بالمعنى.

ج. وعن ابن عباس أيضا: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى.

د. وقال قتادة: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من ذنوبهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من صيد الحيتان.

٦. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على نكال، ووزنها مفعلة من الاتعاظ والانزجار، والوعظ: التخويف، والعظة الاسم، قال الخليل: الوعظ التذكير بالخير فيما يرق له القلب، قال الماوردي: وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين، قال ابن عطية: واللفظ يعم كل متق من كل أمة، وقال الزجاج ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ لامة محمد ﷺ أن ينتهكوا من حرم الله عز وجل ما نهاهم

عنه، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حرم الله في سبتهم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُم﴾ عرفتم، والمعرفة: إدراك نفس الشيء حسًّا كان أو عَرَضًا، والعلم: إدراكه على صفة كذا، ولا يقال: الله عارف أو عرف أو يَعرِف (بالبناء للفاعل)، فقيل: لأنَّ المعرفة تقتضي تقدُّم الجهل؛ وقيل: لعدم التوقيف، وقد يستعمل، وقيل بالجواز ولم يتقدَّم جهل تعالى الله.[(٢)]

٢. ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ جاوزوا الحدَّ، وقدَّر بعضهم مضافًا، أي: ولقد علمتم اعتداء الذين اعتدوا ﴿مِنكُمْ﴾ بصيد السمك ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وقدَّر بعضهم مضافًا، أي: في حكم السبت، وهو يوم أو مصدر، والخطاب في ﴿مِنكُمْ﴾ و﴿عَلِمْتُمْ﴾ لمن في زمانه ﷺ من بني إسرائيل، وهم عارفون بقوم مُسِخوا في زمان داود، ولا يشترط العلم بالكُنْهِ في لفظ المعرفة.

٣. وقوم داود سبعون ألفًا في أرض (أَبْلَةَ) ـ بفتح الهمزة وإسكان الباء ـ قرية على الساحل بين المدينة والطور: صنفٌ أمْسَك ونهى، وصنفٌ أمسك ولم ينه، وصنف اصطاد، وهم اثنا عشر ألفًا، شرعوا حياضًا ينزل الحوت فيها ولا يقدر على الخروج، ويصطادون ما فيها يوم الأحد، فعلوا ذلك زمانًا، فقالوا: قد حلَّ السبت فكانوا يصطادون فيه جهرًا، ويبيعون في الأسواق، وقد نهى الله عن الاصطياد في اليوم الذي بعد يوم الجمعة، أمروا بالتجرُّد للعبادة في يوم، فاختار موسى يوم الجمعة، وقيل: أمروا بذلك وخالفوه للسبت؛ لأنَّه يوم تمَّ فيه الخلق، فألزمهم الله إيَّاه.

٤. والسبت في الأصل عن السبوت، وهو الراحة، أو من السبت وهو القطع، قَطَع الله فيه الخلق وتمَّ، وأيضًا أمر الله اليهود بقطع الأشغال فيه والتفرُّغ للعبادة، ولا يبعد تسميته بالسبت في زمان موسى عليه السلام لذلك، ولو كان تبديل أسماء الأسبوع بما هي عليه الآن واقع من العرب بعد عيسى عليه السلام.

٥. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أذلَّاء خاضعين، ونجَا الناهون والساكتون على الأصحِّ؛ لأنَّ

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٢٩.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٢٩.

الساكتين أنكروا بقلوبهم فقط لوجود من ادَّى فرض النهي، وَأَمَّا الممسوخون خنازير فأصحاب المائدة؛ وقيل: مسخت شبَّانهم قردة، وشيوخهم خنازير، إلَّا أنَّه لم يذكر هنا الخنازير، فهم يتعاوون كالقردة بأذناب كأذنابها، ويعرفون قرابتهم، ويحتكُّون إليهم، عاشوا ثلاثة أيَّام، وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية؛ وماتوا ولم يأكلوا ولم يشربوا في الأيَّام الثلاثة، وقد كان قبلهم القردة والخنازير، والممسوخ لا نسل له، كما روي عنه ﷺ.

٦. والأمر للتسخير، إذ لا طاقة لهم أن يتحوَّلوا قردة، ولا يؤمر بما لا يطاق، ولكنَّه مجاز عن تكوينهم قردة، أو تمثيل بأمر من يطاع فورًا، فهو أمر إيجاد لا أمر إيجاب، كقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وجمع السلامة لكونهم عقلاء قبل المسخ بل وبعده، فإنَّهم يعرفون قرابتهم ويحتكُّون إليهم، فيقولون: ألم ننهكم؟ فيجيبون برؤوسهم: بلى، وتدمع عيونهم بكاءً، وإنَّما بدِّلت الصورة لا العقل، فلا حاجة إلى ما قيل: الجمع بذلك تشبيه بالعقلاء، وهم بعد المسخ مكلَّفون عند مجاهد، وقيل: لا.

٧. ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: المسخة المعلومة، أو العقوبة، أو القرية، أو كينونتهم قردة ﴿نَكَالاً﴾ ردعًا ومنعًا عن أن يصطاد مثلهم يوم السبت الحوت، وعن أن يخالف أمر الله مطلقًا، ولو بغير الصيد؛ أو ﴿نَكَالاً﴾: اسم لِلِجام الحديد، شبَّه العقوبة به في المنع، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ في زمانها من الناس، وذكرهم بـ (ما) إشارة للأنواع من الناس؛ أو (ما) عبارة عن القرى الحاضرة لها، والمراد أهلها، وكذا في قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الناس إلى يوم القيامة، والآية مقوِّية لتفسير (خلفهم) في الآيات غير هذه بِمَا بَعْدُ؛ لأنَّ هذه لا يصلح فيها مَن مَضَى؛ إذ لا تكون المسخة نكالاً لمن مات قبلها.

٨. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ منهم أو من غيرهم، وقيل: من هذه الأمَّة عن أن يقصِّروا أو لغيرهم، وخصَّهم لأنَّهم المنتفعون، أو لأنَّ المراد بالموعظة حصول أثرها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، أي: يحصل أثر إنذارك.

٩. قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً﴾ ردٌّ لقول مجاهد: إنَّهم لم يمسخوا صورة ولكن قلوبًا، ومثِّلوا بقردة، إذ تحويل قلوبهم لا يظهر لكلِّ أحد حتَّى يكون رادعًا وموعظة، ولو ظهر لم يتبيَّن قبحه لجمهور الناس، بخلاف مسخ صورهم فإنَّه يظهر قبحها للموحِّد والمشرك، والمطيع والعاصي.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين:

أ. ففرقة اعتدت في السبت: أي جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه فصادوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه.

ب. والفرقة الأخرى انقسمت إلى فرقتين:

- فرقة جاهرت بالنهي واعتزلت.
- وفرقة لم توافق المعتدين ولا صادوا معهم لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهي، ولا اعتزلوا عنهم.

فمسخهم الله جميعا، ولم تنج إلا الفرقة التي جاهرت بالنهي واعتزلت فقط.

٢. هذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في العجرفة وعاندوا أنبياءهم، وما زالوا في كل موطن يظهرون من حماقاتهم وسخف عقولهم وتعنتهم نوعا من أنواع التعسف، وشعبة من شعب التكلف؛ فإن الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ فاحتالوا لصيدها، وحفروا الحفائر وشقوا الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ أي تعمدوا العدوان ﴿مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ بأن استحلوه وتحيّلوا على اصطياد الحيتان فيه، وذلك أن الله ابتلاهم، فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرقت كما قال: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فحفروا حياضا عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد. فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم.

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١١٤.

(٢) تفسير القاسمي: ١/٣٢٤.

٢. تسبب عن اعتدائهم المذكور ما ذكره تعالى بقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي صاغرين مطرودين مبعدين من الخير، أذلاء:

أ. وقد روي عن الضحاك وقتادة: أنهم مسخوا قردة، لها أذناب تعاوى، بعد ما كانوا رجالا ونساء.

ب. وأما مجاهد فقال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا. رواه ابن جرير، وهكذا قال القاشانيّ: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ أي مشابهين الناس في الصورة وليسوا بهم. ثم قال: والمسخ بالحقيقة حق غير منكر في الدنيا والآخرة، وردت به الآيات والأحاديث، وفي أثر: عدّ المسوخ ثلاثة عشر، وبيان أعمالهم ومعاصيهم وموجبات مسخهم، والحاصل أن من غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات، ورسخ فيه بحيث زال استعداده، وتمكن في طبعه، وصار صورة ذاتية له، صار طبعه طبع ذلك الحيوان، ونفسه نفسه، فصارت صفته صورته.

٣. هذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]

٤. أفادت هذه الآية التنويه بشأن يوم السبت عند الإسرائيليين، إذ مستحلوه منهم مسخوا قردة، وفي ترجمة التوراة ما نصه: وكلم الرب موسى قائلا: كلم بني إسرائيل، تحفظون السبت لأنه مقدس لكم، من دنّسه يقتل، ومن صنع فيه عملا يقطع من بين شعبه. في ستة أيام تصنع الأعمال، وأما اليوم السابع ففيه سبت راحة، وليحفظ بنو إسرائيل السبت، وليتخذوه عيدا بأجيالهم. لأن الرب خلق السماء والأرض في ستة أيام، وفرغ يوم السابع، وفيها أيضا ما نصه: في ستة أيام تعمل عملك، وأما اليوم السابع ففيه تستريح، لكي يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب.

٥. حرم على اليهود فيه أن يعدّوا طعامهم. بل حرم عليهم أن يوقدوا نارا، وفي سفر نحميا ـ في الفصل الثالث عشر ـ ما نصه: وفي تلك الأيام رأيت في يهوذا قوما يدوسون في المعاصر في السبت ويأتون بأكداسها يحملونها على الحمير، وبخمر أيضا، وعنب وتين، وكل حمل مما كانوا يأتون به إلى أورشليم في يوم السبت. فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام، وكان الصوريون المقيمون بها يأتون بالسمك، وكل نوع من المبيعات، ويبيعون في يوم السبت لبني يهوذا وفي أورشليم. فخاصمت عظماء يهوذا، وقلت لهم: ما هذا

الشرّ الذي تفعلونه وتدنّسون يوم السبت؟ ألم تفعل آباؤكم هكذا؟ فجلب إلهنا كل هذا الشر علينا وعلى هذه المدينة، وأنتم تزيدون الغضب على بني إسرائيل بتدنيسكم السبت، إلى آخره.

٦. ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة والعقوبة ﴿نَكَالًا﴾ عبرة تنكل المعتبر بها، أي تمنعه وتردعه، ومنه النكل للقيد ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من المعاصي من أهل عالمها الشاهدين لها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ممن جاء بعدهم، أو لأهل تلك القرية وما حواليها، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها.

٧. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ من قومهم، أو لكل متق سمعها، وأشعر هذا أن التقوى عصمة من كل محذور، وأن النقم تقع في غيرهم، وعظا لهم.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي(١):

١. أباح الله تعالى لبنى اسرائيل العمل في ستة أيام من الأسبوع، وحظر عليهم العمل في يوم واحد، وهو يوم السبب، وفرض عليهم في هذا اليوم الاجتهاد في الأعمال الدينية إحياء للشعور الديني في قلوبهم، وإضعافا لشرههم في جمع الحطام وحبهم للدنيا، فتجاوز طائفة منهم حدود الله في السبت واعتدوها، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض نفسه بآداب الدين، وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الإنساني والرتوع في مراتع البهيمية، كالقرد في نزواته، والخنزير في شهواته.

٢. سجل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة، والنواميس التي أقام بها نظام الخليقة، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾

٣. ذهب جمهور المفسرين: إلى أن تلك القرية أيلة، وقيل: طبرية أو مدين، وقالوا إن ذلك كان في زمن داوود عليه السّلام، والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات، فالحجة فيما ذكر قائمة على بنى اسرائيل ومبينة أن مجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ ليست بدعا من أمرهم، ثم انها عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ إلهه هواه ويعيش عيشة بهيمية.

٤. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي وأقسم أنكم لقد علمتم نبأ الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب في ترك العمل الدنيوي يوم السبت، روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه

---

(١) تفسير المنار: ١/٣٤٤.

قال: ما مسخت صورهم، ولكن مسخت قلوبهم، فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾

٥. الأمر للتكوين، أي فكانوا بحسب سنة الله في طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس: والمعنى أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرأهم على المعاصي والمنكرات بلا خجل ولا حياء حتى صار كرام الناس يحتقرونهم ولا يرونهم أهلا لمجالستهم ومعاملتهم.

٦. ذهب الجمهور أيضا إلى أن معنى ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ ان صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين، والآية ليست نصا فيه ولم يبق إلا النقل، ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان، إذ ليس ذلك من سننه في خلقه، وإنما العبرة الكبرى في العلم بأن من سنن الله تعالى في الذين خلوا من قبل: أن من يفسق عن أمر ربه، ويتنكب الصراط الذي شرعه له، ينزل عن مرتبة الانسان ويلتحق بعجماوات الحيوان.

٧. سنة الله تعالى واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية، ولذلك قال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي جعلنا هذه العقوبة نكالا وهو ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر غيره أي عبرة ينكل من يعلم بها أي يمتنع من اعتداء الحدود، ومن هذه المادة (النكل) للقيد أو هو أصلها ومنها النكول عن اليمين في الشرع وهو الامتناع، وما بين يديها يراد به من وقعت في زمنهم كما يراد بها خلفها من بعدهم إلى ما شاء الله تعالى.

٨. أما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتقي يتعظ بها في نفسه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداؤها ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ويعظ بها غيره أيضا ولا يتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين، إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة في تربية الأمم وتهذيب الطباع، وذلك ما هو معروف لأهل البصائر، ومشهور عند عرفاء الأوائل والأواخر.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٣٨.

١. في هاتين الآيتين وما يتلوهما بعد ـ تعداد لنكث العهود والمواثيق التي أخذت على بنى إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، وحلّ بهم جزاء ما عملوا من مسخهم قردة وخنازير، فأجدر بسلائلهم الذين كانوا في عصر التنزيل تتخلل دورهم دور الأنصار ألا يجحدوا نبوة محمد ﷺ وألا يصرّوا على كفرهم وعدم التصديق بما جاء به، خوفا من أن يحلّ بهم ما حلّ بأسلافهم مما لا قبل لهم به من غضب الله.

٢. من عهودهم التي نكثوها أنهم اعتدوا يوم السبت، ذاك أن موسى عليه السلام حظر عليهم العمل في هذا اليوم، وفرض عليهم فيه طاعة ربهم والاجتهاد في الأعمال الدينية، إحياء لسلطان الدين في نفوسهم، وإضعافا لشرههم في التكالب على جمع حطام الدنيا وادّخاره، وأباح لهم العمل في ستة الأيام الأخرى، لكنهم عصوا أمره، وتجاوزوا حدود الدين، واعتدوا في السبت، فجازاهم الله بأشد أنواع الجزاء، فخرج بهم من محيط النوع الإنساني وأنزلهم أسفل الدركات، فجعلهم يرتعون في مراتع البهائم، وليتهم كانوا في خيارها، بل جعلهم في أخس أنواعها، فهم كالقردة في نزواتها، والخنازير في شهواتها، مبعدين من الفضائل الإنسانية، يأتون المنكرات جهارا عيانا بلا خجل ولا حياء، حتى احتقرهم كرام الناس، ولم يروهم أهلا لمعاشرة ولا معاملة.

٣. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي ولقد عرفتم نبأ الذين تجاوزوا منكم الحدّ الذي رسمه لهم الكتاب، وركبوا ما نهاهم عنه من ترك العمل الدنيوي، والتفرغ للعمل الأخروي يوم السبت.

٤. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، أي فصيرناهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين:

أ. روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم، فلا تقبل وعظا، ولا تعي زجرا، وقد مثّل الله حالهم بحال القردة كما مثّلوا بالحمار في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ (لم يعملوا بما فيها) ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

ب. وذهب جمهور العلماء إلى أنهم مسخت صورهم، فصارت صور القردة، وروى أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

٥. نظير الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الطاغوت:

الشيطان.. قال ابن كثير: والصحيح أن المسخ معنوي كما قال مجاهد لا صوري كما قال غيره.

٦. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي فجعلنا هذه العقوبة عبرة ينكل من يعلم بها أي يمتنع من الاعتداء على حدود الله، سواء منهم من وقعت في زمانه أو من بعدهم إلى يوم القيامة.

٧. هي أيضا موعظة للمتقين، لأن المتقي يتّعظ بها ويتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداءها كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فيتعظ بها غيره أيضا.

٨. لن يتم الاتعاظ بها وتكون عقوبة للمتقدم والمتأخر إلا إذا جرت على سنن الله المطردة في تهذيب النفوس وتربية الشعوب.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. مرة أخرى يواجههم بمظهر من مظاهر النكث والنكسة، والتحلل من العهد والعجز عن الاستمساك به، والضعف عن احتمال تكاليفه، والضعف أمام الهوى أو النفع القريب.

٢. طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدسا لا يعملون فيه للمعاش، ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت، وتختفي في غيره! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع؟ أتتركه وفاء بعهد واستمساكا بميثاق؟ إن هذا ليس من طبع يهود! ومن ثم اعتدوا في السبت.. اعتدوا على طريقتهم الملتوية.. راحوا يحوطون على الحيتان في يوم السبت، ويقطعونها عن البحر بحاجز، ولا يصيدونها! حتى إذا انقضى اليوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز! ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

٣. لقد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله، والنكوص عن مقام الإنسان ذي الإرادة، فانتكسوا بهذا إلى عالم الحيوان والبهيمة، الحيوان الذي لا إرادة له، والبهيمة التي لا ترتفع على دعوة البطون! انتكسوا بمجرد تخليهم عن الخصيصة الأولى التي تجعل من الإنسان إنسانا، خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٧٧.

٤. ليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر في السحنة وتلقي ظلها العميق!

٥. مضت هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين في زمانها وفيما يليه، وموعظة نافعة للمؤمنين في جميع العصور: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. القوم هنا لم يستجيبوا لتلك الدعوة، بل تولّوا ونكصوا على أعقابهم، ولكن الله أمهلهم، ولم يعجّل لهم العقاب، كما وقع لأسلاف لهم من قبل.. خالفوا أمر الله واعتدوا في السّبت، فمسخهم الله قردة، وأنزلهم من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان، فما أبشع تلك صورة وأخسّها، يعيشون في صور القرود بمشاعر الإنسان، وإدراك الإنسان، وذلك هو العذاب، ولعذاب الآخرة أخزى وأوجع!.

٢. تحوّل هؤلاء الممسوخين من الإنسان إلى القرد يمكن أن يستأنس به في خلق الإنسان وفى تطوره في الخلق، وأن الإنسان كما انتقل صاعدا من قرد إلى إنسان، كذلك ردّ نازلا من إنسان إلى قرد!.

٣. لعلّ في قوله تعالى: ﴿خَاسِئِينَ﴾ ما يقوّى هذا الرأي إذ يقال في اللغة: خسأ الكلب يخسأه خسأ: طرده، وخسأ البصر يخسأ خسوءا: كلّ وأعيا، وخسئ الكلب يخسأ وانخسأ: انزجر وبعد، والخاسئ من الخنازير والكلاب: المبعد المطرود، ومعنى (خاسئين) مبعدين، مطرودين من عالم الإنسان، مردودين إلى عالم الحيوان، وإلى فصيلة القردة منه، التي هي أعلى مراتب الحيوان وأول مراتب الإنسان الحيوان!

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[٢]:

١. هذه من جملة الأخبار التي ذكرها الله تعالى تذكيرا لليهود بما أتاه سلفهم من الاستخفاف بأوامر الله تعالى وبما عرض في خلال ذلك من الزواجر والرحمة والتوبة، وإنما خالف في حكاية هاته القصة أسلوب حكاية ما تقدمها وما تلاها من ذكر ﴿إِذْ﴾ المؤذنة بزمن القصة والمشعرة بتحقق وقوعها إلى قوله هنا:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١/٩٥.

(٢) التحرير والتنوير: ١/٥٢٦.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ لمعنى بديع هو من وجوه إعجاز القرآن، وذلك أن هذه القصة المشار إليها بهذه الآية ليست من القصص التي تضمنتها كتب التوراة مثل القصص الأخرى المأتي في حكايتها بكلمة (إذ) لأنها متواترة عندهم، بل هذه القصة وقعت في زمن داوود عليه السلام، فكانت غير مسطورة في الأسفار القديمة، وكانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ عليها وتلك معجزة غيبية وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأن العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾

٢. الاعتداء وزنه افتعال من العدو، وهو تجاوز حد السير والحد والغاية، وغلب إطلاق الاعتداء على مخالفة الحق، وظلم الناس، والمراد هنا اعتداء الأمر الشرعي لأن الأمر الشرعي يشبّه بالحد في أنه يؤخذ بما شمله، ولا يؤخذ بما وراءه.

٣. الاعتداء الواقع منهم هو اعتداء أمر الله تعالى إياهم من عهد موسى بأن يحافظوا على حكم السبت وعدم الاكتساب فيه ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا، فكانت طائفة من سكان أيلة على البحر رأوا تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ لأنها إذا لم تر سفن الصيادين وشباكهم أمنت فتقدمت إلى الشاطئ تفتح أفواهها في الماء لابتلاع ما يكون على الشواطئ من آثار الطعام ومن صغير الحيتان وغيرها فقالوا: لو حفرنا لها حياضا، وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها، وفعلوا ذلك، فغضب الله تعالى عليهم لهذا الحرص على الرزق، أو لأنهم يشغلون بالهم يوم السبت بالفكر فيما تحصّل لهم، أو لأنهم تحيلوا على اعتياض العمل في السبت، وهذا الذي أحسبه لما اقترن به من الاستخفاف واعتقادهم أنهم علموا ما لم تهتد إليه شريعتهم فعاقبهم الله تعالى بما ذكره هنا.

٤. ﴿فِي السَّبْتِ﴾ يجوز أن تكون (في) للظرفية، والسبت مصدر سبت اليهودي من باب ضرب ونصر بمعنى احترم السبت وعظمه، والمعنى اعتدوا في حال تعظيم السبت أو في زمن تعظيم السبت، ويجوز أن تكون (في) للعلة أي اعتدوا اعتداء لأجل ما أوجبه احترام السبت من قطع العمل، ولعل تحريم الصيد فيه ليكون أمنا للدواب.. ويجوز أن تكون (في) ظرفية والسبت بمعنى اليوم وإنما جعل الاعتداء فيه مع أن الحفر في يوم الجمعة لأن أثره الذي ترتب عليه العصيان وهو دخول الحيتان للحياض يقع في يوم السبت.

٥. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ كونوا أمر تكوين، والقردة جمع قرد وتكوينهم قردة:

أ. يحتمل أن يكون بتصيير أجسامهم أجسام قردة مع بقاء الإدراك الإنساني، وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين.

ب. ويحتمل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني، وهذا قول مجاهد.

٦. العبرة حاصلة على كلا الاعتبارين، والأول أظهر في العبرة لأن فيه اعتبارهم بأنفسهم، واعتبار الناس بهم بخلاف الثاني، والثاني أقرب للتاريخ إذ لم ينقل مسخ في كتب تاريخ العبرانيين، والقدرة صالحة للأمرين، والكل معجزة للشريعة، أو لداود، ولذلك قال الفخر: ليس قول مجاهد ببعيد جدا لكنه خلاف الظاهر من الآية وليس الآية صريحة في المسخ.

٦. معنى كونهم قردة أنهم لما لم يتلقوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ فقد أشبهوا العجماوات في وقوفها عند المحسوسات، فلم يتميزوا عن العجماوات إلا بالشكل الإنساني، وهذه القردة تشاركهم في هذا الشبه، وهذا معنى قول مجاهد هو مسخ قلوب لا مسخ ذوات.

٧. القائلون بوقوع المسخ في الأجسام اتفقوا أو كادوا على أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام وأنه لا يتناسل وروى ذلك ابن مسعود عن النبي ﷺ في (صحيح مسلم) أنه قال: لم يهلك الله قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا)، وهو صريح في الباب.

٨. من العلماء من جوّز تناسل الممسوخ، وزعموا أن الفيل والقرد والضب والخنزير من الأمم الممسوخة، وقد كانت العرب تعتقد ذلك في الضب، قال أحد بني سليم، وقد جاء لزوجه بضب فأبت أن تأكله:

قالت وكنت رجلا فطينا هذا لعمر الله إسرائينا

حتى قال بعض الفقهاء بحرمة أكل الفيل ونحوه بناء على احتمال أن أصله نسل آدمي، قال ابن الحاجب: وأما ما يذكر أنه ممسوخ كالفيل والقرد والضب، ففي المذهب الجواز لعموم الآية، والتحريم لما يذكر) أي لعموم آية المأكولات، وصحح صاحب (التوضيح) عن مالك الجواز وقد روى مسلم في أحاديث متفرقة من آخر (صحيحه) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته)،

وقد تأوله ابن عطية وابن رشد في (البيان) وغير واحد من العلماء بأن هذا قاله النبي ﷺ عن اجتهاد قبل أن يوقفه الله على أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، ولا يتناسل كما هو صريح حديث ابن مسعود، ويؤيد هذا أنه قال عن اجتهاد قوله: ولا أراها)، ولا شك أن هاته الأنواع من الحيوان موجودة قبل المسخ وأن المسخ إليها دليل على وجودها ومعرفة الناس بها.

٩. هذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجترؤوا من الاستخفاف بالأمر الإلهي حتى تحيلوا عليه، وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءة، على الله تعالى، ولا حجة لمن ينتحل جواز الحيل بقوله تعالى في قصة أيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] لأن تلك فتوى من الله تعالى لنبي لتجنب الحنث الذي قد يتفادى عنه بالكفارة، ولكن الله لم يرض أصل الحنث لنبيه لأنه خلاف الأولى، فأفتاه بما قاله، وذلك مما يعين على حكمة اجتناب الحنث لأن فيه محافظة على تعظيم اسم الله تعالى فلا فوات للحكمة في ذلك.

١٠. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ عاد فيه الضمير على العقوبة المستفادة من قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾

١١. النكال: العقاب الشديد الذي يردع المعاقب عن العود للجناية، ويردع غيره عن ارتكاب مثلها، وهو مشتق من نكل إذا امتنع ويقال نكّل به تنكيلا ونكالا معنى عاقبه بما يمنعه من العود.

١٢. المراد بها بين يديها وما خلفها ما قارنها من معاصيهم وما سبق يعني أن تلك الفعلة كانت آخر ما فعلوه، فنزلت العقوبة عندها ولما بين يديها من الأمم القريبة منها ولما خلفها من الأمم البعيدة.

١٣. الموعظة: ما به الوعظ وهو الترهيب من الشر.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. كان بنو إسرائيل قوما غلبت عليهم شقوتهم، فكان رب العالمين يشرع لهم من الشرائع ما يربون به نفوسهم، ويعودهم ضبط النفس، وفطمها، ليتربوا على البعد عن الشهوات، ويقتصروا على ما فيه

---

(١) زهرة التفاسير: ١/٢٦١.

مصلحتهم، ويقيم حياتهم مستقيمة؛ ولذلك حرم عليهم بعض المباحات قرعا لنفوسهم وقطما لها، وقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

٢. من ذلك كان تحريم الصيد عليهم يوم السبت قمعا للشهوات، وقد يكون فيه تنظيم اقتصادي، وراحة لهم، وأن يعكفوا على العبادة، ويروضوا أنفسهم على حياة روحية تتطهر فيها نفوسهم وتتجرد من سطوة المادة وشهواتها.

٣. حرم الله تعالى عليهم الصيد في يوم السبت، ولكنهم مرقوا عن أمر الله تعالى، واستباحوا السبت، أو بعبارة أدق استباحه بعضهم، وسكت عن نهيهم سائرهم، وإن كان الذين امتنعوا خيرهم، وقالوا في إخوانهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، ولأن أصواتهم لم تصل إلى درجة المنع ـ نسب الاعتداء إليهم جميعا.

٤. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أكد سبحانه وتعالى علمهم بهذا الاعتداء باللام التي تكون للتأكيد، وبقد التي تكون للتحقيق دائما سواء أدخلت على المضارع أم دخلت على الماضي كما هو في القرآن الكريم، وهو سبحانه وتعالى قال علمتم، ولم يقل عرفتم؛ لأن المعرفة تمييز للشخص في ظاهر أمره، فتقول: عرفت فلانا إذا لقيته ولم تخبر أحواله، وإذا قلت: علمته؛ فمعنى ذلك أنك علمت أحوال ظاهره وباطنه، فتقول: علمت زيدا إذا علمت أحواله ظهورها، وخفاياها، أي أنكم علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت، في شره نفوسهم، وقرمهم إلى الصيد، واندفاعهم نحو المخالفة لأمر ربهم مدفوعين بشهوات جامحة يتحايلون فيها تحايل الولهى لتحقيقها، حاسبين أن ذلك يخفى على الله تعالى، ولكن سبحانه وتعالى يزيد في اختبار نفوسهم، فيرسل حيتان السمك إليهم شارعة يوم السبت، ثم لا تأتيهم بعد ذلك؛ ولذلك قال تعالى مبينا الاختبار في آية أخرى، فقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

٥. هذه القرية يروى ابن كثير في تفسيره أنها كانت بين الأبلة والطور، ولعلها المصر الذي هبطوا إليه في قول موسى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، ويروى ابن كثير أنه اشته بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر

الحفيرة ويجعل لها نهرا إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح السد فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيها فإذا كان يوم الأحد جاءه، فأخذه، فشواه، وقد قلده جاره، وشاع هذا وفشا فيهم.. فقال لهم علماؤهم: إنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، فأنتم اصطدتموه يوم السبت.

٦. ما أشبه هؤلاء بإخوانهم ينتسبون إلى دين محمد ﷺ حتى إنهم يستبيحون الربا بحيل محرمة، والله عليم بهم وبأحوالهم، ولهم ما أعده الله لبنى إسرائيل، وهم أصل الداء في هذا وفى غيره.

٧. ذكر الله تعالى ما يفيد أنهم إذا لم تتهذب نفوسهم، ولم تترب بالضبط قلوبهم فإنهم كالقردة والخنازير، فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، الفاء كأخواتها تفصح عن شرط مقدر، أي إذا كانوا قد اعتدوا ذلك الاعتداء وشرهوا ذلك الشره، قلنا لهم بلسان التكوين: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وروى عن مجاهد أنه قال: أنه مسخت قلوبهم فصارت كقلوب القردة تنزو لشهواتها ولا تتعقل ولا تتدبر في عاقبة أمرها فهبطوا إلى هذه المنزلة الدون وقال: إنه مثل ضربه الله تعالى مبينا حالهم، كالمثل في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، فصارت قلوبهم قلوب قردة.

٨. يزكى ذلك المعنى أنه شبه حالهم في آية أخرى بالقردة والخنازير لا بالقردة وحدهم، وذلك في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

٩. معنى خاسئين: أي مبعدين، يقال: خسئ أي بعد، وخسأته أبعدته، والمعنى بعيدون عن مواطن العزة ورضا الله تعالى، لأن الشهوة والعزة نقيضان لا يجتمعان فالشهوات مطية الذلة والهوان، ولا يهون إنسان إلا إذا هانت نفسه، وصارت أمة للشهوات.

١٠. إن الله تعالى جعل تلك القرية التي كانت مكان الفسق عن أمر الله تعالى نكالا وموعظة فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، والنكال المنع والزجر، والنكل القيد، والأنكال القيود، لأنها تمنع.

١١. الفاء للإفصاح، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾:

أ. قيل: يعود إلى العقوبة أي جعلنا هذه العقوبة التي كان من مقتضاها أن يفقدوا معانى السمو

الإنساني والارتفاع عن حضيض الحيوانية الأوهد.

ب. وقيل: إنها تعود على القرية التي كان فيها ذلك الاعتداء؛ لأنها حاضرة في الذهن ومشار إليها بذكر الذين اعتدوا منكم في السبت، أي والقرية التي كان فيها الاعتداء، فهي إن طويت في البيان ملاحظة في المعنى، وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا، وما يطوى في مكان يصرح به في مكان آخر، تعالت كلمات الله تعالى.

١٢. أنزل الله تعالى بسبب هذه الشهوات الجامحة الخارجة عن مقتضى الطبع الإنساني عذابا شديدا من الذل بعد العزة، ومن الضيق بعد السعة، ومن الشدة بعد الرخاء ما جعلها عبرة لمن بين يدي الحاضرين، ومن يجيء بعدها من الناس.

١٣. عبر سبحانه وتعالى عن الحاضرين بقوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ كناية عن وجودها معهم، وأنها على مقربة منهم، قرب ما بين اليدين من الصدر، والذين تحوطهم ويحوطونها.

١٤. ذلك العقاب يكون له صدى يتردد في الأجيال بعدهم جيلا بعد جيل، ومثل هذه القرية كمثل قرية عصت أمر الله تعالى، وكفرت بأنعمه سبحانه، وقال فيها تعالت كلماته: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فما أشبه حال بنى إسرائيل في أنعم الله تعالى عليهم بحال تلك القرية، وكأنها مثل بين لهم.

١٥. الموعظة وزنها تفعلة بمعنى المصدر الميمي من الوعظ، وهو التخويف والزجر بما وقع لغيره، ويكون للتذكير بالخير مما يرق له القلب، كما يكون للتذكير والإنذار بما وقع للعصاة.

١٦. خص سبحانه وتعالى تأثير الموعظة بالمتقين، وإن كانت هي للعالمين لتفردهم بالتأثر بها، والاهتداء بهديها وهم الذين تنفعل نفوسهم للخير لأنهم ليسوا مغرورين بعزة الشيطان، ولكن تمتلئ قلوبهم بتقوى الله تعالى، بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله تعالى وقاية، فمن دأبهم الحذر من الشر، وإذا ذكّروا ذكروا، والله هو الهادى إلى الرشاد.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. أمرهم الله سبحانه بترك العمل يوم السبت، وحرم عليهم صيد الأسماك فيه، فكانت الحيتان تتجمع في هذا اليوم آمنة مطمئنة، ولكن ثلثة من اليهود احتالوا وتأوّلوا.. حيث حبسوا الحيتان يوم السبت وحصروها في مكان لا تستطيع تجاوزه، وأخذوها يوم الأحد، وقالوا: ان الله نهى عن صيد الحيتان في هذا اليوم، ولم ينه عن حبسها، وفرق بعيد بين الحبس وبين الصيد.

٢. هذا الدجل والاحتيال يذكر بنفاق محترفي الدين والوطنية الذين يتلاعبون بالألفاظ، ويشوهون الحقائق، ليوقعوا بعض السذج في شباكهم.. ومن الطريف ان بعض الشيوخ ألّف كتابا خاصا في الحيل الشرعية، حتى كأنّ الله طفل صغير تخفى عليه التمويهات، ولا يعلم الصادقين من الكاذبين.. وإذا لم يمسخ الله هؤلاء قردة خاسئين في هذه الحياة، كما فعل باليهود من قبل فسيحشرهم غدا على هيئة الكلاب والقردة والخنازير.. وإذا لم يمسخ الكاذبون الآن في الظاهر فإنهم ممسوخون في الباطن.. ولا حجة أقوى من الأفعال التي تنبئ بمسخ نفوسهم.

٣. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ . اختلف المفسرون: هل كان المسخ لمن اعتدى في السبت من اليهود مسخا حقيقيا، بحيث صارت أجسامهم وصورهم على هيئة القرود، أو ان المسخ كان في الطبع، لا في الجسم، تماما مثل: ختم الله على قلوبهم، ونظير كمثل الحمار يحمل أسفارا؟.. ذهب أكثر المفسرين الى الأول، وان المسخ كان حقيقة، عملا بالظاهر الذي لا داعي الى تأويله، وصرفه عن دلالته، لأن تحول الصورة الى صورة أخرى جائز عقلا، فإذا جاءت آية أو رواية صحيحة على وقوعه أجريناها على ظاهرها، حيث لا حاجة الى التأويل.. وذهب قليل منهم مجاهد في القديم، والشيخ محمد عبده في الحديث الى الثاني، وان المسخ كان في النفس، لا في الجسم.

٤. الصحيح عليه جمهور العلماء والمفسرين، وان المسخ كان حقيقة، لا مجازا، أما قول عبده فصحيح في نفسه، كمبدأ عام، وقاعدة كلية، ولكن لهذه القاعدة مستثنيات، تستدعيها الحكمة الإلهية، كالمعجزات، وما اليها من الكرامات.. ومعاملة الله مع بني إسرائيل في ذاك العهد من هذه المستثنيات، ذلك:

---

(١) التفسير الكاشف: ١/١٢١.

أ. أن من يدقق النظر في آي الذكر الحكيم التي نزلت في الاسرائيليين خاصة، وفي الذين كانوا منهم على عهد موسى الكليم عليه السلام بوجه أخص، ان من يستقرئ هذه الآيات يخرج بنتيجة واضحة كالشمس، وهي انه سبحانه قد عاملهم معاملة لا تشبه شيئا، ولا يشبهها شيء مما هو معروف ومألوف.. وغير بعيد أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ اشارة الى هذه المعاملة الخاصة، فلقد حررهم الله من نير فرعون وطغيانه بانفلاق البحر، لا بالجهاد والتضحية، وأطعمهم المنّ والسلوى، وسقاهم الماء بمعجزة، لا بالكد والعمل، ورفع فوقهم الجبل ليطيعوا، ويسمعوا، وأحيا قتيلهم، ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل.. كل ذلك، وما اليه يدل دلالة صريحة واضحة على ان مشاكل اليهود في ذلك العصر لم تحل بطريقة طبيعية مألوفة، بل لم يفكروا هم أنفسهم في العمل من أجل حلها.. فكلما اصطدموا بمشكلة قالوا: يا موسى ادع لنا ربك يفعل ويترك.. وكان موسى يدعو، والله يستجيب.

ب. بهذا يتبين معنا ان قياس سائر الأجيال على الجيل الاسرائيلي آنذاك في غير محله، وان قول الشيخ محمد عبده: ان الله يعامل القرون الحاضرة بمثل القرون الخالية) يصح في جميع الناس الا في أولئك الناس.

ج. وأيضا يتبين ان الله قد أراد برفع الجبل أن يكرههم ويلجئهم الى الأخذ بما في التوراة، وان قول السيد الطباطبائي في كتاب الميزان: ان رفع الجبل لا يدل على الإلجاء والإكراه، لأنه لا إكراه في الدين) ان هذا القول بعيد عن الواقع بالنسبة الى قوم موسى الذين عاملهم الله معاملة أبعد ما تكون عن الضوابط والقواعد.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فاتقوا الله واعتبروا بهم، واحذروا أن ينزل بكم العذاب العاجل كما نزل بهم.

٢. والذين اعتدوا في السبت: هم الذين ذكرهم الله في (سورة الأعراف) وفصّل قصتهم من قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾، والقرد: حيوان معروف قريب من مشابهة

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١٢٧.

الإنسان في صورته وإدراكه، ومعنى ﴿خَاسِئِينَ﴾ مطرودين من رحمة الله في ذلة وهوان.

٣. ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي هذه المصيبة النازلة والعقوبة العاجلة ﴿نَكَالًا﴾ أي عذاباً عقوبة وزجراً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من المعاصي المستقبلة ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ المعاصي السابقة أي لأجل ما خلفها من المعاصي؛ لأنها زاجرة عنه لبني إسرائيل كقوله تعالى في السارق والسارقة: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] فالجزاء لهما والنكال لهما ولغيرهما.

٤. على هذا فـ (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لام التعليل، أي من أجل ما بين يديها وما خلفها، أو لام الاختصاص أي جعلناها لما بين يديها زجراً، ولما خلفها جزاءً، وفائدة الزجر لما يكون بعدها زيادة الحجة على من ارتكب مثلها أو خلافها مما يسبب العذاب.

٥. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين تنفعهم المواعظ؛ لأنهم يتّعظون فلا يرتكبون مثلها مما يوجب العذاب، فاعتبروا بما قد علمتم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وتلاعبوا بأمر الله ونهيه، فابتعدوا به عن غايته وحوّلوه إلى مسألة شكلية لا تحمل في داخلها أي مضمون، وذلك أن الله سبحانه نهاهم عن الصيد يوم السبت، فكانت الأسماك والحيتان تأتي يوم السبت لشعورها بالأمان، فما كان منهم إلّا أن استعملوا طريقة يحبسون فيها الأسماك في ذلك اليوم، فلا تملك الخروج من الطوق الذي نصبوه لها، فيأتي يوم الأحد الذي لا نهي فيه، فيحصلون فيه على ما أرادوا الحصول عليه في يوم السبت، فلم يعد للنهي أيّة قيمة عملية من ناحية النتائج الواقعية، وهذا ما جعل القضية في سلوكهم هذا تتحول إلى اعتداء على الشريعة، فكان عقاب الله لهم شديدا لا عهد لهم به.

٢. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مسخناهم على شكل القردة، وطردناهم من رحمة الله، وأبعدناهم عن كل مواقع الإنسانية والكرامة.

٣. اختلف الرأي في هذا المسخ هل هو حقيقي، أم هو معنوي تمثيلي:

---

(١) من وحي القرآن: ٢/٨٠.

أ. المعروف هو الأول، لأن ظاهر القرآن هو ذلك من دون ما يمنع من إرادته من اللفظ ومن دون قرينة على إرادة خلاف الظاهر.

ب. أما الرأي الثاني، فهو ما ذهب إليه مجاهد حيث قال: لم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله كما قال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وحكي عنه أيضا: أنه مسخت قلوبهم فجعلت كقلوب القردة لا تقبل وعظا ولا تتقي زجرا)

ويقول صاحب مجمع البيان تعليقا على ذلك: وهذان القولان يخالفان الظاهر الذي أكثر المفسرين عليه من غير ضرورة تدعو إليه)

٤. ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ هذه الجماعة الممسوخة، أو العقوبة، أو القرية التي اعتدى أهلها فيها، ﴿نَكَالًا﴾ أي عقوبة للتذكرة والعبرة.

٥. ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي للقرى المحيطة بها من خلال ما يستفيده أهلها من رؤيتهم لهؤلاء الذين كانوا بشرا فتحولوا إلى قردة كنتيجة لتمردهم على الله، وللناس الذين يأتون من بعدها أو للمناطق التي تبتعد عنها.

٦. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يخافون الله فيعتبرون بما يحدث للمذنبين من العذاب الدنيوي، فيدفعهم ذلك إلى الانضباط في الخط المستقيم.

٧. إن إنزال الكتاب على أيّة أمّة من الأمم يعتبر إلزاما لها به من قبل الله كميثاق بينه وبين عباده، فيطالبهم بالالتزام به والوفاء بمضمونه، كأيّ عهد شخصي يلزم به الإنسان نفسه تجاه الآخرين. أما عظمة هذا الميثاق، فهي أنه لا يختص بحالة دون أخرى، بل يشمل كل حياة الإنسان في كل منطلقاتها وتطلعاتها، لأن الكتاب ينظّم حياته الفكرية والعملية بمفاهيمه وتشريعاته، ولهذا يعتبر الإخلال بأيّ حكم من الأحكام إخلالا بالميثاق، وربما يرشد إلى ذلك تعقيبه بذكر حادثة الاعتداء على ميثاق الله في قصة السبت.

٨. إن الأمّة مخاطبة بأن تأخذ ما آتاها الله من الكتاب بقوّة، فلا تستسلم للضعف الذاتي الذي تفرضه الشهوات على الإنسان عندما تضغط عليه في الداخل ليترك الالتزام بمبادئه ومفاهيمه أمامها، ولا تضعف أمام عوامل الضغط الخارجية التي تفرض نفسها على مصالحه لتهدده بالإساءة إليها فيما إذا حاول التمرد عليها لمصلحة إيمانه، ممّا يجعل من قضية الموقف القوي معها قضية يفرضها الوفاء بالميثاق بين الله

وبين عباده.

٩. قد نستوحي من ذلك ضرورة أن يعمل العاملون على تحقيق القوّة لوحي الله المنزل في الحياة، من خلال العمل على الدعوة إليه لتحقيق امتداده في أكبر مساحة بشرية، لأن إيجاد القوة البشرية للدعوة إلى الله يمنح الموقف قوّة في داخل الإنسان عندما يشعر بالتماسك أمام الضغوط المتنوعة من خلال شعوره الذاتي بالقوة المستمدة من الجو العام، كما يعطيه قوّة في ساحة الصراع حين يقف المؤمنون بقوتهم الإيمانية ليرهبوا أعداء الله ويدعموا المستضعفين من أوليائه.

١٠. إن الإيمان يفرض على الإنسان مواجهة الأعمال الواجبة والمحرّمة في مقام الإطاعة بعمقها الفكري والروحي والعملي، لا بشكلياتها الساذجة، ممّا يجعل من محاولة تطويق الفكرة بالشكليات التي تعطي للطاعة معناها الحرفي على حساب أهدافها الواقعية، قضية تشبه اللعب على الفكرة باسم الفكرة، ولهذا اعتبر الله عملهم في السبت اعتداء على الميثاق مع أنهم لم يخالفوا حرفيّة الأمر، فإن المطلوب هو أن لا يصطادوا في السبت، وقد فعلوا ذلك، ولكن بعد أن طوّقوه بإيجاد الطريقة التي تجعلهم يحصلون على نتيجة الصيد بشكل غير مباشر، وعلى هذا الأساس، كانت عقوبتهم قاسية في الدنيا والآخرة، لأن هذه الطريقة التي تفرّغ الطاعة من روحيتها تتحول إلى ما يشبه السخرية والاستهزاء بالتشريع وصاحبه، للإيحاء بقدرة المكلف على أن يتجاوز أهداف التشريع بالأسلوب الذي لا يستطيع المشرّع معه أنه يسجّل عليه نقطة مخالفة قانونية.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي (ت ١٤٥٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه من القصص التي تصور لنا التعنت الإسرائيلي البغيض، وما وصلوا إليه من الاستخفاف بأحكام الله، ذكرت هنا وفي سورة الأعراف، وهي هناك أبين عبارة وأوضح دلالة.

٢. خرجت عن أسلوب التذكير بالقصص السابقة التي قرنت بإذ المشيرة إلى زمن القصة مع إشعارهم بتحقق وقوعها ولم أجد من المفسرين من أشار إلى سبب هذه المخالفة في الأسلوب ما عدا ابن عاشور الذي عد ذلك من وجوه إعجاز القرآن.

---

(١) تفسير الخليلي: ٣/٣٦٠.

٣. هذا التحايل نظير تحايلهم على شحوم الإبل والبقر التي حرمها الله عليهم، فأخذوها وجمدوها وباعوها وأكلوا أثمانها، وقد لعنهم الله على ذلك على لسان رسول الله ﷺ، وكفى بهذا شاهدا على عظم جرم المتحايلين على الله باستحلال ما حرم أو أسقاط ما أوجب كالذين يتحايلون على الربا بمختلف الذرائع، أو يتحايلون على إسقاط الزكاة بتمليك الغير ونحوه، أولا يدري أولئك أنهم يخادعون الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وما أحمق وأضل من سولت له نفسه مثل هذا الخداع غير مكترث بما يترتب عليه من شر المآل في الدنيا والآخرة، ولعمري إن من يجتزئ على حرمات الله باتباع هذه المسالك الملتوية لا تقف به قدمه حتى يأتي الحرام الصريح جهرا، كما انتهى الأمر ببني إسرائيل الذي تحايلوا على الصيد في السبت ثم لم يلبثوا حتى صادوا علنا وباعوا في الأسواق.

٤. الأصل في الاعتقاد تجاوز حد السير مأخوذ من العدو وتعورف على إطلاقه في مجاوزة الحدود التي سنها الشرع أو العرف، ولذا أطلق على العسف والظلم وعدم المبالاة بحقوق الغير لما في ذلك من الانطلاق من القيود الدينية والاجتماعية، وهو شرعا مخالفة أمر الله ونواهيه بترك ما أوجب أو ارتكاب ما حرم لأنها بمثابة الحدود لما يؤتي وما يترك.

٥. السبت هو اليوم المعروف، وأصله القطع، سُمي بذلك لأن الله سبت فيه خلق كل شيء إذ فرغ من خلق السماوات والأرض يوم الجمعة ـ على ما قيل ـ واشتق منه سبت اليهودي إذا عظم يوم السبت، وقيل تسمية اليوم به مأخوذة من سبت بمعنى عظم، وعُضد هذا القول بأن العرب كانت تسمى أيام الأسبوع بغير هذه الأسماء المعهودة، وإنما نشأت هذه الأسماء بعدما شاعت المصطلحات الدينية عندهم، ويحتمل أن يكون في الآية اسما لليوم أو مصدرا، وعلى الأول فاعتداؤهم في حكم السبت، وعلى الثاني في نفس السبت ـ وهو التعظيم ـ لعدم وفائهم به.

٦. ليس أمره بأن يكونوا قردة أمر تشريع بل أمر تكوين لعدم قدرتهم عليه وإنما هو على حد قوله: ﴿وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾

٧. اختلف في تحولهم إلى قردة، هل كان صوريا بأن تحولت أجسادهم إلى أجساد القردة، أو كان معنويا بأن اتصفوا بصفاتها، والأول هو قول الجمهور، والثاني قول مجاهد، فقد أخرج عنه ابن جرير وابن

أبي حاتم وابن المنذر أنه قال: ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة، كما مثلوا بالحمار في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، واعتمد على هذا القول الإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا، وذهب ابن عاشور إلى احتمال الأمرين قائلا: والعبرة حاصلة على كلا الاعتبارين، والأول أظهر في العبرة لأن فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار الناس بهم بخلاف الثاني، والثاني أقرب للتأريخ إذ لم ينقل مسخ في كتب تأريخ العبرانيين، والقدرة صالحة للأمرين)، ولم يستعبد الفخر قول مجاهد ولكنه مال إلى قول الجمهور.

٨. يقوي مذهب الجمهور قوله سبحانه: ﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها موعظةً للمتقين﴾، فإن ذلك أنسب بالمسخ الصوري، فهو أردع عن المعصية لما فيه من وضوح سوء العاقبة وأوعظ للنفوس، أما ما قاله محمد عبده، من أنه لا يتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين، وموعظة للمتقين إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة في تربية الأمم وتهذيب الطباع، وذلك ما هو معروف لأهل البصائر، ومشهور عند عرفاء الأوائل والأواخر، فيتعقب بأن العقوبة كلما كانت أغرب وأبعد عن المألوف كانت أبلغ أثرا في النفوس وأزجر للناس عن الاسترسال في العصيان.

٩. عدم ذكر القصة في كتب تاريخ العبرانيين لا يوحي بعدم وقوعها، فإن السكوت عن اليشؤ لا يدل على عدمه.

١٠. مسخ الأجساد لا ينافي مسخ القلوب، فالظاهر أن الله جمع لهم بين العقوبتين، وتحول أجسامهم إلى ما يشبه أجسام القردة وتحجر قلوبهم بخروجها عما فُطرت عليه قلوب الناس، وهو بمعنى قول ابن كثير: بل الصحيح أنه معنوي صوري)

١١. مما تجدر الإشارة إليه أن هؤلاء الممسوخين هلكوا من غير عقب لئلا يظن ظان أن ما يوجد من القردة من أعقابهم، فإن القائلين بمسخ الأجساد اتفقوا ـ إلا من شذ ـ أنه لا يكون نسل للممسوخ، ولا تمتد به حياة أكثر من ثلاثة أيام، وهو مقتضى ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي اله تعالى عنه أن النبي ﷺ سئل عن القردة والخنازير أهي مما مسخ فقال: إن الله تعالى لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك).

١٢. لا عبرة بقول من قال بجواز أن تكون هذه القردة منهم، وإن انتصر له ابن العربي بما أخرجه

مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت)، وبما رواه مسلم أيضا عن أبي سعيد وجابر أن النبي ﷺ أوتي بضَبّ فأبى أن يأكل منه وقال: لا أدري لعله من القرون التي مُسخت) فإن غاية ما في الحديثين أن ذلك مجرد ظن كان منه ﷺ بدليل قوله في الحديث الأول (ولا أراها) وقوله في الحديث الثاني: لا أدري)، ثم تبين له ﷺ بالوحي الذي أوحاه الله إليه أن المسيخ لا يكون له نسل فجزم به حديث ابن مسعود وظنه ﷺ لا يعارض قطعهُ.

١٣. الخاسئ الذليل المبعد، وفائدة وصفهم بالخسوء دفع توهم أن مسخهم كان لدرء عقوبة الآخرة عنهم.

١٤. اختلف في ضمير يديها وخلفها، وفي المعنى المراد بها:

أ. قيل: هو عائد إلى القردة، والمراد ﴿بما بين يديها﴾ من حضرهم و﴿بما خلفها﴾ من يأتي بعدهم، ولا إشكال في استعمال ما للعاقل، وهو أصح ما قيل.

ب. وقيل: ﴿ما بين يديها﴾ من بيقهم من الأمم و﴿ما خلفها﴾ من يأتي بعدهم، واستشكله ابن كثير لتعذر أن تكون هذه الحادثة التي حلت بهم عبرة لمن سبقهم، إذ كيف يعلمونها؟ ولا إشكال في ذلك من هذه الناحية لاحتمال أن تكون مذكورة في زبر الأولين، وقد أورد ذلك ابن كثير نفسه وإنما يستعبد هذا التأويل لمعارضته ما تدل على الفاء من قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ من الترتب، فلا يكون الجعل سابقا على الحادثة.

ج. وقيل: الضمير فيهما عائد إلى القرية، والمراد ببين يديها ما قرب منها من القرى، وبما خلفها ما بعد وهو مروي عن ابن عباس، ورجحه ابن كثير، وضعفه واضح إذ لم يسبق للقرية ذكر، ولم يدل عليها قرينة.

د. وقيل: هو للعقوبة أو المسخة، والمراد ببين يديها تلك الذنوب التي قارفوها، وبما خلفها ما أشبهها من الذنوب بعدها، وضعف هذا من وجهين:

- أولهما: عدم تقدم ذكر العقوبة أو المسخة باسمها الصريح حتى يرد إليها الضمير.
- ثانيهما: أن هذه العقوبة لم تكن نكالا لتلك الذنوب عينها لأنها قد قورفت فهي واقعة فعلا.

١٥. الموعظة: ما دعا إلى الاعتبار وبعث على الاستعبار من كلمات نافعة أو أحداث رادعة، وأصلها

بالقول المرقق للقلوب الباعث على الخير، الزاجر عن ضده، ثم أطلقت على كل ما أثر في النفس هذا الأثر كالمنايا وسائر الأحداث، وتخصيص الموعظة بالمتقين لأنهم هم المستفيدون منها بتأثيرهم بها.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان ـ كالآيات السابقة ـ عن روح العصيان والتمرد المتغلغلة في اليهود، والتصاقهم الشديد بالمسائل المادية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

٢. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي جعلناها عبرة لتلك الامّة ولأمم تليها ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾

٣. ملخص الحادثة التي تشير إليها الآية: أن الله سبحانه أمر اليهود أن يسبتوا ـ أي أن يقطعوا أعمالهم ـ يوم السبت، وهذا الأمر شمل طبعا أولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الأسماك، وشاء الله أن يختبر هؤلاء، فكثرت الأسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت في بقية الأيّام. طفق هؤلاء يتحايلون لصيد الأسماك يوم السبت. فعاقبهم الله على عصيانهم ومسخهم على هيئة حيوان)

٤. قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ إشارة إلى فورية المسخ الذي تمّ بأمر إلهي واحد.

---

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٦٣.

٢٨. بنو إسرائيل وقصة البقرة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُّ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُّ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُّ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

عطاء الخراساني:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديد الصفرة[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختصمتم فيها[٢].

ابن عباس:

ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال كانت مدينتان في بني إسرائيل إحداهما حصينة ولها أبواب، والأخرى خربة، فكان أهل المدينة الحصينة إذا أمسوا أغلقوا أبوابها، فإذا أصبحوا قاموا على سور المدينة، فنظروا هل حدث فيها حولها حادث، فأصبحوا يوما فإذا شيخ

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ١٣٩.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ١٤٤.

قتيل مطروح بأصل مدينتهم، فأقبل أهل المدينة الخربة، فقالوا: قتلتم صاحبنا، وابن أخ له شاب يبكي عنده، ويقول: قتلتم عمي، وقالوا: والله، ما فتحنا مدينتنا منذ أغلقناها، وما ندينا من دم صاحبكم هذا بشيء، فأتوا موسى، فأوحى الله إلى موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، إلى قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، قال وكان في بني إسرائيل غلام شاب يبيع في حانوت له، وكان له أب شيخ كبير، فأقبل رجل من بلد آخر يطلب سلعة له عنده، فأعطاه بها ثمنا، فانطلق معه ليفتح حانوته فيعطيه الذي طلب، والمفتاح مع أبيه، فإذا أبوه نائم في ظل الحانوت، فقال: أيقظه، قال ابنه: إنه نائم، وأنا أكره أن أروعه من نومه، فانصرفا، فأعطاه ضعف ما أعطاه على أن يوقظه، فأبى، فذهب طالب السلعة، فاستيقظ الشيخ، فقال له ابنه: والله، يا أبه، لقد جاء ههنا رجل يطلب سلعة كذا، فأعطى بها من الثمن كذا وكذا، فكرهت أن أروعك من نومك، فلامه الشيخ، فعوضه الله من بره بوالده أن نتجت من بقره تلك البقرة التي يطلبها بنو إسرائيل، فأتوه، فقالوا له: بعناها، فقال: لا، قالوا: إذن نأخذها منك، فأتوا موسى، فقال: اذهبوا فأرضوه من سلعته، قالوا: حكمك؟ قال حكمي أن تضعوا البقرة في كفة الميزان، وتضعوا ذهبا صامتا في الكفة الأخرى، فإذا مال الذهب أخذته، ففعلوا، وأقبلوا بالبقرة حتى انتهوا بها إلى قبر الشيخ، واجتمع أهل المدينتين، فذبحوها، فضرب ببضعة من لحمها القبر، فقام الشيخ ينفض رأسه، يقول: قتلني ابن أخي؛ طال عليه عمري، وأراد أخذ مالي، ومات[1].

٢. روي أنه قال: قاسوا ما بين القريتين فكانتا سواء، فلما أصبحوا أخذوا أهل القرية، فقالوا: والله، ما قتلناه، ولا علمنا له قاتلا، قالوا: يا موسى، ادع لنا ربك، يطلع على القاتل إن كنت نبيا كما تزعم، فدعا موسى ربه تعالى، فأتاه جبريل عليه السلام، فأمره بذبح بقرة، فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فتضربوه ببعضها فيحيا، فيخبركم بقاتله، واسم المقتول: عاميل[2].

٣. روي أنّه قال: لما قال لهم موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، قالوا له يتعنتونه: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾[3].

---

(١) ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١١٣.

(٣) ابن جرير: ٢/٨٢.

٤. روي أنّه قال: ﴿لَا فَارِضٌ﴾ الفارض: الهرمة[١].

٥. روي أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ﴾، قال الكبيرة الهرمة، قال وهل تعرف العرب ذلك؟، قال نعم، أما سمعت قول الشاعر وهو يقول[٢]:

لعمري لقد أعطيت ضيفك   تساق إليه ما تقوم على رجل

٦. روي أنّه قال: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ الصغيرة[٣].

٧. روي أنّه قال: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ ولا صغيرة ضعيفة[٤].

٨. روي أنّه قال: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الصغيرة والكبيرة، وهي أقوى ما يكون وأحسنه[٥].

٩. روي أنّه قال: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض[٦].

١٠. روي أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ الفاقع: الصافي اللون من الصفرة: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول[٧]:

سدما قليلا عهده بأنيسه   من بين أصفر فاقع ودفان

١١. روي أنه قال: من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وذلك قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[٨].

١٢. روي أنّه قال: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ لا يحرث عليها، ولا يسقى عليها[٩].

---

(١) ابن جرير: ٢/٨٤.

(٢) الطستي في مسائله ـ كما في الإتقان: ٢/٩٢.

(٣) ابن جرير: ٢/٨٦.

(٤) ابن جرير: ٢/٨٧.

(٥) ابن جرير: ٢/٨٩.

(٦) ابن جرير: ٢/٩٥.

(٧) الدرّ المنثور: الطستي في مسائله.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/١٣٨.

(٩) تفسير ابن أبي زمنين: ١/١٤٩.

١٣. روي أنّه قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ لا عوار فيها[1].

١٤. روي أنّه قال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، وكل شيء في القرآن: أكاد، وكادوا، ولو؛ فإنه لا يكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ٢٠][2].

١٥. روي أنه قال: وجدوها عند رجل يزعم أنه ليس بائعها بمال أبدا، فلم يزالوا به حتى جعلوا له أن يسلخوا له مسكها فيملئوه له دنانير، فرضي به، فأعطاهم إياها[3].

١٦. روي أنّه قال: طلبوها فوجدوها عند رجل بر بوالديه، فبلغ ثمنها ملء مسكها دنانير[4].

١٧. روي أنّه قال: أن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة، حتى وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تعجبه، فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مسكها دنانير[5].

١٨. روي أنّه قال: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا على موسى؛ فشدد الله عليهم، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾[6].

١٩. روي أنّه قال: قتل رجل عمه، فألقاه بين قريتين، فأعطوه ديتين، فأبى أن يأخذ، فأتوا موسى، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها، فشددوا فشدد الله عليهم، ولو كانوا اعترضوا البقر أول ما أمروا لأجزأهم ذلك[7].

٢٠. روي أنّه قال: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فاختلفتم[8].

٢١. روي أنّه قال: فذبحوها، فضربوه بعضو منها، فقام تشخب أوداجه دما، فقالوا له: من قتلك؟

---

(١) ابن جرير: ٢/١٠٨.

(٢) ابن جرير: ٢/١١٤.

(٣) ابن جرير: ٢/١١٥.

(٤) تفسير ابن أبي زمنين: ١/١٥١.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/١٤٥.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١٣٧.

(٧) تفسير يحيى بن سلام: .كما في تفسير ابن أبي زمنين: ١/١٥٠.

(٨) تفسير الثعلبي: ١/٢١٩.

قال قتلني فلان[1].

٢٢. روي أنه قال: لما ضرب المقتول ببعضها ـ يعني: ببعض البقرة ـ جلس حيا، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلوني، ثم قبض، فقال بنو أخيه حين قبض: والله، ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد إذ رأوه، فقال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، يعني: بني أخي الشيخ، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2].

٢٣. روي أنّه قال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، قال ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف[3].

عبيدة السلماني:

روي عن عبيدة السلماني (ت ٧٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله، لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا، فأخذوها بملء جلدها ذهبا[4].

٢. روي أنّه قال: ضربوا المقتول ببعض لحمها[5].

أبو العالية:

أبو العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنيا ولم يكن له ولد، وكان له قريب، وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى، فقال له: إن قريبي قتل، وأتى إلي أمر عظيم، وإني لا أجد أحدا يبين لي من قتله غيرك، يا نبي الله، قال فنادى موسى في الناس: أنشد الله، من كان عنده من هذا علم إلا بينه لنا، فلم يكن عندهم علمه، فأقبل القاتل على موسى، فقال: أنت نبي الله، فاسأل لنا

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٤٥.

(٢) ابن جرير: ٢/١٢٩.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٤٥.

(٤) ابن جرير: ٢/٧٦.

(٥) ابن جرير: ٢/١٢٥.

ربك أن يبين لنا[1].

٢. روي أنّه قال: سأل موسى ربه، فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فعجبوا، وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، أي: تعجب الناظرين[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أي: لم يذلها العمل، ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ يعني: ليست بذلول فتثير الأرض، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يقول: ولا تعمل في الحرث، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ قال من العيوب[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب[5].

٦. روي أنّه قال: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا بياض فيها[6].

٧. روي أنّه قال: أمرهم موسى أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع الله روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتا كما كان، فأخذوا قاتله، وهو الذي كان أتى موسى فشكى إليه، فقتله الله على أسوئ عمله[7].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ صافية اللون[8].

٢. روي أنّه قال: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، صفراء القرن، والظلف[9].

---

(١) آدم ابن أبي إياس. كما في تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٢) آدم ابن أبي إياس. كما في تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٣) آدم ابن أبي إياس. كما في تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٤) آدم ابن أبي إياس. كما في تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٥) آدم ابن أبي إياس. كما في تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٦) آدم ابن أبي إياس. كما في تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٧) آدم ابن أبي إياس. كما في تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/١٣٩.

(٩) ابن جرير: ٢/٩٢.

٣. روي أنّه قال: بعجب ذنبها[1].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سل لنا ربك ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾[2].

٢. روي أنّه قال: بلسانها[3].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي عنه وعن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: إن سبطا من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة، فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا إلا أدخلوه، وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وتشرف، فإذا لم ير شيئا فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسوا، وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير ابن أخيه، فطال عليه حياته، فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمن في مكان هو وأصحابه، قال فتشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر فلم ير شيئا، ففتح الباب، فلما رأى القتيل رد الباب، فناداه ابن أخي المقتول وأصحابه: هيهات، قتلتموه ثم تردون الباب، وكان موسى لما رأى القتل كثيرا في أصحابه بني إسرائيل كان إذا رأى القتيل بين ظهري القوم آخذهم، فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال؛ حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض، فأتوا موسى، فذكروا له شأنهم، فقالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلا، ثم ردوا الباب، وقال أهل المدينة: يا رسول الله، قد عرفت اعتزالنا الشرور، وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور الناس، ما قتلنا، ولا علمنا قاتلا، فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، قالوا: وما البقرة والقتيل؟ قال أقول لكم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا

---

(١) تفسير الثعلبي: ١/٢١٨.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١٣٨.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/٢١٨.

بَقَرَةً﴾، وتقولون: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾!؟[(١)].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا كبيرة ولا صغيرة، قد ولدت بطنا أو بطنين[(٢)].

٣. روي أنّه قال: ﴿عَوَانٌ﴾ العوان: النصف، لا كبيرة ولا صغيرة[(٣)].

٤. روي أنّه قال: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ليست بذلول فتفعل ذلك[(٤)].

٥. روي أنّه قال: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا بياض ولا سواد[(٥)].

٦. روي أنّه قال: كان لبني إسرائيل الذبح، وأنتم لكم النحر، ثم قرأ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢][(٦)].

٧. روي أنّه قال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة الثمن، أخذوها بملء مسكها ذهبا من مال المقتول، فكان سواء، لم يكن فيه فضل فذبحوها[(٧)].

٨. روي أنّه قال: كانت البقرة لرجل يبر أمه، فرزقه الله أن جعل تلك البقرة له، فباعها بملء جلدها ذهبا[(٨)].

٩. روي أنّه قال: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ما تغيبون[(٩)].

١٠. روي أنّه قال: ضرب بفخذ البقرة، فقام حيا، فقال: قتلني فلان، ثم عاد في ميتته[(١٠)].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) سُنَيْد، كما في تفسير ابن كثير: ١/٣٠٠.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١٣٧.

(٣) تفسير مجاهد: ص٢٠٦.

(٤) ابن جرير: ٢/١٠٦.

(٥) ابن جرير: ٢/١١٠.

(٦) عبد الرزاق في مصنفه: ٨٥٨٣.

(٧) ابن جرير: ٢/١١٤.

(٨) ابن جرير: ٢/١١٥.

(٩) تفسير مجاهد: ص٢٠٦.

(١٠) تفسير مجاهد: ص٢٠٦.

١. روي أنّه قال: فاختصموا إلى موسى، فقال: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الآية، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، قال فذهبوا يطلبونها، فكأنها تعذرت عليهم، فرجعوا إلى موسى، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهَّ لَمُهْتَدُونَ﴾، ولولا أنهم قالوا: إن شاء الله، ما وجدوها، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾، ألا وإنما كانت البقرة يومئذ بثلاثة دنانير، ولو أنهم أخذوا أدنى بقرهم فذبحوها كفتهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم[1].

٢. روي أنّه قال: إنما كانت البقرة يومئذ بثلاثة دنانير، ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة فذبحوها كفتهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم، فذهبوا يطلبونها، فيجدون هذه الصفة عند رجل، فقالوا: تبيعنا هذه البقرة؟ قال أبيعها، قالوا: بكم تبيعها؟ قال بمائة دينار، فقالوا: إنها بقرة بثلاثة دنانير، فأبوا أن يأخذوها، فرجعوا إلى موسى، فقالوا: وجدناها عند رجل، فقال: لا أنقصكم من مائة دينار، وإنما هي بقرة بثلاثة دنانير، قال هو أعلم، هو صاحبها، إن شاء باع، وإن شاء لم يبع، فرجعوا إلى الرجل، فقالوا: قد أخذناها بمائة دينار، فقال: لا أنقصها من مائتي دينار، فقالوا: سبحان الله! قد بعتنا بمائة دينار ورضيت؟ فقد أخذناها، قال ليس أنقصها من مائتي دينار، فتركوها، ورجعوا إلى موسى، فقالوا له: أعطاناها بمائة دينار، فلما رجعنا إليه قال لا أنقصها من مائتي دينار، قال هو أعلم، إن شاء باعها وإن شاء لم يبعها، فعادوا إليه، فقالوا: قد أخذناها بمائتي دينار، فقال: لا أنقصها من أربعمائة دينار، قالوا: قد كنت أعطيتناها بمائتي دينار، فقد أخذناها، فقال: ليس أنقصها من أربعمائة دينار، فتركوها وعادوا إلى موسى، فقالوا: قد أعطيناه مائتي دينار، فأبى أن يأخذها، وقال: لا أنقصها من أربعمائة دينار، فقال: هو أعلم، هو صاحبها، إن شاء باع، وإن شاء لم يبع، فرجعوا إليه، فقالوا: قد أخذناها بأربعمائة دينار، فقال: لا أنقصها من ثمانمائة دينار، فلم يزالوا يعودون إلى موسى، ويعودون إليه، فكلما عادوا إليه أضعف عليه الثمن، حتى قال ليس أبيعها إلا بملء مسكها، فأخذوها، فذبحوها، فقال: اضربوه ببعضها، فضربوه بفخذها، فعاش، فقال: قتلني فلان، فإذا هو رجل كان له عم، وكان لعمه مال كثير، وكان له ابنة، فقال: أقتل عمي هذا، فأرث ماله، وأتزوج ابنته، فقتل عمه، فلم يرث شيئا، ولم يرث قاتل منذ ذلك شيئا، قال موسى: إن لهذه البقرة لشأنا، ادعوا لي

(١) الدرّ المنثور: تفسير سفيان بن عيينة .

صاحبها، فدعوه، فقال: أخبرني عن هذه البقرة، وعن شأنها؟ قال نعم، كنت رجلا أبيع في السوق وأشتري، فسامني رجل بضاعة عندي، فبعته إياها، وكنت قد أشرفت منها على فضل كبير، فذهبت لآتيه بها قد بعته، فوجدت المفتاح تحت رأس والدتي، فكرهت أن أوقظها من نومها، ورجعت إلى الرجل، فقلت: ليس بيني وبينك بيع، فذهب، ثم رجعت، فنتجت لي هذه البقرة، فألقى الله علي منها محبة، فلم يكن عندي شيء أحب إلي منها، فقيل له: إنما أصبت هذا ببر والدتك[1].

٣. روي أنّه قال: ضربوه بفخذها فحيي، فما زاد على أنقال: قتلني فلان، ثم عاد فمات[2].

ابن رافع:

روي عن المسيب بن رافع (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك كتاب الله: ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[3].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، أي: بين الهرمة والفتية[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، قال [سوداء شديدة السواد؟][5].

٣. روي أنّه قال: فضربوه ببعضها، فقام حيا، فقال: قتلني فلان، ثم مات، لم يزد على ذلك، وذلك حين يقول: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6].

العوفي:

روي عن عطية العوفي (ت ١١٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) الدرّ المنثور: تفسير سفيان بن عيينة .

(٢) ابن جرير: ١٢٥/٢.

(٣) ابن أبي حاتم: ١٤٤/١.

(٤) ابن أبي حاتم: ١٣٨/١.

(٥) سعيد بن منصور: ١٩٢.

(٦) تفسير ابن أبي زمنين: ١٥١/١.

١. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ تكاد تسود من صفرتها[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لونها واحد، ليس فيها لون سوى لونها[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ تكاد تسود من صفرتها[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ تكاد تسود من صفرتها[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لونها واحد، ليس فيها لون سوى لونها[5].

العوفي:

روي عن عطية العوفي (ت ١١٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ تكاد تسود من صفرتها[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لونها واحد، ليس فيها لون سوى لونها[7].

عطاء:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديد الصفرة[8].

٢. روي أنّه قال: الذبح والنحر في البقر سواء؛ لأن الله يقول: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾[9].

ابن منبّه:

روي عن وهب بن منبّه (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: إن القوم إذ أمروا بذبح البقرة إنما قالوا لموسى:

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٣٩.

(٢) ابن جرير: ٢/١١٠ وابن أبي حاتم: ١/١٤٣.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٣٩.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/١٣٩.

(٥) ابن جرير: ٢/١١٠ وابن أبي حاتم: ١/١٤٣.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١٣٩.

(٧) ابن جرير: ٢/١١٠ وابن أبي حاتم: ١/١٤٣.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/١٣٩.

(٩) ابن أبي حاتم: ١/١٤٣.

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لعلمهم بأنهم سيفتضحون إذا ذبحت، فحادوا عن ذبحها[1].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: الفارض: الهرمة: ليست بالهرمة ولا البكر، عوان بين ذلك[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ صعبة لم يذلها العمل[3].

القرظي:

روي عن محمد بن كعب القرظي (ت ١٢٠ هـ) أنّه قال: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها[4].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ الفارض: الكبيرة المسنّة.. والجمع الفوارض.. والبكر: الصّغيرة.. وعوان: لا صغيرة ولا كبيرة.. والجمع العون[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي سود حتى ظلفها وقرنها.. والصّفر: السّود.. ومثله: ﴿جِمَالَاتٌ صُفْرٌ﴾ أي سود.. وفاقع لونها أي صاف لونها[6].

روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا لون سوى لون جميع جلدها.. وجمعه شيات.. والمسلّمة: التي لا عيب فيها[7].

روي أنّه قال: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فالذّبح كان فيهم، والنّحر في أمة محمد ﷺ[8].

---

(١) ابن جرير: ٢/١١٧.

(٢) عبد الرزاق: ١/٤٨.

(٣) ابن جرير: ٢/١٠٥.

(٤) تفسير الثعلبي: ١/٢١٩.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

(٨) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

٣. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي اختلفتم فيها[1].

٤. روي أنّه قال: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: بالعظم الذي يلي الغضروف.. وقال علي بن الحسين بفخذها أو بذنبها[2].

٥. روي أنّه قال: ﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ معناه يعلمكم بعلاماته[3].

البناني:

ثابت البناني (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: كان يقال: لو أن ابن آدم عمل بالخير في سبعين بيتا لكساه الله تعالى رداء عمله حتى يعرف به[4].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، قال كان رجل من بني إسرائيل مكثرا من المال، وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه إياها، فغضب الفتى، وقال: والله، لأقتلن عمي، ولآخذنّ ماله، ولأنكحن ابنته، ولآكلن ديته، فأتاه الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عم، انطلق معي، فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم لعلي أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني، فخرج العم مع الفتى ليلا، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدري أين هو، فلم يجده، فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمي، فأدوا إلي ديته، وجعل يبكي، ويحثو التراب على رأسه، وينادي: واعماه، فرفعهم إلى موسى، فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع لنا حتى يتبين له من صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة، فوالله، إن ديته علينا لهينة، ولكنا نستحي أن نعير به، فذلك حين يقول الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهَّ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فقال

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ٨٤.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ٨٥.

(٤) البيهقي في الشعب: ٩/٢١٠.

لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[1].

٢. روي أنّه قال: الفارض: الهرمة التي لا تلد[2].

٣. روي أنّه قال: البكر: لم تلد إلا ولدا واحدا[3].

٤. روي أنه قال: ضرب بالبضعة التي بين الكتفين[4].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ذلك قبل نزول القسامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ذلك، فسأل موسى ربه، فأمرهم بذبح بقرة[5].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فتضربوه ببعضها فيحيا، فيخبركم بقاتله، فظنوا أنه يستهزئ بهم، فقالوا: نسألك عن القاتل لتخبرنا به فتأمرنا بذبح بقرة استهزاء بنا!؟ فذلك قولهم لموسى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يعني: من المستهزئين[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، يعني: صافية اللون نقية[7].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ تشكل[8].

٤. روي أنّه قال: فانطلقوا حتى وجدوها عند امرأة اسمها: نوريا بنت رام، فاستاموا بها، فقالوا

---

(١) ابن جرير: ٢/٧٨.

(٢) ابن جرير: ٢/٨٥.

(٣) ابن جرير: ٢/٨٧.

(٤) ابن جرير: ٢/١٢٦.

(٥) تفسير الثعلبي: ١/٢١٤.

(٦) تفسير مقاتل: ١/١١٤.

(٧) تفسير مقاتل: ١/١١٤.

(٨) تفسير مقاتل: ١/١١٤.

لموسى: إنها لا تباع إلا بملء مسكها ذهبا، قال موسى: لا تظلموا، انطلقوا، اشتروها بها عز وهان، فاشتروها بملء مسكها ذهبا، فذبحوها، فقالوا لموسى: قد ذبحناها، قال خذوا منها عضوا، فاضربوا به القتيل، فضربوا القتيل بفخذ البقرة اليمنى، فقام القتيل وأوداجه تشخب دما، فقال: قتلني فلان وفلان، يعني: ابني عمه، ثم وقع ميتا، فأخذا، فقتلا، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

٥. روي أنّه قال: ﴿قَالُوا الْآنَ﴾ يا موسى ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الآن بينت لنا الحق[2].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فاختلفتم في قتلها، فقال أهل هذه القرية الأخرى: أنتم قتلتموه، وقال الآخرون: أنتم قتلتموه، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[3].

٧. روي أنّه قال: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، يعني: كتمان قتل المقتول[4].

٨. روي أنّه قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ يقول: هكذا ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ فكان ذلك من آياته وعجائبه؛ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يقول: لكي ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فتعتبروا في البعث، وإنما فعل الله ذلك بهم لأنه كان في بني إسرائيل من يشك في البعث، فأراد الله تعالى أن يعلمهم أنه قادر على أن يبعث الموتى، وذلك قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعتبروا في البعث[5].

٩. روي أنّه قال: ضربوا القتيل بفخذ البقرة اليمنى[6].

الثوري:

روي عن سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ ناصع، المبالغ في الصفرة[7].

---

(١) تفسير مقاتل: ١/١١٥.

(٢) تفسير مقاتل: ١/١١٥.

(٣) تفسير مقاتل: ١/١١٥.

(٤) تفسير مقاتل: ١/١١٥.

(٥) تفسير مقاتل: ١/١١٥.

(٦) تفسير مقاتل: ١/١١٥.

(٧) تفسير سفيان الثوري: ص٤٦.

٢. روي أنّه قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ ليس فيها لون، ولا أثر[١].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قتل قتيل من بني إسرائيل، فطرح في سبط من الأسباط، فأتى أهل ذلك القتيل إلى ذلك السبط، فقالوا: أنتم ـ والله ـ قتلتم صاحبنا، قالوا: لا، والله، فأتوا موسى، فقالوا: هذا قتيلنا بين أظهرهم، وهم ـ والله ـ قتلوه، فقالوا: لا، والله، يا نبي الله، طرح علينا، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فقالوا: أتستهزئ بنا!؟ وقرأ قول الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، قالوا: نأتيك فنذكر قتيلنا والذي نحن فيه، فتستهزئ بنا! فقال موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديدة صفرتها[٣].

٣. روي أنّه قال: اضطروا إلى بقرة لا يعلمون على صفتها غيرها، وهي صفراء ليس فيها سواد ولا بياض، فقالوا: هذه بقرة فلان ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، وقبل ذلك ـ والله ـ قد جاءهم بالحق[٤].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم، وهو التنازع، تنازعوا فيه: قال هؤلاء: أنتم قتلتموه، وقال هؤلاء: لا[٥].

٥. روي أنّه قال: ضربوا الميت ببعض آرابها، فإذا هو قاعد، قالوا: من قتلك؟ قال ابن أخي، قال وكان قتله وطرحه على ذلك السبط، أراد أن يأخذ ديته[٦].

ابن سلام:

روي عن يحيى بن سلام (ت ٢٠٠ هـ) أنّه قال: قوله تعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، أي:

---

(١) تفسير سفيان الثوري: ص٤٦.

(٢) ابن جرير: ٢/٨١.

(٣) ابن جرير: ٢/٩٦.

(٤) ابن جرير: ٢/١١٢.

(٥) ابن جرير: ٢/١٢٠.

(٦) ابن جرير: ٢/١٢٧.

بينت[1].

الرضا:

روي عن الإمام الرضا (ت ٢٠٣ هـ) أنّه قال: إن الله تعالى يبغض القيل والقال، وإيضاع المال وكثرة السؤال.. إنّ بني إسرائيل شدّدوا فشدّد الله عليهم، قال لهم موسى عليه السّلام: اذبحوا بقرة، قالوا: ما لونها؟ فلم يزالوا شدّدوا حتّى ذبحوا بقرة يملأ جلدها ذهبا، ثم قال: إن الحكماء ضيّعوا الحكمة لما وضعوها عند غير أهلها[2].

العسكري:

روي عن الإمام العسكري (ت ٢٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال الله عز وجل ليهود المدينة: واذكروا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، وتضربون ببعضها هذا المقتول بين أظهركم ليقوم حيا سويا بإذن الله تعالى، ويخبركم بقاتله وذلك حين ألقي القتيل بين أظهرهم، فألزم موسى أهل القبيلة بأمر الله تعالى أن يحلف خمسون من أماثلهم بالله القوي الشديد: أنّا ما قتلناه، ولا علمنا له قاتلا، فإن حلفوا بذلك غرموا دية المقتول، وإن نكلوا نصوا على القاتل، أو أقر القاتل فيقاد منه، فإن لم يفعلوا احبسوا في محبس ضنك إلى أن يحلفوا، أو يقروا، أو يشهدوا على القاتل، فقالوا: يا نبي الله، أما وقت أيماننا أموالنا، ولا أموالنا أيماننا؟ قال لا، هذا حكم الله.. وكان السبب أن امرأة حسناء ذات جمال، وخلق كامل، وفضل بارع، ونسب شريف، وستر ثخين كثر خطابها، وكان لها بنو أعمام ثلاثة، فرضيت بأفضلهم علما، وأثخنهم سترا، وأرادت التزويج به، فاشتد حسد ابني عمه الآخرين له، وغبطاه عليها، لإيثارها من آثرته، فعمدا إلى ابن عمها المرضي فأخذاه إلى دعوتهما، ثم قتلاه وحملاه إلى محلة تشتمل على أكبر قبيلة من بني إسرائيل، فألقياه بين أظهرهم ليلا، فلما أصبحوا وجدوا القتيل هناك، فعرف حاله، فجاء ابنا عمه القاتلان، فمزقا ثيابهما على أنفسهما، وحثيا التراب على رؤوسهما، واستعديا عليهم، فأحضرهم موسى وسألهم، فأنكروا أن يكونوا قتلوه، أو علموا قاتله، فحكم الله على من فعل هذه الحادثة ما عرفتموه فالتزموه، فقالوا: يا موسى،

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين: ١/١٥٠.

(٢) قصص الأنبياء: ص١٦٠.

أي نفع في أيماننا لنا، إذا لم تدرأ عنا الأيمان الغرامة الثقيلة؟ أم أي نفع لنا في غرامتنا إذا لم تدرأ عنا الأيمان؟ فقال موسى: كل النفع في طاعة الله، والائتمار لأمره، والانتهاء عما نهى عنه، فقالوا: يا نبي الله، غرم ثقيل ولا جناية لنا، وأيمان غليظة ولا حق في رقابنا، لو أن الله عز وجل عرفنا قاتله بعينه، وكفانا مؤونته، فادع لنا ربك يبين لنا هذا القاتل لتنزل به ما يستحق من العقاب، وينكشف أمره لذوي الألباب، فقال موسى: إن الله عز وجل قد بين ما أحكم به في هذا، فليس لي أن اقترح عليه غير ما حكم، ولا أعترض عليه فيما أمر، ألا ترون أنه لما حرم العمل يوم السبت، وحرم لحم الجمل، لم يكن لنا أن نقترح عليه أن يغير ما حكم الله علينا من ذلك، بل علينا أن نسلم له حكمه، ونلتزم ما ألزمنا وهم أن يحكم عليهم بالذي كان يحكم به على غيرهم في مثل حادثتهم، فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى، أجبهم إلى ما اقترحوا، وسلني أن أبين لهم القاتل ليقتل، ويسلم غيره من التهمة والغرامة.. فقال موسى: يا رب، بين لنا قاتله فأوحى الله تعالى إليه: قل لبني إسرائيل: إن الله يبين لكم ذلك، بأن يأمركم أن تذبحوا بقرة، فتضربوا ببعضها المقتول فيحيا، فتقبلوا لرب العالمين ذلك، وإلا فكفوا عن المسألة، والتزموا ظاهر حكمي، فذلك ما حكى الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ إن أردتم الوقوف على القاتل، تضربوا المقتول ببعضها فيحيا، ويخبر بالقاتل قالُوا - يا موسى - ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ سخرية؟ تزعم أن الله أمرنا أن نذبح بقرة، ونأخذ قطعة من الميت، ونضرب بها ميتا، فيحيا أحد الميتين بملاقاته بعض الميت الآخر، كيف يكون هذا!؟ قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أنسب إلى الله تعالى ما لم يقل لي، وأن أكون من الجاهلين، أعارض أمر الله بقياسي على ما شاهدت، دافعا لقول الله تعالى وأمره، ثم قال موسى: أوليس ماء الرجل نطفة ميتة، وماء المرأة كذلك، ميتان يلتقيان فيحدث الله تعالى من التقاء الميتين بشرا حيا سويا؟ أوليس بذوركم التي تزرعونها في أرضيكم تتفسخ وتتعفن وهي ميتة، ثم تخرج منها هذه السنابل الحسنة البهيجة، وهذه الأشجار الباسقة المونقة؟ فلما بهرهم موسى[1].

٢. روي أنّه قال: قالُوا يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما صفتها، لنقف عليها فسأل موسى ربه عز وجل، فقال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ كبيرة ولا ﴿بِكْرٌ﴾ صغيرة لم تفرض ﴿عَوَانٌ﴾ وسط

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري: ١٤٠.

﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الفارض والبكر ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ إذا ما أمرتم به، قالُوا يا موسى[1]..

٣. روي أنّه قال: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي لون هذه البقرة التي تريد أن تأمرنا بذبحها، قال الله جل وعز بعد السؤال والجواب: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ﴾ حسنة لون الصفرة، ليس بناقص يضرب إلى البياض، ولا بمشبع يضرب إلى السواد ﴿لَوْنُهَا﴾ هكذا فاقع ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها، لبهجتها وحسنها وبريقها[2].

٤. روي أنّه قال: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا﴾ ما هِيَ ما صفتها؟ يزيد في صفتها، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ لم تذلل لإثارة الأرض، ولم ترض بها ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ولا هي مما تجر الدوالي، ولا تدير النواعير، قد أعفيت من جميع ذلك، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب كلها، لا عيب فيها لا شِيَةَ فِيها لا لون فيها من غيرها، فلما سمعوا هذه الصفات، قالوا: يا موسى، فقد أمرنا ربنا بذبح بقرة هذه صفتها؟ قال بلى ولم يقل موسى في الابتداء بذلك، لأنه لو قال إن الله أمركم لكانوا إذا قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي، وما لونها؟ كان لا يحتاج أن يسأله ذلك عز وجل، ولكن كان يجيبهم هو بأن يقول: أمركم ببقرة فأي شيء وقع عليه اسم بقرة فقد خرجتم من أمره إذا ذبحتموها، فلما استقر الأمر عليها طلبوا هذه البقرة، فلم يجدوها إلا عند شاب من بني إسرائيل[3].. وباقي الأثر يحوي الكثير من الغرائب التي لا يمكن اعتبارها خاصة مع عدم اعتبار المصدر، مع العلم أنا حذفنا بعض ما يربط القصة بأئمة الهدى[4].، والذي أقحم في القصة من غير حاجة إلى ذلك.[5].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[6]:

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري: ١٤٠.

(٢) التفسير المنسوب للإمام العسكري: ١٤٠.

(٣) التفسير المنسوب للإمام العسكري، ص ٢٩٩.

(٤) ومن ذلك ما ورد فيها من: أرى الله عز وجل في منام الشاب محمدا وعليا وطيبي ذريتهما، فقالا له: إنك كنت لنا محبا مفضلا، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك في الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا تبعها إلا بأمر أمك، فإن الله عز وجل يلقنها ما يغنيك به وعقبك.

(٥) التفسير المنسوب للإمام العسكري: ١٤٠.

(٦) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٤٧.

١. ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، الفارض التي قد انفرض فمها، وانفراضه هو: سقوط أسنانها، والبكر هي: التي لم تلقح قط، فأخبر عز وجل أنها ليست ببكر؛ فدل ذلك على أنها قد نتجت، وليست بكبيرة، فأزاح عنها بقوله: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ صفة الكبيرة، وصفة الصغيرة البكر.

٢. ثم قال سبحانه: ﴿عَوَانٌ﴾، والعوان هي: متوسطة، لا كبيرة ولا صغيرة؛ وهذه فهي: البقرة التي أمر الله سبحانه أن يضرب القتيل ببعضها.

٣. ذلك: أنه قتل قتيل في بني إسرائيل، فأدارؤوا فيه، وأتهم بعضهم بعضا بقتله، وعظم بينهم الأمر فيه، فأمرهم الله عز وجل أن يضربوه ببعضها، ففعلوا ذلك؛ فعاش القتيل، وأخبرهم بقاتله، فكانت هذه آية عظيمة جليلة، في إحياء الله سبحانه له؛ وقد كان قادرا أن يحييه بضربة عود، لو أمرهم به لقام مقام البقرة؛ ولكن الله يفعل ما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يقال لما فعل: لم، ولأي شيء ٤. وقد يروى في البقرة: أنها كانت لغلام، بر بوالدته، مطيع لله فيها، فلما أن ماتت لم تكن تركت له إلا البقرة؛ فيقال: إن الله عز وجل أنعم على الغلام؛ لبره، ولطاعته لله سبحانه في الوالدة له، فجعل سبحانه امتحانهم بها، وإحياء قتيلهم ببعضها؛ رحمة منه بصاحبها، فطلبوا الصفة التي أمرهم الله بها في البقرة، فلم يجدوا تلك الصفة إلا في بقرة الغلام، فطلبوا عند ذلك ابتياعها منه، فأمره موسى ـ صلى الله عليه ـ ألا ينفذ لهم بيعها، إلا بما اشترط من ملء جلدها تبرا، فلم يزالوا حتى اشتروها منه بما طلب، فكان ذلك فضلا من الله على الغلام وإحسانا إليه، وآية عظيمة في المقتول، وحجة قيمة على ذوي الفهم والعقول، وخبرة لهم في جميع الأمور؛ فهذا ما يذكر فيها ويروى ذو العزة والكبرياء.

الناصر:

عن الإمام الناصر بن الإمام الهادي (ت ٣٢٥ هـ) أنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، الفاقع في لغة العرب: الشديد الصفرة؛ تقول العرب: أصفر فاقع، وأبيض يقق، ولهق أيضا، وأخضر ناضر ونضر، وأحمر قان وناضر، وأسود حالك وحابك) معروف كل ذلك في اللغة غير مستنكر؛ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[1].

الماتريدي:

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٤٧.

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. قيل: قتل قتيل في بني إسرائيل، وألقى على باب غيرهم؛ فتنازعوا فيه واختلفوا؛ فأمر الله نبيّه موسى أن يذبحوا بقرة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فاضربوا ببعضها ذلك الميت؛ فيحيى، فيقول: من قتلني.

٢. وجه جعل البقرة آية دون غيرها من البهائم وجهان:

أ. أحدهما: ما روى أن رجلا كان بارّا بوالديه، محسنا إليهما عاطفا عليهما، وكانت له بقرة على تلك الصفة والشبه، فأراد الله ـ عزّ وجل ـ أن يوصل إليه في الدنيا جزاء ما كان منه بمكان والديه.

ب. الثاني: أنهم كانوا يعبدون البقور والعجاجيل، وحبّب ذلك إليهم؛ كقوله: وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ [البقرة: ٩٣]، ثم تابوا وعادوا إلى عبادة الله وطاعته، فأراد الله أن يمتحنهم بذبح ما حبّب إليهم؛ ليظهر منهم حقيقة التوبة، وانقلاع ما كان في قلوبهم من حب البقور والعجاجيل.

٣. في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ دليل لمن ذكر أن من حلف لا يأكل لحم بقرة، فأكل لحم ثور حنث؛ لأن الله تعالى ذكر البقرة، ثم بين في آخره ما يدل أنه أراد به الثور؛ لقوله: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، والثور هو الذي يثير الأرض، ويسقى الحرث، دون الأنثى منها، إلا أن يكونوا هم كانوا يحرثون بالأنثى منها كما يحرث أهل الزمان بالذكر، فحينئذ لا يكون فيه دليل.

٤. اختلف في قولهم: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾:

أ. قال بعضهم: كفروا بهذا القول؛ لأنهم سمّوه هازئا، ومن سمّى رسولا من الرسل هازئا يكفر؛ ألا ترى أنهم قالوا في الآخر: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾!؟ دل أن ما قال لهم أول مرّة ليس بحق عندهم.. وليس هذا بشيء، ولا يحتمل ما قالوا.

ب. لكن يحمل على المجازاة، كأنهم قالوا: أتجازينا بهذا لما مضى منا وسبق من العصيان بك، والخلاف لك!؟ لما لم يعلموا أنه من عند الله يأمر بذلك.. وهذا وأمثاله على المجازاة جائز على ما ذكرنا من الاستهزاء، والمخادعة، والمكر، كله على المجازاة جائز، وكقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] على المجازاة جائز على ما ذكرنا من الاستهزاء؛ فكذلك الأول.. أما الاستهزاء

(١) تأويلات أهل السنة: ١/٤٩٠.

فيما بين الخلق فهو جهل يسخر بعضهم ببعض؛ لجهل بأحوال أنفسهم؛ إذ كلهم سواء من جهة الجوهر والخلقة، وتركيب الجوارح، وتصوير الصّور، وتمثيلها، ألا ترى: أن موسى عليه السلام أجاب لهم عن الهزء بالجهل، فقال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾!؟ دل أن الهزء في الخلق لجهل فيهم.

٥. وقوله: لا فارِضٌ: يقول: ليست بكبيرة.

٦. وقوله: ولا بِكْرٌ: ولا شابة.

٧. وقوله: عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ: بين الشابة والكبيرة.

٨. وقيل: لا فارِضٌ: لا كبيرة، على ما ذكرنا ولا بِكْرٌ، أي: ولا ما لا تلد، عَوانٌ بَيْنَ أي قد ولدت بطنا أو بطنين.

٩. اختلف في معنى قوله: صَفْراءُ:

أ. قيل: الصفراء؛ التي تضرب إلى السواد، وذلك لشدته.

ب. وقيل: الصفراء؛ من الصّفر المعروف.

١٠. فاقِعٌ لَوْنُها:

أ. قيل: صاف.

ب. وقيل: فاقِعٌ لَوْنُها؛ صفراء الظلف والقرن.

١١. تَسُرُّ النَّاظِرِينَ: تعجب الناظرين.

١٢. قوم موسى عليه السلام مع غلظ أفهامهم، ورقة عقولهم ـ أعرف لله، وأمهل توحيدا من المعتزلة؛ لأنهم قالوا: إن شاء الله لكنا من المهتدين، والمعتزلة يقولون: قد شاء الله أن يهتدوا، وشاءوا هم ألا يهتدوا؛ فغلبت مشيئتهم على مشيئة الله على قولهم ـ فنعوذ بالله من السّرف في القول، والجهل في الدين.

١٣. اختلف في معنى ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾:

أ. قيل: لم يذللها للعمل؛ أي لم يزرع عليها، ولا هي مما يسقى عليها الحرث.

ب. وقيل: أي بقرة وحشية صعبة، تثير الأرض، ولكن إثارة الأرض لم تذللها؛ لصعوبتها وشدتها.

١٤. في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وجوه:

أ. قيل: وَما كادُوا يَفْعَلُونَ، خوفا على أنفسهم أن يفتضحوا لظهور القاتل، وهو أقرب.

ب. وقيل: وما كادُوا يَفْعَلُونَ لغلاء ثمنها.

ج. وقيل: إنهم استقصوا في صفة تلك البقرة، والسؤال عن أحوالها، والاستقصاء في الشيء ربما يكون للمدافعة.

١٥. استدلّ قوم بهذه الآية على: عموم الخطاب وقت قرع السمع؛ لأنه أمرهم بذبح بقرة لم يبين لهم كيفيّتها، ولا ماهيتها وقت الخطاب، إلا بعد البحث والسؤال عنها؛ فثبت أنه على العموم، ألا ترى ما روى في الخبر: لو عمدوا إلى أدنى بقرة لأجزأتهم، لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم) لكن هذا لا يصح؛ لأنه دعوى على الله، لحدوث شيء في أمره، وبدوّ في حكمه، فذلك كفر، لا يقوله مسلم، فضلا عن أن يقول به رسول من الرسل.

١٦. تأويل هذا أنه قال: إنه يقول كذا، فلو كان الأول على غير ذلك لكان قد بدا له فيما عم وفسر بما لم يكن أراد، وذلك معنى البداء، بل معنى الرجوع عن الأول مما أراد، والتفسير له بغيره، ولا قوة إلا بالله.

١٧. في الآية دليل خصوص الخطاب من وجهين:

أ. أحدهما: أخذ كل آية خرجت في الظاهر على العموم حتى الخصوص.

ب. الثاني: جواز تأخير البيان على تقدم الأمر به؛ لما ذكرنا: أنها لو حملت على العموم ـ وهو مرادها ـ ثم ظهر الخصوص، فهو بدو وحدوث في الأحكام والشرائع، فذلك حال من جهل العواقب والنهايات، تعالى الله عن ذلك.

١٨. معنى سؤالهم؛ بدعاء الرب لهم: البيان بما أريد جعل ذلك آية؛ فوقع عندهم: أن لا كل بقرة تصلح للآيات، ولذلك لم يسألوا موسى عن تفسيرها؛ إذ الله ـ تعالى ـ هو الذي يعلم الآيات.. والحرف الثاني هو الأول الذي قلنا: إليه انصرف المراد في الابتداء؛ لما يوجبه، وأن الأمر بالذبح في الابتداء كان على ما آل أمرها إليه وظهر، لكنهم أمروا بالسؤال عنها، والبحث عن أحوالها؛ ليصلوا إلى المراد فيه، لا أنه أحدث لهم ذلك بالسؤال، وعلى ذلك: ما روى في الخبر: أن صلة الرحم تزيد في العمر) ي لما علم من عبده أنه يصل رحمه، جعل مدة عمره أكثر مما لو علم أنه لا يصل، لا أنه يجعل أجله إلى وقت، فإذا وصل رحمه زاد على ذلك، لا على ما يقوله المعتزلة: أن الله ـ تعالى ـ يجعل لكل أحد أجلين، فإذا وصل رحمه أماته في أبعد

الأجلين، وإذا لم يصل جعل أجله الأول، فهذا أمر من يجهل العواقب، فأما من كان عالما بالعواقب فلا؛ لأنه بدوّ ورجوع عما تقدم من الأمر.

١٩. من استدلّ بهذه الآية بقبول قول أولياء المقتول وهم؛ لأوجه:

أ. أحدها: ما لا يقبل قول القتيل قبل خروج الروح منه: إنّ فلانا قتلني، في قطع حق الميراث، وإغرام الدية.

ب. الثاني: أن ذلك كان آية عظيمة لهم، لم يكن ذلك لغيرهم.

ج. الثالث: أن أولياء المقتول قد كانوا ـ قبل أن يحيى ـ يدّعون عليهم القتل، فلو كان لهم حق القبول، لم يحتج إلى تلك الآية.

د. الرابع: أن قبول قول الميت أحق من قبول قول الولى؛ لأن الوليّ ينتفع بقوله، والميت لا ينتفع بقوله شيئا، ثم القتيل لا يقبل قوله في شريعتنا فكذلك الولى، والله الموفق.

٢٠. في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ دليل مراد الخصوص ـ وإن خرجت في الظاهر مخرج العموم ـ لأنه قال عزّ وجل: ﴿قُتِلْتُمْ﴾، وإنما قتله واحد، وقال: ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، وإنما كان كتمه الذي قتله، لذلك الصحيح: ألا نصرف مراد الآية إلى العموم بلفظ العموم، ولا إلى الخصوص بلفظ الخصوص إلا بعد قيام الدليل والبرهان على ذلك.

٢١. اختلف في البعض المراد في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، قال بعضهم: بفخذها الأيمن.. لكن هذا لا يعلم إلا بخبر عن الله تعالى، ولكن يقال: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ بقدر ما في الكتاب.

٢٢. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾:

أ. أي هكذا يحيى الله الموتى، من الوجه الذي لا يتوهمون إحياءه، بضرب بعض البقرة عليه، وكذلك قوله: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، فكما أحيا الأرض بعد موتها بالمطر المنزل من السماء، يقدر على إحياء الموتى، وبعثهم على الوجه الذي لا يظنون ولا يتوهمون.

ب. ويحتمل: إحياء ذلك القتيل لهم، لما لم يكونوا اطمأنّوا على إحياء الموتى؛ فأراهم الله ـ عزّ وجل ـ ذلك؛ ليطمئنوا، وليستقروا على ذلك، ولا يضطربوا فيه.

٢٣. قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾:

أ. يحتمل: يريكم آيات وحدانيته.

ب. ويحتمل: يريكم آيات إحياء الموتى، وآيات البعث.

ج. ويحتمل: آياته فيما تحتاجون إليه، كما أرى من تقدمكم عند حاجاتهم.

د. ويحتمل: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ آيات نبوة محمد ﷺ؛ إذ هو خبّر عن الغيب.

٢٤. أوضح آيات الرسالة؛ الخبر عن الغيب، وذكر القصة على الوجه الذي يعلم أن الاختراع لا يبلغ ذلك؛ لتعلموا أنه بالله علم؛ إذ لم يذكر له خط كتاب، ولا اختلاف إلى من عنده، على أنه لو كان مسموعا منهم، يجرى على مثله القول بالزيادة والنقصان، ولكن منعهم الله تعالى عن ذلك ـ إذ علموا صدقه ـ إشفاقا على أنفسهم، أن ينزل عليهم نقمة الله.

٢٥. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لكى تعقلوا آيات وحدانيته، وتعقلوا أنه قادر على إحياء الموتى بعد الموت.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لا كبيرة السن هرمة ولا بكر صغيرة، ولكنها وسط عوان.

٢. الفارض: هو الهرم من الدواب، قال الشاعر:

لعمري لقد أعطيت ضيفك تساق إليه ما تقوم على رجل

٣. معنى قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾: أي صفراء شديدة الصفرة، قال الشاعر: ما بين أصفر فاقع ودقان[٢].

٤. ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾: يريد أنها صفة لم تذلل ولم يحرث بها بعد، ولم يسنَ بها الماء للحرث من البئآر، ولكنها مسلمة من التعب والعمل.

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٤.

(٢) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٤.

٥. معنى قوله: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ولا شيء فيها من البياض ولا غرة ولا تحجيل، ولكنها مبهمة بلون واحد غير موشى ولا مختلف.

٦. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: أي فتدافعتم في أمرها، ولم يقر أحد منكم بقتلها، فأراد الله عز وجل أن يحيي هذا القتيل حتى يخبر بمن قتله، ويفصح من تعدى عليه وظلمه.

٧. لما ضرب القتيل ببعض لحمها حي فسأله موسى: من قتلك يا هذا؟ فقال: فلان، فأمر به موسى، فضربت عنقه.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. كان السبب في أمر موسى عليه السلام لقومه بذلك أن رجلاً في بني إسرائيل كان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب يرثه، فاستبطأ موته فقتله سراً، وألقاه في موضع بعض الأسباط، وادعى قتله على أحدهم، واختصموا إلى موسى فقال: من عنده علم ذلك فقالوا: إنك نبي الله وأنت أعلم منا فقال: إن الله عز وجل يأمركم أن تذبحوا بقرة، ولما سمعوا ذلك منه وليس في ظاهره جواب عما سألوا عنه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ والهزوء اللعب والسخرية قال الراجز:

قد هزئت مني أمطيله قالت أراه معدماً لا شيء له

٢. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزؤ جهل، فاستعاذ منه موسى لأنه صفة تنتفي من الأنبياء.

٣. إنما أمروا والله أعلم بذبح البقرة دون غيرها لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته ومحبته.

٤. البقرة اسم الأنثى، والثور للذكر، مثل ناقة وجمل ورجل وامرأة، واسم البقرة مأخوذ من الشق يقال: بقر بطنه إذا شقه، وسميت بقرة لأنها تحرث الأرض وتشقه.

٥. السنة في البقرة الذبح بكتاب الله، ويجوز فيه النحر لقرب المنحر من المذبح، وأنه لا تعذيب فيه،

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٦٢.

ولما روي أن النبي ﷺ نحر عن نسائه البقر، والسنة في الإبل النحر ولا يجوز سواه، وفي الغنم الذبح لا يجوز سواه؛ لأن العدول عن هذا لا يكون إلا لقصد التعذيب لأن البعير لو ذبح لطال خروج روحه ولتعذب بذلك، والشاة مع القدرة عليها يسيرة المؤنة، إذا عدل عن الذبح إلى النحر، وإنما يكون ذلك قصداً لتغييره مخالفة السنة، ومن قصد مخالفة السنة والتلعب لم تؤكل ذبيحته.

٦. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ روينا عن النبي ﷺ أنه قال: والذي نفس محمد بيده لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزت عنهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم)

٧. في الفارض تأويلان:

أ. أحدهما: أنها التي قد ولدت بطوناً فاتسع بذلك جوفها.

ب. الثاني: أراد به القديم قال الشاعر:

يا رب ذي ظغن علي فارض   له قرءٌ كقرء الحائض

فالفارض أراد به القديم.

٨. البكر: الصغيرة التي لم تحمل والبكر من إناث البهائم وبني آدم ما لم يفتحلها الفحول، فأما البَكر بالفتح فهو الفتى من الإبل.

٩. ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: العوان النصف التي قد ولدت بطناً أو بطنين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي بين الصغيرة والكبيرة وهي أقوى ما يكون وأحسنه.

١٠. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾:

أ. قيل: أي ترى الصفرة المعروفة.

ب. وقيل: إن الصفراء بمعنى السوداء واستشهد بقول الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي   هن صفر ألوانهن كالزبيب

١١. الفاقع الصافي وليس يوصف السواد بذلك، وإنما يقال أسود حالك وأحمر قاني وأصفر فاقع وأخضر يقق وأبيض ناقي.

١٢. روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لم يثبت عليهم أجر الأبد) يعني أنهم لو لم يقولوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ

لْمُهْتَدُونَ﴾ لم يهتدوا إليها أبداً.

١٣. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ يعني لم يذلها العمل، ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، فالإثارة تفريق الشيء أي ليست مما يثير الأرض للزرع ولا يسقى بها الزرع.

١٤. ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ وفي ذلك تأويلان:

أ. أحدهما: مسلمة من العيوب.

ب. الثاني: ليس فيها لون يخالف لونها من سواد وبياض، وأصله من وشي الثوب، وهو تحسين عيوبه بألوان مختلفة، ومنه قيل للساعي بالرجل إلى السلطان واشي لأنه يحس كذبه عنده حتى يقبلوه منه.

١٥. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾:

أ. قيل: كادوا لا يفعلون لغلاء ثمنها لأنهم شروها بملء مسكها ذهباً من مال المقتول.

ب. وقيل: وما كادوا يفعلون خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل.

١٦. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ يعني ما كان من قتل الإسرائيلي الذي قتله ابن أخيه طلباً لميراثه فادعى قتله على بعض الأسباط أي فتدافعتم فيها واختلفتم ومنه قول العجاج: أدركتها قدام كل مدرة... بالدفع عني درأ كل عنجه.

١٧. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما تسترون من القتل، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾:

أ. قيل: أي ببعض آرابها.

ب. وقيل: إن البعض كان الفخذ.

ج. وقيل: كان البضعة التي بين الكتفين.

١٨. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي أنه لما ضربه ببعض البقرة وأحياه الله تعالى فقال: قتلني ابن أخي ثم قبض قال بنو أخيه والله ما قتلناه وكذبوا بالحق بعد معاينته وحُرموا ميراثه وهذا أصل في منع القاتل من الميراث، وهو مما وافق أحكامه أحكام القرآن ولم ينسخ.

١٩. أمر صاحب البقرة ورد في الخبر فتى من بني إسرائيل كان باراً بوالديه وكان يقوم ثلث الليل يصلي ويقف عند رأس والدته فيذكرها التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد ويقول: يا أماه إن كنت ضعفت عن قيام الليل فكبري الله وسبحيه وهلليه وكان ذلك عملها الدهر كله فإذا أصبح أتى الجبل

واحتطب على ظهره وأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله أن يبيعه فيتصدق بثلثه ويبقي لعبادته ثلثاه يعطي أمه ثلثه فكانت أمه تأكل النصف وكان ذلك عملهما الدهر؛ فلما طال عليهما قالت: يا بني اعلم أني قد ورثت من أبيك بقرة وختمت عنقها وتركتها في البقر على اسم إله إبراهيم وإسماعيل وموسى فإذا أتيتها دعوتها بهذه الأسماء فإنها تتبعك وقالت: إن علامتها ليست بهرمة ولا فتية غير أنها بينهما وهي صفراء فاقع لونها تسر الناظرين إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وليست بالذلول ولا صدية تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها ولونها واحد فإذا أتيتها فخذ بعنقها فإنها لا تتخلف عنك بإذن إله إسرائيل؛ فانطلق الفتى وحفظ وصية أمه وسار في البرية يومين أو ثلاثة حتى إذا كان صبيحة ذلك اليوم انصرف وصاح بها فتبعته فقدم بها على أمه فأخبرها بخبرها فقالت: يا بني إنك تحطب على ظهرك وقد جهدك الأمر بما تعانيه بالليل والنهار فاشخص وبع هذه البقرة وخذ ثمنها وتقوى به ورفه نفسك، قال الفتى: بكم أبيعها؟ قالت: بعها بثلاثة دنانير برضى مني؛ فانطلق الفتى إلى السوق فقد قيل إن الله تعالى بعث ملكاً من الملائكة ليري خلقه قدرته ويبدي لنبيه معجزته على صورة بشر فقال للفتى: بكم تبيع هذه البقرة أيها الفتى؟ قال أبيعها بثلاثة دنانير على رضى من والدتي؛ قال لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك؛ فقال: لو أعطيتني زنتها لم أبعها حتى أستأمرها؛ فرجع الملك إلى موسى فأخبره بالخبر فعمدوا إلى بقرة الفتى فاشتروها منه على أن يملوا جلدها دنانير ثم ذبحوها ثم ضربوا الغلام ببعضها فقام يخبرهم بقتله.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. كان السبب في أمر موسى لقومه بذلك، ما ذكره المفسرون: أن رجلا من بني إسرائيل كان غنيا، ولم يكن له ولد، وكان له قريب يرثه، فاستبطأ موته، فقتله سرا وألقاه في موضع الأسباط، وادعى قتله على أحدهم، فاحتكموا إلى موسى، فقال: من عنده من ذلك علم؟ فقالوا: أنت نبي الله، وأنت أعلم منا، فقال: إن الله عزّ وجل يأمركم أن تذبحوا بقرة، فلما سمعوا ذلك وليس في ظاهره جواب عما سألوا عنه ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ والهزء: اللعب والسخرية. قال الراجز:

---

(١) تفسير الماوردي: ١/١٣٨.

قد هزئت مني أمّ طيسلة قالت أراه معدما لا شيء له

٢. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء، جهل، فاستعاذ منه موسى، لأنها صفة تنتفي مع الأنبياء، وإنما أمر بذبح البقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته.

٣. البقرة اسم للأنثى، والثور للذكر، مثل ناقة وجمل، وامرأة ورجل، فيكون تأنيثه بغير لفظه، واسم البقرة مأخوذ من الشق من قولهم بقر بطنه إذا شقه، لأنها تشق الأرض في الحرث.

٤. قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ روى الحسن عن النبي ﷺ، أنه قال: والّذي نفسي بيده، لو اعترضوا بقرة، فذبحوها، لأجزأت عنهم، ولكنّهم، شدّدوا، فشدّد الله عليهم)

٥. في الفارض تأويلان:

أ. أحدهما: أنها الكبيرة الهرمة، وهو قول الجمهور. قال الراجز: ـ

شيب أصداغي فرأسي أبيض محامل فيها رجال فرض

يعني بقوله: فرّض، أي هرمى.

ب. الثاني: أنّ الفارض التي قد ولدت بطونا كثيرة، فيتسع لذلك جوفها، لأن معنى الفارض في اللغة الواسع، وهذا قول بعض المتأخرين، واستشهد بقول الراجز:

يا ربّ ذي ضغن عليّ فارض له قروء كقروء الحائض

٦. البكر: الصغيرة التي لم تحمل، والبكر من إناث البهائم، وبني آدم، ما لم يفتحله الفحل، وهي مكسورة الباء، فأما البكر بفتح الباء، فهو الفتي من الإبل.

٧. ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ العوان النّصف التي قد ولدت بطنا أو بطنين، ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ يعني بين الصغيرة والكبيرة، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، قال الشاعر:

فرحن عليه بين بكر عزيزة وبين عوان كالغمامة ناصف

٨. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾:

أ. حكي عن الحسن البصري، أن المراد بقوله صفراء، أي سوداء شديدة السواد، كما تقول العرب:

ناقة صفراء أي سوداء، ومنه قول الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي   هنّ صفر أولادها كالزبيب

وقال الراجز:

وصفر ليست بمصفرّة   ولكنّ سوداء مثل الخمر

ب. قال سائر المفسرين: إنها صفراء اللون، من الصفرة المعروفة، وهو أصح، لأنه الظاهر، ولأنه قال ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ والفاقع من صفات الصفرة، وليس يوصف السواد بذلك، وإنما يقال: أسود حالك، وأحمر قان، وأبيض ناصع، وأخضر ناضر، وأصفر فاقع.

يا رب مولى حاسد مباغض   عليّ ذي ضغن وجنب فارض

٩. فيما أريد بالصفرة قولان:

أ. أحدهما: صفراء القرن والظلف، وهو قول سعيد بن جبير.

ب. الثاني: صفراء اللون كله، وهذا قول مجاهد.

١٠. في قوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: الشديدة الصفرة، وهذا قول ابن عباس، والحسن.

ب. الثاني: الخالص الصفرة، وهذا قول قطرب.

ج. الثالث: الصافي، وهذا قول أبي العالية، وقتادة.

١١. في قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ وجهان:

أ. أحدهما: تعجب الناظرين بصفرتها، فتعجب بالسرور، وهو ما يتأثر به القلب، والفرح ما فرحت به العين.

ب. الثاني: حسن سمتها، وصفت بذلك، ليكون ذلك زيادة شرط في صفتها، غير ما تقدم من ذكر صفرتها، فتصير البقرة على الوجه الأول، ذات وصف واحد، وعلى الوجه الثاني، ذات وصفين.

١٢. سألوا سؤالا ثالثا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان الثاني، فروى ابن جريج، عن قتادة، أن رسول الله ﷺ قال: أمروا بأدنى بقرة ولكنّهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم، وايم الله لو أنّهم لم يستثنوا لما بيّنت لهم آخر الأبد)، يعني أنهم لو لم يقولوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما اهتدوا إليها أبدا.

١٣. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ يعني لم يذللها العمل، ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ والإثارة تفريق الشيء، أي ليست مما يثير الأرض للزرع، ولا يسقى عليها الزرع.

١٤. في ﴿شِيَةَ﴾ ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: ليس فيها علامة خاصة، حكاه السدي.

ب. الثاني: أنه ليس فيها لون، يخالف لونها من سواد أو بياض.

ج. الثالث: أنه الوضح وهو الجمع بين ألوان من سواد وبياض.

١٥. أصل ﴿شِيَةَ﴾: من وشي الثوب، وهو تحسين عيوبه بألوان مختلفة، ومنه قيل للساعي بالرجل عند السلطان واش، لأنه يحسّن كذبه عنده، حتى يقبله منه.

١٦. في قوله تعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: الآن بيّنت الحق، وهو قول قتادة.

ب. الثاني: معناه أنه حين بيّنها لهم، قالوا هذه بقرة فلان، الآن جئت بالحق فيها، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد.

١٧. في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أنهم كادوا ألّا يفعلوا لغلاء ثمنها، لأنهم اشتروها على ما حكى ابن عباس، ومحمد بن كعب: بملء مسكها ذهبا من مال المقتول، وقيل: بوزنها عشر مرات.

ب. الثاني: أنهم كادوا ألّا يفعلوا خوفا من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل، وهذا قول وهب، وقال عكرمة: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير.

ج. وقيل: كانت البقرة وحشية.

١٨. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ يعني من قتل الإسرائيلي؟ الذي قتله ابن أخيه، وفي سبب قتله قولان:

أ. أحدهما: لبنت له حسناء، أحب أن يتزوجها.

ب. الثاني: طلبا لميراثه، وادعى قتله على بعض الأسباط.

١٩. في قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: أنّ الدّرء الاعوجاج، ومنه قول الشاعر:

أمسكت عنهم درء الأعادي وداووا بالجنون من الجنون

يعني اعوجاج الأعادي.

ب. الثاني: وهو المشهور، أن الدرء المدافعة، ومعناه أي تدافعتم في القتل، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

أدركتها قدام كل مدره بالدفع عني درء كل منجه

ج. الثالث: معناه اختلفتم وتنازعتم، قاله السدي.

٢٠. هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة، فهي متقدمة في الخطاب على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الآية. لأنهم أمروا بذبحها، بعد قتلهم، واختلفوا في قاتله.

٢١. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي والله مظهر ما كنتم تسرّون من القتل، فعند ذلك قال النبي ﷺ: لو أنّ أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ليس لها باب، لأخرج الله عمله)

٢٢. اختلف العلماء في البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ على خمسة أقاويل:

أ. أحدها: أنه ضرب بفخذ البقرة، وهذا قول مجاهد، وعكرمة وقتادة.

ب. الثاني: أنه ضرب بالبضعة التي بين الكتفين، وهذا قول السدي.

ج. الثالث: أنه ضرب بعظم من عظامها، وهذا قول أبي العالية.

د. الرابع: أنه ضرب بأذنها، وهذا قول ابن زيد.

هـ. الخامس: أنه ضرب بعجب ذنبها، وهو الذي لا تأكله الأرض، وهذا قول الفراء، والبعض: يقلّ عن النصف.

٢٣. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يعني، أنه لما ضرب القتيل ببعض البقرة، أحياه الله وكان اسمه عاميل، فقال قتلني ابن أخي، ثم قبض، فقال بنو أخيه: والله ما قتلناه، فكذّبوا بالحق بعد معاينته.

٢٤. في الكلام حذف، وتقديره: فقلنا اضربوه ببعضها، ليحيا فضربوه، فحيي. كذلك يحيي الله الموتى، فدل بذلك على البعث والنشور، وجعل سبب إحيائه الضرب بميت، لا حياة فيه، لئلا يلتبس على

ذي شبهة، أن الحياة إنما انتقلت إليه مما ضرب به، لتزول الشبهة، وتتأكد الحجة.

٢٥. في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أنه حكاية عن قول موسى لقومه.

ب. الثاني: أنه خطاب من الله لمشركي قريش.

٢٦. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: علامة قدرته.

ب. الثاني: دلائل بعثكم بعد الموت.

٢٧. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: تعملون.

ب. الثاني: تعتبرون.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذه الآية فيها توبيخ للمخاطبين من بني إسرائيل في نقض اوائلهم الميثاق، والذي اخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه، فقال: واذكروا ايضاً من نكثهم ميثاقي: ﴿إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً﴾

٢. الهزء والسخرية واللعب نظائر: قال الراجز:

قد هرئت مني ام طيلسة قالت أراه معدماً لا شيء له

اي سخرت ولعبت، ولا يجوز أن يقع من أنبياء الله عز وجل فيما يؤدونه هزواً ولا لعب، وظنوا في أمره إياهم عن الله: بذبح ـ البقرة ـ عند نذرائهم في الفتيل ـ انه هازئ لاعب ولم يكن لهم ذلك.

٣. حذفت الفاء من قوله: أتتخذنا هزواً ـ وهو جواب ـ للاستغناء ما قبله من الكلام عنه، وحسن السكوت على قوله: إن الله يأمركم ان تذبحوا بقرة، فجاز لذلك إسقاط الفاء من قوله، فقالوا كما حسن

(١) تفسير الطوسي: ١/٢٩٤.

اسقاطها في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾، ولم يقل فقالوا، ولو قيل بالفاء لكان حسناً، ولو كان ذلك على كلمة واحدة لم تسقط منه الفاء ألا ترى انك إذا قلت: قمت ففعلت، لم يجز إسقاط الفاء لأنها عطف لا استفهام يوقف عليه، فقال موسى حينئذ: اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين، يعني السفهاء الذين يردون على الله الكذب والباطل.

٤. كان السبب في امر موسى عليه السلام لقومه بذبح البقرة ما ذكره المفسرون أن رجلا من بني اسرائيل كان غنيا، ولم يكن له ولد، وكان له قريب يرثه قيل: انه اخوه وقيل: انه ابن اخيه وقيل: ابن عمه، واستبطأ موته، فقتله سرا، والقاه في موضع بعض الاسباط، وادعى قتله على احدهم، فاحتكموا إلى موسى فسأل من عنده من ذلك علم، فقال: انت نبي الله وانت اعلم منا، فقال: ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة، فلما سمعوا ذلك منه وليس في ظاهره جواب عما سألوا عنه، قالوا: أتتخذنا هزواً قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، لان الخروج عن جواب السائل المسترشد الى الهزء جهل.

٥. قال بعضهم: إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عليهم ما كانوا يرونه من تعظيمهم وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته.

٦. اختلف في معنى الفارض:

أ. قيل: الكبيرة المسنة، وبه قال الجمهور، يقال منه: فرضت البقرة تفرض فروضاً، وفرضت تفرض فراضة: إذا أسنت. قال الشاعر:

لعمري لقد أعطيت جارك تساق إليه ما تقوم على رجل

أي ذو أسنان:

ب. قال الجبائي: الفارض: التي لم تلد بطونا كثيرة، فيتسع لذلك بطنها، قال الرماني وهذا غلط لا يعرف.

٧. البكر: الصغيرة التي لم تحمل، والبكر من إناث البهائم وبني آدم: ما لم يفتحله الفحل. ـ مكسورة الباء ـ والبكر ـ بفتح الباء ـ الفتي من الإبل.

٨. العوان: النصف التي قد ولدت بطناً أو بطنين قال الفراء: يقال من العوان: عوّنت المرأة تعويناً ـ بالفتح والتشديد ـ وعونت: إذا بلغت ثلاثين سنة.

٩. إنما قال: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، ولم يقل بينهما، لأنه أخرجه على لفظة واحدة، وعلى معنى هذا الكلام قال رؤبة في صفة العير:

فيه خطوط من سواد وبلق كأنها في الجلد توليع البهق

وبين ذلك يعني بين الكبيرة والصغيرة، هو أقوى ما يكون من البقر وأحسنه قال الأخطل:

وما بمكة من شمطٍ محفِّلة وما بيثرب من عون وأبكار

١٠. معنى الآية: أن قوم موسى قالوا: يا موسى أدع لنا ربك يبين لنا ما لون البقرة التي أمرنا بذبحها.

١١. اختلف في معنى ﴿صَفْرَاءُ﴾:

أ. قال الحسن المراد به: سوداء شديدة السواد. تقول العرب: ناقة صفراء أي سوداء. قال الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر ألوانها كالزبيب

يعني ركابي هن سود، غير أن هذا ـ وان وصفت به الإبل، فليس مما توصف به البقر. مع ان العرب لا تصف السواد بالفقوع، وإنما تصفه بالشدة وبالحلوكة ونحوها، تقول: اسود حالك وحائك وحنكوك وغربيب ودجوجي، ولا تقول: فاقع.

ب. قال أكثر المفسرين: إنها صفراء اللون من الصفرة المعروفة وهذا الصحيح، لأنه الظاهر، ولأنه قال ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ وهو الصافي ولا يوصف السواد بذلك، فأما ما ابيض فيؤكدونه بأنه ناصع، واخضر ناضر واصفر فاقع.

١٢. اختلف فيما أريد بالصفرة:

أ. قال سعيد بن جبير: المعنى في الآية: بقرة صفراء القرن والظلف.

ب. وقال مجاهد: صفراء اللون كله، وهو الظاهر لأنه قال فاقع لونها. فوصف جميع اللون بذلك.

١٣. اختلف في معنى ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾:

أ. قيل: السرور: ما يسر به القلب، والفرح ما فرحت به العين.

ب. وقيل: معناه: تعجب الناظرين.

١٤. اهل الحجاز يؤنثون البقر. فيقولون: هذه بقر، وكذلك النخل، وكل جمع كان واحده بالهاء،

وجمعه بطرح الهاء، فإنهم يؤنثون ذلك، وربما ذكروا ذلك قال الله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ـ بالتأنيث ـ وفي موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، والأغلب عليهم التأنيث، واهل نجد يذكرون وربما أنثوا، والتذكير الغالب، فمن ذكر نصب الهاء من (تشابه) يعني التبس واشتبه.. ومن أنث رفع الهاء لأنه يريد يتشابه علينا.

١٥. البقر: والباقر، والجامل، والجمال بمعنى واحد، وقرأ بعضهم إن الباقر تشابه علينا، وهو شاذ.

قال الشاعر:

وما ذنبه ان عافت الماء باقر وما ان تعاف الماء الا لتضربا

يريد الجمال، والذي ذهب اليه ابن جريح، وقتادة ورووه عن ابن عباس عن النبي ﷺ انهم أمروا بأدنى بقرة، لكنهم لما شددوا على أنفسهم، شدد الله عليهم: وايم الله، لو انهم لم يستثنوا ما تبينت لهم الى آخر الدهر)، يعني انهم لو لم يقولوا وانا ان شاء الله لمهتدون بتعريف الله إيانا، وبما شاء له الله من اللطف والزيادة في البيان، وكل من اختار تأخير بيان المجمل عن حال الخطاب استدلّ بهذه الآية على جواز ذلك.

١٦. ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ المعنى ان البقرة التي أمرتكم بذبحها، لا ذلول أي لم يذللها العمل بإثارة الأرض بأظلافها، ولا تسقي الحرث. معناه: ولا يستقى عليها الماء، فيسقى الزرع. كما يقال للدابة التي قد ذللها الركوب والعمل. تقول دابة ذلول بين الذل ـ بكسر الذال ـ وفي مثله من بني آدم رجل ذليل بين الذل والمذلة. قال الزجاج: يحتمل أن يكون أراد ليست بذلول وهي تثير الأرض، ويحتمل: انها ليست ذلولة، ولا مثيرة الأرض قيل: إنها كانت وحشية في قول الحسن.

١٧. ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ مسلمة: معناه: من السلامة. يقال منها سلمت تسلم، فهي مسلمة من الشية:

أ. قيل: لا شية فيها لا بياض فيها، والاسواد.

ب. وقال قتادة مسلمة من العيوب، وبه قال الربيع.

ج. وقال ابن جريج: لا عوان فيها.

د. قال المؤرخ: لا شية فيها: أي لا وضح فيها بلغة أزد شنوءة.

ه. الذي قال اهل اللغة ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: اي لا لون يخالف لون جلدها وأصله: وشى الثوب

وأصله تحسين عيوب الشيء، يكون فيه بضروب مختلفة من الوان سداه، ولحمته يقال منه: وشيت الثوب: أشيه شية ووشيا، ومنه قيل للساعي بالرجل الى السلطان، أو غيره واش لكذبه عليه عنده، وتحسينه كذبه عنده بالأباطيل يقال: وشيت به، وشاية. قال كعب بن زهير:

يسمى للوشاة بجنبيها وقولهم انك يا بن أبي سلمى لمقتول

يعني: انهم يتقولون الأباطيل، ويخبرونه انه إن لحق بالنبي ﷺ قتله، وقال بعض اهل اللغة ان الوشي: العلامة وأصله: شية من وشيت، لكن لما أسقطت منها الواو وأبدلت مكانها الهاء في آخرها: كما قالوا: وزنته زنة ووعدته عدة، وكذلك وشيته شية.

١٨. معنى قوله: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما ـ الآن بينت الحق، وهو قول قتادة، وهذا يدل على انه كان فيهم من يشك في ان موسى عليه السلام ما بيّن الحق.

ب. وقال عبد الرحمان: يريد انه حين بينها لهم، قالوا هذه بقرة فلان، الآن جئت بالحق، وهو قول من جوز أنه قبل ذلك لم يجئ بالحق على التفصيل ـ وإن أتى به على وجه الجملة ـ

١٩. قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما ـ كادوا لا يفعلون أصلا، لغلاء ثمنها، لأنه حكي عن ابن عباس ومحمد ابن كعب انهم اشتروها بملء جلدها ذهباً من مال المقتول، وقيل: بوزنها عشر مرات.

ب. الثاني ـ ما قال عكرمة ووهب كادوا ألا يفعلوا خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم، قال عكرمة ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير.

٢٠. معنى كاد: هم ولم يفعل، ولا يقال كاد أن يفعل، وإنما يقال كاد يفعل، قال الله ما كادوا يفعلون قال الشاعر: قد كاد من طول البلى ان يمصحا.. أي لو تعرضت لعينيه أي دهش وتحير.

٢١. الصحيح أنه يجوز في البقرة غير الذبح، فان نحر مختاراً لم يجز اكله وفيه خلاف.

٢٢. استدلّ أصحابنا بهذه الآيات على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب الى وقت الحاجة، فالله أمرهم بذبح بقرة هذه الصفات كلها لها، ولم يبين ذلك في أول الخطاب حتى سألوا عنه وراجعوا فيه، فبين حينئذ المراد لهم شيئاً بعد شيء، وهذا يدل على جواز تأخير البيان.

٢٣. سؤال وإشكال: لم زعمتم ان الصفات المذكورة في البقرة الاولى التي أمروا بذبحها، وما الذي تنكرون انهم أمروا بذبح البقرة أي بقرة كانت، فلما راجعوا تغيرت المصلحة، فأمروا بذبح بقرة أخرى هي لا فارض ولا بكر، فلما راجعوا تغيرت المصلحة، فأمروا بذبح بقرة صفراء فاقع لونها فلما راجعوا تغيرت المصلحة، فأمروا بذبح بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها، وانما يصح لكم لو كانت الصفات المذكورة كلها مرادة في البقرة الأولى؟ والجواب: هذا باطل، لأن:

أ. الكناية في قوله: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ لا يجوز أن تكون كناية إلا عن البقرة التي تقدم ذكرها، وأمروا بذبحها، لأنه لم يجر في الكلام ما يجوز أن تكون هذه الكناية عنه إلا البقرة، ويجري ذلك مجرى ان يقول واحد لغلامه: اعطني تفاحة فيقول الغلام: ما هي؟ بينها فلا يصرف واحد من العقلاء هذه الكناية إلا الى التفاحة المأمور بإعطائه إياها، ثم يقال بعد ذلك انها بقرة لا فارض ولا بكر.

ب. الهاء في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ الصحيح أنها كناية عنه تعالى، لأنه لم يتقدم ما يجوز ان يكون كناية عنه إلا اسمه تعالى، وكذا يجب ان يكون قوله انها كناية عن البقرة المتقدم ذكرها وإلا فما الفرق بين الامرين؟ وكذلك الكلام في الكناية الثانية والثالثة سواء، ولا خلاف بين المفسرين ان الكناية في الآية من أولها الى آخرها: كناية عن البقرة المأمور بها في الأول.. وقالت المعتزلة: انها كناية عن البقرة التي تعلق التكليف المستقبل بها.

ج. لا خلاف بين المفسرين ان جميع الصفات المذكورات للبقرة أعوز اجتماعها للقوم حتى توصلوا الى اجتماع بقرة لها هذه الصفات كلها بملء جلدها ذهباً، وروي اكثر من ذلك، ولو كان الامر على ما قاله المخالف لوجب ان لا يعتبروا فيما يبتاعونه إلا الصفات الاخيرة دون ما تقدمها، وتلغي الصفات المتقدمة إجماعهم على ان الصفات كلها معتبرة، دليل على ان الله تعالى أخر البيان.

٢٤. سؤال وإشكال: لم عنفوا على تأخيرهم امتثال الامر الأول مع ان المراد بالأمر الأول تأخر؟ ولم قال فذبحوها وما كادوا يفعلون؟ والجواب: ما عنفوا بتأخير امتثال الأمر الأول، وليس في الظاهر ما يدل عليه، بل كان البيان يأتي شيئاً بعد شيء كما طلبوه من غير تعنيف، فلا قول يدل على انهم بذلك عصاة، فأما قوله: في اخر القصة: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، فإنما يدل على انهم كادوا يفرطون في اخر القصة، وعند تكامل البيان، ولا يدل على انهم فرطوا في أول القصة.. ويقوي ذلك قوله تعالى بعد جمع

الأوصاف: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ اي جئت به على جهة التفصيل، وان كان جاءهم بالحق مجملًا.

٢٥. تقدير الآية: واذكروا إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها، وهو عطف على قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وهو متقدم على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ لأنهم انما أمروا بذبح البقرة بعد تدارئهم في امر المقتول.

٢٦. معنى ﴿ادارأتم﴾:

أ. قيل: اختلفتم، وأصله تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال بعد ان سكنت، وجعلوا قبلها ألفا لتمكن النطق بها. قال ابو عبيدة: ادّارأتم: بمعنى اختلفتم فيها، من التدارؤ، ومن الدرء.

ب. وقيل: الدراء: العوج: اي اعوججتم عن الاستقامة، ومنه قول الشاعر:

فنكب عنهم درء الاعادي وداووا بالجنون من الجنون

اي اعوجاج الاعادي.

ج. وقيل: الدرء المدافعة، ومعناه تدافعتم في القتل، ومنه قوله: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ﴾، وقال رؤبة ابن العجاج:

أدركتها قدام كل مدره بالدفع عني درء كل عنجه

ويقال: فلان لا يداري ولا يماري اي: لا يخالف.

٢٧. ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مظهر ما كنتم تسرون من القتل.

٢٨. اختلف العلماء في البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾:

أ. قال الفراء: ضرب بذنبها.

ب. وقال البعض: اقل من النصف.

ج. وقال ابن زيد: ضرب ببعض أرابها.

د. وقال ابو العالية: ضرب بعظم من عظامها.

هـ. وقال السدي: ضرب بالبضعة التي بين الكتفين.

و. وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: ضرب بفخذ البقرة.

٢٩. الهاء في قوله فاضربوه كناية عن القتيل، والهاء في قوله: ببعضها كناية عن البقرة.

٣٠. هذه الأقاويل كلها محتملة الظاهر، والمعلوم ان الله تعالى امر ان يضرب القتيل ببعض البقرة، ولا يضر الجهل بذلك البعض بعينه، وإنما أمرهم بذلك لأنهم إذا فعلوه احيي الميت، فيقول فلان قتلني: فيزول الخلف، والتداري بين القوم، والقديم تعالى، وان كان قادراً على الاخبار بذلك فان هذا اظهر، والاخبار به أعجب لأنه معجز خارق للعادة.

٣١. التقدير في الآية: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فضربوه فحيي كما قال: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ تقديره فضرب، فانفلق، وكذلك قوله: ﴿يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ فيه إضمار كأنه قال: فقلنا اضربوه ببعضها فحيي كذلك يحيي الله الموتى، اي اعلموا ان ما عاينتموه ان الله قادر على ان يحيي الموتى للجزاء، والحساب الذي أوعدكم به.

٣٢. لما ضربوه ببعض البقرة، أحياه الله تعالى، فقال: قتلني ابن اخي ثم قبض، وكان اسمه عاميل، فقال بنو أخيه والله ما قتلناه وكذبوا الحق بعد معاينته، وإنما جعل سبب احيائه الضرب بموات لا حياة فيه، لئلا يلتبس على ذي شبهة ان الحياة انتقلت اليه مما ضرب به لتزول الشبهة، وتتأكد الحجة.

٣٣. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يحتمل ان يكون حكاية عن قول موسى لقومه، ويحتمل ان يكون خطابا من الله تعالى لمشركي قريش.

٣٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ اي لتعقلوا، وقد كانوا عقالا قبل ذلك، لأن من لا عقل له، لا تلزمه الحجة، لكنه أراد تنبيههم، وان يقبلوا ما يدعون اليه، ويطيعوه ويعرفوه حق معرفته.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. بقرة: يقال: بقرة وثور، كما يقال: ناقة وجمل، وعَنَاقٌ وجَدْيٌ، وامرأة ورجل، فيكون تأنيثه من غير لفظه، وواحد البقر بَاقِرٌ، وبَيْقُورٌ، وبُقَيْز، وقرئ: إنَّ الباقر تَشَابه عَلَينا)، وأصل البَقْر الشَّقّ، بقرت بطنه أي شققته، وسمي البقر لأنه من شأنه شق الأرض بالكِرَاب.

(١) التهذيب في التفسير: ١/٤٢١.

ب. الهُزْءُ والسخرية بمعنى، والاستهزاء طلب الهزؤ.

ج. وعاذ به ولاذ ولجأ إليه واعتصم به نظائر، تقول: أعوذ بِالله، أي ألجأ إليه، ومعاذ الله، أي أعوذ بِالله، وحقيقة العياذ: استدفاع ما يخاف من شره بما يطمع ذلك منه.

د. الجهل نقيض العلم، وحقيقته: اعتقاد الشيء لا على ما هو به.

أ. التبيين: التعريف، بين، وتبين، وأصله من بان، وهو الفراق، فكأن من بين شيئًا ميّزه عما يلتبس به حتى يعرفه.

ب. الفارض: الضخم، يقال لكل شيء ضخم: فارض، ولحية فارض، يعني ضخمة، وأصل الفرض الثبوت، ومنه الفرض بمعنى الإيجاب لثبوته، وسميت المسنة فارضة؛ لأنها ثبتت ودامت حتى أسنت.

ج. البكر من كل أمر أوله، والبكر أول ولد الرجل، وبقرة بكر فتية لم تحمل، والبكر من النساء التي لم تلد ولم تحمل، والبُكْرَةُ: الغداة، وهو أول النهار.

د. العَوان: الوسط، جمعه عُون، وقيل: العوان التي نتجت مرارًا، عن الأخفش.. وقيل: التي ولدت مرة واحدة، عن أبي علي، قال ومنه قيل للحرب: عوان إذا لم تكن أول حرب بين القوم، وكانوا تحاربوا قبله.

٢. اللون: لون كل شيء، وهو هيئة يفصل بها بينه وبين غيره، كالسواد والبياض، واللون عَرَضٌ يتعاقب على الجوهر، واختلفوا:

أ. الصفرة لون معروف بين البياض والحمرة، أخذ من الصفرة، وهو الخالي، كأنه خلامنهما.

ب. فاقع يقال: اللون الأصفر إذا كان خالصًا أصفر فاقع، كما يقال: أبيض يَقَقٌ، وأسود حالك، وأخضر ناصع، وأحمر قانٍ.

ج. السرور: الفرح، وضده الغم، وحقيقته: اعتقاد توقع النفع.

أ. أَثَارَ الأرض وَكَرَبَهَا وقَلَّبَهَا بمعنى، والإثارة: إظهار الشيء بالكشف.

ب. الحرث: كل أرض ذللته للزرع.

ج. التسليم والتخليص من النظائر، تقول: خُلِّصَت من كل شائب، وَسُلِّمْت من كل شائب

بمعنى، وأصله من السلامة كأنها مسلمة من العيوب.

د. الشِّيَةُ: لون في لون آخر، كبياض في سواد، وسواد في بياض، وأصله من الوشي، وهو الألوان المختلفة.

هـ. المجيء: الإتيان، جاء: أتى.

و. سقاه وأسقاه قيل: بمعنى.. وقيل: سقاه إذا كان للشَّفَةِ، وأسقاه جعل له سِقْيًا.

ز. والذبح فَرْيُ الأوداج، وإنما الذبح في البقر والغنم، والنحر في الإبل.. وقيل: يوضع أحدهما موضع الآخر.

٣. المذكور في هذه الآية معطوف على ما تقدم من بيان نعمه عليهم، وكفرانهم بها، وعصيانهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾

٤. ﴿قَالُوا﴾ يعني قوم موسى له ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي أتسخر منا حيث سألناك عن القتيل، فتأمرنا بذبح بقرة، وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر مع جهلهم بوجه الحكمة، فقالوا: وأي شيء في ذبح البقرة مما يقطع التنازع في القتيل.

٥. سؤال وإشكال: هل قولهم لنبيهم: أتتخذنا هزؤا) كفر؟ والجواب: بلى؛ ولذلك أجاب بقوله: أَعُوذُ بِالله أَنْ أكونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) يعني أنا أرفع شانا من أن أهزأ بأحد، أو بالشرع؛ لأن القبيح إنما يفعله الجاهل به، والمحتاج إليه (أَعُوذُ بِالله) أي ألجأ إليه، وأعتصم به (أَنْ اكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

٦. لما علموا أن ذبح البقرة فرض من الله وعزيمة، سألوا عنها، فبدؤوا بسنها، فلما بين سألوا عن لونها، فلما بين سألوا عن صفتها، فلما بين لم يجدوا للتعنت والسؤال موضعًا، ولو وجدوا للسؤال موضعًا لسألوا، عن أبي مسلم.

٧. ﴿قَالُوا﴾ يعني بني إسرائيل لموسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل من أجلنا ربك ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ يعني ما البقرة التي أمرنا بذبحها.

٨. اختلف في معنى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾:

أ. قيل: ليست بكبيرة هرمة، عن ابن عباس والحسن.

ب. وقيل: لا فارض أي لم تلد بطونًا كثيرة فيتسع جوفها؛ لأن معنى الفارض في اللغة هو الواسع،

عن أبي علي، ولم يوافقه على ذلك أحد من أهل اللغة والتفسير.

٩. ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ يعني ليست بفتية لم تلد ولم تحمل قط ﴿عَوَانٌ﴾:

أ. قيل: وسط بين الصغيرة والكبيرة، وهي أقوى ما يكون، وأحسن من البقر والدواب، عن ابن عباس.

ب. وقيل: وسط ولدت بطنًا أو بطنين، عن مجاهد.

ج. وقيل: وسط من سعة الجوف وضيقه، ذكره القاضي.

د. وقيل: العوان يحتمل وجهين[1]:

- أحدهما: أنها بين التي ولدت بطونًا كثيرة، وبين التي لم تلد، أي أنها قد ولدت مرة واحدة.
- والثاني: أنها وسط بين الصغيرة والكبيرة، ولا يذهب به إلى معنى الولادة.

١٠. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، أي اذبحوا ما أمرتم ولا تراجعوا.

١١. سؤال وإشكال: هل كان المأمور ثانيًا هو المأمور أولاً أم غيره؟ والجواب: اختلفوا فيه:

أ. قيل: الثاني والثالث بيان الأول، وليس بنسخ، وهو اختيار أبي مسلم وجماعة من المفسرين.

ب. وقيل: الثاني نسخ الأول، والثالث نسخ الثاني، وهذا إنما يصح إذا فات وقت الفعل.

ج. وقيل: إن ذلك تكليف بعد تكليف، وذلك أنهم أمروا بشرط الأخذ بظاهر الأمر، وذبح بقرة ما شاءوا، فلما لم يأخذوا بذلك كان من الأصلح أن يشدد عليهم عند تراجعهم؛ ولذلك قال ﷺ: لو اعترضوا بقرة لأَجْزَأَتْ عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم) فكانوا مأمورين في المرة الثانية بظاهر الأمر وترك المراجعة، فلما راجعوا تغيرت مصلحتهم إلى تكليف ثالث، وهذا هو الصحيح.

١٢. سؤال وإشكال: لم قلتم: إنه تكليف بعد تكليف، وليس ببيان؟ والجواب: لوجوه:

أ. أن الأمر الأول لا يحتاج إلى بيان، ولو احتاج لما جاز تأخير البيان عن وقت الخطاب.

ب. أن العلماء أجمعوا على أنهم لو ذبحوا بقرة أَجْزَأَتْ عنهم، فلما رجعوا وَبَيَّنَ صفة البقرة اشتد عليهم فلم يُجزْ إلا بقرة موصوفة فكان تكليفًا غير الأول.

ج. أن قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ استبطاء وذم لهم، فلولا أنهم مقصرون لما صح ذلك،

---

(١) نسبه لأبي علي التهذيب في التفسير: ١/٤٢٦.

ولو كان يلزمهم الفعل عند آخر البيان لما كانوا مقصرين، ولما استحقوا الذم.

أ. قيل: اللون الخالص خمسة: السواد، والبياض، والحمرة، والصفرة، والخضرة، عن أبي علي وأبي هاشم.

ب. وقيل: اثنان: السواد والبياض، عن أبي القاسم.

١٣. اختلف هل يخلو الجوهر من اللون، أم لا:

أ. قيل: نعم بخلاف الأكوان، عن أبي هاشم.

ب. وقيل: لا، عن أبي علي وأبي القاسم.

١٤. سؤال وإشكال: هل يدخل اللون تحت مقدور العباد؟ والجواب: لا عن الأكثر، وعن بعضهم متولدًا لا مباشرًا.

١٥. لما بَيَّنَ الله تعالى سن البقرة سألوا عن لونها، فقال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ يعني سل ربك يبين لنا لون البقرة، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾:

أ. قيل: يعني حتى قرنها وظلفها أصفران، عن الحسن وسعيد بن جبير.

ب. وقيل: ليس فيها سواد وبياض، عن مجاهد.

ج. وقيل: أراد سوداء، روي ذلك عن الحسن، وأنكر ذلك القتبي، وقال: لا يوصف الأسود بالفاقع، بل يقال: أسود حالك، ولأن في صفة البقرة لا يقال: صفراء بمعنى سوداء، إنما جاز ذلك في صفة الإبل (فاقعٌ) قيل: شديد الصفرة يكاد من صفرته يبْيَضُّ، عن ابن عباس والحسن.

د. وقيل: الفاقع: الخالص الصفرة، عن قتادة والربيع.

٦. ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي تعجب الناظرين بحسنها، عن قتادة وغيره.

١٦. سؤال وإشكال: إذا كان الغرض إحياء القتيل بذبح بقرة سوداء، فكيف أمروا بذبح بقرة صفراء؟ والجواب: إذا كان تعالى يقدر على إحيائه من غير ذبح، ولم يمتنع أن يتعلق الصلاح في إحيائه بالذبح، فما المانع أن يكون الصلاح أولاً في ذبح بقرة أي بقرة شاءوا فلما راجعوا تغيرت المصلحة، فلا يبعد أن يكون هناك مصلحة أخرى.

١٧. لما بَيَّنَ تعالى سن البقرة ولونها سألوا عن صفتها فقالوا: يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا

هِيَ﴾ أي من العوامل أم من السوائم؟ عن أبي مسلم وغيره.

١٨. ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي اشتبه:

أ. قيل: أرادوا أن يعين الله لهم البقرة؛ فلذلك قالوا: تشابه علينا.

ب. وقيل: أرادوا الزيادة في الصفة؛ ليكون العلم به أجلى وأوضح.

ج. وقيل: ظنوا أنها بقرة معينة يحيا القتيل بضربه ببعضها لا يجوز غيره، كما أن عصا موسى كانت عصًا بعينها؛ ولذلك ترددوا وتراجعوا.

١٩. سؤال وإشكال: قد يحسن السؤال عند الاشتباه، وقد يجب فلماذا قبح سؤالهم؟ والجواب: لأنه ما اشتبه عليهم صفة المأمور به؛ ألا ترى أنهم لو أتوا بمثل المأمور به جاز عنهم، إلا أنهم حيروا أنفسهم، وترددوا تعنتًا، فتحيروا، فكلما ازدادوا في السؤال ازداد تحيرهم.

٢٠. ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى صفة البقرة بذبحها.

٢١. سألوا عن جنس البقرة، فقال تعالى، يعني موسى: ﴿إِنَّهُ﴾ يعني الله تعالى، ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ يعني المأمور بذبحها ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾:

أ. قيل: يعني ليست بذلول فتفعل ذلك، عن مجاهد.

ب. وقيل: تثير الأرض وتسقي الحرث على الإثبات، عن الزجاج، وهذا غلط؛ لأن أهل العلم على خلافه.

ج. قال أبو العالية: ليست بذلول فتثير الأرض.

د. وقال الحسن: هي وحشية، فدل أنه على النفي ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أي تقلبها.

١١. ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يعني: الأراضي المزروعة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾:

أ. قيل: بريئة من العيوب، عن قتادة وأبي العالية وعطاء، وهو أوجه؛ لأنه أكثر في الفائدة مع صحة معناه، وعليه أكثر أهل العلم.

ب. وقيل: مسلمة من الشية، عن مجاهد.

ج. وقيل: سليمة من آثار العمل؛ لأن العوامل لا تخلو من أثر العمل في قوائمها وبدنها، ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ قيل: لا لون فيها سوى لونها، عن قتادة ومجاهد.

د. وقيل: لا أثر فيها سوى لونها.

هـ. وقيل: لا عيب فيها، عن عطاء.

٢٢. اختلف في معنى ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾:

أ. قيل: الآن بينت، عن قتادة.

ب. وقيل: جئت بالحق الذي كنا نطلب من البيان.

ج. وقيل: اضطروا إلى بقرة لا يعلمون على صفتها غيرها، فقالوا: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الظاهر، وإن كان ما جاءه قبل ذلك حقًّا أيضًا.

٢٣. قال بعضهم: هذا كان كفرًا منهم حيث اعتقدوا أن ما سبق ليس بحق، وهذا فاسد؛ لأنه ليس فيه أن ما سبق ليس بحق، والتأويل ما ذكرنا ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يعني البقرة على ما أمروا به.

٢٤. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي قبل الذبح كادوا لا يذبحون:

أ. قيل: لغلاء ثمنها، عن محمد بن كعب.

ب. وقيل: لقلة وجود مثلها.

ج. وقيل: لخوف الفضيحة، عن وهب والأصم.

د. وقيل: لهما، وهذا لا يصح؛ لأن موسى لم يخبرهم بأنه يريد ذبح البقرة لإحياء الميت حتى ذبحوا.

٢٥. كل ذلك كان خطأ منهم؛ لأن الواجب المبادرة إلى أمر الله وإن لم يُتَمَكَّنْ من ذلك إلا بالمال الكثير، والتعب الشديد؛ لأن وجوب الشيء يقتضي وجوب ما لا يتم ذلك الواجب إلا به.

٢٦. لم يعذروا في التأخير لخوف الفضيحة، لأن ذلك لا يكون عذرًا كما لا يكون عذرًا في القصاص، واستيفاء الحدود، وقد يلزمه للإقرار، وتسليم النفس، على أن موسى لم يخبرهم بما لأجله أمروا بالذبح.

٢٧. سؤال وإشكال: أليس عند أبي علي وأبي هاشم الأمر لا يدل على الوجوب؟ فكيف ذمهم بتركه؟ والجواب: الأكثر على أنه على الوجوب، وهو الصحيح، على أنه:

أ. يجوز أن يكون في شرعهم أنه على الوجوب.

ب. ويجوز أن يقترن به ما علموا أنه على الوجوب.

ج. ولأن موسى يخاف الفتنة بين قومه فدل على وجوبه

د. ولأن الأمر إذا كان عقيب سبب، فقد يدل السبب على أن الأمر فيه على الوجوب.

٢٨. اختلف بكم اشتريت البقرة؟

أ. قيل: بملء جلدها ذهبًا.

ب. وقيل: بوزنها عشر مرات، عن السدي.

٢٩. اختلف العلماء فيما جرى أهو بيان أو نسخ، واختلفوا كذلك:

أ. فمنهم من قال في التكليف الواقع أخيرًا: إنه يجب أن يكون مستوفيًا لكل صفة ـ تَقَدُّمُ خبره حتى لا يكون شبهها لا فارض ولا بكر، ولونها صفراء فاقع، وعلى الصفة الثالثة.

ب. ومنهم من قال يجب كونها بالصفة الأخيرة، وهذا أشبه بظاهر الكلام إذا كان تكليفًا بعد تكليف، وإن كان الأول أشبه بالروايات، وبطريقة التشديد عليهم عند ترك الامتثال.

٣٠. سؤال وإشكال: هل التكليف الرابع نسخ لما تقدم أم ليس بنسخ؟ والجواب: هو نسخ لأنه دل أنهم لو فعلوا ما تضمنه الأمر السابق كان كَلاَ فِعْلٍ، ولم يصر نَسْخًا؛ لأن فيه زيادة.

٣١. اختلف في السبب في أمرهم بذبح البقرة:

أ. قيل: تنازعوا في قتيل وجد فيهم، وتدارؤوا فيه، فأمروا بذبح بقرة ليضربوه ببعضها، فيحيا، فيخبرهم مَنْ قَتَلَهُ، عن ابن عباس وجماعة من المفسرين.

ب. وقيل: كان بنو إسرائيل اثني عشر سبطًا ولهم مسجد لكل سبط منهم باب، فقتل قتيل، وألقي على باب، فنقل إلى باب آخر، فلما اشتبه القاتل أمروا بذبح البقرة، عن عكرمة.

ج. وقيل: كان ينقل القتيل من قرية إلى قرية، عن الكلبي.

٣٢. اختلف في سبب القتل:

أ. قيل: كان رجل موسر في بني إسرائيل، وله بنت، وله ابن أخ معسر فخطب ابنته، فأبى أن يزوجها منه، فقال: لأقتلن عمي، ولآخذنّ ماله، فانطلق به إلى سبط وقتله، ورجع وخرج يحثو التراب على رأسه، عن السدي.

ب. وقيل: كان رجل موسر قتله بنو أخيه ليرثوه، ثم جاؤوا يطلبون الدية وتنازعوا.

ج. وقيل: كان موسر له ابن عم معسر طال عليه موته فقتله ليرثه، عن عطاء.

٣٣. وجه إحياء الميت لما يضرب به من بقرة ذبيحة:

أ. لما علم فيه من المصلحة.

ب. لخلق الحياة عند طاعته وقربه واعتبار بمشاهدة تلك الأحوال.

ج. إيصال رزق إلى صاحب البقرة.

د. غير ذلك من المنافع ووجوه المصالح.

٣٤. لم يخبر الله بالقاتل لما علم من المصلحة، ولعله كان يُكَذَّبُ موسى في إخباره بذلك فيكفر، فأظهر القاتل على وجه لا يؤدي إلى كفر القاتل، ودل على إحياء الموتى، وفيه تنبيه على التحرز من فعل القبيح مخافة الفضيحة يوم القيامة كما افتضح هذا القاتل، وفيه معجزة لموسى.

٣٥. لم يبين أَوَّلاً السبب في ذبح البقرة لما علم من الصلاح في تأخير بيانه، ولأنه لو بين لكان وبما تقع الفتنة بين أولياء القاتل فكتم إلى وقت كان الصلاح في بيانه.. وقيل: كان هذا قبل نزول القسامة في التوراة.

٣٦. بين تعالى المقصود من الأمر بالذبح، فبدأ بذكر القتل، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾، وفي الآية تقديم وتأخير:

أ. حتى قال بعضهِم: إن هذه الآية نزلت قبل آية البقرة.

ب. وقيل: ليس كذلك؛ لأن المتكلم مخير بأن يخير أَوَّلا بأي الأمرين شاء، كما يقول: أعطيت زيدًا ألف درهم إذ بنى داري، والبناء قبل الإعطاء، وقوله: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ يدل على أن ذكر البقرة قد تقدم، والمعنى إذ قتلتم.

٣٧. اختلف في الذي وجه إليه الخطاب في الآية الكريمة:

أ. قيل: هذا خطاب لمن كان على عهد النبي ﷺ والمراد قتل أسلافهم، وهذا جائز كما يقال لبني تميم: أنتم فعلتم كذا، والمراد أسلافهم، والعرب تقول: نحن نصرنا رسول الله ﷺ والمراد أسلافهم.

ب. وقيل: يحتمل أن يكون خطابًا لمن كان زمن موسى، وتقديره وقلنا لهم: وإذ قتلتم نفسا، قيل: اسمه عاميل،.

٣٨. في سبب قتله وجهان:

أ. أحدهما: قَتَلَهُ بنو أخيه ليرثوه، ثم جاؤوا يطلبون ديته، عن ابن عباس.

ب. وقيل: ليتزوج ابنته، وكان موسرًا.

٣٩. ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ الدَّرْءُ: الدفع، درأت الشيء: دَفَعْتُهُ، ومنه: ادرأوا الحدود ما استطعتم)، ومنه: وبِالله ندرأ ما لا نطيق)، واختلف في معناها في الآية الكريمة:

أ. قيل: تدافعتم، عن الربيع، يعني كل واحد دفع القتل عن نفسه، وأحال على أخيه.

ب. وقيل: اختلفتم، عن ابن عباس ومجاهد.

ج. وقيل: اختصمتم، عن الضحاك.

د. وقيل: ألقي القتيل على باب سبط، ثم اختلفوا، عن عكرمة.

٤٠. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

أ. قيل: خطاب لليهود في زمن النبي ﷺ، ومعناه أنه مخرج من غامض أخباركم، ومطلع على معائبكم، ومعائب أسلافكم ما تكتمونه أنتم.

ب. وقيل: خطاب لأسلافهم، يعني مظهرًا الذي كتموه.

ج. وقيل: مخرج ما تحدثون وما تكتمون، وهذا أوجه؛ لأنه نظم الكلام.

٤١. اختلف في حقيقة الحياة والموت:

أ. قيل: عرضان يتعاقبان على الحيوان، وهو مقدور الله تعالى لا يقدر عليه غيره، وهو أوجه، لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ يقال: حَيِيَ يحيا حياة.

ب. وقيل: الحياة معنى، والموت ليس بمعنى، ولكنه بطلان الحياة، عن أبي هاشم.

٤٢. بَيَّنَ تعالى ما أمرهم به ليحيا المقتول، فقال تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ خطاب لبني إسرائيل، قلنا لهم: اضربوا القتيل ببعض البقرة، واختلفوا فيه:

أ. قيل: ضربوه بفخذ البقرة، فقام حيا، وقال: قتلني فلان، ثم عاد ميتا، عن مجاهد وعكرمة.

ب. وقيل: ضربوه بالبَضْعَةِ التي بين الكتفين، عن السدي.

ج. وقيل: ضرب بِالذَّنب، عن الفراء وسعيد بن جبير.

د. وقيل: بِالغُضْرُوفِ.

هـ. وقيل: ببعض من أبعاضه.

و. وقيل: بلسانها، عن الضحاك.

٤٣. اختلف في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾:

أ. قيل: إنه حكاية قول لموسى لقومه، عن أبي علي.

ب. وقيل: بل هو خطاب الله تعالى لمشركي العرب، عن عاصم ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني حججه بعجائب صنعته.

ج. وقيل: معجزات محمد ﷺ، عن الأصم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا ما يجب عليكم من أمر دينكم، ومن البعث والنشور.

د. وقيل: لما لم يستعملوا عقولهم، صاروا كأنه لا عقول لهم.

٤٤. سؤال وإشكال: لِمَ أَحْيِيَ عند ضربه ببعض البقرة؟ والجواب:

أ. لِمَا عُلِمَ من المصلحة.

ب. ولتقديم عبادة وقربة، وتأسيس أمر يعلم به أنه ليس على وجه الشعوذة وَالخِفَّةِ.

ج. ولأنه يحصل فيه منافع من أكل لحمها، وحصول الثمن لصاحبها، والتقرب بثمنها مع غلائها.

٤٥. سؤال وإشكال: لِمَ أُمِرَ بذبح البقرة دون غيرها؟ والجواب:

أ. قيل: لو أمر بغيرها لبقي السؤال.

ب. وقيل: لأن القربان كان في زمانهم بالبقر.

ج. وقيل: لأنه علم أن المصلحة فيها دون غيرها.

٤٦. سؤال وإشكال: كيف سئل القتيل، وكيف أجاب؟ والجواب: لَمَّا حَيِيَ قال قتلني فلان، ومات، واقتص من القاتل، وحرم الميراث، وزال الخلاف، وقال ﷺ: لا ميراث لقاتل بعد صاحب البقرة)

٤٧. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أن العادة كانت فيهم التقرب بذبح البقرة؛ لذلك أمرهم به.

ب. أن الأمر بذبحها كان على الوجوب.

ج. أن التكليف قد يدخل فيه الإضرار بالغير، وإراقة الدم، وأنه لا بد في ذلك من عوض ليخرج إباحة قتله من حد الظلم.

د. أن التكليف مع التخيير في الأعيان يصح؛ لأن البقرة منكرة لا تعيين فيها، فلا بد أن يكون المكلف مخيرًا.

هـ. أن الهزء بالدين من الكبائر، وقد يبلغ حد الكفر لذلك عده جهلاً، وتعوذ منه.

و. صحة القول بالعموم؛ لأن المفسرين أجمعوا أنهم لو ذبحوا أي بقرة كانت جاز، ولو أراد ذبح بقرة بعينها لما جاز تأخير البيان.

ز. على جواز تعليق التكليف بغالب الظن؛ لأن ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ينقسم ويختلف، ووكل ذلك إلى رأيهم.

ح. على جواز النسخ؛ لأن تكليف الثاني نسخ للأول على ما بيناه.

ط. على جواز النسخ قبل الفعل، وإنما لا يجوز قبل وقت الفعل؛ لأنه يدل على البداء، فأما إذا فات وقته جاز نسخه؛ لأن المصلحة قد تتغير.

ي. على حسن التكليف ثانيًا لمن عصى، ولم يفعل ما كلف أولاً.

ك. على أن زيادة الوصف وزيادة الشرط نقصان من الموصوف والمشروط.

ل. على أن عند ترك الامتثال في أمر سَهْلٍ قد يكون الصلاح إيجاب أمر شاق.

م. على حسن التكليف وإن لم يعرف تفصيل المصلحة إذا عرف أن المصلحة على الجملة.

ن. أن اشتباه ما كلف بعضه بعض مع استيفاء بيان الصفة لا يؤثر في صحة التكليف؛ لأنه ممكن من ذلك.

س. على أن في شرعهم يجوز تعليق الخبر عن المستقبل بالمشيئة كما هو في شريعتنا.

ع. قوله: ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ على أن الهدى غير الاهتداء، بخلاف قول كثير من الْمُجْبِرَة.

ف. على أن هذا تكليف رابع غير ما تقدم؛ لأنه أجزأ فيما تقدم ما لم يجزئ ههنا، ولأنه قال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ذمًّا لهم، ولو كان بيانًا لكان وقت الفعل ههنا ولا يستحقون الذم بما تقدم، ولا تعلق لهم بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾ لأن ذلك إشارة إلى البقرة المأمور بذبحها، فلا يقال: إنه إشارة إلى البقرة

الأولى، وقيل: لو لم يقولوا: إِنْ شَاءَ الله) لدام تحيرهم.

ص. على وجوب الانقطاع إلى الله تعالى والاعتصام به في أمور الدين والدنيا؛ ليتخلص من الضلالة والتحير، ويهتدى إلى طريق النجاة والفوز.

ق. على أن امتثال الأمر يقع موقعه، وإن وقع من المكلف على نكرة؛ لأنه قد ينكره للمشقة، ويصح فعله.

ر. على أن المقصد بالقربان إراقة الدم، لولا ذلك لما عد الذبح امتثالاً.

ش. على جواز النسخ في شريعة موسى كما كان في شريعتنا.

ت. على الردع من المعاصي، وإن كَتَمَهُ مخافة أن يظهره الله، فيفتضح.

ث. على وقوع قتل وتَنَازُعٍ فيه لأجله أُمِرَ بذبح البقرة.

خ. على صحة الإعادة، ويدل قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ على أنه أحد معجزات موسى، وفيه استدلال على منكري البعث.

ذ. على نبوة نبينا محمد ﷺ حيث أخبرهم بغوامض أخبارهم من غير أن قرأ كتابًا.

ض. على أن المقتول ميت؛ لأنه قال ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي الله الْمَوْتَى﴾ فسماه ميتًا، وإن كان مقتولاً، وقيل: معناه يحيي الأموات، كما يحيي هذا.

٤٨. مسائل نحوية:

أ. ارتفع (لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَان):

• قال الأخفش: لأنه صفة للبقرة.

• قال الزجاج: ارتفع بإضمار هي، أي هي لا فارض ولا بكر.

ب. جاز (بَيْنَ ذَلِكَ)، و(بين) لا تصلح إلا لاثنين، لأن (ذلك) ـ وإن كان لفظه لفظًا واحدًا ـ يصلح أن يقع على الاثنين.

ج. سؤال وإشكال: لم قيل: في صفة البقر (تشابه)، وهل يجوز تأنيث بقر وتذكيره؟ والجواب:

• قيل: نعم، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، وقال سيبويه: كل جمع حروفه أقل من حروف وَاحِدِهِ، فإن العرب تذكره، قال الشاعر: وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ

• وقيل: جاء النعت على لفظ البقرة، دون معناه.

• وقيل: معناه جنس البقر تشابه علينا، عن الزجاج.

د. موضع ﴿تُثِيرُ﴾ من الإعراب هو الرفع لأنه صفة الذلول، وهي داخلة في معنى النفي، أي ليست بذلول، ولا مثيرة للأرض، ولا ساقية للحرث.

هـ. في همزة الآن ثلاثة أوجه: التحقيق، والتليين مع إبقاء ألف الوصل بعدها، والتليين مع إسقاطها، والتحقيق للأصل، والتليين مع إبقاء الوصل؛ لأنه عارض ومع إسقاطها لتحرك ما بعدها.

و. لم يحسن مع (كاد) (أنْ)، ويحسن مع (قارب) لأن (كاد) للمبالغة في المقاربة، فلم يحسن (أنْ) لأنها تدل على الاستقبال، وقد جاء مع (كاد) شَاذًّا.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. البقرة: اسم للمؤنث من هذا الجنس، واسم الذكر منه الثور، وهذا يخالف صيغة المذكر منه صيغة الأنثى كالجمال والناقة، والرجل والمرأة، والجدي والعناق، وأصل البقر: الشق، يقال: بقرت بطنه أي: شققته، وسمي البقر بقرا لأن من شأنه شق الأرض بالكراب.

ب. الهزء: اللعب والسخرية، يقال: هزأت به هزءا ومهزأة.

ج. أعوذ بالله: ألجأ إلى الله عوذا وعياذا، وحقيقة العياذ: استدفاع ما يخاف من شره بما يطمع ذلك منه.

د. الجهل: نقيب العلم، قيل: هو نقيض الحلم، والصحيح أنه اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به، كما أن العلم اعتقاد الشيء على ما هو به.

هـ. التبيين: التعريف، وأصله من البين: وهو الفراق فكل من بين شيئا فقد ميزه عما يلتبس به حتى يعرفه غيره، قال سيبويه: أبان الشيء وأبنته، وبين وبينته، واستبان واستبنته، والمعنى واحد.

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/٢٧٤.

و. الفارض: الكبيرة المسنة، يقال: فرضت البقرة تفرض فروضا: إذا أسنت، قال الشاعر:

لعمري قد أعطيت جارك ... تساق إليه، ما تقوم على رجل

وقيل: إن الفارض التي ولدت بطونا كثيرة، فيتسع لذلك جوفها، لأن معنى الفارض في اللغة: الواسع الضخم، وهو قول بعض المتأخرين، واستشهد بقول الراجز:

يا رب ذي ضغن علي فارض ... له قروء كقروء الحائض

ويقال: لحيته فارضة أي: عظيمة.

ز. البكر: الصغيرة التي لم تحمل، والبكر من بني آدم، ومن البهائم: ما لم يفتحله الفحل، والبكر من كل شيء: أوله، والبكر: التي ولدت واحدا، وبكرها: أول أولادها، قال:

يا بكر بكرين، ويا خلب الكبد! ... أصبحت مني كذراع من عضد

وضربة بكر أي: قاطعة لا تنثني، وحدث ابن عائشة، عن أبيه، عن جده، قال: (كانت ضربات علي بن أبي طالب عليه السلام، أبكارا، كان إذا اعتلى قد، وإذا اعترض قط) ذكره ابن فارس في مجمل اللغة، والبكر بفتح الباء: الفتي من الإبل.

ح. العوان: دون المسنة، وفوق الصغيرة، وهي النصف التي ولدت بطنا، أو بطنين، قال الفراء: يقال من العوان عونت المرأة تعوينا: إذا بلغت ثلاثين سنة، ومنه قيل للحرب عوان: إذا لم يكن أول حرب بين القوم وكانوا قد قاتلوا قبله.

ط. بَيْنِ: اسم يستعمل على ضربين مصدر وظرف، قال أبو علي: وهما عندي وجميع بابهما يرجعان إلى أصل واحد، وهو الافتراق والانكشاف، وسيأتيك بيانه في الإعراب إن شاء الله.

ي. اللون: عرض يتعاقب على الجوهر تعاقب المتضاد، وهو عبارة عما إذا وجد حصلت به الجواهر على هيئة مخصوصة، لولاه لما حصلت على تلك الهيئة، ولا يدخل تحت مقدور العباد.

ك. فاقع لونها أي: شديدة الصفرة، يقال: أصفر فاقع، وأحمر ناصع، وأخضر ناضر، وأحمر قانئ، وأبيض يقق ولهق ولهاق، وأسود حالك وحلوك وحلكوك وغربيب ودجوجي، فهذه كلها صفات مبالغة في الألوان.

ل. قيل: إنه أراد بصفراء هاهنا: سوداء شديدة السواد، كما يقال صفراء أي: سوداء، وقال الشاعر:

تلك خيلي منه، وتلك ركابي   هن صفر أولادها كالزبيب

والأول أصح، فإن الإبل إن وصفت به، فلا يوصف البقر به، وأيضا فإن السواد لا يوصف بالفقوع، وإنها يوصف بالحلوكة وغيرها على ما ذكرناه.

م. البقر: جمع بقرة، وكذلك الباقر جمع، كالجامل: جمع جمل، قال الأعشى:

وما ذنبه إن عافت الماء باقر   وما إن تعاف الماء إلا ليضربا

وقال آخر: (لهم جامل لا يهدأ الليل سامره) أي: جمال، ونحو هذا عندهم اسم مفرد مصوغ للكثرة كاسم الجنس، ومثله العبيد والكليب والضئين في جمع عبد وكلب وضأن.

ن. ﴿لَا ذَلُولٌ﴾: يقال للدابة: قد ذللها الركوب والعمل، دابة ذلول بين الذل بكسر الذال، ويقال في مثله من بني آدم رجل ذليل بين الذل بضم الذال، والذلة بكسرها، والمذلة.

س. الإثارة: إظهار الشيء بالكشف، وأثار الأرض أي: كربها وقلبها.

ع. الحرث: كل أرض ذللته للزرع، قال الخليل: الحرث قذف البذر في الأرض للازدراع.

ف. الزرع: الإنبات والانماء، قال عز اسمه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾

ص. مسلمة: مبرأة من العيوب مفعلة من السلامة.

ق. الشية: اللون في المشي يخالف عامة لونه، والوشي: خلط اللون باللون (ولا شية فيها) أي: لا وضح فيها يخالف لون جلدها، يقال: وشيت الثوب أشيه شية ووشيا، ومنه قيل لمن يسعى بالرجل إلى السلطان: وإش، لكذبه عليه عنده، وتحسينه كذبه بالأباطيل، ويقال منه: وشيت به وشاية، قال كعب بن زهير: تسعى الوشاة بجنبيها، وقولهم: إنك يا بن أبي سلمى لمقتول يعني: إنهم يتقولون بالأباطيل: ويقولون: إنه إن لحق بالنبي ﷺ قتله.

ر. الذبح: فري الأوداج، وذلك في البقر والغنم والنحر في الإبل، ولا يجوز فيها عندنا غير ذلك، وفيه خلاف بين الفقهاء، وقيل للصادق عليه السلام: إن أهل مكة يذبحون البقرة في اللبة فما ترى في أكل لحومها؟ فسكت هنيهة، ثم قال: (قال الله تعالى (فذبحوها وما كادوا يفعلون) لا تأكل إلا ما ذبح من مذبحه)

٢. هذه الآيات معطوفة على ما تقدمها من الآيات الواردة في البيان لنعم الله تعالى على بني إسرائيل ومقابلتهم لها بالكفران والعصيان، فقال: واذكروا أيضا من نكثكم ميثاقي الذي أخذته عليكم بالطاعة.

٣. أمروا بذبح البقرة دون غيرها: لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، فيزول ما كان في نفوسهم من عبادته.

٤. إنما أحيا الله القتيل بقتل حي ليكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها.

٥. ﴿إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً﴾ قال قوم موسى له: أتسخر بنا حيث سألناك عن القتيل، فتأمرنا بذبح بقرة، وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر مع جهلهم بوجه الحكمة فيما أمرهم به، لأن موسى عليه السلام أمرهم بالذبح ولم يبين لهم أن الذبح لأي معنى، فقالوا: أي اتصال لذبح البقرة بما ترافعنا فيه إليك فهذا استهزاء بنا.

٦. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي معاذ الله أن أكون من المستهزءين وإنما قال: ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ليدل على أن الاستهزاء لا يصدر إلا عن جاهل، فإن من استهزأ بغيره لا يخلو إما أن يستهزئ بخلقته أو بفعل من أفعاله، فأما الخلقة فلا معنى للاستهزاء بها، وأما الفعل فإذا كان قبيحا، فالواجب أن ينبه فاعله على قبحه لينزجر عنه، فأما إن يستهزئ به فلا، فالاستهزاء على هذا يكون كبيرة لا يقع إلا عن جاهل به أو محتاج إليه.

٧. لما علموا أن ذبح البقرة فرض من الله تعالى سألوا عنها فبدأوا بسنها فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل من أجلنا ربك ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ ولم يظهر في السؤال أن المسئول عنه سن البقرة وإنما ظهر ذلك في الجواب.

٨. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾ أي إن الله عز اسمه يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي ليست بكبيرة هرمة ولا صغيرة.

٩. ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾:

أ. قيل: أي هي وسط بين الصغيرة والكبيرة، وهي أقوى ما يكون وأحسن من البقر والدواب عن ابن عباس.

ب. وقيل: وسط ولدت بطنا أو بطنين عن مجاهد.

٤. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي اذبحوا ما أمرتم بذبحه.

١٠. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي سل ربك يبين لنا ما لون البقرة التي أمرنا بذبحها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ حتى قرنها وظلفها أصفران عن الحسن وسعيد بن جبير ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي شديدة صفرة لونها.. وقيل: خالص الصفرة.. وقيل: حسن الصفرة.

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي تعجب الناظرين وتفرحهم بحسنها عن قتادة وغيره، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: من لبس نعلا صفراء لم يزل مسرورا حتى يبليها كما قال الله تعالى ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

١١. لما بين سبحانه سن البقرة ولونها سألوا عن صفتها فـ ﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي من العوامل أم من السوائم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي اشتبه علينا صفة البقرة التي أمرنا الله بذبحها ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى صفة البقرة بتعريف الله إيانا وبما يشاؤه لنا من اللطف والزيادة في البيان وروى ابن جريج وقتادة عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أنهم أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم، وأيم الله لو لم يستثنوا ما بينت لهم إلى آخر الأبد.

١٢. ﴿قَالَ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُ﴾ يعني الله تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ أي البقرة التي أمرتم بذبحها ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أي لم يذللها العمل بإثارة الأرض بأظلافها ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لا يستقي عليها الماء فتسقي الزرع.

١٣. اختلف في معنى ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾:

أ. قيل: أي بريئة من العيوب عن قتادة وعطاء.

ب. وقيل: مسلمة من الشية ليس لها لون يخالف لونها عن مجاهد.

ج. وقيل: سليمة من آثار العمل لأن ما كان من العوامل لا يخلو من آثار العمل في قوائمه وبدنه، وقال الحسن أنها كانت وحشية.

١٤. اختلف في معنى ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾:

أ. قيل: قال أهل اللغة لا وضح فيها يخالف لون جلدها.

ب. وقيل: لا لون فيها سوى لونها عن قتادة ومجاهد.

١٥. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي ظهر لنا الحق الآن، وهي بقرة فلان، وهذا يدل على أنهم جوزوا أنه قبل ذلك لم يجيء بالحق على التفصيل، وإنها أتى به على وجه الجملة، وقال قتادة: الآن بينت الحق، وهذا يدل على أنه كان فيهم من يشك في أن موسى عليه السلام ما بين الحق.. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يعني ذبحوا البقرة على ما أمروا به.

١٦. اختلف في ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾:

أ. قيل: أي قرب أن لا يفعلوا ذلك مخافة اشتهار فضيحة القاتل.

ب. وقيل: كادوا لا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها، فقد حكي عن ابن عباس أنهم اشتروها بملء جلدها ذهبا من مال المقتول، وعن السدي بوزنها عشر مرات ذهبا، قال عكرمة وما ثمنها إلا ثلاثة دنانير.

١٧. اختلف العلماء في هذه الآيات، وفي أسئلة بني إسرائيل عن صفات البقرة:

أ. منهم من ذهب إلى أن التكليف فيها متغاير، وأنهم لما قيل لهم: اذبحوا بقرة لم يكن المراد منهم إلا ذبح أي بقرة شاءوا من غير تعيين بصفة، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة اتفقت لهم كانوا قد امتثلوا الأمر، فلما لم يفعلوا كان المصلحة أن يشدد عليهم التكليف، ولما راجعوا المرة الثانية تغيرت مصلحتهم إلى تكليف ثالث، ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر:

• فمنهم من قال في التكليف الأخير أنه يجب أن يكون مستوفيا لكل صفة تقدمت، فعلى هذا القول يكون التكليف الثاني والثالث ضم تكليف إلى تكليف زيادة في التشديد عليهم لما فيه من المصلحة.

ومنهم من قال: إنه يجب أن يكون بالصفة الأخيرة فقط دون ما تقدم، وعلى هذا القول يكون التكليف الثاني نسخا للأول، والتكليف الثالث نسخا للثاني، وقد يجوز نسخ الشيء قبل الفعل لأن المصلحة تجوز أن يتغير بعد فوات وقته، وإنما لا يجوز نسخ الشيء قبل وقت الفعل لأن ذلك يؤدي إلى البداء.

ب. وذهب آخرون إلى أن التكليف واحد، وأن الأوصاف المتأخرة هي للبقرة المتقدمة، وإنما تأخر البيان وهو مذهب المرتضى، واستدل بهذه الآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة قال: إنه تعالى لما كلفهم ذبح بقرة قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، فلا يخلو قولهم ما هي من أن يكون كناية عن البقرة المتقدم ذكرها، أو عن التي أمروا بها ثانيا، والظاهر من قولهم ما هي

يقتضي أن يكون السؤال عن صفة البقرة المأمور بذبحها لأنه لا علم لهم بتكليف ذبح بقرة أخرى فيستفهموا عنها، وإذا صح ذلك، فليس يخلو قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ من أن يكون الهاء فيه كناية عن البقرة الأولى، أو عن غيرها، وليس يجوز أن يكون كناية عن بقرة ثانية، لأن الظاهر يقتضي أن تكون الكناية متعلقة بما تضمنه سؤالهم، ولأنه لو لم يكن الأمر على ذلك لم يكن جوابا لهم، وقول القائل في جواب من سأله: ما كذا وكذا أنه بالصفة الفلانية صريح في أن الهاء كناية عما وقع السؤال عنه، هذا مع قولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، فإنهم لم يقولوا ذلك إلا وقد اعتقدوا أن خطابهم مجمل غير مبين، ولو كان الأمر على ما ذهب إليه القوم فلم لم يقل لهم: وأي تشابه عليكم، وإنما أمرتم في الابتداء بذبح بقرة، أي بقرة كانت، وفي الثاني بما يختص بالسن المخصوص، وفي الثالث بما يختص باللون المخصوص من أي البقر كان، أما قوله ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فالظاهر أن ذمهم مصروف إلى تقصيرهم، أو تأخيرهم امتثال الأمر بعد البيان التام، وهو غير مقتض ذمهم على ترك المبادرة في الأول إلى ذبح بقرة، فلا دلالة في الآية على ذلك.

١٨. بيّن الله سبحانه المقصود من الأمر بالذبح فبدأ بذكر القتل، وقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ذكر فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه متقدم في المعنى على الآيات المتقدمة في اللفظ، فعلى هذا يكون تأويله، وإذ قتلتم نفسا ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، فسألتم موسى، فقال لكم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فقدم المؤخر، وأخر المقدم، ونحو ذا كثير في القرآن والشعر، قال سبحانه ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾ تقديره أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، وقال الشاعر:

إن الفرزدق صخرة ملمومة طالت فليس ينالها الأوعالا

أي طالت الأوعال.

ب. الوجه الآخر: أن الآية قد تعلقت بما هو متأخر في الحقيقة، وهو قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ الآية، فكأنه قال: فذبحوها وما كادوا يفعلون، ولأنكم قتلتم نفسا فادارأتم فيها، أمرناكم أن تضربوه ببعضها لينكشف أمره، والمراد: واذكروا إذ قتلتم نفسا، وهذا خطاب لمن كان على عهد النبي ﷺ، والمراد به أسلافهم على عادة العرب في خطاب الأبناء والأحفاد بخطاب الأسلاف والأجداد وخطاب

العشيرة بما يكون من أحدها، فقالت: فعلت بنو تميم كذا، وإن كان الفاعل واحدا، ويحتمل أن يكون خطابا لمن كان في زمن موسى عليه السلام وتقديره وقلنا لهم وإذ قتلتم نفسا.

١٩. الهاء من فيها في قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾:

أ. قيل: يعود إلى النفس أي كل واحد دفع قتل النفس عن نفسه.

ب. وقيل: إنها تعود إلى القتلة أي اختلفتم في القتلة لأن قوله: ﴿قُتِلْتُمْ﴾ يدل على المصدر وعودها إلى النفس أولى وأشبه بالظاهر.

٢٠. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

أ. قيل: أي مظهر ما كنتم تسرون من القتل.

ب. وقيل: معناه أنه مخرج من غامض أخباركم ومطلع من معايبكم ومعايب أسلافكم على ما تكتمونه أنتم وهو خطاب لليهود في زمن النبي ﷺ.

٢١. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي قلنا لهم اضربوا القتيل ببعض البقرة، واختلفوا في البعض المضروب به القتيل:

أ. قيل: ضرب بفخذ البقرة فقام حيا، وقال: قتلني فلان ثم عاد ميتا عن مجاهد وقتادة وعكرمة.

ب. وقيل: ضرب بذنبها عن سعيد بن جبير.

ج. وقيل: بلسانها عن الضحاك.

د. وقيل: ضرب بعظم من عظامها عن أبي العالية.

هـ. وقيل: بالبضعة التي بين الكتفين عن السدي.

و. وقيل: ضرب ببعض آرابها عن أبي زيد.

وهذه الأقاويل كلها محتملة الظاهر.

٢٢. المعلوم أن الله سبحانه وتعالى أمر أن يضرب القتيل ببعض البقرة ليحيا القتيل إذا فعلوا ذلك، فيقول: فلان قتلني)، ليزول الخلف والتدارؤ بين القوم، والصانع عز اسمه، وإن كان قادراً على إحيائه من دون ذلك، فإنما أمرهم بذلك لأنهم سألوا موسى أن يبين لهم حال القتيل، وكانوا يعدّون القربان من أعظم القربات، وكانوا قد جعلوا له بيتاً على حدة لا يدخله إلا خيارهم، فأمرهم الله بتقديم هذه القربة، تعليماً

منه لكل من اعتاص عليه أمر من الأمور أن يقدم نوعاً من القرب قبل أن يسأل الله تعالى كشف ذلك عنه، ليكون أقرب إلى الإجابة.

٢٣. إنما أمرهم بضرب القتيل ببعضها، بعد أن جعل اختيار وقت الإحياء بهم، ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى قادر على إحياء الأموات في كل وقت من الأوقات.. والتقدير في الآية: فقلنا اضربوه ببعضها)، فضربوه فحيي، كما قال سبحانه: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾، تقديره: فضرب فانفلق.

٢٤. قوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ يحتمل:

أ. أن يكون حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه، أي: اعلموا بما عاينتموه أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى للجزاء.

ب. أن يكون خطاباً من الله تعالى لمشركي قريش.

٢٥. الإشارة وقعت إلى قيام المقتول عند ضربه ببعض أعضاء البقرة، لأنه رُوي أنه قام حياً وأوداجه تشخب دماً، فقال: قتلني فلان ابن عمي)، ثم قبض.

٢٦. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾:

أ. قيل: يعني المعجزات الباهرة الخارقة للعادة، من إحياء ذلك الميت وغيره.

ب. وقيل: أراد الأعلام الظاهرة الدالة على صدق محمد ﷺ.

٢٧. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

أ. قيل: لكي تستعملوا عقولكم، فإن من لم يستعمل عقله ولم يبصر رشده، فهو كمن لا عقل له.

ب. وقيل: لكي تعقلوا ما يجب عليكم من أمور دينكم.

٢٨. احتج الله تعالى بهذه الآيات على مشركي العرب فيما استبعدوه من البعث وقيام الأموات بقولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، فأخبرهم سبحانه بأن الذي أنكروه واستبعدوه لا يتعذر في اتساع قدرته، ونبّههم على ذلك بذكر المقتول وإحيائه بعد خروجه من الحياة، وإنْطاقهم خبر قتله وكيفيته، وقيامه بعد القتل حياً، مخاطباً باسم قتلته.. وهذا مؤذن لهم أن إحياء جميع الأموات بعد أن صاروا عظاماً باليات لا يصعب عليه ولا يتعذر، بل يهون عنده ويتيسر.

٢٩. في الآيات الكريمة دلالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، حيث أخبرهم بغوامض أخبارهم

التي لا يجوز أن يعلمها إلا من قرأ كتب الأولين أو أوحي إليه من عند رب العالمين، وقد صدقه مخالفوه من اليهود فيما أخبر به من هذه الأقاصيص، وقد علموا أنه أميٌّ لم يقرأ كتاباً، ولم يرتابوا في ذلك، وهذه آية صادعة وحجة ساطعة في تثبيت نبوته ﷺ.

٣٠. مسائل نحوية:

أ. حذفت الفاء من قوله ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لاستغناء ما قبله من الكلام عنه وحسن الوقف على قوله: ﴿أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ كما حسن اسقاطها من قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ ولم يقل فقالوا، ولو قيل بالفاء لكان حسنا، ولو قلت قمت ففعلت لم يجز اسقاط الفاء، لأنها عطف لا استفهام يحسن السكوت عليه.

ب. قوله: ﴿هُزُوًا﴾ لا يخلو من أحد أمرين: أحدهما: أن يكون المضاف محذوفا، لأن الهزء حدث والمفعول الثاني من تتخذ يكون الأول نحو قوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ والثاني: أن يكون الهزؤ بمعنى المهزوء به مثل الصيد في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ ونحوه، وكما يقال: رجل رضي أي: مرضي، أقام المصدر مقام المفعول.

ج. قوله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ لا يحتاج فيه إلى تقدير محذوف، لأن الدين ليس بعين.

د. ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ أصله أعوذ، فنقلت الضمة من الواو إلى الساكن قبلها من غير استثقال لذلك، غير أنه لما أعلت عين الماضي لتحركها، وانفتاح ما قبلها، أعلت عين المضارع أيضا ليجري الباب على سنن واحد، وكذلك القول في أعاذ يعيذ، واستعاذ يستعيذ، والأصل أعوذ يعوذ، واستعوذ يستعوذ.

هـ. ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ قال الأخفش: ارتفع ولم ينتصب كما ينتصب المنفي، لأنه صفة لبقرة.

و. ﴿عَوَانٌ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: هي عوان.

ز. قال الزجاج: ارتفع ﴿فَارِضٌ﴾ بإضمار هي أي: هي لا فارض ولا بكر، قال: وإنما جاز (بين ذلك) وبين لا يكون إلا مع اثنين أو أكثر، لأن ذلك ينوب عن الجمل، تقول ظننت زيدا قائما، فيقول القائل قد ظننت ذاك، وظننت ذلك، قال أبو علي: لا يخلو ذلك فيما ذكره من قولهم ظننت ذلك من أن يكون إشارة إلى المصدر، كما ذهب إليه سيبويه، أو يكون إشارة إلى أحد مفعولي ظننت، وأن تكون نائبة عن

الجملة، كما قاله أبو إسحاق، ولا يجوز أن يكون إشارة إلى أحد المفعولين، لأنه لو كان كذلك للزم أن يذكر الآخر كما لو أنك ذكرت اسم المشار إليه، للزم فيه ذلك، وكما أنك إذا ذكرت المبتدأ، لزمك ذكر الخبر، أو يعلم من الحال ما يقوم مقام ذكرك له، ولا يجوز أن تكون نائبة عن الجملة هنا، ولا إشارة إليها، كما لم ينب عن الجملة في غير هذا الموضع من المواضع التي تقع فيها الجملة نحو صلة الذي، ووصف النكرات، فثبت أن ذاك في قولهم ظننت ذاك إشارة إلى المصدر الذي هو الظن، ولا يجوز أن يقع اسم مفرد موقع جملة، ولو كان سائغا أن ينوب ذلك عن الجمل، لما جاز وقوعه هنا، لأن هذا الموضع ليس من مواضع الجمل، ألا ترى أن ذلك إشارة إلى ما تقدم مما دل عليه قوله ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ وهو البكارة والفروض، فإنما يدل قوله ذلك عليهما، فلو كان واقعا موقع جملة، ما دل عليهما لأن الجملة يسند فيها الحدث إلى المحدث عنه، وليس واحد من الفروض والبكارة يسند إلى الآخر، ألا ترى أن المعنى بين هذين الوصفين، وهذا واضح.

ح. الاسم الذي يضاف إليه ﴿بَيْنِ﴾ لا يخلو من أن يكون دالا على واحد، أو على أكثر من الواحد، فإذا كان دالا على الواحد غير دال على أكثر منه، عطف عليه اسم آخر، لما ذكرنا من أن أصله الافتراق، فكما يمتنع أن يقول افتراق واجتماع زيد حتى تضيف إليه ما يزيد به على الإفراد، لذلك لا تقول بين زيد حتى تضيف إليه آخر بالواو دون غيرها من الحروف العاطفة، وإذا كان الاسم دالا على الكثرة، وإن كان مفردا، جاز أن يضاف ﴿بَيْنِ﴾ إليه.

ط. ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: إنما أضيف فيه ﴿بَيْنِ﴾ إلى ﴿ذَلِكَ﴾ من حيث جاز إضافته إلى القوم وما أشبه ذلك من الأسماء التي تدل على الكثرة، وإنما جاز أن يكون قولنا ذلك يراد به مرة الانفراد، ومرة الجمع والكثرة، لمشابهته الموصولة كالذي وما، ألا ترى أن البابين يشتبهان في دلالة كل واحد منهما على غير شيء بعينه؟ فجاز أن يراد به الواحد مرة، وأكثر من الواحد مرة، ويدل على ما ذكرناه من قصدهم بذلك الجمع، وما زاد على الواحد، أن روبة لما قال له أبو عبيدة في قوله: فيه خطوط من سواد، وبلق... كأنه في الجلد توليع البهق إن أردت الخطوط وجب أن تقول كأنها، وإن أردت السواد والبلق وجب أن تقول كأنهما، قال: أردت كأن ذلك، فعلم به أنهم يقصدون ذلك غير المفرد، ويدل عليه أيضا قول القائل: إن للخير، وللشر، مدى... وكلا ذلك وجه، وقبل ألا ترى أن كلا لا تضاف إلى المفرد؟ فلولا أن المراد

بذلك غير الإفراد لما أضيف كلا إليه، فكذلك القول في ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ والمراد بذلك الزيادة على الواحد.. ألا ترى أنه إشارة إلى ما تقدم من قوله مما دل على الفروض والبكارة.

ي. موضع ﴿مَا﴾ من قوله (ما هي وما لونها) رفع لأنه خبر المبتدأ، لأن تأويله الاستفهام أي: أي شيء هو؟ وأي لون لونها؟ قال: إنه يقول إنها ما بعد القول من باب أن مكسورة أبدا، كأنك لم تذكر القول في صدر كلامك، وإنما وقعت قلت في كلام العرب على أن يحكى بها ما كان كلاما يقوم بنفسه قبل دخولها، فيؤدي مع ذكرها ذلك اللفظ تقول: قلت زيد منطلق، كأنك حكيت زيد منطلق، وكذلك إن زيدا منطلق، إذا حكيته، تقول: قلت إن زيدا منطلق، وقوم من العرب وهم بنو سليم يجعلون باب قلت كباب ظننت، فيقولون قلت زيدا منطلقا.

ك. ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ ارتفع لونها بأنه فاعل ﴿فَاقِعٌ﴾ وهو صفة لبقرة، مثل صفراء، وكذلك ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ جملة مرفوعة الموضع بكونها صفة لبقرة، ويقال: فقع لونه فقوعا، وفقع يفقع: إذا خلصت صفرته.

ل. ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ كل جمع يكون واحده بالهاء، نحو البقر والنخل والسحاب، فإنه يؤنث ويذكر، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، وفي موضع آخر ﴿نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، والتذكير الغالب.

م. ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ في موضع رفع بكونه صفة لذلول، وهو داخل في معنى النفي أي: بقرة ليست بذلول مثيرة للأرض، ولا ساقية للحرث.

ن. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: صفة لبقرة أيضا.

س. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: جملة في موضع رفع أيضا بأنها صفة لبقرة، و ﴿شِيَةَ﴾ مصدر من وشيت وأصلها وشي، فلما أسقطت الواو منها عوضت الهاء في آخرها، قالوا: وشيته شية، كما قالوا: وزنته زنة، ووصلته صلة، فوزنها علة.

ع. ﴿قَالُوا الْآنَ﴾ وفيه وجوه: أجودها إسكان اللام من ﴿الْآنَ﴾ وحذف الواو من اللفظ، ويجوز قال لأن على إلغاء الهمزة وفتح اللام من ﴿الْآنَ﴾ وترك الواو محذوفة لالتقاء الساكنين، ولا يعتد بفتح اللام، ويجوز قالوا لأن بإظهار الواو لحركة اللام، لأنهم إنما حذفوا الواو لسكونها، فلما تحركت ردوها، والأجود في العربية حذفها ولا ينبغي أن يقرأ إلا بما وردت به رواية صحيحة فإن القراءة سنة متبعة، قال

أبو علي: إنما بني ﴿الْآنَ﴾ لتضمنه معنى الحرف، وهو تضمن معنى التعريف، لأن التعريف حكمه أن يكون بحرف، وليس تعرفه بما فيه من الألف واللام، لأنه لو كان كذلك، للزم أن يكون قبل دخول اللام عليه نكرة، كرجل، والرجل، وكذلك الذي، فإن فيه الألف واللام، وليس تعرف الاسم بهما، إنما تعرفه بغيرهما، وهو كونه موصولا مخصوصا، ولو كان تعرفه باللام، لوجب أن يكون سائر الموصولات المتعرفة بالصلات، نحو من وما غير متعرفة، ويقوي زيادة اللام ما رواه المبرد عن المازني، قال: سألت الأصمعي عن قول الشاعر: ولقد جنيتك أكمؤا، وساقلا... ولقد نهيتك عن بنات الأوبر لم أدخل اللام؟ قال: أدخله زيادة للضرورة، كقول الآخر: (بإعدام العمرو عن أسيرها) وأنشد ابن الأعرابي: يا ليت أم العمرو كانت صاحبي... مكان من أنشأ على الركائب فكما أن اللام في الذي، وفي هذه الحكاية، زائدة، كذلك في الآن زائدة.

ف. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: كاد يدل على مقاربة مباشرة، ويفعلون: في موضع نصب بأنه خبر كاد، والفصيح لا يدخل عليه أن، لأن ﴿إِنَّ﴾ حرف يركب مع الفعل، فيقوم مقام المصدر، وإنما يسند إلى أن أفعال غير ثابتة ولا مستقرة، مثل الطمع والرجا نحو: عسى أن تفعل، ودليل على ذلك أن ﴿إِنَّ﴾ لا تدخل على فعل الحال، بل على ما يتوقع في المستأنف، فلهذا كانت ﴿إِنَّ﴾ لازمة لعسى، ولا يلزم ﴿كَادَ﴾ لأن كاد قريب من الحال، وقد استعمل كاد مع ﴿إِنَّ﴾ في الشعر، أنشد الأصمعي:

كادت النفس أن تفيض عليه إذ ثوى حشو ريطة، وبرود

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما تبيّن لهم أن الأمر من عند الله، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، قال الزّجّاج: وإنما سألوا: ما هي، لأنهم لا يعلمون أن بقرة يحيا بضرب بعضها ميّت.

٢. الفارض: هي: المسنّة، يقال: فرضت البقرة فهي فارض: إذا أسنّت.

٣. البكر: الصغيرة التي لم تلد.

---

(١) زاد المسير: ١/٧٧.

٤. العوان: دون المسنّة، وفوق الصغيرة، يقال: حرب عوان: إذا لم تكن أول حرب، وكانت ثانية.

٥. في الصفراء قولان:

أ. أحدهما: أنه من الصّفرة، وهو: اللون المعروف، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن قتيبة، والزّجّاج.

ب. والثاني: أنها السّوداء، قاله الحسن البصريّ، وردّه جماعة، فقال ابن قتيبة: هذا غلط في نعوت البقر، وإنما يكون ذلك في نعوت الإبل، يقال: بعير أصفر، أي: أسود، لأن السوداء من الإبل يشوب سوادها صفرة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، والعرب لا تقول (أسود فاقع) إنما تقول: أسود حالك) و(أصفر فاقع). قال الزّجّاج: وفاقع نعت للأصفر الشديد الصّفرة، يقال: أصفر فاقع، وأحمر قانئ وأخضر ناضر، وأبيض يقق، وأسود حالك، وحلكوك ودجوجيّ، فهذه صفات المبالغة في الألوان.

٦. معنى ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾: تعجبهم.. قال ابن عباس: شدّد القوم فشدّد عليهم.

٧. روى أبو هريرة عن النّبيّ ﷺ، أنه قال: لولا أنّ بني إسرائيل استثنوا لم يعطوا الذي أعطوا)، يعني بذلك قولهم: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

٨. في المراد باهتدائهم قولان:

أ. أحدهما: أنهم أرادوا: المهتدون إلى البقرة، وهو قول الأكثرين.

ب. الثاني: إلى القاتل، ذكره أبو صالح عن ابن عباس.

٩. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾، قال قتادة: لم يذلّها العمل فتثير الأرض، قال ابن قتيبة: يقال في الدواب: دابة ذلول: بيّنة الذّل. بكسر الذال، وفي الناس: رجل ذليل بيّن الذّل، بضم الذال.

١٠. ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: تقلبها للزراعة، ويقال للبقرة: المثيرة. قال الفرّاء: لا تقفن على ذلول، لأن المعنى: ليست بذلول فتثير الأرض، وحكى ابن القاسم أن أبا حاتم السّجستانيّ أجاز الوقف على ذلول، ثم أنكره عليه جدا، وعلّل بأن التي تثير الأرض لا يعدم منها سقي الحرث، ومتى أثارت الأرض كانت ذلولا.

١١. ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾: لا يستقى عليها الماء لسقي الزرع.

١٢. في قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ فيه أربعة أقوال:

أ. أحدها: مسلّمة من العيوب، قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة، ومقاتل.

ب. الثاني: مسلّمة من العمل، قاله الحسن وابن قتيبة.

ج. الثالث: مسلّمة من الشّية، قاله مجاهد وابن زيد.

د. الرابع: مسلّمة القوائم والخلق، قاله عطاء الخراسانيّ.

١٣. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: الشّية: قال الزّجّاج: الوشي في اللغة: خلط لون بلون، ويقال: وشيت الثوب أشيه شية ووشيا، كقولك: وديت فلانا أديه دية، ونصب: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، على النفي. معنى الكلام: ليس فيها لون يفارق سائر لونها، وقال عطاء الخراسانيّ: لونها لون واحد.

١٤. ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، قال ابن قتيبة: الآن: هو الوقت الذي أنت فيه، وهو حدّ الزمانين، حدّ الماضي من آخره، وحدّ المستقبل من أوّله، ومعنى ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾: بيّنت لنا.

١٥. في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: لغلاء ثمنها، قاله ابن كعب القرظيّ.

ب. الثاني: لخوف الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم، قال ابن عباس: مكثوا يطلبون البقرة أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل، فأبى أن يبيعها إلا بملء مسكها ذهبا، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وعبيدة، ووهب، وابن زيد، والكلبيّ، ومقاتل في مقدار الثمن.

١٦. السبب الذي لأجله غلا ثمنها، يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم.

ب. الثاني: لإكرام الله عزّ وجلّ صاحبها، فإنه كان برا بوالديه.

١٧. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذه الآية مؤخّرة في التلاوة، مقدّمة في المعنى، لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النّفس، فتقدير الكلام: وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها، فسألتم موسى، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾، أراد: أنزل الكتاب قيّما، ولم يجعل له عوجا، فأخّر المقدّم وقدّم المؤخّر، لأنه من عادة العرب، قال الفرزدق:

إنّ الفرزدق صخرة ملمومة ... طالت فليس تنالها الأوعالا

أراد: طالت الأوعال، وقال جرير:

طاف الخيال وأين منك لماما فارجع لزورك بالسّلام سلاما

أراد: طاف الخيال لماما، وأين هو منك؟ وقال الآخر:

خير من القوم العصاة أميرهم - يا قوم فاستحيوا - النساء

أراد: خير من القوم العصاة النساء، فاستحيوا من هذا.

١٨. معنى قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾:

أ. قيل: اختلفتم، قاله ابن عباس ومجاهد.

ب. قال الزّجّاج: ادّارأتم، بمعنى: تدارأتم، أي: تدافعتم، وألقى بعضكم على بعض، تقول: درأت فلانا: إذا دفعته، وداريته: إذا لاينته، ودريته إذا ختلته، فأدغمت التاء في الدال، لأنهما من مخرج واحد، فأما الذي كتموه؛ فهو أمر القتيل.

١٩. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾:

أ. من قال: أقاموا في طلبها أربعين سنة، قال ضربوا قبره.

ب. ومن لم يقل ذلك، قال ضربوا جسمه قبل دفنه.

٢٠. في الذي ضرب به ستة أقوال:

أ. أحدها: أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف، رواه عكرمة عن ابن عباس، قال أبو سليمان الدّمشقيّ: وذلك العظم هو أصل الأذن، وزعم قوم أنه لا يكسر ذلك العظم من أحد فيعيش، قال الزّجّاج: الغضروف في الأذن، وهو: ما أشبه العظم الرقيق من فوق الشّحمة، وجميع أعلى صدفة الأذن، وهو معلق الشّنوف، فأما العظمان اللذان خلف الأذن الناتئان من مؤخّر الأذن، فيقال لهما: الخشّاوان، والخششاوان، واحدهما: خشّاء، وخششاء.

ب. الثاني: أنه ضرب بالفخذ، روي عن ابن عباس أيضا، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وذكر عكرمة ومجاهد أنه الفخذ الأيمن.

ج. الثالث: أنه البضعة التي بين الكتفين، رواه السّدّيّ عن أشياخه.

د. الرابع: أنه الذّنب، رواه ليث عن مجاهد.

هـ. الخامس: أنه عجب الذّنب، وهو عظم عليه بني البدن، روي عن سعيد بن جبير.

و. السادس: أنه اللّسان، قاله الضّحّاك.

٢١. في الكلام اختصار تقديره: فقلنا: اضربوه ببعضها ليحيا، فضربوه فحيي، فقام فأخبر بقاتله، وفي قاتله أربعة أقوال:

أ. أحدها: بنو أخيه، رواه عطية عن ابن عبّاس.

ب. الثاني: ابنا عمّه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهذان القولان يدلّان على أن قاتله أكثر من واحد.

ج. الثالث: ابن أخيه، قاله السّدّيّ عن أشياخه وعبيدة.

د. الرابع: أخوه، قاله عبد الرحمن بن زيد.

٢٢. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه خطاب لقوم موسى.

ب. الثاني: لمشركي قريش، احتجّ عليهم إذ جحدوا البعث بما يوافق عليه أهل الكتاب.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا هو النوع الثاني من التشديدات، روي عن ابن عباس وسائر المفسرين أن رجلًا من بني إسرائيل قتل قريباً لكي يرثه، ثم رماه في مجمع الطريق، ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام، فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه، فسأله فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالًا بعد حال واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسان معين ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فصار المقتول حياً وسمي لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً.

٢. اختلف في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾:

أ. قيل: استفهام على معنى الإنكار والهزء، يجوز أن يكون في معنى المهزوء به كما يقال: كان هذا في

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٤٤.

علم الله أي في معلومة، والله رجاؤنا أي مرجونا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠] قال صاحب (الكشاف): ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتجعلنا مكان هزء أو أهل هزء أو مهزوءا بنا والهزء نفسه فرط الاستهزاء.

ب. وقيل: القوم إنما قالوا ذلك لأنهم لما طلبوا من موسى عليه السلام تعيين القاتل فقال موسى: اذبحوا بقرة لم يعرفوا بين هذا الجواب، وذلك السؤال مناسبة، فظنوا أنه عليه السلام يلاعبهم، لأنه من المحتمل أن موسى عليه السلام أمرهم بذبح البقرة، وما أعلمهم أنهم إذا ذبحوا البقرة ضربوا القتيل ببعضها فيصير حياً فلا جرم، وقع هذا القول منهم موقع الهزء.

ج. ويحتمل أنه عليه السلام وإن كان قد بين لهم كيفية الحال إلا أنهم تعجبوا من أن القتيل كيف يصير حياً بأن يضربوه ببعض أجزاء البقرة فظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء.

٣. اختلف في حكم قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾:

أ. قيل: إن أولئك القوم كفروا بقولهم لموسى عليه السلام: أتتخذنا هزؤاً لأنهم:

- إن قالوا ذلك، وشكوا في قدرة الله تعالى على إحياء الميت، فهو كفر.
- وإن شكوا في أن الذي أمرهم به موسى عليه السلام هل هو بأمر الله تعالى، فقد جوزوا الخيانة على موسى عليه السلام في الوحي، وذلك أيضاً كفر.

ب. وقيل: إنه لا يوجب الكفر، وبيانه من وجهين:

- الأول: أن الملاعبة على الأنبياء جائزة، فلعلهم ظنوا به عليه السلام أنه يلاعبهم ملاعبة حقة، وذلك لا يوجب الكفر.
- الثاني: أن معنى قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي ما أعجب هذا الجواب كأنك تستهزئ بنا لا أنهم حققوا على موسى الاستهزاء.

٤. في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وجوه:

أ. أحدها: أن الاشتغال بالاستهزاء لا يكون إلا بسبب الجهل، ومنصب النبوة لا يحتمل الإقدام على الاستهزاء، فلم يستعذ موسى عليه السلام من نفس الشيء الذي نسبوه إليه، لكنه استعاذ من السبب الموجب له كما قد يقول الرجل عند مثل ذلك: أعوذ بالله من عدم العقل وغلبة الهوى، والحاصل أنه أطلق

اسم السبب على المسبب مجازاً هذا هو الوجه الأقوى.

ب. ثانيها: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين بها في الاستهزاء في أمر الدين من العقاب الشديد والوعيد العظيم، فإني متى علمت ذلك امتنع إقدامي على الاستهزاء.

ج. ثالثها: إن نفس الهزء قد يسمى جهلًا وجهالة، فقد روي عن بعض أهل اللغة: إن الجهل ضد الحلم كما قال بعضهم إنه ضد العلم.

٥. هذا القول من موسى عليه السلام يدل على أن الاستهزاء من الكبائر العظام.

٦. سأل القوم موسى عليه السلام عن أمور ثلاثة مما يتعلق بالبقرة، أولها ما حكى الله تعالى عنهم أنهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، فأجاب موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

٧. اختلف في الذي حملهم على هذا الاستفسار عن البقرة:

أ. قيل: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ يدل على الأمر بذبح بقرة معينة في نفسها غير مبين التعيين، ولذلك حسن موقع سؤالهم، لأن المأمور به لما كان مجملًا حسن الاستفسار والاستعلام.

ب. وقيل: إنه في أصل اللغة للعموم، والذي حملهم على هذا الاستفسار وجوه:

• أحدها: أن موسى عليه السلام لما أخبرهم بأنهم إذا ذبحوا البقرة، وضربوا القتيل ببعضها صار حياً تعجبوا من أمر تلك البقرة، وظنوا أن تلك البقرة التي يكون لها مثل هذه الخاصة لا تكون إلا بقرة معينة، فلا جرم استقصوا في السؤال عن وصفها كعصا موسى المخصوصة من بين سائر العصي بتلك الخواص، إلا أن القوم كانوا مخطئين في ذلك، لأن هذه الآية العجيبة ما كانت خاصية البقرة، بل كانت معجزة يظهرها الله تعالى على يد موسى عليه السلام.

• ثانيها: لعل القوم أرادوا بقرة، أي بقرة كانت، إلا أن القاتل خاف من الفضيحة، فألقى الشبهة في التبيين، وقال المأمور به: بقرة معينة لا مطلق البقرة، لما وقعت المنازعة فيه، رجعوا عند ذلك إلى موسى.

• ثالثها: أن الخطاب الأول، وإن أفاد العموم إلا أن القوم أرادوا الاحتياط فيه، فسألوا طلباً لمزيد البيان وإزالة لسائر الاحتمالات، إلا أن المصلحة تغيرت واقتضت الأمر بذبح البقرة المعينة.

٨. سؤال وإشكال: سؤال (ما هي) طلب لتعريف الماهية والحقيقة، لأن (ما) سؤال، و(هي)

إشارة إلى الحقيقة، فما هي لا بد وأن يكون طلباً للحقيقة، وتعريف الماهية والحقيقة لا يكون إلا بذكر أجزائها ومقدماتها لا بذكر صفاتها الخارجة عن ماهيتها، ومعلوم أن وصف السن من الأمور الخارجة عن الماهية، فوجب أن لا يكون هذا الجواب مطابقاً لهذا السؤال، والجواب: أن الأمر وإن كان كما ذكرتم لكن قرينة الحال تدل على أنه ما كان مقصودهم من قولهم: ما البقر طلب ماهيته وشرح حقيقته، بل كان مقصودهم طلب الصفات التي بسببها يتميز بعض البقر عن بعض، فلهذا حسن ذكر الصفات الخارجة جواباً عن هذا السؤال.

٩. اختلف اللغويون في معنى ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾:

أ. قال صاحب (الكشاف): الفارض المسنة وسميت فارضاً لأنها فرضت سنها، أي قطعتها وبلغت آخرها، والبكر: الفتية والعوان النصف.

ب. قال القاضي: أما البكر، فقيل: إنها الصغيرة، وقيل: ما لم تلد، وقيل: إنها التي ولدت مرة واحدة.

ج. قال المفضل بن سلمة الضبي: إنه ذكر في الفارض أنها المسنة وفي البكر أنها الشابة وهي من النساء التي لم توطأ ومن الإبل التي وضعت بطناً واحداً.

د. قال القفال: البكر يدل على الأول ومنه الباكورة لأول الثمر ومنه بكرة النهار ويقال: بكرت عليهما البارحة إذا جاء في أول الليل، وكأن الأظهر أنها هي التي لم تلد لأن المعروف من اسم البكر من الإناث في بني آدم ما لم ينز عليها الفحل.

هـ. وقال بعضهم: العوان التي ولدت بطناً بعد بطن، وحرب عوان: إذا كانت حرباً قد قوتل فيها مرة بعد مرة، وحاجة عوان: إذا كانت قد قضيت مرة بعد مرة.

١٠. احتج العلماء بقوله تعالى: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ على جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن في الأحكام إذ لا يعلم أنها بين الفارض والبكر إلا من طريق الاجتهاد.

١١. لفظة ﴿بَيْنِ﴾ تقتضي شيئين فصاعداً، وقد جاز دخوله على ذلك لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر.

١٢. جاز أن يشار بلفظه: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى مؤنثين مع أنه للإشارة إلى واحد مذكر على تأويل ما ذكر

أو ما تقدم للاختصار في الكلام.

١٣. في قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تأويلان:

أ. الأول: فافعلوا ما تؤمرون به من قولك: أمرتك الخير.

ب. الثاني: أن يكون المراد فافعلوا أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير.

١٤. المقصود الأصلي من هذا الجواب كون البقرة في أكمل أحوالها، وذلك لأن الصغيرة تكون ناقصة لأنها بعد ما وصلت إلى حالة الكمال، والمسنة كأنها صارت ناقصة وتجاوزت عن حد الكمال، فأما المتوسطة فهي التي تكوى في حالة الكمال.

١٥. حكى الله تعالى سؤالهم الثاني وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾، ذلك أنهم لما عرفوا حال السن شرعوا بعده في تعرف حال اللون فأجابهم الله تعالى بأنها: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، والفقوع أشدها يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد أصفر فاقع وأسود حالك وأبيض يقق وأحمر قانٍ وأخضر ناضر.

١٦. سؤال وإشكال: فاقع) هاهنا واقع خبراً عن اللون فكيف يقع تأكيداً لصفراء؟ والجواب: لم يقع خبراً عن اللون إنما وقع تأكيداً لصفراء إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل، واللون سببها وملتبس بها، فلم يكن فرق بين قولك: صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها.

١٧. سؤال وإشكال: هلا قيل صفراء فاقعة وأي فائدة في ذكر اللون؟ والجواب: الفائدة فيه التوكيد لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة، فكأنه قيل شديدة الصفرة صفرتها فهو من قولك: جد جده وجنون مجنون، وعن وهب: إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

١٨. معنى قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ فالمعنى أن هذه البقرة لحسن لونها تسر من نظر إليها.. وهو حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شيء لذيذ أو نافع.

١٩. قال الحسن: الصفراء هاهنا بمعنى السوداء، لأن العرب تسمي الأسود أصفر، نظيره قوله تعالى في صفة الدخان: كأنه ﴿جمالات صفر﴾ [المرسلات: ٣٣] أي سود، واعترضوا على هذا التأويل بأن الأصفر لا يفهم منه الأسود ألبتة، فلم يكن حقيقة فيه، وأيضاً السواد لا ينعت بالفقوع، إنما يقال: أصفر

فاقع وأسود حالك.

٢٠. حكى الله تعالى سؤالهم الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، قال الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: والذي نفس محمد بيده لو لم يقولوا إن شاء الله لحيل بينهم وبينها أبداً)

٢١. التلفظ بهذه الكلمة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مندوب في كل عمل يراد تحصيله، ولذلك قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣]، وفيه استعانة بالله وتفويض الأمر إليه، والاعتراف بقدرته ونفاذ مشيئته.

٢٢. في هذه الكلمة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ دلالة على أن الحوادث بأسرها مرادة لله تعالى، فإن عند المعتزلة أن الله تعالى لما أمرهم بذلك، فقد أراد اهتداءهم لا محالة، وحينئذ لا يبقى لقولهم إن شاء الله فائدة، أما على قول أصحابنا فإنه تعالى قد يأمر بما لا يريد، فحينئذ يبقى لقولنا ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فائدة.

٢٣. احتجت المعتزلة ومن وافقهم على أن مشيئة الله تعالى محدثة بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من وجهين:

أ. الأول: أن دخول كلمة (إن) عليه يقتضي الحدوث.

ب. الثاني: وهو أنه تعالى علق حصول الاهتداء على حصول مشيئة الاهتداء، فلما لم يكن حصول الاهتداء أزلياً وجب أن لا تكون مشيئة الاهتداء أزلية.

٢٤. معنى ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح.

٢٥. في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وجوه ذكرها القفال:

أ. أحدها: وإنا بمشيئة الله نهتدي للبقرة المأمور بذبحها عند تحصيلنا أوصافها التي بها تمتاز عما عداها.

ب. ثانيها: وإنا إن شاء الله تعريفها إيانا بالزيادة لنا في البيان نهتدي إليها.

ج. ثالثها: وإنا إن شاء الله على هدى في استقصائنا في السؤال عن أوصاف البقرة أي نرجو أنا لسنا على ضلالة فيما نفعله من هذا البحث.

د. رابعها: إنا بمشيئة الله نهتدي للقاتل إذا وصفت لنا هذه البقرة بما به تمتاز هي عما سواها، ثم أجاب الله تعالى عن سؤالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾

٢٦. قوله: ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول، بمعنى لم تذلل للكراب وإثارة الأرض ولا هي من البقر التي يسقى عليها فتسقى الحرث، و(لا) الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى لا ذلول تثير وتسقى على أن الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، وجملة القول: أن الذلول بالعمل لا بد من أن تكون ناقصة فبين تعالى أنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث لأن هذين العملين يظهر بهما النقص.

٢٧. في قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ ففيه وجوه:

أ. أحدها: من العيوب مطلقاً.

ب. ثانيها: من آثار العمل المذكور.

ج. ثالثها: مسلمة أي وحشية مرسلة عن الحبس.

د. رابعها: مسلمة من الشية التي هي خلاف لونها أي خلصت صفرتها عن اختلاط سائر الألوان بها، وهذا ضعيف وإلا لكان قوله: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ تكراراً غير مفيد.

٢٨. الأولى حمل قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ على السلامة من العيوب، واللفظ يقتضي ذلك لأن ذلك يفيد السلامة الكاملة عن العلل والمعايب.

٢٩. احتج العلماء بقوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ على جواز استعمال الظاهر مع تجويز أن يكون الباطن بخلافه لأن قوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ إذا فسرناها بأنها مسلمة من العيوب، فذلك لا نعلمه من طريق الحقيقة إنما نعلمه من طريق الظاهر.

٣٠. معنى قوله تعالى: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أن صفرتها خالصة غير ممتزجة بسائر الألوان لأن البقرة الصفراء قد توصف بذلك إذا حصلت الصفرة في أكثرها، فأراد تعالى أن يبين عموم ذلك بقوله: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، روي أنها كانت صفراء الأظلاف صفراء القرون، والوشي خلط لون بلون.

٣١. أخبر الله تعالى عنهم بأنهم وقفوا عند هذا البيان، واقتصروا عليه، فقالوا: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي الآن بانت هذه البقرة عن غيرها لأنها بقرة عوان صفراء غير مذللة بالعمل.

٣٢. اختلف في قولهم: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾:

أ. قال القاضي: قوله تعالى: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ كفر من قبلهم لا محالة لأنه يدل على أنهم اعتقدوا فيما تقدم من الأوامر أنها ما كانت حقه.

ب. هذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد الآن ظهرت حقيقة ما أمرنا به حتى تميزت من غيرها فلا يكون كفراً.

٣٣. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي ذبحوا البقرة وما كادوا يذبحونها، وللنحويين في (لكاد) تفسيرين:

أ. الأول: إن نفيه إثبات وإثباته نفي، فقولنا: كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعل لكنه ما فعله وقولنا: ما كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعل لكنه فعله.

ب. الثاني: وهو اختيار الشيخ عبد القاهر الجرجاني النحوي أن كاد معناه المقاربة، فقولنا: كاد يفعل معناه قرب من الفعل، وقولنا: ما كاد يفعل معناه ما قرب منه.

وللأولين أن يحتجوا على فساد هذا الثاني بهذه الآية لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ معناه وما قاربوا الفعل ونفي المقاربة من الفعل يناقض إثبات وقوع الفعل، فلو كان كاد للمقاربة لزم وقوع التناقض في هذه الآية.

٣٤. اختلفوا في السبب الذي لأجله ما كادوا يذبحون:

أ. قيل: لأجل غلاء ثمنها.

ب. وقيل: أنهم خافوا الشهرة والفضيحة.

٣٥. على كلا الوجهين، فالأحجام عن المأمور به غير جائز:

أ. أما الأول: لأنهم لما أمروا بذبح البقرة المعينة، وذلك الفعل ما كان يتم إلا بالثمن الكثير وجب عليهم أداؤه لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب إلا أن يدل الدليل على خلافه، وإنما لا يلزم المصلي أن يتطهر بالماء إذا لم يجده إلا بغلاء من حيث الشرع، ولولاه للزم ذلك إذا وجب التطهر مطلقاً.

ب. أما الثاني: وهو خوف الفضيحة فذاك لا يرفع التكليف، فإن القود إذا كان واجباً عليه لزمه تسليم النفس من ولي الدم إذا طالب وربما لزمه التعريف ليزول الشر والفتنة، وربما لزمه ذلك لتزول التهمة

في القتل عن القوم الذين طرح القتيل بالقرب منهم، لأنه الذي عرضهم للتهمة فيلزمه إزالتها فكيف يجوز جعله سبباً للتثاقل في هذا الفعل.

٣٦. احتج القائلون بأن الأمر للوجوب بهذه الآية، وذلك لأنه لم يوجد في هذه الصورة إلا مجرد الأمر، ثم إنه تعالى ذم التثاقل فيه والتكاسل في الاشتغال بمقتضاه، وذلك يدل على أن الأمر للوجوب.

٣٧. ذكر من لا يرى أن الأمر للوجوب بأنه:

أ. إذا كان الغرض من المأمور إزالة شر وفتنة دل ذلك على وجوبه، وإنما أمر تعالى بذبحها لكي يظهر القاتل، فتزول الفتنة والشر المخوف فيهم، والتحرز عن هذا الجنس الضار واجب، فلما كان العلاج إزالته بهذا الفعل صار واجباً.

ب. وأيضاً فغير ممتنع أن في تلك الشريعة أن التعبد بالقربان لا يكون إلا سبيل الوجوب، فلما تقدم علمهم بذلك كفاهم مجرد الأمر.

٣٨. حاصل ما ذكره من لا يرى أن الأمر للوجوب بأنه ـ وإنا كنا لا نقول إن الأمر يقتضي الوجوب ـ فلا نقول: إنه ينافي الوجوب أيضاً، فلعله فهم الوجوب هاهنا بسبب آخر سوى الأمر، وذلك السبب المنفصل إما قرينة حالية وهي العلم بأن دفع المضار واجب، أو مقالية وهي ما تقدم بيانه من أن القربان لا يكون مشروعاً إلا على وجه الوجوب.. لكن المذكور مجرد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فلما ذكر الذم والتوبيخ على ترك الذبح المأمور به علمنا أن منشأ ذلك هو مجرد ورود الأمر به لما ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم.

٣٩. احتج القائلون بأن الأمر يفيد الفور بهذه الآية، قالوا: لأنه ورد التعنيف على ترك المأمور به عند ورود الأمر المجرد فدل على أنه للفور.

٤٠. الإيلام والذبح حسن وإلا لما أمر الله به:

أ. على مذهب أهل السنة، ومن وافقهم: أنه تعالى مالك الملك فلا اعتراض لأحد عليه.

ب. على مذهب المعتزلة، ومن وافقهم: إنما يحسن لأجل الأعواض.

٤١. أمر الله تعالى بذبح بقرة من بقر الدنيا وهذا هو الواجب المخير فدل ذلك على صحة قولنا بالواجب المخير.

٤٢. ذكر منكرو العموم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ لا يدل على العموم واحتجوا عليه بوجوه:

أ. الأول: أن المفهوم من قول القائل اذبح بقرة، يمكن تقسيمه إلى قسمين، فإنه يصح أن يقال: اذبح بقرة معينة من شأنها كيت وكيت ويصح أيضاً أن يقال اذبح بقرة أي بقرة شئت، فإذن المفهوم من قولك (اذبح) معنى مشترك بين هذين القسمين، والمشترك بين القسمين لا يستلزم واحداً منهما، فإذن قوله اذبحوا بقرة لا يستلزم معناه معنى قوله: اذبحوا بقرة، أي بقرة شئتم، فثبت أنه لا يفيد العموم لأنه لو أفاد العموم لكان قوله: اذبحوا بقرة أي بقرة شئتم تكريراً، ولكان قوله: اذبحوا بقرة معينة نقضاً، ولما لم يكن كذلك علمنا فساد هذا القول.

ب. الثاني: أن قوله تعالى: فاذبحوا بقرة كالنقيض لقولنا لا تذبحوا بقرة، وقولنا لا تذبحوا بقرة يفيد النفي العام فوجب أن يكون قولنا اذبحوا بقرة يرفع عموم النفي ويكفي في ارتفاع عموم النفي خصوص الثبوت على وجه واحد، فإذن قوله: اذبحوا بقرة يفيد الأمر بذبح بقرة واحدة فقط، أما الإطلاق في ذبح أي بقرة شاءوا فذلك لا حاجة إليه في ارتفاع ذلك النفي فوجب أن لا يكون مستفاداً من اللفظ.

ج. الثالث: أن قوله تعالى: ﴿بَقَرَةٌ﴾ لفظة مفردة منكرة والمفرد المنكر إنما يفيد فرداً معيناً في نفسه غير معين بحسب القول الدال عليه، ولا يجوز أن يفيد فرداً أي فرد كان بدليل أنه إذا قال رأيت رجلًا فإنه لا يفيد إلا ما ذكرناه فإذا ثبت أنه في الخبر كذلك وجب أن يكون في الأمر كذلك.

٤٣. اتفق القائلون بالعموم على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ معناه اذبحوا أي بقرة شئتم فهذه الصيغة تفيد هذا العموم، واستدلوا لذلك بأنه لو ذبح أي بقرة كانت فإنه يخرج عن العهدة فوجب أن يفيد العموم.

٤٤. اختلف في أن قوله تعالى: اذبحوا بقرة هل هو أمر بذبح بقرة معينة مبينة أو هو أمر بذبح بقرة أي بقرة كانت:

أ. فالذين يجوزون تأخير البيان عن وقت الخطاب قالوا: إنه كان أمراً بذبح بقرة معينة، ولكنها ما كانت مبينة.

ب. وقال المانعون منه: هو وإن كان أمراً بذبح أي بقرة كانت إلا أن القوم لما سألوا تغير التكليف

عند ذلك، وذلك لأن التكليف الأول كان كافياً لو أطاعوا، وكان التخيير في جنس البقرة إذ ذاك هو الصلاح، فلما عصوا ولم يمتثلوا ورجعوا بالمسألة لم يمتنع تغير المصلحة وذلك معلوم في المشاهد، لأن المدبر لولده قد يأمره بالسهل اختياراً، فإذا امتنع الولد منه فقد يرى المصلحة في أن يأمره بالصعب فكذا هاهنا.

٤٥. احتج الذين يجيزون تأخير البيان عن وقت الخطاب بوجوه:

أ. الأول: قوله تعالى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ و ﴿مَا لَوْنُهَا﴾ وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾، ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾، ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ منصرف إلى ما أمروا بذبحه من قبل، وهذه الكنايات تدل على أن المأمور به ما كان ذبح بقرة أي بقرة كانت، بل كان المأمور به ذبح بقرة معينة.

ب. الثاني: أن الصفات المذكورة في الجواب عن السؤال الثاني إما أن يقال: إنها صفات البقرة التي أمروا بذبحها أولًا أو صفات بقرة وجبت عليهم عند ذلك السؤال وانتسخ ما كان واجباً عليهم قبل ذلك، والأول هو المطلوب.. والثاني: يقتضي أن يقع الاكتفاء بالصفات المذكورة آخراً، وأن لا يجب حصول الصفات المذكورة قبل ذلك، ولما أجمع المسلمون على أن تلك الصفات بأسرها كانت معتبرة علمنا فساد هذا القسم.

ج. الثالث: أنهم لو كانوا سائلين معاندين لم يكن في مقدار ما أمرهم به موسى ما يزيل الاحتمال لأن مقدار ما ذكره موسى أن تكون بقرة صفراء متوسطة في السن كاملة في القوة، وهذا القدر موضع للاحتمالات الكثيرة، فلما سكتوا هاهنا. واكتفوا به علمنا أنهم ما كانوا معاندين.

د. ردوا على من ذكر لهم بأن الكنايات لا نسلم عودها إلى البقرة، وأنها كنايات عن القصة والشأن، وهذه طريقة مشهورة عند العرب بأن هذا باطل لوجوه:

- أحدها: أن هذه الكنايات لو كانت عائدة إلى القصة والشأن لبقي ما بعد هذه الكنايات غير مفيد، لأنه لا فائدة في قوله: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾، بل لا بد من إضمار شيء آخر، وذلك خلاف الأصل، أما إذا جعلنا الكنايات عائدة إلى المأمور به أولًا لم يلزم هذا المحذور.

- ثانيها: أن الحكم برجوع الكناية إلى القصة والشأن خلاف الأصل، لأن الكناية يجب عودها إلى شيء جرى ذكره، والقصة والشأن لم يجر ذكرهما فلا يجوز عود الكناية إليهما لكنا خالفنا هذا الدليل

للضرورة في بعض المواضع فبقي ما عداه على الأصل.

• ثالثها: أن الضمير في قوله: ﴿مَا لَوْنُهَا﴾، و ﴿مَا هِيَ﴾ لا شك أنه عائد إلى البقرة المأمور بها، فوجب أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ عائداً إلى تلك البقرة وإلا لم يكن الجواب مطابقاً للسؤال.

٤٦. احتج الذين لا يجيزون تأخير البيان عن وقت الخطاب بوجوه:

أ. أحدها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ معناه يأمركم أن تذبحوا بقرة أي بقرة كانت، وذلك يقتضي العموم، وذلك يقتضي أن يكون اعتبار الصفة بعد ذلك تكليفاً جديداً.

ب. ثانيها: لو كان المراد ذبح بقرة معينة لما استحقوا التعنيف على طلب البيان، بل كانوا يستحقون المدح عليه، فلما عنفهم الله تعالى في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ علمنا تقصيرهم في الإتيان بما أمروا به أولًا وذلك إنما يكون لو كان المأمور به أولًا ذبح بقرة معينة.

ج. الثالث: ما روي عن ابن عباس أنه قال: لو ذبحوا أية بقرة أرادوا لأجزأت منهم لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

د. رابعها: أن الوقت الذي فيه أمروا بذبح البقرة كانوا محتاجين إلى ذبحها، فلو كان المأمور به ذبح بقرة معينة مع أن الله تعالى ما بينها لكان ذلك تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة وإنه غير جائز.

٤٧. أجاب الذين يجيزون تأخير البيان عن وقت الخطاب عن هذا بوجوه:

أ. عن الأول: أن قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ لا يدل على أن المأمور به ذبح بقرة، أي بقرة كانت.

ب. عن الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ليس فيه دلالة على أنهم فرطوا في أول القصة، وأنهم كادوا يفرطون بعد استكمال البيان، بل اللفظ محتمل لكل واحد منهما فنحمله على الأخير وهو أنهم لما وقفوا على تمام البيان توقفوا عند ذلك وما كادوا يفعلونه.

ج. عن الثالث: أن هذه الرواية عن ابن عباس من باب الآحاد، وبتقدير الصحة، فلا تصلح أن تكون معارضة لكتاب الله تعالى.

د. عن الرابع: أن تأخير البيان عن وقت الحاجة إنما يلزم أن لو دل الأمر على الفور وذلك ممنوع.

٤٨. إذا فرعنا على القول بأن المأمور به بقرة أي بقرة كانت، فلا بد وأن نذكر أن التكاليف مغايرة فكلفوا في الأول: أي بقرة كانت، وثانياً: أن تكون لا فارضاً ولا بكراً بل عواناً، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون صفراء، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون مع ذلك لا ذلولًا تثير الأرض ولا تسقي الحرث.

٤٩. اختلف الذين لا يجيزون تأخير البيان عن وقت الخطاب:

أ. منهم من قال في التكليف الواقع أخيراً يجب أن يكون مستوفياً لكل صفة تقدمت حتى تكون البقرة مع الصفة الأخيرة لا فارض ولا بكر وصفراء فاقع.

ب. ومنهم من يقول: إنما يجب كونها بالصفة الأخيرة فقط، وهذا أشبه بظاهر الكلام إذا كان تكليفاً بعد تكليف وإن كان الأول أشبه بالروايات وبطريقة التشديد عليهم عند تردد الامتثال، وإذا ثبت أن البيان لا يتأخر فلا بد من كونه تكليفاً بعد تكليف، وذلك يدل على أن الأسهل قد ينسخ بالأشق، ويدل على جواز النسخ قبل الفعل، ولكنه لا يدل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، ويدل على وقوع النسخ في شرع موسى عليه السلام، وله أيضاً تعلق بمسألة أن الزيادة على النسخ هل هو نسخ أم لا، ويدل على حسن وقوع التكليف ثانياً لمن عصى ولم يفعل ما كلف أولًا.

٥٠. وقوع ذلك القتل لا بد وأن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح، أما الإخبار عن وقوع ذلك القتل وعن أنه لا بد وأن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول: هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأول في الوجود، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يتقدم ذكر السبب على ذكر الحكم، وأخرى على العكس من ذلك، فكأنه لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم تعالى بذبح البقرة، فلما ذبحوها قال: وإذ قتلتم نفساً من قبل واختلفتم وتنازعتم فإني مظهر لكم القاتل الذي سترتموه بأن يضرب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة، وذلك مستقيم.

٥١. سؤال وإشكال: هب أنه لا خلل في هذا النظم، ولكن النظم الآخر كان مستحسناً فما الفائدة في ترجيح هذا النظم؟ والجواب: إنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من بينية التفريع.

٥٢. في قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ وجوه:

أ. أحدها: اختلفتم واختصمتم في شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدافعه ويزاحمه.

ب. ثانيها: ﴿ادارأتم﴾ أي ينفي كل واحد منكم القتل عن نفسه ويضيفه إلى غيره.

ج. ثالثها: دفع بعضكم بعضاً عن البراءة والتهمة.

٥٣. جملة القول في قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أن الدرء هو الدفع، فالمتخاصمون إذا تخاصموا فقد دفع كل واحد منهم عن نفسه تلك التهمة، ودفع كل واحد منهم حجة صاحبه عن تلك الفعلة، ودفع كل واحد منهم حجة صاحبه في إسناد تلك التهمة إلى غيره وحجة صاحبه في براءته عنه.

٥٤. الكناية في (فيها) في قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ للنفس، أي فاختلفتم في النفس ويحتمل في القتلة لأن قوله: ﴿قَتَلْتُمْ﴾ يدل على المصدر.

٥٥. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل، وقد حكى ما كان مستقبلًا في وقت التدارؤ كما حكى الحاضر في قوله: ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨]

٥٦. يدل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ على:

أ. أنه لا بد وأن يفعل ذلك[١].، وإنما حكم بأنه لا بد وأن يفعل ذلك، لأن الاختلاف والتنازع في باب القتل يكون سبباً للفتن والفساد، والله لا يحب الفساد، فلأجل هذا قال لا بد وأن يزيل هذا الكتمان ليزول ذلك الفساد، فدل ذلك على أنه سبحانه لا يريد الفساد ولا يرضى به ولا يخلقه.

ب. أنه تعالى عالم بجميع المعلومات وإلا لما قدر على إظهار ما كتموه.

ج. أن ما يسره العبد من خير أو شر ودام ذلك منه فإن الله سيظهره، قال ﷺ: إن عبداً لو أطاع الله من وراء سبعين حجاباً لأظهر الله ذلك على ألسنة الناس)، وكذلك المعصية، وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: قل لبني إسرائيل يخفون لي أعمالهم وعلي أن أظهرها لهم)

د. أنه يجوز ورود العام لإرادة الخاص لأن قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يتناول كل المكتومات، ثم إن الله تعالى أراد هذه الواقعة.

٥٧. المروي عن ابن عباس أن صاحب بقرة بني إسرائيل طلبها أربعين سنة حتى وجدها، ثم

---

(١) نسبه للمعتزلة، تفسير الفخر الرازي: ٣/٥٥٣.

ذبحت إلا أن هذه الرواية على خلاف ظاهر القرآن لأن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ للتعقيب، وذلك يدل على أن قوله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حصل عقيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾

٥٨. الهاء في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ ضمير، وهو:

أ. إما أن يرجع إلى النفس، وحينئذ يكون التذكير على تأويل الشخص والإنسان.

ب. وإما إلى القتيل وهو الذي دل عليه قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

٥٩. يجوز أن يكون الله تعالى إنما أمر بذبح البقرة:

أ. لأنه تعلق بذبحها مصلحة لا تحصل إلا بذبحها، وهو الأقرب، لأنه لو قام غيرها مقامها لما وجبت على التعيين، بل على التخير بينها وبين غيرها.

ب. ويجوز أن يكون الحال فيها وفي غيرها على السوية.

٦٠. الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة مع أن الله تعالى قادر على أن يحييه ابتداء:

أ. لتكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد فقد كان يجوز للملحد أن يوهم أن موسى عليه السلام إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة، فإنه إذا حيي عندما يضرب بقطعة من البقرة المذبوحة انتفت الشبهة في أنه لم يحيي بشيء انتقل إليه من الجسم الذي ضرب به، إذا كان ذلك إنما حيي بفعل فعلوه هم، فدل ذلك على أن إعلام الأنبياء إنما يكون من عند الله لا بتمويه من العباد.

ب. وأيضاً فتقديم القربان مما يعظم أمر القربان.

٦١. سؤال وإشكال: هلا أمر بذبح غير البقرة؟ والجواب: أن الكلام في غيرها لو أمروا به كالكلام فيها، ثم في تخصيصها فوائد:

أ. منها التقرب بالقربان الذي كانت العادة به جارية.

ب. ولأن هذا القربان كان عندهم من أعظم القرابين.

ج. ولما فيه من مزيد الثواب لتحمل الكلفة في تحصيل هذه البقرة على غلاء ثمنها.

د. ولما فيه من حصول المال العظيم لمالك البقرة.

٦٢. اختلفوا في البعض الذي ضرب به القتيل فقيل: لسانها وقيل: فخذها اليمنى وقيل: ذنبها

وقيل: العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الآذان.. وقيل: البضعة بين الكتفين، ولا شك أن القرآن لا يدل عليه فإن ورد خبر صحيح قبل وإلا وجب السكوت عنه.

٦٣. أنهم كانوا مخيرين في أبعاض البقرة لأنهم أمروا بضرب القتيل ببعض البقرة، وأي بعض من أبعاض البقرة ضربوا القتيل به، فإنهم كانوا ممتثلين لمقتضى قوله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، والإتيان بالمأمور به يدل على الخروج عن العهدة على ما ثبت في أصول الفقه، وذلك يقتضي التخيير.

٦٤. في الكلام محذوف والتقدير: فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه ببعضها فحيي إلا أنه حذف ذلك لدلالة قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ وعليه هو كقوله تعالى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] أي فضرب فانفجرت، روي أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً، وقال قتلني فلان، وفلان لا بني عمه ثم سقط ميتاً: وقتلًا.

٦٥. في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أن يكون إشارة إلى نفس ذلك الميت.

ب. والثاني: أنه احتجاج في صحة الإعادة، ثم هذا الاحتجاج أهو على المشركين أو على غيرهم؟ فيه وجهان.

• الأول: قال الأصم: إنه على المشركين لأنه إن ظهر لهم بالتواتر أن هذا الإحياء قد كان على هذا الوجه علموا صحة الإعادة، وإن لم يظهر ذلك بالتواتر فإنه يكون داعية لهم إلى التفكر، قال القاضي: وهذا هو الأقرب لأنه تقدم منه تعالى ذكر الأمر بالضرب وأنه سبب إحياء ذلك الميت، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فجمع ﴿الْمَوْتَى﴾ ولو كان المراد ذلك القتيل لما جمع في القول، فكأنه قال: دل بذلك على أن الإعادة كالابتداء في قدرته.

• الثاني: قال القفال: ظاهر الكلام يدل على أن الله تعالى قال لبني إسرائيل: إحياء الله تعالى لسائر الموتى يكون مثل هذا الإحياء الذي شاهدتم، لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال ولم يشاهدوا شيئاً منه، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم وانتفت عنهم الشبهة التي لا يخلو منها المستدل، وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ إلى قوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦] فأحيا الله تعالى لبني إسرائيل القتيل عياناً، ثم قال لهم: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي كالذي

أحياه في الدنيا يحيي في الآخرة من غير احتياج في ذلك الإيجاد إلى مادة ومدة ومثال وآلة.

٦٦. من الناس من استدلّ بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ على أن المقتول ميت، وهو ضعيف لأنه تعالى قاس على إحياء ذلك القتيل إحياء الموتى، فلا يلزم من هذا كون القتيل ميتاً.

٦٧. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ إن ذلك كان آية واحدة فلم سميت بالآيات؟ والجواب: أنها تدل على وجود الصانع القادر على كل المقدورات، العالم بكل المعلومات، المختار في الإيجاد والإبداع، وعلى صدق موسى عليه السلام، وعلى براءة ساحة من لم يكن قاتلًا، وعلى تعين تلك التهمة على من باشر ذلك القتل، فهي وإن كانت آية واحدة إلا أنها لما دلت على هذه المدلولات الكثيرة لا جرم جرت مجرى الآيات الكثيرة.

٦٨. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ القوم كانوا عقلاء قبل عرض هذه الآيات عليهم وإذا كان العقل حاصلًا امتنع أن يقال: إني عرضت عليك الآية الفلانية لكي تصير عاقلًا، فإذن لا يمكن إجراء الآية على ظاهرها بل لا بد من التأويل، وهو أن يكون المراد لعلكم تعملون على قضية عقولكم، وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص، حتى لا ينكروا البعث.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ مقدم في التلاوة وقوله: ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ مقدم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قُتِلْتُمْ﴾ في النزول مقدما، والام بالذبح مؤخرا، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها، ويكون ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ مقدما في المعنى على القول الأول، لان الواو لا توجب الترتيب، ونظيره في التنزيل في قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. فذكر إهلاك من هلك منهم، ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]، فذكر الركوب متأخرا في الخطاب، ومعلوم أن ركوبهم كال قبل الهلاك، وكذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ

(١) تفسير القرطبي: ١/٤٥٥.

لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾ [هود: ١٩]، وتقديره: أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، ومثله في القرآن كثير.

٢. لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى في الغنم، والنحر أولى في الإبل، والتخير في البقر، وقيل: الذبح أولى، لأنه الذي ذكره الله، ولقرب المنحر من المذبح. قال ابن المنذر: لا أعلم أحدا حرم أكل ما نحر مما يذبح، أو ذبح مما ينحر، وكره مالك ذلك، وقد يكره المرء الشيء ولا يحرمه.

٣. قال الماوردي: وإنما أمروا بذبح بقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كان يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته، وهذا المعنى علة في ذبح البقرة، وليس بعلة في جواب السائل، ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حي، فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها.

٤. ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] وذلك أنهم وجدوا قتيلا بين أظهرهم واشتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف، فقالوا: نقتتل ورسول الله بين أظهرنا، فأتوه وسألوه البيان ـ وذلك قبل نزول القسامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله ـ فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة، فلما سمعوا ذلك من موسى وليس في ظاهره جواب عما سألوه عنه واحتكموا فيه عنده، قالوا: أتتخذنا هزؤا؟ والهزء: اللعب والسخرية.

٥. اختلف في حكم قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾:

أ. قيل: ظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله، ولا يصح إيمان من قال لنبي قد ظهرت معجزته ـ وقال: إن الله يأمرك بكذا ـ: أتتخذنا هزؤا؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي ﷺ لوجب تكفيره.

ب. وقيل: أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال القائل للنبي ﷺ في قسمة غنائم حنين: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وكما قال له الآخر: اعدل يا محمد، وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدين.

٦. في الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل

وصاحبه مستحق للوعيد، وليس المزاح من الاستهزاء بسبيل، ألا ترى أن النبي ﷺ كان يمزح والأئمة بعده، قال ابن خويز منداد: وقد بلغنا أن رجلا تقدم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضي الكوفة فمازحه عبيد الله فقال: جبتك هذه من صوف نعجة أو صوف كبش؟ فقال له: لا تجهل أيها القاضي! فقال له عبيد الله: وأين وجدت المزاح جهلا! فتلا عليه هذه الآية، فأعرض عنه عبيد الله، لأنه راه جاهلا لا يعرف المزح من الاستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل.

٧. أجابهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] لان الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل، فاستعاذ منه عليه السلام، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء، والجهل نقيض العلم، فاستعاذ من الجهل، كما جهلوا في قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾

٨. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هذا تعنيت منهم وقلة طواعية، ولو امتثلوا الامر وذبحوا أي بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما، ونحو ذلك روى الحسن البصري عن النبي ﷺ.

٩. ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر، وماهية الشيء: حقيقته وذاته التي هو عليها.

١٠. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ في هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، لأنه لما أمر ببقرة اقتضى أي بقرة كانت، فلما زاد في الصفة نسخ الحكم الأول بغيره، كما لو قال في ثلاثين من الإبل بنت مخاض، ثم نسخه بابنة لبون أو حقة، وكذلك ها هنا لما عين الصفة صار ذلك نسخا للحكم المتقدم.

١١. الفارض: التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها لذلك، لان معنى الفارض في اللغة الواسع، قاله بعض المتأخرين.

١٢. البكر: الصغيرة التي لم تحمل، وحكى القتبي أنها التي ولدت، والبكر: الأول من الأولاد.. والبكر أيضا في إناث البهائم وبني آدم: ما لم يفتحله الفحل، وهي مكسورة الباء، وبفتحها الفتى من الإبل.

١٣. العوان: النصف التي قد ولدت بطنا أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل، قال الشاعر يصف فرسا:

كميت بهيم اللون ليس بفارض ... ولا بعوان ذات لون مخصف

وقال مجاهد: العوان من البقرة هي التي قد ولدت مرة بعد مرة، وحكاه أهل اللغة، ويقال: إن العوان النخلة الطويلة، وهي فيما زعموا لغة يمانية، وحرب عوان: إذا كان قبلها حرب بكر، قال زهير:

إذا لقحت حرب عوان مضرة ضروس تهر الناس أنيابها عصل

أي لا هي صغيرة ولا هي مسنة، أي هي عوان.

١٤. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت فما تركوه:

أ. قيل: هذا يدل على أن مقتضى الامر الوجوب كما تقوله الفقهاء، وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه، وعلى أن الامر على الفور، وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا، ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

ب. وقيل: لا، بل على التراخي، لأنه لم يعنفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب. قال ابن خويز منداد.

١٥. اللون: واحد الألوان وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة، واللون: النوع، وفلان متلون: إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد، قال: كل يوم تتلون... غير هذا بك أجمل.. ولون البسر تلوينا: إذا بدا فيه أثر النضج، واللون: الدقل، وهو ضرب من النخل، قال الأخفش: هو جماعة، واحدها لينة.

١٦. ﴿صَفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون، من الصفرة المعروفة، قال مكي عن بعضهم: حتى القرن والظلف، وقال الحسن وابن جبير: كانت صفراء القرن والظلف فقط، وعن الحسن أيضا: ﴿صَفْرَاءُ﴾ معناه سوداء، قال الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

والأول أصح لأنه الظاهر، وهذا شاذ لا يستعمل مجازا إلا في الإبل، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٣] وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة، ولو أراد السواد لما أكده بالفقوع، وذلك نعت مختص بالصفرة، وليس يوصف السواد بذلك تقول العرب: أسود حالك وحلكوك وحلكوك، ودجوجي وغربيب، وأحمر قانئ، وأبيض ناصع ولهق ولهاق ويقق، وأخضر ناضر، وأصفر فاقع، هكذا نص نقلة اللغة عن العرب.

١٧. ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾: قال الكسائي: يقال فقع لونها يفقع فقوعا إذا خلصت صفرته، والافقاع: سوء الحال، وفواقع الدهر بوائقه، وفقع بأصابعه إذا صوت، ومنه حديث ابن عباس: نهى عن التفقيع في الصلاة، وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تنقض.. وقوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ يريد خالصا لونها لا لون فيها سوى لون جلدها.

١٨. لم ينصرف ﴿صَفْرَاءُ﴾ في معرفة ولا نكرة، لان فيها ألف التأنيث وهى ملازمة فخالفت الهاء، لان ما فيه الهاء ينصرف في النكرة، كفاطمة وعائشة.

١٩. ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال وهب: كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ولهذا قال ابن عباس: الصفرة تسر النفس، وحض على لباس النعال الصفر، حكاه عنه النقاش، وقال علي ابن أبى طالب: من لبس نعلي جلد أصفر قل همه، لان الله تعالى يقول: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ حكاه عنه الثعلبي، ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تهم، ومعنى ﴿تَسُرُّ﴾ تعجب، وقال أبو العالية: معناه في سمتها ومنظرها فهي ذات وصفين.

٢٠. ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الامر بعد البيان.

٢١. ذكر البقر لأنه بمعنى الجمع، ولذلك قال ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فذكره للفظ تذكير البقر، قال قطرب: جمع البقرة باقر وباقور وبقر، وقال الأصمعي: الباقر جمع باقرة، قال ويجمع بقر على باقورة، حكاه النحاس، وقال الزجاج: المعنى إن جنس البقر... والبقر والباقر والبيقور والبقير لغات بمعنى، والعرب تذكره وتؤنثه.

٢٢. إنما قالوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لان وجوه البقر تتشابه، ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه ذكر (فتنا كقطع الليل تأتي كوجوه البقر)، يريد أنها يشبه بعضها بعضا، ووجوه البقر تتشابه، ولذلك قالت بنو إسرائيل: إن البقر تشابه علينا.

٢٣. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ استثناء منهم، وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الامر، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبدا)، وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله، فقدم على ذكر الاهتداء اهتماما به.

٢٤. معنى ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ لم يذللها العمل، يقال: بقرة مذللة بينة الذل (بكسر الذال)، ورجل ذليل

بين الذل (بضم الذال). أي هي بقرة صعبة غير ريضة لم تذلل بالعمل.

٢٥. اختلف في ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾:

أ. قيل: ﴿تُثِيرُ﴾ في موضع رفع على الصفة للبقرة أي هي بقرة لا ذلول مثيرة، قال الحسن: وكانت تلك البقرة وحشية ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث أي لا يسنى بها لسقي الزرع ولا يسقى عليها، والوقف ها هنا حسن، وهو أصح لوجهين:

• أحدهما: ما ذكره النحاس عن علي بن سليمان أنه قال لا يجوز أن يكون ﴿تُثِيرُ﴾ مستأنفا، لان بعده ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، فلو كان مستأنفا لما جمع بين الواو و(لا)

• الثاني: أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الاثارة قد ذللتها، والله تعالى قد نفى عنها الذل بقوله: ﴿لَا ذَلُولٌ﴾

ب. وقيل: ﴿تُثِيرُ﴾ فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث لها، وأنها كانت تحرث ولا تسقى، والوقف على هذا التأويل ﴿لَا ذَلُولٌ﴾

٢٦. يحتمل أن تكون ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ في غير العمل مرحا ونشاطا، كما قال امرؤ القيس:

يهيل ويذري تربه ويثيره إثارة نباث الهواجر مخمس

فعلى هذا يكون ﴿تُثِيرُ﴾ مستأنفا، ﴿وَلَا تَسْقِي﴾ معطوف عليه.

٢٧. إثارة الأرض: تحريكها وبحثها، ومنه الحديث: أثيروا القرآن، فإنه علم الأولين والآخرين) وفي رواية أخرى: من أراد العلم فليثور القرآن) ، وفي التنزيل: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩] أي قلبوها للزراعة، والحرث: ما حرث وزرع.

٢٨. في هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته، وإذا ضبط بالصفة وحصر بها جاز السلم فيه، وكذلك كل ما يضبط بالصفة، لوصف الله تعالى البقرة في كتابه وصفا يقوم مقام التعيين، وقال رسول الله ﷺ: لا تصف المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها).. فجعل النبي ﷺ الصفة تقوم مقام الرؤية.

٢٩. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي هي مسلمة، ويجوز أن يكون وصفا، أي أنها بقرة مسلمة من العرج وسائر العيوب، قاله قتادة وأبو العالية، ولا يقال: مسلمة من العمل لنفى الله العمل عنها، وقال الحسن: يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل.

٣٠. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس فيها لون يخالف معظم لونها، هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد، كما قال ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، وأصل ﴿شِيَةَ﴾ وشي حذفت الواو كما حذفت من يشي، والأصل يوشى، ونظيره الزنة والعدة والصلة، والشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين مختلفين، وثور موشى: في وجهه وقوائمه سواد.. قال ابن عرفة: الشية اللون، ولا يقال لمن نم: واش، حتى يغير الكلام ويلونه فجعله ضروبا ويزين منه ما شاء، والوشي: الكثرة، ووشى بنو فلان: كثروا، ويقال: فرس أبلق، وكبش أخرج، وتيس أبرق، وغراب أبقع، وثور أشيه، كل ذلك بمعنى البلقة، هكذا نص أهل اللغة.

٣١. هذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا فشدد الله عليهم، ودين الله يسر، والتعمق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم.

٣٢. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي بينت الحق، قاله قتادة، ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وهذا إخبار عن تثبيطهم في ذبحها وقلة مبادرتهم إلى أمر الله، وقال القرظي محمد بن كعب: لغلاء ثمنها.. وقيل: خوفا من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم، قاله وهب بن منبه.

٣٣. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ هذا الكلام مقدم على أول القصة، التقدير: وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها، فقال موسى: إن الله يأمركم بكذا، وهذا كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١ ٢] أي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، ومثله كثير.

٣٤. في سبب قتله قولان:

أ. أحدهما: لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ابن عمها فمنعه عمه، فقتله وحمله من قريته إلى قرية أخرى فألقاه هناك، وقيل: ألقاه بين قريتين.

ب. الثاني: قتله طلبا لميراثه، فإنه كان فقيرا، وادعى قتله على بعض الأسباط. قال عكرمة: كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه، فوجدوا قتيلا في سبط من الأسباط، فادعى هؤلاء على هؤلاء، وأدعى هؤلاء على هؤلاء، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] الآية.

٣٥. معنى ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ اختلفتم وتنازعتم، قاله مجاهد، وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء في الدال،

ولا يجوز الابتداء بالمدغم، لأنه ساكن فزيد ألف الوصل.

٣٦. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قيل: باللسان لأنه آلة الكلام.. وقيل: بعجب الذنب، إذ فيه يركب خلق الإنسان.. وقيل: بالفخذ.. وقيل: بعظم من عظامها، والمقطوع به عضو من أعضائها، فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان.

٣٧. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيى الله كل من مات فالكاف في موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي علاماته وقدرته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا، أي تمتنعون من عصيانه، وعقلت نفسي عن كذا أي منعتها منه والمعاقل: الحصون.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه، أقصروا من غوايتهم، وانتبهوا من رقدتهم وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي أوضحت لنا الوصف، وبيّنت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها، فحصلوا على تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ وامتثلوا الأمر الذي كان يسرا فعسّروه، وكان واسعا فضيّقوه.

٢. اختلف في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾:

أ. قيل: ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة، فكان ذلك مظنة للاستبعاد، ومحلا للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم. وهو الأرجح.

ب. وقيل: إنهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف.

ج. وقيل: لارتفاع ثمنها.

د. وقيل: لخوف انكشاف أمر المقتول.

٣. استدلّ جماعة من المفسرين والأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل، وليس ذلك بصحيح لوجهين:

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١١٧.

أ. الأوّل: أن هذه الأوصاف المزيدة بسبب تكرر السؤال هي من باب التقييد للمأمور به لا من باب النسخ، وبين البابين بون بعيد كما هو مقرر في علم الأصول.

ب. الثاني: أنا لو سلّمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه، فإنه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأوّل أن يعمدوا إلى بقرة من عرض البقر فيذبحوها، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان والصفراء، ولا دليل يدل على هذه المحاورة بينهم وبين موسى عليه السلام واقعة في لحظة واحدة، بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤون عليها، ويديرون الرأي بينهم في أمرها ثم يوردونها، وأقلّ الأحوال الاحتمال القادح في الاستدلال.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وقد قُتل لهم قتيل لا يدرَى قاتله، اسمه عاميل، وسألوا موسى أن يدعو الله أن يبيِّنه لهم، والقتيل ذو مال قتله بنو عمِّه؛ وقيل: أبناء عمِّه اثنان؛ وقيل: إخوة؛ وقيل: ابن أخيه، وهم فقراء ليرثوه، وحملوه إلى باب قرية وألقوه فيه، فطلبوا ثأرهم، وادَّعوا القتل على رجال جاءوا بهم إلى موسى عليه السلام، وروي أنَّه قتله قريب له ليتزوَّج زوجه؛ وقيل: ليتزوَّج بنته وقد أبى، ذكر الله تعالى قصَّتهم ذمًّا لهم بالتعاصي، أو برفع التشاجر بينهم، وبيانًا لمعجزة من معجزات موسى عليه السلام.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ يَامُرُكُمُ أن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ أوّل القصَّة هو قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ولكن أخَّره ليتَّصل توبيخهم على عيوبهم بالعيوب المتقدِّمة، إذ وبَّخهم على قولهم لنبيء الله ﷺ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وليس من شأنه أن يعبث معهم بذبح البقرة، وينسب الأمر لله بذبحها، مع أنَّه لم يأمرهم، وما قال عن الله إلَّا الحقَّ، وبَّخهم على تعنُّتهم في البقرة: ما هي؟ ما لونها؟ وما هي بعد لونها؟ مع أنَّه لو ذبحوا بقرةً مَّا لَكفى، إذ لم يؤمروا بمعيَّنة، ولو كان الأمر الغائب المقضيُّ عند الله يؤول إلى معيَّنة لا محيد عنها، وكذا لو عمدوا إلى بقرة عوانٍ ما بعد سؤالهم الثاني لكفى ذبحها، ولو عمدوا إلى عوانٍ صفراء لاشية فيها بعد سؤالهم الثالث لكفى.

٣. ﴿قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتتَّخذ أمرنا هزؤًا!؟ أو تتَّخذنا ذوي هزؤ!؟ أو موضع هزؤ، أو مهزوءًا

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١٣٢/١.

بنا، أو لنفس الهزؤ مبالغة لبعد ما بين ذبح البقرة وأمر القتيل، ولو عقلوا لامتثلوا فتظهر لهم الحكمة أن يضرب ببعضها فيُحيَى، مع أنَّهم لم يجرِّبوا منه العبث قطُّ، ونسبتهم الهزؤ إليه شرك؛ لأنَّهم لم ينسبوه إليه على وجه مزاح جائز، بل على وجه الكذب عن الله؛ لأنَّه نسب الأمر بالذبح إلى الله، وإن جعلوا محطَّ الاستهزاء أنَّ الله لا يقدر على إحياء الميِّت فأشدُّ كفرًا، ويحتمل أنَّ ذلك من غلظ الطبع والجفاء لا إشراك، أو الاستفهام استرشاد لا إنكار.

٤. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنَ اَكُونَ﴾ من أن أكون ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: في سلك من اتَّصفوا بالجهل لبرهان على جهلهم، فذلك أبلغ من أن يقول: (أن أكون جاهلاً)، واختار الأبلغ لأنَّه أليق بما وصفوه به، فإنَّ من يكذب على الله، ويقول: أمرَ بكذا، ولم يأمر به من أهل الجهل البَيِّن كظلمة الليل، والجهل: عدم العلم، أو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به، أو فعل الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل، وهذا الأخير هو المراد هنا.

٥. وَلَمَّا علموا أنَّ ذلك أمر من الله تعالى ، لقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ﴾، قالوا ما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا﴾ اللام للنفع أو للتعليل، ﴿رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما وصفها معها، فإنَّ (ما) سؤال عن الوصف هنا، فكأنَّه قيل: ما سنُّها فأجيب عليه وعن الجنس أو الحقيقة، وليس مرادًا هنا، إذ لا يسألون عن جنس البقرة أو حقيقتها لعلمهم بها، ومن السؤال عن الوصف نحو: ما عمرو؟ تريد: أخياط أم حدَّاد؟ أو أَمُسِنٌّ أم شابٌّ؟ وما زيد؟ أفاضل أم كريم؟ والكثير في (ما) الجنس أو الحقيقة نحو: ما العنقاء؟ وما الحركة؟

٦. ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا﴾ هي ﴿فَارِضٌ وَلَا﴾ هي ﴿بِكْرٌ﴾ أو (لا) صلة بين النعت والمنعوت، أو منزلة مع ما بعدها منزلة اسم، فظهر الإعراب فيما بعدها كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ اِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، أي: غير فارض وغير بكر، وغير الله، ولم يقرنهما بالتاء لأنَّهما لا يطلقان على المذكَّر، فهما كحائض لا يطلق إلَّا على المؤنَّث، ويقال في غير البقرة ـ جمل أو غيره ـ : بَكْر، والمؤنَّث بَكْرة بالتاء، والفرض: القطع، أي: لم تقطع أسنانها لكبرها بالانكسار، أو باستفراغ سنيها المعتبرة في الأسنان، كالثنيِّ والجَذَع والرباع؛ أو انقطاع ولادتها، والبكر الشابَّة الصغيرة بحيث لا تلد؛ وقيل: التي ولدت ولدًا واحدًا ﴿عَوَانٌم﴾ أي: نَصَفٌ.

٧. ﴿بَيْنَ ذَالِكَ﴾ بين ما ذكر من الفارض والبكر؛ وقيل: ولدت مرَّة أو مرَّتين ﴿فَافْعَلُواْ مَا تُومَرُونَ﴾ به من ذبحها على هذا الوصف بلا توقُّف وطلب استفسار، فتكلَّفوا سؤالاً هم في غنًى عنه، وهذا من كلام الله، أو من كلام موسى عليه السلام.

٨. ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ كأنَّهم استعظموا ذبح بقرة في ميِّت لا يعرف قاتله، فهُوِّل الأمر عليهم، ولم تكتفِ قلوبهم ببقرةٍ ما فأكثروا السؤال، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا﴾ أي: البقرة العوان ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: لونها خالص الصفرة، أصفر فاقع كما يقال: أبيض يقَق، وأبيض ناصع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، أي: شديد اللون، ولا يخفى أنَّ الأصل في الصفرة بقاؤها على ظاهرها من لون بين بياض وحمرة، ولا حاجة إلى تفسيرها بالسواد، ولوْ وَرَدَ مثله لعدم القرينة هنا عليه، فلا مجاز، ولو كان مشتركًا لحملته على الأظهر، وناقلو اللغة عن العرب مشافهة كالجوهريِّ وأبي عبيد وأبي عبيدة والأصمعيِّ لم يثبتوا الفقوع إلَّا في الصفرة، لا يقال: أسود فاقع ولو أثبته في القاموس، وهو مقبول إلَّا أنَّ الجمهور على خلافه.

٩. ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ تلذُّ قلوب الناظرين إليها بحسنها، ومادَّة السرور لذلك، فمنه السرير لأولي النعمة، وسرير الميِّت تفاؤلاً، وعن عليٍّ من هذه الآية: (كلُّ أصفر يسرُّ كالنعل الأصفر، وأنَّ الأسود يحزن) فهو مفسِّر للصفرة بظاهرها.

١٠. ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِـيَ﴾ أي: ما الوصف الآخر المبيِّن لهذه البقرة العوان الصفراء الفاقع؟ أو أرادوا مطلق البقرة التي أمروا بذبحها، إلغاءً للبيان المتقدِّم، وإعراضًا عنه بسوء أدبهم؛ وعلى كلِّ حال أجابهم عن الله مع إثبات الأوصاف السابقة بأنَّها غير مذلَّلة بالعمل، وأنَّها كلُّها على لون واحد، ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ الموصوف بتلك الصفات ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته.

١١. ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها بوصفٍ تصفها به بعدُ، قال ﷺ: (لو لم يستثنوا ـ أي: لم يقولوا إن شاء الله ـ لما بُيِّنت لهم آخر الأبد)، وليس قولهم: ما هي؟ تكريرًا للأوَّل؛ لأنَّهم قالوا أوَّلا ما هي؟ فبيَّن لهم بأنَّها عوان، وزادوا سؤالاً: ما هي بعدما وصفتَها لنا بأنَّها صفراء عوان؟ وهذا يكفي، وهو الأصل، ولا تحتاج إلى ما قيل: إنَّ المراد آخرًا بقولهم: ما هي؟ أسائمة أو عاملة، إذ لا دليل عليه إلَّا قوله: ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ و﴿لَا تَسْقِي﴾ فيبقى على هذا ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فالأولى: تفويضهم له في ازدياد بيان،

فأجابهم بما أقنعهم.

١٢. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا﴾ هي ﴿ذَلُولٌ تُثِيرُ الْاَرْضَ﴾ وهذه الإشارة سبب الذلِّ، ﴿وَلَا﴾ هي ﴿تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أو (لَا) صلة بين النعت والمنعوت، أو منزَّلة مع مدخولها منزِلة اسم كما مرَّ، والذلول: التي ذُلِّت، وإثارة الأرض: قلبها وشقُّها للزرع، والحرثُ: الأرض المشقوقة للزراعة، أو ما وضع فيها من البذر، والمراد أنَّها ليست يُحرث بها فتذلَّ، كما أنَّها ليست تسقي الحرثَ فتذلَّ فتثير، في حيِّز النفي، وقيل: هي تثير الأرض بأظلافها لقوَّتها وبطرها ومرحها، فالإثارة صفة أخرى لها في الإثبات، وقيل: هي وحشيَّة إذ كانت لا تثير ولا تسقي، وقيل: هي من السماء، والقولان ضعيفان.

١٣. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب كالعور والعرج وانكسار القرن، ومن كلِّ عيب كهزالٍ لِكثرة الحمل عليها، ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا شيء من اللون فيها يخالف لونها، حتَّى قيل: ظلفها وقرنها وأهداب عينها صُفْر، وهذا تشديد على أنفسهم أورثهم تشديدًا في ثمنها عليهم، وقال ﷺ: (لو ذبحوا أي بقرة كانت لأجزأتهم، ولكن شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم)، والصحيح أنَّ هذا موقوف على ابن عبَّاس لا مرفوع، ومرادهم طلب البيان لاستبعادهم إحياء ميِّت ببقرة ميِّتة، ظنُّوا أنَّها ليست من سائر البقر، وهي منها في قدرة الله، وتعيَّنت هذه في قضائه تعالى، وتأخير البيان ممنوع عن وقت التكليف لا عن وقت الخطاب.

١٤. ﴿قَالُوا الْاٰنَ﴾ لا قبله ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ البيِّن التامِّ، وهو الوصف الأخير، إذ قال: ﴿لَا ذَلُولٌ﴾، ومن قبلُ جئت بحقٍّ لم نفهمه باتِّضاح، وعرفوا أنَّه الحقُّ البيِّن التامُّ؛ لأنَّهم ما وجدوا على هذا الوصف إلَّا واحدة، فزال بها تشابه البقر عليهم، وجدوها عند فتًى بارٍّ بأمِّه، وقال له مَلَك: اذهب إلى أمِّك وقل لها: أمسكي هذه البقرة فإنَّ موسى بن عمران يشتريها منْك بملء مسكها ذهبًا، ويروى أنَّ ملكًا قال: شاور أمَّك ولا تبعها إلَّا بمشورة؛ فلم يشر بالبيع حتَّى سيمت بملئه ذهبًا، وكانت البقرة في ذلك الوقت بثلاثة دنانير، وهي من بقر الأرض لا كما قيل: نزلت من السماء لأنَّه لا دليل له؛ قيل: ﴿الْاٰن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يناسب أنَّهم يبحثون عنها في بقر الأرض، وإلَّا قالوا: لا نقدر عليها؛ قلت: لا يلزم هذا، وفرَّقوا ثمنها على بني إسرائيل، فأصاب كلَّ فريق ديناران.

١٥. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ ذبْحَها، أي: ذبحوها بعد ما اتَّصفوا بالبعد عنه، تباعدوا عن ذبحها جدًّا ولم يقربوا منه، ومع ذلك اتَّصلوا بها بعد ذلك وملكوها وذبحوها، ونفي (كاد) نفيٌ، وإثباتها

إثبات كسائر الأفعال، وأخطأ من قال غير ذلك، وذلك أنَّه طال الوقت لكثرة مراجعتهم لموسى في بيانها، وطول زمان التفتيش عنها، وتوقُّف أمِّ الفتى في بيعها لأجل الزيادة الخارجة عن العادة في ثمنها، ولخوف فضيحة القاتل، ويبعد ما قيل إنَّهم طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة، ومن خطإِ المحدِّثين أنَّهم لا يكادون ينطقون بخبر كاد غير مقرون بأنْ، مع أنَّ قرنه قليل، وأنَّهم دائمًا يقولون: مثنى مثنى، ولا يقتصرون على مرَّة، حاشاه ﷺ عن ذلك.

١٦. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا القتل أوَّل الأمر، وأخَّره ليبيِّن لهم شأنه وقت الإحياء، ونَسَبَ القتلَ إليهم لأنَّ القاتل من جملتهم، أو قتله جماعة منهم، ولأنَّ الحرص على المال فاشٍ فيهم كلِّهم، والقاتل حريص؛ وكذا الحرص على ما يحبُّون كجمال المرأة، ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ تدافعتم في قتلها كلٌّ ينفيه عن نفسه ويحيله على خصمه، والأصل: (تدارأتم)، أبدلت التاء دالاً وأدغمت، فكانت همزة الوصل لسكون الأوَّل، وحذفت الهمزة بعد الراء في المصحف.

١٧. ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ﴾ مُظهِرٌ ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ كان فيهم من يحبُّ أن لا يظهر القاتل، كالقاتلين ومن يليهم مِمَّن عرفهم، وغير ذلك مِمَّن لم يناسبه الظهور.

١٨. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي: القتيل في بدنه قبل أن يدفن، وقيل: على قبره، ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أيِّ بعضٍ كان، فاتَّفق أنَّهم ضربوه بلسانها أو بذنَبها أو قلبها أو بفخذها اليمنى أو بالأذن، أو بعجب الذنب أو ببضعة بين الكتفين، أو بعظم أو بالغضروف، فيُحيَى، ولو ضربوه بغير ذلك منها لحيي كذلك، وَلَمَّا حييَ وأوداجه تشخب دمًا قال: قتلني فلان وفلان لابني عمِّه، أو ابني أخيه، أو فلان ابن أخي، ومات، وحُرِمَا الميراثَ وقُتِلَا، قال ﷺ: (ما ورِثَ قاتلٌ قتيلَهُ مِن عَهْدِ أصحابِ البقرِة)، وخصَّ البقر لأنَّهم كانوا يعبدونها، فيذبحون ما حبِّب إليهم فيذبحون النفوس الأمَّارة بالسوء، ولأنَّهم عبدوا العجل، وأشربوا في قلوبهم العجل، وخصَّ الضرب بالميِّت لئلَّا يتوهَّم أنَّ الحياة انتقلت إليه من الحيِّ.

١٩. ﴿كَذَالِكَ﴾ كما أحيى الله هذا القتيل ﴿يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ كلَّهم يوم القيامة بلا ضرب، وبنو إسرائيل لا ينكرون البعث، ولكن وعظهم بالبعث ليستعدُّوا، ويَذَّكَّرَ منكرو البعث من العرب، والكاف لمن يصلح للخطاب، فيدخلون بالأولى، أو لكلِّ واحد، فوافق قوله: ﴿وَيُرِيكُمُ﴾ عطف على (يُحْيِي)، ﴿ءَايَاتِهِ﴾ دلائل قدرته، أو ما اشتمل عليه هذا الإحياء من الآيات، أو كلام الميِّت، أو كلِّ ما مرَّ من المسخ،

ورفع الجبل، وانبجاس الماء، والإحياء، والخطاب لبني إسرائيل مع غيرهم كالعرب، أو لهم فقط، وكذا في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تستعملون فكركم فتذكروا أنَّ الله قادر على إحياء غيره كما قدر على إحيائه، وكما أنشأهم، ويجوز أن يكون الخطاب في ﴿كَذَالِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ للعرب المنكرين للبعث، اعترض به في قصَّة بني إسرائيل، ويختصُّ ببني إسرائيل الخطابُ في قوله: قسوة قلوب اليهود.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. لما بيّن تعالى قساوتهم في حقوقه العلية، أتبعه ببيان قساوتهم في مصالح أنفسهم توبيخا لأخلاقهم، مع الإشارة إلى نعمته عليهم في خرق العادة في شأن البقرة، وبيان من هو القاتل بسببها، وإحياء الله تعالى المقتول، ونصه على من قتله منهم.

٢. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وذلك أنه وجد قتيل فيهم، وكانوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله بذبح بقرة وأن يضربوه ببعضها ليحيى ويخبر بقاتله.

٣. ﴿قَالُوا﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: فماذا صنعوا؟ هل سارعوا إلى الامتثال أو لا، فقيل: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي أتجعلنا مكان هزو، أو أهل هزو، أو مهزوّا بنا، أو نفس الهزو، للمبالغة، وأشعر جوابهم ما ثبت من فظاظتهم، إذ فيه سوء الأدب على من ثبتت رسالته وقد علموها.

٤. ﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهزو في أثناء تبليغ أمر الله، سبحانه، جهل وسفه.. نفى عنه، عليه السلام، ما توهموه من قبله على أبلغ وجه، وآكده، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه، استفظاعا له، واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه، عليه السلام، بها، والعوذ: اللّجأ من متخوّف لكاف يكفيه، والجهل: التقدم في الأمور بغير علم.

٥. ﴿قَالُوا﴾ تماديا في الغلظة ﴿ادْعُ لَنَا﴾ أي لأجلنا ﴿رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ ما حالها، وصفتها، وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيى، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن

---

(١) تفسير القاسمي: ١/٣٢٥.

الخارجة عما عليه البقر.

٦. ﴿مَا﴾ وإن شاعت في طلب مفهوم الحقيقة، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال، تقول: ما زيد؟ فيقال: طبيب أو عالم، ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام، بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان، وأتاه الوحي، ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾ أي البقرة المأمور بذبحها.

٧. ﴿بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ أي لا مسنّة، وقد فرضت فروضا، فهي فارض، أي أسنّت، من الفرض بمعنى القطع، كأنها قطعت سنّها وبلغت آخرها، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لا فتيّة صغيرة لم يلقّحها الفحل، ﴿عَوَانٌ﴾ أي نصف ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي سنّي الفارض والبكر.

٨. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ هذا أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به، وفيه حثّ على الامتثال، وزجر عن المراجعة، ومع ذلك لم يفعلوا، بل سألوا بيان اللون بعد بيان السنّ.

٩. ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديد الصفرة، يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك وأبيض يقق، وأحمر قانئ، وأخضر ناضر ومدهامّ.

١٠. في إسناد الفقوع إلى اللون - مع كونه من أحوال الملوّن لملابسته به - ما لا يخفى من فضل تأكيد. كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما في: جدّ جدّه.

١١. ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي تبهج نفوسهم.

١٢. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ زيادة استكشاف عن حالها لتمتاز عما يشاركها في التعوين والصفرة، ولذلك عللوا تكرير سؤالهم بقولهم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ الموصوف بما تقدم ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته، أي اشتبه علينا أيّها نذبح.

١٣. قال البقاعيّ: وذكّر الفعل، لأن كل جمع حروفه أقل من حروف واحده، فإن العرب تذكره. نقل عن سيبويه. ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المراد ذبحها.

١٤. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ . أي لم تذلل لإثارة الأرض وسقي الحرث، و ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة. بمعنى غير ذلول، و ﴿لَا﴾ الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى. لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقي، على أن الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية،

والمقصود: إنها مكرمة ليست مذللة بالحراثة، ولا معدة للسقي في السانية.

١٥. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، سلمها الله من العيوب، أو معفاة من العلم، سلمها أهلها منه، أو مخلصة اللون لم يشب صفرتها شيء من الألوان. من: سلم له كذا، إذا خلص له.

١٦. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، أي لا لون فيها يخالف لون جلدها من بياض وسواد وحمرة، فهي صفراء كلها، وهي في الأصل مصدر: وشاه وشيا وشية، إذا خلط بلونه لونا آخر. في الصحاح: الشية: كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره، والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله، والجمع: شيات. يقال: ثور أشيه، كما يقال: فرس أبلق.

١٧. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها، ولم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلا، بخلاف المرتين الأوليين، فإن ما جئت به فيهما لم يكن في التعيين بهذه المرتبة.

١٨. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾، الفاء فصيحة، كما في ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾، أي فحصلوا البقرة فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ كاد من أفعال المقاربة، وضع لدنوّ الخبر من الحصول، والجملة حال من ضمير ذبحوا، أي فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه. اعتراض تذييليّ، ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم، وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهي خيط إسهابهم فيها.

١٩. استبعد بعض الناس ذلك وما حكاه الله منه، وأنكر حصول ذلك الفعل على الحقيقة وقال: ذلك ممتنع من حيث الطبيعة، وأيضا فإن ذلك لا يعرف فيه حكمة إلهية[1]:

أ. فأما استبعاده ذلك من حيث الطبيعة فإنما هو استبعاد للإحياء والنشور، ولذلك موضع لا يختص بالتفسير، ومن كان ذلك طريقته فلا خوض معه في تفسير القرآن.

ب. أما الحكمة فيه فظاهرة، إذ هو من المعجزات المحسوسة الباهرة للعقول.

٢٠. أما تخصيص البقرة، فإن كثيرا من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه، ولو لم يكن في تخصيص بقرة على وصف مخصوص إلّا توافر المأمورين بذلك على طلبها، واستيجاب الثواب في بذل ثمنها، وجلب نفع توفر إلى صاحبها ـ لكان في ذلك حكمة عظيمة.

٢١. في الآية تنبيه على أن الجماعة التي حكمهم واحد يجوز أن ينسب الفعل إليهم، وإن كان واقعا

(١) نسب السؤال والجواب للراغب، تفسير القاسمي: ١/٣٣٠.

من بعضهم، ولا يكون ذلك كذبا، كأن الجملة المركبة من شخص واحد يصح أن ينسب إليها ما وقع من عضو منها.

٢٢. ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئا منها لأنه لم يرو بسند صحيح إلى النبيّ ﷺ، ولا يتعلق به كبير فائدة، كما أن البعض من البقرة لم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيان،. فنحن نبهمه كما أبهمه الله تعالى، إذ ليس في تعيينه لنا فائدة دينية ولا دنيوية، وإن كان معيّنا في نفس الأمر، وأيّا كان فالمعجزة حاصلة به.

٢٣. سؤال وإشكال: ما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها؟ فيقال: وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها) والجواب[1]: أن كل ما قص من قصص بني إسرائيل، إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعا لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين:

أ. فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

ب. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعه من الآية العظيمة.

٢٤. إنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة، بعد ما استؤنفت الثانية، استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: اضربوه ببعضها، حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.. وقال الحراليّ: قدم نبأ قول موسى عليه السّلام على ذكر ندائهم في القتيل، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة.

رضا:

---

(١) نسبه للزمخشري، تفسير القاسمي: ١/٣٢٩.

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بنى اسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها، ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال، مما يقتضى التشديد في الاحكام، فمن شدد شدّد عليه، ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، وفى الحديث الصحيح (ويكره لكن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال)، وقد امتثل سلفنا الأمر فلم يشددوا على أنفسهم فكان الدين عندهم فطريا ساذجا وحنيفيا سمحا، ولكن من خلفنا من عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاما استنبطها باجتهاده، وأكثروا منها حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته وملت، وألقته وتخلت.

٢. جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا، ويهز النفس للاعتبار هزا.

٣. راعى الله تعالى في قصص بنى اسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم، وينقلبون إلى كفرهم.

٤. ذكر الله تعالى في الآيات السابقة النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالتوبة فالرحمة كالتفضيل على العالمين؛ وأخذ الميثاق، والانجاء من آل فرعون، وما كان في أثر ذلك، وفى هذه القصة اختلف النسق فذكر المخالفة بعد في قوله ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ ثم المنة في الخلاص منها في قوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهى ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها، حيث لم يسبق في الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة، فالمفاجأة بحكاية ما كان

---

(١) تفسير المنار: ٣٤٦/١.

من ذلك الأمر والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في الأنفس إلى معرفة السبب فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه، إذ الحكمة في أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة خفيّة وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها، لا سيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب، وقد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر.

٥. ذكر بعض أهل الشبهات في القرآن الكريم أن بنى إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول: إن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين: إنهم نسوا حظا مما ذكروا به، وأنهم لم يؤتوا إلا نصيبا من الكتاب، على أن هذا الحكم منصوص في التوراة، وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله، فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم. اغفر لشعبك إسرائيل، ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه، وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن، ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى.

٦. يجب الاحتراس في قصص بنى إسرائيل وغيرهم من الأنبياء وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الأزمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحري والبحث واستخراج الآثار فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يوثق بها لحسن قصدهم، ولكننا لا نعول على ذلك بل ننهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته.

٧. حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة ورد في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه: إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا في الحقل لا يعلم من قتله يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادى ثم يتقدم الكهنة بنى لاوي لأنه إياهم اختار الأب

إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادى ويصرخون ويقولون: أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم الدم)

٨. علم من هذا أن الأمر بذبح البقرة كان لفصل النزاع في واقعة قتل، ويروون في قصته روايات منها أن القاتل كان أخ المقتول قتله لأجل الارث وأنه اتهم أهل الحى بالدم وطالبهم به، ومنها أنه كان ابن أخيه، وغير ذلك مما لا حاجة إليه، وكانوا طلبوا من موسى الفصل في المسألة وبيان القاتل ولما أمرهم بذبح البقرة استغربوه لما فيه من المباينة لما يطلبون، والبعد بينه وبين ما يريدون، فذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي سخرية يهزأ بنا، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمته بادى الرأي ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك، ولما كان في جوابهم هذا رمى لموسى ﷺ بالسفه والجهالة ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجيء إلى الله وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس.

٩. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما الصفات المميزة لها؟ وهذا السؤال بما هي ليس جاريا هنا على اصطلاح علماء المنطق من جعله سؤالا عن حقيقة الماهية، وإنما هو على حسب أسلوب اللغة، والعرب يسألون بها عن الصفات التي تميز الشيء في الجملة كالذي ذكره في الجواب.

١٠. ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ أي غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ لم تلد بالمرة والمراد بها التي لم تلد كثيرا ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ العوان النصف في السن من النساء والبهائم أي هي بين ما ذكر من السنين الفارض والبكر.

١١. المشار إليه بكلمة ذلك متعدد في المعنى، وإن كان لفظه منفردا، و(بين) من الكلم التي تختص بالمتعدد تقول جلست بينهم أو بينهما ولا تقول جلست بينه واستعمال الإشارة والضمير المفردين فيما هو بمعنى الجمع على تقدير التعبير عنه بالمذكور أو (ما ذكر) كثير في كلامهم ومنه قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه في الجسم توليع البهق

١٢. ذكر هذا الوصف المميز للبقرة في الجملة وقال ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ وكان يجب عليهم الاكتفاء به والمبادرة بعده للامتثال، ولكنهم أبو إلا تنطعا واستقصاء في السؤال.

١٣. ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ سائمة ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي غير مذللة بالعمل في الحراثة ولا في السقى ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة، والشية مصدر كالعدة من وشى الثوب يشيه إذا جعل فيه خطوطا من غير لونه بنحو تطريز.

١٤. لما استوفى جميع المميزات والمشخصات ولم يروا سبيلا إلى سؤال آخر ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم، روى ابن جرير في التفسير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفا (لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم) وأخرجه سعيد بن منصور في سننه عن عكرمة مرفوعا مرسلا.

١٥. ههنا يذكر المفسرون قصة في حكمة هذا التشديد وهو المصير إلى بقرة معينة لشخص معين كان بارا بوالدته وقد يكون هذا صحيحا غير أنه لا داعى إليه في التفسير وبيان المعنى، وقد يشتبه بعض الناس فيما ذكر بأن أحكام الله تعالى لا تكون تابعة لأفعال الناس العارضة، ويرد هذه الشبهة أن التكليف كثيرا ما يكون عقوبة لأنه تربية للناس.

١٦. وردت الأسئلة والأجوبة في هذه القصة مفصولة غير موصولة بالفاء، وذلك ما يقتضيه الأسلوب البليغ، فقد تقرر في البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال كان ما يأتي بعده مما يصح أن يكون جوابا للسؤال المقدر مفصولا عما قبله، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ يشعر بسؤال كأنه قيل ماذا كان منهم بعد الأمر فأجيب عنه بقوله: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، وهذا يشعر بسؤال أيضا كأنه قيل: ماذا قال موسى إذ قالوا ذلك فأجاب: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ﴾ وهكذا ورد غيرها من المراجعات في التنزيل كما ترى في قصة موسى وفرعون.

١٧. هذا هو أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا إليه وهى القتل ثم التنازع في القاتل ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وما كان من إلحاحهم في السؤال على ما سبق.

١٨. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أسند فيه القتل إلى الأمة، وإن كان القاتل واحدا باعتبار كونها في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد.

١٩. التدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع فمعناه التدافع وهو يدل على أنه كان خصام واتهام، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة، ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة: ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من الإيقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل لأنه لا يخفى عليه مكركم.

٢٠. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ بيان لإخراج ما يكتمون، ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة. قيل إن المراد اضربوا المقتول بلسانها.. وقيل: بفخذها.. وقيل: بذنبها.. وقالوا إنهم ضربوه فعادت إليه الحياة، وقال: قتلني أخي أو ابن أخي فلان الخ ما قالوه؛ والآية ليست نصا في مجمله فكيف بتفصيله.

٢١. الظاهر أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة بريء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية، ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين.

٢٢. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ بما يفصل بها في الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾، وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رسله.

٢٣. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة، فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت، بل يجب أن تتلقوا أمر الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في هذا القصص بيان نوع آخر من مساويهم لنعتبر به ونتعظ، وفيه من وجوه العبرة: أن التنطع في الدين والإلحاف في السؤال مما يقضى التشديد في الأحكام، ومن ثم نهينا عن ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وبها جاء في صحيح الحديث من قوله ﷺ: (وكره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال)

٢. أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ليهون عندهم ما كانوا يرون من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من حبّ عبادته.

٣. أول القصة معنى قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ إذ هي المخالفة التي صدرت منهم؛ ثم ذكر المنة في الخلاص منها في قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها وهى ذبح البقرة، وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب في ذبح البقرة والمفاجأة بحكاية ما كان من الجدل بين موسى وقومه، فإن الحكمة في أمر الله أمة بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين في تنسيق الكلام بحسب الوقائع، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذي يستثير اللبّ، ويأخذ بمجامع القلب، ويستوحى شغف السامع بما يدور حوله الحديث.

٤. ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي قالوا: أتجعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا؟ نسألك عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة؛ وهذا غاية في الغرابة، وبعيد كل البعد عما نريد، وقد كان الواجب عليهم أن يتمثلوا أمره ويقابلوه بالتجلة والاحترام، ثم ينظروا ما يحدث بعد، فهذا القول منهم دليل على السفه وخفّة الأحلام، وجفاء الطبع والجهل بقدرة الله تعالى.

٥. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجئ إلى الله من الهزؤ والسخرية بالناس، إذ هو في مقام تبليغ أحكام الله دليل السفه والجهل.

٦. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها، وقد سألوا عن صفتها لما قرع أسماعهم بما لم يعهدوه، فإن بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا موضع العجب

---

(١) تفسير المراغي: ١/١٤٢.

والغرابة والحيرة والدهشة، ومن ثم أكثروا من الأسئلة فأجيبوا بأجوبة فيها تغليظ عليهم.

٧. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، بل هي وسط بينهما.

٨. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي فامتثلوا الأمر ولا تتوانوا في نفاذه، ولا يخفى ما في هذا من التحذير والتنبيه على ترك التعنت، وكان يجب عليهم الاكتفاء به والمبادرة إلى الامتثال، لكنهم أبوا إلا تنطّعا واستقصاء فأعادوا الطلب.

٩. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ هذا سؤال لطلب إيضاح زيادة على ما تقدم ككونها عاملة أو سائمة، وإظهار، لأنه لم يحصل لهم تمام البيان.

١٠. ثم ذكروا السبب في إعادة السؤال، ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي لأن وجوه البقر تتشابه، وفي الحديث إنه ذكر فتنا كقطع الليل تأتي كوجوه البقر ـ أي يشبه بعضها بعضا.

١١. ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المأمور بذبحها، أو لما خفى من أمر القاتل، أو إلى الحكمة التي من أجلها أمرنا، وقد روى أنه ﷺ قال: لو لم يستثنوا ويقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم آخر الأبد)

١٢. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي إنها بقرة لم تذلّل بالعمل في الحراثة والسقي، وهى سالمة من العيوب، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة.

١٣. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي إنك الآن أظهرت حقيقة ما أمرنا به بعد ذكر هذه المميزات التي ذكرتها لنا.

١٤. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي فطلبوا البقرة الحاوية لكل الأوصاف السالفة، حتى وجدوها فذبحوها.

١٥. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم.. أي أنهم ذبحوها بعد توقف وبطء، روى ابن جرير عن ابن عباس: لو ذبحوا أيّ بقرة أرادوا لأجزأتهم، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم).

١٦. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا مؤخر لفظا مقدم معنى، لأنه أول القصة ـ أي وإذ قتلتم نفسا وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى، فقال موسى إن الله يأمركم إلى آخر الآيات ولم يقدم لفظا، لأن الغرض

إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل.

١٧. أسند القتل إلى اليهود المعاصرين للنبي ﷺ لأنهم سلائل أولئك، وهم راضون بفعلهم، كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد، لأن الأمة في مجموعها كالشخص الواحد، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد كما قال أبو الطيب:

وجرم جرّه سفهاء قوم   فحلّ بغير جارمه العقاب

١٨. ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي تدافعتم وتخاصمتم في شأنها، وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدّعى البراءة ويتهم سواه.

١٩. ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي والله مظهر لا محالة ما كتمتم وسترتم من أمر القتل، فمن كان يعرف أمره يكتمه لهوى في نفسه وأغراض تبعد عنه الضغن والعداوة.

٢٠. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا المقتول ببعض البقرة، أيّ بعض كان.. وقيل: بلسانها.. وقيل: بفخذها.. وإنما أمرهم بالضرب ولم يضرب بنفسه نفيا للتهمة، كيلا ينسب إلى السحر والشعوذة.

٢١. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ أي فضربوه فحيا، وقلنا: كذلك يحيى الله الموتى، أي مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة، وقد روى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دما، وقال قتلني فلان وفلان وهما ابنا عمه، ثم سقط ميتا فأخذا وقتلا.

٢٢. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ وهى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضو ميت، وإخبار الميت بقاتله، مما ترتب عليه الفصل في الخصومة وإزالة أسباب الفتن والعداوة.

٢٣. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها، وتطيعون الله فيما يأمركم به.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٧٨.

١. في نهاية هذا الدرس تجيء قصة (البقرة).. تجيء مفصلة وفي صورة حكاية، لا مجرد إشارة كالذي سبق، ذلك أنها لم ترد من قبل في السور المكية، كما أنها لم ترد في موضع آخر؛ وهي ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ في الاستجابة، وتمحل المعاذير، التي تتسم بها إسرائيل.

٢. وفي هذه القصة القصيرة ـ كما يعرضها السياق القرآني ـ مجال للنظر في جوانب شتى.. جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة، وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة.. ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءا ونهاية واتساقا مع السياق.

٣. إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل.. ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان!

٤. لقد قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ .. وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ. فنبيهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنما هو أمر الله، الذي يسير بهم على هداه.. فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاما لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله ـ فضلا على أن يكون رسول الله ـ أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾

٥. كان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله؛ وأن يردهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جل علاه؛ وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

٦. كان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، وينفذوا أمر نبيهم.. ولكنها إسرائيل.. لقد كان في وسعهم ـ وهم في سعة من الأمر ـ أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، منفذون لإشارة رسوله، ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم، فإذا هم يسألون: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

٧. السؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم!

فهم:

أ. أولا: يقولون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ .. فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه!

ب. وهم ثانيا: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: ﴿مَا هِيَ﴾ والسؤال عن الماهية في هذا المقام ـ وإن كان المقصود الصفة ـ إنكار واستهزاء.. ما هي؟ إنها بقرة، وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة. بقرة وكفى!

٨. هنا كذلك يردهم موسى إلى الجادة، بأن يسلك في الإجابة طريقا غير طريق السؤال، إنه لا يجبههم بانحرافهم في صيغة السؤال كيلا يدخل معهم في جدل شكلي.. إنما يجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المربي من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين.

٩. يجيبهم عن صفة البقرة: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ .. إنها بقرة لا هي عجوز ولا هي شابة، وسط بين هذا وذاك.

١٠. ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ .. ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية؛ وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي. أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة، متوسطة السن، فيخلصوا بها ذمتهم، وينفذوا بذبحها أمر ربهم، ويعفو أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق.. ولكن إسرائيل هي إسرائيل.

١١. لقد راحوا يسألون: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ .. هكذا مرة أخرى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾! ولم يكن بد ـ وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل ـ أن يأتيهم الجواب بالتفصيل: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ .

١٢. وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ـ وكانوا من الأمر في سعة ـ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة.. مجرد بقرة.. بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها.

١٣. وهي بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ .. وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة؛ فهذا هو الشائع في طباع الناس: أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا.

١٤. لقد كان فيما تلكئوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم، يعقدون الأمور، ويشددون على أنفسهم، فيشدد الله عليهم. لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

١٥. ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ .. وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة. فهم يقولون: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

١٦. ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيدا، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرا وضيقا، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في سعة منها وفي غنى عنها: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾

١٧. وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر. صفراء فاقع لونها فارهة فحسب، بل لم يعد بد أن تكون ـ مع هذا ـ بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي الزرع؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة.

١٨. هنا فقط.. وبعد أن تعقد الأمر، وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ .. الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقا. أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة! ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾!

١٩. عندئذ ـ وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف ـ كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

٢٠. هنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة. جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة، وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة.

٢١. لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة.. لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد؛ فأراد الله أن يظهر الحق على

لسان القتيل ذاته؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح.. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله؛ وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين.

٢٢. لكن. فيم كانت هذه الوسيلة، والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة؟ ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث؟ إن البقر يذبح قربانا كما كانت عادة بني إسرائيل.. وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل.. وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء.. إنما هي مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله، التي لا يعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها في العمل و: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ .. كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعا ولا تدرون كيف وقع؛ وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر.

٢٣. إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس، ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير.. كيف؟.. هذا ما لا أحد يدريه، وما لا يمكن لأحد إدراكه.. إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه في عالم الفانين! وإن يكن في طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ بها: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

٢٤. هذه قصة قصيرة نبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه، نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم.

٢٥. ثم تتابع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه، فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسى وربه؛ على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله، ثم يعود إليهم بالجواب.. ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه ولا إن ربه أجابه.. إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل! ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة ـ كما بوغت بها بنو إسرائيل ـ انتفاض الميت مبعوثا ناطقا، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة! ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا موقف آخر من مواقف العنت والعناد، من هؤلاء القوم مع الله، ومع آيات الله، حيث لا تزيدهم الآيات إلا كفرا، ولا يزيدهم النور إلا عمى.. لقد قتل في القوم قتيل فادّارؤوا فيه: أي اختلفوا في التعرف على قاتله، إذ رمى بعضهم بعضا به، ودفع بعضهم بعضا إلى موقف الاتهام فيه، ولجأ القوم إلى موسى يسألونه آية تنطق القتيل باسم قاتله، وهم يريدون بهذا أولا وقبل كل شيء، امتحانا لموسى، واستيقانا من دعواه أنه رسول الله، وكليم الله!.. وتجيء آية الله من وراء ما يقدّر القوم، فتدور لها رؤوسهم، وتضطرب لها عقولهم.

٢. يقول لهم موسى ما أمره الله به: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾! ويذهل القوم ويدهشون! ما للقتيل والتعرف على قاتله وهذه البقرة التي يؤمرون بذبحها؟ المسافة كما تبدو في ظاهر الأمر.. بعيدة جدا، بين السؤال وجوابه، وبين المطلوب والأسباب الموصلة إليه! ثم إنهم طلبوا آية، فهل في أن تذبح بقرة من البقر آية؟

٣. يرى القوم كأن موسى يعبث بهم، فيقولون له: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟ فيجيبهم: ﴿أَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إن العبث لا يكون إلا عن جهل، ولا يقع إلا من جهّال، وهو نبيّ معصوم، توجهه السماء، فلا يضل ولا يهزل!

٤. لا يجد القوم في هذا مقنعا، ويذهب بهم جهلهم وحمقهم إلى أن البقرة المطلوبة ليست مجرد بقرة، وإنما هي على أوصاف نادرة لا تتحقق إلا فيها، حتى يمكن أن تتخلّق منها الآية التي طلبوها.. هكذا فكروا وقدّروا.

٥. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ لقد جمعوا بين الجهل والسفاهة، فأبوا أن يقولوا (ادع لنا ربنا) وقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وكأنه ربّ موسى وليس ربا لهم! ومع هذا فقد أجابهم الله إلى ما طلبوا: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي هي من أواسط البقر في سنها، ليست كبيرة ولا صغيرة.. والفارض هي التي ولدت مرات كثيرة، والبكر، التي لم تلد بعد.. فهي وسط بين هذين

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١/٩٦.

الطرفين.

٦. وفى قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تنبيه لهم.. إن كانوا يعقلون.. أن ينتهوا عند هذا، وألا يطلبوا وراء هذه الصفات صفات أخرى.

٧. ولكن يأبى القوم إلا أن يلبسوا بقرتهم أثوابا لا ترى على كثير من البقر.. فعادوا إلى موسى يسألونه: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ وفى كل مرة يقولون (ربّك) ولا يقولون (ربّنا) ويجيبهم الرحمن الرحيم إلى ما طلبوا: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

٨. لم يدعهم في هذه المرة إلى أن يفعلوا ما يؤمرون، بل تركهم وما تختار لهم أنفسهم من ركوب هذا المركب الخشن، حتى تحفى أقدامهم وتنهدّ قواهم!

٩. ويعودون إلى موسى مرة أخرى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾! والبقر هو البقر.. يشبه بعضه بعضا، ولكنهم يريدونها بقرة لا شبيه لها.. بقرة خلقها الخالق لهذا المطلب، ولم يخلق مثلها..!

١٠. ويجيئهم أمر الله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي إنها بقرة لم يذللها العمل، بل هي بقرة بريّة مرسلة، لم تستخدم في حرث الأرض، ولا في سقى ما يحرث من الأرض، ثم هي بريئة من كل عيب يدخل عليها في أعضائها، أو في لونها: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾

١١. وهنا يجد القوم أن بقرتهم قد لبست أوصافا لا تكاد تقع إلا في القليل النادر، فيجدّون في البحث عنها، وهم سعداء بهذا الجري اللاهث وراءها.

١٢. ويلقون إلى موسى بتلك الفرحة التي ملأت صدورهم، قبل أن يعثروا عليها ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾! الآن فقط! كأنه إنما كان في كل ما جاءهم به من قبل عن هذه البقرة وغيرها، ليس مما هو حق، بل باطل وعبث!

١٣. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي أنهم لم يكادوا يجدون بقرة على تلك الصفة، أو أنهم حين وجدوها صغرت في أعينهم، فكادوا ينصرفون عنها، ويطلبون أوصافا أخرى لبقرة غيرها! فانظر كيف يستبدّ بهم اللجاج والعناد، وكيف يوردهم لجاجهم وعنادهم موارد التّيه والضلال، ولو أنهم امتثلوا ما أمروا به من أول الأمر، وعمدوا إلى أية بقرة من البقر لكانوا قد أدوا ما أمروا به، وكفوا أنفسهم مئونة هذا

العناء.

١٤. الملاحظ في هذه القصة ـ قصة البقرة ـ أن النظم القرآني لها، قد قلب أحداثها، فقدّم ما حقه التأخير، وأخر ما من شأنه أن يقدم.. إذ أمر القوم بذبح البقرة بعد أن وقع حادث القتل، وبعد أن تراموا بالتهم فيه، ولكن ـ وكما يبدو من سياق النظم ـ أمروا بذبح البقرة أمرا يبدو كأنه لا لغاية يقصد لها، ثم أخذوا في اللجاج والتخبط إلى أن عثروا على البقرة التي استكثروا من أوصافها، وذبحوها.. وهنا، ولأول مرة ـ تتضح الصلة بين ذبح البقرة وهذا القتيل الذي يؤمرون بضربه ببعضها! وهذا لون من ألوان النكال بالقوم، عقابا لعنادهم وكفرهم بآيات الله، إذ يرمون بهذا التيه، حتى وهم في آية من آيات الله، لأنهم سيمكرون بها كما مكروا بغيرها مما سبقها، أو مما سيلحق بها، وهذا ما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه، بعد تلك القصة مباشرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ إنها قلوب لا تلتقى مع الخير أبدا، ولا تنتفع به إذا هو طاف بها وطرق بابها!

١٥. وإذ يذبحون البقرة يفتحون أعينهم وأفواههم إلى موسى قائلين له: ماذا بعد ذلك؟ ويجيئهم الجواب: ﴿فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتى ويُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٦. ويضرب الميت ببعض لحم البقرة، فتعود إليه الحياة، وينطق باسم قاتله، ثم يعود إلى عالم الموتى، إلى يوم يبعثون! بقدرة الله قام هذا الميت، وليس للبقرة ولا لذبحها وضربه ببعض لحمها علاقة بهذه الحياة التي عادت إليه، فقدرة الله فوق الأسباب جميعها، ولكن مطلوب من الناس أن يعملوا، وأن يتحركوا إلى الغايات التي ينشدونها، وأن يعلموا أن الأسباب الظاهرة التي يتخذونها طريقا إلى المسببات، ليست هي العاملة في النتائج التي يحصلون عليها، فقد يقدّر المرء أسبابا يراها منتجة لثمرة بعينها، فيقع الأمر على خلاف ما قدر.. فالتلازم بين الأسباب والمسببات مرهون بإرادة الله، وبقدرة الله.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. تعرضت هذه الآيات الكريمة لقصة من قصص بني إسرائيل ظهر فيها من قلة التوقير لنبيهم ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها إما للتفصي من الامتثال وإما لبعد أفهامهم عن مقصد الشارع

(١) التحرير والتنوير: ١/٥٢٩.

ورومهم التوقيف على ما لا قصد إليه.

٢. قيل: إن أول هذه القصة هو المذكور بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] الآية وإن قول موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ناشئ عن قتل النفس المذكورة، وإن قول موسى قدم هنا لأن خطاب موسى عليه السلام لهم قد نشأ عنه ضرب من مذامهم في تلقي التشريع وهو الاستخفاف بالأمر حين ظنوه هزؤا والإعنات في المسألة فأريد من تقديم جزء القصة تعدد تقريعهم، هكذا ذكر صاحب (الكشاف) والموجهون لكلامه، ولا يخفى أن ما وجهوا به تقديم جزء القصة لا يقتضي إلا تفكيك القصة إلى قصتين تعنون كل واحدة منهما بقوله: ﴿وَإِذْ﴾ مع بقاء الترتيب، على أن المذام قد تعرف بحكايتها والتنبيه عليها بنحو قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

٣. الصحيح أنهما قصتان أشارت الأولى وهي المحكية هنا إلى أمر موسى إياهم بذبح بقرة، وهذه هي القصة التي أشارت إليها التوراة في السفر الرابع وهو سفر التشريع الثاني (تثنية) في الإصحاح ٢١ أنه (إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله فإن أقرب القرى إلى موقع القتيل يخرج شيوخها ويخرجون عجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تنجر بالنير فيأتون بها إلى واد دائم السيلان لم يحرث ولم يزرع ويقطعون عنقها هنا لك ويتقدم الكهنة من بني لاوي فيغسل شيوخ تلك القرية أيديهم على العجلة في الوادي ويقولون لم تسفك أيدينا هذا الدم ولم تبصر أعيننا سافكه فيغفر لهم الدم)، وهكذا ذكرت القصة بإجمال أضاع المقصود، وأبهم الغرض من هذا الذبح أهو إضاعة ذلك الدم باطلا أم هو عند تعذر معرفة المتهم بالقتل؟ وكيفما كان فهذه بقرة مشروعة عند كل قتل نفس جهل قاتلها وهي المشار إليها هنا، ثم كان ما حدث من قتل القتيل الذي قتله أبناء عمه وجاؤوا مظهرين المطالبة بدمه وكانت تلك النازلة نزلت في يوم ذبح البقرة فأمرهم الله بأن يضربوا القتيل ببعض تلك البقرة التي شأنها أن تذبح عند جهل قاتل نفس، وبذلك يظهر وجه ذكرهما قصتين.

٤. أجمل القرآن ذكر القصتين لأن موضع التذكير والعبرة منهما هو ما حدث في خلالهما لا تفصيل الوقائع:

أ. فكانت القصة الأولى تشريعا سيق ذكره لما قارنه من تلقيهم الأمر بكثرة السؤال الدال على

ضعف الفهم للشريعة، وعلى تطلب أشياء لا ينبغي أن يظن اهتمام التشريع بها.

ب. وكانت القصة الثانية منة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسولهم بينها الله لهم ليزدادوا إيمانا ولذلك ختمت بقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] وأتبعت بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]

٥. التأكيد في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حكاية لما عبر به موسى من الاهتمام بهذا الخبر الذي لو وقع في العربية لوقع مؤكدا بإنّ.

٦. قولهم: ﴿تَتَّخِذُنا هُزُواً﴾ استفهام حقيقي لظنهم أن الأمر بذبح بقرة للاستبراء من دم قتيل كاللعب و﴿تَتَّخِذُنا﴾ بمعنى تجعلنا.

٧. قول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ تبرؤ وتنزه عن الهزء لأنه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فإنه أخص من المزح لأن في الهزؤ مزحا مع استخفاف واحتقار للمزوح معه على أن المزح لا يليق في المجامع العامة والخطابة، على أنه لا يليق بمقام الرسول، ولذا تبرأ منه موسى بأنه نفى أن يكون من الجاهلين كناية عن نفي المزح بنفي ملزومه، وبالغ في التنزه بقوله ﴿أَعُوذُ بِاللهِ﴾ أي منه لأن العياذ بالله أبلغ كلمات النفي، فإن المرء لا يعوذ بالله إلا إذا أراد التغلب على أمر عظيم لا يغلبه إلا الله تعالى.

٨. صيغة ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أبلغ في انتفاء الجهالة من أن لو قال أعوذ بالله أن أجهل.. والجهل ضد العلم وضد الحلم وقد ورد لهما في كلام العرب، فمن الأول قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن الثاني قول الحماسي: فليس سواء عالم وجهول.. وقول النابغة: وليس جاهل شيء مثل من علما.

٩. جيء في مراجعتهم لنبيهم بالطريقة المألوفة في حكاية المحاورات، وهي طريقة حذف العاطف بين أفعال القول، مثلما وردت في قصة خلق آدم.

١٠. يحتمل معنى ﴿ادْعُ لَنَا﴾ ما يلي:

أ. أن يراد منه الدعاء الذي هو طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب، فيكون في الكلام رغبتهم في حصول البيان لتحصيل المنفعة المرجوة من ذبح بقرة مستوفية للصفات المطلوبة في القرابين

المختلفة المقاصد، بنوه على ما ألفوه من الأمم عبدة الأوثان من اشتراط صفات وشروط في القرابين المقربة تختلف باختلاف المقصود من الذبيحة.

ب. أنهم أرادوا مطلق السؤال، فعبروا عنه بالدعاء لأنه طلب من الأدنى إلى الأعلى.

ج. أنهم أرادوا من الدعاء النداء الجهير بناء على وهمهم أن الله بعيد المكان، فسائله يجهر بصوته، وقد نهي المسلمون عن الجهر بالدعاء في صدر الإسلام.

١١. اللام في قوله ﴿لَنَا﴾ لام الأجل، أي ادع عنا، وجزم ﴿يُبِينُ﴾ في جواب ﴿ادْعُ﴾ لتنزيل المسبب منزلة السبب، أي إن تدعه يسمع فيبين وقد تقدم.

١٢. ﴿مَا هِيَ﴾ حكى سؤالهم بما يدل عليه بالسؤال بـ (ما) في كلام العرب، وهو السؤال عن الصفة لأن (ما) يسأل بها عن الصفة، كما يقول من يسمع الناس يذكرون حاتما أو الأحنف، وقد علم أنهما رجلان، ولم يعلم صفتيهما ما حاتم؟ أو ما الأحنف؟ فيقال: كريم أو حليم، وليس (ما) موضوعة للسؤال عن الجنس كما توهمه بعض الواقفين على كلام (الكشاف) فتكلفوا لتوجيهه، حيث إن جنس البقرة معلوم بأنهم نزلوا هاته البقرة المأمور بذبحها منزلة فرد من جنس غير معلوم لغرابة حكمة الأمر بذبحها، وظنوا أن الموقع هنا للسؤال بـ (أي) أو (كيف) وهو وهم نبه عليه التفتازانيّ في (شرح الكشاف)، واعتضد له بكلام (المفتاح) إذ جعل الجنس والصفة قسمين للسؤال بها.

١٣. الحق أن المقام هنا للسؤال بها، لأن أيّا إنما يسأل بها عن مميز الشيء عن أفراد من نوعه التبست به، وعلامة ذلك ذكر المضاف إليه مع أي نحو: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ﴾ [مريم: ٧٣]، وأي البقرتين أعجبتك وليس لنا هنا بقرات معينات يراد تمييز إحداها.

١٤. قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ أكد مقول موسى ومقول الله تعالى بأنّ:

أ. لمحاكاة ما اشتمل عليه كلام موسى من الاهتمام بحكاية قول الله تعالى فأكده بإن، وما اشتمل عليه مدلول كلام الله تعالى لموسى من تحقيق إرادته ذلك تنزيلا لهم منزلة المنكرين لما بدا من تعنتهم وتنصلهم.

ب. ويجوز أن يكون التأكيد الذي في كلام موسى لتنزيلهم منزلة أن يكون الله قال لموسى ذلك جريا على اتهامهم السابق في قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] جوابا عن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ .

١٥. وقع قوله: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ موقع الصفة لبقرة، وأقحم فيه حرف (لا):

أ. لكون الصفة بنفي وصف، ثم بنفي آخر على معنى إثبات وصف واسطة بين الوصفين المنفيين، فلما جيء بحرف (لا) أجري الإعراب على ما بعده لأن (لا) غير عاملة شيئا، فيعتبر ما قبل لا على عمله فيما بعدها سواء كان وصفا كما هنا وقوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] وقول جويرية أو حويرثة بن بدر الرامي:

وقد أدركتني والحوادث جمة ... أسنة قوم لا ضعاف ولا عزل

ب. أو حالا كقول الشاعر، وهو من شواهد النحو:

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة ... ولكن بأنواع الخدائع والمكر

ج. أو مضافا كقول النابغة:

وشيمة لاوان لا واهن القوى ... وجدّ إذا خاب المفيدون صاعد

د. أو خبر مبتدأ كما وقع في حديث أم زرع قول الأولى: لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل) على رواية الرفع ـ أي هو أي الزوج ـ لا سهل ولا سمين.

١٦. جمهور النحاة أن لا هذه يجب تكريرها في الخبر والنعت والحال أي بأن يكون الخبر ونحوه شيئين فأكثر فإن لم يكن كذلك لم يجز إدخال (لا) في الخبر ونحوه وجعلوا بيت جويرية أو حويرثة ضرورة وخالف فيه المبرد، وليست (لا) في مثل هذا بعاملة عمل ليس ولا عمل إن، وذكر النحاة لهذا الاستعمال في أحد هذين البابين لمجرد المناسبة.

١٧. نفي وصفين بحرف (لا) قد يستعمل:

أ. في إفادة إثبات وصف ثالث هو وسط بين حالي ذينك الوصفين مثل ما في هذه الآية بدليل قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]

ب. في إرادة مجرد نفي ذينك الوصفين لأنهما مما يطلب في الغرض الواردين فيه، ولا يقصد إثبات وصف آخر وسط بينهما، وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢ ـ ٤٤].

١٨. الفارض: المسنة لأنها فرضت سنها أي قطعتها، والفرض القطع ويقال للقديم فارض،

والبكر: الفتية مشتقة من البكرة بالضم وهي أول النهار لأن البكر في أول السنوات عمرها، والعوان: هي المتوسطة السن.

١٩. إنما اختيرت لهم العوان لأنها أنفس وأقوى، ولذلك جعلت العوان مثلا للشدة في قول النابغة:

ومن يتربّص الحدثان تنزل   بمولاه عوان غير بكر

أي مصيبة عوان أي عظيمة، ووصفوا الحرب الشديدة فقالوا: حرب عوان.

٢٠. ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾: أي بين هذين السنين، فالإشارة للمذكور المتعدد، ولهذا صحت إضافة بين لاسم الإشارة كما تضاف للضمير الدال على متعدد وإن كان كلمة واحدة في نحو بينها، وإفراد اسم الإشارة على التأويل بالمذكور كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]

٢١. جاء في جوابهم بهذا الإطناب دون أن يقول من أول الجواب إنها عوان تعريضا بغباوتهم واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالا لإعادة السؤال.

٢٢. سؤال وإشكال: هم سألوا عن صفة غير معينة فمن أين علم موسى أنهم سألوا عن السن؟ ومن أين علم من سؤالهم الآتي ب ﴿مَا هِيَ﴾ أيضا أنهم سألوا عن تدربها على الخدمة؟ والجواب: يحتمل وجهين:

أ. أن يكون ﴿مَا هِيَ﴾ اختصارا لسؤالهم المشتمل على البيان، وهذا الاختصار من إبداع القرآن اكتفاء بما يدل عليه الجواب.

ب. أن يكون ما حكى في القرآن مرادف سؤالهم، فيكون جواب موسى عليه السلام بذلك لعلمه بأن أول ما تتعلق به أغراض الناس في معرفة أحوال الدواب هو السن، فهو أهم صفات الدابة، ولما سألوه عن اللون، ثم سألوا السؤال الثاني المبهم علم أنه لم يبق من الصفات التي تختلف فيها مقاصد الناس من الدواب غير حالة الكرامة، أي عدم الخدمة لأن ذلك أمر ضعيف، إذ قد تخدم الدابة النفيسة ثم يكرمها من يكتسبها بعد ذلك فتزول آثار الخدمة وشعثها.

٢٣. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ الفاء للفصيحة، وموقعها هنا موقع قطع العذر مع الحث على الامتثال كما هي في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أي فقد حصل ما تعللتم به من طول السفر، والمعنى فبادروا إلى ما أمرتم به وهو ذبح البقرة، و(ما) موصولة والعائد محذوف بعد حذف جاره على طريقة التوسع لأنهم يقولون أمرتك الخير، فتوسلوا بحذف الجار إلى حذف الضمير.

٢٤. في حث موسى عليه السلام إياهم على المبادرة بذبح البقرة بعد ما كلفوا به من اختيارها عوانا دليل على أنهم مأمورون بذبح بقرة ما غير مراد منها صفة مقيدة لأنه لما أمرهم بالمبادرة بالذبح حينئذ علمنا وعلموا أن ما كلفوا به بعد ذلك من طلب أن تكون صفراء فاقعة وأن تكون سالمة من آثار الخدمة ليس مما أراده الله تعالى عند تكليفهم أول الأمر وهو الحق، إذ كيف تكون تلك الأوصاف مرادة مع أنها أوصاف طردية لا أثر لها في حكمة الأمر بالذبح لأنه سواء كان أمرا بذبحها للصدقة أو للقربان أو للرش على النجس أو للقسامة فليس لشيء من هاته الصفات مناسبة للحكم، وبذلك يعلم أن أمرهم بهاته الصفات كلها هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على سؤالهم.

٢٥. إن كان سؤالهم:

أ. للمطل والتنصل: فطلب تلك الصفات المشقة عليهم تأديب على سوء الخلق والتذرع للعصيان.

ب. ناشئا عن ظنهم أن الاهتمام بهاته البقرة يقتضي أن يراد منها صفات نادرة كما هو ظاهر قولهم بعد: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] فتكليفهم بهاته الصفات العسير وجودها مجتمعة تأديب علمي على سوء فهمهم في التشريع كما يؤدّب طالب العلم إذا سأل سؤالا لا يليق برتبته في العلم، وقد قال عمر لأبي عبيدة في واقعة الفرار من الطاعون (لو غيرك قالها يا أبا عبيدة)

٢٦. من ضروب التأديب الحمل على عمل شاق، وقد أدب رسول الله ﷺ عمه عباسا على الحرص حين حمل من خمس مال المغنم أكثر من حاجته فلم يستطع أن يقله فقال له: مر أحدا رفعه لي فقال: لا آمر أحدا فقال له: ارفعه أنت لي فقال: لا، حتى جعل العباس يحثو من المال ويرجعه لصبرته إلى أن استطاع أن يحمل ما بقي فذهب والنبي ﷺ يتبعه بصره تعجبا من حرصه.

٢٧. مما يدل على أنه تكليف لقصد التأديب أن الآية سيقت مساق الذم لهم، وعدت القصة في عداد قصص مساويهم وسوء تلقيهم للشريعة بأصناف من التقصير عملا وشكرا وفهما بدليل قوله تعالى

آخر الآيات: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] مع ما روي عن ابن عباس أنه قال: لو ذبحوا أي بقرة أجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

٢٨. ليس في الآية دليل على تأخير البيان عن وقت الخطاب، ولا على وقوع النسخ قبل التمكن لأن ما طرأ تكليف خاص للإعنات، على أن الزيادة على النص ليست بنسخ عند المحققين، وتسميتها بالنسخ اصطلاح القدماء.

٢٩. سألوا ب (ما) عن ماهية اللون وجنسه لأنه ثاني شيء تتعلق به أغراض الراغبين في الحيوان.

٣٠. قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ احتيج إلى تأكيد الصفرة بالفقوع وهو شدة الصفرة لأن صفرة البقر تقرب من الحمرة غالبا، فأكده بفاقع والفقوع خاص بالصفرة، كما اختص الأحمر بقان والأسود بحالك، والأبيض بيقق، والأخضر بمدهامّ، والأورق بخطباني (نسبة إلى الخطبان بضم الخاء وهو نبت كالهليون)، والأرمك وهو الذي لونه لون الرماد برداني (براء في أوله) والردان الزعفران.. والنصوع يعم جميع الألوان، وهو خلوص اللون من أن يخالطه لون آخر.

٣١. لونها إما فاعل بفاقع، أو مبتدأ مؤخر وإضافته لضمير البقرة دلت على أنه اللون الأصفر فكان وصفه بفاقع وصفا حقيقيا، ولكن عدل عن أن يقال صفراء فاقعة إلى ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ ليحصل وصفها بالفقوع مرتين إذ وصف اللون بالفقوع، ثم لما كان اللون مضافا لضمير الصفراء كان ما يجري عليه من الأوصاف جاريا على سببيه (على نحو ما قاله صاحب (المفتاح) في كون المسند فعلا من أن الفعل يستند إلى الضمير ابتداء ثم بواسطة عود ذلك الضمير إلى المبتدأ يستند إلى المبتدأ في الدرجة الثانية)، وقد ظن الطيبي في (شرح الكشاف) أن كلام صاحب (الكشاف) مشير إلى أن إسناد (فاقع) للونها مجاز عقلي وهو وهم إذ ليس من المجاز العقلي في شيء، وأما تمثيل صاحب (الكشاف) بقوله جد جده فهو تنظير في مجرد إفادة التأكيد.

٣٢. قوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي تدخل رؤيتها عليهم مسرة في نفوسهم، والمسرة لذة نفسية تنشأ عن الإحساس بالملائم أو عن اعتقاد حصوله ومما يوجبها التعجب من الشيء والإعجاب به.

٣٣. هذا اللون من أحسن ألوان البقر، فلذلك أسند فعل ﴿تَسُرُّ﴾ إلى ضمير البقرة لا إلى ضمير اللون فلا يقتضي أن لون الأصفر مما يسر الناظرين مطلقا، والتعبير بالناظرين دون الناس ونحوه للإشارة

إلى أن المسرة تدخل عليهم عند النظر إليها من باب استفادة التعليل من التعليق بالمشتق.

٣٤. القول في ﴿مَا هِيَ﴾ كالقول في نظيره، فإن كان الله تعالى حكى مرادف كلامهم بلغة العرب، فالجواب لهم بـ ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ لما علم من أنه لم يبق من الصفات التي تتعلق الأغراض بها إلا الكرامة والنفاسة، وإن كان المحكي في القرآن اختصارا لكلامهم فالأمر ظاهر، على أن الله قد علم مرادهم فأنبأهم به.

٣٥. جملة ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لأنهم علموا أن إعادتهم السؤال توقع في نفس موسى تساؤلا عن سبب هذا التكرير في السؤال، وقولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذار عن إعادة السؤال، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين، واعتذروا الآن لأن للثالثة في التكرير وقعا في النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذلك كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة.

٣٦. جيء بحرف التأكيد في خبر لا يشك موسى في صدقه، فتعين أن يكون الإتيان بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام، ثم يتوسل بالاهتمام إلى إفادة معنى التفريع والتعليل فتفيد (إن) مفاد فاء التفريع والتسبب، وهو ما اعتنى الشيخ عبد القاهر بالتنبيه عليه في (دلائل الإعجاز) ومثله بقول بشار:

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

٣٧. قولهم: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ تنشيط لموسى عليه السلام ووعد له بالامتثال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨] ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات، تفاديا من غضب موسى عليهم.

٣٨. التعليق بـ ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ للتأدب مع الله في رد الأمر إليه في طلب حصول الخير.

٣٩. الذلول ـ بفتح الذال ـ فعول من ذل ذلا ـ بكسر الذال في المصدر ـ بمعنى لان وسهل، وأما الذل ـ بضم الذال ـ فهو ضد العز، وهما مصدران لفعل واحد خص الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين، والمعنى إنها لم تبلغ سن أن يحرث عليها، وأن يسقى بجرها أي هي عجلة قاربت هذا السن، وهو الموافق لما حدد به سنها في التوراة.

٤٠. ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة، وجملة ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ حال من ﴿ذَلُولٌ﴾ .. وإثارة الأرض حرثها

وقلب داخل ترابها ظاهرا وظاهره باطنا، أطلق على الحرث فعل الإثارة تشبيها لانفلال أجزاء الأرض بثورة الشيء من مكانه إلى مكان آخر كما قال تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] أي تبعثه وتنقله ونظير هذا الاستعمال قوله في سورة الروم: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾

٤١. ﴿لا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ في محل نصب على الحال.. وإقحام (لا) بعد حرف العطف في قوله: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ مع أن حرف العطف على المنفي بها يغني عن إعادتها إنما هو لمراعاة الاستعمال الفصيح في كل وصف، أو ما في معناه أدخل فيه حرف لا كما في قوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨]، فإنه لما قيدت صفة ذلول بجملة تسقى الحرث صار تقدير الكلام أنها بقرة لا تثير الأرض، ولا تسقي الحرث، فجرت الآية على الاستعمال الفصيح من إعادة (لا)

٤٢. اختير الفعل المضارع في ﴿تُثِيرُ﴾ و ﴿تَسْقِي﴾ لأنه الأنسب بذلول إذ الوصف شبيه بالمضارع ولأن المضارع دال على الحال.

٤٣. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي سليمة من عيوب نوعها فهو اسم مفعول من سلمت المبني للمفعول، وكثيرا ما تذكر الصفات التي تعرض في أصل الخلقة بصيغة البناء للمجهول في الفعل والوصف إذ لا يخطر على باب المتكلم تعيين فاعل ذلك، ومن هذا معظم الأفعال التي التزم فيها البناء للمجهول.

٤٤. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ صفة أخرى تميز هذه البقرة عن غيرها، والشية العلامة وهي بزنة فعلة من وشى الثوب إذا نسجه ألوانا، وأصل شية وشية، ويقول العرب ثوب موشى وثوب وشي، ويقولون: ثور موشى الأكارع لأن في أكارع ثور الوحش سواد يخالط صفرته فهو ثور أشية ونظائره قولهم فرس أبلق، وكبش أدرع، وتيس أزرق وغراب أبقع، بمعنى مختلط لونين.

٤٥. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أرادوا بالحق الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه كما تقول: جاء بالأمر على وجهه، ولم يريدوا من الحق ضد الباطل لأنهم ما كانوا يكذبون نبيهم.

٤٦. سؤال وإشكال: لماذا ذكر هنا بلفظ الحق؟ وهلا قيل قالوا: الآن جئت بالبيان أو بالثبت؟ والجواب: لعل الآية حكت معنى ما عبر عنه اليهود لموسى بلفظ هو في لغتهم محتمل للوجهين فحكى بما يرادفه من العربية تنبيها على قلة اهتمامهم بانتقاء الألفاظ النزيهة في مخاطبة أنبيائهم وكبرائهم كما كانوا يقولون للنبي ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ فنهينا نحن عن أن نقوله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا

وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] وهم لقلة جدارتهم بفهم الشرائع قد توهموا أن في الأمر بذبح بقرة دون بيان صفاتها تقصيرا كأنهم ظنوا الأمر بالذبح كالأمر بالشراء فجعلوا يستوصفونها بجميع الصفات واستكملوا موسى لما بين لهم الصفات التي تختلف بها أغراض الناس في الكسب للبقر ظنا منهم أن في علم النبي بهذه الأغراض الدنيوية كمالا فيه، فلذا مدحوه بعد البيان بقولهم ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ كما يقول الممتحن للتلميذ بعد جمع صور السؤال: الآن أصبت الجواب، ولعلهم كانوا لا يفرقون بين الوصف الطردي وغيره في التشريع، فليحذر المسلمون أن يعقلوا في فهم الدين على شيء مما وقع فيه أولئك وذموا لأجله.

٤٧. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ عطفت الفاء جملة ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ على مقدر معلوم وهو فوجدوها أو ظفروا بها أو نحو ذلك وهذا من إيجاز الحذف الاقتصاري، ولما ناب المعطوف في الموقع عن المعطوف عليه صح أن نقول الفاء فيه للفصيحة لأنها وقعت موقع جملة محذوفة فيها فاء للفصيحة، ولك أن تقول إن فاء الفصيحة ما أفصحت عن مقدر مطلقا.

٤٨. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ تعريض بهم بذكر حال من سوء تلقيهم الشريعة، تارة بالإعراض والتفريط، وتارة بكثرة التوقف والإفراط، وفيه تعليم للمسلمين بأصول التفقه في الشريعة، والأخذ بالأوصاف المؤثرة في معنى التشريع دون الأوصاف الطردية، ولذلك قال ابن عباس: لو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم، وروى ابن مردويه والبزار وابن أبي حاتم بسندهم إلى الحسن البصري عن رافع عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم)، وفي سنده عبادة بن منصور وهو ضعيف، وكان النبي ﷺ ينهى أصحابه عن كثرة السؤال وقال: فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)، وبين للذي سأله عن اللقطة ما يفعله في شأنها فقال السائل: فضالّة الغنم قال: هي لك أو لأخيك أو للذئب)، قال السائل: فضالة الإبل، فغضب رسول الله ﷺ، وقال: مالك ولها، معها حذاؤها وسقاؤها تشرب الماء وترعى الشجر حتى يأتيها ربها)

٤٩. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ تحتمل الحال والاستئناف، والأول أظهر لأنه أشد ربطا للجملة، وذلك أصل الجمل أي ذبحوها في حال تقرب من حال من لا يفعل، والمعنى أنهم ذبحوها مكرهين أو

كالمكرهين لما أظهروا من المماطلة، وبذلك يكون وقت الذبح ووقت الاتصاف بمقاربة انتفائه وقتا متحدا اتحادا عرفيا بحسب المقامات الخطابية للإشارة إلى أن مماطلتهم قارنت أول أزمنة الذبح، وعلى الاستئناف يصح اختلاف الزمنين أي فذبحوها عند ذلك أي عند إتمام الصفات، وكان شأنهم قبل ذلك شأن من لم يقارب أن يفعل.

٥٠. أشار قوله تعالى: ﴿قُتِلْتُمْ﴾ إلى وقوع قتل فيهم وهي طريقة القرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع جريا على طريقة العرب في قولهم: قتلت بنو فلان فلانا، قال النابغة يذكر بني حنّ:

وهم قتلوا الطائي بالجو عنوة أبا جابر واستنكحوا أم جابر

٥١. والنفس: الواحد من الناس لأنه صاحب نفس أي روح وتنفس وهي مأخوذة من التنفس وفي الحديث: (ما من نفس منفوسة) ولإشعارها بمعنى التنفس، اختلف في جواز إطلاق النفس على الله وإضافتها إلى الله:

أ. قيل: يجوز لقوله تعالى حكاية عن كلام عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] ولقوله في الحديث القدسي: وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)

ب. وقيل: لا يجوز إلا للمشاكلة كما في الآية، والحديث القدسي.

والظاهر الجواز ولا عبرة بأصل مأخذ الكلمة من التنفس، فالنفس الذات، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وتطلق النفس على روح الإنسان وإدراكه ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ وقول العرب قلت في نفسي أي في تفكري دون قول لفظي، ومنه إطلاق العلماء الكلام النفسي على المعاني التي في عقل المتكلم التي يعبر عنها باللفظ.

٥٢. ﴿ادّارأتم﴾ افتعال، وادارأتم أصله تدارأتم تفاعل من الدرء وهو الدفع لأن كل فريق يدفع الجناية عن نفسه فلما أريد إدغام التاء في الدال على قاعدة تاء الافتعال مع الدال والذال جلبت همزة الوصل لتيسير التسكين للإدغام.

٥٣. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ جملة حالية من ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ أي تدارأتم في حال أن الله سيخرج ما كتمتموه فاسم الفاعل فيه للمستقبل باعتبار عامله وهو ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾

٥٤. الخطاب هنا على نحو الخطاب في الآيات السابقة المبني على تنزيل المخاطبين منزلة أسلافهم

لحمل تبعتهم عليهم بناء على ما تقرر من أن خلق السلف يسري إلى الخلف كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥]

٥٥. إنما تعلقت إرادة الله تعالى بكشف حال قاتلي هذا القتيل مع أن دمه ليس بأول دم طل في الأمم إكراما لموسى عليه السلام أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم وبمرأى منه ومسمع، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفال موسى ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم في أمة لضعف يقينها برسولها، ولكان ذلك مما يزيدهم شكا في صدقه، فينقلبوا كافرين، فكان إظهار هذا الدم كرامة لموسى ورحمة بالأمة لئلا تضل، فلا يشكل عليكم أنه قد ضاع دم في زمن نبينا ﷺ كما في حديث حويصة ومحيصة لظهور الفرق بين الحالين بانتفاء تدبير المكيدة، وانتفاء شك الأمة في رسولها، وهي خير أمة أخرجت للناس.

٥٦. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ الإشارة إلى محذوف للإيجاز، أي فضربوه فحيي فأخبر بمن قتله أي كذلك الإحياء يحيي الله الموتى فالتشبيه في التحقق وإن كانت كيفية المشبه أقوى وأعظم لأنها حياة عن عدم بخلاف هاته فالمقصد من التشبيه بيان إمكان المشبه كقول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

٥٧. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ من بقية المقول لبني إسرائيل فيتعين أن يقدر: وقلنا لهم كذلك يحيي الله الموتى، لأن الإشارة لشيء مشاهد لهم، وليس هو اعتراضا أريد به مخاطبة الأمة الإسلامية لأنهم لم يشاهدوا ذلك الإحياء حتى يشبه به إحياء الله الموتى.

٥٨. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ رجاء لأن يعقلوا فلم يبلغ الظن بهم مبلغ القطع مع هذه الدلائل كلها.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. كان بنو إسرائيل في مصر، وكانوا أذلوهم يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ولكنهم عاشروهم حقبة طويلة من الزمن تأثروا بعاداتهم، وألفوا ما كانوا يألفون، لقد كان المصريون يعبدون

---

(١) زهرة التفاسير: ١/٢٦٦.

العجل، ويقدسونه وقد أراد الله تعالى أن يقتلع من بنى إسرائيل ما تأثروا به، وقد رأينا السامري أضلهم فعبده بعضهم، ولم ينههم سائرهم عن عبادته، فاشتركوا جميعا في هذا المنكر.

٢. اختبرهم الله تعالى ليزيل ما في نفوسهم من نزعة إلى تقديسه أو بقية من هذا التقديس فقال رسولهم الأمين القوى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ولو أتوا إلى أية بقرة فذبحوها لكان في ذلك استجابة لأمر الله تعالى؛ لأن الأمر المطلق تتحقق الإجابة فيه بالتنفيذ في أية جزئية من جزئياته، والمطلق يتحقق وجوده في أي فرد من أفراده.

٣. الطلب لم يصادف أهواءهم، وحالهم في ذات أنفسهم فأخذوا يراوغون بكثرة الاستفهام، وإن أول التمرد هو كثرة الأسئلة، فالطاعة ألا تتمرد، ولا تثير الجدل، وكان أول قولهم في مجاوبة نبيّ الله وكليمه موسى عليه السلام أن قالوا، وكأنهم يتهكمون: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ والهزو اللعب والسخرية، أي أنهم يستغربون ذلك الطلب، ولا ندرى لماذا يكون الأمر بالذبح سخرية بهم، وعبثا بعقولهم العابثة إلا أن يكون ذلك مخالفا لمألوفهم، وبالغوا في الهزء فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أى أتجعلنا بأمرك في موضع الهزء والسخرية، وذلك لما ألفوه من أن البقرة مقدسة لا تذبح بل تعبد، وإذا لم تكن عندهم هذه الحال فإنه لا موضع لأن يستهزأ بهم، ولا أن يسخر منهم بذكر أمر الله تعالى.

٤. قال موسى كليم الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كانت إجابتهم لأمر الله تعالى خروجا عن طاعته بأغلظ القول وأفظه، فأجابهم الرسول الرفيق، فقال: أعوذ بالله تعالى أن أكون من الجاهلين؛ أي ألجأ إليه عائذا به، متجها إليه أن أكون من الجاهلين، لأن الجاهل هو الذي يجعل الهزء والسخرية في موضع الجد وبيان أمر الله تعالى، ونفى سيدنا موسى ﷺ وصف الجهل، ولم يكتف بنفي الفعل؛ لأنه أبلغ وبيان أنه لا يليق بنبي من أنبياء الله تعالى: أولى العزم من الرسل، وبالغ عليه السلام في نفى الجهل بنفي أن يكون من زمرة الجاهلين لما يجب على الرسول من بيان أمر الله تعالى.

٥. ذلك الجواب القاطع كان جديرا بأن يمنعهم من اللجاجة والمراوغة في الاستجابة لأمر الله تعالى، ولكن لأن نفوسهم متأثرة بأوهام المصريين، استمروا في لجاجتهم ومراوغتهم عساهم يجدون مناصا للخروج من هذا الأمر الجازم.

٦. قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ يقولون لنبي الله موسى: ادع ربك واضرع إليه الذي

ربالك وكوّنك أن يبين لنا ما هي وصيغة السؤال هكذا استفهام عن ماهية البقرة وحقيقتها وكأنهم لم يروها ولم يعرفوها، ولم يكونوا مع الذين كانوا يعبدونها.

٧. لكن نبيّ الله الحكيم، أجابهم بالأسلوب الحكيم، وهو ما ينبغي أن يكون السؤال عنه فقال عليه السلام بهداية من الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾

٨. والفارض هي التي فرضت سنها أي أنها حطت سنها، وبلغت نهايته، أي كانت طاعنة في السن، ولا بكر: ليست صغيرة، أي أنها بقرة وسط ليست صغيرة ولا كبيرة؛ ولذا فالعوان بين ذلك أي وسط بين الصغر والكبر المفرط.

٩. يظهر أن تلك كانت أوصاف عجل أهل مصر، وقد قال موسى بأمر ربه ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ بلا لجاجة ولا مراوغة، ولا محاولة الإفلات من أمر الله تعالى.

١٠. كان حقا عليهم أن يطيعوا بعد ذلك فقد بين لهم كل شيء، والفاء للإفصاح ولكن لجاجتهم لم تنته عند ذلك، وهم يريدون أن يراوغوا وأن يثيروا الجدل عساهم يفلتون من إجابة الأمر.

١١. قالوا مجادلين مراوغين: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي يبين اللون الذي يريدها أهى الصفراء أم السوداء، أم الخليط من ذلك.

١٢. بين سيدنا موسى اللون، فقال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾ مسندا القول لرب العالمين: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ الصفراء هي ما فيها لون الصفرة، ومعنى فاقع لونها أي خالص صاف له بريق ولمعان، ولذلك يسر الناظرين، أي تتلقاه الأنظر بالسرور، وكأن هذه كانت أوصاف العجل الذي كان المصريون يعبدونه.

١٣. كان يجب عليهم بعد ذلك أن يفعلوا ما أمروا غير متلومين، ولا متحيرين ولكنهم أثاروا بعد ذلك ما يفيد حيرتهم، ولا حيرة في ذات الموضوع إنما الحيرة في نفوسهم الملتوية التي سرى إليها تقديس البقرة، قالوا كأنهم متحيرون: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وإن التشابه من عقولهم، لا من الجهل في ذلك قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ كان هذا التساؤل المستمر كاشفا لسوء نيتهم وعدم رغبتهم في الطاعة، وقد تكشف أمرهم فستروه مظهرين رجاءهم في الهداية وكان ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أكدوا رغبتهم في الهداية بالجملة الاسمية، وبـ (أنّ) وبـ (لام)

التوكيد، والمشيئة الربانية.

١٤. مع ذلك كان سؤالهم عن الماهية، ولكن عدل في الإجابة إلى الأسلوب الحكيم، وهو بيان أنها ليست ذلولا معدة لحراثة ولا لسقاية الزرع، بل هي فارغة عن عمل؛ ولذا قال موسى في الرد: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، أوصاف يشترط وجودها ليكون ذبحها سائغا جائزا:

أ. أولها: أنها ليست ذلولا أي ليست مذللة لعمل معين بل هي مطلقة ترعى في الكلأ، لا رقابة عليها، ولا سلطان لأحد.

ب. ثانيها: أنها لم تعد لحرث الأرض وإثارتها ليرمى فيها الزرع.

ج. ثالثها: أنها لا تسقى الزرع فلا تدير ساقية تسقى الزرع.

د. رابعا: أنها مسلّمة، أي سليمة من العرج، ومن كل ما يشوب جسمها من شوائب المرض، فمسلمة اسم مفعول من سلّم، أي أن الله تعالى سلمها من كل العيوب الجسمية، فلا بها عرج، ولا عور، ولا أي عيب جسمي.

هـ. خامسا: أنه لا شية فيها، أي ليس فيها لون يخالف لونها الذي يعم كل أجزائها، والشية أصلها وشية حذفت فاؤها، لأنها وصلة، والشية مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين.

١٥. هذه الأوصاف في البقرة تشبه الأوصاف التي كان يذكرها قدماء المصريين في العجل الذي يعبدونه، فأتى الله سبحانه وتعالى بأوصافه، لتبين أنهم خلصوا من نفوسهم كل أوهام المصريين في البقر.

١٦. بقرة مفرد لاسم جنس جمعي هو البقر، ويراد به الذكور والإناث، وإن طلب ذبح بقرة تتشابه في أوصافها مع أوصاف العجل الذي توهموا أنه يستحق أن يعبد، فيه اختبار شديد لهم، وحمل لهم على أن يخلعوا كل أوهام المصريين التي سرت إلى نفوسهم.

١٧. قال تعالى من بعد ذلك: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي قاموا بذبحها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة لجاجتهم، ومراوغاتهم وجدلهم، ولكن الله سبحانه وتعالى راضهم على ذلك حتى فعلوا كارهين غير راضين.

١٨. المفسرون على أن هذه الآيات جزء من قصة البقرة إلا ما يتعلق بقسوة قلوبهم، والحجارة

وبعض خواصها، فهم يقولون إن الأمر بذبح البقرة كان ليضربوه بها أي ليضربوا المقتول بها فيحيا، فقوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ الضمير يعود إلى البقرة التي ذبحت: يضرب ببعضها فيحيا ويخبر عمن قتله، وأخبار بنى إسرائيل فيها العجائب الكثيرة التي ساقها الله تعالى ليؤمنوا ويذعنوا، ولكن لم يذعنوا قط مع توالى هذه الأمور الخارقة للعادة التي توالت وكثرت.

١٩. في العصر الحديث قرر المرحوم الأستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار، أنهما قصتان سيقتا لغرضين مختلفين:

أ. أما الأولى فهي قصة البقرة، وهى قائمة بذاتها سيقت لبيان آثار العقائد المصرية في نفوس بنى إسرائيل، ولجاجتهم في الامتناع عن ذبح البقرة متأثرين بتقديس المصريين للبقر.

ب. الثانية سيقت لبيان أثر رؤية المقتول في نفس القاتل، وتأثره بذلك، وأنه يحمله على الاعتراف بالجريمة عندما يرى المقتول ويمس جسده، وقد ذكر ذلك الرأي في كتابه قصص القرآن.

٢٠. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي لم يعرف القاتل، ودرء كل فريق القتل عن نفسه باتهام الآخر، فالادّراء أو التدارؤ، أن يدفع كل فريق التهمة عن النفس، ويتهم الآخر.. وكل منهم يعلم الواقع، ولكن يقرر غيره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي من الحق، ومؤدى ذلك أنهم عالمون فيما بينهم من القاتل ولكن يجهّلون الأمر، ولكن الله تعالى كاشف الأمر.

٢١. الضمير في بعضها، في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي ببعض البقرة، وإن ضربهم للمقتول ببعض البقرة، يحييه الله تعالى فيخبر عمن قتله، ويعرف القاتل، وقصة البقرة سيقت لبيان إحياء الله تعالى الموتى في وسط قوم ينكرون البعث والنشور؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي كذلك الإحياء الذي شاهدتموه عيانا، إذ كان ميتا فأحياه الله تعالى؛ أي مثل ذلك الإحياء الجزئي الذي شاهدتموه وعاينتموه يحيى سبحانه وتعالى الأجسام بعد موتها، ويكون النشور ثم تقوم القيامة.

٢٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي رجاء منكم لأن تعقلوا وتدركوا الأمور على وجهها.

٢٣. على هذا التفسير يكون المقصود أن الأمر بالذبح لكى يضرب ببعضها الميت فيحيا، وإن هذا يقتضى أن يقدم خبر الإحياء والضرب ببعضها على الأمر بالذبح، وقد أجاب عن ذلك الزمخشري بأن

التأخير يفيد بأن في الخبر أمرين عجيبين، وأن كليهما يصلح أن يكون قصة قائمة بذاته، فالأولى المراوغة في الطاعة، والثانية إظهار الأمر الخارق للعادة، في إحياء الميت بضربه ببعض بقرة، ولقد قال في ذلك: إن كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الخطايا، وتقريعا لهم عليها، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما خصت بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حتى يتبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ـ وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

٢٤. هذا بيان أنها قصة، ولكن الزمخشري ذكر أنهما قصتان متحدتان في قصة واحدة، وأن الضمير العائد إلى البقرة في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي ببعض البقرة، لكن المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، عدهما قصتين منفصلتين لا اتصال بينهما بأي نوع من الاتصال البياني ولذا لم يجعل الضمير في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ عائدا على البقرة إنما جعله عائدا إلى جثة المقتول، بمعنى فاضربوا القاتل الذي قام الاتهام على أنه القاتل ببعض جثة المقتول فإن ذلك يحمله على الاعتراف، وإذا قام الاعتراف فقد قام الدليل الموجب للقصاص، وبذلك القصاص يحيى الله تعالى من مات بالقصاص له، ذلك كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة] وإحياؤها بالقصاص، فالقصاص إحياء للنفوس كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة]، وقد ثبت بالإحصاء في تحقيق جرائم القتل أن مجرد رؤية الجاني للمجنى عليه وهو مقتول يحركه للاعتراف، واعتمد النجار في ذلك على إحصاءات كثيرة كتبها له رجال الشرطة، وأن من الوسائل المتبعة لحمل المتهم على الاعتراف أن يمكنوه من رؤية القتيل، فإن ذلك يجعله يقشعر ويحس بعظيم ما ارتكب، وربما حمله ذلك على الاعتراف، والاعتراف سلطان الأدلة.

٢٥. مما يزكى كلام الأستاذ النجار:

أ. أن القصة الثانية: وهى قصة القتل ابتدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾؛ ولذلك لم يسع الزمخشري وهو الذواق للبيان القرآني إلا أن يذكر أنها قصتان، وإن كان قد حاول أن يصل بينهما بأن الضمير في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يعود على البقرة، مع البعد بينهما بطائفة من القول، وعدم ظهور ذلك العود على البقرة.

ب. أن الضمير فى ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ إذا عاد إلى النفس المقتولة يعود إلى أقرب مذكور، وعودة الضمير إلى أقرب مذكور هو القاعدة العامة إلا إذا أدى فيها الأمر إلى شذوذ غير معقول، أو كان ذلك مستحيلا.

ج. أن عود الضمير على النفس يؤدى علما نفسيا اجتماعيا هاديا مرشدا، فيكون في ذلك فائدة جديدة لم تكن في قصة البقرة؛ لأن قصة البقرة تدل على عناد بنى إسرائيل وتأثرهم بأهواء المصريين في تقديس العجل.

د. أن الآية اختتمت بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهو يدل على أن الموضوع يحتاج إلى تدبر، وفكر رشيد، وإدراك لمرمى التكليف.

٢٦. ما نراه أن الفرق بين رأى المفسرين، ورأى الأستاذ النجار أن اتجاه المفسرين إلى جعل مسألة البقرة مسألة معجزة، وأمرا خارقا للعادة على أساس أن الضرب ببعضها يحيى نفسا ميتة على أساس أن ذلك دليل حسى على إمكان البعث وقربه، والنجار يرى أن ذلك تكليف اجتماعي ينبه العقول إلى أمر مقرر ثابت في الدراسات النفسية والاجتماعية.. ونحن نميل إلى رأى الأستاذ النجار؛ لأنه لو كانت الحياة من الضرب ببعضها لأدى ذلك إلى إشباع ما في نفوسهم من أوهام حول تقديس البقر كما كان يتوهم المصريون، بينما الرأي الأخير لا يؤدى إلى شيء من ذلك.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذه الآيات الكريمة يتوقف فهمها على معرفة الحادثة التي نزلت الآيات من أجلها، وخلاصة

---

(١) التفسير الكاشف: ١/١٢٦.

هذه الحادثة: ان شيخا غنيا من بني إسرائيل قتله بنو عمه طمعا في ميراثه، ثم ادعى القتلة على أناس أبرياء أنهم قتلوه، وطالبوهم بديته، ليدفعوا عنهم تهمة القتل، فوقع الاختلاف بينهم والشجار، فترافعوا الى موسى عليه السلام، وحيث لا بينة تكشف عن الواقع سألوا موسى ـ كالمعتاد ـ ان يدعو الله ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل، فأوحى الله اليه أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل ببعضها، فيحيا، ويخبر بقاتله، وبعد أخذ ورد، وان الأمر: هل هو هزل أو جد، وبعد السؤال عن أوصاف البقرة أولا وثانيا وثالثا فعلوا، وعاد القتيل الى الحياة وأخبر بما كان.

٢. ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ . أي نسألك عن أمر القتيل، فتأمرنا بذبح البقرة؟ ان هذا هزؤ، وليس بجد.

٣. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ . أي اني لا استعمل الهزؤ والسخرية في غير التبليغ عن الله، فكيف في التبليغ عنه جلت كلمته؟

٤. كان يجزيهم أن يذبحوا بقرة أية بقرة، لأن المأمور به بقرة مطلقة، والإطلاق يفيد الشمول.

٥. لكنهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ قال هي من حيث السن وسط، لا بالكبيرة، ولا بالصغيرة، فاذهبوا، وامتثلوا ولا تتوانوا في ذبحها.

٦. بعد الذي بيناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، لا يبقى أي مجال للتساؤل: لماذا لم يحيي الله القتيل ابتداء، وهو القادر على كل شيء وكيف يحيا الميت إذا ضرب بجزء البقرة؟ ولما ذا كانت هذه البقرة دون غيرها؟ ثم ما هي الفائدة من ضرب المقتول ببعضها؟

٧. كل هذه التساؤلات، وما اليها لا تتجه بحال بعد أن أثبتنا ان الله عامل أولئك الاسرائيليين معاملة خاصة دون الناس أجمعين، وانه من هذه الجهة فضلهم على الناس أجمعين.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه قصة بقرة بني إسرائيل، وبها سميت السورة سورة البقرة، والأمر في بيان القرآن لهذه القصة عجيب فإن القصة فصل بعضها عن بعض حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ إلى آخره،

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/٢٠٠.

ثم قال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، ثم إنه أخرج فصلا منها من وسطها، وقدم أولا ووضع صدر القصة وذيلها ثانيا.

٢. ثم إن الكلام كان مع بني إسرائيل في الآيات السابقة بنحو الخطاب، فانتقل بالالتفات إلى الغيبة حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ ثم التفت إلى الخطاب ثانيا بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾

٣. الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فيه صرف الخطاب عن بني إسرائيل، وتوجيهه إلى النبي في شطر من القصة وهو أمر ذبح البقرة وتوصيفها ليكون كالمقدمة الموضحة للخطاب الذي سيخاطب به بنو إسرائيل بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، الآيتان في سلك الخطابات السابقة.

٤. هذه الآيات الخمس من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، كالمعترضة في الكلام تبين معنى الخطاب التالي مع ما فيها من الدلالة على سوء أدبهم وإيذائهم لرسولهم، برميه بفضول القول ولغو الكلام، مع ما فيه من تعنتهم وتشديدهم وإصرارهم في الاستيضاح والاستفهام المستلزم لنسبة الإبهام إلى الأوامر الإلهية وبيانات الأنبياء مع ما في كلامهم من شوب الإهانة والاستخفاف الظاهر بمقام الربوبية فانظر إلى قول موسى عليه السلام لهم ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، وقولهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، وقولهم ثانيا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾، وقولهم ثالثا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، فأتوا في الجميع بلفظ ربك من غير أن يقولوا ربنا ثم كرروا قولهم: ﴿مَا هِيَ﴾ وقالوا ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فادعوا التشابه بعد البيان، ولم يقولوا: إن البقرة تشابهت علينا بل قالوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ كأنهم يدعون أن جنس البقر متشابه ولا يؤثر هذا الأثر إلا بعض أفراد هذا النوع وهذا المقدار من البيان لا يجزي في تعيين الفرد المطلوب وتشخيصه، مع أن التأثير لله عز اسمه لا للبقرة، وقد أمرهم أن يذبحوا بقرة فأطلق القول ولم يقيده بقيد، وكان لهم أن يأخذوا بإطلاقه، ثم انظر إلى قولهم لنبيهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، المتضمن لرميه عليه السلام بالجهالة واللغو حتى نفاه عن نفسه بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقولهم أخيرا بعد تمام البيان الإلهي: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، الدال

على نفي الحق عن البيانات السابقة المستلزم لنسبة الباطل إلى طرز البيان الإلهي والتبليغ النبوي.

٥. بالجملة فتقديم هذا الشطر من القصة لإبانة الأمر في الخطاب التالي كما ذكر مضافا إلى نكتة أخرى، وهي أن قصة البقرة غير مذكورة في التوراة الموجودة عند اليهود اليوم فكان من الحري أن لا يخاطبوا بهذه القصة أصلا أو يخاطبوا به بعد بيان ما لعبت به أيديهم من التحريف، فأعرض عن خطابهم أولا بتوجيه الخطاب إلى النبي ثم بعد تثبيت الأصل، عاد إلى ما جرى عليه الكلام من خطابهم المتسلسل، نعم في هذا المورد من التوراة حكم لا يخلو عن دلالة ما على وقوع القصة وهاك عبارة التوراة، قال في الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع: إذا وجد قتيل في الأرض ـ التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا في الحقل ـ لا يعلم من قتله..).

٦. إذا عرفت هذا علمت أن بيان هذه القصة على هذا النحو ليس من قبيل فصل القصة، بل القصة مبينة على نحو الإجمال في الخطاب الذي في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ وشطر من القصة مأتية بها ببيان تفصيلي في صورة قصة أخرى لنكتة دعت إليه.

٧. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ خطاب للنبي ﷺ وهو كلام في صورة قصة، وإنما هي مقدمة توضيحية للخطاب التالي لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الأمر، والغاية المقصودة منها، بل أطلقت إطلاقا ليتنبه بذلك نفس السامع وتقف موقف التجسس، وتنتشط إذا سمعت أصل القصة، ونالت الارتباط بين الكلامين، ولذلك لما سمعت بنو إسرائيل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ تعجبوا من ذلك ولم يحملوه إلا على أن نبي الله موسى يستهزئ بهم لعدم وجود رابطة عندهم بين ذبح البقرة وما يسألونه من فصل الخصومة والحصول على القاتل قالوا أتتخذنا هزوا وسخرية.

٨. إنما قالوا ذلك لفقدهم روح الإطاعة والسمع واستقرار ملكة الاستكبار والعتو فيهم، وقولهم: إنا لا نحوم حول التقليد المذموم، وإنما نؤمن بما نشاهده ونراه كما قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾، وإنما وقعوا فيما وقعوا من جهة استقلالهم في الحكم والقضاء فيما لهم ذلك، وفيما ليس لهم ذلك فحكموا بالمحسوس على المعقول فطالبوا معاينة الرب بالحس الباصر وقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وزعموا أن نبيهم موسى مثلهم يتهوس كتهوسهم، ويلعب كلعبهم، فرموه بالاستهزاء والسفه والجهالة حتى رد عليهم، وقال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

٩. إنما استعاذ بالله ولم يخبر عن نفسه بأنه ليس بجاهل لأن ذلك منه عليه السلام أخذ بالعصمة الإلهية التي لا تتخلف لا الحكمة الخلقية التي ربما تتخلف.

١٠. زعموا أن ليس للإنسان أن يقبل قولا إلا عن دليل، وهذا حق، لكنهم غلطوا في زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلا، ولا يكفي في ذلك الإجمال، ومن أجل ذلك طالبوا تفصيل أوصاف البقرة لحكمهم أن نوع البقر ليس فيه خاصة الإحياء، فإن كان ولا بد فهو في فرد خاص منه يجب تعيينه بأوصاف كاملة البيان ولذلك ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

١١. هذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهة فشدد الله عليهم، وقال موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾، أي ليست بمسنة انقطعت ولادتها ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لم تلد، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، والعوان من النساء والبهائم ما هو في منتصف السن أي واقعة في السن بين ما ذكر من الفارض والبكر.

١٢. ثم ترحم عليهم ربهم فوعظهم أن لا يلحوا في السؤال، ولا يشددوا على أنفسهم ويقنعوا بما بين لهم فقال: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

١٣. وهم مع ذلك لم يرضوا به، وأعادوا كلامهم الأول، من غير تحجب وانقباض و ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

١٤. فأجابهم ثانيا بتوضيح في ماهيتها ولونها وقال ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أي غير مذللة بالحرث والسقي ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ بالشيار ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ فلما تم عليهم البيان ولم يجدوا ما يسألونه.

١٥. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ قول من يعترف بالحقيقة بالإلزام والحجة من غير أن يجد إلى الرد سبيلا، فيعترف بالحق اضطرارا، ويعتذر عن المبادرة إلى الإنكار بأن القول لم يكن مبينا من قبل، ولا بينا تاما، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

١٦. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، شروع في أصل القصة والتدارؤ هو التدافع من الدرء بمعنى الدفع فقد كانوا قتلوا ـ نفسا ـ وكل طائفة منهم يدفع الدم عن نفسها إلى غيرها ـ وأراد الله سبحانه إظهار ما كتموه.

١٧. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، أول الضميرين راجع إلى النفس باعتبار أنه قتيل، وثانيهما إلى البقرة، وقد قيل: إن المراد بالقصة بيان أصل تشريع الحكم حتى ينطبق على الحكم المذكور في التوراة الذي

نقلناه، والمراد بإحياء الموتى العثور بوسيلة تشريع هذا الحكم على دم المقتول، نظير ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: البقرة ـ ١٧٩، من دون أن يكون هناك إحياء بنحو الإعجاز هذا، وأنت خبير بأن سياق الكلام وخاصة قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾، يأبى ذلك.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لأنهم لم يتوقعوا مثل هذا الأمر، واستبعدوا أن يؤمروا بذبح بقرة واحدة على كثرتهم، واستعدادهم للعمل بالتكليف الثقيل، فجوّزوا أن موسى عليه السلام غير جاد في هذا الكلام، وإنما قاله استخفافاً بهم.

٢. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يقول عليه السلام: إن هذا لو وقع هزؤاً مني لكان جهالة عليكم حين آمركم بما لم يأمركم به الله، وجهالة من حيث أنه قول على الله ما لم يقل، وتعظم بوقوعها من رسول الله إليكم، فكيف تقع مني؟ ولكنه لم يقل: فكيف تقع مني، وأكتفى بالتعوذ بالله؛ لأنه في براءته من ذلك معتمد على لطف الله وعصمته، وفيه تعريض بهم؛ لأن كلامهم هذا جهالة، وكان التعوذ هذا دليلاً على أنه بريء من حيث قد أفاد أنه جهالة لا تليق به، وهو رسول، ومن حيث دل على شدة كراهته للجهالة بالتعوذ بالله منها، ومعنى أعوذ: أستجير بالله وألجأ إليه لينجيني.

٣. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الدعاء هو طلب من يعتبره الداعي أعلى بالقدرة والقهر تذللاً وافتقاراً، وقولهم لنا يفيد دعواهم أنهم يريدون امتثال الأمر، إنما يؤخرهم انتظار البيان.

٤. قولهم: ﴿رَبَّكَ﴾ وهم يعلمون أنه ربهم، فلم يقولوا ربنا مع أن الطلب من أجلهم؛ لأنهم يعلمون أن لموسى صلة بربه من أجلها يستجيب له، وكذا في قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ وقولهم فيما يأتي: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقد لاحظ هذا المعنى قوم فرعون، حين قالوا: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] واعتبرت هذه الصلة في الآيات الكريمة من سورة (قد أفلح المؤمنون): ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [آية: ٥٧] حيث جاء ذكر ربهم في أربع آيات متتابعة، ولم يأت الضمير فيما بعد الأولى.

---

(١) التيسير في التفسير: ١/١٢٨.

٥. قولهم: ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ دعوى أن أمرهم بذبح بقرة مجمل يحتاجون إلى بيانه، وهو في الواقع مطلق يصدق بذبح أيّ بقرة ذبحوها لو امتثلوا قبل هذه المطالبة، ولكن أنفتهم من أن يكون هذا هو المراد، وهَوَاهُم في أن يكون المراد بقرة مخصوصة لذبحها، معنى زائد على ذبح غيرها، حَمَلهم على جعل المطلق مجملاً، وهكذا الهوى، يصد عن الحق، ويحمل على تفسير كلام الله ورسوله بما يوافق الهوى وإن خالف الحق.

٦. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ فقيد ذلك المطلق، وصار التكليف بالمقيد من أجل طلبهم البيان لغير مجمل.. قال المرتضى عليه السلام: والفارض: المسنّة التي قد انفرض فمها، وانفراضه فهو: سقوط أسنانها، والبكر، فهي: لم تلقح قط.

٧. ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي متوسطة في سنها بين الفارض والبكر ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ من ذبح البقرة التي هذه صفتها، فقد وجب عليكم بأمر الله.

٨. قوله: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي شديدة الصفرة خالصتها.

٩. قوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ يفيد: جمالها بلونها، وحسن صورتها، وهذا تقييد للمطلق مع التقييد الأول، فصار المأمور به بقرة جامعة للوصفين.

١٠. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ بوجود عدد من البقرات فتيات صفر جميلات، فنحن مترددون لا ندري أيّتهن المراد ذبحها ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد، إذا بيّن لنا مرة ثالثة بياناً ثالثاً.

١١. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُ﴾ أي أن الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ الذّلول: المذللة للعمل التي ألفت العمل فذلّت لمن يعمل عليها، وإثارة الأرض: حرثها المظهر لبعض ما بطن، والمفتت لبعض ما كان جامداً متلاصقاً.. والمعنى: أنها ليست ذلولاً بحيث أنها تثير الأرض، وفي هذا التقييد إشارة إلى أنها ذلول لسائقها وقائدها، فذلك غير منفي، إنما المنفي كونها ذلولاً لحرث الأرض، وأنها لا تحرث الأرض، فجمع قوله: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ بين نفي كونها ذلولاً للحرث ونفي اعتياد الحرث الذي تكون به ذلولاً، وقوله: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يفيد: أنها لا تنزع الماء لسقي الحرث، فأفاد سلامتها من تعب العمل.

١٢. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ سليمة من العيوب، سلمها الله منها ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ فلونها واحد لم يوشّ بلون آخر من غرة أو تحجيل أو غير ذلك

١٣. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ لأنك جئت بالأوصاف التي معها يصعب امتثال الأمر، وذلك هو الذي نهواه، فجعلوا الحق تابعاً لهواهم، و ﴿قَالُوا الْآنَ﴾ بجفائهم وجلافتهم، وقد جاء بالحق من قبل.

١٤. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ جامعة للصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أنفة من تكليفهم بذبح بقرة، فذبحوها وهم كارهون لذبحها، بحيث كادوا أن لا يذبحوها، ولم يكفهم صعوبة هذا التكليف بزيادة أوصاف البقرة؛ لأنه لم يخرجهم عن كونهم كلفوا ذبح بقرة.

١٥. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ تدافعتم كل يدفع عن نفسه تهمة القتل ويلصقها بغيره ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (الواو) للحال، أي تدارأتم فيها في حال أن الله مخرج ما كنتم تكتمون، وهو يعم قتل القتيل وغيره، كالباعث على قتله، والغرض المقصود به.

١٦. ﴿فَقُلْنَا﴾ لكم: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ أي القتيل المفهوم من قوله: ﴿قُتِلْتُمْ﴾ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي ببعض البقرة بعد ذبحها، عن المرتضى عليه السلام أنه قال في البقرة المذكورة: وهذه فهي التي أمر الله سبحانه أن يضرب القتيل ببعضها، وذلك أنه قتل قتيل في بني إسرائيل، فادّارؤوا فيه واتهم بعضهم بعضاً بقتله، وعظم بينهم الأمر فيه، فأمرهم الله عز وجلّ أن يضربوه ببعضها، ففعلوا ذلك، فعاش القتيل وأخبرهم بقاتله، فكانت هذه آية عظيمة جليلة في إحياء الله سبحانه له، وقد كان قادراً أن يحييه بضربة عود لو أمرهم لقام مقام البقرة، ولكن الله يفعل ما يشاء، لا معقّب لحكمه.

١٧. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ كما أحيى هذا القتيل ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يريكم دلائله الدالة على قدرته وعلمه وسائر ما دلت عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما تدل عليه، وتعلمون وتفهمون، أي وكذلك يريكم الله آياته، فكم آتاهم من آية بينة، فكان في أمرهم بذبح البقرة سرّ لو علموه لم يتعنتوا ذلك التعنت، ولكنهم كانوا لو علموه لاختلفوا، فالبريء يدعو إلى امتثال الأمر، والقاتل ومن يتعصب له من قريب أو نحوه يمتنعون ويتعللون، فكان لا يحصل ذبحها منهم كلهم، وضرب القتيل ببعضها منهم كلهم، وذلك أنهم شركاء في الذبح بالفعل والرضى، وشركاء في ضرب القتيل ببعضها بالفعل والرضا.

١٨. أدّى ذلك الذي فعلوه واشتركوا فيه إلى إحياء القتيل وانقطاع التدارؤ فيه بإخباره بقاتله

منهم، بحيث علموا بتلك الآية العظمى أن الله هو الذي أحياه وأنطقه كلهم، واتضح الحق فيه لهم كلهم، وكان المقصود الأعظم أن يريهم الله كيف يحيي الموتى آية لهم وزيادة في الحجة على من كفر، وآية لنبيهم الذي كانت هذه الأوامر من طريقه لينقادوا له ويتركوا التعنت عليه.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[١]:

١. في هذه الآيات، قصة مثيرة من قصص بني إسرائيل، وذلك من جهتين:

أ. فهي من جهة تشتمل على جانب من الإعجاز، من حيث إحياء الله الميت القتيل الذي انطلقت القصة في أجواء الخلاف في قاتله.

ب. وهي من جهة ثانية تشتمل على صورة مجتمع بني إسرائيل من الداخل، وتوضح لنا الطريقة التي يواجه بها أفراده الأوامر الصادرة من موسى إليهم، مما يوحي بطبيعة المشاغبة التي تجعلهم يواجهون القضايا من موقع التعقيد، لا من موقع البساطة، فيحوّلون مهمة النبي في قيادته الفكرية والعملية إلى مهمّة صعبة، لأن هناك فرقا في حركة القيادة، بين قيادة تتحرك في جمهور يطيع الأوامر كما ترد في صيغة الأمر، وبين قيادة يقف جمهورها ليسأل عن كل صغيرة أو كبيرة من دون أن يكون ذلك داخلا في حساب مسئوليته، فإن ذلك يعطل الحركة وينذر بالهزيمة في أصعب المواقف وأكثرها تعقيدا عندما تكون بحاجة إلى الحسم والتحرك السريع.

٢. طلب موسى عليه السلام منهم ـ باسم الله ـ أن يذبحوا بقرة، فاستغربوا الطلب، لأنهم لم يفهموا علاقته بالقضية المتنازع عليها ـ أو هكذا حاولوا أن يصوّروا الموضوع ـ فاعتبروا ذلك هزءا وسخرية بهم من موسى، فدلّلوا على أنهم لا يعرفون مقام النبوّة ولا شخصية النبي بأبعادها الروحية التي تمنعه من أن يوجّه إليهم طلبا باسم الله على سبيل العبث والسخرية بهم، فإن ذلك يعتبر إساءة لله باستخدام اسمه في هذا المقام وبالكذب عليه، لأنه يخبرهم بأن الله يأمرهم بذلك من دون أساس.

٣. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أية بقرة ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لأن مثل هذا الأمر لا يخضع لأية مناسبة تتصل بحياتنا في أوضاعنا الخاصة والعامة، فليس المورد مورد قربان

---

(١) من وحي القرآن: ٢/٨٥.

نقدمه إلى الله في مناسباته الخاصة لنعتبرها قربانا له، وليس المقام مقام دعوة للإطعام لنقدم لحمها للآكلين الفقراء، وليس هناك شيء آخر يدخل في دائرة التصور الواقعي المعقول.

٤. كان جواب موسى عليه السلام في مستوى المدلول السيئ لردود قومه عليه، ولذا جاء جوابه زاخرا بالمرارة ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فقد استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين، لأن مثل هذا التصرف ـ على حسب مفهومهم الخاطئ ـ يجعل موسى في موقف الجاهل الذي لا يعرف كيف يتصرف وأين يضع كلماته، ولا يعقل مركز النبوّة ومنطلقاتها العملية، كما أنه لا يمكن أن يحدثهم عن الله بما لم ينزله عليه، ومما لم يأمرهم به، لأن ذلك يعتبر خيانة من الرسول وكذبا على الله، وكيف يمكن أن يسخر موسى ـ النبي ـ بالناس الذين جاء لهدايتهم وربطهم بالجانب الجدي في مواقع المسؤولية في الحياة، لا سيما إذا كانت المسألة مرتبطة بالعمل الذي يكلفهم الكثير من الجهد والمال والتعقيدات الاجتماعية.

٥. عادوا من جديد إلى المشاغبة، ولكن من موقع اتهامه بأنه يحمل أمرا مبهما لا وضوح فيه، فسألوه عن حقيقة البقرة، وقد كان بإمكانهم أن يأخذوا بإطلاق الكلمة في مقام البيان ـ كما يقول الأصوليون ـ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

٦. بدأ الموقف يتجه اتجاها آخر يشبه العقوبة ومواجهة التحدي بمثله، فتحوّل الجواب إلى التضييق عليهم بفرض قيود لم تكن داخلة في حساب التشريع في ذاته.. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ إنها بقرة لا هرمة، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صغيرة، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وسط بين ذلك، وهي أقوى ما يكون.

٧. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ واستجيبوا لهذا الأمر الإلهي في حدوده الجديدة، مما يعني أن القضية لا تحتاج إلى سؤال جديد، فبإمكانهم أن يكتفوا بما ذكر لأنه لم يذكر لهم زيادة في التفاصيل، وأن يسكتوا عما سكت الله عنه، لأن الله لا يحاسب العباد إلا على ما يبيّنه لهم، فلا عقاب بلا بيان.

٨. لكنهم لم يكتفوا بذلك، بل عادوا يثيرون كل ما يتصورونه من خصائص البقر ممّا يمكن أن يقع موضعا للسؤال ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ لأن ألوان البقر تتعدد، فهل يفرض علينا الله لونا معينا لنلتزم به، لأنك لم تحدد لنا ذلك.

٩. جاء الجواب الثاني ليحدّد ويضيّق، ردّا على هذا الفضول الذي لا معنى له؛ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

١٠. عاد السؤال من جديد، فهم لا يعرفون كيف يحصلون عليها لأنّ أنواع البقر تتشابه، فلا يملكون الحصول على المطلوب المحدّد، فطلبوا الصفات التي يمكن أن يجدوها بسهولة، على الطبيعة، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ في خصائصها وصفاتها الواضحة التي تجعلها أكثر وضوحا.

١١. كأنهم شعروا بأنهم قد ذهبوا بعيدا في هذا المجال، فابتعدوا عن الخط في هذا الإلحاح الفضولي الذي لا يتناسب مع موقفهم من النبي كما لا ينسجم مع طبيعة المسؤولية، فوعدوه بأنهم سيسلكون طريق الهدى في نهاية المطاف؛ ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ بالهدى الذي ترشدنا إليه في حدود المسؤولية المتصلة بالواقع العملي للطاعة في انقيادنا لأوامر الله.

١٢. جاء الجواب أكثر تحديدا وتضييقا ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، لم يذللها العمل بإثارة الأرض بأظلافها، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ لا يستقى عليها الماء للزرع، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب، ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا علامات فيها تخالف لون جلدها.

١٣. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فإن هذه الأوصاف المتعددة تضعنا في موقع الوضوح الذي لا مجال فيه للحيرة والاشتباه.. ولم يملكوا سؤالا جديدا.

١٤. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ لأنهم لا يجدون حجة على الامتناع ﴿وَمَا كَادُوا﴾ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ لأنهم لا يعيشون في أنفسهم روح الطاعة والانقياد.

١٥. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ولم يتبيّن لكم القاتل، ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي اختلفتم، فكان التوجيه الإلهي لموسى عليه السّلام ـ بعد أن سألتموه ـ في إظهار الحق في القضية التي كادت أن تخلق لكم مشاكل صعبة مدمّرة، أن تذبحوا بقرة، ليظهر الحق من خلال ذلك في نهاية المطاف، ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من الحقيقة المعروفة لديكم في الباطن، الغامضة في الظاهر، نتيجة كتمانكم لمعلوماتكم.

١٦. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا القتيل ببعض البقرة، ليحيي فيحدثهم عمن قتله ويرجع بعد ذلك ميتا، فيكون ذبح البقرة قربانا يقدمونه إلى الله ليستجيب لهم في دعائهم بأن يكشف لهم سرّ القاتل لتحل مشكلتهم الاجتماعية بذلك، حتى لا يتبادلوا الاتهامات التي تثير الخلاف والشحناء، وربما تؤدي إلى القتال وسفك الدماء، وليكون ذلك تقليدا دينيا لديهم في تقديم القربان إلى الله في كل حاجة

يريدون قضاءها، وفي كل مشكلة يطلبون حلها، وفي كل سرّ يتطلعون إلى معرفته، ولينطلقوا من خلال ذلك إلى تأكيد فكرة الحياة بعد الموت من خلال التجربة الحسية التي تركّز المبدأ في حياتهم، ليزداد إيمانهم به بعد الموت.

١٧. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ كما أحيى هذا الميت، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ ودلائل قدرته كما في هذه الحادثة التي تمثل معجزة إحياء الميت، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتحركون عقولكم في التفكير في تخطيط المنهاج الفكري العقيدي في قضية الإيمان باليوم الآخر، على أساس المقارنة بين عملية الإيجاد التي هي دليل على القدرة في عملية البحث، وبين التجربة الحية الماثلة أمامهم التي تكون دليلا على طبيعة التجربة الكبرى التي جاءت بها، وهذا تأكيد لدور العقل في مسألة العقيدة التي تستطيع أن تأخذ من حركته في القضايا الفكرية الأساس القوي الذي يركز الفكرة على قاعدة ثابتة لا تهتز تحت تأثير الأهواء والعواصف.

الخليلي:

ذكر أحمد الخليلي (ت ١٤٥٥ هـ) في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذه القصة من الأحداث الواقعة في عهد موسى عليه السلام، ذكرت بعد سابقتها مع تقدمها عليها بقرون، لأن القرآن الكريم لا يراعي في ذكره الأحداث تسلسل وقوعها وإنما يأتي بها للعبرة والذكرى.

٢. يلحظ اختلاف هذه القصة عن سوابقها في العرض، فقد تميزت عنها ببيان وتفصيل لم يكونا للقصص المتقدمة، وهذا لأن سائر هذه القصص جاءت مفصلة في القرآن المكي، فاكتفى بالإشارة إليها هنا، عرضا للتنبيه والذكرى وإقامة الحجة على بني إسرائيل المعارضين للوحي الذين كانوا مقصودين بهذا الخطاب بينما لم يكن ذكر لهذه القصة في غير هذا الموضع، فكانت جديرة بهذا البيان.

٣. هي كسائر القصص المذكورة ترسم صورة في مخايل قرائها وسامعيها للنفوس الإسرائيلية وما اعتادته من العنت والإلحاح وعدم الاقتناع والوثوق بأقوال الرسل، وما ينشأ عنه ذلك من تبلد الأذهان وزيغ الأفكار وخبث الطوية وجفاء الطبع.

٤. لعل بعض الذين قي قلوبهم مرض حاولوا الطعن والتشكيك في القرآن لذكره هذه القصة مع

---

(١) تفسير الخليلي: ٣/٣٦٧.

خلو التوراة منها، وكفى ردا عليهم أن القرآن أعظم حجة وأنصع برهانا من كل كتاب، فإن الله تكفل بحفظه من كل عابث ومحرف، ولم يكن هذا الصون والرعاية للتوراة ولا لغيره من الكتب السابقة، فكم فيها من تحريف وتبديل وزيادة ونقص؟ فغير بعيد أن تكون من ضمن ما انتزعته الأيدي المحرفة من التوراة على أن محمد عبده وابن عاشور لم يستبعدا أن يكون في التوراة ما يشير إليها وهو ما في سفر التشريع الثاني (تثنية).

٥. بداية هذه القصة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، وإنما قدم اللاحق فيها على السابق رعاية للمقام، فإن ما ذكر من قبل كان نداء على بني إسرائيل بضلال الفكر وسوء التصرف في مواجهة ما يأمرهم به موسى عليه السلام عن الله عز وجل وما يجريه الله على يديه من آيات بينات تنادي بأنه رسول من الله لا ينطق إلا بوحيه ولا يتصرف إلا بأمره، وفي طي ذلك تذكير بآلاء الله الداعية إلى شكره بطاعة أمره والاستجابة لرسوله.

٦. ما ذكر هنا لا يختلف عن ها السياق فهو من ناحية خبر عن تعنتهم على نبيهم وإصرارهم على مخالفة أمره حتى فيما هم فيه أحوج ما يكونون إلى الطاعة والامتثال لدرء الفتن عنهم، ومن ناحية أخرى هو تذكير بالنعمة السابغة، وهي وجود المخلص لهم من شر أحاط بهم، فقد روي أن الحادثة المشار إليها ـ وهي وجو قتيل بين ظهرانيهم لا يعرفون قاتله ـ دفعت بأسباطهم إلى الفرقة والشقاق، فكان كل سبط يدفع التهمة عن أفراده ويقذف بها في صدر سبط آخر حتى كادوا يتداخلون بالسلاح لولا أن قيض الله من أولي الفطنة منهم من ردهم إلى الاحتكام إلى موسى عليه السلام.

٧. ذا هو رأي جمهور المفسرين في ترتيب القصة، وخالفهم فيه ابن عاشور قائلا: لا يخفى أن ما وجهوا به تقديم جزء القصة لا يقتضي إلا تفكيك القصة إلى قصتين تعنون كل واحدة منها بقوله: ﴿وَإِذْ﴾ مع بقاء الترتيب على أن المذام قد تعرف بحكاياتها، والتنبيه عليها بنحو قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فالذي يظهر لي أنهما قصتان أشارت الأولى إلى أمر موسى إياهم بذبح بقرة ـ إلى أن قال ـ وكانت القصة الثانية منة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسولهم بينهما الله لهم ليزدادوا إيمانا، ولذلك خُتم بقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وأتبعت بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وهذا التوجيه يفهم من قول القرطبي: ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على

حسب تلاوتها، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها)

٨. الظاهر أن الأمر بذبح البقرة لم يكن إلا إثر القتل ـ كما قال الجمهور ـ لأن استنكارهم إياه بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وتقصيهم في السؤال عن أوصافها كان ـ حسبما يتبادر ـ بسبب استغرابهم من مواجهة موسى عليه السلام شكواهم بهذا الأمر الذي لم تستسغه أفهامهم.

٩. اسم البقرة صادق على الذكر والأنثى من أفراد البقر خلافا لمن خصه بالأنثى كاختصاص الثور بالذكر.

١٠. قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ جوابا لموسى عليه السلام وهو يبلغهم أمر الله:

أ. قيل: فيه دليل على أنهم خلعوا ربقة الإيمان من أعناقهم، إذ كان لأمة مؤمنة ولا جماعة مؤمنة أن تقاتل نبيها بمثل هذا الجواب الجافي ولو صدر ذلك ممن سبق إيمانه لكان في عداد المرتدين.

ب. وقيل: لا يُعد هذا ارتدادا منهم ولم يكونوا بهذا القول مكذبين لرسول الله موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، وإنما ذلك مما تفرزه طبيعتهم الجافية، كقول أحد المنافقين عندما قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين (هذه قسمة ما أريد بها وجه الله)

١١. قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ إجابتهم هذه لنبيهم على ما أبلغهم إياه من أمر الله دليل على سوء معتقدهم في أنبيائهم حيث أجازوا عليهم الكذب على الله في مقام التبليغ عنه، وهو اعتقاد لا يجامع الإيمان إذ هو كفر صراح، وإن اعتذر لهم من اعتذر بأن ذلك جرى على ما اعتادوه من فضاضة القول الناشئ عن جفاء الطبع، وأن سببه ما رأوه بأنظارهم القاصرة من التباين بين طلبهم من موسى تعيين القاتل ورده عليهم بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، أو أنهم حسبوا هذا الرد دعابة منه عليه السلام لهم، أو أن في الكلام محذوفا تقديره الله أمرك أن تتخذنا هزوا، أو أنهم قصدوا بالاستفهام الاسترشاد لا الإنكار والعناد، وهذه المعاذير لا تغني فتيلا.

١٢. جواب موسى عليه السلام لهم بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يقتضي أن الاستهزاء ليس من شأن العقلاء العالمين وإنما هو من شأن السفهاء الجاهلين فكيف يصدر من نبي مرسل في مقام الدعوة إلى الحق وتبليغ أمر الله، وهو وإن أسند إلى الله في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فليس هو على

حقيقته وإنما أريد مجازاتهم على استهزائهم، واستعاذته عليه السلام من كونه من الجاهلين في هذا المقام مشعرة بأن الجهل لا ينحصر في عدم المعرفة بالشيء أصلا وهو من شأنه أن يعرف، وفي اعتقاده بخلاف ما هو عليه بل يطلق الجهل على الإتيان بالشيء بخلاف ما كان ينبغي إتيانه، لأنه مما لا يصدر عادة من الجاهلين به وصدوره من العارفين به يلحقهم بمصاف الجاهلين، إذ لا تعد الخبرة بالإتقان مع عدمه شيئا.

١٣. مراده عليه السلام بالجاهلين هنا الجاهلون بأمر الله الذين يهرفون بما لا يعرفون، فيأتيهم بالهزل في مقام الجد ويلبسون الحق بالباطل، أو الجاهلون بجواب ما سأل عنه بنو إسرائيل من شأن القتيل الذي لم يعلم قاتله، ذلك لأنهم لم تمتد أنظارهم القاصرة إلى بعد خطابه، ولم تصل أفهامهم إلى حقيقة مراده.

١٤. بعد هذا الجواب الجاد انتبهوا إلى أن الأمر بعيد عن الهزل وأدق من أن تدركه مشاعرهم الغليظة، فاستسلموا مع شيء من العناد يتمثل في هذا التقصي في طلب كشف أوصاف البقرة التي أمروا بذبحها، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

١٥. ليس الاستفهام بها هنا عن الماهية، وإنما هو عن أوصافها ذلك لأن ما يستفهم بها عن الصفة كما يستفهم بها عن الماهية، فلو تحدث متحدث عن حاتم فسأله سائل: ما حاتم؟ كان جوابه: كريم، وكذا لو سأل أحد عن الأحنف، وهو يعلم أنه من جنس البشر بقوله: ما الأحنف؟ فجوابه: حليم، ولكل شيء أوصاف متعددة يجوز السؤال عن كل نهى بـ (ما)

١٦. علم الله الوصف الذي هم قاصدوه بهذا الاستفهام الذي منشؤه حيرتهم، من كون معرفة قاتل ميتهم تكون بإماتة حي من جنس البقر، إذ لا علاقة بين الأمرين حسبما يبدو قبل الاطلاع على سر أمر الله، وتتضاعف هذه الحيرة إن كانوا سمعوا من موسى عليه السلام أن بذلك يتم إحياء الميت المقتول بضربه بجزء من البقرة المذبوحة، فإن تصور حياة ميت بضربه بجزء من ميت آخر لا يكون مع الالتفات إلى طبيعة تأثير الأسباب في مسبباتها، وإنما يحصل ممن آمن إيمانا مطلقا برب الوجود الذي يهيئ ما شاء من الأسباب لما يشاء من لمسببات من غير تقيد بسنة مألوفة ونواميس معروفة، وقد كان استفهامهم عن السن فأجيبوا بقوله: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾

١٧. الفارض: ما تعدى سن القوة والفتوة إلى سن الضعف والشيخوخة، وقد يطلق على القديم لو كان أمرا معنويا.. وأصله الفرض بمعنى القطع لأن المسنة قطعت غالبا العمر المعتاد.

١٨. البكر الفتيُّ، ويطلق على الذكر والأنثى وهو مأخوذ من البكرة بمعنى الغدو، لأن البكر في أول مراحل العمر.

١٩. دخول (لا) على الوصفين لنفيهما وإثبات وصف آخر بينهما، وهو المصرح به بقوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي نصف متوسطة بين الفتوة والهرم، ويطلق العوان على النصف من النساء والحيوان، ومنه المثل ﴿العوان لا تعلم الخِمرة﴾، ومن حيث كون هذه المرحلة متميزة بالقوة أطلق هذا الوصف على ما هو شديد الوطأة كقولهم (حرب عوان)

٢٠. فسر أهل التفسير الفارض بالهمرمة التي لا تلد لكبرها، والبكر بالصغيرة التي لم تصل إلى حد الولادة، وخالفهم السُّدي في البكر فقال ـ فيما أخرجه ابن جرير عنه ـ إنها التي لم تلد إلا مرة واحدة، وما قالوه أنسب بالمعروف في الاستعمال فإن المتداول لغة وعرفا أن البكر من الإناث ما لم يفتحله الفحل سواء في الآدميات أو البهائم.. وفسروا العوان بالتي ولدت مرة أو مرتين، والظاهر أن وصف العوان ينطبق على كل والدة إلى أن تصل إلى حد ما لا يلد للبكر، لأن هذه المرحلة متوسطة بين البكارة والهرم.

٢١. ﴿بَيْنِ﴾ للتوسط بين شيئين فصاعدا، وإنما أضيفت هنا إلى اسم الإشارة الذي للمفرد المذكر لأن الوصفين المذكورين من قبل ـ وهما الفارض والبكر ـ بانقضاء ذكرهما كانا كالشيء الواحد المعبر عنه بما تقدم أو ما ذكر، فلذلك جازت الإشارة إليهما بصيغة المفرد المذكر كما جاز عود الضمير المفرد المذكر إلى شيئين تقضي ذكرهما.

٢٢. في قول موسى عليه السلام لهم إثر ذلك ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ استحثاث لهم على الامتثال وإشفاق عليهم مما يترتب على ترددهم من العقوبة بتغليظ التكليف الذي كانوا بمنأى عنه أول الأمر، وإنما طرأ عليهم تأديبا لهم على تعنتهم في المسألة، ولكن أنى لهم ذلك، وقد عودوا أنفسهم الاستخفاف بأمر الله والتنطع على رسله حتى فسدت فطرتهم وانطمست بصيرتهم فصار ذلك جزاءا من جبلتهم.

٢٣. لم يقنعوا بهذا البيان فأردفوا السؤالين السابقين بسؤال ثالث هو من حيث الصيغة لا يختلف عن الأول: ﴿داع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾، غير أنه له مضمون آخر غير المضمون السابق، وهو حال البقرة من حيثية التعامل معها هل هي مذللة أو مدللة، وقد أحسوا ـ وهم يوجهون هذا السؤال إلى موسى عليه السلام بما يتفاعل في نفسه من الأسى والحسرة على هذا التقصي في البحث فاعتذروا إليه بقولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ

تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وأردفوه قولهم: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لينشط في دعائه ربه بأن يبين لهم ما يطلبون ولينجلي عن قلبه غيم السآمة من مراجعتهم المتتابعة برجائه امتثالهم الذي أخذت تظهر تباشيره وتزحف طلائعه لا سيما أنهم جاؤوا بما لم يعهد منهم من قيل من لطف القول، وحسن الوعد، ورعاية جانب مشيئة الله سبحانه فيما هم طامعون فيه من الهداية.

٢٤. علم الله ماذا يعنون بمسألتهم، فأجابهم بما يشفي غليلهم، وهو أن تلك البقرة من النوع المدلل من الحيوان، فهي ليست ذلولا، والذلول ما لان وانقاد من الذِّل ـ بالكسر ـ بمعنى الانقياد وعدم العتو، يقال ذَل الثور والفرس ونحوهما لصاحبه ذِلا لان له، أما الذُّل ـ بالضم ـ فهو بمعنى الهوان، كقولهم: ذَل الرجل بعد عزته ذُلا إذا هان، وهذا الوصف يقتضي عتوها لعدم ترويضها بالعمل كالبقر العوامل، وبين ذلك في قوله: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، فهو وصف لذلول داخل في حيز النفي.

٢٥. المراد بإثارة الأرض قلبها لأجل الحرث، ولا يكون إلا ببقرة مذللة، وروي عن الحسن أنها كانت بقرة وحشية، فلهذا وصفها بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث، أي لم تعد للحرث ولا للسَّني، وذهب بعض أهل التفسير إلى أن جملة ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ خارجة عن حيز النفي وصفت بها البقرة المطلوبة، وعليه فالوقف على ذلول، محمل هذا التفسير على أنها كانت حارثة غير ساقية، وهو مردود لوجهين:

أ. أولهما: أن الجملة المعطوفة عليها منفية ولا تجتمع جملتان أولاهما مثبية، وثانيتهما منفية بـ لا مع عطف المنفية على المثبتة بالواو إلا إذ كان في نفي الثانية تأكيد لإثبات الأولى نحو محمد يقوم ولا ينام، وما هنا بخلاف ذلك.

ب. ثانيهما: أن الله قد نفى عنها الذل، وفي إثبات إثارتها للأرض إثبات لهذا النفي.

٢٦. ذهب بعض المفسرين إلى جواز كونها تثير الأرض مرحا ونشاطا بقرونها وأظلافها، لا لأجل تهيئتها للحرث، وهو رأي سائغ ولكن القول الأول أنسب بنسق الكلام وأسبق إلى احتلال الأفهام.

٢٧. وصفها بأنها ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾:

أ. قيل: لتبرئتها من العيوب التي تكون في جنسها.

ب. وقيل: إن أهلها سلموها من الخدمة والاستعمال.

ج. وقيل: مسلمة من شوائب الحرام، فلا غصب فيها ولا سرقة.

د. وقيل: مسلمة من الشيات، وعليه فقول: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ بيان لـ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، وعلى ما سبق صفة أخرى لبقرة.

٢٨. الشية مصدر وشى، كعدة وعظة، وبمعناه الوشي وهو خلط اللون بألوان أخرى، ولذلك سُمي به التطريز لأن من عادته أن يجمع بين ألوان مختلفة، ومفاده خلوص صفرة تلك البقرة بحيث لم تُشب بأي لون من الألوان الأخرى، وهو مما يندر جدا، ولذلك قال من قال إنها لم تكن من بقر الدنيا بل أنزلها الله من السماء، وقد أجاد الألوسي في وصفه هذا القول بأنه هابط في تخوم الأرض، وقيل: كانت بقرة وحشية، وهو ـ مع بعده ـ أقرب مما قبله.

٢٩. تتابع التأكيد بأنّ في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وما بعده من خطاب موسى لهم المحكي هنا قاض عليهم بالغباوة البالغة والعناد المتناهي، إذ لو كانوا أولي فطنة وانقياد لكانوا في غنى عن مثل هذا الخطاب المتكرر المقترن في كل مرة بآلة التأكيد الذي لا يخاطب بمثله إلا من استحكم فيه الغباء، واستبد به التعنت.

٣٠. بعد أن انسدت في وجوههم الأبواب بما ووجهوا به من جواب عن كل مسألة جاؤوا بها: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، ومفهوم قولهم هذا أن ما جاء به من قبل لم يكن حقا، ولذلك حكم عليهم قتادة أنهم كفروا به، ولم ير ذلك غيره وإنما حملوه على ما أعتيد منهم من سوء القول الناشئ عن جفاء الطبع.

٣١. اختلفوا في المقصود بالحق؛ منهم من حمله على الحقيقة، أي الآن جئت بالحقيقة الناصعة، ويقرب منه قول من قال إنه بمعنى القول المطابق للواقع، وفسره بعضهم بمعنى الأمر المقضي أو اللازم، وذلك أنهم لم يجدوا مناصا عنه بعد هذه المعاذير التي جاؤوا بها في صورة الاستفهام عن حقيقة ما طولبوا به، وجوز الإمام ابن عاشور أن تكون الآية حكت معنى ما عبر عنه اليهود لموسى بلفظ هو في لغتهم محتمل للوجهين، فحكى بما يرادفه من العربية تنبيها على قلة اهتمامهم بانتقاء الألفاظ النزيهة في مخاطبة أنبيائهم وكبرائهم كما كانوا يقولون للنبي ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ فنُهِّينا نحن عن أن نقوله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾

٣٢. هيأ الله لهم البقرة الجامعة لما ذكر من الأوصاف: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، وقد كان تيسيرها لهم فضلا من الله ورحمة، إذ اجتماع هذه الأوصاف جميعها في بقرة واحدة من الندرة بمكان، وقد

بالغ المفسرون في تحديد ثمنها الذي بذلوه فيها، وجاؤوا في ذلك بأقوال شتى حتى قال من قال منهم اشتروها بملء مسكها ـ جلدها ـ ذهبا، وقال بعضهم: بوزنها من الذهب، وقال آخرون: بأضعاف ذلك، وهي جميعا أقوال لم تعززها أدلة لعدم ثبوت شيء من ذلك عن المعصوم ﷺ، ومثل هذا لا يوصل إليه إلا بالتوقيف، ولعلهم تلقفوا هذه الأقوال من أهل الكتاب، ويشهد له ما ساقوه من قصة طويلة عن البقرة وصاحبها الذي اشتريت منه، ليس إلى ذكرها من داع، ومهما يكن فإن ندرة هذا الوصف في البقر داع إلى أن يكون لها ثمن يتجاوز أثمان البقر المعتادة خصوصا عندما يعلم صاحبها ضرورتهم إليها فيشح بها عليهم استغلالا لحاجتهم، وما أوقعهم في ذلك إلا هذا العنت الطويل، وإثارة التساؤلات التي كانوا في غنى عنها لو أنهم سارعوا إلى الطاعة والامتثال، وكل هذا يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فإنه دليل على منتهى إبائهم ومبلغ عنادهم.

٣٣. (كاد) من أفعال المقاربة، ولعلماء البلاغة والإعراب فيما إذا جاءت منفية أو مثبتة بحوث واسعة ومداولات مشهورة:

أ. فكثير منهم قالوا هي معاكسة لسائر الأفعال فإثباتها نفي ونفيها إثبات، واعتبروا الآية دليلا على صحة ما قالوه، فهي هنا مُثبتة للفعل مع اقترانها بالنفي بخلافها في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، فإن خطف الأبصار والذهاب بها لا يكونان بالبرق وسناه.

ب. وذهب آخرون إلى إجرائها على الأصل المتبع في الإثبات والنفي، وحملوا قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، وقوله ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ على ثبوت المقاربة التي هي مدلول كاد، وحملوا النفي في هذه الآية على سابق حالهم عندما كانوا لا يفتؤون يوجهون إلى موسى عليه السلام أسئلتهم المعنة في التعنت والإعراض هروبا من الامتثال، وإصرارا على العصيان، وإنما طرأ الذبح بعد هذه الحال المؤيسة لكل ناظر في أمرهم من قبولهم لما طلب إليهم من الحق، وبين هذين الرأيين آراء أخرى لا داعي إلى ذكرها.

٣٤. التعبير بـ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بدلا من ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ في خاتمة هذه الآية لتجنيب القرآن التكرار الممقوت الذي لا يتلاءم مع بلاغة الكلام المعتاد فكيف بكلامٍ لا يصل إلى شأوه بيان ولا يقدر على مثله

لسان، ومؤدى العبارتين واحد.

٣٥. البقرة التي أُمروا بذبحها:

أ. قيل: لم تكن مقيدة بما وصفت به بعد من الأوصاف، فلو قاموا إلى أي بقرة فذبحوها لبغوا المطلوب وحصل لهم الامتثال، ولكنهم شددوا فشُدد عليهم.

ب. وقيل: هي معينة محدودة بأوصافها وإن لم تذكر أولا.

٣٦. لا ننازع في تعينها في علم الله سبحانه، ولكن ذلك لا يقتضي تعينها بموجب التشريع الذي خوطبوا به أولا، فلو أنهم قاموا إلى أي بقرة فذبحوها كانوا ممتثلين، ويدل عدم التعين في الحكم الأول والثاني أن موسى عليه السلام كان يستعجلهم امتثال الأمر بقوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ رغبة منه في مبادرتهم إلى الطاعة وخوفا من أن يفضي بهم تعنتهم في المسألة إلى الإرهاق في التكليف.

٣٧. استدلّ الفخر للقول بتعينها بأن الضمائر المتكررة في قوله: إنها بقرةٌ) عائد إلى نفس البقرة التي أمروا بذبحها لأنها جاءت ردا على سؤالهم بقوله: ﴿مَا هِيَ﴾، و ﴿مَا لَوْنُهَا﴾؛ وليس في ذلك من دليل لأنهم مأمورون بذبح بقرة في الجملة ومطالبون بأن يسارعوا إلى امتثال هذا الأمر، والأوصاف التي جاءت من بعد ما هي إلا كتخصيص للمعلومات المتعبد بها بعد إمكان امتثالها، وقد صرح الأصوليون بجواز تخصيص العام بعد العمل بعمومه، وهذا يعني أن التعبد أولا كان بالعموم ثم بخصوصه، ولما كانوا متعبدين بذبح بقرة من جنس البقر ـ ولكل فرد من هذا الجنس أوصاف يتميز بها ـ وأخذوا يسألون عن أوصافها ويبالغون في ذلك أعيد الضمير في الجواب الكشاف للأوصاف إلى البقرة التي أمروا بذبحها من غير لزوم بأن تكون البقرة التي خوطبوا بذبحها أولا محددة بهذه الأوصاف.

٣٨. اختيار البقرة للذبح في هذه القضية دون غيرها من سائر الحيوان ـ مع أن الله تعالى قادر على بعث ميتهم بما يشاؤه من الأسباب وبدون أي سبب ـ إما لتمحيص إيمانهم وابتلاء عزيمتهم فإن البقر عنصر مقدس بمقتضى عقيدة الكفر التي اعتنقوها حينما عبدوا العجل، فكان في ذبحهم لها تحقيق لتوبتهم مما كانوا فيه، وإما لكشف ما بهم من غباوة تثير استغراب من يسمع قصتهم ويقارن بين حاليهم؛ فموسى عليه السلام رسول من الله لا يتكلم إلا بوحيه، ولا يدعو إلا إلى هديه، وقد أبلغهم عن الله عز وجل أنه يأمرهم بذبح بقرة، وقد كان الواجب يقتضيهم أن لا يترددوا في امتثال الأمر، إذ لم يأمرهم إلا بمعقول

شرعا، ومقبول وضعا، فإن ذبح البقر أمر معهود بين الناس غير أنهم ما كان منهم إلا سوء الظن بالقائل والتعنت في الأمر بينما هم ـ عندما أمرهم السامري بعبادة العجل ـ لم يتعنتوا عليه ولم يسيئوا به الظن، بل اندفعوا إلى ما أراده منهم، متجاهلين للأوامر الشرعية ومتعامين عن البراهين العقلية، والقاضية بظلال ما كانوا يعملون.

٣٩. في هاتين الآيتين بيان الداعي لأمر بني إسرائيل بذبح البقرة المذكور في الآيات السابقة، وإيضاح للحكمة البالغة التي كانت تكمن وراء هذا الأمر، وذلك أن قتيلا من بني إسرائيل وجد على باب سبط من أسباطهم فشبت بينهم نار فتنة كادوا يصطلون بأوراها، فقد تدارأو مسؤولية قتله، وألقاها كل سبط على عاتق غيره من الأسباط مدعيا براءته منها براءة الذئب من دم يوسف، فما كان منهم إلا أن امتشقوا السيوف وشرعوا الأسنة وكادوا يتجالدون بالسلاح لولا عناية الله التي ساقت بعضهم إلى اقتراح التحاكم إلى موسى نبي الله ورسوله عليه السلام.

٤٠. عنى المفسرون بالمأثور بهذه القصة فأوردوها على وجوه شتى؛ فمن قائل: كان القاتل ابن أخ للقتيل، وقائل: كان ابن عمه، وآخرون ذهبوا إلى أن القاتل أكثر من واحد.

٤١. أمر الله أن يضرب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة، فانبعثت فيه الحياة بأمر الله، وفي طي هذا الأمر حكمة باهرة إذ لو كان الضرب ببعض حي لربما توهم متوهم أن الحياة سرت إلى الميت من ذلك البعض المضروب به وهو حي، أما والبقرة نفسها لم تعد حية فلا مجال للتوهم أن الحياة سرت إلى القتيل من ماسته لعضو حي، وهو من دواعي الإيمان بأن من وراء الأسباب مسببها، وأن الأسباب لا تؤدي إلى مسبباتها إلا بتقدير من العزيز العليم الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

٤٢. اختلف في البعض الذي ضربه على أقوال شتى، هل هو لسانها أو فخذها، أو البضعة التي بين كتفيها أو الغضروف الذي تحت أذنها أو عظم من عظامها أو غير ذلك؟ وهو خلاف مفقودة جدواه لأنه فيما لا يضر جهله ولا يفيد علمه، ولم يقم على شيء من هذه الأقوال دليل، وحسبنا أن نقف حيثما وقف بنا القرآن من الإجمال.

٤٣. ليس بين المفسرين القدامى والمحدثين خلاف في أن القتيل أحياه الله بهذه الضربة فعين قاتله ثم عاد إلى الموت، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، اللهم إلا ما كان

من صاحب المنار من ربط هذه القصة بما ذكرته من قبل عن التوراة فيما إذا وُجد قتيل في أرض إسرائيلية ولم يعلم قاتله من لزوم ذبح أهل أقرب مدينة إلى موضع القتيل عجلة من البقر، وتفسيرها بما يتلاءم مع أذواق المفكرين المعاصرين الذين لا يؤمنون بخوارق العادات.. وهذا التفسير بعيد عن الواقع ومجانب لمدلول القصة حسب نصها القرآني، فإن الفارق واضح جدا بين قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾، قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، ففي الأول نص على أن ذلك كان إحياء بعد موت بخلاف الثاني.

٤٤. ذكر المفسرون أن القاتل أخذ بجريرته فقتل بعدما أخبر عنه الميت ولا يستفاد شيء من ذلك من نص الآية، ولم يستندوا فيه إلى دليل من السنة، ومثل هذه الأخبار لا يجوز الجزم فيها بشيء من غير توقيف، فإنه من المحتمل أن يكون الخصوم تراضوا في هذه القضية على ما دون القصاص.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ تشبيه للإحياء بالإحياء، من حيث اتساع القدرة الإلهية لهما، وقيام البرهان من هذا الإحياء المقيد في الدنيا على إمكان الإحياء المطلق في الآخرة، ولا ينبغي ذلك أن الإحياء يكون في الآخرة بنفس هذه الكيفية التي كان بها في الدنيا، وأنه يترتب على هذه الأسباب المذكورة، وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون إحياء هذا القتيل منوطا بهذه الأسباب، مع أنه تعالى قادر على إحيائه بدون سبب ذلك لأن الله أراد تعبدهم بهذه الأسباب، وعندما تلكأوا في امتثال أمره، وانتحلوا لذلك الأعذار التافهة شدد الله عليهم: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾

٤٥. سمى الله هذه الآية آيات في قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ لكثرة ما تدل عليه، فإنها دالة على قدرة الله تعالى على ما يشاء، وأن وراء الأسباب مسببها وأنه سبحانه محيط بكل شيء علما، فالقاتل ما كان يظن أن سريرته ستنكشف وجريرته ستظهر، وقد أبداها الله سبحانه لعلمه بجميع الخفايا، كما تدل على صحة نبوة موسى عليه السلام لأن الله أجراها على يديه، وعلى ثبوت المعاد الذي نبأ به المرسلون.

٤٦. هذا الخطاب يتحمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام لقومه بعدما ظهرت لهم هذه الآية الباهرة، وأن يكون من كلام الله أوحاه إلى موسى ليبلغه قومه، وهو الأظهر، والمخاطب على كلا الحالين بنو إسرائيل وشذ من قال إنه خطاب من الله للذين ينطرون البعث عندما أنزل الله القرآن على محمد ﷺ، وهم مشركو العرب، فإن السياق يأباه.

٤٧. المراد بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تتصرفون تصرف من يستفيد من عقله وينتفع

بتجاربه.

٤٨. الجمهور يرون أن قصة القتل هذه هي جزء من القصة السابقة، وهي أمرهم بذبح بقرة، وإنما فائدة تقسيمها إلى ما يشبه القصتين المستقلتين تكرار توبيخهم على أمرين وهما مماطلتهم في امتثال الأمر بذبح البقرة، وصدور القتل بغير حق منهم، ولو أدمجت القصتان في قصة لفات ما يفيده التكرار من زيادة تقريعهم، وقد سبق ذكر رأي ابن عاشور، وهو أنه يرى أنهما قصتان مستقلتان، وتجويز القرطبي لذلك، وجوزه أبو حيان أيضا.. وما قاله الجمهور أصح وأبين، ولا إشكال في مخالفة الترتيب الذكري للترتيب الزمني، لأن الواو لمطلق الجمع، وقد يعطف بها السابق على اللاحق مراعاة للطائف بيانية، ومنها هنا أن الأمر بذبح البقرة من غير تقدم ذكر لأسبابه يشوق النفوس إلى الاطلاع على حكمته خصوصا عندما يرد ذلك في كلام الحق تعالى الذي لا يدانيه الباطل ولا يلابسه الهزل، ولا يحوم حوله الريب، فإذ أتبع ذلك ذكر سببه كانت النفوس أوعى للحكمة، وأفهم للمقصد.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة أخرى من حوادث تاريخ بني إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه في الآيات السابقة، ولعله يعود إلى أن هذه الحادثة ذكرت في هذا الموضع ـ لا غير ـ من القرآن الكريم، وإلى أنها تتضمن عبرا كثيرة تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بني إسرائيل وعنادهم، ومستوى إيمانهم بكلام موسى عليه السّلام، وأهمّ من كل هذا البرهنة على إمكان المعاد.

٢. الحادثة (كما يبينها القرآن وكتب التّفسير) على النحو التالي: قتل شخص من بني إسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل، حدث بين قبائل بني إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الأخرى بالقتل. توجّهوا إلى موسى ليقضي بينهم. فما كانت الأساليب الاعتيادية ممكنة في هذا القضاء، وما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بني إسرائيل. لجأ موسى ـ بإذن الله ـ إلى طريقة إعجازية لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة.

٣. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي إن الاستهزاء من عمل الجاهلين، وأنبياء الله

---

(١) تفسير الأمثل: ١/٢٦٦.

مبرّؤون من ذلك.

٤. بعد أن أيقنوا جديّة المسألة، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، وعبارة (ربك) تتكرر في خطاب بني إسرائيل لموسى، وتنطوي على نوع من إساءة الأدب والسخرية، وكأن ربّ موسى غير ربهم!

٥. موسى عليه السّلام أجابهم: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي إنها لا كبيرة هرمة ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ .

٦. لكن بني إسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾؟

٧. أجابهم موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

٨. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

٩. لم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصرّوا على لجاجهم، وضيّقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم، عادوا و ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ طالبين بذلك مزيدا من التوضيح، متذرعين بالقول: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

١٠. أجابهم موسى ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي ليست من النوع المذلل لحرث الأرض وسقيها.. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب كلها.. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا لون فيها من غيرها.

١١. حينئذ: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ .. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي أنهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

١٢. (السّؤال) دون شك مفتاح لحل المشاكل، ووسيلة لإزالة الجهل والإبهام، لكنه مثل بقية الأمور، إن تجاوز حدّه وجاء في غير موضعه فإنّه يدلّ على الانحراف ويؤدي إلى أضرار، ومن ذلك ما نراه في هذه القصة.

١٣. بنو إسرائيل أمروا أن يذبحوا بقرة، وكان بإمكانهم أن يذبحوا أيّة بقرة شاءوا، لأن الأمر

الإلهي لم يحدّد شكل البقرة ونوعها، ولو أراد الله بقرة بعينها لحدّد مواصفاتها حين الأمر. لكن الله أمرهم أن يذبحوا (بقرة)، وصيغة التنكير تدل على عدم إرادة التحديد.

١٤. هؤلاء المعاندون أبوا إلّا أن يطرحوا أسئلة متكررة، أملا في تضييع الحقيقة وإخفاء القاتل، وبقوا يصرون على ترددهم في الذبح حتى النهاية، وهذا ما تشير إليه عبارة: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

١٥. في الآيات ما يشير إلى أن مجموعة من بني إسرائيل ـ على الأقل ـ كانت تعرف القاتل، وقد يكون القتل قد تمّ بمؤامرة بين هؤلاء الأفراد، لكنهم كانوا يكتمون الأمر، ولهذا يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .. أضف إلى ما سبق أنّ أهل العناد واللجاج يكثرون دائما من الجدل والاحتجاج على كل شيء.

١٦. ثمة قرائن في الآيات توضح أن هؤلاء القوم لم تكن لهم معرفة كاملة بالله، ولا بالنبي المرسل إليهم، لذلك قالوا له بعد كل أسئلتهم: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، وكأنّ ما جاء به حتى ذلك الوقت كان باطلا!

١٧. الملاحظ أن الله سبحانه ضيّق عليهم دائرة الانتخاب، واشتد بذلك عليهم التكليف كلّما زادوا في أسئلتهم، لأنهم مستحقون لمثل هذا العقاب، ولذلك نرى في الأثر حثّ على السكوت عمّا سكتت عنه الشريعة، ففي ذلك حكمة، عن النّبي ﷺ: أنّهم أمروا بأدنى بقرة ولكنّهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم)

١٨. كان تكليف بني إسرائيل مطلقا غير مقيّد بمواصفات معيّنة لكن لجاج هؤلاء ضيّق عليهم الدائرة وغيّر عليهم حكم التكليف.

١٩. إلى جانب هذه الحقيقة، ثمة حقيقة اجتماعية قد يمكن استنتاجها من الأوصاف التي ذكرت للبقرة، يبدو أن القرآن يريد أن يبين أنّ البقرة التي كتب لها أن تحيى فردا ميّتا ينبغي أن لا تكون ﴿ذَلُولًا﴾ أي تأبى التسليم والخضوع الأعمى.. كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه ألوان أخرى.. وهذا يعني أن القائد الذي يستهدف إحياء المجتمع ينبغي أوّلا أن يكون متحررا من تأثيرات الضغوط الاجتماعية التي يمارسها أصحاب الثروة والجاه والقوّة، وأن يستسلم لله وحده دون أن تأخذه في ذلك لومة لائم، كما أن

القائد يجب أن يكون مبرّأ من أي لون غير اللون التوحيدي، ومثل هؤلاء الأفراد فقط يستطيعون أن يعالجوا أمور النّاس باتزان واعتدال ويبعثوا في قلوب وأفكار أمّتهم الخصب والحياة، أما المنشدّ بنير الدنيا والخاضع لها والمشوب بالألوان والأهواء فلا يستطيع أن يحيي القلوب الميتة، ولا يقدر أن ينهض بدور الإحياء.

٢٠. هذه القصة لها دلالات على قدرة الله اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد، ولذلك ورد فيها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ إشارة إلى مسألة المعاد، وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ تأكيد على قدرة الله وعظمته.

٢١. هذه القصة تتحدث عن سنّة من سنن الله تعالى، وهي أن الامّة تستوجب غضب الله حين تصرّ على عنادها ولجاجها واستهتارها بكل شيء.

٢٢. العبارات التي وردت على لسان بني إسرائيل في هذه القصة توضّح أن هؤلاء القوم بلغوا الذروة في إهانة النّبي، بل وبلغت بهم الجرأة إلى إساءة الأدب تجاه ربّ العالمين:

أ. في البداية قالوا لنبيّهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟ وبذلك اتهموا نبيّهم بارتكاب ذنب الاستهزاء بالآخرين.

ب. وفي مواضع عديدة خاطبوه بعبارة ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، وكأن ربّ موسى غير ربّهم، مع أن موسى قد قال لهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ .

ج. وقالوا له أيضا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ويعنون بذلك أنّ كلام موسى أدّى إلى ضلالهم في تشخيص البقرة.

د. ثمّ يخاطبوه في النهاية: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ .

هذه التعبيرات تدل على جهل هؤلاء القوم وتعنّتهم وغرورهم ولجاجهم.

٢٣. هذه القصة من جهة أخرى تعلّمنا أننا ينبغي أن لا نتزمّت ولا نتشدّد في الأمور كي لا يتشدّد الله معنا.

٢٤. لعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل.

٢٥. يذكر المفسرون أنّ البقرة التي ذكرت الآيات مواصفاتها، كانت وحيدة لا تشاركها بقرة

أخرى في ذلك، ولذلك اضطر القوم إلى شرائها بثمن باهظ، ويقولون: إن هذه البقرة كانت ملكا لشاب صالح على غاية البرّ بوالده. هذا الرجل واتته سابقا فرصة صفقة مربحة، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقدا، وكانت النقود في صندوق مغلق مفتاحه تحت وسادة والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده نائما، فأبى إيقاظه وإزعاجه، ففضّل أن يترك الصفقة على أن يوقظ والده.. وقال بعض المفسرين: كان البائع على استعداد لأن يبيع بضاعته بسبعين ألفا نقدا، ولكن الرجل أبى أن يوقظ والده واقترح شراء تلك البضاعة بثمانين ألفا على أن يدفع المبلغ بعد استيقاظ والده، وأخيرا لم تتم صفقة المعاملة، ولذا أراد الله تعالى تعويضه على إيثاره هذا بمعاملة أخرى وفيرة الربح.. وقالوا أيضا: بعد أن استيقظ الوالد وعلمه بالأمر، أهدى لولده البقرة المذكورة، فدّرت عليه ربحا عظيما)، وإلى هذه القصّة يشير رسول الله ﷺ إذ يقول: انظروا إلى البرّ ما بلغ بأهله)

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢ ـ ٧٣]

٢٦. بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخص الحادث بآيتين: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي فاختلفتم في القتل وتدافعتم فيه.

٢٧. تذكر كتب التأريخ والتّفسير أن دافع القتل في هذه الحادثة إمّا المال، أو الزّواج، من المفسرين من قال إنّ ثريا من بني إسرائيل لم يكن له وارث سوى ابن عمه، فطال عمر هذا الثري ولم يطق الوارث مزيدا من الانتظار، فقتله خفية ليحصل على أمواله، وألقى جسده في الطريق، ثم بدأ بالصراخ والعويل، وشكا الأمر إلى موسى.. وقال آخرون: إن القاتل أراد أن يتزوج من ابنة القتيل، فرفض ذلك، وزوّج ابنته إلى أحد أخيار بني إسرائيل. فقعد له وقتله، ثم شكا القاتل الأمر إلى موسى.

٢٨. من الممكن أن تشير القصة إلى حقيقة هي: إن كل المفاسد والجرائم مصدرها في الغالب أمران: الطمع في المال، والطمع في الجنس.

٢٩. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كي يحيى ويخبركم بقاتله.